

خاتم الـورات المحمدين

الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة / 002 022 3901030

الإهداء

إلى المجاهد الأكبر، والعقل الذى استنار بأنوار اليقين، والقلب الذى حمل الأمانة فأداها، واليد التى ما كفت عن الإحسان يوماً، والهمة السامية العالية التى شهد لها العدو قبل الصديق.

إلى الواصل لرحمه، والمحسن لأهله، والبار بأبيه وجده.

إلى سيدى ومولاي السيد عز الدين ماضى أبى العزائم رحمته الله، أهدى هذا الكتاب الذى كان يحلم طوال حياته أن يراه خارجاً للنور.

وأدعو الله تعالى أن يعيننى على الوفاء بعهده، واستكمال مسيرته، والقيام بحقوق تبعته، وأوجه إليه سبحانه وجهى، وأسند إليه جل شأنه ظهري، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

فاتحة الكتاب

الحمد لله الذى نظر بعين العناية لأهل الخصوصية فجمعهم بحل الهداية، ومنحهم التوفيق والإقبال على ذاته العلية بإخلاص نية.

و الصلاة والسلام على شمس الهداية، صراط الحق المستقيم، الدال على الله بالله، وحصن الأمن الحصين الذى من خالفه ضل وغوى ومن اتبعه أحبه الله وهداه، سيدنا ومولانا محمد، عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم..

وبعد:

تقدم دار الكتاب الصوفى التابعة لمشيخة الطريقة العزمية الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذى طال انتظاره قرابة الستين عاماً.

و إنه من الواجب وقبل كل شئ أن نخطط إخواننا الذين لم يعاصروا الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام، وكذلك الذين لم يدركوا من زمنه إلا النذر اليسير، والذين لم يعاصروه، أن يتعرفوا على نشأته الأولى، ودراسته التى حصل فيها العلم إلى أن عمل بالتدريس، وجهاده فى استمرار نشر الدعوة إلى الله ورسوله، إلى أن لقي ربه.

وهذه العناصر الرئيسية:

١. نشأته عليه السلام.
٢. دراسته وتحصيله للعلم ومناهل العرفان.
٣. عمله بالتدريس فى البلاد المصرية وغيرها.

٤. جهاده رضى الله في نشر الدعوة الإسلامية وتحديد ما اندرس من الدين.

هذه العناصر هي غاية ما نقصده من كتابنا هذا، لنضع بين يدي القارىء صورة كاملة لحياة الإمام المحدثى نسباً ومنهجاً وسلوكاً، بعد أن لعبت السياسة دورها، وأدت وسائل الإعلام وقتها وظيفتها في إخفاء دوره وإسداد الستار على سيرته. وأملنا أن يتذوق القارىء حقيقاً طهوراً من صافى عناية الله بأحبابه الأطنهار والمصطفين الأخيار. ومن المعلوم أنه عندما يراد إنزال زعيم أو قائد فكر أو مصلح اجتماعى أو رجل دين مثله، فإنه يجب النظر إلى ما قدمه من أعمال للنهوض بالإنسانية ونفع المجتمع البشرى والدعوة إلى الخير والسهر على ما يحقق لبنى الإنسان سعادتهم.

و إن كان الأمر كذلك، فكيف نزل الإمام السيد محمد ماضى أبا العزائم عليه السلام مثله من خلال حقه من الزمن بلغت سبعين عاماً لا يزال تأثيرها سار حتى الآن بما خلفه عليه السلام وتركه من تراث فكرى، نثرى ونظمى، احتوى مختلف جوانب الحياة بعلومها وفنونها، فأصبح بحق جامع وجامعة يستحق الدراسة للوقوف على جوانب العظمة فيها، فلو تفرغ نفر من علماء الدين واللغة والأدب والسياسة والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والفلسفة والتاريخ... إلخ كل فى تخصصه لدراسة جوانب الشخصية المتعددة وآثارها، لما وسعتهم السنون، ولما أسعفتهم الأوراق والأخبار والأفلام.

وقد أبى الله إلا أن يتم نوره ويظهره على كل الأنوار، وتلك حكمة الله فى خلقه ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ **فاطر: ٢**، وبعد هذا السبات الطويل قيض الله سبحانه وتعالى ولأول مره مجموعة من باحثى الماجستير

والدكتوراة، فحاموا حول الحمى ودندنوا ثم انصرفوا، فمنهم من قام بدراسة مواجيدته القلبية (وهي قصائد الوجد) والتي تعد بالآلاف، فما كان منه - وجزاه الله خير الجزاء - إلا أن قام هو ومشرفوه بأقصى مجهود ممكن لكنهم اهتموا بظاهر المواجيد وأرادوا قياسها بمعايير الشعر فبهروا من شدة ما لاحظوا، ومنهم من اهتم بنشر الإمام، فاختلقت المعايير التي يقيس بها ما لاحظ في هذا النشر الراقى، ومنهم من قام بدراسة الدور الفكرى والتربوى والسياسى والاجتماعى والفنى وخلافه، فجزاهم الله خيراً، فإن أول الطريق الطويل خطوة.

و من كبار الشخصيات الدينية التي تعرضت لسيرة الإمام وعلومه:

- الدكتور محمود الفحام شيخ الأزهر السابق، فيقول عن الإمام عليه السلام:
لقد عاصرت في شبابه فترة من فترات حياة الإمام المجدد، فلمست عن قرب جهاده في إعلاء كلمة الدين، وأسلوبه الحكيم في معالجة الأمور. بما يجب أن يكون عليه العلماء المرشدون والأئمة الصالحون.
- الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق عندما طلب منه أن يكتب مقدمة لكتاب أسرار القرآن قال: أنا لا أستطيع أن أقدم لتفسير أسرار القرآن للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام وأتحدث عن علما في تفسير القرآن، لأنه تفسير جامع وشامل، ولا يستطيع أن يُقدم لهذا العمل إلا الإمام أبى العزائم عليه السلام نفسه، فقد كتب عليه السلام مقدمة للتفسير ولا يصلح أن يقدمه بعد ذلك أحد، وأرجوا ألا تطلبوا منى ولا من غيرى أن يقدم الإمام أبى العزائم عليه السلام.

• الدكتور مصطفى محمود بعد فترة من الإطلاع على الكتب والمواجيد الخاصة بالإمام أبي العزائم عليه السلام بدأ يكتب كتابه الشهير (السر الأعظم)، والذي يعتمد فيه على بحث واستقصاء لآراء الأقطاب الكبار الكامل من أهل الكشف والفتوحات ممن لاشك في مكانتهم العلمية وصدقهم، أمثال ابن عربي والغزالي والنقري والجيلي وابن الفارض وأبي العزائم عليه السلام، يقول الدكتور مصطفى محمود عن علوم الإمام:

((والإمام أبو العزائم عليه السلام يقول هذا الكلام عن علم كشف لدين، وهو في نظري كثر لم يكشف بعد، وقطب ينافس الفحول فكراً وعلماً وسلوكاً، وشعره لا يخضع للمواصفات الفنية للشعر، إنما هو شفرة ورموز عرفانية عالية يفهم منها كل واحد على قدر حظه. ونحن ما قدمنا من علم الرجل إلا نقطة من بحر)).

وتقديرًا لما قدمه الإمام، فقد منحت الدولة لاسم الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام نوط الإمتياز من الطبقة الأولى في احتفال ليلة القدر مساء الخميس ٢٦ رمضان ١٤١١هـ الموافق ١١ / ٤ / ١٩٩١م، وقد سلم السيد الرئيس محمد حسني مبارك هذا النوط إلى سماحة السيد عز الدين ماضي أبي العزائم عليه السلام حفيد الإمام وشيخ الطريقة العزمية وقتذاك.

وكما أن الحياة تستحيل بدون الشمس، إذ أن حركات الشمس وتنقلها في بروجها إنما هي لحفظ كيان الحياة الجسمانية، فإن حياة الرجال حتمًا هي قوت وغذاء للأرواح. وعند تعرضنا لتلك السيرة، هنا تبرز المواهب والفضائل والمكارم والمناقب والآداب لتفرض نفسها في مجالها، وتربيته وعلمه وحكمته، وغيرته في الله

ورسوله، وتفانيه في خدمة الإسلام والمسلمين، ورحمته باليؤساء والفقراء والأيتام، ورأفته بالعصاة والمذنبين حتى أنقذهم من بؤرة الفساد، وسياسته الحكيمة في نهضة الوطن، وقيادة الزعماء برأيه الصائب وفكره الثاقب.. كلها مواهب تفوق الحصر، وكذلك خدمته للصوفية والتصوف حتى أحيائها وأعادها شمسًا ساطعة بعد اندراسها وزوالها، وقد حولها المتمصوفة من حياة تجريد إلى حياة ثريد، ومن معرفة إلى خرافة، ومن حياة نور إلى معيشة ظلمة، ومن علم إلى جهالة، مما أدى بأهل الاستنارة في العالم الإسلامي إلى ازدياد التصوف وأهله مما شاهدوه من بدع وخرافات حيث كان مقصوراً على الدجل والشعوذة والطبول والدفوف.

إن الشخصية عظيمة، لأنها حوت من السمو والنبيل وكرم الأخلاق والعفة والزهادة وعزوف النفس عن النقائص ما يعرفه كل من خالطها عن كسب، حتى أعداؤه الذين عادوه وآذوه، فما فعلوا ذلك إلا غيرة منه. إمام ضحى بكل ما يملك من نفس ونفيس، فقد قام في كل أدوار حياته بسلسلة من الإصلاحات العظيمة حفظها له التاريخ وسجلها بمداد من نور لا يمحي على مر العصور والدهور. وكم أودى في سبيل الله فصير، وكم حاربه الاستعمار الباطش بشق الوسائل فصابر رابط الجأش قوى الجنان ثابت العزيمة لا يتطرق إليه الوهن ولا يعرف الضعف. ولازمه الثبات فكان في كل مواقفه قوى الإرادة وثابت العزيمة سامى النفس مؤمناً بحقه مؤمناً بواجبه لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يعرف في الحق هواده، ويقف أمام الخطوب النازلة بهذا الشرق موقف الأسد المصور الذى يزار دفاعاً عن العرين. وقد حباه الله من الصفات الرفيعة والأخلاق الكريمة وحسن الرعاية للمستترشدين ما حبيه إلى النفوس ورغبه إلى القلوب، حتى أن الكلمة الواحدة كانت تعمل في نفس سامعها. ولا غرابة في ذلك، فقد عرف أسرار الدين معرفة حققة، فهو رجل

شريعة من الطراز الأول وأستاذ لها، تبحر فيها وتضلع، فكانت منهجه الذى روض عليه نفسه قبل أن يقوم بتعليمه لغيره، ثم اغترف من عين الحقيقة، فصار عالماً ربانياً جمع ما بين الشريعة والحقيقة، وكان من نتيجة ذلك أن أفاض على الناس من بحر علمه وأغدق عليهم من جزيل معرفته، فاسترشدت به العامة وتبصرت به الخاصة، فكانت عظاته ونصائحه تصل إلى القلوب المريضة فتشفيها، وإلى النفوس العلية فتنعشها وتحييها، وإلى الطباع السقيمة فتنجب عنها غياهب الظلام، حتى هدى الله على يديه من الخلق وأسلم أيضاً على يديه مالا يأتى عليه الحصر، سواء فى مصر والسودان أو فى جميع أنحاء العالم.

نفعنا الله بعلوم إمامنا وأسراره ومدده، وجمعنا معه على سيدنا رسول الله ﷺ وآله في الدنيا والآخرة، وأبتهل إلى الله تعالى أن يمدنى دائماً بالتوفيق ويلحظ عملى بعين القبول إنه حميد مجيد.

دار الكتاب الصوفي

فى يوم الخميس

٢٧ رجب ١٤١٨هـ

ال خليفة الثالث

السيد محمد علاء الدين ماضى أبو العزائم

٢٧ نوفمبر ١٩٩٧م

تمهيد

هاجر آل بيت رسول الله ﷺ وآله إلى أفريقيا بعد أن دام الاضطهاد لهم من الأمويين والعباسيين على السواء، وظهرت أول دولة لآل البيت في التاريخ على مسرح إفريقيا، وفي مراكش بالذات عام ١٦٩-١٧٠هـ (٧٨٥-٧٨٦م) تحت اسم دولة الأدارسة في عهد خلافة الهادي بن المهدي. ففي عام ١٦٩هـ خرج الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب في المدينة على حكم العباسيين وأعلن أحقية بيته في الحكم وأن العباسيين لم يستطيعوا القيام بعبء رسالة الإسلام. وخرج مع الحسين بن علي من سارعوا بالاستجابة له والالتفاف حوله، فحاربوا معه إلى المدينة وانتصروا عليه، ثم ساروا إلى مكة فانضم إليهم كثيرون، ولكن العباسيين تمكنوا منهم جميعاً وقتلوهم وعلقوا رءوس مائة منهم وفي مقدمتها رأس الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ليدخل الخوف منها إلى قلوب الناس. وقد شهد هذه النهاية الحزينة للحسين: عمه إدريس، ورأى أنه لم يعد له في الجزيرة العربية مقام، فهاجر إلى مصر حين علم أن (واضح) وإلى القاهرة وكان محباً لآل البيت وينتصر لهم في غير ضجة، ولكن واضحاً قال له: إن الحال في مصر ليس مهيئاً لإعلان ظهوره والدعوة له، وأنه يرى من الخير أن يتوجه إلى المغرب الأقصى ليكون بعيداً ما أمكن عن عيون الخلافة العباسية، فخرج من مصر متنكراً ليس وراءه من أحد إلا تابع له يسمى (راشد)، وظل يواصل السير حتى استقر أخيراً في مدينة تسمى (دليلي) بالمغرب عام ١٧٢هـ .

لقد حظى آباء الإمام بعطف الحكام من المرابطين الذين أسسوا دولتهم بالمغرب بعد أن انتهت دولة الأدارسة، ودولة الفاطميين، ودولة زيري الصنهاجية في تونس

وشرقى الجزائر وكان المرابطون طلائع الفتح الإسلامى فى دول الدائرة الإفريقية الغربية حتى الاستوائية، فشعارهم جهاد النفس (الجهاد الأكبر) ^(١) لإعدادها لتحمل مشاق الجهاد الحق ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ **الحج: ٧٨** لنشر الإسلام، وحمل لواء هذه الرسالة فى إقامة دولة المرابطين داعية مخلص هو عبد الله بن ياسين وكان معه رجل أو بضعة رجال، فلما كثر الأتباع بين البربر وفى الصحراء الكبرى قامت بهم دولة المرابطين وبني عاصمة لهم فى مدينة مراکش ^(٢) . وفى سبيل نشر الإسلام قسم إخوان المرابطين أنفسهم قسمين:

(١) سار نحو الشمال بقيادة المرابط الورع يوسف بن تاشفين حيث وحد شمال المغرب الأقصى وسارع لنجدة المعتمد بن عباد وبعد سقوط طليطلة فى يد ألفونس الذى أتجه بعدها إلى أكبر ممالك الأندلس دولة العبادة بأشبيلية ليتلعبها فينتهى الإسلام بالأندلس، فعبر يوسف بن تاشقين البحر إلى الأندلس تلبية لاستغاثة ابن عباد وزحف بجيوش جراحة أبادت قوى الشر والشرك فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ وأفى جيش ألفونس بأكمله وكان ٥٠ ألف محارب.

(٢) سار على ساحل المحيط نحو الجنوب قاده أبو بكر بن عمرو فوصل إلى أحواض أنهار السنغال وجامبيا وغينيا، وبدأ ينشر الإسلام بين أهلها، وفتح الله عليهم أبواب أفريقيا الغربية والاستوائية، وتغلغلوا فى الصحراء ينشرون دين الله الخاتم ويسعدون الناس بتعاليمه السمحة بأسلوب صوفى بسيط بيناء الزوايا وجعلها منارات ومراكز دينية وتجارية يجمعهم أقطاب من الصوفية مثل سيدى أبى مدين

(١) روى البيهقى فى زهد من حديث جابر: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

(٢) كتاب "دولة الطوائف" ص ٣٠٣ - ٣٠٨ محمد عبد الله عنان.

الأندلسى أو سيدى الجزولى أو سيدى أحمد بن محمد التيجانى. وكذلك المرابطون يدينون بالمذهب المالكى، وهو المذهب الذى انتشر فى هذا الوقت فى المغرب العربى ونجح نجاحاً كبيراً فى الاحتفاظ للمجتمع المغربى بوحدته وقوته، ومن أتباع هذا المذهب كانت أسرة الإمام أبى العزائم عليه السلام، والإمام نفسه من بعدهم كان يدين بالمذهب المالكى.

هجرة الإمام أبى العزائم عليه السلام إلى مصر:

عاش أجداد الإمام أبى العزائم عليه السلام فى مدينة فاس ثم انتقلوا منها إلى قرية عين ماضى، وقد حظوا بعطف المرابطين الذين أسسوا دولتهم بعد الأدارسة. وفى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) زالت دولة المرابطين وحل مكانها دولة الموحدىين الذين اعتنقوا مذهب المعتزلة^(١) واضطهدوا العلماء من أهل السنة وحاربوا الفقهاء وحرقوا كتبهم

و شردوهم، عندئذ هاجرت أسرة الإمام مع كثير من أهل البيت من المغرب، إلى مصر التى سبقهم إليها الأئمة أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وأبو القاسم القبارى وأحمد البدوى رضوان الله عليهم أجمعين.

ووجد أهل البيت كل ترحاب من أهل مصر لأنهم جاءوا فى وقت عصيب وهو مطلع القرن السابع عشر، فها هم التتار فى أقصى الشرق يغيرون على الوطن

(١) القول المشهور إن هذا الاسم اطلق عليهم بعد واقعة اعتزال واصل بن عطاء لجلس البصرى فقال: اعتزلنا واصل، وقد أضافوا إلى أصول العدل والتوحيد والوعد والوعيد أصل المتزلة بين المتزلتين، وخالفوا فى حكم مرتكب الكبيرة، وتوقفوا فى تحديد الطرف المخطئ فى الصراع الذى دار بين سيدنا عثمان وخصومه وسيدنا على وخصومه، واعتمدوا على العقل ووثقوا بحكمه فى التحسين والتقبيح دون الحاجة إلى النصوص.

الإسلامى، والصليبيون فى الغرب يكيّدون للإسلام ويعدون العدة لغزو بلاد المسلمين.

وفى وسط هذا الجو الملبّد بالغيوم والملىء بالحزن والضيق من مكر الأعداء، وجد المصريون فى العترة النبوية الطاهرة طوق النجاة فتعلّقوا بأغصان هذه الشجرة المباركة يستمدّون منها العون والقوة الإيمانية لمواجهة الأعداء.

استقرار أسرة الإمام بقريّة محلة (أبو على) :

استقرّ الجد الرابع للإمام أبى العزائم عليه السلام (السيد ماضى) بعد أن هاجر من المغرب إلى مصر بقريّة (محلة أبو على)، وهى إحدى القرى التابعة لمركز دسوق حالياً بمحافظة كفر الشيخ (مديرية الغربية سابقاً). وقد قوبل السيد ماضى بالحفاوة والتكريم بوصفة من الأشراف الذين ينتمون لآل البيت.

و قد اتخذت بلدة (محلة أبو على) وضعاً ممتازاً بالنسبة لإقليم الغربية كلة منذ العصور الإسلامية الأولى، فقد بنى بها أول مسجد بعد الفتح الإسلامى مباشرة فى زمن عمرو بن العاص، وكان هذا المسجد بمثابة أول جامعة إسلامية يؤمها الطلاب من كل حذب وصوب. وقد اشتهر علماء هذا الإقليم بغزارة العلم والتقوى والورع والزهد، وإمتلأت قلوبهم بالصفاء والرحمة على العباد، وجملهم الله بحلل الأبدال وكمال الأقطاب، لهم نور فى البصائر يكشف الأمور الخفية، ولهم لسان ذاكر يذكر الخلق ويصلحهم ديناً ودنيا. وحول هذا المسجد أقيم كثير من المساجد. وقبل إنشاء مدينة طنطا كانت (محلة أبو على) مرسى السفن الشراعية التى تجوب النيل محملة بحاصلات البلاد، مما جعلها مركزاً تجارياً واقتصادياً هاماً.

و المعلوم من شأن بيت السيد ماضى فى تلك الفترة أن أبناءه كانوا يشتغلون بالتجارة، وقد عرف عنهم الجد والاستقامة وصلابة العود، الأمر الذى ازدادت بسببه مواردهم بين عام وعام. وكانوا فى أوقات فراغهم من التجارة ينشرون العلم والمعارف بين أهالى هذه القرية.

النسب الشريف للإمام

قال الإمام مقدماً نسبته: أنا العبد الخويدم المسكين، المنكسر القلب، المحتاج إلى فضل الله ورحمته، العائد بوجهه العظيم من مخالفة سنة نبيه الكريم، محمد ماضى أبو العزائم، ابن عبد الله (محبوب) بن أحمد بن مصطفى بن إبراهيم بن ماضى (نسبة إلى عين ماضى بالمغرب الأقصى)، وهو حسين النسب (على ماسمعة من والدى). و إلى الحسن بن على عليه السلام من جهة والدتى، لأنها كما أخبرتنى أن والدها وفد من بغداد على مصر وهى معه وأنه من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمته الله، وينتهى هذا النسب إلى السيد موسى الجون شقيق السيد إدريس الأكبر.

وقدم الإمام نسبته بعد جده الرابع سيدى ماضى أنه: ابن السيد درويش بن السيد محمد بن السيد على بن السيد محمد بن السيد إبراهيم بن السيد رمضان بن السيد أحمد بن السيد عبد الحميد بن السيد محمد بن السيد على بن السيد حسن بن السيد زيد بن السيد حسن بن السيد على الطويل بن السيد محمد بن السيد إبراهيم بن السيد محمد بن السيد عبد الله العوكلاى بن السيد أبو الحسن موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد على زين العابدين بن سيدنا الإمام الحسين السبط بن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وآله عليه السلام.

و والدته هى السيدة آمنة (ولقد لقبت بـ (مهديّة) لما تحملت به من البر والرحمة بالمساكين والصالح والتقوى منذ طفولتها، فشبت زكية الفؤاد شديدة الحياء كثيرة العبادة صلاة وصوماً وجهاداً)، وهى العربية القرشية الهاشمية،

و هى ابنة السيد أحمد العربى الفرجانى السائح بن السيد أحمد القادري بن
السيد على بن السيد سليمان بن السيد مصطفى بن السيد زين الدين بن السيد زين
العابدين بن السيد محمد درويش بن السيد حسام الدين بن السيد ولى الدين بن
السيد زين الدين بن السيد شرف الدين بن السيد شمس الدين بن السيد محمد
الهاتكى بن السيد عبد العزيز بن السيد عبد القادر الجيلانى بن السيد أبى صالح
موسى بن السيد عبد الله الجيلى بن السيد يحيى الزاهد بن السيد محمد (داوود) بن
السيد موسى بن السيد عبد الله بن السيد موسى الجون بن السيد عبد الله المثنى بن
سيدنا الإمام الحسن السبط بن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله
وجهه وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وآله.

الإمام عليه السلام .. تاريخ ومعالم

- والد الإمام
- مولد الإمام في بيت من بيوت الله
- طفولته عليه السلام
- حفظه للقرآن الكريم
- تلقيه العلم في صباه
- شبابه عليه السلام
- تنقلات الإمام خلال فترة عمله بالتدريس
- سبب انتقال الإمام من السودان نهائياً إلى مصر
- دور الإمام عليه السلام في السودان
- إقامة الإمام الدائمة بمصر
- يوم من حياة الإمام
- تلقيه عليه السلام عن مشايخ السادة الصوفية
- كنيته عليه السلام

الإمام السليمان .. تاريخ ومعالم

والد الإمام السيد عبد الله محبوب ماضى عليه السلام:

لقد كان السيد عبد الله محبوب ماضى ممن جمع الله لهم بين خيرى الدين والدنيا، وكان يدير شئون ممتلكاته وتجارته بنفسه سواء فى بلدته محلة أبو على أو فى مدينة رشيد التى كان يفد إليها سنوياً ويقيم بها شهوراً. ومعه أسرته لمتابعة أعماله. ومع كثرة مشاغله فقد كان من خيرة علماء عصره، وجمعت مكتبته بين علوم الدين والعديد من فروع المعرفة كالفلك والطب والتاريخ والأدب وغيرها. وضم بيته زاوية تقام بها الصلاة ومجالس الذكر ومحلاً للضيافة وقاعة كبيرة كانت منتدى يلتقى فيه أهل العلم والأدب يتدارسون علومهم وآدابهم.

و قد تزوج بالسيدة آمنة وأنجب منها أربعة ذكور وأربع إناث كانت ولادتهم على الترتيب كالاتى: هانم، زينب، أحمد، محمد، محمود، شفيقة، أبو الحمايل، سيدة..

ثم تزوج بأخرى فأنجب منها إبراهيم وفاطمة الزهراء.

و اهتم السيد عبد الله غاية الإهتمام بتعليم أولاده علوم الفقه والأصول وعلوم التوحيد والتفسير والحديث وسير الأئمة وتاريخ العرب والمسلمين.

مولد الإمام في بيت من بيوت الله:

في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر رجب عام ١٢٨٦ هـ الموافق ٣٠ أكتوبر ١٨٦٩ ميلادية.. انبثق فجر ميلاده ﷺ بمسجد سيدى زغلول (١) بمدينة رشيد - وهو من أكبر مساجدها- حيث ولدته أمه أثناء تواجدها بصحبة زوجها وابنتها الكبرى- التي كانت تبلغ من العمر عشر سنوات وقتها- وعند زيارتهم للضريح فاجأها المخاض في تلك الليلة المباركة- ليلة ذكرى الإسراء والمعراج- حيث وضعت وليدها داخل مقصورة الولي، وسماه والده محمداً تيمناً بصاحب الذكرى ﷺ وآله، وذكرت أخته أنها لم ترى أثراً لدم بعد الولادة. وتعددت هبات الله وبشرياته الكريمة في تلك الليلة بذلك المولود الذى استهل أول أنفاسه في بيت من بيوت الله، كشأن جده الإمام على كرم الله وجهه الذى ولدته أمه في المسجد الحرام داخل الكعبة المشرفة لما فاجأها المخاض وهى تطوف بها.

(١) أسس الجزء الغربى من هذا المسجد سيدى زغلول، وكان مملوكاً للسيد هارون احد الأمراء الذين عاشوا فى القرن السابع عشر الميلادى- وبداخل هذا المسجد مقبرة مدفون بها سيدى زغلول. كتاب (محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية من العصر الإسلامى) ص: ١٤١-١٤٢، تأليف الدكتورة سعاد ماهر. إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٦- ١٩٦٦ م.

طفولته ﷺ:

تميز الإمام عن أقرانه في طفولته بأمر منها:

(١) حرصه على التشبه بأفاضل الرجال في السلوك والزى، وكان محباً لارتداء العمامة.

(٢) التجافى عما اعتاده الأطفال في مثل سنه من لعب ولهو، فإذا أصروا على أن يشاركونهم اللعب جمعهم وسار أمامهم يقول وهم يرددون خلفه:

يا إلهي المرتجى يا رجا كل الرجا

نرتجى منك النجا

(٣) كان نظيفاً في بدنه، طاهراً في ثوبه، يحب القرآن ويغشى مجالس الذكر، عرف بالأمانة والصدق، بدت عليه مخايل الفطنة وملامح الذكاء، يستوقف مرآه من يراه فلا يملك إلا أن يطيل النظر إليه.

(٤) أحب المسجد فأنبرى لخدمته، والعبادة فصام أيام الإسلام المباركات تقرباً لربه وقام لياليها تعبدًا لخالقه، وكثيراً ما اتجه لزاوية أم إسماعيل - التي بناها أجداده - وحداثة سنه تسبقه - لا بل طهارة قلبه - إلى هذا المكان ليعطى الأمل المشرق بنجم عبادة وضياء وأخلاق وطاعة.

(٥) كثيراً ما كان أهل البلدة يلتمسون منه الدعاء، ويتبركون، ويطلبون من المولى سبحانه الشفاء، ومع اليد الطاهرة ينجاب المرض، ومع الأنفاس المباركة يذهب العرض.

(٦) تميز بحسن التصرف وسرعة البديهة، لقيه يوماً أحد الأعيان ممن اشتهر بالدعابة، اعتاد أن يسأل الأطفال عن أسمائهم وأسماء آبائهم فيعلق ساخرًا. ولما سأل

الإمام من أنت؟ قال محمد، قال ابن من؟ قال: ابن رسول الله .. فما استطاع لردِّ من سبيل.

حفظه للقرآن الكريم:

وكان يصحب شقيقته زينب وشقيقه أحمد إلى مكتب تحفيظ القرآن الكريم بالقرية وهو في حداثة سنه، وكثيراً ما كان ينههما إلى مواطن الخطأ في تلاوتهما، فكان ذلك مثار العجب منهما، فإذا سألاه قال: أنتم تحفظون القرآن أما أنا فيحفظني القرآن.

وفي السادسة بدأ حفظ القرآن على يد الشيخ محمد القفاص، وختمه ولما يتجاوز العاشرة. وكثيراً ما استمع الشيخ القفاص إلى تلميذه مفسراً لبعض آيات القرآن كاشفاً الستار عن متشابهها، لأنه عليه السلام كثيراً ما كان يجالس العلماء في منزل والده فينتقش على جوهر نفسه كل ما كان يسمعه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. وأثناء ذلك عهد به والده إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة والحساب.

تلقيه العلم في صباه:

لاحظ السيد عبد الله محجوب ماضى شدة رغبة ولده لطلب العلم، فكلف عالماً من علماء الأزهر يسمى الشيخ عبد الرحمن عبد الغفار بذلك:

(١) فحفظ عليه السلام من الفقه متن أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك.

(٢) و حفظ قسم العبادات من الموطأ.

(٣) و حفظ التوحيد من متن السنوسية.

(٤) و حفظ الحديث من مختصر الإمام البخارى للزيدي.

(٥) و حفظ من النحو الأجرومية والألفية.

و أثناء صباه عليه السلام، شغف بتلاوة سير القوم وتبع أخبارهم والتحلى بأحوالهم. وكان له مع والده في كل يوم وقت ثابت يمضيه معه في قراءة باب من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمته الله.

واستمر الإمام في تلقى تلك العلوم إلى أن بلغ أربعة عشر عاماً.

شبابه عليه السلام:

نستطيع القول إن حياته فيما بين سن الرابعة عشر إلى السادسة عشر تميزت بما يلي:

(١) تلقى على يد الشيخ محمد الخطيب علوم الفقه ووجوه الرأى والإستنباط.
(٢) تلقى طريق السادة الصوفية، واشتغل بذكر أسماء الله تعالى في كل يوم وليلة وبعدد مخصوص.

(٣) كان يتوق إلى سماع سير الصالحين ويتقرب منهم ويتودد إليهم ويذل كل ما في وسعه ليكون محبوباً لديهم مقرباً منهم.

(٤) اهتم بقراءة كتب الرجال ومعرفة أخبارهم وعلم سيرهم.

(٥) صاحب الشيخ محمد القفاص فترة لدراسة علوم اللسان والتوحيد.

(٦) اشتغل بعلوم الحكمة والطب والصيدلة منفرداً، مستعيناً بذلك بالكتب العلمية التي بمكتبة والده.

ولما بلغ السادسة عشر من عمره، توجه إلى القاهره للالتحاق بالجامع الأزهر، وأقام بماتل أخيه السيد أحمد بحى الباطنية خلف الأزهر الشريف، ولم يرق له طريقة الدرس بالأزهر إذ لخط البون الشاسع عند المقارنة بما كان يتلقاه من قبل.

وكان يصرف بعض وقته في صحبة الشيخ حسنين الحصافي، وتلقى منه الطريقة الشاذلية عام ١٣٠٢ هجرية.

و تصادف أن كان الشيخ حسن الطويل في زيارة شقيق الإمام السيد أحمد، فأخبره بعدم رغبة الإمام في الالتحاق بالأزهر، فاقترح الشيخ حسن الطويل دخول الإمام الامتحان المعادل لشهادة الثانوية الأزهرية الذي سيعقد بعد خمسة عشر يوماً، وليكون الشيخ مؤهلاً للتقدم لمدرسة (١) دار العلوم الخديوية، وخصوصاً أن المستوى العلمي للإمام فيما درسه من علوم تؤهله لاجتياز هذا الامتحان بسهولة. وعكف الإمام على دراسة علوم شهادة الثانوية الأزهرية هذه طيلة خمسة عشر يوماً المتبقية. وقبل الإمتحان بيوم حضر الشيخ حسن الطويل ليطمئن على مدى تحصيل الإمام للعلوم التي يقضى فيها الطلاب سنوات عديدة، فقد كان ما سبق له من دراسات طوال هذه الفترة الماضية كافياً له لتفتيح مدارك التحصيل. وامتحان الإمام وحصل على شهادة الثانوية الأزهرية.

و قد مالت نفس الإمام إلى الشيخ حسن الطويل فيما بعد، فتلقى منه علوم التوحيد، وصحبه زمناً، وكان يشغل معه في منزله بمطالعة كتب الحكمة، وكان الشيخ الطويل عندما يذهب إلى الإمام في منزله يتلقى منه علوم المضمون. كما تلقى من الشيخ عlish علوم الفقه.

ونستمع للإمام وهو يقول: ((..... ثم كلفني شقيقى أن أنتظم بمدرسة دار العلوم الخديوية، فتلقيت ماهو مقرر لطلبتها. وكنت في أغلب أوقاتي أكتب على بعض الأحاديث أو الآيات القرآنية، وأكتب بعض أبيات في أمور أعتبر بها مما يدل

(١) وهى الآن كلية دار العلوم، لأن المدرسة وقتها كانت تقبل مستوى الثانوية الأزهرية، ولذلك تحولت اسما إلى كلية.

على قدرة الله تعالى أو بديع صنعه تعالى، وصار ذكرى قراءة القرآن والتدبر في معانيه، وكلام رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله وسلم، وسيرته وسيرة خلفائه، وأهل الخير من السلف، لا لقصد أو لهوى، ولكن لميل في النفس ورغبة. وكنت وأنا بمصر كلما سمعت بصالح أو ولي أو عالم تقى زرتته وسمعت منه، فإذا سمعت منه الحكمة أو شيئاً من علوم التوحيد أو الأخلاق أحبته وإن رأيت منه غير ذلك سلمت له وأنصرفت عنه، وما وجدتني معارضاً أو منتقداً أو مجادلاً .. اللهم إلا إذا رأيت ما يغضب الله، فكنت أنصح وأعظ برحمة ولين. وكان لى إخوان يطلبونني ليسمعوا مني ما كنت أكتبه عن الأمور التي أعتبر بها)) ومن الآيات التي كتب عنها بعض ما من الله به عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ طه: ٩٨ .. قال (١) :

((الإنسان إذا ذاق حلاوة الأنس بشهود سر ما أودع فيه من تجليات الربوبية المشهودة بعين يقين ضميره من حضرة الغيب، مال حسه إلى أن يشهد تلك الرتبة: رتبة الربوبية، فإذا لم يتداو بدواء سماوى عن تلك الميول الحسية انعكس نوره ظلمة، وأنسه بالغيب وحشة، فجسم وأشار، وجعل الرب ناسوتاً جسمانياً قام بلا هوت (٢) حيوانى واستدل على ذلك بآية خارقة للعادة، يستأنس بذلك من لم يذق أسرار الغيب، ويميل إلى ذلك من لم يشهد نور تجلى الرب.

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ١٣ ص ١٣ (١٦ رمضان ١٣٥٦ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٧).

(٢) الناسوت: الجسم .. اللاهوت: الروح.

و قد ظهرت تلك الانفعالات النفسية من قوة الخيال إلى حضرة العيان، أعنى به سامرى بنى إسرائيل. وعكف هو وكثيرون على عبادة ما جسمه بيده من الحلى، حتى جاء سر السماء الظاهر على لسان موسى عليه السلام وعصاه ويده، فصدع بالحق وأبطل الباطل، وكشف حجاب الحس عن عين البصيرة، فلمعت أنوار البصر على أولئك المارقين من حصن الأمان، فندموا ندامة محقت أنفسهم الحسية الحيوانية بدليل ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ البقرة: ٥٤، ففضل الإله المتزه فتاب عليهم. ثم ترجم لسان الربوبية الناطق بلسان النبوة عن حضرة الألوهية بالتزل الفضلى قائلاً ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ طه: ٩٨ مشيراً أولاً إلى رتبة الألوهية لظهورها حساً ومعنى لكل متدبر، واختصاص تلك الرتبة بالذات الأحدية عن الحيلة والنسبة العلية من إدراك العقول والأوهام والخيالات، فاندesh السامريون لقصر مداركهم وعدم تأهلهم لحضرة القدس الأعلى، لأنهم لا يمكنهم أن يخصصوا تلك الرتبة بالذات العلية قدرًا والى العلم بما جهل والجهل بما علم، فتزل فضلاً منه وكرماً وأوقفهم فى موقف الغيب عن الحس ليدوقوا حلاوة الشهود البصرى من حضرة الغيب المطلق عن التقييدات الغيبية فقال ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ طه: ٩٨ مخصصاً تلك الرتبة الإلهية على غيب الهوية ليتيقنوا أن الحق غيب لا يشهد إلا بعين البصيرة، وظاهر لا يعلم إلا بكشف الحجب الكونية فانبعث من شمس بيان التخصيص الأول بالذات القدسية أشعة أنوار المعرفة لأهل الاختصاص بالقدس الأعلى ومن التخصيص الثانى الغيبة عما سواه سبحانه وتعالى، فكانت الرتبة الأولى رتبة المتمكنين من الأنبياء والمرسلين والصديقين، والرتبة الثانية رتبة المجذوبين للحق بالحق أهل الفناء المطلق. ثم أيد معنى اللسان الحقى المشرب الأول والثانى بكلمة هى

من جوامع الكلم يذوق كل سامع منها حلاوة مشربه قائلاً (وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْماً)، فالأول شهود السعة الذاتية الماحية لكل شيء والثاني سعة الهوية السارين في كل شيء فثبت قدمه في حضرة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ الحديد: ٤ ، وأشرقت أنوار بصره من حيث الوجهة، فارتفعت ستائر الكون في لآلئ الغيب وذاق حلاوة ﴿فَإَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ١١٥ من حيث لا حيث بالنسبة المقيدة، بل من حيث إطلاق الرتبة المقيدة) .

كتب الإمام ذلك وهو ابن سبعة عشر عاماً.

وقد توطدت صلة الود بين الإمام وبين على باشا مبارك وزير المعارف العمومية وقت ذاك، فقد كان الباشا صديقاً للسيد أحمد شقيق الإمام، وكان قد سبق وعرفه به مع بعض رجالات مصر، وذلك بحكم عمله في الصحافة ومعرفته بهم حيث كان أحد مؤسسي جريدة المؤيد الإسلامية اليومية مع الشيخ على يوسف، وهي أول جريدة إسلامية في مصر.

تخرج الإمام في كلية دار العلوم عام ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٨م، وعمره تسعة عشر عاماً.

تنقلات الإمام خلال فترة عمله بالتدريس

يقول عليه السلام: (ثم تعينت مدرساً (١) . وانتقلت إلى مدينة المنيا في أوائل سنة ١٣١١هـ، فكنت أؤدى الواجب عليّ هاراً، وأصرف أكثر أوقاتي بين العامة وأهل العلم فيها لقراءة دروس مذهب مالك أو التكلم في الأخلاق أو التوحيد حتى أنست بإخوان لي يعينونني على مواجهي. ثم انتقلت إلى الشرقية، وفيها ظفرت بإخوان لي أحسنوا الإصغاء والقبول. ثم إلى سواكن، وفيها قرأت البخاري لعلمائها وقسم العبادات من الموطأ وصار لي إخوان يحسنون الاقتداء والفهم في علوم الحكمة العالية. ثم انتقلت منها إلى أسوان، وفيها قرأت الموطأ ولكني لم أجد بها أهلاً للحكمة ولا مستعدين لتلقيها. ثم إلى حلفاء، وكان بها كثيرون يشغلون بالملاهي فوفقهم الله تعالى للإقبال على عمل كل الأركان وسماع علوم الشريعة. ثم إلى أم درمان من أعمال السودان، فقرأت الموطأ وحكم ابن عطاء الله بمسجدها، وأهلها يحبون العلم وأهل العلم إلا أنهم يحتاجون إلى مبادئ العلوم حتى يتأهلوا لفهم روح الشريعة. ومنها إلى الخرطوم، فقرأت بمسجدها الجامع تفسير القرآن الشريف والموطأ والبخاري وقسم العبادات من ملونة مالك بن أنس، وأهلها يحبون أن يعملوا بما علموا) .

(١) عمل الإمام مدرساً بمدرسة إدفوا الابتدائية لمدة سنة دراسية، ثم انتقل إلى مدرسة الإبراهيمية الأولية وعمل بها مدة أربع

سنوات دراسية، ثم انتقل سماحته إلى مدينة المنيا.

(١) العمل بمدرسة إدفو الابتدائية:

توجه الإمام عليه السلام إلى مدينة إدفو بصعيد مصر لياشر مهام أول وظيفة له كمدرس لمادتي الدين واللغة العربية بمدرسة إدفو الابتدائية وذلك عام ١٣٠٦هـ الموافق ١٨٨٩م.

لقد كانت مدارس هذه البلدة خاوية من تلاميذها، فقد عمد أولياء الأمور إلى إخراج أبنائهم منها حيث كانت أفكارهم مشبعة بأن المدارس تفسد أخلاق النشئ وتبعدهم كذلك عن الدين، وكذلك الآباء كانوا يعيدون عن حضور الدروس الدينية بالمساجد. وقد عمد الإمام جاهداً على جذب أهلها للمسجد للصلاة وحضور دروسه الدينية، وبعد فترة قصيرة إذا بالآباء مواظبون على المساجد، والأبناء في المدارس، وأقبل التلاميذ على المدرسة الابتدائية حتى امتلأت، مما اضطر ناظر المدرسة في نصف العام أن يطلب من الوزارة توسعة الفصول لاستيعاب أعداد المتقدمين. وفي الإجازة الصيفية علم رضوان الله عليه أن وظيفته قد انتقلت إلى مدرسة الإبراهيمية الأولية.

(٢) العمل بمدرسة الإبراهيمية:

لقد حظيت بلدة الإبراهيمية بشرف استقبال الإمام بها كمدرس بمدرسة الإبراهيمية الأولية وذلك عام ١٣٠٧هـ الموافق ١٨٩١م، وكانت هذه المدرسة قد افتتحت حديثاً (١) بهذه المنطقة.

و بلدة الإبراهيمية كانت مركزاً قبل وجود مركز كفر صقر ومركز ههيا. وكان معظم سكان هذه البلدة من الأتراك. وقد سميت هذه البلدة بالإبراهيمية نسبة إلى إبراهيم باشا الكبير الذى أفاض عليها من الهبات والنعم والألقاب ما جعل أهلها فى مجبوحة وسعة من العز وزخرف الحياة الدنيا، فقد وهب هذا ٥٠٠ فدان وذاك ٢٠٠ فدان وهكذا، حتى محمد باشا أبا ذقن كان يمتلك وحده ١٠٠٠ فدان هبة من إبراهيم باشا، وكان معاشهم بالكامل على نفقته لأهم أترك.

و هكذا دخل رضوان الله عليه بلدة الإبراهيمية. وعندما وجد الإمام كل ألوان المدنية هذه بما فيها من رفه العيش ومتع الحياة كلها، ومن ناحية أخرى مساجد مهجورة وعدم إقبال على الآخرة بما فيها من نعيم مقيم.. اهتم كثيراً واغتم، وطلب العون من الله وبدأ الإمام من بيوت الكبراء والعظماء أمثال بيت محمد باشا أبي ذقن، وبيت محمد باشا علمى، وسكن فى منزل من منازلهم، وبدأ فى إلقاء دروسه بمسجد عبد العزيز سعد ومسجد محمد أبي ذقن ومسجد حفيظ ومسجد الشيخ صيحي.

(١) افتتحت مدرسة الإبراهيمية فى عام ١٨٩١م، وأغلقت فى عام ١٨٩٦م، وهذا مستخرج من مرجع ضمن مكتبة مدرسة

و فى تلك الفترة التى عمل فيها الإمام بالإبراهيمية، صاحبه ولازمه محمد بك علمى وشقيقه أمين بك علمى. وقد أعطاهما الإمام الكثير من علوم المعرفة، فنهلا من معينه الفياض وفاض بالعلم المصنوع والمكتون. وظل بيتهما مفتوحاً للإمام وللإخوان أثناء زيارته لمصر فى إجازاته السنوية بعد أن هاجر رضوان الله عليه إلى السودان لتأخذ الدعوة شكلاً آخر من أشكالها. ولما عاد الإمام إلى مصر ثم استقر بعد ذلك بالقاهرة، لم يطلق على بك علمى صبراً، فهاجر من الإبراهيمية إلى القاهرة ليكون بجوار إمامه، ولم يكن يتغذى إلا من علوم المعرفة لا بكتابة على أوراق ولكن سماعاً مباشراً من الإمام لينتقى ذلك على جوهر نفسه، فكان قليل الكلام إلا فيما يزيد علماً بالله تعالى. وسكن بمثل بحى الزيتون بالقاهرة حتى انتقل إلى جوار ربه.

وكان الإمام يزور البلاد المجاورة فى وسط الأسبوع، فذهب إلى ههيا. وكان من أوائل مريديه هناك الشيخ أحمد قوطاية (و كان الإمام يعطف عليه حتى أنه عندما كان يزوره فيما بعد بالقاهرة كان يشمله بعطفه وحنانه ويطعمه بنفسه من يده الكريمة). وكان من إخوانه السابقين الأفاضل الشيوخ سيد غنيم، وسليم طنطاوى، وعبد الكريم العشرى، ومحمد عبد الباقي، وصالح الحصين، فأصبح للإمام تلاميذ كثيرون بههيا وشرقية مباشر والحيش (١) وطواحين الراش وبنى غياض والبجعية (منشية ناصر الآن) وخلافه.

(١) وفيها أملى قصيدة من أمهات القصائد ذات الغيبة العالية والى لا يتذوقها إلا أهل الذوق العالى (عام ١٣١٣هـ) (و التى

وحجب نأى لدى الإحسان قد رفعت)

مطلعها: ستائر الغيب فى حال الفنا كشفت

و كان للإمام قصة (١) معروفة مع فضيلة الشيخ محمد صبيحي من بلدة الحبش، وهى تبعد حوالى كيلو مترين بحرى الإبراهيمية، وكان له دكان يبيع فيه البضائع المختلفة كما كانت سمة العلماء فى ذلك العصر، وكان يفرغ نفسه لإلقاء الدروس بالمسجد. وقد تمتع الشيخ بخصوصية حباها له الإمام وهى أنه كان يتلقى منه علومه ودروسه ومواجهه التى كان يلقيها الإمام بين مريديه وتلاميذه من السودان وهو فى مصر، وكان يكتبها بخط يده ويجلدها فى مجلدات وصل عددها اثنى عشر مجلدًا كبيرًا، ولا أحد يدرى أين ذهب هذا التراث، وقد بحثت عنه كثيرًا ولكنه لم يظهر حتى الآن، نسأل الله القادر القدير أن يظهر هذا التراث لينتفع به العالم الإسلامى أجمع.

ولما علم الشيخ صبيحي أن الإمام يقوم بالتدريس فى مسجده الذى تعود أن يدرس به، ولعدم سابق المعرفة بينهما، سارع إلى المسجد لعله - وهو الرجل الذى حصل من العلوم الدينية جانبًا كبيرًا - يقف على خطأ للإمام فى اللغة العربية أو فى غيرها من الدروس التى كان يلقيها، وكان من عادته أنه لا يسمح لأى عالم بإلقاء دروسه فى مسجده إلا إذا جاءه وأخذ منه الإذن بذلك، وفى نفس الوقت كان قد جهز للإمام سبعة مسائل كتبها فى ورقة ووضعها فى جيبه ليسأله عنها ويحاججه بها.

وما أن دخل الشيخ صبيحي المسجد حتى نزل الإمام من على كرسى الدرس وسلم عليه وقبل يده وطلب منه اعتلاء الكرسى مخبرًا أن المكان مكانه والمقام مقامه، فقال له الشيخ صبيحي: ارجع مكانك واستمر فى درسك فقد جئت

(١) رواها الأستاذ عبد الرحمن على سلامة من ههيا شرقية.

مستمعاً إليك، فقال الإمام: لا يحق لى أن أدرس فى مكان شىخى فيه، فأصر الشيخ صبيحى على طلبه.

واصل الإمام درسه من على كرسى الدرس، ثم علا بالعبرة فقال: حضرنا الآن الشيخ صبيحى ومعه فى جيبه سبعة مسائل، يسأل فى الأولى عن كذا وإجابتها كذا، والمسألة الثانية كذا وإجابتها كذا .. حتى انتهى عليه السلام من عرض المسائل السبعة، فصاح الشيخ وبكى وقال: زدى يا سيدى، فأعاد عليه الإمام أسئلته وأجاب عليها بلون آخر مع سموه فى العبارة عن عقول العوام والخواص، فبكى الشيخ بكاءً شديداً وقال: زدى يا سيدى .. فأعاد الإمام الكرة بلون لا يفهمه إلا خاصة خاصة الخاصة .. فخر الشيخ صعباً، وحملوه إلى بلدته على هذه الحالة مغشياً عليه، واستمر الحال على ما هو عليه مدة.

وبعد أن أفاق الشيخ الصبيحى، صمم أن يتوجه فوراً لحضور مجلس الإمام، وما أن رآه الإمام مقبلاً عليه لسماع الدرس الذى كان يلقيه للعامة حتى سما بالعبرة عن العقول، واقترب الشيخ رويداً رويداً إلى أن وصل تحت الكرسى الذى يجلس عليه الإمام فقال الإمام إن هناك أناساً يكرسون حياتهم للحصول على الذهب، ويفنون فى ذلك أموالهم لعلهم يصلوا إلى السر الذى به تتحول مادة النحاس أو الحديد إلى ذهب، وكل ما فى هذا الكون من ذهب أو متاع فإنما هى نعم من الله سبحانه وتعالى، والمقصود من وجودنا فى هذه الحياة الدنيا ليس النعم ولكن المنعم سبحانه وتعالى، وكل هذه النعم من ذهب وخلافه إلى زوال، وا لأولى بنا أن نولى وجهنا شطر مولى النعم. وبعد أن أشار عليه السلام إلى علم الكيمياء وصناعتها ودور جابر بن حيان فيها، وكيف أن الأصول التى استنبطها جابر بن حيان قد خفيت على من بعده فلم يتمكنوا من تطبيق قواعده وقوانينه، فهم الشيخ صبيحى من

ذلك أن الإمام يعرف أسرار الكيمياء التي وضع أساسها جابر بن حيان وبالتالي يعرف سر تحويل المعادن إلى ذهب. وطلب الشيخ من الإمام بعد الصلاة أن يتلقى هذا العلم على يديه، وأظهر الإمام الموافقة ولازمه أياماً والإمام يريد أن يخرج عنه ذلك بالحكمة الروحانية، ولكنه كان مصراً على ما أراد حتى حدث له ما ثنى عزمه عن ذلك، فقد كان الإمام يريد أن يعلمه درساً في الزهد يكون رائده في طلب الله، فقال له: عندما تفتح المحل في الصباح قل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فأخبره أنه يقولها كل يوم، فقال له الإمام: أعلم ذلك، ولكني قد أذنتك بها الآن، ولإذن سر لا يعلمه إلا الله.

دخل الشيخ صبيحى دكانه، وقال: (بسم الله الرحمن الرحيم) كما أمره الإمام بالأمس، فإذا به يجد كل أصناف البضاعة في نظره ذهب خالص، فكلما جاءه مشتر - والمشتري يرى الصنف على حالته الطبيعية - فيقول له أعطنى كذا، فيذهب الشيخ إلى الصنف فيجده ذهباً، فيقول له هذا الصنف غير موجود، والمشتري يراه فيقول له: هذا الصنف موجود ها هو ذا (مشيراً إليه) وأنت الآن واقف أمامه، فيقول: لن أبيع لك، ولا يزال هذا الأمر به حتى وصفه الناس بالجنون، وظل على هذا الحال مدة حتى أوصله ذلك إلى غيبوبة ظل فيها في فراشه فاقد الوعي تماماً، وقد ذهب بعض الإخوان إلى الإمام فسألهم عن الصبيحى فوصفوا له حاله وأنه طريح الفراش، فاستدعى الإمام تلميذاً من تلاميذه من أهل الأحوال العلية وهو الشيخ (ياقوت) ولقنه صيغة يقولها في أذن الصبيحى اليمنى، وبعد إلقاء هذه الصيغة جاءت الفوقه فسأل: أين أبو العزائم عليه السلام؟ فأخبروه، فقال هيا بنا إليه، ولما واجه الإمام، شرح له كيمياء الصالحين وقال له: يا بني إن كيميائنا تقوى الله عز وجل

ومراقبته، ولازال الإمام به حتى وصل إلى حال كمل الأولياء في الصدق والصفاء والطهر والنقاء وعلوم الخلوة، 

وأرضاه (١) .

و كان الإمام يلقي دروساً دينية يومياً بعد صلاة العصر بأكبر مساجد البلدة، فالتف حوله أهالى الإبراهيمية والبلاد المجاورة، وكان حال المسجد وكأنه أشبه بصلاة يوم الجمعة من كثرة رواده.

(٣) نقله إلى مدرسة المنيا الابتدائية:

توجه الإمام إلى المدرسة الابتدائية بمدينة المنيا أوائل شهر أكتوبر ١٨٩٤ الموافق أواخر شهر ربيع الأول لعام ١٣١١، ودرس بها مدة عامين دراسيين، وكان عمره وقتذاك لا يتجاوز الخامسة والعشرين. وقد أعطى فيها الكثير في المدرسة تدریساً وفي المسجد مدارس وتربية للرجال، شهد بذلك الجميع حتى مخالفوه .. .

و قد أثنت عليه مديرية التربية والتعليم بمحافظه المنيا في نشرتها الدورية لعام ١٩٧٣م وذلك بمناسبة مرور مائة عام على إنشاء مدرسة المنيا الابتدائية الأميرية (١٨٩٦-١٩٧٣م) والتي تسرد فيها أخبار المدرسة منذ إنشائها، فأشارت على صفحة ٢٢ تحت عنوان: زوار المدرسة من العظماء ما يأتى: ومن أبرز مدرسيها المرحوم السيد محمد ماضى أبوالعزائم  شيخ الطريقة العزمية، كان مدرساً بها

(١) من التسجيلات الصوتية لدروس الشيخ محمد مخارطة

سنه ١٣١٠ (١)، ويقوم بتدريس اللغة العربية والدين، ونفاه الإنجليز مدة بالسودان (٢) لأسباب سياسية.

و لاقت دعوته القبول من عامة الناس والاستجابة من كثير من الأغنياء وذوى الجاه، منهم على باشا شعراوى وحسين باشا سرى ومحمد بك موسى عبيد وغيرهم، واستجاب لهذه الدعوه أيضًا مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة وهو المسيو بلنتونى الذى أقبل هو وزوجته على الإسلام وكان له فيما بعد أثر فى إسلام الكثيرين من بلدته بفرنسا.

وفاة شقيقه الأكبر بالمنيا:

وكان المر ض قد اشتد بشقيقه الأكبر السيد أحمد، واستجابة لدعوة أخيه ونصيحة الأطباء رحل بأسرته إلى المنيا وأقام بمترل الإمام حيث عكف على تمريضه ورعايته بنفسه مما أفقده عن ارتياد الأوساط الدينية لممارسة نشاط الدعوة، فكان يذهب إلى المدرسة صباحًا ويكرس وقته كله بعد ذلك فى تمريضه إلى أن لقي ربه فى يوم الجمعة ٥ رجب ١٣١١ هـ (٢٤ يناير ١٨٩٤) بعد حوالى شهر من وصوله إلى المنيا.

(١) الصحيح هو عام ١٣١١ هـ الموافق ١٨٩٤ م. ويجوز أن يكون صدر قرار النقل فى أواخر عام ١٣١٠ هـ بعد بداية

العطلة الصيفية.

(٢) كان النفى مباشرة من السودان، وهى الجهة التى كان يعمل بها إلى جزيرة مالطا، ثم عدل النفى إلى تحديد إقامة فى بلدة

المطاهرة بمحافظة المنيا.

زواج الإمام:

و بعد وفاة شقيقه الأكبر السيد أحمد تمسك الإمام ببقاء أولاد أخيه السيد محمود والسيدة هانم معه بالمنيا ليقوم برعايتهما وتربيتهما بعد وفاة والدهما، وتمسكت جدتهما لأُمهما بعودتهما مع الأم إلى القاهرة ليكونا في حضانتها. وأمام رغبة الإمام في رعاية أبناء شقيقه وتمسك الجدة بحضانة أمهما لهما عرضت عليه أن يتزوج امهما لتستمر إقامتهما معه فتزوجها بعد أن استأذن والده فأذن له وبارك ذلك الزواج.

انتقال والده إلى جوار ربه:

انتقل والده عليه السلام إلى جوار ربه في ١٥ من ذى الحجة ١٣١١ (١ يوليو ١٨٩٤) ببلدته محلة أبو على حيث سارع الإمام إليها ومكث بها أياماً، ولم يأخذ من تركته والده إلا مكتبته بعد أن استأذن زوجة أبيه في ذلك فأذنت له، ثم عاد إلى المنيا ومعه إخوته ومن وافقه على السفر معه ليقوم بشأنهم حيث بلغ عددهم خمسة عشر فرداً بين صغير وكبير ومنهم أخوه السيد أبو الحماثل وأخته السيدة شفيقة.

و بدأ الإمام عليه السلام في سنة ١٣١١هـ يدعو إلى الله تعالى ويهتدى إلى الصراط المستقيم ويلقى دروسه بالمساجد ويملى مواجيده بين تلاميذه ومريديه الذين اجتمعوا حوله للتلقي منه، فأملى عليهم آداب الطريق إلى الله تعالى وأسس السير فيه، وأملى صيغاً فريدة من الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، وجعل يرشد على السلوك الموصل إلى رضوان الله ومحبه بالذكر والعبادة وتطهير القلب وتزكية النفوس ومكارم الأخلاق والحب للناس كافة، فهيمنت علومه على جماهير المسلمين في المنيا وما حولها، وأطلق على جامعته التربوية الدينية اسم (جماعة آل العزائم) التي وافق توقيت الإعلان عنها ميلاد أكبر أبنائه وهو سماحة السيد أحمد ماضى أبو

العزائم عليه السلام حيث ولد يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة ١٣١٢ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٩٤. بمدينة المنيا.

اختلى الإمام بزاوية سليمان محفوظ وقام على خدمته بها الشيخ محمد دياب المدرس بمدرسة المنيا الابتدائية. وفي الزاوية التقى الإمام بالشاب الصغير محمد طنطاوى الذى كان يقوم بتحفيظ القرآن الكريم، ولعذوبة صوته طلب منه الإمام الإنشاد على الحضرة وسماه (أمير أهل الغرام) وناداه فى قصيدة مطلعها:

غن لى يا أمير أهل الغرام	فالأغاني يلذ فيها مدامى
غن لى فالجميل لاح لروحي	بالتجلى من ظاهر من سلام
أسكر الروح من جمال تراءى	لأولى العشق فى على المقام
يا آل حبي ذكر الحبيب شفاني	حال ذكرى أرى الحبيب أمامى

و أصبح للإمام إخوان كثيرون بالمنيا والبلاد المجاورة مثل: إتيلىدم والمطاهرة وطهنشا والدير وبنى أحمد وريدة والفجاعى والخيارى وأبو قرقاص وسمالوط وشوشه وآبا الوقف وبنى عمران وتانوف وبان العلم وبنى مزار .. يطلبونه لسماع العلم والحكمة نذكر منهم السادة: رشوان حسين، وعلى سالم، ومحمد دياب، ومحمود الطوبجى، وإسماعيل الطوبجى، ومحمد سلامة، وعثمان بقوش، ومحمود حسن، وعبد السلام محمد، ويعقوب زعويل، ومحمد أبو السيد، وخلف مخلوف، وعلى الفولى، وأبو الليل على مهدى، ومحمد أبو شريف، وأحمد عبده، وأحمد رمضان، ومحمد العوام، وعلى أبو الليل، ومحمد المقرحى.

و كانت دعوة الإمام تعتمد فى إنتشارها فى هذه البلاد على الرجال الذين اتبعوا هذه الدعوة وقاموا كدعاة، ومن هؤلاء الرجال السادة على سالم وأبو الليل

على مهدي، ومحمد أبو السيد، وكانت قصائد الإمام يتغنى بها محمد طنطاوى، وأحمد عبده، وأحمد رمضان.

و كان الإمام مقيماً بالمنيا بمترل حسن أفندى النشترى بجوار مسجد أوضا باشا، ثم ضاق هذا المترل بالإخوان، فطلب الشيخ على أبو الليل من الإمام الإذن بأن يبنى له مترلاً بالمطاهرة ليسع الإخوان جميعاً. وفعلاً تم البناء وأقام الإمام والأسرة كلها بالمطاهرة، وكان يذهب إلى عمله صباحاً بعربة حنطور أهداها له حسين بك مدنى الشريعى. ومما هو جدير بالذكر أن على بك شعراوى كان وصياً على أولاد سلطان باشا الذين يملكون مصنعاً لصناعة السكر. وكان يديره كوصى على القصر، وكان قد تعود عند بدء موسم القصب أن يدعو جميع أعيان المنيا وكبار الموظفين ورجال الدين إلى حفل يقيمه بداخل المصنع، وكان الإمام رضوان الله عليه ضمن المدعوين. وقد تعود على بك شعراوى أن يقدم للمدعوين فى هذا الحفل أكواب عصير القصب، ويمر هو بنفسه ليقدمها بيده للمدعوين. ولما وصل للمكان الذى يجلس فيه الإمام وقدم له الكوب إذ بالإمام يرفض قائلاً: أنا لا أشرب من أموال القصر إلا بعد أن تستأذنهما فى ذلك، فإن أذنا شربت وإن لم يأذنا فلا أشرب. فعجب على بك شعراوى لحرص الإمام على تعاليم الإسلام إلى هذه الدرجة، بينما كان من بين المدعوين بعض العلماء والقاضى الشرعى.

ومن وقتها واطب على بك شعراوى هو وغيره من وجهاء المنيا على دروس الإمام وعلى زيارته بمترله بالمنيا وذلك بعد أن استوعب هذا الدرس.

و فى ليلة ذكرى الإسراء والمعراج عام ١٣١٢هـ، وكان أتباع الإمام من الكثرة بمكان فى المنيا والبلاد المجاورة، سار الإمام فى مشهد مهيب بملابسه البيضاء

وسط إخوانه حيث مر بالمدينة كلها والإخوان ينشدون المواجيد التي أخذت بألباب الموجودين والمشاهدين. وقد انضم إلى هذه المسيرة الكثير إلى أن وصلت إلى المسجد الذي يلقي الإمام فيه دروسه، وأقام الذكر، ثم أحيا المناسبة بدرس عن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسم معاً، وألقى كذلك حكماً كثيرة ومواجيد. و مكث الإمام عامين بالمنيا التي كانت تمثل بداية دعوته، وكان لها وأهلها مكانة خاصة في قلبه، وقد خاطبها على سبيل التجريد فقال:

أَمْنِيَّةُ: دار الراح فيك بلا شوب	سقاها رسول الله في حضرة القرب
أديرت على الأرواح بدءاً فأسكرت	رجالاً فهموا في غرام وفي حب
أَمْنِيَّةُ: بدءاً كنت حان مدامتي	تدار على الأرواح من عالم الغيب
أَمْنِيَّةُ: كنت البدء للعلم والهدى	وكم سكر الأفراد فيك من الشرب
علوم وعرفان وكشف مؤيد	و نور جلى قد يلوح من الرب
وكم لاح فيك النور من خير مرسل	فهيم أفراداً بكشف بلا ريب
و منك لقد سطعت علوم عوارف	و فيك نجوم قد تضىء بلا حجب
أَمْنِيَّةُ: لا أنسى لياليك التي	بها أشرقت شمس الحقيقة في قلبي
أَمْنِيَّةُ: لا أنسى جمالاً مؤيداً	يلوح من الرحمن فضلاً بلا سلب
و لم أنس أيام الصبا في جواذب	من الحق تجذبني إلى حضرة الرب
أعد يا إلهي النور بالفضل أشرقن	ضياءك في الأرجاء في الشرق والغرب
أعنى على الشكر الجميل وعمى	و أهلى وإخواني بفضلك يا ربى

(٤) الانتقال إلى الإبراهيمية:

بعد أن أمضى الإمام عليه السلام عامين بالمنيا جاءه قرار النقل مرة أخرى إلى الإبراهيمية، ولم يمض عام على نقل الإمام لنفس المدرسة- التي عمل بها من قبل- أكثر من ثلاثة أشهر حتى قررت وزارة المعارف غلقها وتحويل طلبتها إلى المدارس المجاورة وذلك لقلة عدد الطلبة المقيمين بها.

ترك الإمام عائلته بالإبراهيمية وسافر إلى القاهرة، وبعد أن صلى في مسجد سيدنا الحسين لقيه حسين بك رشدى- وقد كان مفتشاً بالمعارف وقتذاك- وذهب به إلى الوزارة وأخبره بخلو وظيفة مدرس لمادة الدين ومادة اللغة العربية بمدرسة سواكن الابتدائية بالسودان، وأنه هو المرشح الوحيد لتلك الوظيفة لما يعلمه فيه من حب الجمهور له أينما حل وأينما سار، وأنه قد زيد مرتبه جنيهين مصريين لهذا الغرض. واستلم الإمام قرار التعيين لهذه الوظيفة، ثم توجه فوراً إلى الإبراهيمية، وأعلم صاحبه الشيخ صبيحى بما تم به الأمر فسأله الصحبة حتى ركوب القطار فأذن له. وفى يوم السفر إلى السويس ظل يحبب أطراف مدينة الإبراهيمية مودعاً، حتى إذا فرغ من هذا الوداع كانت الشمس قد غربت، وبين المدينة ومحطة السكة الحديد سبعة كيلو مترات تقريباً، ولا تستطيع العربات التى تجرها الخيول أن تسير ليلاً. ولذلك فقد استأجرا ركوبتين وسارا بهما إلى ههيا وهما على حالة استغراق فى المذاكرة فى آيات الله وعجيب صنعه. ولما أفاق الشيخ صبيحى من هذا الاستغراق كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساءً، والقطار الذى سيركبونه من ههيا إلى القاهرة كان المفروض أن يصل ههيا فى تمام التاسعة، فحزن الشيخ صبيحى من ضياع الوقت على سيده المسافر، فسرى الإمام على خاطره، فسخر

الله لهما شخصاً في الطريق أخذ بزمام أتاينهما (١)، وما لبثا أن وجدا أنفسهما أمام السكة الحديد وألفيا جمهور المسافرين منتظرين وكانت الساعة وقتمتد تشارف الثانية عشر ببضع دقائق. ودق جرس المحطة معلناً بقرب وصول القطار الذي كان قد توقف في محطة منيا القمح لمدة ثلاث ساعات لأمر ما، فركب الإمام ولم ير الشيخ صبيحي بدأً إلا الركوب معه حيث لم يتمكن من الاصطبار على بعده. وصلا إلى السويس عند مطلع النهار، وعاون الشيخ صبيحي أستاذة في نقل المتاع إلى الباخرة، وما علا صفير الباخرة مؤذناً بالإقلاع حتى علاه النحيب لمفارقة الحبيب، وفي آخر لحظة ومن شدة وجده صعد الباخرة، وإذا به واقف بين يدي أستاذة بعد أن أفلعت الباخرة. وجاء الربان للتأشير على بطاقات المسافرين، فلما أخذ تذكرة الإمام سأله: وأين التابع؟ وتضرع إليه الشيخ صبيحي ألا يرده، فأشار إلى الشيخ صبيحي، وكانت المفاجأة أن وجد بالتصريح تذكرة بالدرجة الثالثة لتابع الأستاذ، فعاوده الربان وقال: هل هذا أبوك يا شيخ ماضي؟ ساعد له مكاناً مناسباً حتى تكون عني راضى، فتهللت أسارير الشيخ صبيحي بعد أن امتقع لونه خيفة وريبة، وحصلت له مع الربان صحبة طيبة، وذهب مع أستاذة إلى سواكن حيث وصلها في ١٠ شعبان ١٣١٣ الموافق ٦ فبراير ١٨٩٥، وطابت له الإقامة سنة كاملة.

(١) دابتا الركوب، والأتان أننى الحمار.

(٥) الانتقال إلى سواكن بالسودان:

و فى ١٠ شعبان من عام ١٣١٣هـ (٦ فبراير ١٨٩٥) إبان الأيام الأخيرة من حكم المهديّة بالسودان، توجه الإمام رضوان الله عليه من مصر إلى بلاد السودان ليرفع لواء العلم عاليًا خفافيًا (لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت) (١). وقد بذل الإمام كل جهده فى تربية النشء التريية الدينية السليمة، وهو الجيل الذى سوف يتولى القيادة، والذى سيعول عليه فى بناء المجتمع السودانى المتحرر من قيود الاستعمار. وظل الإمام بالسودان حتى عام ١٩١٥م فيما عدا عام واحد قُضى فى مدينة أسوان بعد سواكن.

و كما كانت مدينة المنيا هى الأفق الأول لدعوة الإمام فى مصر ومنها أذن بنشر الدعوة.. كذلك كانت سواكن بالنسبة لمدن السودان.

و عند دخول الإمام رضوان الله عليه ميناء سواكن، كانت تعتبر من أكبر وأغنى مدن السودان، يسكنها خليط من العرب والبجة (٢)، ويحكمها البريطانيون باسم الخديوى (٣). وكانت سواكن تعج بالسكان الذين يعملون بالتجارة، وازدهر عمرها، وأقيمت بها الوكالات التجارية ومخازن البضائع، كما انتعشت فيها الصناعة والتجارة، وبها العلماء والقضاة الشرعيون ومشايخ الطرق الصوفية والصناع، واشتهرت بأنها عروس البحر الأحمر. وهى جزيرة فى خليج

(١) الطراني فى الكبير، والسيوطى فى الجامع الصغير.

(٢) قبيلة سودانية.

(٣) وذلك قبل انفصال السودان عن مصر.

بالبحر الأحمر، ويربطها بالبر- وهو وما يعرف باسم القيف- جسر ترابي، ويقابلها بالشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ميناء جده بالأراضى الحجازية.

و كان الجهل والامية متفشيان فى أوساط العامة، كما تفشت الكثير من المعتقدات والعادات التى تتنافى وروح الشريعة الإسلامية، لا سيما تلك المعتقدات الخاصة بالطريق إلى الله ودعوى النفع والضرر والحداد على الميت وتقديس الأشخاص وشرب الدخان.

وكعادة الإمام رضوان الله عليه، فإنه لم يكتف بواجب وظيفته كأستاذ بالمدرسة الأميرية، بل بادر إلى الدعوة لله تعالى فى المساجد والزوايا والمجتمعات العامة والخاصة والمناسبات والاحتفالات الدينية.

و فى عام ١٨٩٨م خضعت سواكن للاحتلال الإنجليزى. وكان الناس فى شغل عن المدارس والتدريس، فالكل خائف من عدوهم الخارجى ومن الوشائيات التى يدبرها أهل البلد فيما بينهم وذلك نتيجة لوجود الحكم العسكرى فيها واستقطابه لبعض الأهالى، فكان وجود الإمام بينهم بعلومه ألفة لقلوبهم فصاروا بنعمة الله إخواناً، وحببهم فى العلم وفى تلقيه، فما لبثوا أن أقبلوا عليه لتلقيه بالمدارس لأبنائهم، وبالمساجد لأنفسهم وأرواحهم.

و قد أكرم الله تعالى أهل سواكن خواصها وعوامها وعلماءها بالإمام رضوان الله عليه، فتلقوا منه- كل على قدر سعته- هاطل الفيض الأقدس. وقد أخبر الإمام عن ذلك فى سيرته الذاتية فقال: (.....) ثم إلى سواكن وفيها قرأت البخارى لعلمائها وقسم العبادات من الموطأ، وصار لى إخوان يحسنون الاقتداء والفهم فى علوم الحكمة العالية).

و كما ذكرنا آنفاً، لقد تأثر جميع سكان سواكن بوجود الإمام عليه السلام بينهم، لأنه كان يصرف جميع أنفاسه بعد العمل المدرسى فى الدعوة إلى الله وتعليم الناس وتربيتهم وتنوير عقولهم، لذا كان أثره فيهم بالغاً، ويشئ بالخير على أبطال الإسلام وينشر بطولاتهم، حتى أنه عندما وقع الأمير عثمان أبو بكر دقنه (و هو أمير الشرق وقائد قوات المهديّة بها) فى الأسر بعد فتح السودان عام ١٨٩٨م بالقرب من سواكن واقتيد مكبلاً بالحديد من سواكن ومنها إلى سجن حلفاء، جعل الناس يضحكون عليه شماتة واستهزاء، فانبرى لهم الإمام قائلاً ومنبهاً: (أتضحكون على مسلم يحارب أعداء دينه ووقع فى الأسر؟!) . وفى المدرسة الأميرية بسواكن أخذ الإمام يلقى على تلاميذه الدروس فى عظمة الجهاد والمجاهدين مبيناً مآثر الأمير عثمان دقنه وماله من فضل فى محاربه الإنجليز وأعوافهم، مما جعل التلاميذ يتأثرون بذلك وتنمو فيهم الروح الوطنية والغيرة على الإسلام. وأثمرت هذه النفثات المباركات على تلاميذه، ومن بينهم المؤرخ السودانى الشهير محمد صالح ضرار الذى دون تاريخ السودان عامة وتاريخ سواكن خاصة. وقد كتب هذا المؤرخ الكبير فى مقدمة كتابه (تاريخ سواكن والبحر الأحمر) قائلاً: وفى أحد أيام الدراسة ألقى علينا أستاذنا السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام محاضرة كلها بطولة وثناء على الأمير عثمان أبو بكر دقنه، فتاقت نفسى منذ ذلك التاريخ للبحث عن حياته. لقد أثمر وجود الإمام عليه السلام بسواكن فى تكوين رجال حملوا مشعل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فنشروا الطريق وأقاموا المساجد والزوايا وأحيوا موات القلوب وصححو عقائدهم وجاهدوا فى الله حق جهاده.

وكان الإمام قد أرسل أسرته من بلدة الإبراهيمية إلى المطاهرة ليقيموا بها خلال إقامته بالسودان؛ لأنه لم يوافق على اصطحاب أسرته معه إلى سواكن بسبب

المعارك التي كانت لا تزال قائمة بين رجال الدراويش بزعامة الأمير عثمان دقنه من أنصار المهدي وبين القوات المصرية وقت ذاك، فخشى أن يعرض أسرته لويلات هذه الحرب، فذهب بمفرده إلى سواكن، حيث كانت القوات المصرية تعمل على تطهير جيوب رجال الدراويش الذين كانوا يحيطون بمدينة سواكن بقيادة هذا الأمير الشجاع!!.

و من المساجد التي كان يلقي الإمام فيها دروسه: مسجد تاج السر (نسبة إلى الشيخ تاج السر شيخ الطريقة المرغنية وقتذاك بشرق السودان لأن الطريقة المرغنية لم تكن موجوة في ذلك الوقت إلا بشرق السوان فقط)، فالتف حوله جمع كثير من أبناء سواكن، وجمع الله عليه إخواناً يحسنون الاقتداء والفهم في علوم الحكمة العالية، نذكر منهم فضيلة الشيخ عبد الرحيم الحيدري السواكني، فقد كان نائباً للطريقة المرغنية بمدينة سواكن، وكان من أكبر أثرياء البلدة، وكان وقتئذ خليفة خلفاء الطريقة المرغنية في شرق السودان، وتعلق قلبه بالإمام تعلقاً شديداً وصار من أقرب المريدين له وألصقهم بدعوته.

وكان الإمام عليه السلام - كعادته كلما دخل بلدة من البلاد - يرى بنور بصيرته الرجال الذين سبقت لهم من الله الحسنى والمطلوبين لرحابة، فلما دخل سواكن سأل تلاميذه عن رجل صالح اسمه (عبد الرحيم)، فدلوه على الرجل إثر الرجل ولكن الإمام لا يرى فيه إمارات الرجل الذي يراه بنور بصيرته، إلى أن كان آخر رجل يحمل هذا الاسم وقال تلاميذه إنه شيخ الطريقة المرغنية ولا يفتر عن ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وعرف مكانه وتوجه إليه.

و في أحد المساجد- ويرجح أنه مسجد تاج السر- كان اللقاء بين الإمام والشيخ عبد الرحيم الحيدري السواكني وكان يلقي درسه بهذا المسجد، قرأ فيه الإمام إمارات الرجل الذي ينشد مقامه، وستر عنه حاله، وتودد إليه، وعكف على خدمته يناوله وضوءه ويحمل له عصاه ويقدم له الماء، حتى توثقت عرى المحبة بينهما.

و لما دنت ساعة الإكرام من الله وحان الوقت ليكشف الغطاء ويزال الستار عن قلب الشيخ عبد الرحيم ليعرف الإمام وخصوصيته، وكما في الحكمة (إذا أراد الله أن يكرمك بصحبة رجل من الرجال، طوى عنك بشريته وأظهر لك خصوصيته)، وكان ذلك في ليلة النصف من شهر شعبان، إذ أن الإمام عليه السلام اعتاد أن يحيى هذه الليلة- التي يفرق فيها كل أمر حكيم- بصلاة ودعاء مخصوصين وقراءة سورة يس ويفسر سورة الدخان، وفي تلك الليلة وبعد صلاة المغرب طلب الإمام من الشيخ أن يقوم بإحيائها فسأله الشيخ عبد الرحيم: كيف نحيتها؟ فأجاب الإمام بكذا وكذا، فقال له الشيخ عبد الرحيم: تقدم لإحيائها. صلى الإمام بهم ودعاهم وقرأ سورة يس ملاحظاً ما في الدعاء من أسرار وأنوار، ولما فسر لهم الإمام سورة الدخان، أنسابت المعاني من قلبه على قلب الشيخ عبد الرحيم مجلية حجاب الغشاوة عنه ومزيلة الرين ومظهرة جمال وخصوصية الرجل ومكانته.

وبالفعل لقد كانت تلك الليلة هي الفارقة الفاضلة، فعندما انتهى الإمام من الإحتفال بليلة النصف من شهر شعبان، سار الشيخ عبد الرحيم مع الإمام حتى أوصله داره ثم قفل راجعاً إلى داره، وقد استولى على قلبه حال قاهر، وما أن وصل داره حتى رجع مره أخرى لدار الإمام والشوق يقوده فقد اتقدت نار المحبة واستولت على فؤاده، رحب به الإمام، وبعد أن جلس مع الإمام وبدون أن يتكلم،

استأذن وخرج، وما أن وصل إلى منزله حتى عاوده الحنين إلى الإمام، فتوجه إليه. وتكلم الشيخ عبد الرحيم في هذه المرة الثالثة قائلاً: اعف عني يا سيدى لما كنت تقوم به لى، أنا أبحث عنك منذ سنين وأنت تخدمنى!! أنا منذ اللحظة خادمك.

و قد بلغ الحب بالشيخ عبد الرحيم منتهاه، فقال معرباً عن ذلك:

وإذا الجبال ترحزحت ^(١) عن أرضيها	عن حينا في الله لا تتحول
وحى السماء منزل بيوتنا	و حقائق الآيات عنا تنقل
و لقد ورثنا المرسلين بعلمهم	و لنا من الغيب المقدس منهل
طافت حوالينا الجبالى أولاً	و الحال موصول بنا لا يفصل
سادت على كل الرجال صغارنا	و كبارنا منها النوائب تذهل
و إذا تجلى بالجمال حيينا	في الأولياء فلنا الطراز الأول
قل للحسود احسء فإنك جاهل	بجناننا يتوسل المتوسل
يا حسرة على الحساد إن قيودهم	ثقلت عليهم خاب كل مؤول
و لو أنهم تركوا سوى والغير	من قلوبهم فازوا بكل مؤمل

و خلال فترة وجود الإمام بسواكن، ونظراً لقربها من المنطقة الجنوبية التي تنتشر بها الوثنية، فقد كان يرسل إليها بعض أتباعه في صورة تجار حاملين الملح نظراً لعدم وجوده عندهم. فإذا أنسوا لهم كانوا يعرضون عليهم مبادئ الإسلام في صورة سهلة سمحة رغبت فيه الكثير، وهنا تنبه الإنجليز إلى خطر الإمام الذى أوفد أتباعه إلى تلك المنطقة التي تجوها جيوش المبشرين، فكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى نقل الإمام إلى مدينة أسوان.

(١) وقد ذكرت أيضاً باللفظ: (تحولت)

و لما انتهت السنة الدراسية الأولى عاد الإمام إلى مصر وبصحبه الشيخ صبيحى، وكان فى استقباله بميناء السويس الأفاضل على بك علمى، وأحمد الصنفاوى، ومحمد عبد الجواد، ومحمد يوسف وغيرهم، ولجى دعوتهم وقضى بالإبراهيمية شرقية أياماً عاد بعدها إلى المطاهرة حيث إقامة الأسرة ومعه الشيخ صبيحى. ومكث الإمام شهوراً ثلاثة متنقلاً فى ربوع مصر يزور الأولياء فى مراقدهم وكذلك والديه. وفى نهاية الأجازة نزل ضيفاً على محافظ السويس وهو والد فريد بك وجدى المؤلف الكبير فزادت بينهما صلة الود. وفى الإجازة الصيفية للعام الثالث زار الإمام مصر وعلم بأمر انتقال وظيفته إلى أسوان، فرحل بأسرته إليها.

(٦) الانتقال إلى أسوان:

تسلم الإمام عمله الجديد بأسوان- وكان بصحبته عائلته- أواخر شهر جمادى الأولى ١٣١٦ الذى وافق ٨ أكتوبر ١٨٩٨، ومكث بها عاماً واحداً.

وعلى غير ما اعتادت عليه أسوان، وعلى غير مثال ما سبق، اكتظ الجامع الكبير بأهل البلدة لسماع دروس الإمام، وجمع الله عليه الخلق يستمعون إليه وينصتون. وكان من بين تلاميذه الذين توثق رباطهم به: الشيخ محمود العقاد (والد الكاتب عباس محمود العقاد)، وماهر بك (والد على باشا ماهر وأحمد بك ماهر الذين أحبوا الإمام حباً جماً)، وقاضى المحكمة الشرعية وفقهها، وعائلة بشندى، وأحمد أفندى إبراهيم ملاحظ شونة الملح، والجداوى الذى تظاهر أنه من تلاميذ الإمام ومريديه رغبة فى أن يتعلم منه الاسم الأعظم ليقضى حاجاته، وكان قاضياً بمديرية سنار بالسودان قبل الثورة المهدية ثم فر منها راحلاً إلى أسوان حيث أستقر فيها، وحسده على تلك المترلة التى أنزله الله، وهاله جمع الناس على الإمام

وارتباطهم به فسرت نار الحقد في قلبه وبدأ يكيد له في كل مكان محاولاً فض الناس من حوله، فاستمال قلوب الضعفاء ومنهم عمدة أسوان، وبألوان الخسة حاربوه، وبما يندى له الجبين آذوه.

و جاءت ليلة هي خير من ألف شهر.. جاءت ليلة القدر، اختاروها إمعاناً في إيذائه ﷺ. إن العمدة وآخرون قد حركوا الأهالي لقذف منزل الإمام بالطوب والحجارة طوال الليل، كل ذلك والإمام في خلوته آنساً بربه يناجيه، قائماً لليلة القدر إيماناً واحتساباً كما أمر الرسول الكريم. ولما حانت صلاة الفجر، صلى الإمام بمن معه في الخلوة، ثم جلس متأثراً بما يحدث، وتوجه قلبه إلى مولاه، وجعل يملئ القصيدة الآتية:

و إمهالهم للعز لا للمذلة	نعم لرجال الله وصف الحنانة
يقطع أعناقاً بعزم النبوة	و سيفهمو ماض إذا سل لحظة
تدك لها من خشية بل ورهبة	و همتهم فوق الجبال إذا بدت
له كل أركان الوجود برمية	و سهمهمو إن قوسوه تدكدكت
بدى سوط سخط الحق من كل وجهة	وإن نظروا يوماً بغضب وحدة
و حال مع المختار في كل لحظة	رجال لهم حال مع الله ظاهر
يؤيدهم بالنصر بعد المشيئة	و ناصرهم ذو العز والقهر والعالا
لهم ربحهم بالفضل لى بسرعة	إذا رفعوا الأجفان يوماً لحاجة
يكن لكمو عندي بمحض الميرة	يناديهمو ليكمو ما شئتمو
أولو الفسق والبهتان حزب الضلالة	يغار علينا أن يمس جانبنا
و فيهم بدت نار الشقاق الحمية	و ها هو سوط القهر صب عليهمو
و أحرقهم بالنار نار المذلة	وعاملهم بجلاله وبقهره

طغوا وبغوا جهلاً بقدرى ورتبى
و أمهلتهم ودًا ولطفًا ورحمة
فزادهم الإمهال منى تعنتًا
ولا لوم يا قوم على فإننى
و ها هم رجال الله سلوا سيوفهم
و قاموا بأمر الله للحق ينصروا
و بالأمر قد ساروا بعزم وهمة
و حسى رب العرش والله ناصرى
عليه صلاة الله تجلّى وتُجَتَلَى

و لم يرفعوا حتى أصيبوا بنقمتى
ليرتدعوا عن فعل أهل الجهالة
إلى أن علاهم سيف ماضى العزيمة
على ثقة أنى أجاب بدعوتى
على من طغى يرموه أقبح رمية
وأمر رسول الله خير البرية
لنصرة دين بل وإحياء سنة
و طه غيائى بل ومنه معونتى
صلاة بها أحظى لنيل السعادة

و بعد ثلاث ليال من هذه الواقعة، وفى ليلة عيد الفطر المبارك، أنزل الله بالظالمين عقوبته وكفاه الله أمرهم، وثاب بعضهم إلى الحق قتاب وأناب.

و بعد هذه الحادثة، ترك الإمام هذه المنطقة، واستأجر بضاحية من ضواحي أسوان متزلاً لأحد كبار الرجال وهو بشير بك كجبال، فأنس بالوحدة وشرح الله صدره بها، وعكف على مناجاة ربه، فقيض الله له من يؤنسه من الإخوان وهو صاحبه بسواكن محمود بك صفوت العياط، الذى نقل لأسوان يوزباشى بهيئة الأركان حرب للقوات المصرية فيها، فلازمه بقية هذه السنة ملازمة الظل لصاحبه. و قد وجد الإمام جماعة كبيرة من الناس ملتفة حول رجل مشعوز. ولما سأل الإمام من هذا؟ قالوا هذا شيخ ولكنه لا يلتزم بتعاليم الإسلام، فتغير وجه الإمام حزناً مما رآه، وكيف أنهم يسمونه شيخاً وهو على هذا الحال. أدرك ذلك المشعوز أن الإمام غير راض عما رآه، وأدرك أنه سيكون خطراً عليه، فاحتاط لنفسه وأرسل أحد

أتباعه المشعوذين بعضا ليأتى بالإمام أبا العزائم عليه السلام ويسحره بها. ولما قرأ هذا المشعوذ على العصا بسحره، قرأ الإمام أيضاً قول الحق: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ **الأنبياء: ١٨**، فسقطت العصا من يد المشعوذ فأخذها الإمام ووضعها بجانبه ثم ألقى درساً نافعاً ممتلئاً بالخشية من الله، فتاب الرجل على يد الإمام وعزم على ألا يعود إلى السحر مرة أخرى، فقال له الإمام مداعباً: (لقد أتيت لتسحر أبا العزائم عليه السلام فسحرك أبو العزائم عليه السلام)، أى سحرك بالبيان والعلم مصداقاً لقول النبي ﷺ **﴿وَالله﴾**

: (إن من البيان لسحرا) (١) .

و لما حانت الإجازة الصيفية، توجه الإمام في سياحة طويلة من أدنى صعيد مصر إلى الوجه البحرى زار فيها بلاداً كثيرة وأحباباً كثيرين. وأثناء هذه السياحة، علم سماحته أن وظيفته قد انتقلت إلى سواكن مرة أخرى.

(٧) سواكن مرة أخرى:

و مرة أخرى عاد الإمام إلى سواكن واستقر بها عامين جدد فيهما شباب دعوته إلى الله تعالى والتي كان قد بدأها من قبل.

و كانت القبائل تستضيفه في سباق بينها على المدة التي يقيمها لدى كل منها أثناء زيارته للمناطق الممنوعة في جنوب السودان، فلم يترك بقعة به إلا زارها وترك فيها أثراً طيباً، وكانت مراكز دعوته هناك أكثر من ثلاثين مركزاً يقوم عليها أبناءه ومريدوه الأوائل وعدد من الشيوخ الذين عاصروه.

(١) البخارى والإمام أحمد فى المسند ومالك فى الموطأ وأبو داود والترمذى والسيوطى فى الجامع الصغير.

(٨) الانتقال إلى وادى حلفا:

وفى حلفا التى أصبحت محلاً لعمله، كان الناس مشغولين بالملاهى عاكفين على ملاذ الدنيا واحتساء الخمر، منصرفين عن المسجد معرضين عن طلب العلم، فاهتم بتعمير مسجدها واستكمالها، وحث الناس على المسارعة فى الفضائل والنأى عن الرزائل، فدبت فيه روح اليقظة الإسلامية وتوافدت على المسجد جموعهم لسماع درسه والأخذ بتوجيهه والاستنارة برأيه.

و كان يلتقى بالناس فى مجالسهم ومتدياتهم التى كانوا يرتعون فيها ليقيمهم من عثرهم ويسلك بهم سبيل الرشاد. ومن ذلك أنه دخل الحانة ذات يوم واتجه إلى منضدة كان يجلس عليها كامل أفندى مدير عام السكة الحديد فى السودان فى ذلك الوقت وجلس معه، واندesh الحاضرون، وارتبك كامل أفندى الذى طلب للإمام فنجائاً من القهوة لكن الإمام طلب كأساً من الخمر وطبقاً من الكبد الطرى وأصر على طلبه فأحضره له، وصب بعض الخمر على الكبد الطرى فظهرت حالة التليف واضحة على أنسجة قطعة الكبد وانكمشت وأصبحت قطعة ضامرة ومال لوئها إلى السواد، ثم توجه الإمام إلى كامل أفندى قائلاً: هذا ما يفعله الخمر بكبدك وأنت لا تشعر.

و أخذ يشرح للحاضرين تأثير الخمر على كبد الإنسان، وعلى عقله وهو الجوهرة التى ميز الله تعالى بها الإنسان عن غيره، ثم خرج وخرجوا وراءه مستبدلين خمرة الشيطان بخمرة الرحمن وهو نور الإيمان والإستقامة، وتبعه كامل أفندى الذى أصبح من خاصة تلاميذه ومريديه.

و كان أهل حلفا ودنقلة وشمال السودان يتسابقون إلى حلقات الإمام العلمية حتى ضاق بهم المسجد، وزار بلادًا كثيرة في شمال السودان بدعوات من مشايخ قبائلها، وجمع الله عليه رجالاً أبراراً أتقياء تلقوا عنه أوراده وأذكاره وسلكوا طريقه.

(٩) الانتقال إلى أم درمان:

من الثابت أن الإمام عليه السلام كان بمدينة أم درمان (١) في عام ١٩٠٢، والعام الذى نقل فيه إلى مصلحة المعارف السودانية، والذى افتتحت فيه كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حالياً)، إذ توجه الإمام إلى من أم درمان إلى الخرطوم مع الأساتذة العاملين بمدرسة أم درمان لحضور حفل افتتاح الكلية.

جاء الإمام إلى أم درمان وهى مثقلة بالجراحات، فقد كانت عاصمة وحاضرة الدولة المهدية والتي سقطت بمعركة كررى على مشارف شمال أم درمان، فقد

(١) تأسست مدينة أم درمان عام ١٨٨٥م عندما ارتحل إليها محمد أحمد المهدي بجيشه وآثرها على الخرطوم والتي كانت عاصمة الحكم التركى، فنمت أم درمان من مجموعة أكواخ إلى معسكر حربى إلى عاصمة للدولة المهدية، وبعد سقوط الدولة المهدية فى ١٨٩٨، انتقلت العاصمة إلى الخرطوم، وبقي فى أم درمان خليط من شتى المواطنين الذين ينتمون إلى مختلف القبائل السودانية. وأصبحت أم درمان مدينة سودانية بالمعنى القومى العريض لأهل السودان. لذا يطلق عليها وإلى الآن العاصمة القومية للسودان لأنها تكاد تكون خالية من العناصر الأوربية والأجنبية على العكس من الخرطوم والتي غلب عليها الطابع الأوربى فى ذلك الوقت ولم تعرف أم درمان التخطيط العمران الحديث وظلت محتفظه بكثير من ملامحها المهدية، ولم ترتبط مع الخرطوم بكوبرى إلا فى عام ١٩٣٢. ولذا كانت أم درمان بوتقة الوعى القومى المتنامى والذى انصهر فيها متخذاً شكل نشاط اجتماعى وثقافى ودينى.

كانت خارجة لتوها من معركة أبيد فيها الكثير من سكانها أمام الجيش الإنجليزي الغازي.

و ما أن مضى على قدوم سماحته شهر واحد حتى تكاثرت الطلبات للدخول بالفصل الذي سيدرس فيه. وقد حرص على أن يغذى عقول الطلبة بعلوم مواد السنة الأولى لدار العلوم المصرية من نحو وصرف وبيان وبديع وتفسير وحديث، فقد أنشأت مدرسة المعلمين بأم درمان على غرار مدرسة دار العلوم المصرية التي تخرج منها الإمام. ولم يترك الإمام هذه السنة الدراسية تمر إلا وقد اختبر طلبة هذا الفصل الذين كانوا نواة مدرسة المعلمين السودانية، فوجد جهوده صادفت تربة خصبة قد أثمرت في رجال كانوا بحق صفوة أهل السودان وخيرة أبنائه الذين ظلوا متمسكين بمبدئه السامي في خدمة الإسلام والمسلمين بهذا القطر الشقيق.

و كعادة الإمام عليه السلام، فلم يكن يكتفى بواجب وظيفته، بل كان يمضي جل وقته في الدعوة إلى الله. وقد كانت له حلقة علم في مسجدتها الجامع حيث قرأ الموطأ وحكم بن عطاء الله، وذكر الإمام أن أهل أم درمان يحبون العلم والعلماء إلا أنهم يحتاجون إلى مبادئ العلوم حتى يتأهلون لفهم روح الشريعة. وفي أم درمان اتصل الإمام وتعرف على كثير من الشخصيات الوطنية ذات المكانة الاجتماعية والدينية، والذين ظلوا على محبتهم وصلتهم بالإمام حتى بعد نقله للخرطوم وكذلك بعد استقراره عليه السلام في مصر، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ مدثر إبراهيم الحجاز حامل أختام المهدي- وهو من الشخصيات الوطنية البارزة، وبعد دخول الإنجليز السودان عرفوا له هذه المكانة، فكان محل إحترامهم وتقديرهم، وهو تجاني الطريقة، ربطت بينه وبين الإمام عليه السلام رابطة المحبة والأخوة في الله وفي رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام - ومن بعده خليفته الإمام عبد الله التعايشي تلميذ

الإمام، والشيخ قريب الله أبي صالح الطيبي شيخ الطريقة السمانية بأمر درمان،
والشيخ أحمد السيد مفتي السودان، والشيخ عبد الرحمن محمد أحمد المهدي،
والشيخ عبد المجيد الدفاري.

وقد كان منزله أشبه بمتنبي أدبي يضم عليه القوم بالسودان بعد صلاة العصر
إلى غروب الشمس. وكان الشيخ يسعى للجامع أم درمان العام الذي كان يقع على
بعد كيلو مترين من منزله عقب الغروب فيدرس به الفقه على مذهب الإمام مالك
رضوان الله عليه من بعد صلاة المغرب إلى ما قبل صلاة العشاء، ثم يدرس بعد
صلاة العشاء درساً خاصاً في الحديث الشريف حتى ينقضي الثلث الأول من الليل،
فيعود في موكب من طلابه إلى منزله حيث يجد كثيراً من العلماء المصريين من أئمة
القوة العسكرية قد سبقوه إليه، وكذلك قاضي قضاة السودان الشيخ محمد شاكر،
فيتدارسون القرآن ويتجادبون أطراف الحديث في غوامض أسرار الصوفية و يأخذ
أهل الذوق في القرآن الكريم إلى منتصف الليل، وبعد إنصرافهم لا يبقى معه إلا نفر
قليل، فيملي عليهم ما كانوا يجتارون في فهمه إلى الهزيع الأخير من الليل، حتى إذا
نام الموجودون تركهم إلى مخدعه للتهجد لله تعالى في صرصر الليل، فلا تغمض له
عين قبل صلاة الفجر، وبعد صلاة الفجر يذهب إلى فراشه حتى مطلع الشمس أو
بعد ذلك بقليل حيث موعد الدرس بالمدرسة. وفي السنة الثانية له بأمر درمان التف
حوله طلابه وعارفوا فضله مره أخرى بالجامع الكبير وفي المدرسة وبمنزله الشهير
الذي أصبح قبلة أنظار أهل العلم والفضل.

وقد زار المدرسة لفيف من مفتشي المعارف المصرية مع المستشارين الإنجليز بها
وحضروا درساً للإمام وحضروا أسئلته وإجابات الطلبة فأخبروا بأن إجابات الطلبة
تنبئ عن سعة في الفهم مع استجلاء لحقائق غامضة على كثيرين في فقه اللغة

ليست مشوشه بالمعقدات في كتب اللغة في أسلوب عذب بسيط، وأن ما حصله هؤلاء الطلبة يضاهي ما حصله طلاب السنة النهائية بدار العلوم بمصر إن لم يتميز عنهم في نواحي كثيرة.

وفي الجامع الكبير ازداد إقبال الخاص والعام على هذا المنهل الروى حيث قام الإمام بشرح حكم بن عطاء الله السكندري لكثيرين من علماء السودان الأعلام الذين صحبوه في هذه السنة ولازموه.

و أثناء إقامته عليه السلام بأم درمان أصدر مجلة (السعادة الأبدية) لسان حال الدعوة العزمية في وادي النيل، والتي استمرت في الصدور من عام ١٩٠٣ حتى ١٩١٥م.

(١٠) الانتقال إلى الخرطوم:

من الثابت أن كلية غردون التذكارية (١) (جامعة الخرطوم حالياً) قد افتتحت عام ١٩٠٢م . وفي العام ١٩٠٥م- وكان عمره عليه السلام آنذاك ٣٦ سنة- وعندما افتتح القسم الخاص بتخريج المعلمين المؤهلين والقضاة الشرعيين بكلية غردون، انتقل الإمام عليه السلام من مدينة أم درمان إلى الخرطوم أستاذاً بالكلية. وسكن الإمام أولاً بحى الخرطوم غرب حتى تم بناء منزله بمنطقة برى والتي تقع إلى الشرق من المدينة، والكلية تبعد عن السكن بحوالى ثلاثة كيلو مترات، ويفصلهما ثكنات الجيش. ومنطقة برى مقسمة إلى أربعة أحياء، سكن الإمام بحى برى المحس (والمحس هى قبيلة فى شمال السودان كان أغلب سكان هذا الحى من هذه القبيلة).

(١) جاءت التسمية تخليداً لذكرى اللورد غردون آخر حاكم عام للسودان فى عهد الحكم التركى الذى سبق الحكم المهدى.

وقد قتله أنصار المهدى عند فتحه للخرطوم عام ١٨٨٥م.

والمترل الذى سكن فيه الإمام يقع على مساحة تقارب ٤٠٠ مترًا مربعًا، ويحيط به الجيران من الناحية الشمالية والغربية، وإلى الجنوب زقاق ضيق، أما المدخل الرئيسى فمن الناحية الشرقية (اتجاه القبلة فى الخرطوم) . بنى المترل من الطوب الأحمر، ولا يزال المبني كما هو حتى الآن، ومن طابق واحد كما هو الحال فى كل منازل المنطقة. وأغلب سكان منطقة برى من السودانيين الذين يعملون كحرفيين، وقليل من المصريين الذين يعملون كموظفين فى دواوين الحكومة، وخلت تمامًا من الإنجليز. وللمترل فناء شرقى كبير (حوش) كان يعقد فيه الإمام للدرس وتقام فيه الصلوات والحضرات ويجتمع فيه مع تلاميذه ومريديه بعد العصر. كما كان بالمترل صالون (صاله استقبال) لاستقبال الضيوف ومقيلهم نهارًا. كما كان للإمام حجرته الخاصة. سكن الإمام برى لمدة تقارب العشر سنوات. وكان فى الإجازة المدرسية للكلية يتزل إلى مصر مستقلًا القطار ويتزل فى المحطات التى بها إخوان بناء على دعوات مسبقة منهم. التف الكثير من سكان برى ونواحيها المختلفة حول الإمام، فهدى الله على يديه الكثير ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فكان الإمام لهم الأب الحنون والشيخ الربى والملاذ الآمن والمرشد الدال على الله تعالى، ولذلك أحبوا الإمام وتعلموا له، وأطلق الكثير منهم اسم الإمام وكنيته على أبنائهم تبركًا به.

وفى برى أقامت معه أسرته حيث كان يهتم غاية الإهتمام بتربيتهم وتعليمهم، من بينهم ابنه الأكبر سماعة السيد أحمد ماضى أبو العزائم عليه السلام الذى كان يعده منذ نعومة أظفاره إعدادًا خاصًا لحمل أمانة الدعوة إلى الله تعالى من بعده، حيث خلفه فيما بعد فى دعوته عقب انتقاله إلى جوار ربه.

و كما هى عادة الإمام، يذهب إلى عمله بالكلية صباحاً ممتطياً دابته ويعود إلى بيته كذلك فى نهاية عمله اليومى، وكان بعض طلبته يرافقه فى غدوه ورواحه لزيادة تحصيل العلوم فيسألونه ويحيب.

و فى برى اجتمع على الإمام تلاميذه الذين تلقوا عنه هائل فيض علمه وحملوا مشعل الدعوة إلى الله بعد نزوله لمصر، كما تعرف به واتصل به فى داره ببرى الكثير من الشخصيات والمريدين والأحباب، وقد تفاوتوا فى معرفتهم وقرهم من الإمام. وكان يقيم مع الإمام ويلازمه أبكار تلاميذه من الأفراد وهم الشيخ عبد الرحيم الحيدرى السواكنى، والشيخ محمد صبيحى، والشيخ أمين الأرزهللى، ولحق بهم الشيخ مفتاح زيدان، وكذلك المشايخ الأفاضل محمد نجاتى، والحناوى، وعبد الرحيم عياد، والسيد سالم، وأحمد النور عمار. وأسس الإمام فى برى زاوية آل العزائم ، والموجوده حتى الآن للصلاة ولتحصيل العلوم الدينية.

و كانت له دروس بداره يلقيها بعد صلاة العصر. وفى مسجد الخرطوم الكبير كان للإمام مجالس ذكر وعلم منتظمة امتدت لما يقرب من عشر سنوات كان يدرس فيها تفسيره للقرآن الكريم (أسرار القرآن) والموطأ والبخارى وقسم العبادات من مدونة مالك ابن أنس.

و كان كثير من الناس- وحتى زماننا هذا- يعتقد أن الشيخ الولى هو ذلك الرجل الصالح ذو الكرامات وخوارق العادات والبركات الذى يكتر من ذكر اللسان ويعقد حلقات الذكر مصحوبة بالنوبة والطار، وهما من أنواع الدفوف. جاء الإمام عليه السلام إلى مسجد الخرطوم الكبير والحال والاعتقاد عند كثير من الناس على ما أسلفنا، فأراد أن يجذب الناس ليعلمهم، لأن العلم عنده سابق العمل، وكما

روى فى الحكمة عنه: (أول الطريق علم وأوسطه عمل وآخره موهبة)، وقوله:
(عمل بلا علم ضلال، وعلم بلا عمل وبال) .

ومن بالغ حكمة الإمام عليه السلام ورأفته أن بدأ بعقد حلقة الذكر ليحذب الناس إليها بعد الصلاة ذاكرًا (الله - جهراً، ثم يجلس ليعلمهم أمور دينهم وفقه العبادات وتفسير القرآن الكريم، فالذكر أولاً يجذب القلوب ويجمع الهمم ويوقظها ويهيئ النفس لتلقى العلوم.

و بهذه الطريقة التجديدية فى الأسلوب والأدب، جذب الإمام الكثير من سكان الخرطوم لحلقته، فبدأت تنمو وتكبر. وقد كان عليه السلام يبدأ دروسه بفقه العبادات التى لابد منها ليقيم المسلم دينه، ثم ينقله بعد ذلك إلى علم أعلى فأعلى، حتى إذا تأهل أفاض عليه من علوم الحكمة العالية ومشاهد التوحيد، فقد كان هذا دأبه فى كل مجالسه، حتى فى الدرس الواحد يبدأ متزلاً ثم يعلو بالحديث.

و لقد حاول غير مرة بعض علماء السلطة وأدعياء التصوف الوشاية به لدى السلطات لتأليبهم ضده، ولكن الله كان يقيض له من يدافع عنه ويكشف الأمر على حقيقته.. ومن بينهم عمدة مدينة الخرطوم فى ذلك الوقت واسمه المرضى الخضر، وغيره، وازداد قدم الإمام رسوخاً وازداد الناس ارتباطاً به، ينهلون من فيض فضل الله تعالى المفاض عليه.

و قد دب الخلاف بين مجموعة من القضاة ومنهم الشيخ محمد بك الخضرى وبين الإمام على أساس أنهم يريدون فرض تدريس مذهب الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه نظراً لأنه المذهب الرسمى المعمول به فى مصر، والإمام يرى أن يكون دراساته على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه لأنه المذهب الوحيد بالسودان وبه يعملون.

واستقر رأى ولاية الأمور حسماً لهذا النزاع أن تقسم الكلية إلى قسمين: أحدهما لتخريج القضاة الشرعيين يستقل به الخضرى بك، والآخر لتخريج المعلمين يتولى التدريس فيه الإمام ويعاونه الشيخ الطباخ.

و كان الإمام يؤلب الناس ضد الاحتلال البريطانى، ومن دعائه الذى كان يدعو به أن يهلك الله الظالمين بالظالمين والكافرين بالكافرين وأن يخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين، وظل على ذلك إلى أن حيل بينه وبين مزاولة عمله كأستاذ لمادة الشريعة الإسلامية بكلية غردون لأسباب سنعرض لها فيما بعد.

و قد كان الإمام حتى وهو بالخرطوم يحقد عليه الحاقدون من بعض علماء ومشايخ مصر، وقد كان الإمام فى زيارة لبلدة آبا الوقف بمصر أثناء العطلة الصيفية وأمضى بها أسبوعاً، وبعد سفره إلى السودان قام أحد العلماء بإلقاء خطبة الجمعة بمسجد سيدى إبراهيم الشلقامى بآبا الوقف وأخذ يطعن فى الإمام طعنًا شديداً. وأثناء ذلك إذ بالإمام وهو بالسودان يملأ قصيدة فى التو والخال فيقول رضوان الله عليه:

تأدب فسيف القوم ماض مجرد يقومه شهم بطه مؤيد
إذا ما دنا لله يومًا بطرفه تلييه أملاك السماء وتنجد

و إذ بخطيب المسجد هذا يقع من على المنبر ولا يستطيع الحركة بعد ذلك. إن الله غيور على أحبائه وغيور على أوليائه، ومن عادى الله ولياً فقد آذنه الله بالحرب، ولكنها أسباب تأخذ مقتضاها، وإن من أمة رسول الله محدثون- أى تحدثهم الحقائق- كما أخبر رسول الله ﷺ وآله.

و كان عليه السلام يعظ ويبشر، فهدى أناساً كثيرين مُنحوا القابل فتلقوا هذا الفيض المقدس الذى أثمر فى أرض النفوس الطاهرة، وكان يدرس فى الخلوة علوم السادة الصوفية لمن صحبوه فكان لهم الحظ الأوفر فى تزكية نقوسهم على يديه سماعاً من درره المنثورة وحكمه المضمونة وأسراره الغامضة فى تلك العلوم.

و فى إحدى حلقات دروسه بالمسجد الكبير بالخرطوم تكلم بمعانى عالية راقية أدهشت السامعين، مما دعا أحدهم إلى مقاطعته قائلاً: كلام من هذا يا مولانا؟ هل هو كلام سيدى عبد القادر الجيلانى؟ فأشار إليه بيده وقال: انتظر يا بنى - ثم واصل الحديث وأتى ببيان أعجب مما تقدم، فلم يتمالك الرجل نفسه وقال: كلام من هذا يا مولانا؟ هل هو كلام سيدى محيى الدين بن عربى؟ فقال انتظر يا بنى - ثم واصل الحديث، وعلا بالعبارة حتى أسكر الحاضرين وأخذ بمجامع القلوب، فما كان من الرجل إلا أن وقف منبهراً وقال: كلام من هذا يا مولانا؟ هل هو كلام سيدى أبو الحسن الشاذلى؟ فقال: عليه السلام سائلاً: يا بنى: من الذى أعطى الشيخ عبد القادر الجيلانى؟ قال الله، فقال: ومن الذى أعطى سيدى محيى الدين بن عربى؟ قال الله، فقال: ومن الذى أعطى سيدى أبي الحسن الشاذلى؟ قال الله، فقال عليه السلام: هل عطاء الله مقطوع أم ممدود؟ قال ممدود، عندئذ قال الإمام: إن الذى أعطى الجيلانى والذى أعطى ابن عربى والذى أعطى الشاذلى هو الذى أعطانى. ففهم الحاضرون أن عطاء الله لأحبابه وأوليائه لا ينقطع ما دامت السموات والأرض لأن خزائنه عز وجل لا تنفد، وإنما يتزل منها على أحبابه وأوليائه بقدر ما يناسب عصورهم وأزمانهم وحاجة تلك الأزمان .

و فى برى حدثت حادثة مشهورة، وهى أن الإمام رضوان الله عليه كان بمترله يلقى درساً خاصاً لعلماء السودان. وأثناء الدرس خرج أحدهم ثم عاد يلهث من

شدة الجرى وقد اعتراه خوف وهلع شديد، فخرج الإمام من الدرس وأخذ يهدىء من روعه، فأخبره أنه رأى على البعد أسداً فولى منه هارباً فلحقه الأسد على بعد خطوات قليلة من باب المنزل. ففتح الإمام الباب والجميع يشاهدون، وواجه الأسد فطأ رأسه وهز ذيله، فقال الإمام: ألم أقل لك لا تقترب من ضيف لنا؟؟ اذهب وسيرزقك الله.. فانصرف الأسد.. وأمام دهشة الكل قال الإمام: أيها الرجل زينتم ظواهركم فخِفْتُمُ الأسد، وزينا بواطننا فخافنا الأسد.

و لعل أحد يتعجب من ذلك، ولكن صدق رسول الله ﷺ وآله حيث قال: (من خاف الله خوف الله منه كل شيء) (١).

و قد مرت أحداث مثل هذه لبعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، نذكر منها هذه النماذج:

(١) روى عن سيدنا سفينة ؓ أنه لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم برسالة خرج مسافراً وسط البوادي، فخرج عليه أسد، فتقدم منه سيدنا سفينة وقال له: أنا رسول رسول الله، فطأ الأسد رأسه وهز ذنبه وانصرف.

(٢) وعند فتح شمال أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع، فقد روى أنه حين وصل بالجيش إلى الشاطيء الآخر وجد الأسود والوحوش رابضة في مكانها، فتقدم منها وأمرها أن تنصرف بإذن الله فانصاعت لأمره، حتى كانت اللبوة تأخذ أولادها في أسنانها وتهاجر إلى مكان بعيد حتى خلا المكان لجيش المسلمين، حيث بنى مدينة القيروان التي فتح من خلالها كل شمال أفريقيا.

(١) أبو الشيخ في كتاب (الثواب) والمنذرى في الترغيب والترهيب.

و غادر الإمام السودان فى عام ١٩١٥ عائدًا إلى مصر قبل أجازته السنوية بشهر، بعد أن ربى رجالاً بالسودان جاهدوا فى الله حق جهاده، عرفوا أنفسهم فعرفهم الله بصفاته العلية، وأطلعهم عز وجل على أنواره القدسية، وأفاض عليهم من علومه الوهية وأسراره الحكمية ما تعجز عنه العبارة ولا تفى به الإشارة.

و كان الإمام يعلم أنه بسفره هذا لن يعود إلى السودان، فصارح خاصة خاصته بذلك ووزع عليهم مهامهم فى الدعوة. وقد تكتم خبر عدم العودة. عن العامة حيث كانوا يودعون فى سفره وهم لا يعلمون أنهم لن يرونه مرة أخرى بالسودان.

سبب انتقال الإمام من السودان نهائياً إلى مصر

سلط كتاب (تاريخ السودان الحديث) (١) الأضواء على حال المسلمين في الوقت الذى كان الإمام يعمل به في السودان وقبلها، وكذلك نظرة المستعمر إلى الإسلام، فقال:

((اهتم البريطانيون بالإسلام اهتماماً خاصاً نابغاً من إدراكهم لخطورته في المجتمع وفرق البريطانيون بين نوعين من الإسلام في السودان: إسلام صوفى سموه الإسلام الشعبى، وإسلام سنى سموه الإسلام التقليدى. وحاربوا الإسلام الشعبى الذى يمثل الصوفية لأنهم السبب الأساسى في الثورة المهدية حيث تمكن حفنة من الصوفية من نفجير ثورة قوضت النظام التركى، وعزى الإنجليز ذلك إلى قوة ونفوذ الصوفى أو الشيخ.

ومما ضاعف من خوف الحكم البريطانى من الحركات الدينية أن القيادة البريطانية في السودان كانت في يد شخصيات ذات خلفية أمنية وتدريب أمني، فالحاكم العام (رونالد ونجت) والمفتش العام (سلاطين) كانا في جهاز الاستخبارات، فكان أى تحرك ديني يوضع تحت المجهر الأمنى، وكانوا يتوهمون بهاجسهم الأمنى أن المهدية يمكن أن تتكرر.

تعامل البريطانيون مع العلماء السنيين ليكونوا لهم عوناً في تحقيق الاستقرار، كما اتجهوا إلى الطرق الصوفية التى عارضت المهدية. لذا أنشأت الإدارة البريطانية

(١) (خلال الفترة ١٨٢٠-١٩٥٥م)، لمؤلفه محمد سعيد القدال. مطابع شركة الأمل للطباعة والنشر، الخرطوم- السودان.

في عام ١٩٠١م لجنة العلماء التي تكونت من علماء الإسلام الذين تلقوا دراسة أزهريّة أو ما شابهها، ومن الذين لهم مكانة دينية مرموقة، وهي لجنة استشارية ترجع إليها الحكومة في المسائل ذات الطابع الديني، وجعلت منها الوكيل المعترف به لدى جمهرة المسلمين، وحصلت منها على تأييد بعض إجراءاتها حتى تجد قبولاً وسط أهل البلاد، فيقوى موقفها لحصولها على تأييد أعلى هيئة دينية. وعندما أصدرت الحكومة قراراً بمنع الاجتماعات الخاصة بما في ذلك نشاط الطرق الصوفية، أعلنت اللجنة موافقتها على القرار ووصفته بأنه يتمشى مع الإسلام. وكانت الحكومة البريطانية بالسودان كثيراً ما تستدعي اللجنة للتحقيق في نشاط رجال الصوفية الذي يحمل تهديداً للأمن واعتمدت على تلك التحقيقات في اتخاذ خطوات قمعية.

و عند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م ودخول تركيا الحرب ضد بريطانيا وإعلانها الجهاد الإسلامي، استنجدت الحكومة بالعلماء وبعض الزعماء الدينيين فأعلنوا تأييدهم للحكومة وعارضوا دعوة السلطان العثماني وأرسلوا برقيات التأييد للحاكم العام ((ونجت)) والتي جمعت ونشرت في كتاب باسم ((سفر الولاء)). وعندما انتصرت بريطانيا في الحرب كان ضمن الوفد السوداني الذي ذهب إلى إنجلترا لتهنئة الملك مجموعة من العلماء والزعماء الدينيين)).

من هذه المقدمة يتبين لنا الجو العام الذي أحاط بعودة الإمام إلى مصر نهائياً. ومن ناحية أخرى، فقد كشف الإمام الغطاء عن العلماء بالدنيا والجهلاء بالآخرة وكذلك أدعياء التصوف، وهم الذين استمالهم الحكم البريطاني إليه لتنفيذ مآربه، وهم منسوبون إلى الصوفية والتصوف ظلماً وزوراً.

قام الإمام في دروسه بتوعية المسلمين من شر هؤلاء، مبيناً أنهم يُموّهون على العامة بأنهم الدعاة إلى الله الوارثون لأحوال الأقطاب وأنهم يمكنهم النفع والضرر، ويلفتون المسلمين عن العمل الواجب عليهم شرعاً وعقلاً من العلم والعمل للدنيا، ومن هؤلاء من يعلن شرف انتسابه لأهل البيت. بين رضوان الله عليه أن من ينتسب لأهل بيت رسول الله ﷺ وآله ﷺ ويخالف سنته فليس منه، وإنما هو دعى ينتسب إلى غير أبيه. كشف الإمام الغطاء عن هؤلاء الأدياء، لذا قاموا بالوشاية والكيد له عند الحكام الإنجليز وأوهموهم بأنه يعمل على تحطيم نفوذ الأئمة الدينين والذين يعتمد عليهم الإنجليز في قبول حكمهم لدى الأهالي، وبلغ بهم الأمر أن أقموا بأنه يدعى المهدي وأنه سوف يظهر كمهدي يحمل الراية السوداء، كما جندوا بعض أتباعهم للعمل كجواسيس لدى الإنجليز لينقلوا ما يدور في مجالس ودروس الإمام عليه السلام.

كان البريطانيون مدركين لدور الدين في حياة السودانيين لا سيما وأن حكمهم في حقيقته إنما هو احتلال صليبي استعماري على أنقاض دولة وطنية مسلمة. فقد كتب اللورد ملنر: (إن خضوع المسلم لحاكم مسيحي يعارض روح الإسلام نفسها)، وعبر أحد البريطانيين عن خوفه من الحركات الدينية وإمكانية انفجارها في السودان حيث التطرف الديني كامن في عمق بسيط تحت السطح. وكان الحاكم العام البريطاني ونجت باشا أكثر وضوحاً وصراحة حين قال: (يتعين علينا ألا نتراخي لحظة في احتياطاتنا ضد انتشار هذه الحركات، والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك بإمكانياتنا المحدودة أن نسحقها بلا رحمة في بدايتها).

بهذا الفهم تعامل البريطانيون مع كل من يمثل قيادة دينية شعبية قد تقوى الرابطة الإسلامية وتبث روح الإسلام في النفوس كدين لا يفصل بين الدين والدولة، وبين الفرد والجماعة، وبين الدنيا والآخرة.

و الإمام رضوان الله عليه كان يث بين طلبته وتلاميذه ومريديه روح الدين، ويقوى ويعمق الرابطة الإسلامية بين الشعوب الإسلامية على أساس أن الإسلام هو النسب وهو الوطن وهو الدين، ويحذر الجميع من الوقوع في حبال الاستعمار، ويبين مكايد وعمله على استنزاف ثروات وعقول المسلمين.

لذا كان كثيراً ما يصطدم بإدارة الكلية، وقد كتب الحاكم العام (ونجت) باشا يقول عام ١٩١٥م: (إن المعلمين المصريين في الكلية أدخلوا بين الطلبة الدعاية الوطنية، ويرى أن أمام الإدارة الوطنية خيارين لمواجهة هذا الموقف: إما بترك الأمور كما هي وما تحمله من خطر انتشار الروح الوطنية التي يعمل البريطانيون للقضاء عليها، وإما نجلزة التعليم أى زيادة عدد المعلمين الإنجليز وتخفيض عدد المصريين). وأخذت الكلية بالخيار الثانى فأعيد تنظيم كلية غردون بدمج الأقسام، كما تم تخفيض ميزانية التعليم والتي كانت ٤% عام ١٩١٣ فانخفضت إلى ٢,٩٥% عام ١٩١٥م.

ونظرة أكثر شمولية، أنه لما اندلعت الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤م، دخلت تركيا الحرب ضد الإنجليز، وتركيا تمثل دولة الخلافة الإسلامية والتي أعلنت الجهاد المقدس ودعت كل المسلمين لمناصرتها والوقوف بجانبها. وفي الجانب الآخر، دعا الحاكم البريطاني في السودان الموظفين والأهالى الوقوف مع بريطانيا مؤكداً أن البريطانيين أصدقاء الإسلام وحماة، واستمال البريطانيون بعض العلماء وبعض

زعماء الطرق الصوفية بإغداق المنح والإعانات المالية عليهم فقاموا بتأييدهم وطمأنة الأهالي وإقناعهم بالوقوف ضد دعوة السلطان العثماني.

و إزاء هذه الأحداث قام الإمام رضوان الله عليه بكشف الحقيقة وإبطال دعواهم، وكان الإمام عليه السلام يث روح الدين والرابطة الإسلامية وحب الوطن والأخذ بأسباب التقدم وتعلم الفنون، وذلك من أجل النهوض بالأمة الإسلامية، ويجارب الاستعمار لعلمه بأنه يعمل على هدم الدين في نفوس المسلمين، وليقينه بأن المسلمين لو تمسكوا بشريعتهم وأخذوا بالعلوم فسوف يكون لهم الشأن والعلو والمكانة في الدنيا والفوز في الآخرة، لذا كان الإمام يربي تلاميذه ومريديه على هذا ويبين لهم مغبة الوقوع في حبائل الاستعمار وكيف أن الاستعمار يعمل على استنزاف ثروات المسلمين.

و أثناء درس من دروس الإمام، أمسك بجوربه المصنوع من القطن سائلاً: مم صنّع هذا الجورب؟ فقالوا من القطن، فسأل: ومن زرع هذا القطن؟ فقالوا: نحن زرعناه في بلادنا، فسأل: ومن الذى اشتراه؟ فقالوا: الشركات الإنجليزية، فسأل فأين تذهب به؟ فقالوا إلى مصانع لانكشاير حيث تصنعه جوارباً وغير ذلك ثم يرجع إلينا بثمان أعلى. وبهذا يكون الإمام قد وضع النقاط على الحروف، ثم أكد فقال: هل رأيتم القطن الذى زرعناه؟ ماذا لو صنعناه؟!!

و قد كثر صدور مثل ذلك في دروس الإمام، لذا كانت المخابرات البريطانية في السودان تسترق السمع لدروسه سواء كانت في الأماكن العامة كقاعات الدراسة والمساجد أو في داره ((ببرى))، حيث كان مدير المخابرات بنفسه يسترق السمع لدروس وأحاديث الإمام.

و الإمام عليه السلام لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، ولم تلن له قناة، ولم يغض طرفه عن أصغر الأمور، فعندما لاحظ أن الطلاب يكتبون اسم (غردون) على الكراسات لم يقبل ذلك واستنكره، إذ كيف تدرس الشريعة الإسلامية تحت اسم (غردون) الإنجليزي؟ لذا طلب من طلابه أن يشطبوا اسم كلية (غردون) ويكتبوا بدلاً منها كلية أهل الله، وبالفعل قام الطلبة بذلك، فاستشاط المستعمر غضباً.

امتدت دروس الإمام عليه السلام بمسجد الخرطوم الكبير لفترة زمنية طويلة كما ذكرنا، فالتف حوله الكثيرون من المتعلمين ومحبي العلم والمريدين، وجعلت حلقة دروسه تكبر وتكبر ويكون لها الأثر الفعال في المجتمع، مما أثار حفيظة بعض الزعماء الدينيين، فعملوا على إثارة الإنجليز وتأليبهم عليه، وبدأت المضايقات والعقبات توضع أمامه، مره بالتشويش عليه أثناء الدرس، وتارة بالصاق التهم عليه بدعوى المهدية، حتى كان اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، فوقف الإمام عليه السلام مؤيداً لدولة الخلافة الإسلامية تركيا ضد الإنجليز وحلفائهم.

لقد تحقق الإنجليز وأعدائهم من الخطر الداهم الذي يمثله بقاء الإمام بالسودان، فاستقر الرأي على إخراجه منها بشكل أو بآخر، واتجهت نيّتهم في البداية لنفيه إلى جزيرة مالطا أثناء سفره في إجازته إلى مصر، وصدر قرار النفي إلى مالطا.

ولما وصل الإمام إلى الشلال عائداً من السودان كان ينتظره هناك الآلاف من تلاميذه، وعدد من محبيه ومن مريديه من خيرة رجالات مصر، وكان في الباخرة التي أقلته من حلفا إلى الشلال (ونجت) باشا، وقد تقابل مع (ونجت) تلاميذ الإمام من رجالات مصر على رأسهم محمود سليمان باشا، ومحمود الشندويلي باشا، وأحمد باشا الشريعي، وحمد الباسل باشا، وكثيرون من أعلام الطب والحمامة

والعلماء والأعيان. وقد طلب هؤلاء من الحاكم العام أن يكون نفى الإمام إلى بلدة المطاهرة بالمنيا بدلاً من جزيرة مالطا، فاتصل (ونجت) لاسلكياً بإنجلترا، وصوّرَ لحكومته خطورة نفيه إلى مالطا فوافقوا.

وبمجرد وصوله إلى بلده وافاه خطاب وكيل حكومة السودان بعدم سفره مرة أخرى إلى السودان. وقد تحولت بلدة المطاهرة وما حولها إلى مدارس للإمام خرجت أعلام الوطنيين وأئمة المجاهدين الذين بدأت بهم الثورة الوطنية عام ١٩١٩م، فضاقتوا به ذرعاً، فتوسط له أحبابه السابقون وطلبوا إليهم أن يكون في القاهرة وتحت أعينهم، فتم ذلك.

تداعيات نفى الإمام

و قبل صدور قرار تحديد الإقامة كانت هناك بعض التداعيات التي عجلت بصدوره، ومنها:

(١) عقب إعلان الحماية البريطانية على كل من مصر والسودان في نوفمبر سنة ١٩١٤م، أقام (ونجت) باشا الحاكم العام الإنجليزي بالسودان حفلاً بهذه المناسبة، ودعا إليه بعض الشخصيات السودانية والموظفين المصريين ليتعرف على أثر ذلك في نفوسهم، وأقيم الإحتفال بسرأى الحاكم العام.

حضر الإمام ذلك الإحتفال عن كره وبعد إلحاح تلاميذه وأصدقائه، ذهب معه أحدهم وهو الشيخ محمد واد أحمد، وجلسا في الحديقة يتجاذبان أطراف الحديث عن حالة العالم الإسلامى المحزنة.

وقدم الطعام فقال الإمام لجليسه: والله لأن أكل الرُّقُومَ في هذا اليوم خيرٌ لي من أن أُطعمَ من هذا الطعام. أوصل الوشاة هذا القول إلى ونجت باشا الذى جاء إلى الإمام وسأله: لماذا لم تأكل؟ فأخبره أنه صائم، فتعجب وسأله عن سبب صيامه، فقال له على سبيل التبكيت: أشكر الله على نعمة المساواة التى حدثت للمجتمع السودانى نظير فرض الحماية البريطانية حيث أصبح المصرى والسودانى والبريطانى أمام القانون سواء. سأله ونجت عما يقصده، فقال له الإمام: يعنى إذا ضربتك الآن- ووضع يده على خد ونجت- فسوف لا تعلق لى المشنقة لأشنع باكر، ولكن أمامى وأمامك القضاء، والقصاص بين الندين عادل مهما كان، وأنا أتساوى معك فى الرعوية الإنجليزية. فارتبك ونجت وقال: أنت رجل طيب كثير، ادعوا لى يا شيخ ماضى. لكن غضبه اشتد عن ذى قبل.

(٢) كشأن الاستعمار فى أى بلد يدخلها، فإنه يبدأ بزرع بذور الفتنة والشقاق لتفريق بين أهلها ليصبحوا شيعاً وأحزاباً، وإذا كان الدين هو المسيطر على الشعوب فإنهم يدخلون من هذا الباب للتشكيك فيه. استطاع الإنجليز تجنيد بعض أدعياء العلم بالسودان، فأذاعوا بين الناس أن طاعة الإنجليز واجبة بصفتهم أولى الأمر ويتلون قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ النساء: ٥٩ ، ولا يصلون إلى بقيتها وهى (منكم) . وشاعت تلك الأفكار الخبيثة بين المسلمين فى السودان.

خطب الإمام فى الجامع الكبير بالخرطوم مبيناً فى خطبته أن الذين قالوا ذلك من علماء السلطة خائنون لدينهم كالذين قالوا: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ النساء: ٤٣ ولم يكملوها بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَكَرَى﴾ النساء: ٤٣ فالقرآن يقول: ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ

مِنْكُمْ ﴿النساء: ٥٩﴾ أى: أولى الأمر منكم أيها المسلمون وليس أولى الأمر منكم أيها الإنجليز.

وتطورت سمة المواجهة بين الإمام من جانب والإنجليز وأعدائهم من جانب آخر مما جعلهم يفكرون في طريقة للخلاص منه.

(٣) استدعى ونجت الإمام ذات يوم محاولاً استمالته وكسب ولاءه للإنجليز، وطلب منه أن يثنى على بريطانيا ويكتب عن إصلاحاتها بالسودان مظهرًا مساوئ الحكم العثماني، فسأله الإمام: أكتب ضد الإنجليز؟ فقال كيف هذا وأنا رجل متعلم؟ فرد عليه الإمام قائلاً: إذن كيف تطلب مني أن أكتب ضد وطني وأنا متعلم؟!..

وجعل يشرح له نسب الإسلام ونظرياته في الجنسية. وأخذ ونجت قراراً بينه وبين نفسه بإقصائه عن السودان.

(٤) أعد ونجت حفلاً كبيراً بنادى الضباط للتعارف بين البريطانيين والمصريين والسودانيين والتفاهم بينهم لتسيير دفة الأمور في حكم السودان بما يتلاءم ومصلحة إنجلترا. ولما وصلت الدعوة لحضور الحفل إلى الإمام أعلن مقاطعته للحفل، وجمع أتباعه ومريديه، فأرسل إليه الحاكم العام يطلب إليه إعلان موقفه، فما كان منه إلا أن توجه إلى المسجد الكبير بالخرطوم، وبعد صلاة العصر أعلن عن مقاطعته لهذا الحفل كاشفاً عن مؤامرات المستعمرين وسوء نواياهم مؤيداً كلامه بآيات من القرآن الكريم يرددها ويتلوها الناس خلفه حاثاً إياهم إكمال المسيرة وصون الأمانة.

(٥) اللهم انصر سلطان المسلمين) .. كانت تلك من الأدعية التي يدعو بها خطيب الجمعة على المنبر. وأثناء الحرب العالمية الأولى اعتبر الحلفاء أن هذا الدعاء

ضدهم حيث أن تركيا كانت تحارب ضد الحلفاء. أراد الحاكم العام للسودان تغيير صيغة ذلك الدعاء، وحاول الاستعانة بالإمام لما له من مكانة عالية في قلوب المسلمين. وفي مناسبة ضمت الحكام والزعماء والسياسيين والدينين حضره الإمام عليه السلام، وقف الحاكم العام يلقي خطبة بالعربية كان قد أعدها من قبل، ووجه الخطاب إلى الإمام قائلاً: إن الحرب قد طال وأسال الله أن يوقفها (فقال الإمام: آمين)، إن ألمانيا دولة ظالمة نسال الله تحطيمها (فقال الإمام إن شاء الله)، وأن تركيا لا فكر لها والواجب عليها أن تكون مع الحلفاء لا مع ألمانيا، أتم في خطبة الجمعة تقولون: اللهم انصر سلطان المسلمين، وهو سلطان ضد المسلمين، وبدلاً من أن تقولوا: اللهم احق الكافرين قولوا: اللهم اهزم ألمانيا.

عند ذلك وقف الإمام قائلاً: إن الدين الإسلامي مؤسس على تعاليم سماوية يستوى فيها الصعلوك والملك، ولا يمكن لأى أحد تغيير شىء فيه، أنا لا أستطيع أن أقول للمسلمين غيروا في خطبة الجمعة أية عبارة، أنت الحاكم العام للسودان، وعندك القوة، وغداً الجمعة، يمكنك أن تحضر مدفعاً وتضعه على باب المسجد ثم تأمر الخطيب أن يغير لك ما تريد، فإن لم تستطع ذلك.. فاستعمل مدفعك!! ثم انصرف الإمام محاطاً بجمع كبير ومعه الضباط والجنود المصريون الحاضرون وقتها.

(٦) توجه مدير المخابرات البريطانية في السودان ومعه بعض الشخصيات الموالية للإنجليز لزيارة الإمام في برى وقال له: أنت تكرهنا، فرد عليه الإمام: لأى سبب؟ قال: لأننا غير مسلمين وأنت شديد التمسك بدينك، فرد الإمام بقوله: ما جلست على هذه الأريكة التى أجلس عليها الآن إلا لأنها تريخنى، فلو كنتم مريخين

للمسلمين فكيف أكرهكم؟ ولا سيما أنكم من البشر، والإنسان أفضل من الجماد، وما دمتم تتعبدون المسلمين فكيف أحبكم؟.

(٧) كان الشيخ مصطفى المراغى قاضى القضاة بالخرطوم من أشد الحاقدين على الإمام، وكان ينتهز فرصة سفره فى إجازته السنوية إلى مصر ويجلس مكانه بمسجد الخرطوم يلقي الدروس محاولاً أن يكتسب جمهوراً له ولكنهم لم يجدوا فى دروسه شيئاً مما يسمعون من الإمام، فأخذوا يرددون المثل القائل (مرعى ولا كالسعدان)، والمقصود أن ما يسمعون منه كالحشائش الكثيرة التى يأكلها الحيوان ليملاً بطنه وقيمتها الغذائية منخفضة، أما ما يسمعون من الإمام فهو كالسعدان ذات القيمة الغذائية العالية.

إزداد حقد الشيخ المراغى وجاهر بالعداوة وذهب إلى ونجت وقال له كيف تتركون أبا العزائم عليه السلام - وهو موظف عندكم- يلعن الإنجليز من على المنبر ويقول: فلعنة الله على الكافرين؟. استدعى ونجت الإمام وأبلغه قول المراغى، فسأله الإمام: لو جاءك أمر ملكى أتعصاه أم تنفذه؟ فقال أنفذه، فقال الإمام: ولو جاءك الأمر ممن هو أعلى من الملك؟ فقال أكون أحرص فى تنفيذه، فقال الإمام: الله يقول: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٨٩ وأنا مدرس وأمين على الدين.

و لما كان يشكله بقاء الإمام من خطورة على وضع الإنجليز فى السودان، فقد صدر قرار إبعاد الإمام عن السودان فى أغسطس ١٩١٥م.

ووقف القائد الإنجليزى عند مغادرة الإمام للسودان يودعه بشماته قائلاً: أتى اليوم الذى يخضع فيه أبو العزائم عليه السلام للإنجليز، وستذهب إلى مصر ولن تجد عملاً،

وستعود إلينا فتقبل يدى لأعيدك لعملك، فرد عليه الإمام بقوله: بمشيئة الله سيأتى اليوم الذى يقبل فيه القائد الإنجليزى يد أبى العزائم عليه السلام وقدمه.

وعاد الإمام إلى مصر وكان لسانه ينطق بما سطره القدر، فلقد قامت ثورة ١٩١٩م فى مصر، وكان الإمام فى القاهرة وقتها والمظاهرات العارمة تجوب شوارعها لا ترى إنجليزياً إلا وفتكت به. وشاء القدر أن يذهب القائد الإنجليزى ليزور ناظر مدرسة الخديوية وهو إنجليزى، فوجد مظاهرة خارجة منها، فلم يجد شارعاً إلا شارع سوق مسكة، فلما وصل إلى منتصفه وجد مظاهرة أخرى من ناحية مدرسة القرية ومدرسة الخديوى إسماعيل، فلم يجد إلا حارة متفرعة من هذا الشارع وهو عطفة الفريق، فوجد بوابة كبيرة فدخلها على أمل أنهما ستؤدى به إلى شارع آخر، ولكنها كانت بوابة سراى آل العزائم الذى يقيم فيه الإمام. ولما دخل من البوابة وجد نفسه فى فناء المنزل، وإذا بالإمام واقف أمامه، فقبل يده وجثى على ركبتيه يقبل رجله وقدميه، ويستعطفه ويطلب منه النجاة. وطاش عقله لما تذكر ما كان من قبل وما رآه من أن نبوءة الإمام تحققت، فصار يصرخ قائلاً للإمام أنت المسيح، أنت المسيح!! ولكن الخلق المحمدى غالب على الإمام رضوان الله عليه، فقد أجاره وأبلغه مأمنه، وأكرمه، وبعد انتهاء تلك المظاهرات أمره بالخروج.

وفى المنيا التى وصل إليها الإمام وحددت فيها إقامته وصل إليه الخطاب الآتى نصه والذى احتجت فيه وكالة حكومة السودان وقتها بالإجراءات الاقتصادية لتحول دون عودة الإمام إلى السودان مرة أخرى.

وكالة حكومة السودان

بمصر

التاريخ: ٣٠ أغسطس ١٩١٥

حضرة الشيخ محمد ماضى المحترم

أفيدكم أنه بداعى الإجراءات الاقتصادية التى اتخذتها مصلحة معارف حكومة السودان، المرجو عدم سفركم إلى مقر وظيفتكم فى السودان إلا إذا أخبركم بذلك جناب مدير المعارف السودانية مباشرة.

وكيل حكومة السودان

(إمضاء مستر سميس)

الرجا إفادتى باستلامكم هذا، وإعادة جميع تصاريح سفركم وسفر عائلاتكم إلى هذا المكتب.

وظل تلاميذ الإمام وأتباعه فى السودان على نفس المنهج الذى سار عليه وقاموا بدورهم إلى أن كشف الله الغمة وانسحبت منه القوات الإنجليزية فيما بعد.

دور الإمام عليه السلام في السودان

(تركزت أبحاث المؤرخين الإنجليز الذين أروخوا لاستعمار بريطانيا العظمى للسودان، ذلك الاستعمار الذى جهد غلاة الاستعماريين على توطيد أركانه وتثبيت جذوره وتدعيم وجوده بنية إبقاء السودان تحت الحكم البريطانى لقرون طويلة حتى يستطيعوا الاستفادة من مساحته الشاسعة وامتداد حدوده التى تتاخم المناطق الأفريقية حوله بربط غرب القارة وشرقها وشمالها وجنوبها، ومنه يستطيع البريطانيون أن يحكموا قبضتهم ويعززوا سيطرتهم على القارة كلها (١) .

تركزت أبحاث هؤلاء المؤرخين الإنجليز على أسباب فشل جهود طواغيت الاستعمار البريطانى فى إطالة أمد استعمارهم للسودان ترجع كلها إلى مناهضة الإسلام لهم كدين تعمقت جذوره فى أفئدة المؤمنين السودانيين فهبوا فى انتفاضتين عارمتين جرفتا كل مخططات الإستعماريين فدمرتا كل آمالهم فى دوام إحتلالهم للسودان المسلم. أما الانتفاضة الأولى: فكانت الحركة المهدية.

وأما الانتفاضة الثانية: فكانت الحركة العزمية.

ولقد أسهب هؤلاء المؤرخون، ومن بينهم جون سبنسر تريمينجهام فى كتابه (الإسلام فى السودان) (٢) على المقارنة بين الحركتين: المهدية والعزمية، وأجمعوا على أن الحركة العزمية كانت أعظم خطراً وأقوى تأثيراً لأنها قامت على أفكار زرعها داعيتها الإمام الجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام فى عقول الصفوة

(١) كتابات الشيخ زاهر عزب الزغنى.

(2) islam the Saudi (1965)m 2nd Ed. By G.S Trimmingham, Frank cass8 co. Ltdm London.

المثقفة الممتازة من أبناء السودان، ودأب على رعايتها وتنميتها حتى أثمرت وآتت أكلها وانتشرت بواسطة تلاميذه ومريديه بين كل أفراد الشعب السوداني وطوائفه، فتأسست على مبادئه وأيديولوجيته الجمعيات الوطنية التحررية، وقامت صحف سياسية تلهب حماس الشعب للنضال من أجل حريته والدفاع عن كرامته.

وعندما تحدث المؤرخ الإنجليزي جون سبنسر تربمنجهام عن الحركة المهدية والعزمية قال: (.. أما العزمية فإنها أخذت طبيعة مؤسسها الأستاذ الذى مهنته التعليم والتثقيف فكان يتعامل بالفكر مع عقول رواد حلقاته وبث فيهم المبادئ الإسلامية التحررية، وأحسن عرض الشريعة الإسلامية فى محاضراته بأسلوب شيق رزين، ولذلك فإن رواد حلقاته يمكن تصنيفهم على أنهم تلاميذ لا مريدون).

إن الإمام قد أهر طلابه السودانيين بمحاضراته غزيرة العلم وذات الأسلوب الأدبى الشيق الجذاب فلازموه وفتح لهم بيته. لقد تركزت محاضراته على أن الإسلام ليس فقه شرائع تعبدية، بل هو أيضاً سياسة شرعية، ومن أوليات هذه المبادئ الشرعية أن لا يتولى أمور المسلمين إلا خليفة يرتضونه، وحرام عليهم أن يستكينوا للمستعمر كافر. واتسعت دائرة رواد بيته حتى غدى كعبة للمثقفين السودانيين وذوى النوازع الوطنية والتحررية، ومن ثم نشأت فى بيته حركة وطنية تحررية أدت إلى قيام أحزاب سياسية وصدور صحف تنادى بالاستقلال وطرد المستعمر.

وقد دخل السودان طوراً جديداً من حياته وتاريخه بعد توقيع اتفاقية الحكم الثنائى ارتبط فيه ببريطانيا ارتباطاً وثيقاً فى شتى مناحى حياته وأخذت الإدارة البريطانية تنشئ دواوينها وتنظم أعمالها وتخطط مشروعاتها الاقتصادية والثقافية

وتفرض ضرائب على الناس حتى تفجرت الثورات في الجنوب والشمال قدرت بثلاث عشرة ثورة أولها عام ١٩٠٢م وآخرها عام ١٩٣٤، وكان أهمها جميعاً ثورة ١٩٢١، ١٩٢٤م وذلك لظهور طبقة المثقفين الذين تربوا على أيدي الإمام، وقد استطاعوا أن يوصلوا إلى قلوب أبناء السودان صدق الإرادة وقوة العزيمة التي تحلى بها الشعب المصرى في ثورة ١٩١٩م، فقام الضباط السودانيون بثورة مسلحة ضد الإدارة الاستعمارية في نوفمبر ١٩٢٤م، وكانت الشرارة التي أشعلت الثورة قرار الحكومة البريطانية بتسريح الجيش المصرى من السودان وطرد قيادته إلى مصر. وكان من أهم أسباب ثورة السودان أن الإدارة الاستعمارية لم تخف سياستها بل أوضحتها في المذكرة التي قدمتها للجنة ملنر التي حضرت إلى مصر في أعقاب ثورة ١٩١٩م ومؤداها فصل جنوب السودان عن شماله وإبعاده عن أى أثر إسلامى وضمه لشرق أواسط أفريقيا، وتنفيذاً لذلك صدر قانون المناطق المقفولة عام ١٩٢٢م وأعطى الحاكم العام البريطانى سلطة منع أى مواطن سودانى أو غيره من الدخول أو البقاء فيها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عناصر الثورات الوطنية في السودان كان أغلبها من تلاميذ الإمام الذين تربوا على يديه ونهجوا نهجه في الجهاد، فكان زعيم جمعية (اللواء الأبيض) على عبد اللطيف تلميذاً للإمام أبى العزائم عليه السلام منذ حداثة سنه، كما كان زملاؤه كلهم ممن تخرجوا على يديه في كلية غردون وفي مقدمتهم حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وعبد الفضل ألمان، وقد حوكموا جميعاً أمام محاكم خاصة، وكانت محاكمة على عبد اللطيف وأقواله أمام الهيئة نموذجاً صادقاً لما تتسم به التربية الإسلامية التي تنمى الشعور بالوطنية الحققة. كما جاءت أقواله دليلاً حياً لما يمكن أن تؤثر فيه شخصية الزعيم الدينى في تلاميذه. ولما وجد المستعمرون أن

المحاكمة تحولت إلى مظاهرة وطنية ودينية، أهتمته بالجنون وأودعته مستشفى الأمراض العقلية. وقد شهد الدكتور بهمان بأن على عبد اللطيف مثلاً للاستقامة والتزاهة ورجاحة العقل. وقد حرص الإمام أن يزور تلميذه بالمستشفى على فترات متقاربة ويجلس إليه الساعات في جلسات روحية عالية إلى أن انتقل ﷺ إلى جوار ربه. وظل الإمام أبو العزائم ﷺ يستنهض عزائم طلابه ومريديه من أبناء السودان ضد الإستعمار الإنجليزي حتى أدرك الإنجليز خطورته عليهم فقرروا أن ينهوا دوره فيه.

وقد كان للإمام طريقة خاصة في إلقاء دروسه، فكان للقصة دور كبير بحيث تبقى في الذهن ولا تنسى، وبأسلوب روائي تمثيلي أكثر منه نظري تلقيني، فقد كان يمثل عملياً العلوم التي تتعلق بالأفعال، ويسوق الأمثال للنظري منها لتقريب الحقائق، ويصور الحقائق المجردة ويجسدها في أسلوب قصصي حتى ترسخ المعلومات في ذهن الطالب ويتمثلها معالم بين عينيه وتنتقش في نفسه. لذا عندما عرف الإمام ﷺ العلم قال: هو تصور النفس رسوم المعلوم.

وقد روى أنه ﷺ كان يلقي درساً بمسجد الخرطوم الكبير في شمائل النبي ﷺ وآله. وفي أثناء الدرس وقف الإمام قائلاً: رأيتم كيف كان يمشي النبي صلى الله عليه وسلم؟ والناس في شوق ليروا ذلك، فأصلح الإمام من هندامه ثم رفع رجله اليمنى، وقبل أن يضعها على الأرض فإذا بالحاضرين يفعلون قائلين (الله) بالمد الطويل، فكأنما مثل لهم الصورة مشرقة في مرآتها. فرجع الإمام إلى مكانه وجلس، وبعد برهة، وعندما أفاق الناس من الجمال الذي أحسوه وعاشوا فيه، قال

لهم: كنت أريد أن أريكم كيف يمشى النبي ﷺ وآله، فإذا كان محمد ماضى أراد أن يمثل لكم فلم تتحملوا، فكيف إذا رأيتم رسول الله ﷺ وآله؟

وكان ﷺ يعلم الجمهور وضوء رسول الله ﷺ وآله كان يجلس على كرسى فى صحن المسجد ويطلب طستًا وإبريقًا، ثم يكلف واحدًا بأن يصب له الماء فيتوضأ أمام القوم، فيستوعب الوضوء مبيئًا الفرائض والسنن، ثم يطلب أحد الجالسين ليجلس مكانه ويقول له علمنا الوضوء كما رأيت، وقد يكون أضعف الجالسن عقلاً وتفكيراً، فلا يقوم من مجلسه إلا وهو عالم بكيفية الوضوء على حال يجهلها بعض من تلقوه تلقيناً.

ولقد أهر الإمام طلابه أيضاً فى المدارس عندما كان يدرس لهم منهج النحو، وهو مادة من أصعب المواد عند غيره من المدرسين، ولكنه ابتكر طريقة روائية حديثة فى تدريسها لا يمكن أن ينساها التلاميذ، وهى أفضل من طريقة تحفيظ القاعدة عند غيره من المدرسين، ولذلك كانت ترسخ فى أذهان التلاميذ.

كان الإمام يمثل للطلبة حكاية طريفة على دخول كان وأخواتها على المبتدأ والخبر ودخول إن وأخواتها عليهما.. فيمثل أن زيذاً وعمراً من الناس وهما المبتدأ والخبر جاءتهما عمتهم زائرة يوماً وهى تحمل على رأسها أخواتها الصغار وهم كيت وكيت وكيت، ثم تستأذن عليهما فى دارهما وهما جالسان فيه، فيقوم المبتدأ مرتفعاً فوق درج الباب لفتحه، ثم يهمن أخوه وهو الخير منتصباً احتراماً لها وإجلالاً، وهكذا يدلل على تأثير كان فى المبتدأ والخبر بطريقة دوائية. ويزيد الإمام تطبيقاً على ذلك فيجعل أحد التلاميذ يهمن مرتفعاً، كما بعين خبراً يقف منتصباً حتى ترسخ القاعدة فى مخيلة الطلبة، ثم يسأل كل واحد ماذا صنعت كان وأخواتها؟

فيروى كل واحد هذه الحكاية التي تترك أثراً لا ينسى، ثم يطالب التلاميذ بالأمثال، فما أسرع ما تنهال عليه عليه السلام هذه المثل مثل غيرها في الكتاب الذي قلما يفتح ويقرأ.. وهكذا دواليك عند كل قاعدة نحوية أو صرفية.

و لم يكن ليكتفى بالإلقاء والتلقين فقط، وتلك هي السنة عن رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام كما في قوله ﷺ وآله عليهم السلام: (صلوا كما رأيتموني أصلي). وقد روى أن الإمام كان يذهب إلى القسم الابتدائي بالكلية ويجمع الطلاب ويتبسط معهم ويتزل لهم قائلاً: كيف تصلون؟ كيف تتوضئون؟ ويفعل ذلك عملياً أمامهم حيث يأتي بإبريق الماء ويكلف أحد الطلاب بصب الماء فيتوضأ أمامهم، مبيناً الفرائض والسنن، ثم يفرش جبهته على الأرض ليريهم كيف يصلون لأن الرسول ﷺ وآله عليهم السلام يقول: (صلوا كما رأيتموني أصلي). فهو عليه السلام يمثل حضرة الرسول ﷺ وآله عليهم السلام في علومه وحكمه لهذا العصر، ويقول لهم عبارة يذوقها أهل المعرفة: (يا أولادى خير لكم أن تتعلموا مني، فبعد أبوكم الشيخ لن تجدوا من يعلمكم).

وكما تميز الإمام بأسلوبه في التدريس وآدابه عند إلقاء الدرس، فإنه كذلك تميز وتفرد في طريقته لجذب الناس لحلقة العلم ليفقههم في أمور دينهم.

حتى في حياة الإمام العادية كان يعطى الدروس والعبر والإشارات بطريقة غير مقصودة ولا تُنسى أبداً. ففي يوم كان متوجهاً من بُرى المحس إلى كلية غردون. وكان قد أعطى رايلاً مجيداً للشيخ أحمد النور ليركب به ويلقاه بالكلية، حيث أن الإمام سيركب دابته فآثر الشيخ أحمد النور أن يسير وراء الإمام. حتى إذا جاوز منطقة بُرى إلى الفضاء الواسع الذي يفصل بُرى عن الكلية- وبها خط سكة حديد على مرتفع بسيط من الأرض- وَجَّهَ الإمام دابته لتسير بين القضيين. وبعد مسافة

تحكم الإمام في لجام الدابة ليوجهها بعيداً عن هذا الطريق فتزلت من هذا المرتفع، ثم ترك لها العنان لتسير كيفما تريد، فصعدت المرتفع لتسير بين القضيين، وكلمنا نحاًها عن ذلك عادت، والشيخ أحمد النور ملاحظ ذلك. قال له الإمام: ألاحظ ذلك يا ولدى أحمد؟ هذه دابة أريد أن أنحيها عن الطريق المعتدل إلى طريق متعب فإذا بها ترجع إلى طريقها المعتدل، والإنسان نريد له أن يسلك الطريق المعتدل المستقيم ولكنه يتركه للطريق المعوج!!.

إقامة الإمام الدائمة بمصر

وعاد الإمام المحدد إلى مصر بعد هجرته إلى السودان وقد سَعَرَتْ فِيهِ تَجْرِبَتُهُ روح التحدى بالإضافة إلى علمه الغزير، فاتسعت آفاق نضاله في كل بقعة من بقاع الوطن الإسلامي، فكل بلاد المسلمين ووطن لكل المسلمين. وكل مسلم مواطن تجب عليه الحماية وواجبة له الرعاية، والأخوة الإسلامية لها قيوميتها ومقتضاها، فهي حق وواجبة، حق لكل ضعيف وواجب على كل قوى. واليد العليا فيها خير من اليد السفلى، والبذل في إطارها سخاء وتزكية يتناسبان مع سعة المسلم وطاقته، فالغنى يسخو بماله على المعوز الفقير، والقوى يأخذ بيد الضعيف ويساعده، والمبصر يقود الأعمى ويجنبه شر العثرات والمزالق، أما العالم فسخاؤه بعلمه يبذله ولا يكتمه.

وهكذا عاد الإمام إلى الوطن عالمًا لا يضمن بعلمه على من هو في حاجة إليه، فهو معلم سجيته أن يعلم، وعلمه متاح لا لمن يسعى إلى طلبه فحسب بل إنه كان يسعى هو إلى من يتوسم أنهم في حاجة إليه، فكانت ساعاته موزعة بالقسطاس بين من يفدون إليه في مقره طلبًا لعلمه وبين السعى في زيارات - حتى للمواقع النائية - إلى من يرى ببصيرته أنهم في حاجة إلى هذا العلم. فصار مقره في القاهرة كعبة يقصدها طلاب العلم، كما صارت النوادي الثقافية والمنتديات العلمية في كل مدن مصر والمساجد في كل مدينة أو قرية مزارًا له تتضوع فيها أفكاره، وتتألا في أجوائها فريادات مبادئ دينه، وتلمع في جنباتها ومضات علمه.

ومن ثم أصبح النشاط العزمي في مصر امتدادًا للنشاط العزمي في السودان، وكان الإمام المحدد من ذوى النفوس الكبار، ومن شأن كبار النفوس هؤلاء أنهم

يستعذبون الآلام لتحقيق الآمال، وقليل ما هم، ولكنهم وحدهم الذين دفعوا
بالإنسانية قفزات إلى الأمام في طريق التطور إلى الحياة الأفضل.

ومن البديهي أن يستنتج القارىء أن الاستعمار البريطانى فى مصر كانت
مناهضته هدفًا استراتيجيًا للإمام أبى العزائم عليه السلام كما كان الحال فى السودان،
ومع تضافر الجهود الوطنية فى مصر ضد الاحتلال قامت ثورة ١٩١٩م، وكان
الإمام المحدد من أوائل الذين قبضت عليهم السلطات البريطانية وأودع السجن فى
محاولة منها لوأد هذه الثورة فى مهدها، وكان معه ولده الأكبر السيد أحمد محمد
ماضى أبو العزائم عليه السلام الذى كان ملازمًا لوالده ملازمة كاملة، ليس له طلب فى
الدنيا إلا أن يشارك أباه نضاله ويشد أزره وينظم له برامج تنقلاته ويرعى شئونه
الشخصية وينشر دعوته ويردد عنه أفكاره ومبادئه، فأصبح خليفته الأول بعد
انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ومن كانت طبيعته العطاء فإن عطاءه لا يتوقف، ولذلك كان الإمام فى السجن
كما كان خارجه كالبحر الزاخر الهادر لا توقفه سدود ولا تحده قيود، فلم يلبث
إلا أن صار مجتمع السجن كله- مساجين وحراسًا وضباطًا- من أتباعه
والمتحمسين لدعوته ومبادئه. وانتقلت أنباء النشاط العزمى إلى مسامع طغاة
الإحتلال البريطانى، فذهب أحد طواغيتهم ليتحقق من واقع الأمور بنفسه، وكان
هذا الطاغوت هو رسل باشا الذى يشغل حكمدار القاهرة ولكن نفوذه وسلطاته
الغاشمة تتعدى حدود منصبه إلى جميع أنحاء القطر المصرى بسائر مدنه ودساكره
وقراه.

فماذا رأى رسل باشا؟؟ لقد وصل إلى السجن وقت صلاة الظهر، فرأى أن جميع المسجونين ومعهم جميع جنود الحراسة بالسجن ومن بينهم ضباطهم قد اكتظ بهم الفناء الأكبر للسجن صفوفًا يؤدون الصلاة خلف الإمام المجدد الذى ختم الصلاة وانبرى إلى المأمومين يدعو بأن يخلص الله الوطن من الاستعمار اللعين وأعوانه، والمصلون من خلفه يُؤمّنون. وكان صوت الإمام يهدر بالدعاء عميقًا جهوريًا، وصوت المصلين بالتأمين يعلو ليصل إلى عنان السماء قويًا راسخًا ثابتًا، مما جعل رسل باشا يرتعب وترتعد فرائضه مما أدى به أن يكتشف أن هذا الإمام فى سجنه يشكل خطورة أكبر من خطورته خارجه، فنفاه من السجن بأن أمر بالإفراج عنه مع ابنه فورًا.

فخرج يستأنف سعيه ونشاطه، وكان مناط دعوة الإمام المجدد هو الإيمان بالعتيدة الإسلامية، وتعميق هذا الإيمان كان ركيزة أساسية فى استراتيجيته وتكتيكاته، لأن الإيمان بالله إذا تعدى مرحلة التصديق المجرى وازداد عمقه فى أفئدة المسلمين فإن تضحياتهم بالنفس والمال تسهل عليهم، وعطاؤهم فى سبيل الله يزداد، وكلما تعمق الإيمان فى نفس المسلم رق الحجاب بينه وبين خالقه واستشعر لذة القرب، فصفت روحه، وتزكت نفسه، وترقق وجدانه وتذوق لذة الحقيقة التى لم يكن يدركها بمجرد عقله، فجهد ممعنًا فى التزام الطاعات، وانكب على ذكر الله، واشتدت فى فرائضه تقوى الخالق وسيطرت على كل كيانه ليتأكد قربته من الله ويزداد، والله قد وعد هؤلاء المتقربين بإخلاص إليه أن يكون أقرب إليهم من حبل الوريد، ووعد الله بمنجز حقًا لا محالة.

ومن ثم فإن حلقات العلم وندوات الثقافة والفكر التى تأسست على نشاط الإمام العالم بالشرعية قد تحولت تلقائيًا إلى مجامع تسودها التقوى والتقرب إلى الله

بدوام ذكره والإمعان في طاعته. ومن ثم أيضاً تحولت جماعة آل العزائم إلى الطريقة العزمية التي ما فتئت حتى اليوم تغذى العقل بعلوم الشريعة الحقة وتركى النفس بإيصالها- بطريق مأمون- إلى تذوق الحقيقة التي يهبها الله لمن يجمعون الغرائز ويזהدون في بهرج الحياة ويجتهدون في طاعته وتقواه. وبذلك كانت الطريقة العزمية النموذج الأمثل للتصوف الطاهر الزاهد الواعي الخالي من كل شوائب الرياء والارتزاق والبدع وابتزاز المريدين والأتباع. فهي طريق إلى الله ليس لها من هدف سوى الاستغراق في مرضاة الله وطاعته وتقواه (١) .

كيف استقر به المقام في مصر:

إن الإمام قد أمضى الفترة ما بين عامي ١٩١٥-١٩١٧م بالمطاهرة بمحافضة المنيا عندما عاد من الخرطوم محددة إقامته نظير حربه الشعواء، سواء بالفكر أو الدين أو تحفيز الهمم على الجهاد والثورة على الإستعمار الغاشم وتربية جيل في السودان يحمل أمانة الدعوة في تحرير الأرض المحتلة. وقد جاء إلى مصر ليقوم إقامة دائمة بها ويستمر دوره الجهادي امتداداً لما أقامه بالسودان، فقام بإصدار مجلة الفاتح من عام ١٩١٥م حتى ١٩٢٠م. ومع أن إقامة الإمام كانت محددة في منزله بالمطاهرة إلا أنه كان يتجول في القرى والبلاد المجاورة وذلك عن طريق وساطة محبيه، فقد توسط رئيس الوزراء- وكان محباً وتلميذاً للإمام منذ فترة طويلة- في تيسير انتشار الإمام في دائرة أوسع وهذا مما سيشيح فرصة أكبر للسلطة الإنجليزية بالبلاد في معرفة حركات ومخططات ونوايا الإمام!! فوجد هذا الرأي استحساناً كبيراً!! وأمام هذا التسهيل كان الإمام يجتمع برجال ثورة ١٩١٩م!!.

(١) كتاب الشيخ زاهر الرغبي.

وأمام هذه المسؤولية الجديدة للإمام، طلب الأحياء أيضاً نقل الإمام للإقامة في القاهرة عاصمة مصر. وفعلاً تمت الإقامة الجديدة، وكان منزله تحت الرقابة الشديدة من قبل الإنجليز ورجال السلطة المصرية. وكان الإمام إذا عمل احتفالاً دينياً مناسبة معينة تتطلب تجمعات بشرية، فقد كانت القوات البريطانية تقوم بالتفتيش المستمر في هذا اليوم لجميع أنحاء المنزل بحثاً عن وجود أسلحة أو منشورات أو أشخاص مشتباه فيهم أو خلافه.

وأول ما سكن الإمام في القاهرة كان في منطقة تسمى جينية ناميش بمنطقة الخليج المصري (١)، ثم استأجر سراى الحنفى (٢) بعطفة الفريق بسوق مسكة من وزارة الأوقاف، وهى قصر فسيح كان لأحد القواد الترك تبلغ مساحة مبانيه فداناً تقريباً. وكانت عبارة عن عدة مبان يتوسطها ميدان فسيح، وكان باب القصر ضخماً مثل أبواب مصر الكبيرة المبنية بالأحجار العالية، وكانت سيارات النقل الضخمة تدخل منها وتسير في الساحة الكبيرة. وقد بنى بها زاوية صارت ضريحاً له بعد انتقاله وألحقت بمسجده الآن. والدار مقسمة إلى أقسام كثيرة: قسم لسكنى العائلة وهى لم تشغل ثلث الدار، والثلثان الآخران لطلاب العلم والعبادة، وبها قسم لراحة الأغراب من الشعوب النائية والوافدين من جميع البلدان لا فرق في هذه الدار بين المقيم القاطن والغريب النازل، تُغلق مساجد القاهرة وبها لا يغلق إلا بعد الثانية صباحاً وهذا حسب أمر الإمام عليه السلام، ولا تجد عند دخولك في أى وقت

(١) شارع بور سعيد حالياً.

(٢) استأجرها الإمام في أول ربيع الأول ١٣٣٥هـ الموافق ١٩١٧/١/١ م، واشتراها في ٣٠ شوال ١٣٤٣هـ الموافق

١٩٢٥/٥/٢٣ م وزارة الأوقاف.

مهما كان متأخراً من الليل من يمنعك، ولا تجد بواباً يوقفك عند الدخول حسب عادة المنازل، وكأنها قسم من المصالح العامة.

وبعد دخول الإمام هذا القصر مباشرة أراد أن يجعل في الحديقة أو الحوش مكاناً للوضوء قرب مكان الصلاة، فطلب من الإخوان أن يقوموا بحفر بئر ثم يدقوا طلمبة لإخراج ماء الوضوء، وقد نفذ الإخوان ذلك. وبعد صلاة الفجر أقيمت الحضرة، وبعد انتهائها دخل الإمام ليستريح ومعه السيد أحمد نجله والشيخ العقاد، وبقي من الإخوان الشيخ خلف والشيخ قطب من آبا الوقف وإخوان المنيا يحفرون حتى وصلوا إلى مكان وجدوا فيه كترًا من الذهب، فقام أحدهم يجرى حتى وصل إلى الإمام وقال له لقد أكرمنا الله وأسعدنا وأغنانا من فضله، لقد وجدنا كترًا. غضب الإمام غضبًا شديدًا ثم توجه إلى الله قائلاً: ياربى أغضبت على وعلى أولادى حتى تبليتى؟؟ اللهم ارفع مقتك وغضبك عني، اللهم إني لا أرجوها.. يا ابنائى: لا يوجد ذهب ولا غيره. ثم سبق الإخوان ونزل عليه السلام في المكان الذى يدعون أن فيه كترًا وقال: والله يا إخوانى ما هذا إلا تراب. ثم أخذ بيد السيد أحمد نجله الأكبر وبيد الشيخ العقاد ورفعهما وقال: والله لو أعطانى ربى الدنيا لوهبتهما لليهود لا أن أهبها لكم ولا أرضاها لكم، إن أغنى أغنياء الدنيا هم اليهود، وأنتم أغنياء بالله ورسوله. وما أن سرى عنه إلا واطمأن واستبشر أن الله سبحانه وتعالى كشف عنه البلاء، لأنه خشى أن يتحول حب الله ورسوله في قلوب تلاميذه إلى حب الدنيا.

(١).

(١) روى هذه القصة الشيخ نصر احمد سعد العقاد من الفيوم سماعاً من والده.

وبعد أن دخل الإمام قصر الحنفى هذا، اكتشف الأخوان وجود امرأة تدعى (الدمياطية) وأولادها تسكن فى جناح من أجنحة القصر، ورفضت الخروج فأبقاها الإمام رحمة منه. وقد تبين بعد ذلك أنها كانت تفعل ماينافى الآداب، وتتجسر فى المخدرات. ولما أصبح البيت مقصدًا للإخوان وللزوار وفى أى وقت، فلم تستطع أن تفعل ما كانت تفعله، وبدأت تؤذى الإمام أشد الأذى، وتعمل حفلات رقص وصخب للتشويش وقت الذكر والعلم والإمام يدعو أن يصلح الله حالها. وكانت تدخل على الإمام وهو يلقي الدرس وتشتمه وتتهمه فى أشياء منافية للآداب وبأقذر الألفاظ رغبة فى أن يترك الإمام لها المكان ويبحث عن غيره، والإخوان يريدون ضربها وطردها فيقول لهم: احمدا الله أن أباكم الشيخ لم يحرم من صورة حمالة الحطب فى هذا الزمان، أرسلوا لها أكلها وأكل أولادها وأعطاها نقودًا لتخرج، وهى يزداد إصرارها على الرفض ولما اشتد ضيقها من الإمام، وهو صاحب البيت، ظلت تجمع من مخلفات دورة المياه، وألقت به على الإمام حتى غطى العمامة والملابس كلها وهو خارج لصلاة الجمعة، عندئذ تحرك قلبه إلى الله، ورجع إلى غرفته حامدًا ربه وشاكراً فضله واغتسل مرة أخرى وغير ملابسه ونزل للمسجد وسط إخوانه مهللين مكبرين ومنشدين وعلى مرأى منها. وزاد غضب المرأة وقررت أن تفعل شيئاً نهائياً يشفى غليلها لعل الإمام يخرج من القصر ويتركه لها فتكون لها اليد الطولى فيه وعندئذ تفعل ما تريد والعياذ بالله.

لقد تحرك قلب الإمام إلى ربه، وكانت إرادة الله عز وجل سابقة فى أن تخرج هذه المرأة من القصر بعد أن تشاهد بنفسها أن هذا الإمام من الذين أعطاهم الله الكلمة الصادقة والدعوة المستجابة. لقد أشعلت النار فى مخزن كان يخص السيد محمد أبا الحسن ابن الإمام، فكان يدخل المزايدات ويشتري البضائع ويخزنها فى هذا

المخزن لحين بيعها، وكان هذا المخزن في البدروم الكائن تحت سكن الإمام مباشرة. وارتفعت ألسنة النار حتى وصلت إلى الحجرة التي ينام بها الإمام، فتوجه الإمام ناحية النار ثم تفل عليها قائلاً الله أكبر فانطفأت جميع النار مرة واحدة، والمرأة تشاهد هذا الموقف، فأدخل الله الرعب في قلبها مما رأيته، فما كان منها إلا أن أخذت أمتعتها ورحلت هي وأولادها وهي خائفة إلى غير رجعة، وأراحت الإمام وكذلك الإخوان من شرها، وقال الإمام للإخوان: بصبركم عليها يا أولادى ربنا أحلى لكم المكان. لم يوجهها الإمام إلا بالحسنة والصبر، فكان يقدم لها الطعام والمال وتحمل أذيتها، وكلما تزيد هذه المرأة في أذيتها كلما واجهها الإمام بالعتاء المتزايد، تأسيساً برسول الله ﷺ وآله ﷺ الذى كان يتحمل إيذاء اليهودى يومياً وهو يضع أمام البيت ما يؤذى النبی عند خروجه فكان يرفع ما وضعه اليهودى وينظف المكان، وفي النهاية أسلم اليهودى.

كان منزله بمصر كعبة وفود الأمم الإسلامية من مختلف الأجناس، ومحط أنظار سفراء الممالك الإسلامية وعظماء مصر ممن لم يحجبهم حجاب المعاصرة والمجانسة، فكان رضوان الله عليه - ولا تأخذه في الحق لومة لائم - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أياً كان.

واتسع أمامه مجال الدعوة إلى الله تعالى فأسس مجلة (المدينة المنورة) - التي بدأ صدورها عام ١٩٢٠م واستمرت لسنوات طوال بعد انتقاله إلى جوار ربه - حاملة لواء العلم الصحيح، ينشر بها الدين وتعاليمه وأخبار الصحابة في هذا العصر المظلم، حتى أراد الله أن يتم مقصده فأقبل عليه من أراد الله أن يجعل لهم نوراً يسعون به ومنهم الذين ينطقون وينشرون فضله في هذه المجلة.

لقد دافع عن حرمة الدين كما بث روح الغيرة على الوطن الإسلامى بين المسلمين، فالوطنية المصرية إنما تدين له بإذكاء نارها وتأجج إزارها بين الشباب المتعلم الذين قذف بهم للعمل فى خلاص الوطن من رتقة الاستعباد، مبيناً لهم فى داره فضل الجهاد وما فيه من مزية وأجر قد لا يحلم به العباد. ثم لم يقف به الحد عند هذه الدائرة الضيقة بالديار المصرية فحسب بل هب لتنبية المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بالنذر الكتابية وبالكتب التى كان يملئها على أهل خاصته ثم يوزعها بلا مقابل فى الهند وجاوه والصين واليمن والحجاز والترك وبلاد العجم، كل ذلك كان ابتغاءً لرضوان الله تعالى. لقد كان يبتدأ الكتاب الصغير صبيحة الجمعة ثم يفرغ منه إنشاءً فجر الاثنين الذى يليه ثم يطبعه ويجهده أهل بيته وخاصته فى إدارة المطبعة فلا راحة للكل حتى يطبع ويوزع، لا رغبة فى المال.. فقد كان متوفرًا لديه.

أعياى الإنجليز أمره فى السودان وفكروا فى الخلاص منه، فكان جذوة تركها بين أبنائه الناشئين فى ذلك القطر الشقيق، وجاء مصر فألهبها غيرة وحماسة فى التفكير للخلاص من هذا الداء الويل والكابوس الثقيل حتى قامت الثورة فكان سعد زغلول علمها الظاهر وكان الإمام المحرك لأفراد الأمة إلى هذا العمل الباهر.

وكانت للدروس التى ألقاها بالقاهرة فضل كبير فى إيقاظ الشعور بين طبقات الأمة السودانية، فما من حر أبى رفع رأسه فى النهضات الإسلامية الوطنية منذ أن رحل الإمام أبو العزائم عليه السلام عن السودان سنة ١٩١٥م إلا وهو يدين بهذا الشعور وهذه الروح القوية التى تسوقه سوقاً إلى ميادين الجهاد وتشعل النار فى قلوب السودانيين حقداً على الغاصبين. وقد كان حين عم هذا الوعى الإسلامى فى بلاد السودان ١٩٢٤م حين ثارت فصيلة على عبد اللطيف وبعض إخوانه على جيش

الإنجليز المدجج بالسلاح والعتاد وكادت الدائرة تدور عليه لولا خيانة أعداء الحرية من أرباب السلطة في ذلك الحين الذين اتخذهم الإنجليز مخلب القط فسلم الجيش المصرى تسليماً مخزياً لأعدائه الإنجليز.

إن البطل على عبد اللطيف حين سأله القاضى الإنجليزى أبان محاكمته: من أين لك هذه الروح القوية الوطنية؟ فأجابه على الفور: من شيخ مصرى يدعى محمد ماضى أبو العزائم رحمته الله كان يخصنا بها فى دروسه بالكلية وعظاته بمسجد الخرطوم الذى ألهم بها قلوبنا حين كان يقول: إن الإسلام وطن وإن ذلك الوطن يجب أن يحرروا كل قاعد عن التحرير هو مشرك بالله لن ينال رضاه وإن صلى وصام وحج البيت وإن الجهاد فريضة على كل مسلم حر قادر كسائر الفرائض.

مصاعب نشر الدعوة:

وقد لقي الإمام من المصاعب الكثير فى سبيل نشر الدعوة، وكان ربه يكرمه بالمكاشفات اليقينية عما يدور بخلد المريد، وهو روح الدعوة وسر نجاحها، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ النساء: ٦٣، وكان دائماً ما يقول: (المرشد: من لا يحجبه عن أولاده شبر من تراب) .

ومما روى عن كلاءة الله تعالى للإمام وحفظه له من شر الأشرار وكيد الفجار، أن جماعة من المعاندين اتفقوا فيما بينهم أن يحدثوا ضحيجاً أثناء إلقاء الإمام لخطبة الجمعة، حتى لا يسمع أحد من المصلين شيئاً من الخطبة. وكان الشيخ مفتاح ضمن من هم مع الإمام. وفى الوقت المناسب فاجأ الإمام الشيخ مفتاح بأن طلب منه أن يخطب الجمعة، فصعد المنبر، وجعل يخطب والناس ينصتون فى خشوع وأدب، وبذلك فأتت الفرصة على هؤلاء المعاندين بأن يضايقوا الإمام، ولكن واحد منهم

لم يهن عليه هذا الموقف فبدأ في السعال المصطنع، وظل كذلك إلى أن صار السعال حقيقياً، وظل كذلك حتى مات في المسجد.

ومما روى أن جماعة اتفقوا على سبيل السخرية أن يأتي أحدهم الإمام وهو على جنابة ويطلب منه البيعة فقال له: اذهب إلى أمك التي ضربتها وأخذت منها الريال، ثم بعد أن ترضيها وتصفح عنك تذهب لتتطهر ثم تأتينا لأخذ البيعة. تعجب الرجل كيف أن الإمام كاشفه بالحقيقة، ففعل ما أوصاه الإمام به، ثم رجع إليه يطلب البيعة بصدق، فمد له الإمام يده.

مما روى أيضاً أن الإمام كان يلقي درساً في أحد مساجد السويس، وكان من الحاضرين متعلم اسمه الشعشاعي جلس يستمع للإمام لاصطياد خطأ في كلامه، ولما لم يجد سأل سؤالاً يتعلق بالقضاء والقدر، وهو بعيد عن موضوع الدرس، وذكر قول القائل:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبطل بالماء

وكانه يريد أن يقول: قدر الله على المعاصي وألقاني فيها وقال إياك أن تعصني. وأصابت الحيرة بعض الجالسين، فرد الإمام بقوله اسمع يا شعشاعي، أيها أشد؟ النار أم الماء؟ قال النار، قال الإمام: ما تقول في أن الله عز وجل أوقع الخليل إبراهيم في النار بإرادته وأنجاه بقدرته؟ (قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) (١)، ألم يقع إبراهيم في النار وأنجاه الله منها؟ وهكذا أزال بإجابته الشبهة ببيان إسناد الإرادة والقدرة لله تعالى يفعل ما يشاء.

(١) سورة ص آية ٥٨.

يوم فى حياة الإمام
مخطوطة بخط يد سماحة السيد
أحمد ماضى أبو العزائم عليه السلام ابن الإمام الأكبر
الذى لازمه فى أوقات خلواته وجلواته
والخليفة الأول لوالده

قبل آذان الفجر، كان الإمام يقف فى نافذة حجرته وهو ينادى الإخوان للصلاة بقوله: يا غراس الجنة: الصلاة، وفى أحيان أخرى كان يقول: يا آل العزائم هيا إلى الغنائم، ويكرر النداء. ثم يخرج من حجرته ويتزل من سكنه الخاص منادياً الإخوان بما سبق، ويمر على الغرف التى ينام بها الإخوان قائلاً هذا القول وطارقاً بعضه باب كل غرفة ليوقظ من لم يستيقظ منهم، ثم يتوجه إلى زاوية آل العزائم .

ثم يصلى الرغبة فى جماعة، ثم يجلس على هيئة الصلاة مستغفراً ربه بقوله: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله. ثم يصلى الصبح فى أول الوقت مع الخشوع وحضور الروح، ثم يختم صلاة الصبح بالأدعية الواردة (١)، ثم يلقي درساً على الإخوان حتى شروق الشمس، ثم يخرج للرياضة حتى مسجد السيدة زينب أو أقرب مكان إلى البيت، ثم يتناول طعام الإفطار مع الإخوان، ثم يأخذ قسطاً بسيطاً جداً من النوم.

(١) فى كتاب نيل الخيرات بملازمة الصلوات للإمام أبى العزائم.

وبعد أن يستيقظ، يأمر بإحضار القلم والقرطاس ليملى على الكاتب بعض العلوم بما يتناسب مع الوقت: فيملى في تفسير القرآن ثم في الحالة الحاضرة ووسائل إصلاحها ثم يكتب أو يرد على المراسلات التي تصله من أبنائه وتلاميذه ومحبيه من الأفطار الإسلامية ومصر، مزوداً كل هؤلاء بالنصائح التي يدعو فيها إلى الرابطة الإسلامية.

ويعلم الإمام الضحى، وقد يطلب أن يسمعه مما أُملى من قصائد الأُمس، فيصحح لهم الأخطاء التي قد وقع فيها الكتبة (١). ويستقبل الزائرين حتى تحين صلاة الظهر.

ويعلم الإمام الظهر، ثم يصعد للراحة، وقد لا يصعد للراحة فيلقى درساً. وعند صعوده إلى داره ينصح النساء بإقامة الصلاة وطاعة الزوج. ثم يتزل من سكنه قبل صلاة العصر لتأدية الصلاة، ثم يطلب المصحف ويقرأ الآيات، وقد يبدأ في إملاء تفسير القرآن ويشرح الغامض منه ويبين أسرار ما خفى، وكان يؤكد على الإخوان مداومة قراءة القرآن فله الأولوية على أى ورد من الأوراد، مع استحضر رابطة المرشد، أو إملاء بعض الكتب، أو إملاء مقالات لتنشر بالجرائد أو الرد على ما ورد ببعض الجرائد من مقالات.

ثم يخرج الإمام بسيارته إلى كوبري قصر النيل (١) أو خلافه، وفي أثناء ذلك أحياناً ما كان يملأ قصائد حسب الواردات، ثم يعود من الرياضة قبل صلاة المغرب أو يؤديها في الجهة التي كان يترىض فيها إن كان معه مجموعة كبيرة من الإخوان.

(١) ذات مرة قرأ الشيخ مفتاح زيدان على مسامع الإمام قصيدة مطلعها: (يا رجالاً فروا إلى الجنات) فقال الإمام ارفع يا

مفتاح- همساً لسه ها يفروا؟ (أى فروا بدلاً من فروا).

وبعد أداء صلاة المغرب يبدأ الإمام بإلقاء بعض الدروس إذا أتت وفود لزيارته، أو يملأ بعض القصائد، أو يبدأ بقراءة الصلوات على رسول الله ﷺ وآله.

وبعد صلاة العشاء يقرأ الإمام الصلوات إذا لم تكن قد قرئت بعد صلاة المغرب (من المهم أن يقرأها الإمام مع الإخوان مرة كل يوم)، أو أن يلقى بعض الدروس. ثم يعقب ذلك الحاضرة بما فيها من ذكر جهري وسري وقصيدة الحاضرة ثم قراءة ما تيسر من آيات القرآن، ثم الدرس.

وبعد الدرس يغادر الإمام الجلسة للراحة أو أن يدعو أهل الفهم من خاصة تلاميذه للخلوة، وهم أفراد مخصوصين من الإخوان مثل الشيخ أحمد سعد العقاد والشيخ مفتاح زيدان والشيخ حسن القليني والشيخ محمد شحاته والشيخ عبد الباسط القاضي والشيخ أحمد السبكي والشيخ عرفات الجمال إن وجد بالقاهرة والشيخ يوسف عبد المعبود والأخ نبيه سلامه وغيرهم.

يبدأ الإمام الخلوة بإلقاء قصيدة لها معان سامية يضمن بها الإمام على العامة، ثم يشرح بعض معاني هذه القصيدة على الإخوان الحاضرين، فتتجلى لهم المعاني الخفية والإمدادات والإشراقات العلوية والمعارف والإلهامات من المكنون المضمون به. وكان الشرح لهذه القصائد (قصائد الخلوة) أحياناً يأتي على نظام الحكم (مما هو وارد في كتاب جوامع الكلم)، وتنتهي الخلوة في ساعة متأخرة من الليل. ثم يصلى الإمام سنن العشاء، ويبقى الوتر لخلوته منفرداً، ثم يستريح قليلاً. بعد ذلك يقوم للوضوء والتهجد ومناجاة الذات العلية حتى صلاة الفجر، وقد يكون معه بعض من إخوان الخلوة يكتبون عنه هذه المناجاة سواء نثراً أم نظماً.

(١) كوبرى التحرير حالياً.

ويفصف أحد تلاميذه آداب وقته، فيقول:

كان كل وقت عنده عليه السلام يعمره بما يقتضيه واجبه، فكان له وارد في السحر وآخر في بياض النهار وغيره في صرصر اليوم وآخر في خلوته ليلاً، ولكل مقام مقال. وأن الإمام رضوان الله عليه في شهر رمضان كانت له درر غالية ينثرها قبيل الفجر بعد تناول السحور، وربما كان ذلك وهو يتناول الطعام.

ويقول الشيخ مفتاح زيدان سكرتير الإمام: وكان سحورنا قبله لتتفرغ لتلقى هذه الأسرار العالية والحكم الغالية، لأننا إن لم نحافظ على هذه الآنات عنده لتقييد الوارد ضاع منا، لأنه لا ينتظر الكاتب، فإن حضر اغترف من البحر فملاً وعاءه ودفأته، وإن فاته الوارد رجع بخفي حنين وفاته الخير الكثير. لذا كنت أحرص على تلقي هذا الوارد ولو فاتني طعام السحور في بعض الليالي مذ أكرمني الله بصحبته عليه السلام وملازمته سفرًا أو حضرًا داخل القطر وخارجه مدة ثلاثين عامًا وأكثر (١).

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ١٣ ص ٢٧ (١٦ رمضان ١٣٥٦هـ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٧م)

ومما رواه أحد تلاميذه عنه:

ومن العجائب أن الأستاذ كان يتزل قبل الفجر للصلاة فيصلى السنن في جماعة عمومية، ثم تقام الصلاة ويصلى الصبح في أول الوقت مع الخشوع وحضور الأرواح، ثم يختتم الصلاة بالأذكار فتشرق الأنوار الإلهية، ومن حضر فاز صدره بالإنسراح، فإن أشرقت الشمس أمر بإحضار الطعام وأكل مع الإخوان بالسوية، ويتعهد الجميع ويحييهم بالكلمات الملاح، ثم يأمر بإحضار القلم والقرطاس فيملئ ما يناسب الوقت من الأدوية العلمية، فيكتب في التفسير ثم في الحالة الحاضرة وقصد الإصلاح، ثم يكتب البريد إلى الأقطار الإسلامية مزودًا بالنصائح يدعو فيها إلى الرابطة وهي أساس النجاح، ثم يصلى صلاة الضحى ويستريح وبجانبه من يتلو له في المصحف الآيات القرآنية، أو أحاديث سيد المرسلين أو كلام الصالحين أهل السماح.

فإذا جاء الظهر صلى السنن القبلية، ثم تقام الصلاة ويصلى الفرض والسنة البعدية والإخوان في إنسراح. ثم تُختتم الصلاة ويدخل حجرته الخصوصية، فينصح السيدات بإقامة الصلاة وطاعة الزوج فإن نتيجة ذلك الرضا والأفراح، فإذا جاء وقت العصر صلى بالإخوان السنة القبلية، ثم يصلى العصر ويختتم الصلاة ويجلس كالكعبة التي تطوف حولها الأرواح، ويدعو بالمصحف الشريف فيتلو الآيات ويشرح الغامض منها ويبين الأسرار الخفية حتى كأننا بالحرم وفي كل قلب مصباح.

وكان يؤكد على الإخوان في المداومة على قراءة القرآن مع الآداب الكلية، ويقول استحضروا أنكم تسمعون مني القرآن أو تقرأونه على فلاستحضر هو المفتاح، ثم يأمر بإحضار العشاء فيجلس مع الإخوان وهم حوله في المسرات القلبية،

وينادى حضروا فلائناً وفلائناً ويمكث حتى يحضر الكل بكل ارتياح، ثم يصلى المغرب والسنة فى جماعة كلية، ويختتم الصلاة ويأمر بقراءة الصلوات التى طيها قد فاح، ثم يصلى العشاء ويختتم الصلاة ويبقى الوتر لخلوته الفردية، ثم يبدأ الدرس ببيان الأحكام والأحاديث الصحاح، ثم يقوم للذكر فى نشاط وهمة كلية، ويقول فى الذكر ما يفيضه مولاه من كنوز الفتاح، ثم يدخل الخلوه ويدعو أهل الفهم والأذواق الخصوصية، ويملى ما ينجلي له من المعانى التى تعجز عن وصفها الشراح فإذا ذهب نصف الليل دخل منزله الخاص لصلاة الوتر ومناجاة الذات العلية، ويزال فى شوقه وغرامه إلى طلوع الصباح.

اللهم اجعلنا من المحبوبين لأهل الحضرة العلية، الفائزين بالنجاح والفلاح (١) .

(١) كتاب (المواهب الإلهية) للشيخ أحمد سعد العقاد.

تلقيه العلي عليه السلام

عن مشايخ طرق السادة الصوفية

لقد تلقى الإمام عن مشايخ الطرق، ليشهد الكل أن الطريق إلى الله تعالى واحد، وأن الكل على خير طالما يدعون إلى الخير، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها.

تعلم الإمام من الكل فأفاض الله عليه من علمه اللدني ببركة تواضعه وحبه الكبير وحرصه العظيم على كل واردة وشاردة في العلم. إن الرجل الكامل هو الذي لا يحقر رجلاً ولا يضره أن يأخذ ممن هو أقل منه علماً.

إن الطريق إلى الله واحد والداعون إليه كثير، فأكد الإمام هذا المعنى حتى نكون أخوة متحابين لأنها مشارب وأذواق.

ومما قاله الإمام رضوان الله عليه عن السند المتصل الذي أخذ عنه الطريق إلى الله تعالى (١):

الحمد لله الذي نظر بعين العناية لأهل الخصوصية فجملهم بحلل الهداية، ومنحهم التوفيق والإقبال على ذاته العلية بإخلاص، والصلاة والسلام على شمس الهداية، صراط الحق المستقيم، الدال على الله بالله، وحصن الأمن الحصين الذي من

(١) كتاب (نبيل الخيرات بملازمة الأدعية والصلوات على الحبيب المختار ﷺ وآله) للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى

العزائم. الطبعة الخامسة (١٣٤١هـ) ص ٧٧، مطبعة المدينة المنورة.

خالفه ضل وغوى ومن اتبعه أحبه الله وهداه، سيدنا محمد، عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وورثته وسلم. وبعد:

فإني والحمد لله على نعمائه وإحسانه قد أكرمني الله تعالى بصحبة رجال من أهل العلم والعمل والحكمة والحال، وتلقيت عنهم بعد أن تلقيت العلم الشريف بالأزهر ومدرسة دار العلوم ببلاد مصر، فتلقيت بالأزهر الشريف الفقه على مذهب الإمام مالك، والعقائد على أصول أهل السنة، والأخلاق على طريقة الإمام الغزالي، وتفسير القرآن الشريف وعلم الحديث رواية ودراية، ثم تلقيت عن أئمة الطريق شرح مقامات اليقين وشرح الأوراد والأذكار الواردة عن أئمة الصوفية، وأجازني بذلك أكثر مشايخي.

(١) وقد أجازني بطريق السادة القادرية:

سيدى السائح الزاهد الصوفى بير محمد البخارى بمدينة المنيا سنة ١٣١٢هـ—، وهو تلقاها عن شيخه السيد على القادرى، عن أبيه وشيخه السيد عبد القادر القادرى، عن أبيه وشيخه السيد أبى بكر، عن أبيه وشيخه السيد إسماعيل، عن أبيه وشيخه السيد عبد الوهاب، عن أبيه وشيخه السيد نو الدين، عن أبيه وشيخه السيد درويش، عن أبيه وشيخه السيد حسام الدين، عن شيخه وابن عمه السيد أبى بكر، عن أبيه وشيخه السيد يحيى، عن أبيه وشيخه السيد نور الدين، عن أبيه وشيخه السيد ولى الدين، عن أبيه وشيخه السيد زين الدين، عن أبيه وشيخه السيد شرف الدين، عن أبيه وشيخه السيد شمس الدين، عن أبيه وشيخه السيد محمد الهتاكى، عن أبيه وشيخه السيد عبد العزيز، عن أبيه وشيخه السيد قطب العارفين ومرشد السالكين السيد عبد القادر قدس الله سره، عن شيخه أبى سعيد المبارك المخزومى، عن شيخه العكاوى، عن شيخه أبى فرج الطرطوسى، عن شيخه عبد الواحد التميمى، عن شيخه أبى بكر الشبلى، عن شيخه أبى القاسم الجنيد البغدادى، عن شيخه السرى السقطى، عن شيخه معروف الكرخى، عن شيخه أبى المحاسن على بن موسى الرضا، قال حدثنا الإمام موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه على زين العابدين عن أبيه سيد شباب أهل الجنة وقرّة أهل السنة الإمام الحسين عن أبيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام عنه، قال: حدثني حبيبى وقرّة عيني رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، قال: حدثني جبرائيل عليه السلام، قال: سمعت رب العزة جل جلاله يقول: لا إله إلا الله حصنى فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى. وبالسند المتقدم إلى الشيخ معروف الكرخى عن شيخه داوود الطائى عن شيخه حبيب العجمى عن شيخه

حسن البصرى عن شيخه الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب ؑ عن رسول الله ﷺ وآله ؑ عن جبرائيل عليه السلام عن رب العزة جل جلاله.

(٢) وتلقيت الطريقة النقشبندية:

من عدة فروع كلها ترجع إلى الإمام سلمان الفارسى عن الإمام أبي بكر الصديق ؑ أو إلى الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام. ولما كان المراد إثبات رجال السلسلة، أحببت أن أختصر على سند الرجال المتصل بسند الإمام سيدنا على عليه السلام. ولما كانت آداب السلسلة النقشبندية أن يتدثروا بالسلسلة من أعلاها- ورعاية الآداب واجبة في طريق الله تعالى- لزمنى أن أقتدى بأئمة الطريق فيما وضعوه لحفظ سند العلم والطريق:

السند: اللهم أنت ذو الفضل العظيم، فأسألك بحبيبك ومصطفاك سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله ؑ أن تلحقنا بنسبه الروحاني، وأن تنظمننا في عقد معيته المحمدية التى بينت أهلها بصفاتهم في آخر الفتح، وبجاه لسان حكمته وترجمان علمه أمير المؤمنين سيدنا على عليه السلام، وبعلوم وارث تلك الأسرار الإمام الحسن البصرى ؑ وبإخلاص سيدنا حبيب العجمى ؑ، وبصدق سيدنا داوود الطائى ؑ، وبجذبة سيدنا على معروف الكرخى ؑ وبصفاء الإمام سيدنا سرى السقطى ؑ وبأنوار سيد الطائفة الشيخ جنيد القواريرى البغدادى ؑ، وبمحبة سيدنا الشيخ أبى على الروزبارى ؑ، وبجرمة سيدنا الشيخ أبى على الكاتب ؑ، وبوفاء سيدنا الشيخ عثمان المغربى ؑ، وبمقام سيدنا الشيخ أبو القاسم الجرجانى ؑ، وبحق سيدنا الشيخ أبى بكر النساج ؑ، وبسيدنا الشيخ أحمد الغزالى ؑ، وبسيدنا الشيخ أبى النجيب عبد القادر السهروردى ؑ، وسيدنا الشيخ عمار بن ياسر ؑ، وسيدنا الشيخ روز بهان البقلى رضى الله عنه، وسيدنا الشيخ أبى الجناب عمر بن

محمد نجم الدين الكبرى رحمته الله وسيدنا الشيخ مجد الدين رحمته الله، وسيدنا الشيخ على لالا القرنوى رحمته الله، وسيدنا الشيخ جمال الدين أحمد الجورفاني رحمته الله وسيدنا الشيخ عبد الله العربي رحمته الله وسيدنا الشيخ علاء الدولة السمناني رحمته الله، وسيدنا الشيخ شرف الدين محمود مزدفاني رحمته الله، وسيدنا الشيخ أمير سيد على همداني رحمته الله، وسيدنا الشيخ إسحاق الخثلاثي رحمته الله وسيدنا الشيخ عبد الله البررش أبادي رحمته الله وسيدنا الشيخ رشيد الدين محمد البيداوازي رحمته الله، وسيدنا الشيخ الحاجي محمد الخيوشاني رحمته الله، وسيدنا الشيخ كمال الدين حسنين خوارزمي رحمته الله، وسيدنا الشيخ يعقوب الصيرفي رحمته الله وسيدنا إمام الألف الثاني الشيخ أحمد الفاروق السهرندي رحمته الله، وسيدنا الشيخ محمد سعيد السهرندي رحمته الله، وسيدنا الشيخ محمد عابد السنامي رحمته الله، وسيدنا الشيخ شمس الدين حبيب الله مرزا مظهر جان جانان الشهيد الدهلوي رحمته الله، وسيدنا الشيخ عبد الله الدهلوي رحمته الله، وسيدنا الشيخ أبي سعيد الجحدي رحمته الله، عن شيخى وأستاذى الشيخ الغريب محمد الخوقندى السائح: تلقيت عنه هذا الطريق الشريف وأنا على الباخرة بين السويس وجدة سنة ١٣١٤هـ وأنا مسافر لشرق السودان، وكان نفعنا الله بعلومه مهاجرًا إلى المجاورة إلى حرم الله تعالى، صحبته أسبوعًا وكان معى أخى فى الله الشيخ محمد الصبيحى.

وقد تلقيت هذا الطريق الشريف بسند آخر من حافظ عثمان الموصلى بمقام الشيخ إبراهيم الدسوقي الولي الشهير ببلاد مصر، ثم توجهت إلى أسوان من بلاد مصر مهاجرًا إليها وصحبني في أسوان شهوّرًا. وتلقيتها قبل بلوغى من سيدى ووالدى السيد عبد الله محبوب ماضى بالسند المتصل بسيدنا سلمان الفرسى رحمته الله وعنا وعن الصديق الأكبر سيدنا أبى بكر رحمته الله.

وصحبت كثيراً في سياحتي وتلقيت عنهم اللطائف والتوجهات ومراقبات الطريق بأسانيد متعددة، وتلقيت عنهم كشف غوامض من أسرار العلم الرباني ثبت الله به فؤادي.

وأنا الخوادم المسكين الخائف من ذنوبي، الطامع في الله تعالى، المتوسل إلى الله تعالى بحبيبه ومصطفاه ﷺ وآله، وأصحابه وأئمة الهدى أن يغفر لي ذنوبي ويتوفاني مسلماً ويلحقني بالصالحين، وأن يجعل لي وأهلي وأحبابي وإخواني قسطاً وافراً من ميراث رسول الله ﷺ وآله، وأعظم حظ من أسرار أئمة الهدى من السلف الصالح، وأن يجدد بنا سنن رسول الله ﷺ وآله ويعلي بنا كلمته ويجعلنا أنصاراً للحق بالحق، ويعيد لنا مجد سلفنا الصالح تمكيناً في الأرض بالحق وقياماً للحق وشهادة للحق ولو على أنفسنا.. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(٣) وقد أجازني بالطريقة التيجانية:

سيدي السيد مسعود الحسني الإدريسي الفاسي عن نجله الأستاذ عن الأستاذ
رحمته في أواخر سنة ١٣١٣هـ بسواكن.

(٤) وأجازني بطريق السيد أحمد بن إدريس:

القطب الشيخ محمد أحمد الدرناوي بالمنيا سنة ١٣١١هـ.

(٥) كما أجازني بالطريقة الرفاعية:

سيدي غانم الخشاب سنة ١٢٩٧هـ.

(٦) وأجازني بالطريقة الأحمدية:

سيدي الشيخ أحمد الضير سنة ١٣١٢هـ.

(٧) وتلقيت الطريقة الخلوتية:

عن سيدي السيد يوسف الشرنوبى وسيدي الشيخ إبراهيم الخانكي وسيدي الشيخ محمد عبد الجواد.

(٨) وأجازني بطريق الإمام الغزالي:

سيدي الغريب محمد الخوقندي نزيل مكة المشرفة سنة ١٣١٥هـ .

(٩) وتلقيت شرح بعض الأحوال المشهورة لأكابر الأئمة عن والدي رحمه الله

تعالى

(١٠) وأجازني بالطريقة الشاذلية:

سيدي الإمام العالم الفاضل: حسين حسن الحصافي بسنده عن الإمام سيدي الشيخ عليش مفتي المالكية بالأزهر الشريف، عن الإمام الأمير الصغير، عن الإمام الأمير الكبير، عن الشيخ أحمد الجوهرى الخالدي، عن الشيخ عبد الله بن محمد القصرى الكنكى المغربى، عن سيدي عبد الله بن إبراهيم الشريف العلمى، عن سيدي على ابن أحمد الأنجيري، عن سيدي ابن مهدي عيسى بن أبي محمد محمد الحسن ابن عيسى المصباحى، عن سيدي أبي عبد الله محمد الطالب، عن سيدي أبي محمد عبد الله القزواني، عن سيدي أبي محمد عبد العزيز التابع، عن سيدي أبي عبد الله محمد الجزولى صاحب دلائل الخيرات، عن سيدي محمد أمغار، عن سيدي أبي عثمان سعيد الهنتاني، عن سيدي عبد الرحمن الرجراجي عن الشيخ أبي الفضل الهندي، عن الشيخ عينوس البدوى راعى الإبل أويس زمانه، عن شيخ الإسلام الإمام القرافى، عن سيدي أبي عبد الله المغربى السائح دفين دمنهور البحيرة، وهو عن قدوة الصالحين ومجمع طرق السالكين وخلاصة صفوة العصابة الهاشمية وذروة

عزة شجرة ثمرة الشجرة النبوية تاج العارفين وإمام الواصلين أبي الأقطاب الذى أطلعه الله تعالى على جميع أتباعه وهم فى الأصلاب الفرد الغوث الجامع سيدى أبى الحسن الشاذلى على بن عبد الله بن عبد الجبار بن إبراهيم الشريف الإدريسى الحسى الفاطمى العلوى صاحب الطريق ومظهر لواء التحقيق، ولد ﷺ بالمغرب الأقصى سنة ٥٩٣ هجرية وتوفى بصحراء عيذاب جهة صعيد مصر وهو قاصد الحج فى شوال سنة ٦٥٦ هجرية، وهو أخذ عن أبى محمد عبد الرحمن بن الحسين الشريف الحسى العطار المدنى نسبة لمدينة الرسول ﷺ وآله المشهور بالزيات لمسكنه بحارة الزياتين بالمدينة، وهو عن سيدى عبد الله السامرى، عن الأستاذ أبى بكر الشبللى دلف ابن جحدد، وهكذا روى فى سند الأشياخ وفيه مقال، وهو عن سيد الطائفة أبى القاسم الجنيد محمد القواريرى البغدادى توفى سنة ٢٧٧ هجرية، وهو عن خاله أبى الحسن السرى السقطى مات ودفن بالشونيزية عام ٢٥٣ هجرية، وهو أخذ عن أبى محفوظ معروف بن فيروز الكرخى مات ببغداد سنة ٢٠٠ هجرية، وهو عن أبى سلمان داود بن نصير الطائى مات بالكوفة سنة ١٦٦ هجرية، وهو عن سيدى حبيب العجمى، وهو أخذ عن السيد الجليل أبى سعيد الحسن البصرى التابعى، وهو عن سيدنا ومولانا السبط الشهيد سيدنا الحسن عليه السلام، وهو عن والده سيدنا ومولانا أبى تراب على بن أبى طالب عليه السلام وكرم الله وجهه، وهو عن سيد الكائنات سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله.

كنية الإمام عليه السلام

إن لفظة (أبو العزائم) كنية خاصة بالإمام استنبطها مشايخه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح وكُنُوهُ بها، ولم يسبق لأحد من أفراد أسرته أو أقاربه أن كنى بهذا الكنية. واحتفظ رضوان الله بها لنفسه ولأولاده من صلبه من بعده، وذلك كما يتضح من خطاب الإمام بتاريخ ١١ رمضان ١٣٥١هـ لسماحة السيد عبد الحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية وقتذاك، ونذكر من الخطاب ما يخص هذا الموضوع:

..... وإني ألفت نظر سماحتكم أن لفظة (أبي العزائم) كنيته خاصة، ولم يسبق لأفراد أسرتي أن يكون واحد منهم مُكنى بهذه الكنية إلا أنا. وإني أحتفظ بها فلا أبيع لأحد أن يكنى بها إلا أولادى^(١)، ولا أرضى أن يكون اسماً من معنى الكنية لغير طريقي هذا الذى استنبطته مشايخي من كتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح وكنوني به خصوصاً في هذا العصر الذى كثرت فيه البدع وانتشرت فيه الفتن واندرست فيه معالم الكتاب والسنة.

وأحتفظ بكامل حقوقى أمام سماحتكم.. والله أسأل أن يزيل بكم البدع المضلة ويحى بكم السنن التى درست، ويساعدكم على نصرة الدين وإعطاء كل ذى حق حقه إنه مجيب الدعاء.

خديم الفقراء

محمد ماضى أبو العزائم

(١) أولاد الإمام من صلبه.

أولاد الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

(١) السيد أحمد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام (١) الخليفة الأول للإمام

١- السيد عز الدين عليه السلام الخليفة الثانى

٢- السيد عصام الدين رحمة الله عليه

السيد أحمد

السيد محمد

٣- السيد محمد علاء الدين الخليفة الثالث (القائم)

- السيد أحمد

(٢) السيد محمد الحسن محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام رحمة الله عليه

١- السيد صلاح رحمة الله عليه

٢- السيد نصر رحمة الله عليه

- السيد أيمن

٣- السيد محمد رحمة الله عليه

(٣) السيد عبد الله محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام رحمة الله عليه

(١) الأبن الأكبر للإمام والفرع الذى امتدت فيه خلافة الإمام.

١- السيد ممدوح رحمة الله عليه

- السيد محمد

- السيد عصام

٢- السيد محمد الشهير بيسرى

- السيد أشرف

٣- السيد كمال

- السيد محمد

٤- السيد مختار محمد ماضى أبو الغرائم عليه السلام

١- السيد خالد

٢- السيد طارق

الدعوة الإسلامية للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم عليه السلام

- الإذن ببدء الدعوة التجديدية
- تلقى الإمام بالتلقين دعاء غوث العصر
- إسلام عدد من الرهبان على يديه
- زيارته لمسجد الشلقامى بآبا الوقف
- بداية إملاء الإمام لمواجهه
- تأسيس جماعة آل العزائم وانتشارها
- مشروعية ذكر الله تعالى
- الأسس التى ربى السالكين عليها
- الدستور النظمى للطريق
- تأسيس الطريقة العزمية
- دستور فقراء آل العزائم عليه السلام

الإذن ببدء الدعوة التجديدية

بدأ الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام دعوته الدينية بمدينة المنيا أثناء عمله مدرساً هناك (١٣١١-١٣١٣هـ، ١٨٩٣-١٨٩٥م)، ومن المنيا انتشرت دعوته إلى قراها ونجوعها والبلاد التي حولها في وقت قصير جداً، وقد تنزلت على قلبه رضوان الله عليه من سماء الفيض الإلهي صيغ مختلفة في الصلاة على الحبيب المصطفى ﷺ وآله عليهم السلام وسيل منهم من مواجيد الروحانية التي جذبت قلوب من سبقت لهم من الله الحسنى وكان عندهم القابل النوراني لتلقيها وتذوق ما فيها، فعم صيته مدن صعيد مصر. وقد كانت مواجيدته في أقصى ما يكون ذراها كمًّا وكيفًا في بداية الدعوة وكذلك خلال فترة عمله ببلاد السودان.

تلقى الإمام بالتلقين دعاء غوث العصر

كان من عادة الإمام عندما يريد النوم أن يقرأ القرآن أو يقرأه على مسامعه أحد الإخوان أو أهل بيته، وأثناء قراءته رضوان الله عليه لبعض آيات من الذكر الحكيم عقب الانتهاء من احتفال كبير بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف، فهره النوم، فجاءه سيدنا رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام وأقعده، وتناول كلنا يديه، ولقنه مشاهد وأذواق قرآنية وصيغاً جديدة في الصلاة والسلام على ذاته الشريفة تبين مقامات النبوة والرسالة منذ نشأة الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم لقنه دعاء الغوث لهذا العصر وأمره بأن يلقيه للمسلمين وأن يجعل الأمة تردده قائلاً: اللهم باسمك العظيم الأعظم، وبجاه المصطفى ﷺ وآله عليهم السلام، وبسر أسمائك الحسنى ما علمنا منها وما لم نعلم، أن تعجل بالانتقام من ظلم، وأن توقع الظالمين في

الظالمين والكافرين في الكافرين، وأن تخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين
يارب العالمين.

وبدأت الفيوضات الربانية والمنح النبوية تفاض على قلب الإمام، فبدأ يملأ
أوراداً وأحزاباً واستغاثات وتفسير قرآنية ومشاهد في أحاديث نبوية غير مسبقة
بمثل ما كتب فيها أو شاهد عنها أو ذاق منها، حتى أن الإمام قال حامداً وشاكراً
فضل الله سبحانه وتعالى عليه: (ومنها أن محبة رسول الله ﷺ وآله ﷺ بلغت مني
مبلغاً حتى كاشفني الله تعالى ببعض معانيه ﷺ وآله ﷺ الباطنة والظاهرة، وألهمني
سبحانه جملاً في الصلاة عليه ﷺ وآله ﷺ).

إسلام عدد من الرهبان على يديه:

كان الإمام مسافراً لنشر الدعوة مع بعض أتباعه بالقرب من سمالوط وأدركهم
وقت صلاة العشاء بالقرب من الدير الشهير هناك، فطلب من أحد مريديه أن
يؤذن، وطلب من الباقيين تجهيز المكان لأداء الصلاة، وكان بجوار هذا المكان بعض
الرهبان، وأثناء الصلاة أحس الرهبان بدافع عجيب يدفعهم لمشاهدة هذا الشيخ
المسلم وأتباعه، ولما انتهت الصلاة بدأ الإمام في شرح بعض الآيات القرآنية التي
تتحدث عن سيدنا عيسى والسيدة مريم عليهما السلام فما كان منهم إلا أن أخذوا
يقتربون رويداً رويداً حتى انضموا إلى الحلقة المحيطة بالإمام، وظل هذا المجلس
لساعات وهم يستمعون إليه، بعدها طلبوا استضافته في الدير، وقضى معهم الليل
بالدير حتى مطلع الفجر، وقد انتهت تلك الليلة بإسلامهم جميعاً وتغيير أسمائهم إلى
أسماء إسلامية لهم. ولما خرج من عندهم أخبر عما حدث فقال ﷺ:

حبيبي قد شرح صدري وأنسني إلى الفجر

وأطلعني على معنى	من الإحسان والسر
وناولني كئوس الراح	صرفاً من يد البدر
وأشـهـدني تجليـه	وأوصلني إلى السدير
ورقاني إلى أعلى	مقام القرب والسر
سمعت حنين رهبان	لدى نظري إلى الزهر
وعند شهودهم حسني	تمنوا يقتفوا أثرى
فكنت إمامهم لما	دعاني ليلة القدر
أدرت الراح من يدي	ودار الشرب من بحري
وناداني الإمام هيا	أتاك الوصل بالبشر
فقم للدين يا ماضي	فإني قد صدر أمرى
تلمني بي وشاهدني	ومل عندي عن الغير
وأنبيء من يرد قربي	بحسني حيث لا يدري

زيارته لمسجد الشلقامى بآبا الوقف:

إن الإمام قد عرف مقامه فعرف ربه، وما مقام الإمام إلا مقام الأدب لأنه من مكارم الأخلاق. ولا يتسنى لأحد أن يرفع راية الدعوة إلا إذا أذن له بذلك. وعندما أمر إمامنا أن يقوم داعياً إلى الله تعالى: (فقم للدين يا ماضي فإني قد صدر أمرى)، فقد رأى أن أقوى روح وأجلى رجل قبله دعا بهذه الدعوة هو سيدنا إبراهيم بن عمران الشلقامى رحمه الله، لذلك بدأ من عنده، وليبين أيضاً مقامه.

توجه الإمام من سمالوط ودخل بلدة آبا الوقف القريبة من مغاغة محافظة المنيا ليزور الشلقامى رحمه الله، ولما سمع خدام المسجد بهذه الزيارة أسرعوا بغلق أبواب

المسجد واختفوا، لكن الولي الحى عند ربه استقبل الإمام الذى أتى لزيارته وفتح باب المسجد بقدرة الله تعالى، وأنشد الإمام واصفاً هذا الاستقبال فى حينه، وخدم المسجد واقفون ينظرون مذهولين إلى الباب الذى أوصدوه وقد فتح:

لحماك بحر النور وافى ناشرا	للواء سنة أحمد ومبشراً
فلقيته يا أيها البطل الهمام بهمة	تدنو إليه مهلاً ومكبراً
ولبست حلة وذه متسربلاً	بجمال حب ليله قد أقمرا
هرولت لاستقبال وفد مقبل	يدعو بروض بالحقائق أزهرأ
ورفعت إبراهيم رايتنا على	أعلى مقامك هادياً مستبشرا
ورأيت منك يا ابن عمران الوفا	والصدق للداعى وها هو أخيراً
ها قد شهدت أنك القطب الذى	ذاق العلوم وللطريقة أظهرأ
أحييت شلقامى الطريقة بعد أن	درست وها هو بدرها قد نورأ
لك أيها القطب المودة دائماً	ولك الصفا فى مهجتي قد أثمرأ
ولقد علمت مقامك السامى الذى	من أمه لا شك من أن يجبرأ
ورأيت ربتك العلية بعد أن	عاينت كل الأولياء بلا مرا
وعلمت صدقك للطريق وأهلها	فرغبت أن أك فى حماك مبشرا
فانظر لإخوان بحبك أشرفت	أنوارهم وتناولوا من فضل طه أبحرا
وتولهم بصدقة عاينتها	عند الزيارة بل لهم كن ناصرا
ومحمد ماضى بحبك مخلص	وبقلبه لك رتبة لن تُنكرا

كرامة أظهرها الله فى ذلك المشهد وفى تلك القصيدة، وهى معلقة حتى الآن فى إطار على الحائط بداخل الغرفة التى يوجد فيها مقام سيدى إبراهيم بن عمران الشلقامى.

بداية إملاء الإمام لمواجيده

وكان ابتداء إلقاء الإمام لمواجيده قصة: بعد أن تلقى دعاء الغوث، اعتكف الإمام بالخلوة في مسجد أوضا باشا بالمنيا ومعه إخوان له من محبيه وعشاق علمه، وقد اعتمد في ذكره بالخلوة على أسماء الله الحسنى وحزب سيدي إبراهيم الدرديري، وأراد أن يقيم حلقة ذكر بالمسجد، فأوفد أحد مريديه إلى نائب إحدى الطرق الصوفية ليرسل المنشد، فرفضوا إرساله إلا إذا حضر الإمام بنفسه وبإيع شيخهم، ولما علم الإمام بذلك أتم الحضرة كما هو معتاد، وقيل دخول وقت صلاة الصبح، اعتلى الإمام المئذنة وأنشد هذه القصيدة، رافعاً أمره لله ومعلنًا توكله واعتماده عليه لا على أحد من البشر، ثم أخذ يناجيه حتى دخل الوقت فأذن لصلاة الفجر.

للطيف الخبير أرفع أمرى	وبه في الوجود يرفع قدرى
وعليه توكلى واعتمادى	في حياتى وبعد سكنائى قبرى
كيف يرجو عبد من العبد عوناً	والكريم الحليم عونى وذخرى
حاش قلبى يميل يوماً لغير	أويرى الشك بالرضا وهو يدرى
ويقيني بالله أضحى قوياً	بفؤادى وظاهرى وبسرى
بك يا سيدى بطه التهامى	وبكل الكرام من آل بدر
جئت مستشفعاً فكن لى مجيئاً	يا إلهى واشرح بجبك صدرى
وأجرنى من عظم ذنبى وسامح	فالعبيد الذليل أمسى بضر
يا إلهى من الذنوب أجرنى	ومن النفس والهوى قل صبرى
فأزل بالقرب منك همومى	واشتغالى يارب عنك بغير

يا مجيب المضطر سري وجهري
ليس لي مطلب وهل لي مراد
فمرادى نسيته وهو أولى
أنت أدري به وها هو عذري
عند ربى وهو المدبر أمرى؟
بي منى فاقبل بحقك عذري

فكانت هذه أول قصيدة تغنى بها الإمام وكانت على مئذنة المسجد.

ومما قال أيضاً:

من خمر نور جمالك
شربت صرفاً فهمت
وأصبح القلب نوراً
ومبشرى قال هيا
فسرت وهو إمامي
وقلت ياليت قومي
ومن رحيق وصالك
وهام أهل كمالك
والقلب قد كان حالك
قم فالحمي لك سالك
حتى وصلت هنالك
قد يعلمون بذلك

وبدأ السيل المنهمر من المواجيد، وكان أكثر ما يكون في بداية الدعوة وأثناء
تواجهه في السودان.

تأسيس جماعة آل العزائم وانتشارها

أطلق الإمام على جماعته اسم (جماعة آل العزائم) وأعلن تأسيسها عام ١٣١١هـ - ١٨٩٣م.

وانتشرت دعوة الإمام في جميع أنحاء بلاد المنيا مثل: إتلیدم، والمطاهرة، وطهنشا، والدير، وبنى أحمد، وريده، والفجاعي، والخيارى، وأبو قرقاص، وسمالوط، وشوشة، وآبا الوقف، وبنى عمران، وتانوف، وبان العلم، وبنى مزار، وغيرها...

واتخذ الإمام مسجداً كان يمضى فيه معظم أوقاته لمدارسة العلم والمذاكرة والذكر والعبادة وتطهير القلب وتزكية النفوس ومكارم الأخلاق وخدمة المجتمع والحب للناس كافة، وفي أكثر الليالي كان يبيت في هذا المسجد ولذا سمي بمسجد الشيخ ماضى أو مسجد أبو العزائم عليه السلام (من باب تسمية الشيء باسم لازمه) وقد تجلت روحانية الإمام فنطق بلسان العبارة المصون بحصون الوراثة الحمديّة فقال:

بسم الله الله أكبر
وصفا ليلى وأقمر
وشهودى كل مصدر
صفوة الكثر الجواهر
بعد أن حيا وكبر
أن أتى الداعى وبشر
للمليك وفيه أعذر

بسم الله الله أكبر
روض أنسى صار أزهر
وتجلت شمس قرب
ودنا منى حبيبي
وسقاني الراح صرفا
فبذلت الروح لما
وقليل بذل روحى

يا مدير الراح ناول	بالبحار عساي أسكر
فغرامى فى التهامى	قد علانى وهو مضمر
ضاع صبرى وحلى لى	من شديد الشوق أقبر
يا غياث الكون رفقا	بفتى فى الحى يذكر
بخضوع جاء يسعى	للحمى فعااه ينصر
ومناه منك وصل	ورسول الله أخبر
يا ضياء الكثر يا من	فى ظلام الليل أقمر
قد وفانى السعد لما	صار عشقى فىك يشهر

وكثيراً ما كان يخصص يومى الخميس والجمعة يتوجه فيهما ومعه عدد من تلاميذه إلى إحدى القرى أو المدن المجاورة ومعه زاده، ويتوجه إلى بيت من بيوت الله يعلم الناس أمر دينهم ويشرح ما تيسر من القرآن وفقه السنة الشريفة، ويبيت بالمسجد ويؤذن للفجر ويصلى بالناس ويخطب الجمعة ويصليها ويعود إلى منزله.

وقد جعل الإمام للمريد أوراذاً يومية فى كتاب نيل الخيرات بملازمة الصلوات:
 ١-قراءة جزء من القرآن على الأقل كل يوم، ويحسن أن يكون بعد صلاة العصر، ثم بعد ذلك يقول المريد: يا حى يا قيوم يا باسط يا ودود يا تواب يا كريم يا الله ١٠٠ مرة.

٢-ختم لكل صلاة مفروضة.

٣-قراءة الورد القولى الآتى مائة مرة بالنهار ومائة مرة بالليل، وكل النهار أو الليل وقت له، ويقرأ على وضوء أو غير وضوء:
 أ-أستغفر الله إن الله غفور رحيم.

ب- لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

ج- اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، صلاة تحلُّ بها العقد، وتفرج بها الكرب، وتزيل بها الضرر، وتَهون بها الأمور الصعاب، وترضيك وترضيه، وترضى بها عنا يارب العالمين.

و لما كان الذكر على ثلاثة أحوال: ذكر اللسان، وذكر القلب، وذكر القلب واللسان، فإن الإمام سَمى هذا الورد بالورد القولى، أى ذكر باللسان، حتى لا يحرم المريد- وهو المبتدأ فى الطريق- من أن ينال أجره من قوله هذا إن لم يحضر قلبه، ومع تكرار هذا القول فقد يرق القلب ويحضر فيكون هذا الورد باللسان وحضور القلب معاً فينال المريد البغية المنشودة من هذا القول.

٤- قراءة الصلوات ليلة الاثنين والخميس من كل أسبوع فى مجلس جماعى متبوعة بالذكر ودرس العلم إن أمكن، إلى أن يتمكن المريد فيقرأها فى اليوم مرتين: مرة بعد صلاة الفجر ومرة بعد صلاة المغرب إن لم يكن هناك درس علم، وإلا فبعده، ويحسن أن يكون ذلك فى جماعة.

٥- عند اصفرار الشمس يتوضأ المريد ويدعو بهذا الدعاء: اللهم أمسى ظلمى مستجيراً بعفوك، وأمسى ذنوبى مستجيرة بمغفرتك، وأمسى خوفى مستجيراً بأمانك، وأمسى ذلى مستجيراً بعزك، وأمسى فقري مستجيراً بغناك، وأمسى وجهى البالى الفانى مستجيراً بوجهك الدائم الباقي، اللهم ألبسنى عافيتك، وأحللنى أمانك وقنى شر خلقك من الجن والإنس يا الله يا أرحم الراحمين.

والمقصود بالحضرة عند آل العزائم كما يلي:

١- الصلاة على رسول الله: ويبدأ مجلس الصلوات بقراءة الأدعية القرآنية، ثم فتوحات الصلاة على سيدنا رسول الله وهي أربعة، ثم قراءة حزب الحصن الحصين، وبعدها استغاثة التوجه الروحاني.

٢- حلقة الذكر: ويبدأ الذكر بقول الله الله بالجهر، وكان الإمام شخصياً يفتح الذكر الجهرى بقول الله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ **الأنعام:**

٩١. والذكر يكون في حلقة وهيئة مثل ركوع غير كامل والرفع منه، وتكرار ذلك بدون ميل يمينة ويسرة مع الاستمرار في قول الله الله، فاللسان ينطق بها والقلب يستحضر أسماء الله الحسنى اسماً بعد اسم. ويتوالى هذا الذكر إلى أن يفتح الإمام

ذكر السرتاليا قول الله عز وجل: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ **الرعد: ٢٨**،

أو ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ

وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ **الأعراف: ٣٠٥** ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾

الأعراف: ٣٠٥. وبعد ابتداء هذا الذكر في السر، يبدأ الإمام في إنشاد قصيدة، وكان الإمام يلقي البيت الأول من القصيدة فيكتبه (١) فوراً فيتغنّى به المنشدون (٢) فور سماعه، ثم يملأ الإمام البيت الثاني وهكذا إلى أن ينتهي إملاء القصيدة، وهذه القصائد تسمى قصائد الذكر. وبعد ذلك يذكر الإمام عدة مرات بقوله:

الله الله ربى.. الله الله حسي.

(١) الشيخ مفتاح أو الشيخ نبيه سلامة أو الشيخ يوسف عبد المعبود.

(٢) الشيخ أحمد رمضان والشيخ أحمد عبده والشيخ على شوغى والشيخ طنطاوى.

الله الله ولي.. الله الله وكيلى.

الله كريم ثواب.. الله حلیم وهاب.

ثم يحتتم الإمام الذكر بقوله ﷺ (لا إله إلا الله) بالمد الطويل ثلاث مرات
ثم قوله (سيدنا محمد رسول الله ﷺ وآله) مرة واحدة.

٣-قراءة القرآن: وبعد اختتام الذكر، يطلب الإمام من الإخوان الجلوس في
هدوء وخشوع، ثم يقرأ أحد الحاضرين ماتيسر من آيات الذكر الحكيم.

٤-درس العلم: ثم يلقي الإمام درساً في شرح الآية التي تليت من قبل (١)
وبذلك تكون الحضرة قد أقيمت.

مشروعية الذكر في الكتاب:

الذكر هو من أفضل العبادات، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ
ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٤١، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة: ١٥٢، وقال جل
ثناؤه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥. ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت
بل هو مطلوب في عموم الأوقات وجميع الأحوال: إما على جهة الفريضة، وإما
على جهة النافلة.. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى
جُنُوبِهِمْ﴾ آل عمران: ١٩١

أما حلقة الذكر فقد جاءت في كتاب الله تعالى والسنة المطهرة أما الكتاب
العزیز ففي قوله تعالى: ﴿وَالذِّكْرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذِّكْرَاتِ﴾ الأحزاب:

(١) الدعاة من أبناء الطريقة يقومون بإلقاء دروس العلم بحسب ما تيسر.

٢٥ بطريق الجمع في كل الآي كما يؤخذ من بيان حضرة من أسند الله تعالى إلى
 حضرته البيان والتبيين، فمن شاهد آثار صفات الحق سبحانه وتعالى ذكره سبحانه
 وورد اسمه تعالى على لسانه وقلبه كما وصفه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا
 ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
 الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ الأنفال: ٢ - ٣.

إن الذكر الذي يبدو عادة سهلة هينة، بفضل أعمال الإسلام الأخرى، لأن في
 آيات القرآن ما يدل على أكثر من ذلك: يقول الحق تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ الفرقان: ٦٢.

فقوله تعالى: (جعل) يتضمن حكمة إيجاد الليل والنهار، وأن تخالفهما أي
 تعاقبهما لإحداث الذكر أو الشكر أو كليهما.

والآية إما أن تعني الحصر، بمعنى أن تخالف الليل والنهار إنما جعله الله تعالى
 للذكر والشكر وليس لشيء آخر.

وإما أن تعني أنه تعالى جعل في هذا التخالف بين الليل والنهار الطريق إليه
 سبحانه بالذكر والفكر. إن ماتشير به الآيات من أن الذكر هو أفضل العبادات
 لأعجب فيه، فإن من الآيات ما يشير إلى أكثر من ذلك بكثير، إن الذكر

هو مقصود العبادة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه: ١٤. ويقول
 ابن القيم الجوزية، بخصوص (اللام) في قوله تعالى: (لذكرى) الغالب أنها لام
 التعليل، أي: أقم الصلاة لتذكرني بها.

إن الذكر أيضاً رفع هذه الأعمال درجه عند رب العزة تبارك وتعالى، هذا إما أن يعنى عظمة العمل وعلو مقامه، وإما أن يعنى عظمة الثواب. وهذا المعنى يبعث فى النفس التساؤل عن حقيقة معنى (الذكر) واستعمالات هذه الكلمة حتى أنه سمي كلامه الأزلى - القرآن الكريم- الذكر.. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩.

حجية الذكر فى السنة:

يفهم من الأحاديث الآتية أن الذكر ليس فقط عنصراً أو جانباً من المأمورات، ولا هو فقط قاسم مشترك فيها، وإنما قد يكون أفضلها.

ومن الأحاديث التى ذكرت ذلك صراحة:

١- عن أبى سعيد الخدرى قال: سئل رسول الله ﷺ وآله عن العباد فقال: (أفضل العباد درجة عند الله يوم القيامة الذاكرون الله كثيراً قيل: ومن الغاى فى سبيل الله؟

قال: لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دمًا لكان الذاكرين أفضل منه درجة) (١).

٢- سئل النبى ﷺ وآله أى المجاهدين أعظم أجراً وأى الصائمين أعظم أجراً؟ وكذلك عن الصلاة والزكاة والحج والصدقة، فقال ﷺ وآله: (أكثرهم

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد والزيبى فى إتحاف السادة المتقين والمنذرى فى الترغيب والترهيب والبعوى فى شرح السنة

والسيوطى فى الدر المنثور وأبو يعلى وابن شاهين والترمذى فى مشكاة المصابيح والسيوطى فى حواى الفتاوى وفى الأذكار

النووية.

لله ذكراً، فقال الصديق أبو بكر رضي الله عنه: ذهب الذاكرون بكل خير، فقال ﷺ وآله: أجل، وفي رواية أخرى: أجل ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت: ٤٥.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ وآله فقالوا: (ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فقال: ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله.. قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ وآله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ المائدة: ٥٤.

وهذا الحديث تظهر منه عدة أمور: الأول: قيام الذكر عوضاً عن الحج والعمرة والصدقة والجهاد، ويقول ابن القيم في ذلك، تعليقاً على الحديث: فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد وأخير أنهم يسبقونهم بهذا الذكر.. هذا قول ابن القيم (الوابل الصيب، المرجع ٤١ ص ٦٩).

الثاني: إن ذكر الله بذاته يسبب سبق الذاكرين على غير الذاكرين، ولا يكون أحداً أبداً أفضل من الذاكرين، إلا من فعل فعلهم.

وهذا تأكيد للأفضلية والأسبقية المطلقة، كما يتبين من نهاية الحديث، حيث لم يخبرهم صلوات الله وسلامه عليه بأمر جديد يعوض لهم قيام الأغنياء بالذكر لما سمعوا بعظيم قدر الذكر والذاكرين.

٤- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام)، قال: ذكر الله تعالى) رواه الترمذى وقال حسن صحيح، والحاكم في المستدرک وقال إسناده صحيح وصححه السيوطى، وصحح الذهبي إسناده في تلخيص المستدرک، كما أخرجه الإمام أحمد في المسند ومالك في الموطأ وابن ماجه والطبرانی في الكبير والبيهقى في شعب الإيمان، أخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ أيضاً، وقال المنذرى إسناده جيد، وإسناده حسن عند أبي الدرداء، وكذلك قال الهيثمى، واختاره ابن تيمية في الكلم الطيب، وصححه الشوكاني في تحفة الذاكرين وعلق عليه بإستشكال بعض أهل العلم في تفضيل الذكر على الجهاد.

من فوائد الذكر:

إن الذكر وإن تحرك به اللسان الذى هو أداة القول، فإن هذا عند أهل المعرفة يشمل الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة، لأن العبد الذاكر إذا استغرق في الإسم الإلهى ليكون في حال ذكره مذكوراً من الغنى رب العالمين، والناس بعيون الحس يرون أهل الذكر في ذكرهم في صور مادية تهتز وتتحرك، ولكن الحق لا يشهدهم الأنوار التى يكرم بها الذاكرين، كما لا يدخلهم الحق دائرة الذكر الأكبر التى يتجلى

سبحانه فيها بصلاته على الذاكرين، وصلاة الملائكة، وإخراج الذاكرين بفضلهم من الظلمات إلى النور.

ويكفى الذاكر أن يكون على بينة وأن يعقد القلب على اليقين الحقى بأن الذكر في الجماعة فيه رفعة للدرجات وإعلاء للمرتلة وسمو للمقام، فيه تصفية وتنقية وفيه مواجهة حقيقية للحقائق الباطنة التي لا ترى بعين الحس ولا يسمع ما فيها بأذن الحس، فكذلك ما يترأى لها من مواجهات حقيقية، لأنها وهى في عالم الباطن تواجه بأنوار الباطن عز وجل الذى قال ليحلى لنا الحقيقة: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾ **الرعد: ٢٨**

إن مطالب الأبدان مطالب يومية مستمرة ولا بد فيها من حركة الأبدان ﴿فَأْمْسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ **الملك: ١٥** فالإنسان مطالب - لكى يتم كل ذلك - بطهارة القلب لمراقبة الرب بعدد الأنفاس، ولا يطهر القلب سوى الذكر الذى قال فيه ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها ذكر الله تعالى) (١).

وهناك ذكر خاص يردده صاحبه في الخلوه، وهناك ذكر مع الجماعة، والإثنان مأمور بهما المسلم بنص الحديث القدسى: (فإن ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسى، وإن ذكرنى في مألأ ذكرته في مألأ خير من ملئه..) (٢)، وإن وسعة القلوب تقتضى التفاوت من إنسان لآخر، فقد نرزق في حلقة الذكر بصاحب قلب منكسر يتجلى

(١) الحكيم الترمذى وابن عدى والطبرانى فى الأصغر والسوطى فى الجامع الصغير بلفظ وجلاؤها الأستغفار.

(٢) البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد فى السند والمنذرى فى الترغيب والترهيب.

له ربه فنكرم من أجله- مثل ما يجلى له من مشاهد أثناء صلاة الجماعة فتكرم الجماعة به- فإنه من القوم الذين لا يشقى جليسهم.

وإذا قال اللسان الله وكرر الإسم، امتلاً مكان الذكر بالملائكة، وحضور الملائكة مواجهة للملكوت الباطن في الذكر، لأن الملكوت يواجه الملكوت، فالعقل والفكر والنفس والقلب الروحاني والروح... كلها حقائق روحانية تواجهها الملائكة، فتكرم كل تلك الحقائق بالنور الملكوتي، والذاكر لا يشعر شعوراً مادياً بما حدث له، فحال الذكر يواجهه الملك، وقد يصافحه وقد يضمه إليه.. كما يحدث في ليلة القدر.

ولله ملائكة يمرون على الذاكرين بأشربة مختلفة تسقى بقدر وقدر، فقد يكون الشراب من التسنيم، أو من السلسيل، أو من الزنجبيل، أو من الرحيق المختوم، وقد يكون من دائرة ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الإنسان: ٢١ وقد يكون في دائرة ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ الإنسان: ٦، والشراب على قدر سعة القلوب.

والذاكر يجب أن يكون على يقين أنه إذا ذكر الاسم في الذكر تجلى له المذكور، وفي تجليه رفعة ونعمة، فيحدث التجلي أثره لأن عين الحس لا ترى المتجلى، ولكنها ترى أثر تجليه في طمأنينة القلب وانسراح الصدر تغييراً في الداخل، وبمجرد أن تكرم تلك الحقائق -وهذا يحدث بالنور الملكوتي- فإن الأنوار تشرق على نوافذ الهيكل لتنير نوافذ العين والأذن واللسان، ومتى استنارت فأنارت فإن الشيطان لا يدخل من هذه النوافذ.

الأسس التي ربي عليها الإمام السالكين في طريق آل العزائم

أولاً: المحبة

ذكر الإمام أن الأسس الأول في طريق آل العزائم هو المحبة، ولا ينال الإنسان المحبة إلا بعد العلم بثلاثة أصول (١):

١- العلم بصفات المحبوب.

٢- العلم بأخلاقه.

٣- العلم بما يحبه.

أما العلم بصفات المحبوب فلا بد أن ينال من عارف رباني أمين على سر الربوبية، عالم بجواهر النفوس وأمراضها وقواها القابلة.

وأما العلم بأخلاق المحبوب فينال بتحصيل سير الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أمتهم، ومعرفة حكمة العالم علواً وسفلاً وجعله إمداداً للإنسان بعد إيجاده، وسر صوغ الإنسان بيديه، وجعل نشأته الأولى من طين، وحكمة نفخ الروح فيه، ومعنى سجود الملائكة له وإبلاء إبليس، ورجوعه إلى الجنة، ومعصيته فيها، ورده منها، حتى إذا تحقق من كل تلك المعاني أمكنه أن يصير مع الله تعالى بالمحبة، فإن من جهل أخلاق محبوبه انقلبت المحبة بالبغضاء. وهذا العلم لا يحصل عليه المسلم إلا

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١١ العدد ١٢ ص ٩ (١١ رمضان ١٣٥٧ الموافق ٦ نوفمبر ١٩٣٨).

بصحبة الربانين أهل الخشية من الله تعالى والآداب معه، قال ﴿ﷺ وآله﴾: (العلم بالتعلم) (١).

وأما العلم بما يحبه المحبوب فتحصيله يكون بتلقى معرفة النفس، وبمعرفة يعرف المسلم ربه ويعرف مراده جل جلاله في إيجاد الإنسان وأن يكون عبداً لمولاه سبحانه متجماً له سبحانه بالجمال الذي يحبه هو من عبيده، ولديها يكون ابن وقته، فإذا اقتضى الوقت محبباً له ومحبباً لله قهر نفسه على أن تفعل ما يحبه الله مهما ناله من الضرر والبلاء في سبيل ذلك، وليس من تقرب إلى الله بأكمل القربات بمحب لله، فإن الطاعة يعلمها البار والعاصي، وإنما دليل محبة الله العبد عما نهي الله عنه، وهذا أمر دقيق جداً، فكم من عابد يوالى عدو الله تعالى أو يفعل ما يكرهه الله مما نهاه عنه ويحتقر هذا العمل.

هذا الأساس وهو المحبة، هو الأصل الذي أسس عليه الدين، ولولاه ما صبر رسول في الدعوة إلى الله، ولا بذل الأنصار والمهاجرون نفوسهم وأموالهم وأوطانهم في سبيل محبة، ولا صبر عبد على صلاة ولا صيام ولا حج ولا بر ولا صدقة ولا جهاد. ومن لم يذق صافي شراب المحبة وملاً بطاح الأرض وصفاح السماء بالعبادة فإنما هو أجير سوء. وما أثنى الله سبحانه في كتاب على أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ وآله ﴿ﷺ﴾ إلا بالأعمال التي أنتجتها المحبة، فلم يقل يصلون ولا يصومون ولا يحجون في مقام الثناء، ولكنه قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ **الحشر: ٩**، وقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا﴾ **الحشر: ٩**، وقال: ﴿رِجَالٌ صدقوا ما

(١) الحافظ الدمياطي في المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح والطيران في الكبير وابن أبي الدنيا.

عَاهِدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا ﴿٢٣﴾ **الأحزاب:**

٢٣. ولقد وردت أحاديث كثيرة في الثناء على رجال من الصحابة بما قاموا به من الأحوال الدالة على كمال المحبة.

فكل رجل من رجال آل العزائم ينبغي أولاً أن يحصل المحبة. ومتى عقد القلب على قدر حبه من المحبة جذبته العناية إلى الله تعالى فأحبه سبحانه. والمحبة كيف يخالف محبوبه؟ فمن فعل مكروهاً أو ترك مندوباً من أحكام الشريعة وادعى أنه سالك في طريق آل العزائم فدعواه تحتاج إلى حجة. وكثير من الإخوان يدعون المحبة وتلوح عليهم أشرف علاماتها حتى يكونوا كالراح والريحان لغيرهم.. تعتر بهم فترة فلا يزورون المرشد، ويزيدون على ذلك الاعتذار، والعاشق لا يعتذر.

ثانياً: المجاهدات

يقول الإمام رضوان الله عليه (١):

والأساس الثاني هو المجاهدات. والجهاد بذل ما في الوسع لدفع العدو أو قهره حتى يخضع، وهو الأساس الذي تقوم به الحجة على قوة الإيمان، والركن الذي تتضح به المحجة للسير إلى الفوز بالرضوان، وبدونه كل أعمال المؤمن دعوى تحتاج إلى دليل. والمجاهد يجاهد المملكة الفردية وهي مجاهدة السالك نفسه في ذات الله تعالى، وهذا هو الجهاد الأكبر الذي لا يصير عليه إلا آل العزائم من كمل الصديقين.

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١١ العدد ١٢ ص ٩ (١١ رمضان ١٣٥٧ الموافق ٦ نوفمبر ١٩٣٨).

والسالك بين جيشين عظيمين: جيش الحق وجيش الباطل، والجيشان في ميدان المنافسة للظفر بالملك، وجيش الباطل في الإنسان أقوى وأكثر من جيش الحق، فإن ما يجاهد عليه جيش الباطل ليناله محسوس ملائم للنفس وما يجاهد عليه جيش الحق غيب ينال غداً، وما كان محسوساً كان أقوى في الإغراء والرغبة فيه. لذلك يجب على السالك في طريق آل العزائم ألا يتهاون في أمر جهاد العدو صابراً مصابراً مرابطاً، وأن تكون يقظته أتم عند قهر هذا العدو وعند الهدنة، فإن للشيطان والحظ والهوى دسائس خفية قد تظهر في فضائل ومحاسن.

وقد يلتبس على السالك بحسب دسائس العدو العادة بالعبادة، والطمع بالحبّة، والرياسة بظن تحديد السنة، فيكون هاوياً في مهاوى الضلال معتقداً أنه من عمال الله، لذلك لزم أن يهتم في حال المجاهدة بتخليص النوايا والقصود، فقد تكون المجاهدة باباً من أبواب الشيطان لجهل السالك بدسائس النفوس - كما يحصل لمن يحب الخلوة من الغرور - ووسوسة العدو وما يتولد في قلبه من حب الشهرة والسؤدد بذلك، أو نيل الكشف والمشاهدة وعلم الضمائر واستخدام الأرواح لجلب الخير ودفع الضرر، أو الزهو بالنفس وكرامتها من التدنس بالاجتماع على العامة، وتلك أمراض خفية. أما العلل الباعثة التي يقصدها أهل الغرور، فصاحبها ليس بسالك في طريقنا هذا.

وأنواع المجاهدات ثلاثة:

(١) مجاهدة الحس والنفس والعقل والجسم في التسليم لرسول الله ﷺ وآله ﷺ تسليمًا يكون السالك به أشبه الناس برسول الله ﷺ وآله ﷺ في جميع شئونه.

(٢) ثم مراقبة السالك نفسه على نيل الكمالات التي لا تلائمها من مراقبة الله في كل أحوالها حتى يستحى أن يعصى الله في خلوة.

(٣) ثم الرضا عن الله بالقليل من الضروريات، وهذا النوع يجب أن يكون المجاهد فيه محافظًا على أيدي الأئمة الهادين المرشدين فلا يستظهر عليهم، حفظًا على الوسط. وكفى المجاهد شرفًا أن يكون منهم أو معهم، لأن هذا النوع مزالق أقدام السالكين، فقد يتجاوز آدابهم فلا يستطيع فينقلب والعياذ بالله، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة: ١٤٣.

ثالثاً: علوم الرسالة الخمسة

وهو أساس شامل لعلوم كثيرة. ولما كان من وظيفة الرسالة أن يقوم المصطفى

ﷺ وآله ﷺ بتعليم خمسة أسس لأمته عناها ربنا تعالى بقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا

فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٥١،

فهذا يعنى أن هناك علومًا خمسة هي:

١- علم الآيات.

٢- علم تزكية النفوس.

٣- علم الكتاب.

٤- علم الحكمة.

٥- العلم اللدنى.

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ وآله ﷺ،

وهؤلاء العلماء كثيرون فى كل عصر، وكل يرث على قدر ماعونه من الأنبياء

والرسل فإن الوارث الفرد الكامل-شأنه شأن أئمة العصور التى سبقته- يجب أن

تكون وراثته من المصطفى ﷺ وآله ﷺ بالذات، لأنه الرسول الخاتم للأمة، وهى

الورثة الكاملة لهذه العلوم الخمسة. فإن تحققت فيه بالكامل، فهو الفرد الوارث

الجامع لجميع أنواع الورثة، وهو إمام العصر، وهو قرة عين المؤمنين وكعبة أرواح

السالكين وطريق رب العالمين، ورؤيته عين المزيّد وعين اليقين وحقه. إنّ النبوة مقام، والرسالة وظيفة، وإنّ الوراثة هي حمل أمانة الوظيفة.

وقد طلب الإمام من من مريديه والمنتسبين لطريق آل العزائم ضرورة تعلم هذه العلوم.

وهنا يتحتّم علينا أن نقف قليلاً لنوجز وبقدر الإمكان في شرح علوم الرسالة الخمسة التي يرثها الوارث الفرد الكامل من رسول الله ﷺ وآله، ومنهج الإمام التربوي فيها:

١ - علم الآيات:

وهذا هو العلم الأول الذى ربه الإمام تلاميذه عليه. وقد بين الإمام أن هذا العلم لا يعنى آيات وسور القرآن الكريم، ولكنه يعنى: آيات الكيان، وآيات الإنسان، ففى آيات الكيان يقول عز وجل: (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه

فقلنا عذاب النار)، ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ يوسف: ١٠٥ - ١٠٦، وفى

آيات الإنسان يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلترَّابِ﴾ الطارق: ٥ - ٧، ﴿وَٱنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذْ أَمْنَىٰ﴾ النجم: ٤٥ -

٤٦ ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦٓ أَن خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذْ ءَأْتَمَرْتُمْ بَشَرٌ تَتَشَارِكُونَ﴾ الروم: ٣٠ . ودفعاً للتخبط الفكرى أو الشطط الفلسفى أو الإنكار الترددى فقد ربط

الخالق سبحانه مظاهر بعث الأكوان ببعث الإنسان فيقول: ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ إِن

كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّنْفِقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ

الْأَرْضِ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

بِهَيْج ﴿الحج: ٥٠﴾

والإمام أبو العزائم عليه السلام يلفتنا إلى ما في الآيات من ذكر ثم فكر ثم شهود، ويتكلم بإسهاب عن: آيات السماع، آيات العقل آيات الفكر، آيات الفقه، آيات التدبر، والآيات الخاصة بأولى الألباب، وبأولى الأبصار، وبأولى النهى، آيات وآيات يعجز العقل عن حصرها. كل هذا سواء في دروسه أو في كتبه، والضائن بثه في مواجيدته، وهذه المواجيد التي تبين الآيات تكون منهجاً كاملاً من مناهج علم الإمام، وفسر آيات الآفاق والأنفس عندما جاء ذكرها عند تفسيره للقرآن الكريم- وكم في الكتاب منها- تفسيراً عصرياً كاملاً، كل هذا ليدرب المسلم والمؤمن والمحسن والموقن وكل حسب مقامه، وليدرب المريد والسالك والواصل، وكل على قدر ما عونه، ورسم له الطريق ليسير على أرض الطاعة وعلى أرض العبادة متزوداً ب زاد المتقين ومراقباً عظمة الرب جل جلاله ليشهد الآثار المحيطة به بعيني القدرة والحكمة فينتقل من رؤية أثر إلى رؤية الآية التي بثها الله في هذا الأثر، فعين الرأس واقعة على الأثر وتراه أثراً وعين القلب تشهد بجوار ذلك الآية في الأثر. وبإشراق نور الآية في الأثر ينتقل العبد إلى أنوار التجليات ثم إلى الأسماء والصفات ثم إلى أنوار مجلى الذات.

ويطلب الإمام أن يطلب الخير الذي يكشف له الغطاء عن الآيات التي أودعها الله في الآفاق وفي الأنفس ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿الذاريات: ٢٠- ٢١﴾، ويبين الإمام أن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذْكُرْ

زَكَتْ فِي نَفْسِكَ ﴿الأعراف: ٢٠٥﴾ يقصد ربنا به أن يكون الذكر في مملكة النفس التي جعله الله بها إنساناً، لا في السر، فيكشف الغطاء عما بالإنسان من أسرار باريه، حتى يعرف نفسه فيعرف ربه. وإذا ما تراءت في الإنسان أسرار ربه التي أودعها فيه وأشرقت عليه أنوار باريه ذكر ربه في نفسه، هنا يتحقق الذكر الحقيقي في الآفاق وبعدها في النفس، وبهما يكون الذكر الأكبر.

إن علم الآيات علم عزيز، إذا تدرب عليه السالك تغير حاله من سىء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن وهكذا. ومن سار في درب هذا العلم فإنه لا يغيب عن مولاه نفساً، وكيف يغيب؟ وهو إذا نظر إلى الماء ذكر الحى، وإذا نظر إلى السماء ذكر الرافع، لأن المرفوع قد اختفى رغم وقوع عين الرأس عليه لتظهر أنوار الرافع، وإذا نظر إلى الأرض ذكر الباسط، وإذا نظر إلى سريع يسرع كقطار أو طائرة أو أى لون من ألوان السرعة ذكر السريع، وإذا نظر إلى الجبال ذكر القوى المتين، وإذا نظر إلى حاكم يحكم ذكر الحكم الحاكم العدل، وإذا نظر إلى إنسان ذكر السميع والبصير والمتكلم، وإذا نظر إلى عالم ذكر العالم والعليم والحكيم، وإذا وقعت عينه على أى كائن تغيب المباني وتسقط المعاني، والإمام يقول:

وإن نظرت عيني إلى أى كائن تغيب المباني والمعاني سواطع
لأن المعاني الشمس والكل أنجم إذا أشرقت فالنجم بالشمس طالع

٢- علم تزكية النفوس:

وهذه هي المرتبة الثانية في منهج الإمام لعلوم الرسالة الخمسة بعد تعلم علم الآيات ثم التدريب العملى عليها، والإمام يقول: (إذا زكت النفوس أشرقت عليها شمس القدوس، وتزكية النفوس قبل تلقى الدروس). والنفس إذا تزكت زكت،

وإذا زكت أفلحت، والفلاح هو الفوز بجميع المقاصد الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ الأعلى: ١٤ ، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الشمس: ٩ لقد تكلم الكثير والكثير من العلماء بالله في عصورهم عن النفس وأمراضها وطرق تزكيتها، وذلك من باب أمر رسول الله ﷺ وآله ﷺ عندما عاد من غزوة من غزواته وقال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: جهاد النفس) (١). وقد سار الإمام على نهج من قبله، ولكنه بسط الأمر على أهل عصره واختصر لهم الطريق. وما من كتاب من كتبه إلا وتكلم فيه عن النفوس وتزكيتها، وفي كل كتاب لون مخالف لما سبقه، وأفرد لذلك المقالات العديدة التي تحت على ذلك، ولم يترك مريد الحق بدون أن يُوجد له العلاج وفي دائرة التحصين بخصون الأمن والأمان، ووضع مفاهيم جديده لهذا العلم متمثلة في كتاب: (محكمة الصلح الكبرى)، تلك الجامعة الكبيرة والحديثة التي تمثل منهج الإمام التريوى في علوم النفس، وتوج هذا العمل بمناهج السير والسلوك التي بثها في مواجيدته المتعددة، وهى ما تعرف بمواجيد السير والسلوك.

بسط الإمام الأمر، وأراد أن يختصر الكلام الصعب، وكذلك أن يخرج من دائرة الفلسفات التي لاتغنى ولا تسمن من جوع، فشرح للمريد النفس وتطورها وترديها ليكون على بينة من الأمر، أن الإنسان مشنوى من حيث تركيبه، فهو مكون من: جسم ظاهر بجوارح، وحقيقة باطنة وهى ماتسمى بالحقيقة الروحانية. والحقيقة الروحانية أيضاً لها ظاهر وباطن، وهى ما يطلق عليها بالنفس، إذ أن المثنوية لا تفارق الإنسان حتى ولو كان فى الجنة حتى ينفرد الله بالأحادية.

(١) البيهقى فى الزهد والخطيب البغدادى فى تاريخه.

والجسم وهو الظاهر، مدته محدودة في الدنيا، وعند نداء الحقيقة الروحانية للخروج من الدنيا فإنها تترك الجسم وتعود. وقد يسر الله لعباده هذا الفهم في الدنيا عن طريق الرؤيا، فعند الإستغراق في النوم يبقى الهيكل أو الجسم في مكانه وتنطلق الحقيقة وتتجول، فلا تتقيد بالجسم، بل تكون في حالة إطلاق كامل ومبهر، فقد تتواجد في أماكن مختلفة وبعيدة عن بعضها في لحظات، وقد تطير في الهواء، وقد تمشي على الماء، وقد تلتقي بالأحياء والأموات، وقد يكون من تلتقي بهم نائمين أو أيقاظاً، فهذا كله لا يختلف، والله سبحانه يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ

مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ

الْآخَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ الزمر: ٤٢، ورسول الله ﷺ وآله يقول عند نومه ويعلمنا أن ندعوا بهذا الدعاء قبل النوم: (باسمك ربى وضعت جنينى (عند النوم) وبك أرفعه(عند الاستيقاظ)، إن امسكت نفسى (أى أمتها أثناء النوم) فارحمها (أى في البرزخ) وإن أرسلتها (أى أعددتها إلى هيكلها ليستيقظ) فاحفظها (في الدنيا) بما تحفظ به عبادك الصالحين) (١) .

ويبين الإمام أن الحقيقة الروحانية كانت قبل خلق جسم آدم في عالم الإطلاق سابحة في الملاء الأعلى. وقد شاهدت هذه الحقيقة جمال ربها وسمعت لذيذ كلامه في يوم ألت بربكم أو يوم الذر، فقد تجلى لها الحق، فشهدت وسمعت، وعوهدت ووثقت وقالت: (بلى شهدنا) مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ

مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ

(١) البخارى ومسلم والنووى في رياض الصالحين.

شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ

ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴿١٧٣﴾ الاعتراف: ١٧٢ - ١٧٣ إلى آخر الآية. ولما أراد الله إبراز كل حقيقة بحسب ظهورها على مسرح الحياة الدنيا لازمت كل حقيقة روحانية هيكلها في عالم الأرحام واستترت به، فاصبح الهيكل برقعاً وستاراً لها، وهذا اليوم هو ما يعبر عنه بيوم بطن الأم من ضمن أيام الله ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ إبراهيم: ٥٠.

ويبين الإمام أن النفس ظلت (وهي اللطيفة النورانية الربانية) في صفائها وفي طهرها، إذ أن أصلها صفاء في صفاء وطهر في طهر، إلى أن اتصلت بالهيكل العنصري الترابي. وبعد أن امتزجت به اختلف أمرها، فقد تحادت من عليها ونزلت إلى أرض المادة واتصلت بهيكل مادي لتظهر علي مسرح الدنيا من خلاله، وهذا الهيكل المادي ظلماتي بطبيعته ويميل إلى أسفل، فما هو من الأرض فهو أرض، فحجب الهيكل الحقيقة الروحانية بظلمته، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿التين: ٤ - ٦﴾.

ويوضح الإمام أنه بطول المدة، نسيت الحقيقة الروحانية عالمها الروحاني باختلاطها بالمادة والتراب فاحتاجت لمذكر، وهذا هو سر إرسال الرسل وبعث الأنبياء، قال تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ وآله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات: ٥٥، وقال جل شأنه: ﴿سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى﴾ الأعلى: ١٠، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ

شكور ﴿إبراهيم: ٥٠﴾ وعندما يذكر المذكر تتذكر الحقيقة الروحانية عالمها الروحي، وتتذكر يوم أُلست بما فيه من عهود ومواثيق، وما فيه من جمال وجلال وكمال، وما كانت عليه الحقائق من صفاء وطهر وعفاف.

ولما كانت كل نفس في الحياة الدنيا ستعود لأصلها في يوم البرزخ وترجع إلى العالم التي قدمت منه والذي سترجع إليه ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ البقرة: ١٥٦ ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ هود: ١٢٣ ﴿وَالِىَ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فاطر: ٤ ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمَلْفِيهِ﴾ الانشقاق: ٦ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الأعراف: ٢٩ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ الأنبياء: ١٠٤ ، وأول خلق في الوجود هو المصطفى ﷺ وآله، وأول خلق في الإنسان هو حقيقته الروحانية ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٤. واحتاج الإنسان للمذكر في الحياة الدنيا، واحتاجت النفس لداع يدعوها للإيمان، فهي مؤمنة أصلاً ولكنها نسيت عهداً وميثاقها بسبب ملابستها لهذا الهيكل الطيني والذي له مستلزمات ومتطلبات تختلف بالكلية عما تحتاجه الحقيقة الروحانية، ليبين لها طريق المجاهدة حتى تصفو وتعود إلى أصل فطرتها النورانية الصفائية وهي هنا في الدنيا، بعد أن أتاها ما عكر صفوها.

والنفس واحدة وقواها كثيرة، ولكن كل صفة من صفاتها تأخذ معان كثيرة، والمطلوب أن تكون هذه القوى في دائرة الخير. وهذه الصفات غير تنوع النفوس إلى نفس أمارة ولوامة ومطمئنة وراضية ومرضية. ومثال لذلك أن إنساناً دخل المدرسة الابتدائية وحصل على شهادتها فزادت معلوماته وتغيرت الصور الداخلية

فيه حسب المعلومات التي وصل إليها، وهو واحد. ثم ترقى هذا الإنسان معنوياً بحصوله على الشهادة الإعدائية، وزاد ترقيه عندما أنهى المرحلة الثانوية، وازداد ذلك بحصوله على البكالوريوس أو الليسانس، ثم الماجستير والدكتوراه. إن الحقائق التي ترقى في هذا الإنسان داخلية وليست خارجية، وقد أصبحت هذه القيم المعنوية العليا مجالاً في ارتقاء حقيقته الباطنة. وقد تكون هذه القيم المعنوية من علوم ظاهر الحياة الدنيا التي يشترك فيها المسلم وغير المسلم، وقد تكون بالإضافة لهذه العلوم علوم أهل الله وهي علوم الكتاب والسنة، وبعض العلوم الخاصة ولكنها خاصة المخصوصين لا يكرم بها إلا الصفوة من عباد الله ولا يذوق أذواقهم فيما علموه إلا من هو منهم من أهل الاستجابة.

(١) فالنفس التي تميل إلى القهر وحب الانتقام وحب الغلبة هي النفس السبعية. فإذا ظهرت هذه الرغونات على النفس فتكون النفس المتصفة بالصفات السبعية هي المستولية والمستعلية على الصفات الأخرى بالرغم من وجودها.

(٢) نفس تميل إلى الحرص والبخل والشح يقال: إنها نفس نباتية.

(٣) إذا زادت على ذلك تصبح نفساً بهيمية وهي حب الشح وحب البخل والادخار المزرى.

فالصفات تختلف من حال إلى حال فتكون نفساً جمادية في وقت ما، وفي بعض الأحيان تكون نفساً نباتية، وفي أحيان أخرى بهيمية وسبعية. فإذا ما صفت هذه النفس بالتركية تصبح نفساً ملكية. والنفس الملكية مع صفاتها تعترىها الرغونات والنوازع في كثير من الأحيان إذا غلب الحال، وكان المحيطون بصاحب النفس الملكية قراءاً للسوء فلا يرى ولا يسمع منهم إلا الشر. وهذه الأحوال السيئة المحيطة

قد تنعكس في لحظة ما بظلمتها على صاحب النفس الملكية فتعثر بها رعونة. وقد تأتي الرعونة عن طريق رد شتيمة وسباب أو الزيادة عليها، و(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (١)، والأمثلة في هذا المجال كثيرة ولذلك فلو جالس الإنسان أهل الصدق، انعكس أنوار صدقهم على جوهر النفس فتزداد صفاء ورقياً وعروجاً، وهذا هو سر توجيه ربنا سبحانه لنا في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة: ١١٩ ، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا عَنْ صَلَاةِ رَبِّكُمْ تَتَفَرِّطُوا﴾ البقرة: ٢٣٨ ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْاَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ المائدة: ٥٤ ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْاَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ المائدة: ٥٤ ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْاَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ المائدة: ٥٤ .

والنفس تميل إلى الرياسة لأنها تحس بأصلها، والإمام يبين ذلك فيقول:

والنفس داعية الرياسة فاحذرن فرعوها تنجو من الداء الدفين

والمثال هنا أن الإنسان عندما يكون أبوه أو جده من أصل عريق أو مرموق في المجتمع حتى لو لم يكن يملك شيئاً ولكنه يحس بنفسه أنه على صورة أبيه أو صورة أجداده. ولكن الصورة التي أسجد الله لها ملائكته تحس أنها الكل في الكل، والحديث النبوي الشريف يقول: (خلق الله آدم على صورة الرحمن) (٢) وفي حديث آخر (خلق الله آدم على صورته) (٣) وكذلك الصور التي خرجت منها، ولكن ليس الكل قد خلق على الصورة ولكن النفس التي زكت وصفت واستقامت هي التي خلقت على الصورة، لأنها استنارت واتحدت بأصلها فوصلت واتصلت

(١) رواه مسلم والبخارى والنسائي وأبو داود.

(٢) القسطلاني في شرحه للبخارى ج ٥ ص ٣٢١.

(٣) البخارى ومسلم والإمام أحمد في المسند والسيوطى في الجامع الصغير.

وأشرق عليها نور الأصل فظهرت من خلالها الأنوار وسمعت منها الأسرار، وما جاز لأبينا آدم يجوز لكل نفس زكاها ربنا.

وعلى ذلك، فإن الإمام يقرر أن التزكية معناها أن يستحضر العبد العود للبدء الذى جاء منه وهو هنا فى عالم الدنيا حتى يحين موعد انتقاله إلى برزخه. فإذا عاد للبدء بالعلم النافع والإشراق والحكمة الصادقة سار فى الدنيا كما سار أئمة السلف بالحق واليقين وبالإقبال والتمكين وبالقبول من حضرة رب العالمين. ويستمر العبد فى طلب التزكية طوال فترة حياته، ولذلك يقول الإمام:

مقتضى بشرى طور الجهاد لا يفارقنى إلى طور المعاد
مقتضى بشرى السفل الدنى وهو حجب الروح عن نور المراد

وقد بين رسول الله ﷺ وآله من خلال حديث شريف ثلاث علامات لقبول التزكى:

(١) التجافى عن دار الغرور: أى التجافى عن الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُغْنِكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْرِتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣) أى عدم الركون إلى الدنيا وعدم التمسك بأهوائها.

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥.

(٢) سورة الرعد آية ٢٦.

(٣) سورة لقمان آية ٣٣.

(٢) والإندابة لدار الخلود: أى يعمل كل واحد للدنيا على قدر المكث فيها ولاآخرة على قدر المقام فيها، والآخرة سرمدًا وأبد، ولا مقارنة أبدًا بين عالم النهاية وعالم اللانهاية.

(٣) والاستعداد للموت قبل نزوله.. بالعمل الصالح (١).

ثم حدد الإمام ثلاث مراتب في التزكية:

(١) مراقب ليومه: وهو مقتنع أن مدته في الدنيا ليوم واحد فقط لأن النبي ﷺ وآله قال: (من أصبح آمناً في سربه معافاً في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا) (٢). فهو لا يحمل هم الغد لأن الله لا يحاسبه على الغد ولذلك فإن العبد لا يطالبه برزق الغد قبل ورود الغد، وهذا لا يمنع وجود رزق أو شراء رزق في الغد لعدة أيام. وإذا ترقى هذا العبد فإنه يصبح:

(٢) مراقب لساعته: فله الساعة التي هو فيها، قال تعالى: ﴿سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ﴾ (٣). وصاحب هذه الساعة لا يضمن ساعة أخرى ولا يعمل أى تدبير بالنسبة لنفسه، ولكن للصالح العام والمجتمع الإنساني فإنه يجب أن يخطط . فإذا ارتقى صاحب الساعة فإنه يصبح:

(٣) مراقب لنفسه: وهى المرتبة الكبرى، لأن مراعاة الأنفاس أمر دقيق للغاية، وفيها جاء الأثر: (حياة المرء بين نفسين نفس يدخل وقد لا يخرج ونفس يخرج وقد

(١) رواه الحاكم البيهقي عن بن مسعود بلفظ: (إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: فهل لذلك

علامة؟ قال: نعم، التجافى عن دار الغرور، والإنبابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله).

(٢) الترمذى وابن ماجه والبخارى فى الأدب المفرد.

(٣) سورة الأحقاف آية ٣٥ .

لا يدخل). إن النفس دليل وجود نفس، فإذا انقطع حبل النفس كان هذا دليلاً على خروج النفس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ (١) الآية . إن هؤلاء عمارة الأنفاس عندهم هي رأس المال، وإن أنفاسهم الداخلة تكون بعلم وحكمة وإشراق، وأنفاسهم الخارجة تكون بذكر وفكر وتسييح، ويتقلبون بين أنفاس هي عين المعارج يعرجون بها إلى أعلى الدرجات وأسمى المقامات لأن النفس عندهم أعلى من النفس وأعز من النفيس.

إن التطبيق العملي على ماسبق صعب جداً إلا إذا أعان الله ويسر له. وهذا الكلام السابق بفرعياته له علومه المستفيضة عند الإمام.

أما الروح فانها سر تحريك العالم الظاهر والعالم الباطن، وهي سر من أسرار الحى القيوم، ولا طول لها ولا عرض ولا عمق، ولا تحيز ولا تحدد، ولا تحس ولا تجس ولا تمس. إن الروح تمثل عالم الأمر الكامل ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾ وعند هذا الحد: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) .

إن تزكية النفس هي طهارة القلب. وقد كان الشاذلى رضوان الله عليه يبحث عن إمام، فكان يسافر ويتنقل من بلد إلى أخرى متكبداً في ذلك مخاطر الطريق والمشقة البالغة في البر والبحر. وفي يوم من الأيام وصل إلى مسجد فسمع عالماً يلقي درساً ولكنه بذوقه أدرك أن هذا الكلام ليس عادياً فتقرب في مجلسه منه حتى دنا منه وهو لا يدرى أنه الآن أمام من يبحث عنه. نظر إليه الإمام عبد السلام بن مشيش وقال له: يا على قم فتطهر!! أثرت هذه الكلمة جداً في الشاذلى بعد أن

(١) سورة الزمر آية ٤٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٥ .

ناداه باسمه، فقام واغتسل وغير ملا بسه وتوجه إلى حضرته، فكرر عليه ما قاله سابقاً، فقام واغتسل، وتكرر ذلك الثالثة. ولما جلس أمامه قال له يا على قم فتطهر من علمك وحكمتك وحولك وطولك ومادتك وزينة الدنيا التي في قلبك. وأخذ يكلمه في الطهارة المطلوبة منه وأنها ليست الطهارة الحسية وأنها طهارة معنوية للحقائق الباطنة.

ونفذت كلمات الإمام في قلبه فطهر وهو في مجلسه، فنظر إليه نظرة نبوية من باب الوراثة، بعدها قال له: قم فأنت أبا الحسن. نظرة من الإمام له أصبح الشيخ الجليل أبو الحسن الشاذلي مربى الرجال ومربى الأفراد، مربى أبو العباس المرسى، الذى ربى ابن عطاء السكندرى، الذى ربى ياقوت العرش.

٣-٤ علم الكتاب والحكمة:

إن رسول الله ﷺ وآله ﷺ قد علم أصحابه علم الآيات في الآفاق وفي الأنفس، ثم علمهم علوم تزكية النفوس، ثم فتح لهم علوم الكتاب والحكمة. وقد تأخر علم الكتاب والحكمة عن علم تلاوة الآيات وعلم تزكية الأنفس، فقد قال أبو هريرة ؓ: كنا نتعلم الإيمان من رسول الله ﷺ وآله ﷺ قبل أن نتعلم القرآن، حتى إذا ما تلى علينا القرآن ازددنا إيماناً. على إيماننا. وهذا المنهج هو المنهج الذي أخذ به رسول الله ﷺ وآله ﷺ أصحابه وفيه يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ

حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الأنفال: ٢ - ٤ .

ولما تليت الآيات وزكت النفوس أصبحت القلوب مهيئة لتلقى العلم النافع وهو علم الكتاب والحكمة. لقد انجلي القلب وأشرقت أنوار القدس الأعلى على أرض النفس وتأهل صاحب القلب السليم والنفوس الزكية لتلقى العلم الذى سيطبقه عملاً. وفي الكتاب علم الأحكام الشرعية، وهذه العلوم لها بداية ولها نهاية وإن طال مدى الطلب فى دائرتها. وكتاب الأحكام الشرعية يكلف به المسلم لتصح عباداته الكثيرة.

وإذا ما جعل الإنسان قلبه مهبطاً لتتزل آيات القرآن ﷻ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا

هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﷻ الإسراء: ٨٢ فإن الله يتجلى عليه بعلوم العلم الخامس وهو العلم

اللدنى ﷻ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ ﷻ البقرة: ١٥١ ليدخل فى دائرة الذكر الأكبر ﷻ فَأَذْكُرُونِي

أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿البقرة: ١٥٢﴾ ، فيفقه الإنسان ما يقال وإن كان صعباً لأن مقدمة علوم الآخرة موجودة هنا في الدنيا، فإذا تعرض لها هنا كان مؤهلاً للتلقى هناك. وبعد علوم الأحكام الشرعية تصح الصلاة وتصح الزكاة ويصح الحج ويصح الصوم، ويدخل الإنسان في دائرة حكمة الحكم، ورسول الله ﷺ وآله يقول: (من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة على قلبه ولسانه) (١)، والإخلاص سر بين الرب وعبده، فيعلمه ربه ما لم يكن يعلم.

إن قراءة القرآن شيء والتدبر في معانيه شيء آخر، والنبى ﷺ وآله يحض على التفكير في آلاء الله، ويحض كذلك على التدبر في كلام الله. إن كلام الله صفة قديمة أزلية لا تنتهى معانيها (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (٢)، وأوجد الله فينا ما يسمي بالقابل النوراني وهو الاستعداد الروحي لفهم كلام الله والاندماج فيما قاله رسول الله ﷺ وآله. وإذا ما أكرم الله العبد بالقابل النوراني وأكرمه كذلك بالعالم العامل أو المرشد الكامل انفعَل قلبه، وتلقى بسر القابل من رب العالمين، وفقه عن سيد المرسلين.

وقال الإمام الشافعي: (إنما رمز الرجال كنوز أسرارهم لأن الحكمة جلت أن يباح بها إلا لأهلها، وهى قوت الأرواح، فيجب أن تظهر وأن تنكر حتى يلتقطها أهلها من لسان العارف أو من المسطر على الأوراق من العوارف). قال ﷺ وآله:

(١) ابو نعيم في حيلة الأولياء والسيوطى في الجامع الصغير.

(٢) سورة لقمان آية ٢٧.

(رب مبلغ أوعى من سامع) (١) . إذا لم تتضح لك الحكمة عند مطالعة الرموز فهاجر إلى الرجل أين كان، فإن فقدته فلا تفقد رياضة نفسك وتهذيبها.

٥- العلم اللدني:

ولا نهاية لهذا الميدان فهو علم الأسرار، وقد أعطانا ربنا الإشارة عنه مخبراً عن خضر موسى عليهما السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف: ٦٥. وهذا العلم اللدني لا يكون نتيجة للتقوى فقط، لأن التقوى سبب وفيها مجاهدة ينتجان طهارة للنفس وسلامة للقلب واتصالاً للروح بأصلها وعالمها، أما العلم اللدني فإنه هبة خالصة لا شأن لها باستقامة أو سير وسلوك أو مجاهدة للنفس وإن كان هذا كله مطلوب، إنما هي فضل محض على من يشاء الله من عباده المتقين بلا علة عمل، يقول الإمام عليه السلام مبيناً ذلك:

كم عامل في ظلمة لا يشهدن	إلا وسأوس نفسه بخيال
والفضل فضل الله يعطى منه	بالحب في طه العزيز الغالي
من لحظة في الحب تشهد وجهه	وتفوز منه بسره والحال
تعطى العلوم وتشهدن فتترجمن	بلسان أهل القرب والأبدال

وهذا العلم يشير المصطفى ﷺ وآله عليهم السلام إليه بقوله: (إن من العلم كهية المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله تعالى) (٢) . وهو علم لكن عند أهله وهم أهل القرآن ظهراً وبطناً وهداً ومطلعاً، وهم أهل الله

(١) أبو داود والترمذى وابن حبان والمنذرى في الترغيب والترهيب.

(٢) أبو منصور الدلمي في المسند وأبو عبد الله السلمى في الأربعين والمنذرى في الترغيب والترهيب.

وخاصته حسب حديث المصطفى ﷺ وآله: (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته) (١) .

وإذا كان القارئ للقرآن من أهل الصدق في القراءة ومن أهل الإقبال في التلاوة، صقل الله بأنوار التلاوة مرآة قلبه، فظهرت فيها صور التحليات الإلهية التي لا حصر لها والتي لا تنتهي ألوانها، فتظهر آثار التحليات على الجوارح الظاهرة.

إن رسول الله ﷺ وآله قد علمه ربه علوم الأولين والآخرين وآتاه جوامع الكلم، فسيدنا عيسى كلمة من كلمات الله، والنبي ﷺ وآله يمثل جوامع الكلم، والكلم إطلاق يفيد اللانهاية، وبالرغم من ذلك يقول له ربه تبارك وتعالى:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤ مع أنه علمه وكاشفه وجمع له الأزل والأبد في أن واحد، وكان وهو في حجراته يجتمع بعالمى الإنس والجن، والملائكة والأرواح العالية، لا تحجبه مادة ولا تمنعه سماء، ولا يحجب سمعه ببعد مسافة، وكان يرى من خلفه كما يرى من أمامه، ويبين عند ربه فيطعمه ويسقيه، ويسمع ما في السماوات ومن في السماوات ويراهم، ويسمع أطيظ السماء ويرى ازدحام الملائكة فيها.. ومع كل هذا فربه يقول له: (وقل رب زدني علما) . ولكن ما هو العلم الذى يطلب الزيادة منه رسول الله ﷺ وآله؟ أهو علوم الآيات وتزكية النفوس والكتاب والحكمة؟ أهو العلم اللدني؟ والعلم اللدني على قدرنا نحن لا على قدره هو؟ إنها علوم غيبية ذاتية تتعلق بذات الأحد تعالى، وعلوم الغيب المصون هي علم السر المكنون، ويشير إلى ذلك ﷺ وآله بقوله: (ألا إني أوتيت القرآن

(١) النسائي وابن ماجه والحاكم والمنذرى في الترغيب والترهيب وأبو القاسم بن حيدر في مشيخته والسيوطى في الجامع

ومثله معه) (١) ويرددها ثلاث مرات. ومثلُ القرآن هنا سر انطوى عليه قلب رسول الله ﷺ وآله ﷺ كان لا يكشف به إلا أهل سابقة الحسنى، ولا يفتح بأسراره إلا أهل الحجة الصادقة والتسليم الكامل.

إن هذه العلوم الخمسة كاملة قد ورثها الإمام رضوان الله عليه عن رسول الله ﷺ وآله ﷺ بالفضل فيما أقيم فيه، وعلمها لأحبابه، فهو صورة الذكر الأكبر. والسعيد السعيد حقاً من أكرم بمعرفته وخطط له قدره مقابلته أو مقابلة من قابله أو الأخذ ممن أخذ منه أو عمن أخذ ممن أخذ منه وهكذا.

ويقول الإمام شارحاً هذه الأسرار (٢) :

هذه الأسرار لا تفهم بميزان العقول، ولا تدرك بضوابط الفهوم، ولا تنال بمداينة العلوم، وإنما هي صورة المعلوم تنقش على جوهر النفس بعد التسليم الكامل، وتركية النفس بالمسارعة إلى العبادات، وتطهيرها من قاذورات البشرية ورعونات الإنسانية، وإطفاء نار الأطماع والحظوظ والآمال التي اقتضتها القوى الجسمانية، كل ذلك لا يدرك الأسرار ولا ليتحصل على مشاهدة الأنوار.. بل قياماً بما أمر الله سبحانه واقتداء برسول الله ﷺ وآله ﷺ، حتى يجاهد نفسه في ذات الله حق الجهاد خالصاً مخلصاً، وعندها يورثه الله تعالى ذوق هذه الأسرار وينشله سبحانه وتعالى من ظلمات الشك والشرك والظلمية والجهولية إلى أن يعيده كما بدأه، مشاهداً لجمال ربه سامعاً لكلامه سبحانه منه كما شهد وسمع يوم الست.. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ

(١) النسائي وأحمد والحاكم في المستدرک.

(٢) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ١٣ ص ٩ (١٦ رمضان ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٧).

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين: ٤- ٦﴾ ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة: ٢٥٧ فمن أخرج به الله سبحانه من الظلمات إلى النور فشهد ما لم يشهده غيره فتغيرت أخلاقه وعاداته وصفاته حتى صار غريباً بين أهله ولام عليه من هو في الظلمات، أوجب أن يعود إليها بعد أن أخرج به الله منها؟ إنما ذلك يكون لمن لم يشهد تلك المشاهد العلية ولم يذق من تلك الأسرار الربانية ما يجعله يسارع إلى محاب الله ورضوانه، قال العاشق:

أعد ذكر من أهوى ولو بلامى **فإن أحاديث الحبيب مدامى**

وتلك المواهب اللدنية يقول فيها الإمام من مضمون علوم الخلوة (١) :

العلم بالله عن شهود ووجود، لا عن فهم للقول وعقل للمعاني.. إذ الفهم لا يكون إلا للعلم بأوامر الله تعالى، والعقل إنما يستعمل في إدراك آياته سبحانه وتعالى وفهم أوامره وإدراك آياته جلّت قدرته وتقدست أسمائه، فالهبات اللدنية: **مبدؤها** يقين عن ذوق وتدبر وعلم بالأصول، أصول الكتاب العزيز والسنة المطهرة، يقوى حتى يساوى المشاهدة لتمكن الموقن بما ذاقه من فهم الكتاب العزيز والسنة المطهرة تمكناً عن وجد وشوق وصدق وإخلاص.

ووسطها مراقبة استحضارية لمشاهدة ما تيقنه من عوالم الملكوت الأعلى ليزداد علماً ويكمل يقيناً، وتقوى لطائف القلب الذى هو محل نظر الحق سبحانه قوة تقهر بها عوالم النفوس الحيوانية والقوى الإنسانية والصفات المجرول عليها الإنسان حتى تكون أنوار الملاء الأعلى تسطع على لطائف القلب بأنوار الأسرار

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ٢٠ العدد ٦ ص ١٤ (٢٧ شوال ١٣٦٦ الموافق ١٢ سبتمبر ١٩٤٧).

وأسرار الغيوب الملكوّية، وبهذه المراقبة يكون كأنه ملك مقرب لمشاهدة عوالم الملائكة بنور البصيرة وعيون السريرة.

وكماها باصطياد الآيات العالية من حظيرة القدس الأعلى وفراغ قلبه مما سوى الحق وآياته وقُدوم الأنوار، وتتوالى عليه فترقق عوالم عناصره السفلية وتقوى عوالم ملكيته حتى تتفتق عين بصيرته وتقوى أنوارها، فتشرق على عوالمه المادية فيرى بعيون البصيرة أسرار الغيوب، ويلوح من شدة الأنوار عليه ودوام التوجه منه أنه يرى بقواه الظاهرة محسوسًا مشاهدًا، وهو الغريب في عشيرته وإن كانوا أهلّه وجيرانه، العدو في قومه وإن كانوا أرحامه و(طوبى للغرباء) (١)، وهذا نهاية الكشف والمشاهدة، وهو مقام عين اليقين وحق اليقين ورتبة الصبغة الإلهية ومترلة الرجل الرباني وحال العناية الصمدانية، يرى ولها ولا وله عنده، مهيمًا ولا هيّام به، مجنونًا ولا جنون يعترّيه وإنما انكشفت له الآيات انكشافًا أشهده في الآفاق وفي نفسه ما به قام كل شيء بقيومية الحى القيوم وقدرة القادر الحكيم وتدبير المريد البديع، فصار شاهدًا مشهودًا، ولقاه عند ربه أقسم به ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ البروج: ٣. ولدى هذا الكشف تظهر له سيما العالم وتنعكس عليه ظلماتهم سواء بإقبال عليه أو إنكار، فإن كان ممن اطمأنت قلوبهم بذكر شهد الحق وغاب عن سيماه الخلق واطمأن قلبه واستأنس بالله تعالى في الحالين ونطق بالحكمة لا يغيره إقبال ولا إدبار، لا يؤثر عليه تسليم ولا إنكار، وهو الرجل المؤهل للوراثة الحمديّة الذى ينتقل لحق اليقين واليقين الحق، مقامه لو رفع الحجاب ما ازداد يقينًا، وهذا المقام الإشارة فيه عبارة والعبارة فيه عماء وظلمة، والتمكن فيه فرد الوجود في عصره،

(١) الإمام أحمد في المسند

إليه الإشارة ومنه الإستمداد وبه الفيوضات والأسرار، وهو قلب العالم الذى ينظر الله تعالى إلى العوالم فيه.

رابعاً: الإسلام دين ووطن ونسب

بين الإمام أساساً آخر من أسس السلوك إلى الله ورسوله وهو أن:

(١) الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

(٢) الإسلام وطن والمسلمون جميعاً أهله.

(٣) الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ وآله.

قال العلامة:

إنى كتبت كتاب (الإسلام وطن) وكتاب (الإسلام النسب) وكتاب (الإسلام دين) وكأنى أستمد من الغيب المصون المنبئ بأن الله سبحانه وتعالى يعيد مجد الإسلام كما كان فى السلف الصالح، ويظهر آياته الكبرى لتنجيز ما وعد به بقوله تعالى:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ المائدة: ٥٤. وكنت أكتب وكلى رجاء فى الله تعالى

أن يجمع قلوب المسلمين ويؤيدنا منه بروح منه سبحانه ويمدنا بنصره العزيز حتى تشرق الشمس من مشرقها.

وأكتب هذه الكتب فى السنة السادسة والعشرين بعد الألف والثلاثمائة، محاطاً بما يُئسُّ أهل الجهالة بالله ويسارع بالمغرورين إلى القنوط من رحمة الله بما يرونه من القوة والصناعات عند أعداء الله تعالى، وبذلك مالوا إليهم وتولوهم. فكنت أكتب طامعاً وكأنى تشرق على العناية من الله تعالى بأمة حبيبه ومصطفاه ﷺ وآله.

واشتد الأمر حتى صار المسلمون في أكثر البلاد يساعدون الأعداء على البقية الباقية لهم، فلم أزد في الله إلا رجاءً وفي الله تعالى إلا ثقة، وبتصديق وعده العزيز إلا طمأنينة. ومكثت أكثر من عشر سنين وأنا بين فرح بوعده الله، حزين مما أراه، فأحببت أن أطبع هذه الكتب كتاباً كتاباً، ولكن سواطع أنوار تصديق وعد الله وعبير طيب عناية الله أظهرت عجائب خفي لطفه بأمه حبيبه ومصطفاه، فسرت روح معونة الله، فحركت القلوب والأبدان، وأحيت العقول والأفكار، وأيقظت من أنا متهم الغفلة وارقدتهم الجهالة، وكم لله من لطف خفي.

وقال أيضاً:

حيث أن الإسلام دين، يجب أن نعمل به عمل المؤمن الكامل التصديق الذي يتيقن أن العمل به: سعادة في الدنيا، وتخفيف عند الموت بالبشائر التي تتوالى على المسلم عند قبض روحه، وراحة في القبر بما تشهده النفس بعد مفارقة الجسم مما أعدده لها ربها سبحانه وتعالى وللجسم في النشأة الآخرة. ولا يخفى أن للنفس بعد مفارقتها للجسم في هذا الكون اتصالاً نسبياً بالجسم كاتصال الشمس وهى في السماء الرابعة بقاع البئر العميق وقت السميت (أى عندما تكون الشمس في وسط السماء). فكما أن الشمس ترتسم في الماء الذي في قاع البئر العميق وتؤثر عليه وتنوره وتجعله منيراً ويزول منه العفونات والأبخرة الفاسدة، فكذلك النفس إذا كانت في عالم الملكوت اتصلت بالجسم فأكسبته إشراقاً، وحفظه الله بهذا الإشراق في حصن منيع. كما نرى ذلك محسوساً في الأماكن التي يدفن فيها أهل التقوى والصلاح من العلماء العاملين الذين نفعا العامة بعلومهم وعملهم، فإن الله يكرمهم فيجعل أماكن قبورهم محل تنزل رحمته وعناية لعباده بزيارتهم والاعتبار بهم في أعمالهم ونيل النعيم المقيم يوم القيامة، وذلك لأن العامل بأحكام الإسلام المحافظ

على أركانه وعده الله بالنعيم الأبدى والفوز العظيم في دار رضوانه وبساتين فردوسه، فيكون المؤمن العامل بوصايا الإسلام وشرائعه سعيداً في الدنيا لما شرح الله صدره له من العمل في الدنيا لله تعالى، فيكون غنياً بالله عن شرار الخلق، فرحاً مستبشراً عند الموت، مستريحاً آمناً في قبره، منعماً مجملاً بأكمل المشتبهات وأشهى الملاذ عند يوم القيامة. وتارك العمل بوصايا الإسلام ذليل في الدنيا، لأنه بتركه العمل بالقرآن والسنة صار عبداً لشهواته وحظه.

ولما كان الإسلام وطناً لكل مسلم، فالواجب على كل مسلم بذل النفس والنفيس في حفظ هذا الوطن العزيز والذود عنه بكل ما في الوسع، حتى يكون وطننا العزيز أغلى عندنا من أنفسنا ومن آبائنا ومن الدنيا ومن أولادنا وأموالنا وتجارتنا وزراعتنا، حتى تظهر جمالاته الحقيقية علناً، وخيراته الجميلة جلية، وفوائده الحقيقية مشهودة. وكذلك نعتنى بوطننا العزيز ونحفظه، والعمل له والسهر والتعب في اختراع ما به رفعة شأنه وإعلاء كلمته وقوة سلطانه وثروة أهله وخير بنيه بالعلم والعمل لا بالتمنى والأمل. وبذلك يكون كل فرد من أهل وطننا العزيز عزيزاً غنياً شريفاً كريماً إماماً متبوعاً إن لم يكن أميراً أو وزيراً أو قائداً، كل ذلك يكون ببذل ما في الوسع لإعزاز وطننا وجلب الخير له ودفع عدوه عنه والغيره عليه والعصية له، حتى يكون كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور هذا الوطن العزيز بحفظه من عدوه ويجلب الخير لإخوته أهل الوطن.

وكل واحد من المسلمين في أى أرض كان وعلى أى حال وفي أى شأن كان يجعل مهمته العظمى وغايته القصوى حفظ ثغره الذى هو عليه.. ولو أهمل الواقفون على الثغور، فإن هذا الوطن العزيز الذى هو الإسلام محاط بعناية الله ومعونته، قال الله

تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩ وقال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد: ٧ وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الروم: ٤٧ .

وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المجادلة: ٢٢ .
وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ النحل: ١٢٨ .
وقال ﷺ وآله (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك) (١) وإن هذا الوطن العزيز الذى هو الإسلام كان الواقف على جميع ثغوره سيد الخلق وإمام الرسل سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله منفرداً ليس معه إلا الله فأيده الله ونصره. وهكذا لو أن واحداً منفرداً من المسلمين قام محافظاً على ثغره - ولو أهمل جميع من على الثغور - فإن الله تعالى ينصره ويحمى به بقية الثغور ويمده بالملائكة والمؤمنين، سر قوله ﷺ وآله: (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإذا تمأون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك) (٢)، بالمحافظة على وطننا العزيز وببذل أنفسنا وأموالنا فى الذود عنه وبالمسارعة فى العمل له، يصبح من فى الأرض جميعاً إما عبيداً لنا أو أتباعاً أهل ذمة أو إخواناً يعملون لوطننا كما نعمل نحن لهم، وبذلك يمنحنا الله العزة الحقيقية التى تلمس بالجوارح وتشعرها القلوب، فيشهد المسلم العالم كله يدينون له ذلاً وصغاراً إذلاً لأنفسهم وإعزازاً لنا وإكباراً، أو يدينون بديننا الحق، فيكونوا للمسلمين إخواناً.

(١) الترمذى والإمام أحمد فى المسند وأبو الفرج الجوزى فى صيد الخاطر .

(٢) أورده أبو داوود وأبن ماجة والدرامي ومالك فى الموطأ

فيا إخوتى المؤمنين: باقتدائكم بسلفنا الصالح، ورجوعكم إلى ما كانوا عليه، واتخاذ الإسلام هو الوطن العزيز الذى يفدى بالأنفس والأموال.. تفتح لنا يا إخوتى كنوز الأرض بالعلوم والمخترعات، وتفتح لنا مدائن الأرض بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وتنشرح صدورنا بما يجدده الله لنا ويفيضة علينا فى كل نفس من الخير والفضل العظيم، وبما نناله من الخير على يد أبنائنا وجيراننا وأهل بلدنا المسلمين الذين يبذل كل واحد منهم ما فى وسعه ليدخل السرور على قلب أخيه كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٢، وبذلك يكون كل مسلم وهو فى كون الفساد ودار الفناء كأنه فى الجنة لانشرار صدره وتيسير أمره وعمله بما يرضى ربه عنه.

وكفى بذلك يا أخوتى سعادة وعزاً فى الدنيا، مع أن هذه اللذة والنعمة فى الدنيا بالنسبة لملاذ الآخرة ونعيمها كآلام المرض فى جانب ملاذ العافية.. وهناك فوق ذلك ملاذ ونعم وخيرات لا يمكن أن تتصورها العقول، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة: ١٧، وليس بإنسان بل ولا حيوان أعجمى من يجعل له وطناً آخر غير الإسلام يتعصب له ويدافع عنه ويقوم عاملاً بالباطل بعد علمه حق العلم أنه بمحافظته على وطنه العزيز الذى هو الإسلام يكون ملكاً (بكسر اللام) عزيزاً فى الدنيا، وملكاً (بفتح اللام) مقرباً متمتعاً بمشاهد القدس الأعلى يوم القيامة .

هذا ومتى قام عامل بالباطل ونجح فى عمله، أو متى قام مجتمع من الناس يعملون عملهم ولم يكن الله معهم ونجحوا فى عملهم، فأنهم ولو نالوا ما يقصدون من حظوظ عاجلة وملاذ فانية لا تدوم لهم، إلا ريثما يفارقونها إلى الهاوية بالموت أو

تفارقهم قبل الموت، فيرجعون الى الذل والهوان، ولعذاب الآخرة اشد وأبقى، قال

تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (الشعراء: ٨٨).

فيا إخواني المسلمين : ليس بينكم وبين المجد الذي كان لأسلافنا ﷺ الاكما بينكم وبينهم من أنهم أخذوا الإسلام وطنا فعملوا له وحفظوه ودفعوا عنه اعداءه وجلبوا له كل الخيرات، وأنتم اتخذتم أرضاً تسكنونها وطناً وتركتم الإسلام وعملتكم للأرض، فالتفت الله عن الذين لم يتخذوا الإسلام وطناً، فجاء أعداؤهم وملكوا الأرض منهم وأذلّوهم في عقر بيوتهم، وما أذل الله قوما بعد ان اعزهم إلا بترك ما به كان عزهم، قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له) (١) .

فيا إخواني المسلمين: فالأمر سهل، والله قريب مجيب تواب غفور، فهلموا بنا نتوب إلى الله تعالى ونندم، ونعاهد الله تعالى فيما بيننا وبينه سبحانه على أن نتشبه بسلفنا الصالح، ونجاهد أنفسنا على الإقتداء بهم، ونقوم بإخلاص لله رب العالمين في تجديد سنن نبينا ﷺ وآله ﷺ والعمل بكتاب الله تعالى، ونجعل الحق سبحانه هو الحكم العدل، أمره فوق شهوتنا وحظنا ولذتنا وأملنا، ونعرف الخلق بالحق لا نعرف الحق بالخلق، فإن بعضنا من جهالته بلغ به الجهل إلى أن بالغ في مدح أعداء الله وأعدائنا حتى رفعهم إلى أن جعلهم خلفاء ربنا وأن الله يحبهم ويبغض المؤمنين.

وقد تغالى غيرهم من المسلمين فجعل قوماً يعتقدون أن الله لامس إمراة فحملت منه ووضعت ولداً هو ابن الله، عقيدة تبين أن معتقدها ليس له عقل يزن به ولا فكر يفكر به ولا قوة إدراك يدرك بها. جعلوهم أئمة يهتدون بهم مع قلة

(١) سورة الرعد آية ١١ .

عقولهم، وقادة يقتدون بهم مع ضعف مداركهم، وجعلوهم رجال الرحمة ومبعث الخير وهم لا يسمعون ولا يعقلون، ولو أنهم كانوا يسمعون لسمعوا الأدلة الناصعة على تزيه الله عن الولد والوالد وتقديسه عن الشبيه والنظير. ولو أنهم كانوا يعقلون لما اعتقدوا تلك العقيدة التي يعتقدها حيوان، لأن الحيوان الأعجم لا يعتقد أن حيوان مثله في الشكل أو في العمل ابن إنسان ولو تفوق عليه في الطرق التي يجلب بها الخير لنفسه ويدفع بها الشر عن نفسه. فإذا كان الحيوان الأعجم لا يعتقد أن حيواناً منه ابن إنسان يجب أن ينقاد له كما ينقاد لأبيه لأن أباه ملك الحيوان، فكيف يعتقد الإنسان العاقل أن الله العلي العظيم يطاء امرأة يأتي منها بولد يكون هو الرب أو ابن الرب ؟ .

ولو تأمل أهل الجهالة في الحمل والولادة فإن كل تأويل تألوله يخجل وجه حيوان أعجم إذا تصوره، ويتبرأ منه القرد والنسناس فضلاً عن الإنسان، فقوم لم يجعل الله لهم نوراً يميزون به بين جمال الروح الإنساني وجمال الجسم الحيواني وافتخروا باستخدام المادة وتنويعها كما يعمل العنكبوت في المادة لتحصيل قوته وكما يعمل النحل في تنويع المادة لنفعه فهم آلات لخدمة المادة للنفع بها: فهل يكون أمثال الحيوانات أئمة للمتقين أو قادة للحكماء الذين كبرت نفوسهم وكملت عقولهم أو خلفاء ربنا من أئمة الهدى والمتقين؟ اللهم رحماك بالمسلمين.

يا إخوتى المسلمين: وطنكم العزيز الإسلام وقد أمرنا بالعمل في الدنيا للدفع عنه والمحافظة عليه وإعزاز جانبه، قال تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (١)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى

(١) سورة الأنفال آية ٦٠.

اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴿١﴾ : وإني أبشر إخوتى المسلمين أننا فى زمان لو أننا عملنا
 بجزء من عشرة أجزاء من وصايا الإسلام منحنا الله العناية الإلهية وأذل أعدائنا
 وجعل لنا السلطان ووفقنا للعمل بكل وصايا الإسلام، فكنا ونحن فى القرن الرابع
 عشر كأننا فى القرن الأول لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
 مُحْسِنُونَ﴾ (٢) فى أى زمان كانوا وفى أى مكان، ولا نزال فى معية رسول الله ما
 دمنا نعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله ﷺ وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ
 اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

ولا تحصل التقوى والإحسان اللذان ينتجان الشرف العظيم الذى يكون الله تعالى
 به معناً إلا بعد أن نكون مع رسول الله ﷺ وآله ﷺ بالتجمل بالصفات التى أثنى
 بها على أهل معيته ﷺ وآله ﷺ فى آخر الفتح، قال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣) . وكل مسلم يجب أن يكون
 مع رسول الله ﷺ وآله ﷺ ما عليه إلا أن يجاهد نفسه أن يتشبه بأصحابه الكرام،
 ثم ييشر نفسه بأنهم ممن إشتاق إليهم رسول الله ﷺ وآله ﷺ. ولا يشتاق رسول
 الله ﷺ وآله ﷺ إلا إلى أحبائه فى قوله: (وا شوقاه إلى إخوانى الذين لما يأتوا بعد)
 . (٤)

(١) سورة التوبة آية ١٠٥.

(٢) سورة النحل آية ١٢٨.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

(٤) الترمذى فى العلم، وابن ماجه فى المقدمة وابن رزى فى تيسير الأصول.

حقاً أقول إن المسلم في هذا الزمان يمكنه بتوفيق الله وعنايته أن يكون مع رسول الله ويكون الله معه ويكون محبوباً لرسول الله محبوباً لله بلفتة قلبه وحركة جسمه. وإن مسلماً يوضع له المعراج ليسموا على جبروت القدس الأعلى، تهوى به شهوته إلى أسفل سافلين الحطمة والذل لغير مسلم، والإسلام برىء منه، لأنه يعمل بغير شرائع القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١). ومن يؤثر حظاً فانياً يتوهم أن يناله قد لا يناله ولو ناله على سعادة أبدية ونعيم مقيم ورضوان من الله أكبر، هذا في نظر الحكماء أضل من الأنعام وأشقى من الشياطين وأدنى من الجماد وإن كانت صورتها صورة إنسان ومن كان يترك الكمالات النفسانية والتجمل بالفضائل القرآنية والتحلى بحلج الرجال العاملين لله يترك كل ذلك للذة مطعم يأول أن يكون كالمرحاض للبول فقد أبدل النعيم الدائم بالشقاء الأبدى والخير الحقيقي بالضرر الذي لا يزول فالإسلام هو الوطن والعمل له به عز في الدنيا وسعادة في الآخرة. وعلى ذلك فالمسلم بجزائر المحيط الأطلسي يدافع عن وطنه الإسلام وعن أهل وطنه المسلمين بنفسه وماله وهم في جبال القوقاز، يبذل ماله إن لم يتمكن من بذل نفسه لهم، ويقوم حاثاً أهل وطنه في بلده أن يدافعوا عن مواطنيهم في الإسلام وعن وطنهم الإسلام بأنفسهم وأموالهم، فإذا انفصل المسلمون وهم في رأس الرجاء الصالح عن المسلمين وهم في جبال القوقاز كان كفصل الرجل عن الرأس، وبفصل الرجل عن الرأس لا يخفى ما يحصل من ضعف الجسد وعطلة آلاته وأدواته.

(١) سورة النساء آية ١١٥.

ولقائل أن يقول كيف أدافع عن وطني وأهل وطني وقد حال بيني وبينهم العدو الساعى فى محو القرآن والسنة بالضلال والكفر؟ أقول لك يا أخى: إن عجزت عن العمل بيدك فاعمل بلسانك، فإن العمل باللسان مفتاح العمل باليد، وإن عجزت عن العمل بلسانك، فأعمل بقلبك بأن توجه قلبك إلى ربك سبحانه وتساءله أن يحفظ وطنك وأهل وطنك، وأن يجدد المجد لك ولأهل وطنك بالعمل لوطنك العزيز الذى هو الإسلام، فإنك بذلك لا تحرم يا أخى من عناية الله بك ومعونته لك، وإكراماً منه يجمع عليك إخوانك الصادقين الذين يمكنك أن تعمل معهم بلسانك ثم يكون الله معكم فتعملون بأيديكم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (٢) .

فإذا عملت بقلبك ولسانك وجمع الله عليك إخوانك المخلصين وهم القليلون فى كل زمان خصوصاً عند قوة سلطان أعداء الله، فإنكم يا أخى بتوجهكم إلى الله سبحانه وتعالى بوجهكم رغبة نيل رضاه الأكبر يلقي العداوة والبغضاء بين أعدائكم ويشغلهم بأنفسهم عنكم حتى يوقد نار الحرب بينهم فيمحقهم ببعضهم محققاً، كل ذلك إكرام من الله لبقية الباقية من حزبه.

كن على ثقة أيها الأخ ان أكبر الجهاد جهادك نفسك فى ذات الله، فلا تشتغل بجهاد غيرك إلا بعد أن تجاهد نفسك جهاداً يجعلها سهلة القياد متلذذة بالآلام فى طاعة الله فتفرح بإعلاء كلمة الله تعالى وتعيد سنة رسوله ﷺ وآله ولو أدى

(١) سورة الحج آية ٣٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧.

ذلك إلى تحمل ما لا يطاق من المصاعب وارتكاب ما لا يحتمل من الشدائد، فإن أنست من نفسك بتلك الصفات فتحققت أنها لا غرض لها في مال ولا جاه ولا في منصب ولا لذة في الدنيا ولا شهوة في الآخرة، فكن واثقاً أن الله معك وناصرك.

واحذر أن تدعى أن نفسك تزكت من غير برهان يطمئن به قلبك، فإن للنفوس أمراضاً خفية تخفى على أحذق حكماء العارفين. ومن ادعى هذا المقام بلا حجة لا يكون مع الله، ومن لم يكن مع الله كيف يكون الله معه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (١). اجتهد يا أخى أن تجعل همك أولاً في دعوة نفسك حتى تستجيب لله رب العالمين بحال يرضيك رضاء حقيقياً، فإنك أعلم بنفسك من غيرك، وإن كنت تجهل أمراضها فإن حظوظها التي تبعثها على العمل لا تخفى على العامل، والله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره، قال سبحانه: ﴿وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢)(٣).

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦.

(٢) سورة الحج: آية ٤٠.

(٣) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٢ العدد ١٩، ٢٠ (١٦)، ٢٣ ذى الحجة ١٣٥٨ الموافق ١/٢٦ - ١٩٤٠/٢/٢.

الدستور النظمى للطريق

وضع الإمام قواعد وضوابط كثيرة في كتبه ومقالاته ودروسه، وأجمل دعوته إلى الله ورسوله في دستور نظمى يبين آداب السلوك في طريق الله تعالى، ويعتبر ميزاناً لتصحيح الأحوال والأعمال والأقوال والأخلاق، وأملى قصيدة طويلة عام ١٣٢٤هـ واسمها: نصائح الأصل، لتكون نبراساً يضيء السبيل لطالب الوصول، ودواءً ناجعاً وعلاجاً نافعاً لتطهير الأخلاق وتنكية النفوس. وذكى الإمام بتلك القصيدة رسالة كتبها لتلميذه الشيخ صبيحى، ومن أبياتها:

أيا رفقتى يا خلقتى يا أحبتي	على العروة الوثقى فسيروا ورافقوا
ألا فاجتماعاً بالقلوب وألفة	وعوناً على عمل المكارم تلحقوا
وإياكمو أخلاق إبليس إنها	لقد أبعدته وهو طاووس رامق
دعو الكبر والحسد القبيحين سادتي	دعوا طمعاً فيما يزول وسابقوا
وستراً لعورات الأحبة كلهم	وعفوا عن الزلات فالعفو أرفق
وغضوا عن المكروه أعين عفة	وجودوا ببشر فالسماحة رونق
وإياكمو وعدوكم خبث طبعكم	وطمعاً وحب الجاه فهو يفرق
وكفوا عن التنفير واسعوا لجمعكم	على الله فالدنيا متاع مفارق
ألا من يكن في قلبه بعض ذرة	من الكبر والأحقاد ما هو ذائق
ألا طهر الأخلاق والنفوس زكها	وإلا فسهم البعد يرمى فيفتق
ألا يا أخى بالذل ترقى وترفعن	وبالزهد تعطى ماله تتشوق
تخلق بأخلاق الإله وحافظن	على منهج المختار فى العقد تنسق

ودع عنك ميلاً للحضيض وزينة
وقم داعياً لله بالحكمة التي
ولا تسع للتفريق واجمع به له
ألا أسرعوا أحيوا لسنة أحمد
ألا أطفئوها باليقين تجردوا
وجدوا وجودوا بالنفس تحفظاً
ألا بعتمو لله مالاً وأنفساً
وعلماً بأن الدين حسن عقيدة
ألا خلصوا الأرواح من سجن نأيها
ألا جاهدو تلك النفوس بهمة
على سنة المختار سيروا بهمة
ويمحو بنا البدع التي عم نشرها
ألا فابغضوا من أكد الله بغضه
ألا فاحفظو الأركان أركان ديننا
أديموا لذكر الله فالذكر نوره
ألا عظموا لشعائر الله تعظموا
إلهي على طه الحبيب محمد
وآل وأصحاب كرام أئمة

بها اشتغل اللاهون عنه ونافقوا
بها قد حباك الله وهو الموفق
عليه أولى التسليم إذ أنت واثق
ففتنة هذا العصر كالنار تحرق
عن الحظ والأهواء فالخط مفرق
على السنة الغراء فالله خالق
بمدلول إن الله (١) والذكر ينطق
وأنوار أخلاق بها الكشف يشرق
وجدوا لتزكية النفوس وسابقوا
تفوزوا برضوان الله من الله تعتقوا
عسى الله يحينا به ويوفق
لتشرق شمس الدين والشرق مشرق
أحبوا بحب الله والخط فارقوا
صلاة صياماً ثم حجاً تصدقوا
لأهل الهدى والغنى لا شك فارقوا
بها وتسودوا في القيامة تسبقوا
أفض غيث إحسان به القلب يشرق
ومن تابعوا المختار بالخال صدقوا

وذكر الإمام عن تربية المريدين في كتبه ومواجهه الكثير نذكر منها:

(١) إشارة إلى قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.....) الآية.

هذَّبَ النفس إذا رُمَّت الوصول
حصل العلم بعزم صادق
علم النفس بتوحيد العلى
حصل الأحكام بالقدر الذى
حسن النيات وانهج نهج من
صاحبين أهل التقى والزمهمو
وادخلن حصن الشريعة واهجرن
واصطف الرءوف الرحيم اسع إلى
سلمن للمرشد الفرد الذى
واتل للقرآن وافقه آيه
آثر الأخرى على الدنيا عسى
وازهدين فيما يزول مسارعاً
أخلصن لله قلباً قابلاً
بر أصليك القرابين أرض عن

غير هذا عندنا عين الفضول
لا تكن فى العلم كسلاناً ملول
من بيان الآل عن فرد قؤول
يقتضيه الوقت لا قال يقول
صح بالإنسان تحظى بالقبول
واتبع نور الهدى مثل الرسول
كل مفتون ومغرور جهول
من يزك النفس.. عنه لا تحول
يحفظ الآداب حفظاً للوصول
وافهم سر الإشارة والفضول
يقبل الله فتحظى بالوصول
للذى يبقى بأحوال الفحول
وأسالنه الفضل منه والقبول
كل فرع منهما عند المحول

تأسيس الطريقة العزمية

عندما وجد الإمام أن الوقت قد حان لإعلان طريقته العزمية، أرسل إلى السيد عبد الحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى ذلك الوقت خطاباً يطلعه فيه على استكمالهِ لشروط شيخ الطريقة واستكمال الشروط الأخرى التى تتيح له إنشاء طريقة صوفية جديدة.. قائلاً

صاحب السماحة الحسيب النسيب شيخ المشيخة المنيفة والنقابة الشريفة السيد عبد الحميد البكرى.. جدد الله بسماعته معالم الطريق وأيد بسيادته رجال العلم والدين.. آمين.

مولاي.. رافعه لسيادتكم العبد المسكين محمد ماضى أبو العزائم.

يشرفنى يا مولاي بعد أن تلقيت علوم الشريعة الغراء بالأزهر الشريف، وتلقيت علوم الحكمة والأخلاق وتربية النفوس على أيدي أئمة من أهل الفرقان والولاية، وأبواب التوحيد والأخلاق من كتاب إحياء علوم الدين، وتلقيت كتاب قوت القلوب فى علوم أسرار الطريق، وبيان أحوال الرجال من أستاذى ومرشدى الغريب محمد السائح الخوقندى بسنده المتصل إلى سيدى عبد القادر الجيلانى، وتلقيت منه أسرار الطريق وأذننى بتلقيين ما تلقيته عنه، وتلقيت الرسالة القشيرية وحكم ابن عطاء الله السكندرى على أستاذى المرشد السيد حسنين الحصافى بسنده المتصل إلى الإمام أبى الحسن الشاذلى رحمته الله، وتلقيت علوم أحوال الرجال ومواجههم على سيدى العز محمد نزيل مكة المكرمة.. بعد خدمة الطريق وعلم مأخذها.

وقد من الله على بأن أرشدت كثيرين، وألفت كتباً طبع منها تسعة كتب في علوم الشريعة المطهرة والأخلاق وأسرار السادة الصوفية.

وبما أن الله من على بإرشاد كثيرين يزيدون عن العشرة آلاف في أنحاء بلاد مصر، وهم ملتزمون من سماحة مولانا تعييناً شيخاً لهم أسوة بمشايخ الطرق.

وبما أن طريقة السادة الشاذلية متفرعة إلى فروع كثيرة.. فألتمس من سماحتكم انضمامي بمشيخة السادة الصوفية أنا وأولادى وأهل طريقنا (بالعزمية الشاذلية).

وخطاب آخر كتبه الإمام إلى السيد عبد الحميد البكري أيضاً، هذا جزء منه:
الحمد لله الذى أنزل على حبيبه سيدنا محمد ﷺ وآله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١)، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً..

وبعد.

فمن محمد ماضى أبى العزائم إلى حضرة صاحب السماحة الحسيب النسيب السيد عبد الحميد البكري.. جدد الله به مناهج السلف الصالح:

تعلمون أنى بعد أن حصلت العلوم الشرعية بالأزهر الشريف رغبت في تحصيل علوم السلف الصالح التى تتلقى بمعرفة النفس وعلوم القلوب وفهم الحكمة وفقه كلام الله تعالى بطرقها المشروعة بالتلقى من أهل القلوب والسماع من أهل الأسرار، حتى أجازنى في علوم السنة والكتاب بالسند المتصل أفراد هذا العصر

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

الذين هاجرت إليهم من بلاد مصر إلى بلادهم لتحصيل تلك العلوم، فمكثت نيفاً وثلاثين سنة وأنا أوصل الهجرة حيث مكان هذا العلم.

ولما أذنت بالبيان بعد جهاد نفسى بينت لإخوانى المؤمنين من منحهم الله القابل لهذا الفيض النوراني، فبينت لأهل الخصوصية ما لا يُباح به إلا لمن حصّل علوم الشريعة وذاق حلاوة المعرفة وميز بين التزيه والتشبيه، وألقيت دروساً في كل بلاد هاجرت إليها بينت لهم فيها أحكام الشريعة وآدابها حتى من الله على بأوراد وأدعية وصلوات على النبي ﷺ وآله ﷺ كاشفة لمقاماته الأحمديّة ومراتبه الحمدية. ثم تحققت أن صوتي لا يسمع إلا من حولي، فكتبت كتباً كثيرة بالعلم بالله والعلم بآياته سبحانه وكتباً في العلم بأحكامه ورسائل في العلم بحكمته أحكامه، ثم وجدت واجب الوقت يدعوني لأن أقف موقفاً أدفع به أهل البدع المضلة والآراء الفاسدة من الشاطحين الغافلين والمنحرفين والذين قدموا على مصر بعلوم أوروبا الفلسفية الباطلة، فكتبت في ذلك رسائل، ونشرت مقالات في الجرائد السيارة، وفي كل تلك الأطوار لم أكن ألفت نظري إلى التشرف بانتظامي في عقد من يتشرفون برياستكم لاستغراق أنفاسي فيما أنا مول بوجهي إليه حتى ألبأتني الضرورة للإقامة في بلاد مصر في ١٣٣٣هـ لأحداث ليس هذا موضع بيانها (١)(.....).

وإني يأسماحة السيد قد اشتدت رغبتي في أن تقرروا طريقي هذا وأن أكون شيخاً له، لأن ذلك حق صوفي نهج عليه الصوفيون من أيام الحسن البصري، فإن

(١) صفحة من الخطاب مفقودة.

الأمة رضيته شيخاً لها، وكان مولى ﷺ فلم يمنعه الرق من أن يسود أهل عصره علماً وورعاً.

وإني ألفت نظر سماحتكم إلى أن لفظة (أبو العزائم) هي كنييت خاصة ولم يسبق لأفراد أسرتي أن يكون واحد منهم مكى بهذه الكنية إلا أنا، وإني أحتفظ بها فلا أبيع لأحد أن يكنى بها إلا أولادى (١)، ولا أرضى أن يكون اسم من معنى الكنية لغير طريقى هذا الذى استنبطه مشايخنا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله ﷺ وآثار السلف الصالح وكنونى به خصوصاً فى هذا العصر الذى كثرت فيه البدع وانتشرت فيه الفتن واندurst فيه معالم الكتاب والسنة، وأحتفظ بكامل حقوقى أمام سماحتكم، والله أسأل أن يزيل بكم البدع المضلة ويحى بكم السنن التى درست، ويساعدكم على نصرة الدين وإعطاء كل ذى حق حقه إنه مجيب الدعاء

خديم الفقراء: محمد ماضى أبو العزائم

(١) أولاده من صلبه.

دستور فقراء آل العزائم

وبين الإمام في كلمة فاتحة لدستور فقراء (١) آل العزائم بين فيها أصول

مجملة، فقال (٢):

أبين أساس طريقي هذا الذى كان عليه أئمة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وأساسه الأول المحبة لله ولرسوله ﷺ وآله وفيهما، ثم الإيثار فالغيرة لله ولرسوله فالجاهدة في سبيل الله.

يتعين على فقراء هذا الطريق أن يكون كل رجل منهم متعلماً ممن فوقه في العلم، ومعلماً لغيره، فإن من فهم مسألة من العلم صار عالماً بها. والمتعين على كل رجل:

(١) ان يبدأ بنفسه حتى تُسَلِّمَ تسليماً حقاً لله تعالى في حكمه الشرعى وحكمه القدرى.

(١) الفقير: حوال الفكر، جوهرى الذكر، جميل المنازعة، قريب المراجعة، لا يطلب من الحق إلا الحق، ولا يتمذهب إلا بالصدق، وهو أوسع الناس صدراً، وأذل الناس نفساً، ضحكه تبسم، واستفهامه تعلم، مذكر للغافل، معلم للجاهل، لا يؤذى من يؤذيه، ولا يخوض فيما لايعنيه، كثير العطاء، قليل الأذى، ورع عن الخمرات، متوقف عن الشبهات، غوث للغريب، أب لليتيم، قلبه مشغول بفكره، مسرور بفقره، لا يكشف سرّاً، ولا يهتك سترّاً، حلیم إذا جهل عليه، صبور على من أساء إليه، حركاته أدب، وكلامه عجب، وقور، صبور، رضى، شكور، قليل الكلام، كثير الصلاة والصيام، له لسان محزون، وقول موزون، وفكر يجول فيما كان وما يكون.

(٢) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٨ العدد ٧ ص ٢١٤ (٢٥ شوال ١٣٣٩هـ)

(٢) أن يدعو والديه وأهله وأولاده بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن ذلك واجب عليه كما يجب عليه السعى في معاشهم.

(٣) أن يدعو جيرانه وعشراءه إلى الحق بالحكمة واللين، والدعوة بالعمل فوق الدعوة بالقول.

(٤) يجب أن يحرص على صحة الإخوان الروحانية بالتواضع وحفظ غيبتهم وستر عوراتهم وإيثارهم على نفسه، حتى يكون جسد فقراء آل العزائم صحيحاً سالماً من الأمراض.

(٥) يجب على كل طالب لله في طريقنا أن ينافس في تحصيل العلم في أعمال يعملها في خلوته من صلاة بالليل وصيام وتلاوة للقرآن وصلاة على النبي ﷺ وآله.

(٦) يتعين على آل العزائم من الأفراد أن يكون لكل فرد منهم سياحة روحانية يفتتحها:

أ- بالفكر في ألاء الله.

ب- في حكمة الأحكام الشرعية أو القدرية.

ج- باستحضار رابطة المرشد.

حتى يحصل له التجريد وترد عليه الواردات الرحمانية أو يقتبس قبساً من نور المشكاة المحمدية.

(٧) ليعلم كل راغب في رضوان الله ومبتغ فضله ورضوانه أن أكمل علامة لقبول الله تعالى وإقباله سبحانه: هي ما يجمل الله به المرید من الأخلاق الروحانية والأعمال السنية والصفات الملكوتية حتى يكون المرید صورة كاملة للمرشد الدال

على الله تعالى، وقد بينت تفصيل هذا المجلد في مؤلفات طبعت وأخرى تطبع إن شاء الله.

هذا وإنى موقن أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ومطمئن القلب أن الله سبحانه يهب لهذه الأمة قسطاً عظيماً مما وهبه لأولها معجزة لرسول الله، ونحن في زمان اشتاق إلينا رسول الله ﷺ وآله ﷺ بقوله عليه الصلاة والسلام: (واشوقاه لإخواني الذين لما يأتوا بعد..). في الحديث الطويل الذي رواه مالك بن أنس في الموطأ.

أخلاق الإمام وسيرته وتراثه الطيبة

- مقدمة فى الأخلاق
- ما من الله به من نعم على الإمام
- جملة من إخالق الإمام
- ❖ بره بوالديه ووصله للأرحام..
- ❖ رحمته، صفحه، كرمه، تواضعه، زهده
- سيرة الإمام فى مصيفه ببرج البرلس
- الإمام وزياراته لأولياء الله الصالحين
- الكرامة والاستقامة
- التراث العلمى للإمام (النشرى - النظمى)
- انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى

مقدمة فى الأخلاق

قال ﷺ وآله: (إن لله تسعا وتسعين خلقاً من تخلق بأحدها دخل الجنة). فقال أبو بكر: أفي صفة منها يا رسول الله. قال: بل فيك كلها يا أبا بكر (١)، أى أن سيدنا أبا بكر تخلق بأسماء الجمال الإلهى، وبأسماء الجلال الإلهى، عند المقتضى، فأكرمه ربه فتعلق بأسماء الكمال الإلهى.

ولا مجال أصلاً للمقارنة بين مقام الرسالة ومقام الصديقية، ولما كان سيدنا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه قال عنه رسول الله فيما يتعلق بأخلاق الله: (بل فيك كلها يا أبا بكر)، فما هو مقام رسول الله؟! إن شميم المقام تعجز عن أن تحوم حول حماء الأرواح فى صفاتها، وقد قال مخبراً: (أدبنى ربي فأحسن تأديبي) (٢) وقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (٣) ولا تمام إلا بعد الكمال، وأخبرت عنه السيدة عائشة رضوان الله عليها أنه: (كان خلقه القرآن) (٤) .

(١) أخرج ابن أبي الدنيا فى مكارم الأخلاق وابن عساكر وابن حجر الميشتى فى الصواعق المحرقة بلفظ: (خصال الخير ثلاثمائة وستون خصلة إذا أراد الله بعبد خيراً، جعل فيه خصلة منها بما يدخل الجنة. فقال أبو بكر: يا رسول الله أفي شيئاً منها، قال: نعم جميعها من كل) وأورد أبو يعلى وأبو داود عن سيدنا عثمان بلفظ: (إن لله مائة خلق وسبعة عشر خلقاً من أتى الله بخلق واحد منها دخل الجنة) .

(٢) هذا الحديث روى عن الإمام على بن أبى طالب، وحزم به ابن الأثير فى مقدمة النهاية، وقال ابن حجر: إنه غريب ولكن معناه صحيح، وذكره ابن السمعاني فى أدب الإملاء عن ابن مسعود، والسيوطى فى الجامع الصغير.

(٣) البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ

(٤) الإمام أحمد فى مسنده، وابن جرير وعبد الرزاق ومسلم وأبو داود والنسائى.

والجميع مطالبون في نص حديث رسول الله بالتخلق بأخلاق الله ليجزينا الله
الجزء الأوفى. وإن الورثة بأنواعهم كل قد ورث من المصطفى ﷺ وآله ﷺ على
قدر سعة ما عونه وما أهله الله له، أما الوارث الفرد الجامع وهو فرد وقته وإمام
زمانه المبعوث على رأس كل مائة عام ليجدد للأمة أمر دينها. فقد سار على نهج
حبيبه المصطفى كوراثته أكملية يهdy بالتى هى أحسن بأمر الله.

ويذكر لنا الإمام العلي ما ينتظر العبد الذى سار على هذا الدرب فأكرمه
سبحانه فى كبح جماح نفسه، وعرف نفسه فعرف ربه، ففتح له تعالى باب الأنس
والمشاهدات، فيقول مبيناً ذلك (١):

إن الله لا يحب من خلقه إلا من كان على خُلُقِهِ، ولا يُدْخِلُ فى جنته إلا من
تحصن بجنّته، ولا يخص بوداده إلا من جعله رحمة لعباده، ولا يرى ملكوته الأعلى
إلا لمن بالشفقة تحلى، ولا يتجلى ظاهراً للمراد إلا إذا سلم من شر العباد، ولا
تظهر أنواره سبحانه فى القلوب إذا تأثرت من خلقه بالعيوب، وكيف تتجمل
بالأنوار وقد خلعت عنها حلة الغفور الستار؟

حظيرة القدس لا تنال بالرياضيات والأعمال، لأنها نزل المقربين والأبدال، وإنما
تقرب القريب بأخلاق من تقرب إليه، وإنما يكون بدله إذا جملة بمعانيه ووصله،
وليس استحقاق الميراث بالعناء والإتعاب.. ولكنه بالمشاهدة والإنتساب، فأراح
بدنك من الوصب، وعليك بالنفس تتحلى بالحب، وانظر بعين بصيرتك حقيقة
رتبتك، فأصلك إما طين أو ماء مهين، ومن تحقق مبدأه اشتغل بشكر الله على ما
أولاه.

(١) مجلة (المدينة المنورة) السنة ٢٣ العدد ٧ ص٢ (١٤ صفر ١٣٧٠-٢٤ نوفمبر ١٩٥٠).

وقال عليه السلام: (عاشروا الناس معاشرة إن عشتهم حنوا إليكم وإن متم بكوا عليكم). والأخلاق الحسنة الحميدة وصفها الإمام بأنها إما أن تكون على الفطرة والسجية إلا من بعض الرعونات التي يستغفر منها العبد ويتوب فتكون سبباً لرفعة درجته عند الله، وإما أن تكتسب بالجهد وبالتواجد. يبين الإمام رضوان الله عليه ذلك فيقول (١) :

الأخلاق الحسنة إما فطرية أو تكليفية:

(١) الفطرية منها: تحصل لصفاء جوهر النفس، لأن جوهر النفس إذا كان نوراً يقبل الخير ويرد الشر، ويكون مجملاً بالرحمة والرأفة والعواطف والبر والإحسان فينشأ الإنسان محباً للخير وأهله معادياً للشر وأهله، شكوراً في الرخاء صبوراً في البلاء، يعفو ويصفح، ويؤثر أخاه على نفسه، ويجازى السيئة بالحسنة.. فيحبه الله والناس أجمعون، ويعيش الناس منه في سلامة وهو منهم في أمان إلا حسود للنعمة أو شيطاني الترفة وهذا المفطور على جميل الأخلاق: إن أعانه الله بمرشد كامل ورث أحوال الأنبياء ومنحه الله التخلق بأخلاقه العلية، وإن عاش في مجتمع فاسد الأخلاق حفظه الله من شرورهم وإن أفسدوا عليه حياته لمخالفتهم إياه في المعاملة، وهذا أشبه بسراج بين العميان.

(٢) أما المتخلق: فإما أن يكون تخلق خوفاً أو طمعاً:

(أ) - فالذي يخاف من السوط ويطمع في الدنيا فهذا قد يترك دينه خوفاً أو طمعاً، فيرتكب من الدنيا والسفاسف ما يتبرأ منه الحيوان الأعجم، فإن الحيوان لا يبالي أن يرفع صوته الدال على نوعه أمام أشرف الحيوانات، ولكن هذا المتكلف قد

(١) مجلة (الفتاح والمدينة المنورة) السنة ٣ العدد ٥ ص ٣٨ (شهر ذى الحجة ١٣٤٩ هـ).

يترك دينه الحق إذا خاف أو طمع، وقد يرتكب أكبر المنكرات إذا أمن جانب الخلق، وقد يضر أمة بأسرها إذا نال خيراً ولو من أعدى عدو لأمته، وهذا يراه الناس إنساناً مسلماً وهو في الحقيقة شيطان منافق. وعلاج هذا المرض سهل إذا يسره الله تعالى. قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ (١) .

(ب) - أما الذى يخاف من الله فهو من الذين أمنوا بالآخرة فطمعوا فى الجنة وخافوا من النار، فيسارعون إلى الطاعات للنعيم المقيم، ويتباعدون عن المعاصى خوفاً من الجحيم. وقد كلف الله العلماء أن يبينوا للناس طرق الخير وموارد السعادة لأنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ليحصل الطمع والخوف. وأهل النفوس الزكية يعلمون الأخلاق الحسنة لأنفسهم من الناس، فإذا أحبوا شيئاً من أعمال ومعاملات وأخلاق الناس عملوا بها، وإذا كرهوا شيئاً من ذلك تركوه.

والجتماع الإنساني مدرسة الصديقين، وكل إنسان يحب الفضائل والكمال الإنساني والعمل بها. وخير ما يتقرب به العبد خلق حسن يعامل به غيره، وفي الحديث الشريف (ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً) (٢)، الذين يألفون ويؤلفون. ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون الذين لا يألفون ولا يؤلفون) (٣) .

(١) سورة آل عمران آية ٧٣.

(٢) اللينة جوانبهم

(٣) الطبراني والخطيب البغدادي والترمذي وأحمد وابن حبان

والأخلاق الجميلة هي أخلاق رسول الله، وغيره هي أخلاق الشيطان. وكل مسلم يحب رسول الله ﷺ وآله ﷺ. يحتشد أن يتخلق بأخلاقه ولو تكلف ليكون من أهل معيته ﷺ وآله ﷺ.

تربي الإمام على ملازمة الاستغفار، فقد روى عنه (١) أنه كان كثير الاستغفار في صباه، وكان يحب العزلة والعبادة والاستذكار، وطلب العلم النافع وهو في سن مبكرة، وكان متواضعا لمعلميه فأحبوه، فأعطاه الله علم ما لم يكن يعلم. فطره الله منذ طفولته على الأخلاق الحميدة، فشهد له الكل بحسن الأدب فكان من ممن الله عليه أن فطره الله على صفاء جوهر نفسه، وفطره أيضا على الاستعداد للتلقى والمزيد، وأفاض الله عليه من مننه التي لاتعد ولا تحصى.

ولما بلغ أربعين عاما من عمره كان وقتها في الخرطوم بالسودان: قال (٢)

وأناب المحبوب لله يبغي	أن يرى الوجه حيث ولى جهارا
ذاك سر التجديد خمر طهور	قد يراه أهل القلوب مدارا
أنت يا نفس إرجعي وأنبي	وأسألى المنعم العلى الغفارا
قد بلغت أشدك (٣) فهلمى	فعساه فضلا يقيلا العشارا
قد مضت ثم أربعون أنبي	ربي أوزع عبداً ليعطى الجوارا
وأجرتى من ذلتى وذنوبى	أعطنى الفضل والرضا المدرارا
ورضا عنك بعد أن ترضى عنى	وامح عنى يا سيدى الأوزارا

(١) روت ذلك السيدة زينب الأخت الكبرى للإمام

(٢) جزء من قصيدة املها رضى الله عنه في ٢٤ ذى الحجة ١٣٢٦هـ .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (حتى إذا بلغ أشدة وبلغ أربعين سنة) الأحقاف آية ١٥ .

واعف عني وعافني يا إلهي أعطني الخير ربى والأنوارا
وافتحن لي الكنوز في كل آن واجعلنه فتحًا لنا وانتصارا
جددن لي العطا وبالشرع أحى منهج الفرد واخذل الكفارا

ما من به الله من نعم على الإمام

ولما بلغ ثلاثًا وأربعين عامًا أُملي كتابًا اسمه (أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ وآله) بدأه بمقدمة ذكر فيها المنن التي أنعم الله بها عليه فيما مضى من حياته، فحدث عنها من باب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١)، فهذه هي صفاته، وأخلاقه، وسيره وسلوكه إلى الله عز وجل متخلقا بأخلاقه وأخلاق نبيه الكريم، فقال: مما من الله به علي أن جعلني الله في طفولتي محبوبًا لوالدي وأهلي جميعًا، وأدام علي هذه النعمة إلى وقتنا هذا، فأشكره وأسأله المزيد.

ومنها أنه حفظني من أن أخاصم أحدًا أو يخاصمني أحدًا أو أن أسيء جليسي وإن أساءني، وأن أخطئه وإن أخطأ أو أكذبه وإن كذب، أو أواجهه بقبض وإن واجهني بحدّة، ولكنني الحمد لله أنتهز فرصة صفائه ثم أعظ بالمعروف أو ألوح مع الاحتياط .

ومنها أني أحب الخير لأهلي جميعًا وأقدمهم على نفسي مما هو خير في الدنيا، وأحب الخير لكل مسلم ولو كان مذنبًا، وأتألف العصاة وأشوقهم إلى الله تعالى وأحبهم إلى رسول الله ﷺ وآله وأتمنى لكل كافر أن يكون مسلمًا، وأبذل في ذلك مالي وجاهي.

(١) سورة الضحى آية ١١ .

ومنها حب أصحاب رسول الله ﷺ وآله، والاعتقاد أنهم أئمة حقاً وأن أعمالهم عن اجتهاد في دين الله وإخلاص في ذاته سبحانه وإعلاء لكلمته، وخصوصاً الأئمة الهداة من الخلفاء وبقية العشرة وأهل الصفة وبيعة الرضوان وبدر وأحد وكل من رأى وجه رسول الله ﷺ وآله مسلماً. وأحب أهل بيت رسول الله ﷺ وآله وهم في أرفع المراتب من قبلي بعد رسول الله ﷺ وآله، وأحب التابعين وكل السلف الصالح، ثم أحب كل مسلم لله تعالى ولرسوله ﷺ وآله ما دام قلبه معقوداً على التوحيد، وأكره أعماله التي تخالف سنة رسول الله ﷺ وآله مع حسن الظن بالله تعالى أن يغفر لكل من مات لا يشرك به شيئاً.

ومنها أن محبة رسول الله ﷺ وآله بلغت منى مبلغة حتى كاشفني الله ببعض معانيه ﷺ وآله الباطنة والظاهرة، وألهمني سبحانه جملاً في الصلاة عليه ﷺ وآله ومنها أنه سبحانه منحني الغيرة على السنة وتفضل على بجمال الحكمة، حتى كانت الغيرة لا تخرجني عن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتشويق عباد الله إلى القيام بأحكام الله بترغيبهم في عفو الله ورحمة الله وكشف ما أنعم الله به عليهم.

ومنها أنه سبحانه وتعالى من على بمعاني حقيقتي التي هي كمال العبودية، وألهمني بذلك حسن تملك وابتهاال وتضرع بعبارات ألهمنيها من أدعية وأحزاب واستغاثات من مكاشفتي رتبتي من الذل والفاقة والاضطرار والمسكنة.

ومنها أنه سبحانه وتعالى حبيبي في الفقراء وجعلني ذليلاً لهم محباً لمجالسهم نفوراً من مجالس أهل الدنيا والأمراء والرؤساء.

ومنها أن تفضل الله على بأن جعلني محبوباً عند أحبابه الطالبين لجنابه العلى،
مألوفاً للعباد العاشقين للعلوم النافعة.

ومنها أنه سبحانه من على بأن كثيراً من أهل المعرفة يقتدون بي في قولى وحالى
وعملى، ورفع ذكرى بين كثير من عباده وأنا الجاهل الفقير الضعيف.

ومنها أن الله تعالى منحني الفقه في كلامه العزيز وكلام نبيه الكريم، وعلماً
بطرق الأئمة ومعرفة النفوس.

ومنها أنه سبحانه من على بمواجيد عن عين اليقين في علوم اليقين من غوامض
علوم التوحيد وروح حكمة التشريع، ومن على سبحانه بالمعونة في أن آيين تلك
المواجيد بالعبرة وأضبطها بالكتابة ومن على سبحانه بأن أنعم علس بالمحبين له
سبحانه ولرسوله ﷺ وآله ﷺ فتلقوا عنى تلك المواجيد وهم كثير مع قلتهم.

ومن على بشقيقى السيد محمود، ومن على بأبى الحمائل وولدى محمود (١)
وإخوته (٢)، وقد تفضل فمن على سبحانه بأن حفظنى وحفظ أهلى وإخوانى من
شرور الأشرار ومن فتن الحساد ومن أذية الفجار، مما كان لا قبل لى به.

ومنها أنه سبحانه جعلني من الذين يألفون ويؤلفون، وحفظ على أوقاتي بأن
تصرف إلا في عمل في الدنيا لكفاف أو عمل يعينني عليه بتوفيق أظن أنه فيما
يرضيه.

(١) ربيب الإمام وابن أخيه السيد احمد

(٢) أولاد الإمام من صلبه: السيد احمد ماضى أبو العزائم، والسيد عبد الله ماضى أبو العزائم، والسيد محمد الحسن ماضى أبو
العزائم.

ومنها أن نفسى كلما تاقت إلى معصية صغيرة أو كبيرة منعنى الله تعالى عنها وحفظنى منها بهداية منه وتوفيق.

﴿وَأِنْ نَعَدُ وَإِنْعَمَ اللَّهُ لَا تُخْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: ١٨ .. أشكره على من لا تفى بها العبارة ولا تعينها الإشارة مما هو له ولست له أهل إلا بفضل الله ورحمته. وأسأل الله تعالى أن يجازى عنا نعمته الكبرى علينا وفضله العظيم لنا: سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله ﷺ خير الجزاء بصلاة ذاتية وتحيات ذاتية وتسليمات ذاتية، وعلى آله وصحبه وورثته وسلم.. والله أعلم.

ومن وصايا الإمام التى نتعلم منها منهجاً خاصاً بالأخلاق والتخلق بأخلاق الله تعالى وأخلاق رسوله ﷺ وآله ﷺ ينصح الأمة ويوصى فيقول (١):

أصحاب رسول الله هم الأئمة الذين بالتشبه بهم تكون النجاة ونيل الفلاح والرضوان الأكبر فى الدنيا والآخرة. ومعلوم ما كانوا عليه قبل بعثته ﷺ وآله ﷺ من قساوة القلب وسوء الأخلاق وشح النفوس وعبادة الحظ والهوى واتباع خطوط الشيطان، مما كان راسخاً فى طباعهم منقوشاً على قلوبهم، يقتل الرجل منهم ليحافظ على أرذل رذيلة وقد تأخذه حمية الجاهلية لكلمة يسمعونها فيقتل أكثر القبيلة، حتى أكرمهم الله تعالى بإشراق تلك الشمس المحمدية، فبدلت تلك الرذائل بالفضائل، فتخلقوا بأخلاق رسول الله ﷺ وآله ﷺ وتشبهوا به صلوات الله وسلامه عليه تشبهاً جعل كل واحد منهم صورة كاملة طبق الأصل، حتى كان الرجل منهم رضى الله عنهم يسأل عن أعماله ﷺ وآله ﷺ الخصوصية فى خلوته وقضاء حاجته ونومه وكيفية ذلك مما لم يتمكنوا من شهوده. وبلغت بهم المحافظة

(١) مجلة (المدينة المنورة) السنة ٩ العدد ١٢، ١٣ (٢١، ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ الموافق ١٦، ٢٣ نوفمبر ١٩٣٦).

على التشبه به ﷺ وآله ﷺ مبلغاً به يرون من يخالفه ﷺ وآله ﷺ ولو في حركة الجسم أو في كيفية الأكل والشرب واللباس منافقاً - وهو مشهد أهل العزائم - ومأخذهم في ذلك قوله تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (١) . وقد طالبنا الله تعالى بما طالب به رسله عليهم الصلاة والسلام في كتابه، فيرون عمله ﷺ وآله ﷺ بحسب مراتب السنة والتشبه به ﷺ وآله ﷺ واجباً أو كالواجب.

لا تسأل كيف بدل الله تلك السيئات بالحسنات وكيف رقاها إلى أن صاروا مع رسل الله وأنبياء الله تفهم يا أخى قدر مجاهدتهم لأنفسهم وقهرهم لها على الممارسة إلى التشبه برسول الله ﷺ وآله ﷺ وبذلهم النفس والنفيس في نبيل هذا المقام العلى، حتى اقتطعهم الله لذاته العلية، وأشرف بهم على قدس عزته وجبروته، وأشهدهم ملكوت السموات والأرض مشهداً جعل الدنيا في أنفسهم كجناح البعوضة أو أقل وكذلك أهل العناية من الله تعالى السالكون سبيله سبحانه وتعالى الراغبون فيما عنده، يهب الله لهم مواهب فضلة العظيم ويوردهم الله مواردهم الهنية، فيقهرون أنفسهم قهراً على التشبه بأصحاب رسول الله ﷺ وآله ﷺ بوجد صادق وعزيمة ماضية وهمه إسلامية، حتى يبدل الله سيئاتهم حسنات، فيكونون أبدال أنبياء الله عليهم السلام وورثة لرسول الله ﷺ وآله ﷺ وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ويبلغ به حرصهم على التخلق بأخلاق الله تعالى والتشبه بأصحاب رسول الله ﷺ وآله ﷺ مبلغاً يكون السقوط في النار عند أحدهم أحب إليه من مخالفة الله سبحانه ومخالفة رسوله ﷺ وآله ﷺ.

(١) سورة آل عمران آية ٣٠.

لا تظن يا أخى أن الإنسان يفارق بشريته أو يخرج من حظه وهواه، فإن الهوى والشح والرأى لا تفارق الإنسان مهما كمل في نوعه وأقبل بالإخلاص على ربه.. إنما هى مشاهد قدسية من عين اليقين أو علم اليقين تجعل المؤمن لا يطيع شحه (وإن دعاه موجب قاهر) ولا يتبع هواه (وإن بعثه عليه مقتضى دافع) ولا يعجب برأيه (وإن عظم في نفسه وعند غيره) . والعبد المؤمن لا ينفك جهاده نفسه في ذات الله، لأنها أعدى عدوه ولها دسائس أخفى من ديب النمل على الصخرة الصماء في الليلة السوداء ويسعر نار طبعها العدو إبليس بلمته عليه لعنة الله، ولا يزال يجاهد غيره في الله تعالى وفي رسول الله ﷺ وآله ﷺ لأنه مطالب بهذا الحق لكل مسلم أمام ربه جل جلاله الذى يكون قاضيا، وأمام رسوله ﷺ وآله ﷺ الذى يكون شاهداً، فإن أهمل في ذلك كان تحت رحمة الله إن شاء رحم وغفر وهو الغفور الرحيم.

ومن ظن أنه تجاوز مقام الجهادة لنفسه ظن شراً، ولا تنتهى مجاهدة المسلم نفسه إلا عند الغرغرة (الوقت الذى لا ينفع فيه عمل) أو إذا سلب العقل الذى به التكليف. قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف: ٩٩ ، فدواعى الشح والهوى والرأى سور من حديد محاط بكل إنسان يكاد يمزق أعضاء الإنسان إن لم ينفذ مقتضاه لولا عصمة الله تعالى للمسلم لهوى به شحه وهواه ورأيه إلى الخطمة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ آل عمران: ١٠١، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ آل عمران: ١٠٣، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ التغابن: ١٦ ، فالرأى والهوى والشح لوازم الإنسان، إنما القبيح فيها أن ترى شحاً مطاعاً وهوى متبعاً

وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فإذا رأيت ذلك يا أخى فى الناس فجاهد نفسك أعانك الله كل المجاهدة أن تفارقهم وإن كنت معاشرهم وأن تخالفهم وإن كنت فى الظاهر توافقهم مداراة عن عرضك ونفسك.

واخذر يا أخى أيدى الله وإياك أن تتخذ هواك إلهًا يعبد من دون الله، أو تجعل رأيك تعمل به دون سنة رسول الله ﷺ وآله، أو تطيع شح نفسك مخالفًا لوصايا الله سبحانه ووصايا رسوله ﷺ وآله فإن ذلك هو النفاق العلمى العلمى نعوذ بالله من النفاق واعلم يا أخى ودنى الله وإياك بوجه أن مراد الحق منك هو عين السعادة الحقيقية لك، وبه نيل رضوانه الأكبر إذا وفقك للقيام به فضلًا منه وكرمًا، وإنه لم يوفق الله الإنسان - نعوذ بالله نت حرمان التوفيق - وعمل بمواه من وشحه ورأيه، كان ذلك دليل غضب الله على الإنسان: أعوذ بوجهه الجميل من غضبه.

فابحث يا أخى - هداى الله وإياك صراطه المستقيم - عن آثار اصحاب رسول الله ﷺ وآله وأخلاقهم وأحوالهم وأعمالهم، وجاهد نفسك كل المجاهدة أن تشبه بهم حتى تكون صورة كاملة ينظر الله تعالى إليك، ويقبلك رسول الله ﷺ وآله، وتكون من أهل معيته الذين وصفهم الله وأثنى عليهم فى آخر الفتح.

وإياك يا أخى أن تقلد غير أصحاب رسول الله ﷺ وآله وما رأيت يا أخى من بعض الرجال الذين أكرمهم الله فى كل عصر بعد أصحاب رسول الله ﷺ وآله فاعتقد أنه فضل من الله خاص بمن تفضل الله به عليه، وأن العبد الصالح الذى اقتطعه الله إليه فأفناه عن نفسه وحسه حتى سلب القوة التى بها التكليف ليس إمامًا للمتقين ولا قدوة للسالكين ولكنها مشاهد روحانية قد تمزق غلاف القلب، فأكرم من رأيتهم بهذا الحال، وسل الله لك ولهم الكمال ولا

تقلدهم فإن تقليدهم كفر وقد عمت المصيبة حتى صار بعض السالكين يقلدون من غلبت محبته حتى محقت مكانته البشرية في نظره هو وحجبت حقيقته الآدمية فصار لا يميز بين تعسه وشرف وفقر وغنى، حتى استوى في نظره المؤلم والمليذ لاستغراقه في شهود الملكوت، وتقليد هذا مع التميز والإدراك إتباعاً لخطوات الشيطان وبعد عن موارد الإحسان ومخالفة لسنة النبي المختار ﷺ وآله

فعليك يا أخى - منحى الله وإياك المسارعة إلى مغفرة من الله ورضوان أن تبذل مافى وسعك فى البحث عن الرجل الدال على الله، الموصل إلى حظيرة القدس، المبين لسبيل الله، الممد من روحانية رسول الله، العارف الربانى الإنسان الكامل فى ظاهره وباطنه، الذى هو محل نظر الله من خلق الله.. فإذا ظفرت به فاحرص على التشبه به بقدر استطاعتك، وتحسس يا أخى بكل ما فى وسعك عنه فى سر وعلانية، وتحسس عنه يا أخى فى جلوته وخلوته، ونافس يا أخى فى أن تكون صورة كاملة له فإن من الله عليك بعظيم فضله وسقاك ظهوره المقدس فى الوادى المقدس، فى مقام تكون معه ويكون سبحانه معك، فجاهد نفسك أكبر المجاهدة فى ذات الله لتكون أنت حقيقة الرجل حتى تفنى فيه فناء تكون أنت هو، ولديها يا أخى تكون كوكباً مضيئاً فى سبيل الدلالة ونوراً مشرقاً فى سبيل الهداية.

وقبل أن تصل إلى هذا المقام فاجعل كل همتك فى مجاهدة نفسك فإنها والله يا أخى أعدى عدوك وأكبر خصومك فإذا تخلقت بأخلاق الله وتشبهت برسول الله ﷺ وآله فجاهدها كل المجاهدة على شكر نعمى الله التى لا تحصى. وأكثر من السجود فى جوف الليل ومن المسارعة إلى نفع إخوانك المؤمنين بنفسك ومالك وجاهك إن استطعت وأعانك الله أو بفضلها على قدر استطاعتك أعانى الله وإياك يا أخى بروح منه.

ومتى تخلقت بأخلاق الله وتحملت بالتشبه برسول الله ﷺ وآله ﷺ كنت مع الله وكان الله معك فجبر كسر قلبك وجعله بيتاً معموراً به سبحانه، فتشرق أنواره القدسية من منافذ هيكل ذاتك الإنسانى، فيجعل الله لك يا أخى نوراً فى لسانك وفى عينيك وفى أذنك وفى يديك وفى رجلك وفى أنفك وفى بطنك وفى فرجك، ثم يجعلك كلك نوراً، فتكون كما قال الله تعالى: ﴿فَأَيُّمًا تُولُؤُا فَشَمَّ وَجْهَهُ اللَّهُ﴾ البقرة: ١١٥ وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور: ٣٥..... إلى أن قال ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، فيواجهه النور الإلهى الحقى النور العبدى الحقى كما قال تعالى: ﴿وَجْهٌ يُؤَمِّدُ نَاصِرَةً إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة: ٢٢- ٢٣ ، وفى هذا المقام تقوم فيه قيامة العبد المؤمن وهو حي يمشى فى الناس كما قال تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الأنعام: ١٢٢ ، وكيف لا والعبد تخلق بأخلاق ربه وتحمل بجمال التشبه بحبيبه ومصطفاه ﷺ وآله ﷺ.. هذا العبد والله هو الشمس التى تضىء ملكوت الله الأعلى، والنور الذى تستمد منه الملائكة الكرام، وصورة الرحمن وآية البيان. فسارع يا أخى إلى تلك المقامات العلية ولا تحجبك عنها حظوظ نفسك الدنية وزينة تلك الدار الفانية، فإنها هى الحجب الظلمانية، عصمنى الله وإياك يا أخى من الناس، وأعاذنى وإياك من الوسواس الخناس، وفتح لى ولك أبواب فضله العظيم، وأعاذنى وإياك بوجهه الكريم من موجب النقم.. إنه مجيب الدعاء. إن الإنسان قابل لأن تنوع أخلاقه، وبينت ذلك فى كتاب (أصول الوصول لمعية الرسول) وكتاب (معارج المقربين) وكتاب (النور المبين) وغيرها، وأقمت الحجة على ذلك فلا حاجة لإعادتها.

ولما كانت الأخلاق تتغير من سيئة إلى حسنة، ومن قبيحة إلى جميلة، ومن رذيلة إلى فضيلة.. كل ذلك بمجاهدة النفس وقهرها على أنواع التزكية وتناول الأدوية المزيلة لأعراضها من يد الطبيب الروحاني العارف الرباني العالم بأمراض النفوس وأسقامها وعللها، الذي منحه الله حكمة الشريعة وأسرار أحكامها، وجعل له بصراً يبصر به فكان من المتوسمين، فإذا أراد الله بعبد خيراً من عليه بهذا العارف الرباني ومنحة التسليم له فأورده موارد الصفا وسلك به مسالك القرب وعلمه مما علمه الله رشداً حتى يعرف نفسه فيعرف ربه، ومتى عرف نفسه وعرف ربه شهد من نعم الله التي لا تحصى ومنته التي لا تستقصى ما يجذبه بكليته إلى ربه فيحب الله حباً يشغله عن كل ما سواه ومن سواه، ويسارع إلى محاب الله ومراضيه فيظهر له أن الله سبحانه وتعالى يحب أخلاقه القدسية وصفاته العلية التي بها القرب منه سبحانه والوصول إليه جل جلاله، فيسارع بحول من الله وقوة لأنه عرف نفسه أنه من طين لازب وأن مازاد على الطين فهو فضل الله ونعماءه، فيقف عند حده معتقداً أنه من طينة أو ماء مهين ويشهد بقية الجمال الذي جملة الله به من الله والله، ثم يشهد ما حوله من نعم أحاطت به وأنواع سخرت له من أرض وسماوات ومعادن ونباتات وحيوانات وما بين ذلك من ملائكة وجنات ونعيم وخيرات، كل ذلك مسخر له من الله فضلاً منه وكرماً لا لعمل عمله إذ لا حول ولا قوة إلا بالله. وهل للماء المهين في القرار المكين حول أو قوة؟ تتره ذو الجلال والإكرام عن أن يكون لأحد عمل سواه، أو يكون لأحد نعمة أو منة غير الله تعالى المنعم المتفضل الوهاب الكريم، فيحب العبد المؤمن أخلاق الله تعالى، ويجاهد نفسه وهواه بمجاهدة قاهرة على أن يتخلق بتلك الأخلاق المحبوبة لحبيبه ومولاه الذي من طينة أنشأه وسواه ومن ماء مهين صورته سبحانه، وبفضله العظيم والاه. وتقوى عواماً محبته

حتى تقهر بشريته وتضعف شهوته ولديها يمكنه أن يتخلق بالأخلاق الربانية، ويتشبه بحبيب الله، ومصطفاه ويكون من أهل معيته المحمدية الذين أثنى الله عليهم.

ليس الأمر بصعب على من يسر الله له الخير، فإن الله جل جلاله له أخلاق جمالية يعامل بها سبحانه من يحب، وأخلاق جلاله يعامل بها من يكره سبحانه الرؤوف الرحيم الحليم الكريم المنعم المتفضل القريب المحيب الحنان المنان، وهى الأخلاق التى يعامل بها جميع خلقه فى الدنيا. قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ البقرة: ١٢٦ ، ثم يختص المؤمن بهذا الفضل العظيم يوم القيامة، فاشترك المؤمن والكافر فى رحمة الله فى الدنيا لتكون له الحجة على جميع خلقه يوم القيامة وليظهر سر قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف: ١٥٦ فى الدنيا لأنها سبقت غضبه وقد خصصها للمؤمنين يوم القيامة بدليل قوله تعالى : ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الأعراف: ١٥٦، فهو سبحانه القهار المنتقم شديد البطش القوى المذل المانع الضار، وهى الأخلاق التى يعامل بها من يكره. فالمؤمن المتخلق بأخلاق الله يجمله الله بالرافة والرحمة والعفو والسماح والشجاعة والكرم والعفة والحنان والعطف والود والفضل والعلم والحلم والشفقة، فيعامل بها أحباب الله أهل الحق معاملة لله، ويجمله الله بأن يجعله متصفاً بالقهر والجبروت والقوة والانتقام يعامل بها أعداء الله معاملة لله، فيضع كل خلق من أخلاق الله فى موضعه، فيكون ذليلاً متواضعاً مسكيناً لأهل الحق مع الرأفة والرحمة والشفقة، وبذل ما فى يده معاملة لله ويكون قوياً شجاعاً شديداً مع أعداء الله حباً فى الله وتخلقاً بأخلاق الله.. وبذلك يكون العبد متخلقاً بالأخلاق الربانية محباً لله محبوباً لله. فإذا رأيت فى نفسك هذا فاشكر الله تعالى، وأعلم أن الله أورد عليك من مواهبه العلية ما لا قبل لك أن تناله ولو عمرت الدهر

وَصَرَفْتَ أَنْفَاسَكَ وَحَرَكَاتِكَ فِي قُرْبَاتٍ، وَشَتَانٍ بَيْنَ مَا يُوْرِدُهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَمَا تُوْرِدُهُ
أَنْتَ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَنْتَ يَا مُسْكِينَ وَمَا عَمَلُكَ؟ وَإِنَّمَا الْوَارِدُ مَا يَرِدُ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ
لَا تُرِدُهُ أَنْتَ عَلَى مَوْلَاكَ فَأَنْتَ يَا مُسْكِينَ إِنْ شَهِدْتَ عَمَلُكَ أَشْرَكَتَ بِرَبِّكَ
وَكَفَرْتَ بِوَحْدَةِ الْأَفْعَالِ، وَإِنْ عَمَلُكَ الَّذِي تَعْمَلُهُ يَجِبُ أَنْ تَشْهَدَهُ وَارِدًا مِنَ اللَّهِ،
فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُوقِفَكَ أَمَامَهُ مُوَاجَهًا لَهُ فِي صَلَاتِكَ أَقَامَكَ وَوَاجَهَكَ، وَإِنْ
أَحَبَّ أَنْ تَتْرَكَ شَهْوَتَكَ لَهُ بِالصُّومِ وَفَقِكَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُجْعَلَ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِهِ
وَقَلْبُكَ مُشْرِقًا بِنُورِهِ أَعَانَكَ وَوَهَبَ لَكَ، فَاحْذَرِ أَيُّهَا السَّالِكُ أَنْ يَكُونَ فَرَحُكَ
بِعَمَلِكَ أَوْ اعْتِمَادُكَ عَلَى عَمَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ حِجَابٌ سَمِيكَ حِجَابُ السَّالِكِينَ
وَأُوْرِدَهُمْ مَوَارِدَ الْبَعْدِ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَاحْذَرِ يَا أَخِي أَنْ تَعْمَلَ عَمَلًا لَتَنَالَ حَظًّا
عَاجِلًا أَوْ نَعِيمًا آجِلًا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ عِبَادُ الْأَكْوَانِ، وَمَكُونُ الْأَكْوَانِ هُوَ الْمَقْصُودُ
لِلْمُقَرَّبِينَ وَخَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ.

إِنَّ لِلْعِبَادَةِ يَا أَخِي آيَاتٍ تَظْهَرُ لِلْعِبَادِ وَأَسْرَارٌ تَلُوحُ لَهُمْ فَيَقِفُونَ عِنْدَهَا فَتَكُونُ
عِبَادَتُهُمْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ لَا لَعْلَةٍ، وَرَزَقْنَاكُمْ لَا
لَعْلَةٍ وَلَا لَغَرَضٍ، وَصَوَّرْتَكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ وَقَبْلَ ذَلِكَ أَنْشَأْتَكُمْ مِنَ الطِّينِ، وَسَخَّرْتَ
لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ فَضْلًا مِنِّي وَإِحْسَانًا عَلَيْكُمْ، فَلَمْ جَعَلْتُمْ عِلَّةَ
لِعِبَادَتِي وَلَمْ تَخْلَصُوا لِدَاتِي؟ أَفِي حَاجَةٍ أَنَا إِلَى عِبَادَتِكُمْ إِيَّايَ؟ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلِي الَّذِي
أَنْزَلْتُهُ عَلَى حَبِيبِي ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ الزمر: ٣؟ أَنَا الْغَنِيُّ عَنْكُمْ الْمُتَفَضِّلُ
عَلَيْكُمْ، أَخْلَصْتُ لَكُمْ فَضْلِي بِلَا عِلَّةٍ، وَوَهَبْتُ لَكُمْ نَعْمَتِي بِلَا غَرَضٍ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ
الْمُضْطَرُّونَ إِلَى جَنَابِي، كَيْفَ تَشْرَكُونَ بِي غَيْرِي فِي طَاعَتِي وَعِبَادَتِي؟.. لَدَيْهَا وَاللَّهُ
تَذُوبُ الْقُلُوبِ وَيَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ تَرَابًا لَوْلَا عَوَاطِفُ رَحْمَةِ الرَّعُوفِ الرَّحِيمِ
وَوَاسِعُ مَغْفِرَةِ التَّوَابِ الْكَرِيمِ. فَأَخْلَصْ يَا أَخِي الْعِبَادَةَ لَوَجْهِ اللَّهِ، وَاعْلَمْ بَعْدَ ذَلِكَ

أنك لو سألته لبك ولو ناديتيه لاستجاب لك وأعطاك، وهو اللطيف الخبير الكريم
الفاعل المختار لما يحب ويشاء ويريد، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون. إ هـ
إن الذى اقنع الناس بإمامة أبى العزائم وأنه الحجة وأنه الوارث الكامل لهذا
العصر، وأنه الرجل الذى كان ينتظره الرجال ليتكملوا على يديه .. ما تخلق به من
الأخلاق النبوية . انه نعمة كبرى أنعم الله بها على أهل هذا العصر، ولذلك فإن
الحديث عنه هو أيضا حديث عن الدين، به علمنا الأخلاق الحميدة، وبقيت عندنا
نغماته العذبة التى كان يشدو بها .

ومثال الرجال الذين تكملوا على يديه وتعلموا منه الأخلاق الحميدة الشيخ
محمود أبو على وكان من رجال الليل وقطاع الطريق، ولكن الإمام انتشله من
كمينه وتاب على يديه فى نفس اللحظة. يحكى الشيخ عن نفسه فيقول: تمت هذه
الليلة وأنا هائم فى حب الإمام، تلك الصورة التى أغرقتنى فى بحار النور، ولا زالت
رائحة الإمام الطيبة أشمها وأنا نائم، فرأيت أننى أسير من خلفه إلا أن خطوته طويله
وأنا أجرى وراءه بسرعة لألحق به، فكنت أسير على مدى الرائحة الطيبة التى
عرفتها فيه إلى أن وجدت أنه اتجه إلى شاطئ بحر وأنا بعيد عنه، فصرت أسرع
المسير إلى أن وصلت إلى الشاطئ فلم أجده، ووجدت شخصا وقورا واقفا فقلت
له يا سيدى أين أبو العزائم ؟ فقال لى: ومن أنت حتى تسأل عنه؟ قلت لقد كنت
معه الليلة وبايعنى وأحببني، فقال: يا ولدى كلنا وقفنا عند هذا المقام ولا يدري
مقام ابو العزائم إلا أبا العزائم .. أنا عبد القادر الجيلانى .

فإذا كان سيدى عبد القادر الجيلانى الذى اجتمع فى درسه أكثر من ثلاثمائة
شخص فى بغداد، وكان يتحدث بصوت رخيم فيسمعه الكل، فعطس مرة، فلما
شمته الكل اهتزت بغداد، فاستيقظ أمير المؤمنين وقال: ماذا حدث؟ قالوا: عبد

القادر الجليلاني عطس فشتمته أولاده، فقال أمير المؤمنين: فماذا لو غضب؟. ولا نركى أحدًا على الله، فهو أحد كبار الأقطاب وأحد كبار الأولياء وأحد أصحاب الفضل على الطريق، والإمام أبو العزائم أعطاه الله من النعمة ما فاق الجليلاني، فالإمام مقامه فوق البحر وما دونه على الساحل (١).

وقد وصف الإخوان الإمام وعددوا مناقبه في كثير من القصائد، وكانوا يلقونها على مسامعه في المناسبات والاحتفالات الدينية، أو يرسلونها إليه بالبريد، وهى ملاءى بالمديح وإظهار الشمائل، وبعد انتقاله عليه السلام قال فيه الإخوان قصائد كثيرة. ومن الأوصاف التى وصف بها الإمام ما كتبه الشيخ أحمد سعد العقاد مقدمة لكتاب عن الإمام:

اعلم أن المتحدث عن أبى العزائم عليه السلام إنما يتحدث على قدره لا على قدر إمامه، وكما ورد فى الأثر أنه لا يعرف الولي إلا الولي ولا يعرف النبي إلا النبي وما عرف الله إلا الله.

شمس تضىء لعاشق وموالى	تهدى المريد إلى سبيل كمال
كثر ثمين للسعادة والتقى	للمراغبين وخيرة الأبدال
لكن على قدرى أقول موضحاً	ما لاح لى من ظاهر الأحوال

اللهم لك الحمد، حمداً يوافي نعمك ويكافئ مزيدك، سبحانه لا نخصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أشرقت أنوار شمس وجودك على الممكنات، فظهر كل منها فى مرتبة من مراتب المكونات على حسب استعدادده لقبول تجلّى

(١) رواها الشيخ نصر العقاد سماعاً من الشيخ محمود أبوعلى.

الذات، والأسماء، والصفات. ونسألك اللهم أن تفيض أكمل رحمتك وأفضل صلواتك وأزكى تسليماتك على عرش تجلياتك أول التعيينات: العقل الأول، الحقيقة المحمدية، نور الأنوار، معدن الأسرار، باب أبوابك وعلى آله وأصحابه الناهجين فوجه المتبعين سبيله وسلم تسليمًا كثيرًا وبعد:

فأستاذنا الفاضل العالم العامل، الإنسان الكامل، مربى المريدين، مرشد السالكين إمام المهتدين، قدوة المقربين، تاج الواصلين، مقوى دعائم الدين، مجدد آداب السلف الصالحين، فاتح أقفال غوامض معاني إشارات المحققين، كاشف أستار أنوار أخبار العارفين، موضح مشكلات رموز عبارات أهل التمكين، واسطة تمام نظام عقد أهل اليقين ربحان طريق هداية السالكين، ذروة سنام علا مجد المتقين، مسك ختام سير أهل اليقين، حيلة الخائفين، زينة الخاشعين، ثمرة المتواضعين، لب المراقبين، مركز دوران رحى الجمد، قطب فلك سماء الوفاء بالعهد، نور شمس معالى الوقوف عند الحد، ضياء قمر سير السلف، نجم هداية سلوك طريق الخلف الذى أقامته العناية الربانية متبعًا للكتاب العزيز والسنة النبوية، صاحب الأخلاق المحمدية، المنعوت بالأوصاف الأحمديّة، المعروف بالشمائل المصطفوية، حاوى الفضائل الملكية، جامع الأخلاق والأفعال المرضية، مظهر الأسرار اللاهوتية مجرى فيوضات الأنوار القدسية، مهبط تترلات النفحات العلية، منبع العلوم اللدنية معدن واردات الإلهامات الودودية، كثر التحقيقات بدقائق الأفهام الذوقية، تيار بحر عوالى المكاشفات الجليلة كهف غوالى علوم الحقائق بالوراثة النبوية، سر نجاح السادة العزمية، خاتمة دولة ولاية الأكابر الصوفية، محمدى البشارة والندارة العمومية، عيسوى الإنجذابات بالإنعطافات الربانية، موسوى التجليات بطور المناجاة القلبية، يوسفى المكافآت بالمقابلات الإحسانية، يعقوبى الثبات عند الإختبارات الجبروتية،

أيوبى الإصطبار على بليات المظاهر الجلالية، إبراهيمى التسليم للتقديرات الأزلية،
يونسى حمايات بالعنايات الرحمانية، خضرى الاختصاصات بالهبات الإلهية،
صديقى النصائح وصفاء الطوية، عمرى التفريق بين الحق والباطل فى الأمور
الدينية، عثمانى المراقبة والحياء من رب البرية، علوى الهمة فى مقاتلة كفار الأغيار
والشهوات النفسية، مالكى المذهب تأدباً مع بلوغة الدرجة الإجتهدية، خارق
سفينة حسه، قاتل غلام نفسه مقيم جدار كنوز قدسه، ناصب الأقدام ليلاً والناس
نيام لإدراك أنسه، مرآة النجاح، مرقاة الفلاح، طبيب الأرواح، مزيل الأتراح، مدير
القداح، ساقى صافى الراح، صاحب الكرامات العديدة والعلوم المفيدة والآراء
السديدة والإشارات الرشيدة، السيد الشريف الحسينى الحسنى حسباً ونسباً، سيدى
محمد أبو العزائم عليه السلام .

وفى قصيدة ميمية أسمها الدرة البهية، نهج: بردة خير البرية، قال تحت عنوان:
أكبر نعمة فى الزمان وجود العارف المتخلق بالقرآن

الله أكبر.. فضل الله أسعدنا	بواصل كامل فى الذات والشميم
طيبينا وإمام العصر حجتنا:	ماضى العزائم بدر لاح فى الظلم
يا من يعانى جهاد النفس فى شغف	إلى الحبيب بجرح غير ملتئم
أبشر وبشر وبادر صادقاً لترى	وراثة المصطفى لاحت على علم
كلامه سلسيل قد تفجر من	عين الحياة بفيض غير منقصم
شفاء نفس: صفاء القلب بهجته	غذاء روح.. دواء الجسم من سقم
دع التعصب وانظر فى مواهبه	وفر من عقبات النفس واقتمح
واخلع نعال الهوى بالله معتصماً	فحزب ربك يعلو غير منهزم

وقد قيل يوماً لسماحة السيد أحمد ماضى أبو العزائم فى عهد خلافته للطريق:
(بارك الله لنا فيك يا سيدى). فقال: (بارك الله لنا فى أبى العزائم) .

إنها كلمة طيبة نردها ونذكرها، بل ويذكرها كل المسلمين فى أنحاء المعمورة،
فما من مسلم يصلى إلا ويقول: وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد
كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إن البركة قائمة وموجودة
وظاهرة وواضحة فى الإمام أبى العزائم فرع العترة الزكية وسليل أهل البيت،
وسرت فى ذريته بارك الله فيهم أجمعين، لأن الحديث القدسى يقول: (إني إذا
أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وبركتى لا نهاية لها، وإني إذا عصيت غضبت
وإذا غضبت لعنت ولعنتى تصل إلى السابع من الولد)، فلما كان الإمام من الذين
رضي الله عنهم ورضوا عنه، حلت البركة فيه، وسرت هذه البركة حتى عمت
أولاده بل وكل محبيه.. بل وكل من رآه، وكيف لا .. وعين رأت رسول الله
ﷺ وآله ﷺ لا تمسها النار، قال الإمام ﷺ: يد صافحت يدى لا تخيب^(١)، لأنها
صافحت يد الصورة الكاملة المبشرة المذكرة الحية لنور رسول الله
ﷺ وآله ﷺ فى هذا الزمان.

وقال فيه أحد مريديه:

قدست مملكة البيان وحطها^(٢) بسياج شرع للكتاب مؤيد
فجرت ينبوع المعارف للذى لولا دعائك بالتي^(٣) لم تهتد

(١) أى سلمت سلام التسليم

(٢) أى وحوها

(٣) الآية: (ادفع بالتي هى أحسن)

وأعدت نهج الصالحين ذو التقوى في عصر جهل للعلوم ملبد
وفتحت كترًا كان سرًا غامضاً قبل التلقى من علومك سيدي
تنقلت كالشمس في معراجها يهدي سناها للسبيل الأرشد
فالزم حمى القطب وكن متأدباً وارع العهود وواله وتودد
وتلقن العلم اللدني الذي مازال يفتح كل باب موصد
من حضرة قد فاح طيب عيرها فإذا ظفرت به، فطف وتبعد

ولما سأل سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن أوصاف الولي، أسهب في ذلك ومما قاله في صفات الولي وأخلاقه:

الخوف مقامه، والذل حليته، والرغبة باطنه، والرغبة ظاهره، والحيرة رداؤه، والصبر أنيسه، والرضا رفيقه، والشكر زاده، والثقة كثره، والفكر طريقه، والتسليم مذهبه، والتواضع رفعته، والفقه منهجه، والصدق ضالته، والإخلاص مراده، والسيد ﷺ وآله ﷺ مقصوده، والله سبحانه معبوده، والشكر ذكره، والدعاء عمله، وما يقرب إلى النار عدوه، وما يقرب إلى الجنة أليفه، وبروالدين سروره، وصلة الرحم حبوره، وإدخال السرور على عباد الله وصوله، والرحمة بخلق الله تعالى خطوته، والقرآن الكريم خلوته، والحضور بقلبه مع الحق سبحانه جلوته.

وقد اتصف بها الإمام، ومنح المزيد من ربه، فأخلاقه هي إنعكاس من أخلاق رسول الله ﷺ وآله ﷺ على مرآة قلبه وجوهر نفسه، وهكذا يكون كل ماض أو من يحب ماضياً.

وسوف نحوم هنا حول بعض هذه الأخلاق، لأن أخلاقه الطاهرة لا تنكشف إلا لذوى الأرواح القدسية كان ﷺ مجبولاً على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته

الزكية النقية ولم يحصل له ذلك بريضة نفس بل بجود إلهي، وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل، لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل، والعقل أمر روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية.

جملة من أخلاق الإمام بر الإمام بوالديه ووصله للرحم

إن الأرحام هم أقرب طريق إلى الجنة بل إن الله عز وجل يغلق أبواب الرحمة أمام قاطع الرحم.

جلس سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه يحكى للصحابة عن الأحاديث التي سمعها من رسول الله ﷺ وآله وكان الجالسون أكبر الصحابة والتابعين وكثير من شبابهم، فالتفت وقال: ليخرج من جلستنا قاطع الرحم، فقام شاب وقال كيف عرفت ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ وآله: (لا تنزل الرحمة في مجلس فيه قاطع) (١) قال الشاب: صدق رسول الله، والله لقد أغضبت أمي اليوم، فذهب فصالح أمه ثم عاد للمجلس فجاء الفيض من عند الله عز وجل.

ولقد كان الإمام باراً بوالديه إلى أن لقيا ربهما ولم ينقطع ذلك بعد وفاتهما. ولما توفي والد الإمام أرضى زوجة أبيه بكافة الطرق، وترك لها كل شيء بل ومنحها الزيادة، بل ولم يأخذ من بيت أبيه إلا مكتبته الخاصة وبعد أن استأذنها فرضيت وكذلك لما مات أخوه فإنه أثر مصلحة أولاد أخيه وتزوج أمهم براً بأخيه وأولاده ليقوم بتربيتهم ويكونوا تحت رعايته.

وبعد أن عاد الإمام من السودان كان يتوجه عليه السلام لزيارة بلدته محلة أبو على مرة كل عام لزيارة روضة والديه، ولزيارة أهله وأقاربه وأصحابه ويتودد إليهم

(١) الطبراني والهيثمي في مجمع الزوائد

ويغدق عليهم مما أتاه الله من فضله لكل بحسب حاله، وكانوا يصحبونه لزيارة روضة والديه حيث يجلس هناك فيتمثل حاله وهو في المهد صبيًا مع والدته وحالها معه من الحنو والعطف والرحمة والشفقة وكذا الوالد، فيترجم لسانه من شهوده، وإليك بعض ما قاله عليه السلام عند زيارته لهما:

أعني أبر والدي أيأربي فإنيهما أصلاى مذ كنت فى الغيب
بررتكما حين هب لى عناية أبرهما فى القبر بالجسم والقلب
أيا رب واجعلنى لكل قرابى وصولاً بإخلاص لوجهك فى جذب

ومواجيد الإمام فى زيارته لروضة والديه كثيرة، فهو يترجم مظهرًا مدى إحساسه بفضلهما عليه فى حياتهما وبعد انتقالهما، فبقول عليه السلام:

لدى روض عبد الله محجوب والدى وآمنة مهديّة كتر تالدى
وقفت بقلب خاشعاً أرتجى الرضا ونظرة ود تصفو منها مواردى
وقفت ولى قلب يذوب ولوعة تذكرنى عهد الصبا والتواجد
أنادى عطوفاً منعماً متفضلاً سوابغ نعماه وإحسان ماجد
ألا رحمة يا واسع الفضل والعطا وواسع رضوان وخير مشاهد
وقفت وقد واجهت بالروح مشهداً شهدت بها الفردوس نزلاً لوالدى
ووالدى واجهتها بعواطف بها صح إقبالى وصح تواجدى
وجدت قد كنت الغريب لفرقتى **صوت يشى الفضل فى صفو وليد**
وأحمد جدى قد شهدت مواجهاً ييشرنى منه بنيل الفوائد
كأنى فى الملكوت أسبح رافلاً أشاهد فضل الله خير التوادر
شكرت إلهى حامداً متبتلاً أعنى على شكر العطا والمحامد

سلام من الرحمن يتلى عليكمو
ومنى تحيات لأمى ووالدى
أمرغ خدى فوق ذا التراب رحمة
حنانا لأستجدى جميع العوائد
أفوز برضوان وأحظى بنظرة
بها أحظ بالزلفى وأهني الموارد
وصل على غوث الوجود محمد
صلاة بها نخظى بخير المشاهد

وعندما كان الإمام بالفيوم أخبروه أن ابنة أخته (١) قد وضعت، فسر سروراً كبيراً وتلقى التهاني وسماه نصر، وخرج الإمام في طريقه للقاهرة، ولما وصل لمشارف الجيزة قال لصهيب سائقة الخاص: إرجع للفيوم فإنى قد نسيت شيئاً مهماً فعرض عليه صهيب أنه سيحضر له ما نسي إحضاره، فقال له: لا أستطيع أن أتخلى عنه يا صهيب، ولا تستطيع أن تعلمه بدلاً منى وفوجيء أهل بيته بدخوله وهو مستند على من معه من فرط إعياء السفر، وكان عمره آنذاك اثنين وستون عاماً، ولما سأله عن سبب العودة، قال: إننى لم أسلم على ابنة أخى رحى بعد أن ولدت ولم أهنئها بعد فرجعت إليها لأدخل على قلبها الفرحة والسرور.

أخلاقه جذبت أهل القلوب له لين وبشر وعطف عم بالكرم

ومن الأحداث التى تؤكد رسوخ قدمه عليه السلام أنه لم يستغل حب أولاده ومريديه له لما كانوا يقدمونه على حب آبائهم وأمهاتهم، بل كان يأمرهم دائماً بمحبة والديهم وطاعتهم، وزيارتهم كثيراً، وكان بعض خاصة الإخوان يأتى من بلده، قرية كانت أم بعيدة، ويمكث شهراً أو أكثر، فكان الإمام يقول له: سافر لوالديك فإن لهم عليك حقاً، مذكراً إياه بالواجب عليه لهما.

(١) السيدة شفيقة ابنة السيدة زينب.

ولقد انطبعت صورة بره بأبويه في أبنائه، خاصة ابنه الأكبر السيد أحمد ماضى أبو العزائم عليه السلام حيث جلس الإمام ذات مرة يلقي درسه وهو يعاني من المرض والضعف، فوقعت عينه على ابنه الأكبر السيد أحمد، وجاشت في قلبه عاطفة الأبوة واشتد تأثره بها، لكنه كره أن يستحوذ أحد على قلبه إلا ربه وبعد أن انتهى من إلقاء درسه وجد أن ابنه السيد أحمد واقفاً بجوار الباب في انتظار خروج سيده وأستاذة ووالده، فما كان من الإمام إلا أن ضربه على كتفه على غير عادته ضربة شديدة وعلى مرأى من الجميع، فالتجته الأنظار إلى السيد أحمد لمطالعة ما يحدث، فإذا به يخرج مسرعاً، ويغيب قليلاً، ويعود فرحاً مسروراً متهلل الوجه وهو يحمل ثلاثة صناديق مياة غازية، وأعطى منها والده والحاضرين جميعاً. ولما سئل عما حدا به إلى فعل ذلك بعد أن ضربه أبوه، فإذا به يقول: لقد كنت حزيناً لما رأيت من اعتلال صحة أبي، لكنه لما ضربني وأوجعني أدركت أن صحته على ما يرام وقد عافاه الله مما ألم به من مرض، فسارعت لعمل ما ترون شكراً لله تعالى أن من على أبي بالشفاء.

وكان دائماً ما يوجه الإخوان إلى البر بالوالدين، فقد توجه أحد الإخوان إلى مصيف الإمام ببرج البرلس، وكان الإمام يلقي درساً. وبعد انتهاء الدرس قام جميع الحاضرين لمصافحة الإمام قبل الإنصراف، ولما جاء دور هذا الأخ للمصافحة إذ بالإمام يشد على يده بقوة شعر الأخ عندها رغم فتوته وشبابه أن يده تكاد تنقطع. وكان هذا الأخ قد طلب من أمه أن تصنع له شبكة ليصطاد بها السمك، ولما ذهب للصيد وجد أن فتحات وثقوب هذه الشبكة يتسرب منها السمك بعد صيده وما كان منه عند عودته إلى المنزل إلا أن قذف بها في وجه أمه وسبها، ولما جاء دوره في السلام على الإمام كما سبق وذكرنا إذ بالإمام يقول له: إذا كنت

تكفر بمن قامت بتربيته وتنشأتك وسهرت على خدمتك ورعايتك حتى صرت شيئاً مذكوراً فتسبها، فكيف تؤمن بالغيب المصون يا بني؟ ! اذهب واطلب منها الصفح والمغفرة فإذا ساحتك فلتأتي إلى، وقبل يديها قبل أن تقبل يدي.

من وصايا الإمام في صلة الأرحام من كتاب (الإسلام نسب) :

يا أبنائي: صلة الأرحام تطيل الأعمار وترضى الرحمن وتكثر الأنصار وتجعل الرجل سيداً عظيماً في عشيرته، وهى من صفات رسول الله ﷺ وآله، وصلة الرحم صلة للرحيم (١) .

هذا فضلاً عما يشعر به المرء المسلم من الشفقة والرحمة والعاطفة على أقاربه، ولو لم تكن صلة الرحم شرعاً وعقلاً لكانت فطرة وسجية، وقاطع الرحم كأنه يقول: أنا لست إنساناً ولكن وحش، لأن الإنسان ولو ابن زنا يعطف على أبناء أمه وأقاربها ويتعصب لها.

احفظوا يا أبنائي أرحامكم، وصلوهم وإن قطعوكم، وأحسنوا إليهم وإن أساءوا إليكم، فإن الصلة واجبه عليكم بحكم الله وبسنة رسول الله ﷺ وآله، لأنهم أرحامكم لا لأنهم أحسنوا إليكم، فهم وإن أساءوا لا تسقط حقوقهم عنكم (٢)، لأنكم يا أبنائي لو أنكم قطعتم أرحامكم بسبب إساءتهم إليكم تكونون قد حكمتهم بغير ما أنزل الله ﷻ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى ﷺ قال: (إن الله ليعمر بالقوم الديار ويثمر لهم الأموال، وما نظر

إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم، قيل كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: بصلتهم أرحامهم) رواه الطبراني في الكبير.

(٢) قال رسول الله ﷺ: (ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها) رواه البخارى.

الظَّالِمُونَ ﴿المائدة: ٤٥﴾. صلوا أرحامكم صلة لله ورسوله، فإن الذى لا يصل من أرحامه إلا من أحسن إليه فليس بواصل ولكنه مكافئ، وإنما الواصل لرحمه بل والقائم بما فرضه الله عليه من وصل أرحامه لله تعالى ولو قطعه، وأحسن إليهم وإن أساءوا إليه غير ناظر إلى عملهم فإن نظر إلى عملهم وحكم عليهم بما حكموا به عليه كان من الأخسرين أعمالاً.

يا أبنائى:

إن الرجل تكون له الزوجة، والزوجة تبغض أقارب الرجل لأنهم يشاركونها فى نعمته، وهم يبغضونها لأنها استقلت بنعمة قريبهم وتصرفت فى ماله إلا من حفظ الله، والمرأه ألصق بقلب الرجل، فقد تخلو بهم وترميهم بالبهتان فيقوم الرجل بقطع أرحامه ويحارب أقاربه ويؤذى من أمره الله بالإحسان إليهم، فتكون المرأة فى مثل هذا أشد من الشيطان وأضر من النار، وإذا قدم الرجل لشهوته البهيمية المرأة الأجنبية على أرحام له أمر الله بصلتهم، فإنه يكون كالبهيم بل أقل.

أبنائى:

إياكم أن يحب أحدكم نفسه فيطمع فى قليل يفنى ويحرم كثيراً يدوم، فإن أحدكم إذا أحب نفسه فطمع فى الدنيا ونافس فيها أخوته فقد فتح على نفسه أبواب شر

الأول: بغض أقاربه الذين هم أولى الناس به، ومتى كره أقاربه قرب أهل الجهالة من شياطين الإنس الذين يعينون على قطيعة الأرحام وأحبهم واستعملهم فى إساءة أقاربه، فينفق ماله فى غضب الله على شياطين الإنس وفى إساءة أقاربه.

الثاني: ييغضه عقلاء الناس لأنهم بمعاداته لأقاربه يعتقدون فيه الجهالة ومخالفة السنة ومعصية الله، ويسئون منه لأنه يصير عندهم لا خير فيه.

الثالث: يفرق الجماعة، فإن كل واحد من أقاربه له شيعة يشايعونه وأحباب ينصرونه فإذا أحب الرجل نفسه ابتلى بعداوة تلك الشيع المختلفة فكثر همه وقلت راحته، واشتغل عن الله واشتدت الخصومة عليه، فبذل ما في يده من المال في خلاص نفسه وأذية أقاربه، فكان حبه لنفسه سببا في زوال النعمة وفقدان اللذة وحرمان الراحة.

وفي مقام بر الوالدين والآداب لهما يقول الإمام (عليه السلام):

لست في مقام تقرير حقيقة خفية، ولكنها ثابتة شرعاً وعقلاً وجليّة، وتؤثر على القلوب والحواس تأثيراً يؤدي إلى الإنفعال النفساني والجسماني بالعواطف والاعتقاد والانقياد، وبالغيرة والحمية، مالى وللتكلم في واجب فطرت على مراعاته النفوس الكريمة!! وجبلت على القيام به العقول السليمة؟! حتى صارت من المقرر عقلاً وعادة، أن الولد إذا لم يقم لوالديه فيما من شأنه أن يقوم به أهل العواطف ظلم أمه.

والوالد والوالدة هما مظهر الشفقة والرحمة والحنان والبر والإمداد والإيجاد الإلهي، لذلك فقد أوجب الله الشكر لهما، وجعل رسول الله ﷺ وآله الجنّة تحت أقدام الأمهات، وجعل الوالد على باب الجنّة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ النساء: ٣٦ وقال الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَنًا ﴿الأنعام: ١٥١﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَنًا ﴿الإسراء: ٢٣﴾

(١) وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ

فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿لقمان: ١٤﴾

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رجل يا رسول الله من أحق بحسن صحابي أو صحبتي. قال: أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك) (٢)، وقال ﷺ وآله عليهم السلام: (رغم أنفه رغم أنفه. قيل من يا رسول الله؟. قال: من أدرك والديه عنده الكبير أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة) (٣).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ما أنها قالت: (قدمت على أُمى وهى مشركة فى عهد قريش فقلت: يا رسول الله إن أُمى قدمت على وهى راغبة أفأصلها؟ قال: صليها) (٤).

وفى الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام أنه قال: (رضا الرب فى رضا الوالد وسخط الرب فى سخط الوالد) (٥). وعن أبى الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبى ﷺ وآله عليهم السلام يقول: (الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فحافظ على الباب

(١) سورة الإسراء آية ٢٣.

(٢) متفق عليه

(٣) مسلم وأحمد فى مسنده.

(٤) البخارة ومسلم وأبو داود وأحمد فى مسنده.

(٥) الترمذى والمنذرى فى الترغيب والترهيب.

أو ضيع) (١)، وقال ﷺ وآله: (من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحداً فواحد وإن ظلماً وإن ظلماً وإن ظلماً، ومن أصبح مستخفاً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحداً فواحد وإن ظلماً وإن ظلماً وإن ظلماً) (٢) وقال ﷺ وآله: (إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم) (٣) .

هذه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة قد بينت لنا حقوق الوالدين وشرحت لنا مقدار السعادة التي ينالها الولد ببرهما، والشقاء الذي يناله العاق.

ومن الآداب للوالدين:

أن تبدل مالك وتحفظ مالهما، وتأكل بعد أكلهما، وتنام بعد نوهما، وتلبس بعد لبسهما، وتجتهد أن تعمل ما يسرهما ولو كانا كافرين، وعليك أن لا تخالفهما إلا إن جاهدك على أن تشرك بالله ما ليس لك به علم فالواجب عليك أن لا تطيعهما كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ لقمان: ١٥. وإياك أن يدفعك الطمع فتوفر مالك وتنفق من مالهما، أو تأخذ من مالهما شيئاً

(١) الترمذى وابن ماجه وأحمد في مسنده.

(٢) ابن عساكر عن ابن عباس والسيوطى في الجامع الصغير.

(٣) الطبراني في الأصغر والمنذرى في الترغيب والترهيب بلفظ: (براح ريح الجنة في مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها منان

بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر) وذكره الإمام أحمد والبخارى ومسلم بلفظ: (لا يدخل الجنة قاطع) أى قاطع رحم.

تدخره لنفسك أو أولادك، أو تحمل امرأتك بشيء لم تحمل به والدتك فإن ذلك عقوق تعذب به يوم القيامة وتعاقب به في الدنيا بعقوق أولادك لك. وكن على يقين أن برك لوالديك سعادة لك في الدنيا بالعافية في بدنك والنسيئة في عمرك والسعة في رزقك ونجاة أولادك وسرورك بهم ولو تحققت ذلك يا أخى لبذلت النفس والنفيس في إدخال السرور على والديك فإنك لا تدري متى يفارقانك.

وأكمل الآداب أن الصغير لا يطلب من والديه شيئاً إلا إذا احتاج إليه وعجز عن نيله بنفسه، فإن أعطى له ما طلب شكر وفرح، وإن أعطى له دون ما طلب قبل بدون أن يظهر ما لا يرضى من علامات الحزن أو الكلام. وعليه أن يسارع في بذل ما في يده لإخوته ليرضى والديه وأن يحفظ لإخوته ما معهم. وعليه أن يسارع إلى طاعة الوالدين وخدمتهما وتنفيذ أوامرهما والعمل بوصاياهما، ويجتهد ألا يأكل إلا بعد أكلهما، ولا ينام إلا بعد نومهما، وبستيقظ قبل قيامهما ليتولى خدمتهما، ويمشى أمامهما ليلاً ليقيهما، وورائهما نهاراً تواضعاً وأن يعادى عدوهما ويواصل حبيبهما ما لم يكن أثماً ويجعل أوقات فراغه كلها في مراقبتهم حتى ينال بذلك صالح الدعاء منهما بالحب الخالص ليكون ذلك رقياً له عند الله وفوزاً وسعادة. ومن الآداب ألا يكون سبباً في تكدير صفو والديه بعمل ما يكرهانه فى المنزل وخارجه وإن كان الوالد له زوجة أخرى فإن حقه لا يسقط عن الولد بزواجه غير أمه فيجب عليه ألا يدعوه غضبه لأمه أن يسقط الحق الواجب عليه لوالده، فإن رضاء الوالدة في غضب والده مما يوجب مقت الله تعالى، بل يلاحظ حقوق والدته وزوال ما في نفسها من الحزن ويقوم لوالده بحقوقه محتفياً عن والدته حتى لا يغير قلب واحد منهما عليه، وهذه من الكمالات النفسية.

إذا قصر الوالد فى القيام بشئون ولده فمن الأدب أن يرجع الولد باللوم على نفسه وأن يتحمل لوالده بما يعيد له الرحمة الأولى، فإن رحمة الوالدين لا تنكر ولا يسلبها من القلب إلا عمل قبيح يحصل من الولد ربما لجهله يراه حسناً منه.

قد يكون الوالد سخيّاً وصالاً لأقاربه فيكره ابنه ذلك ويظاھرہ فتترع رحمة الوالد من قلبه، وقد يكون الوالد ميالاً للزواج فيكره الولد منه ذلك لجهالته، والأدب يقتضى على الولد أن يتحمل لوالده بكل أنواع الجمال ويطيعه إلا إذا أمره بإثم فإنه يعتذر إليه.

أيها الولد الذى جعل الرحمة تترع من قلب والده وتبدل بقسوة وجفوة لا بد أن يكون من عملك فى ذات والدك أو سوء معاملة لزوجته أو من يجب. أنا أعتقد أن النساء ييغضن اولاد الرجال ويسعين لكيدهن، ولكن الحكيم العاقل البار يتحمل بأنواع الجمالات لولده ولزوجة والده ولأحباب والده من التواضع والخدمة والمصارعة إلى عمل ما يسر وإظهار الإخلاص وذكر ما قل من أعمال البر ونسيان ما عظم من أعمال الشر. ولا أشك أن من تخلق بتلك الأخلاق ألفته الوحوش فضلاً عن الوالد وزوجته.

يابنى: لا خلاص لك من شرور الدنيا وعذاب الآخرة إلا بتحمل أصعب الصعوبات وأشد الشدائد فى نيل رضاء والديك والتأدب لهما بما يليق بهما. وإن نفساً واحداً ترى نفسك لا تتحمل تلك الشدائد فتعدى والديك يكون من فعل ذلك سجل على نفسه الشقاء.

لو تصورت يا أخى كيف كانا يفرحان بك صغيراً ويذلان نفائس أموالهما لسرورك وكيف تحملت والدتك فى حملك ورضاعك وفى تمريضك وما تحملته

والدك فى تربيتك.. لبدلت وسعك لتسرهما وتكرمهما ليموتا راضيان عنك داعيين لك وتعيش بعدهما مطمئن القلب بأنك ستنال الخير ببركة دعائهما والذرية الصالحة البارة ببركة رضاهما مع ما يحصل لك من البهجة والسرور عندما تذكر أنك أحسنت إلى والديك وأن الله سبحانه وتعالى سيدخلك الجنة مع الأبرار البارين، تلك البهجة يا أخى خيراً من الدنيا وما فيها.

وأظنك تقول يا أخى: أبنائى وزوجتى. أنت مسكين لا تعلم أرزقت بهم ليكونا لك خيراً فى الدنيا والآخرة أو شقاء لوالديهما فى الدنيا والآخرة؟ فكيف يا أخى تترك الأمر الجلى البينه سعادته، وهوبر والديك الذين أحسنا إليك؟. وأوجب الله عليك أن تقوم لهما بالإحسان وتجتهد فى الأمر المشكوك فيه الذى لا تعلم عاقبته وهو أن تدخر لأبنائك وتحمل الحقوق الواجبة لوالديك أعاذنا الله وإياك يا أخى مما يوجب المقت والسخط. ولو أنك ادخرت لأبنائك نفساً عالية ترفعهم عن سفاسف الأمور وعقلاً ذكياً يعقلهم عن مهاوى المقت، وخلقاً جميلاً حسناً تحسن به معاشرتهم لأرحامهم وأقاربهم وكثراً من الدين يمنحهم الله به من السعادة فى الدنيا والآخرة لكان خيراً من نفائس الأموال وكنوز الذهب والفضة .

ومن بر الوالدين بعد موتهما:

الاستغفار لهما، والصلاة عليهما، وصلة الأرحام التى تدلى إليهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقيهما. قال مالك ابن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وآله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمه فقال: يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شىء أبريهما به بعد وفاهما؟ قال: (نعم.. الصلاة عليهما والاستغفار لهما

وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما (١) ومن إكرامهما في حياتهما أن تبرّمينهما، فترى الفاسق الغوى إذا مات والداه أو أحدهما دعاه الطمع الأشعبي والغرور بالدنيا ونسيان يوم الحساب أن يقوم فيحارب إخوته وأخواته ويعتقد أنه لا عدو له في الأرض إلا أبناء والديه ما ذلك إلا لأن الجهل أنزل المال عنده منزلة الإله المعبود الذي يأمره فيطيعه، ومن الضلال من يسلك الناس على إخوته الأشقاء أو أبناء العلات ليستريح من منافستهم له في هذا العرض الزائل. ولعمري إن هذا العمل لا يعمل به رجل من أهل الجنة ولا من ذاق حلاوة الإيمان.

كن يا أخى على يقين أنك إن بررت والديك بعد موتكما بصلة أرحامهما أن الله تعالى يبارك لك بركة تدوم لك حتى تكون في الفردوس الأعلى. ومن اعتز بمال يفنى. وملك يزول، ورياسه تتحول، ورياش يبلى، واستعان بأهل الزور والبهتان، فقطع أرحامه ليكثر ماله فرحاً بالمال والسيادة والرياسة: كان كمن عرض نفسه لشقاء الدنيا، فإن قطيعة الرحم تعجل عقوبتها في الدنيا خصوصاً وأن قطيعة الرحم عقوبت للوالدين وعقوبت للوالدين موجب لسوء الخاتمة والعياذ بالله.

والأرحام في الأصل كل من لك به قرابة توصلها بك أمك نسبة للرحم، ولكن العرف الشرعى أطلق اللفظ وجعلها عامة لكل من لك به قرابة تدلى إلى أمك وأبيك.

(١) رواه أبو داود والترمذى فى رياض الصالحين

وجعل قرابة الأم أولى بحسن العاطفة وإن كان للعصبة تأثير على النعمة بالنسب والحمية للقرابة. فابدأ أيها الأخ أيديك الله بالتوفيق بصلة أرحامك معتقداً أن ذلك سعادة لك في الدنيا والآخرة، وليكن ذلك بقدر استطاعتك، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول.

ومن يدفعه الأمل إلى الطمع فيقصر في حقوق الصلة فيحتال لسلب ما في أيديهم فيكون قد ارتكب جريمتين جريمة التلصص وجريمة قطيعة الرحم، واللص الذي يتلصص على الأجنبي أقل وزراً منه. كيف يكون سرورك أيها الأخ إذا أنت أكرمت إخوتك وأقاربك وتحققت أن الله تعالى يكرمك في الدنيا بأن يجعل في قلوب أبنائك الرحمة والعاطفة لبعضهم لبعض وشهدت ذلك في حياتك، وانتقلت إلى الدار الآخرة شاكرًا ربك على ما وهب لك من التعاطف والتواصل والتآلف والمساعدة والمسارة إلى جلب الخير لبعضهم ودفع الضر عن بعضهم، وانتقلت إلى البرزخ فوجدت قبرك روضة من رياض الجنة فكمل سرورك وتمت بهجتك؟ ثم انظر يا أخى للعاق لوالديه القاطع لرحمه كيف تصب عليه البلايا في الدنيا صبًا بكثرة القضايا والخصومات، ثم جعل الله له أبناء فجرة يبددون ما جمع في حياته وينغصون عيشته بما يقع بينهم من الخصومات والعداوة وما يناله من قبيح أعمالهم من الناس حتى يتمنى أنه لم يكن تزوج. وأنه يوجد في الدنيا فيعيش طول عمره في شقاء وكبائر حتى يفارق الدنيا فينتقل من آلام بدنية فكرية إلى حفرة من حفر النار - نعوذ بالله من قطيعة الأرحام - ولا يصبر أبنائه حتى يواروه التراب بل تقع بينهم المنازعات والمخاصمات، وربما تلاكموا وتضاربوا بالعصى وتزاحموا على تفتيش الحجرة التي هو فيها وربما وطئوه بالنعال وهو ملقى بينهم وهم الذين كان

يسهر ليجمع لهم ويخاصم أقاربه ليجدد لهم.. انظر يا أخى بعينك عاقبة هذا الأمل ونتائج هذا الطمع.

صل رحمك يا أخى ليرحمك الرحمن، وأكرم أقاربك ليقربك القريب، وبر والديك ليربك البر الودود. قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ النساء: ٣٦ وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ محمد: ٣٣ وقال ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (من أحب أن ييسط له في رزقه وينسأ له في عمره فليصل رحمه) (١) .

ومن الآداب الواجبة عليك لوالديك أن تبر أهل ود أبيك ممن كان يودهم ويحبهم. ولا تتشبه يا أخى بمن أبعدهم الله عن أعمال الخير الذين إن تمكنوا أساءوا أهل ود والديهم، لأنه قد يكون للرجل ولد سىء الأدب ويكون والده متزوجاً امرأة غير أمه وتكون محظية عنده محبوبة لدية ولم ترزق من أبيه بأولاد، فإذا مات أبوه قام فجعلها أعدى أعدائه وشر ألدائه ولم يراع حقوق والده. وقد يكون للولد عامل مخلص في عمله محافظ على أمواله، ويكون الولد مسرفاً فيشدد عليه العامل وهو صادق أمين، فإذا تمكن المسرف من المال أو الميراث حارب العامل الصدوق الأمين وطرده من عمله ولم يراع حقوق والده.

وقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان راكباً على جمل فمر به أعرابي فترل عن الجمل وقابله وحياه، ثم أخذ بزمام الجمل وأعطاه إياه وانصرف، فقيل له ما هذا؟ قال: هذا الرجل كان يضحك والدى كلما رآه،

(١) البخارى ومسلم وأبو داود.

فأحببت أن أبر والذى بإكرام من كان يضحك والذى لرؤيته.. وهكذا فليكن البر، ومن هذا الإمام يؤخذ. فقم ياأخى بإكرام أهل ود أبيك لتكون باراً، وكن على يقين أنك تفوز بالمسرات فى الدنيا والسعادة فى الآخرة، والله يمنحنى وإياك التوفيق لما يحب ويرضى.

نصيحة للأبناء:

يا بنى لا تجهل من أنت، وما لا يجب عليك، وما لا يجب لك. لعلك يابنى تظن أنك بما تجده من عواطف أمك وأبيك ومن حرصهما على سرورك وخيرك، ومن بذل نفائس أموالهما فيما فيه راحة بدنك وزيادة صحتك، أن ذلك واجب عليهما أو حق لازم عليهما لك، فتجهل قدرك وتنسى قدر النعمة عليك من ربك، فتقوم مطالباً بحقوق توهمتها لم يوجبها الشرع ولم يستحسنها العقل، فتكلف والدتك بخدمتك أو تغضب عليها إن تهاونت بشأنك أو تأبى أن تلبس أو تأكل ما قدم لك أو تستقل ما أكرماك به، فتكون كالفراس الذى يطوف حول النار لا يرضى بضوئها وحرارتها حتى يسقط فى لهيبها.

أسرع بأن تعلم منزلتك وأنب إلى ربك تائباً وإلى والديك متزلاً متملقاً. لم يبذلا لك ما بذلا من المال والنفس لواجب عليهما، بل لأنك شجرتكما ومراة حقيقتكما. فإن نظرت بنظر الابن للوالدين نظر تعظيم وإطاعة لأمرهما وحب لهما ورغبة فى نيل رضاهما من الله عليك بأن جعل عاطفتكما عليك فى مزيد، وجعلك لهما ظهيراً ونصيراً بعد كبرك، فتكون لهما والدًا شفيقاً ويكونا لك كوالدين رحمين، وتكون قد قمت بالواجب عليك لله ولرسوله ﷺ وآله ﷺ وللوالدين.

إذا من الله عليك بأن جعلك غنياً عن شرار خلقه عالماً، فكن رجلاً خارج المنزل، فإذا دخلت على والديك فكن طفلاً كما كنت أولاً، عبداً كما كنت سابقاً تملك ولا تملك، واجعلهما يدبران لك شأن داخليتك وإن أخطئا، وحسن شأن خارجيتك، فإنك لا تدري متى يأتيهما الموت.

لعلك يأخى إذا تزوجت صارت زوجتك أحب إليك من أبيك وأُمك وإخوتك، وهى إنما رضيت بك لأنك قوى غنى سوى، ولو ذهبت صفة من تلك الصفات ذهبت معها وكانت حرباً على زوجها. فاصحب زوجتك على حذر منها، وكن عبد الله مطيعاً لوالديك.

يابنى: بعض الضالين الذين حرموا الكمالات الإنسانية يتهاون بشأن والديه ويعتنى بشأن زوجته- أعوذ بالله أن أكون منهم أو تكون منهم- فإنهم عبيد لشهواتهم، وعباد الدراهم والدنانير أقرب للبهيمة منهم إلى الإنسانية. انظر إلى والديك تراك غصن شجرهما وصورة حقيقتهما وخلاصة حياتهما فلا تعبد يابنى شهوتك وتكفر بربك سبحانه وتعق والديك، واجعل والديك فى أعلى المراتب من قلبك، وقم لزوجتك بما فرض الله تعالى عليك وبما سنه رسول الله ﷺ وآله، ولا تنسى الفضل بينك وبينها، ولا تجعلها سبباً فى عقوق والديك وقطيعة رحمك، فإن الإنسان لا يدري لعله يجمع المال ويحرم منه أرحامه ثم تحوزه الزوجة وتنفقه على زوج أجنبى.

أحب يا بنى زوجة أبيك وإن كانت كدرا لوالدتك برا بوالدك إلا أن توفيت والدتك فاجعلها فى منزلتها وأحب إخوتك منها كحبك لإخوتك، واجعلهم لك أنصاراً وأعواناً وكنوزاً وجمالاً لتكون كثيراً بهم

اجتهد يابني إن كان ورثك والدك مجداً وشرفاً أن تحافظ على ميراث والدك وأن تجتهد في أن تزيده وتنميه ليحيا والدك. واعلم يابني أن بعض أهل الغواية الأنذال المفسدين الذين هم مرض في جسم الأسر يتمنى الخبيث منهم أن يموت والده ليرث ماله، فإذا مات والده قام ببذل المال في شهواته وحظوظه حتى إذا لم يبق في يده ما يستعين به ندم - ولات حين مندم - فتمنى إن والده عاش له بعد أن أحوجته الضرورة إلى خدمة من كان خادماً عنده أو ارتكب ما به يحشر إلى السجون.

وإلى هنا أقول لك: أيها الولد البار: اجتهد في صحبة العلماء العاملين، وداوم على مجالسة الأتقياء الصالحين، وتعلم منهم وتشبه بهم، والله يتولاني وإياك.. إنه ولى المؤمنين (١) .

رحمته

لقد وصف ربنا نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩ .
الرحمة مفاضة من الرحيم، والرعوف الرحيم هو رب العالمين وقد وصف الله نبيه ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَلِيظُ الْعِقَابِ﴾ التوبة: ١٢٨ ،
وورثها أهل الخشية منه ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾ .

(١) مجلة المدينة المنورة السنة ٩ العدد ٢٠ ص ١٢ (٢٥ شوال ١٣٥٥ هـ الموافق ٨ يناير ١٩٣٧ م) .

إن اقتربت من الإمام وكنت مريضاً وجدت طبيباً، وإن كنت جاهلاً وجدت عالماً، وإن كنت تشكو من سيطرة الشيطان والنفس والهوى وجدت طبيباً معالجاً يَسْتَلُ العِلَّةَ من قلب العبد بحكمة.

كان من رحمته أن يأتيه الأخ المريض ليدعو له ويترك به، فيسأله الإمام عن سبب شكواه، ولما كان الإمام له معرفة كبيرة بعلوم الطب فكان يسأل عن سبب الشكوى، ويوجه المريض إلى الطبيب المختص. وكان الإمام دائماً لا يترك الأخخذ بأسباب العلاج عملاً بقول رسول الله ﷺ وآله: (إن الله خلق الداء وخلق الدواء، فتداؤوا يا عباد الله) (١) .

وقد سأل الإمام يوماً من معه فقال: (أتدرون ماذا يدعو رجال الغيب؟؟ يقولون ما من هم أو غم أو مرض أو ألم أردت به أمة محمد فخُصَّنا به ونجَّ أمة محمد واجعلنا فداء لهم) .

ومن رحمته عليه السلام أنه كان بالبيت رجل يخدم اسمه مصطفى، وكان فظاً، وقد خرج ليأتي بإفطار أهل المنزل وتأخر كثيراً، فعاتبته زوجة الإمام، فرمى عليها إناء الطعام الساخن قائلاً: أنا مش عبد أبوكم، فدخلت تبكي للإمام وقصت عليه ما حدث، فطيب خاطرهما وقال لها: والله لقد صدق فهو ليس عبداً لي.

لقد تحمل الإمام الكثير والكثير من أعداء الدعوة، وتحمل أيضاً الكثير من أصحاب السلطان وقتذاك، ومن الإنجليز - المندوب السامي البريطاني - ومن القصر، ومن الرئاسات الفاسدة، ومن أصحاب الضمائر الخربة، وقد جند هؤلاء بعض الكتبة ليكتبوا ضد الإمام على صفحات الجرائد والمجلات مقالات شديدة اللهجة

(١) الإمام أحمد وابن حبان والحاكم والسيوطي في الجامع الصغير.

ويغدقون عليهم الأموال ومن بينهم بعض العلماء، وكان من تلاميذ الإمام صحفى مشهور أراد أن يتصدى لهؤلاء ولكن الإمام منعه، لكنه ظل يلح فى ذلك إلى أن قال له الإمام اكتب عنى فقط بيت شعر واحد، يقول لكم أبو العزائم:

كل شىء منكم عليكم دليل وضح الحق واستبان الدليل

وكان أحد المشايخ الذين يهاجمونه حقداً عليه قد استيقظ ضميره، فذهب إلى الإمام فى داره وقدم نفسه إليه أنه محام شرعى اسمه عباس طه وكان المعروف عنه من مقالاته أنه متمكن جدا فى اللغة والبيان والحجة والإقناع وفى نفس الوقت كان سليط اللسان بذى الألفاظ - واعتذر للإمام عما فعله، وأخبره أنه رجل فقير وفى شدة الاحتياج لما يدفعونه له من مال، ومن رحمة الإمام أنه قال له: استمر فى سبك لى وهجومك على طالما أن هذا هو رزق لك، فما كان من هذا الرجل أمام هذا الصفح والعفو وهذه السماحة والرحمة إلا أن كان يكتب مقالاته الهجومية التى يقبض عليها أجره، وهو هو نفسه يكتب مقالة بعدها مباشرة دفاعاً عن الإمام ومفنداً كل ما هاجمه به تحت اسم آخر.

وكان رحيماً جداً بإخوانه فإذا أحس منهم الإرهاق وهم فى مجلسه فى الساعات المتأخرة من الليل طلب منهم أن ينصرفوا ليناموا ومرة قال لهم:

ألا رحمة بالجسم ياعشاق فالروح دوماً للعلا تشناق
إن عاينت وجه الجميل تفر من تلك القيود وطبعها الإشفاق
فالروح عالمها العلو ودائماً تخشى يكون بذى القيود فراق
رفقاً على تلك الجسوم لأنها مرآة نور الحق والإشراق
سيروا على قدر الجسوم فإنها تجلى بها الأنوار والإطلاق

أحشى تطير الروح عند شهودها فافتراق الأجسام وهو شقاق
رفقاً على تلك الجسوم ورحمة فالرفق أوصانا به الخلاق

ولكن يعز عليهم أن يقوموا للنوم ويتركوا مجلس الإمام بما فيه من جمالات،
فيغادر الإمام مجلسه ويدخل حجرته، وبعد فترة يخرج ليتفقد أحوالهم، حتى إذا
اطمأن عليهم عاد لخلوته.

وفي آفات أخرى كان يحث إخوانه على السهر والجد والاجتهاد في ذكر الله..
أطال الإمام السهر ليلة ومعه تلاميذه حتى داعب النوم أجفانهم، لكنه نهض وأمرهم
بمتابعته، وساروا في الطريق إلى مسجد سيدنا الحسين، وفي الطريق مروا بناد للهو
والخلاعة، فنظر الإمام إلى إخوانه قائلاً: ما أنشط هؤلاء وهو فيما تعلمون، وما
أبطأكم عن المسارعة لنيل ما تحبون، كيف ينام طالب الجنة ويسهر الملقى بنفسه في
الهاوية؟؟ فقال أحد الإخوان: إنا نحب أن ينام سيدنا شفقة عليه من هذا العناء،
فقال الإمام: اسمع وافهم

أنام وداعى الجحد يجذبني قهراً فيسلب نومي قائلاً كن فتى حراً
ونفسك أيقظها وإن نام جسمها فللجسم نوم قد يحل به قسراً
وكيف تنام النفس جهلاً وغفلة ويسهر جسمي عاملاً عملاً نكراً
لعمرك إن الجحد سهل على الفتى إذا هم للعلياء مدرعاً صبراً
وما هي إلى جولة الفكر ساعة تحرك أهل العقل ترفعهم قدراً
يسود بها الداعي إلى الخير والهدى يراه جميع المسلمين لهم ذخراً
ومن كان ذا عمر قصير ومطلب عظيم ينام الليل أو يأمن الدهراً؟
ينام نعم جسمي إضطراراً بطبعه ونفسي بملكوت السما تلحظ السرا

ومن يك ذا نفس تنام عن الهدى يرد إلى النيران مرتدياً خسراً
وكل فتى قد جاهد النفس مخلصاً ليطعمها ذكراً ويلبسها شكرًا
يفر من العمل القبيح وفعله إلى الرشد في الدنيا إلى المجد في الأخرى

وفي احتفال من إحتفالات ذكرى مولد المصطفى ﷺ وآله، وكان العدد كبيراً يفوق الحد، مر الإمام ليتفقد الإخوان أثناء نومهم لعل أحداً منهم يريد شيئاً، فوجد البعض نائماً بدون غطاء لعدم توفره، فأيقظ خدام المتزل وأمرهم بإحضار جميع الأغطية بالمتزل ثم غطى هؤلاء الأخوة بيديه الكريمتين قائلاً: هؤلاء ضيوف رسول الله ﷺ وآله، نقدمهم على العيال.

وكان ﷺ يعطف عطفاً كبيراً على أهل المعصية ويستميل قلوبهم إلى ساحة الطاعة بتنويع أساليب بيانه، وكان من رحمته أن يحرص على زيارة المرضى من المسلمين في المستشفيات، وكان يخص بالزيارة من لا يجد حول سريريه زائراً فيجلس على سريره بجواره يعطف عليه ويصله ويدعوا له ثم ينتقل منه إلى غيره وغيره، فهذا كان حاله مع مرضى الأبدان، وكان هذا هو نفس الحال أيضاً مع مرضى القلوب والأفئدة والنفوس، فإن أكثر الناس يعتبرهم محتقرين ممقوتين.. لكن الإمام يقول ﷺ :

محمد ماضى أبى العزائم لا يرى مسلماً مرتكباً كبيرة إلا نظر له بعين الشريعة رحمة له، ويعظه بالحسنى نيابة عن صاحب الشريعة، ونظر إليه بعين الحق فأول حاله قائلاً: لعله من أهل الخصوصية الإلهية وستره الله تعالى بفضله، فإنى اعتقد أن القضاء لا يمنع الإعطاء من فضل الله تعالى، فأعظمه فى قلبى وأخافه فى نفسى تعظيماً

لسر الله الذى ورد على قلبى، لأن الله تعالى لا يعطى فضله لعله عمل، ونصحته بلسانى حباً له وتعظيماً للشرع، فأكون معظماً لله تعالى فى الحالتين.

إخوانى: اتقوا الله فى عباده، وعليكم أنفسكم، واجلوا مرآة قلوبكم بعمل القلوب، واشتغلوا بذنوبكم فإنكم محاسبون عليها لا على ذنوب غيركم، وارحموا عباد الله تعالى، ذكروهم بالحسن، عظوهم باللين، أعينوهم بفضل أموالكم، وجميل كلامكم، وأحبوا لهم ما أحببتهم لأنفسكم، والله ولى المؤمنين، وصلى الله على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم وعلى آله وصحبه وسلم.

صفحه

كانت الإساءة على الإمام تأتية من القريب ومن البعيد، فلا يقابلها إلا بالصفح، بل وربما قابلها بالبر والإحسان.

• وأثناء عمل الإمام بالخرطوم حقد عليه بعض العلماء لما وجدوا الإقبال المتزايد من الناس واتباعهم له ومدى حبهم والتزامهم بمجلسه لقراءة صلواته على الرسول ﷺ وآله ﷺ أزمع الحاقدون على قتله وأوكلوا هذا الأمر إلى أحد أتباعهم بعد أن أوغروا صدره وأوعزوا له أن الإمام ما جاء إلا ليشوش على شيخه فقرر قتله (١).

وبينما كان الإمام يتجهجد فى حديقة منزله تسور الرجل سور الحديقة، وبعد ان فرغ الإمام من صلاته قال له الرجل، يأبا العزائم لقد تعديت على أسياك أتريد أن تعمل شيخاً وأسيادك هم شيوخ البلاد؟ فقال له الإمام:

(١) أخبرنا بها الشيخ نصر أحمد العقاد سماعاً من والده.

لم يحدث ذلك ولكنني أدعو إلى الله ونحن جميعا إخوان في الله، لم يصدق الرجل، واستل سيفه واندفع ليضربه به، ولكن الإمام ظل يراوغه إلى أن تعب وتمكن منه الرجل ووضع السيف على رقبته.

وفي نفس الوقت هب الحاكم المصرى للسودان من نومه مترعجاً- وكان محباً للإمام ومن عشاق علمه- وطفق يجرى ميمماً وجهه شطر بيت الإمام والحرس من ورائه يتبعونه حتى وصل إلى منزل الإمام، وأبصر الرجل ينكب على الإمام وقد تمكن منه بسيفه فصاح فيه قائلاً: قم يا كلب، فرمى السيف ووقف مرتعداً، وقبضوا عليه.

عند ذلك قال الإمام للحاكم: دعه، قال: لماذا؟ قال الإمام: لقد أمرتنا الشريعة أن نتعلم السباحة والرماية وركوب الخيل وفنون القتال(١)، لقد كان يعلمني كيف يستطيع الإنسان أن يقهر عدوه ويتفادى خطر خصمه، فأطلق الحاكم سراحه، فاعترف الرجل بحقيقة أمره واعترف بذنبه وأعلن توبته إلى الله وأحب الإمام، إنها سابقة حسنى، قال الإمام لمن شاهدوا هذه الحادثة: لا تقصوا هذه القصة إلا بعد أن أموت(٢).

(١) وكان الإمام متدرباً على الفروسية حتى لقد شهد له الكل بفروسيته الماهرة عندما يهيم بركوب الحصان في حركة واحدة رغمًا عن ملابسه العادية، وكان الإمام متدرباً أيضاً على المبارزة والسباحة والرماية عملاً بسنة النبي .

(٢) قال نفس هذه العبارة من قبل سيدنا عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه بعد أن حدثت له حادثة، فقد كان سائراً في الطريق فخرجت عليه حية بيضاء ناصعة البياض ثم مالت إلى جانب الطريق وسكنت وماتت، فأخذ قميصاً من قمصانه وكفنها ودفنها لشيء لا يعرف سره ولكنه إندفع إليه، ولما عاد لمزله، قص القصة على أحد رواة احاديث سيدنا رسول الله ﷺ فقال له: إنك لسيد التابعين!! ولقد احبر عنك النبي ﷺ وآله، فقال: (تخرج فلانه من الجن المؤمنة المصدقة برسول الله ﷺ وآله).

*اعتاد أحد خدم البيت على سرقة ما استطاعت أن تصل اليه يده: ولم يستثنى من ذلك رواد البيت وضيوفه حيث كان يتحين الفرص لاقتناص ما بحوذتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، إلى أن وصل به الأمر أن سرق كيس النقود الخاص بالإمام وبه عدد كبير من الجنيهاات الذهبية كان قد تركه على كرسي الدرس وأعطى السارق النقود لأحد التجار ليتجرا معا فيها، لكن الأمر انكشف لتلاميذ الإمام فانهمال البعض عليه ضرباً لكن الإمام كفهم عنه.

ويشاء المقدر سبحانه أن يصاب التاجر بالشلل، وتوجه ذووه إلى الإمام وأعادوه إليه حافظة نقوده بما فيها، ثم يأمر الإمام بإخراج المسروقات التي خبأها السارق في مكان بالمتزل غير مطروق، وأمر بإعادتها إلى أصحابها محدداً إياهم، وأحضر السارق بين يدي الإمام وصفح عنه، ولما هم أن يغادر المتزل استبقاه الإمام قائلاً له: إنك أمين جداً ولكن شيطانك هو اللص، وبقي بالمتزل يزاول عمله فيه.

ولما تساءل بعض الإخوان عن أمره عرفهم الإمام أنه كان يحاول إصلاحه ما استطاع، وحاول أن يستره مع علمه بما يقوم به من سرقات إلى أن كشفه الله تعالى ليقى الناس من شره (١) .

* في يوم سرقت حافظة نقود الإمام، واكتشف أن أحد الخدم هو الذي سرقها، وشاع ذلك الأمر بين أتباعه، فجمعهم واستشارهم في أمر السارق.

على قارعة الطريق فتموت فيكفننها سيد التابعين بقميصه) فقال سيدنا عمر ابن عبد العزيز: لا تخبر عني إلا بعد أن أموت.. موجود في كتاب: الإصابة في ترتيب الصحابة - كتاب كرامة الأولياء- تاريخ الصحابة لحمد غياث الباكستاني، وهذا دليل كمال الولاية لأن هؤلاء في غنى عن أن يمدحهم الناس أو يثنى عليهم الخلق.

(١) من التسجيلات الصوتية لدروس الشيخ طاهر محمد مخاريطه.

قال أحدهم: نقوده إلى الشرطة.

وقال آخر: نجسه عقاباً له.

وقال غيره: نضربه ونبعده عنا ولا يدخل دارنا.

وقال غيره: لا قول لي مع ما تراه فانظر ماذا ترى؟.

قال الإمام: لقد عفوت عنه ابتغاء وجه الله، ابجثوا عنه وأعيدوه إلى عمله.

فقال أحدهم: إنه لص تعدى عليك ياسيدي وسرق مالك.

فرد الإمام بقوله: إن تركته فعل هذا مع غيري ممن لا يرضى به ولا يتحمّله

كما أتحمّله، وأعيد الخادم إلى عمله وقال له الإمام: لقد عفوت عنك وسامحتك،

فندم وبكى وتاب إلى الله واستقام وتغير حاله فصار من خير الناس.

كرمه

لقد شهد القاصي والداني مدى كرم الإمام عليه السلام لضيوفه ومريديه، وظهر ذلك في حسن استقباله لهم بالبشر والترحاب وإكرام وفادتهم والسهر على راحتهم وقضاء حوائجهم ومساعدتهم، وكم أقيمت في بيته العامر مآدب الكرم وبسطت أكف العطاء لكل طالب تقام بكل رضا وحب وفرح وسرور لضيوف الله وإذا بسطت المائدة للزائرين، فإن الإمام يرغبهم في الطعام، وكان من حبه للبر بالإطعام والتزاور أن يأمر بذلك أصحابه.

* ويحكى أنه عليه السلام كان عائداً من جامعة الخرطوم إلى منزله ركباً دابته، وكان ذلك أول الشهر وقد تقاضى راتبه ووضع في صره، فاستوقفه محتاج وقال له: الله، فانتفض الإمام من فوق دابته ونزل مسارعاً احتراماً للإسم واحتراماً لمن أرسل هذا المحتاج إليه وقال له: ماذا تقول فقال: الله، فما كان من الإمام إلا أن أخرج راتبه الذي استلمه في نفس اليوم، وقل له: مادام قد أرسلك إلى فالمال كله له سبحانه.

ولم يكن بالبيت ما يقوم بحاجة أهله وزواره وضيوفه، فما كانت إلا ساعات وأتت عربات تحمل المواد الغذائية بأنواعها المختلفة وكذلك المواد التخزينية قادمة للإمام من أحد محبيه بدون سابق طلب أو عادة منه على فعل ذلك من قبل، فقال الإمام لأهل بيته لقد أحضر الله لكم كل ما تحتاجونه بغير نصب ولا تعب وكأنه يعاملكم معاملة أهل الجنة (١).

(١) من التسجيلات الصوتية لدروس الشيخ طاهر محمد مخاريطه.

* ويأتى للإمام وفد من الفيوم مشياً على الأقدام لزيارته ورؤيته وتأثر الإمام
تأثراً بالغاً لما علم أنهم أتوا إليه مشاة، فأحسن عليه السلام ضيافتهم وأكرم وفادتهم، وعند
سفرهم زودهم بزادهم ونفقة سفرهم وزاد في العطاء (١) .

* وكان عليه السلام أثناء عمله بالسودان يوفر من معاشه حتى يكون عائد كبير
يرضى به المحتاجين عند نزوله مصر في إجازته السنوية، وكذلك ليصل بها رحمه
حتى أخواته بالرغم من أنهن متزوجات وكان أزواجهن أغنياء.

* وكان الإمام عليه السلام يلقي دروسه بالجامع الكبير الذى يتوسط مدينة الخرطوم،
وتقع على جانبيه الأسواق، ومن حوله محطات المواصلات العامة، ولذلك فإن المارة
والباعة الجائلين يتجمعون حوله من كل مكان، وكذلك ذوو الحاجات، ويتجمع
حوله وإلى يومنا هذا الفقراء والمساكين وذوو العاهات ممن أقعدهم المرض، وهم
يسكنون حول سور المسجد الكبير لا يكادون يفارقونه، وكان الإمام عليه السلام يحنو
عليهم ويجلهم أيما إجلال ويواسيهم بماله وجهده وينبه المسلمين بمكانتهم من الله
تعالى، وقد تواتر عنه أنه كان يأمر أهل بيته بتجهيز اللوائم وإعداد الطعام الشهى
لأنه سوف يدعو بعض عليّة القوم من ذوى المكانة لتناول الطعام معه، وعند
عودته عليه السلام إذا بصحبته جمع غفير من هؤلاء الفقراء وذوى العاهات فى ثيابهم الرثة
وهيئتهم التى تنفر منها النفوس، ويرحب بهم الإمام ويمد لهم موائد الطعام الشهى
ويبالغ فى إكرامهم، وعندما كان يتعجب أهل بيته ويقولون: هل هؤلاء هم
الوجهاء ذوى المكانة؟ يقول لهم: إن هؤلاء هم الأمراء وأصحاب الجاه والمكانة يوم
القيامة ولهم الدولة هناك، يقول سيدى أبو مدين رضى الله عنه فى ذلك:

(١) أخبرنا بها الشيخ نصر أحمد سعد العقاد سماعاً من والده.

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

* وكان من الإخوان من يود دعوة الإمام في بيته ولكنه لا يستطيع لضيق ذات اليد، وكان من حرص الإمام على إدخال السرور في قلوب هؤلاء الأحابب الذين تفيض أعينهم من الدمع لعدم الإستطاعة، يعطى بعض خواصه مبلغاً من المال لشراء ما يحتاجه الأخ لضيافة الإمام وإخوانه.

ومن وصايا الإمام لأبنائه يقول عليه السلام :

يا أبنائي: أكرموا جيرانكم يدم لكم الصفاء والهناء وتزد نعمكم، لأن إكرام الجار يرضى الله تعالى ويرضى رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، ويجعل لك جارك خادماً لك يطيعك، يلييك إن ناديتَه ويسرك إن قابلته، فإن أنت لم تكرمه كان كالمهم الملازم والغريم المطالب ولا غنى لك عنه ، والعاقل لا يجعل له سبباً وحشاً مفترساً مطلقاً من القيود قريباً من بابه ولأن عجزت عن إكرامه وتأليفه فتب إلى الله واسأله المعونة، وافرض أن جارك بعيد عنك فلا تذكره إلا بخير، وانس إساءته يهده الله أو يريحك منه.

وبياناً لحقيقة الكرم قال الإمام عليه السلام: ليس الكرم أن تخرج للناس طعامك وشرابك، وإنما الكرم أن تقدم لهم الحكمة التى تنفع، ومن هذا نستطيع القول أن حياة الإمام مثلت الكرم بعينه في جميع مجالاتها، وحقيقة الإنفاق بينها الإمام عندما فسر الآية : ﴿وَمَارَقَهُمْ يُفْقُونَ﴾ البقرة: ٣ فقال في كتاب (٣. أسرار القرآن) : والإنفاق هو العمل المالى الذى تقوم به الحجة على أن المؤمن أثر ما عند الله تعالى على ما عند نفسه مما به تطيب حياته فى الدنيا، وهو الحجة على كمال إيمانه بالغيب لأن يوم القيامة من الغيب، وبذل المال لنيل السعادة فيه كمال التصديق بها.

وعندى أن قول: ﴿وَمَارَزَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ البقرة: ٣ يدل بصراحة على أن المؤمن واجب عليه أن ينفق من كل نوع من الأنواع التي تفضل الله تعالى بها عليه من العافية والعلم والجاه والعصبة والمنصب والحكمة والصناعات والفنون، فإن كل ذلك رزق من رزق الله للعبد، ومن حصرها في المال لاحظ كل ما ينفق خرج من ملك المنفق، والعلم ينمو بالنفقة، فتسمية ماعدا المال بالنفقة تسامح، ورداً على هذا نقول أن الله وعد المنفق من الحلال الطيب في الحلال الطيب بعشر أمثال ما ينفق، وبسبع مائة، وبأضعاف ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

وبين الإمام أيضاً حقيقة الإنفاق والبر والكرم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَنَنَاقِلُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ آل عمران: ٩٢ فقال: معلوم أن المال عند أكثر الناس أعز من الروح، فإننا نرى الناس يقتلون دون أموالهم، وقد يعادى الإنسان والديه وأولاده حرصاً على المال وقد ينسى الإنسان أن المال وسيلة إلى نيل الضروريات والكماليات فيجعله مقصوداً لذاته يضحى في سبيل جمعه ونموه بكل رخيص وغال من صحة وقراة ودين، لذلك كان البرهان على كمال الإيمان بالله وحسن التوكل عليه: بذله في وجوه الخير، فحصر الله البر في منح المؤمن بعض ما يحبه منه لأقاربه وأهل الحاجة إيثاراً لهم على نفسه كما قال سبحانه: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر: ٩.

وإن تأولنا قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢ على وجه الإطلاق يكون الذى ينفقه المؤمن مما يحب عامّاً من علم ومال وحياة وشرف وترف وعفو عن المسيء وصلة للقاطع وإعطاء لمن حرمه وإيثاراً للمؤمن على

نفسه، وبذلك يكون قد جمع أنواع البر حتى ينال بر الله تعالى له فيؤثره الله تعالى بتفريده لذاته لقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ (١) ويكون البر جماع الخير كله.

تواضعه

كان الإمام عليه السلام متواضعاً، وكان يعلم تلاميذه خلق التواضع بعد أن يضرب بنفسه المثل أولاً.

* فعندما توجه إلى الفيوم في أول زيارة له، ذهب إلى مسجد سيدي الروبي ليصلي الجمعة، وعلم إمام المسجد وهو الشيخ سعد العقاد شيخ الطريقة الشاذلية العقادية بحضور الإمام فطلب منه أن يخطب الجمعة، ولكن الإمام اعتذر في تواضع، فلما أصر إمام المسجد طلب منه الإمام أن يحضر ديواناً ليخطب منه، وقف الإمام ليخطب والديوان بيده ولكن الله فتح عليه أبواب المعرفة والبيان فتكلم بغير ما هو مكتوب مما أدهش الحاضرين وجذب القلوب إليه، فقال له الشيخ سعد العقاد بعد الخطبة: أقسم أنك كنت تقرأ من الغيب وليس من هذا الكتاب.

وكان أسلوب الإمام عليه السلام في ألقاء الدروس متميزاً، وكذلك كانت له آداب خاصة إذا أراد أن يفسر القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو أى متن من متون الفقه، فقد كان عليه السلام جميل الهيئة حسن الهندام يلبس زى العلماء ويجلس على كرسي خاص توقيراً للعلم، فإذا أراد أن يبدأ الدرس أمسك بالمصحف الشريف أو المتن الذي يريد القراءة منه أو يمسك بأى كراسة حتى وإن لم تكن هي المتن الذي

(١) سورة يوسف آية ٩١.

يقرأ منه، تقييداً بالسبب ومحافظة على مرتبة الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ وآله ﷺ، وهذا هو حال أهل العلم بالله تواضعا معه ﷺ وآله ﷺ.

* ولما سافر الإمام إلى عزبة البرج لأول مرة وكان معه عدد من الإخوان، وجد فيها رجلا متمصوفاً يحتكر الوعظ والإرشاد لأهلها على غير علم، وله أربعة أولاد أعطى لكل ابن منهم خلافة علقها تحت إبطه في علبة من الصفيح وعلماً كبيراً. توجه الإمام وقبل يد هذا الرجل وقال له أنا ضيفك، ففرح بالأمام جداً وقال له اجلس واسمع مني يا أبا العزائم، وأنصت له الأمام والحاضرون، وتبين له ﷺ وآله ﷺ أن الرجل يتكلم بغير علم حتى أنه قال أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مالكي المذهب، وبعد أن انتهى قال للإمام: سمحت لك يا أبا العزائم أن تتكلم. وهنا ألقى الإمام درساً مبيناً للحاضرين ما هم بحاجة إليه بأسلوب حكيم، حتى إذا فرغ من درسه خلع الأولاد خلافتهم وأعطوها لأبيهم وخرجوا معه رضوان الله عليه ينشدون علمه ويتلقون عنه الحكمة.

* ومن تواضعه أنه وهو في أوج المعرفة وقمة العلم كان إذا وجه إليه سؤال فقهي ومعه علماء لا يبدأ بالرد بل يستأنس بآرائهم تكرمة لهم وتواضعاً منه.

* وقد ربي الإمام تلاميذه على التواضع، وها هو الشيخ محمد الطوبجي من كبار تجار القطن في بالمنيا وفي مصر يحس أنه صغير جداً أمام إخوانه ويخدمهم. وفي إحدى ليالي ذكرى المولد النبوي الشريف، زار النبيل عباس باشا حلیم الإمام رضوان الله عليه، فقد كان من أحبابه، جلس الأمير مع الإمام. وأقيمت حلقة الذكر وطلب الإمام من الشيخ محمد الطوبجي أن ينشد علي الذكر من مواجيد، فأنشد بجمال صوته وشدة حاله الذي أثر في الأمير، فأضمر النية أن يمنحه مبلغاً من

المال وطلب من الإمام مقابلته . وقبل انصراف المجلس سأل الإمام عن المنشد فلم يجده . ولما حضر دخل على الإمام معتذراً فقال له الإمام: أين كنت ؟ أفي ليلة جدك رسول الله تغيب ؟ فقال ساحني ياسيدي فقد شغلت رغم إرادتي، فقد كان اليوم موعد تسليم القطن، فذهبت لأبدأ العمل وتركته لغيري لأكون بجوارك، ثم سأله الإمام: وكم مقدار هذا الذي شغلك اليوم ؟ فرد على سماحتة قائلاً: آلاف مؤلفة ياسيدي، فانتبه النبيل عباس باشا حليم وقال: لا ينبغي أن يقول هذا إلا محمد الطوبجي، وقال الإمام: هذا هو محمد الطوبجي الذي أثر فيك أثناء الإنشاد، وما جاء في هذا اليوم رغم مشاغله إلا حبا في رسول الله، دع مالك في جيبك يانبيل، إن الذي ينشد أناشيد مولد رسول الله ويحيي مولده هو من أغنى أغنياء مصر، وما جاء إلا في حب رسول الله.

زهدہ

إن الإمام لو أراد الدنيا كلها لأتته من أقرب الأسباب، لكنه عليه السلام تعفف عن طلبها لعلمه بحقيقتها وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة بل إنه كان حريصا على أن يكشف لأتباعه ومريديه حقارة الدنيا لتسمو همهم من الإقتصار على طلبها وبذل الهمم لنوالها .

*و ذات مرة ضرب مثلاً عمليا على مائدة طعام كان قد أقامها له الشيخ العقاد، فاجتمعت القطط حولها، فأخذ الإمام قطعة من اللحم وألقاها للقطط، فتضاربت وعض بعضها بعضاً وارتفعت أصواتها، فقال الإمام: كانت هذه القطط تعيش في صفاء وحب، إن هذه الكبيرة هي أم لهذه الصغيرة، والصغيرة هذه أخت لهذه، تلك أسرة واحدة كانت تعيش في هدوء قبل أن تدخل الدنيا بينها ممثلة في قطعة اللحم، فلما دخلت الدنيا تقاتلوا.. وهكذا الدنيا .

*كان الإمام يدرس في الكعبة والإخوان حوله، فجاءت أميرة هندية ومرت على المجلس فلاحظت أن الجالس للدرس ليس عالما عاديا، فأرسلت فأحضروا لها أكياسا مملوءة بالنقود الفضية . ألقّت الأميرة أولا أكياسا أمام الإمام ثم لإخوانه الجالسين، فلم يرفع الإمام رأسه ولا الإخوان . نادى الإمام وقال اثنوني بشيخ المسجد، فلما جاءه قال: اجمع هذا المال ووزعه على العمال بالمسجد فإننا ضيوف رب العالمين.

*كان توفيق باشا جلال من كبار أغنياء الصعيد، وقد وجه الدعوة للإمام، وأقام عنده مدة الضيافة ثم بعد ذلك استأذن للعودة، وكان معه ابنه السيد عبد الله محمد ماضي أبوالعزائم عليه السلام في سن الثانية عشرة. وقد أوصل الباشا الإمام إلى

القطار، وبعد أن مشى القطار قليلاً قال السيد عبدالله لوالده وهو في حالة من السرور: إن الله قد أكرمنا وكتب لك الباشا هذه الحجة مئة فدان باسمك واستحي أن يعطيها لك وطلب ذلك مني، وقدم إليه الحجة . غضب الإمام غضباً شديداً وقال: أنا أدله على الله وهو يدلني على الدنيا ! وقال لابنه لما لم تخبرني قبل ركوب القطار ؟ وأمره أن يتزل في المحطة القادمة لرد هذه الحجة للباشا، فقال الإخوان ياسيدي إذا نزل فسوف يدخل عليه المغرب ويبيت في الطريق فقال: يبيت في الطريق ويرجع الورقة لصاحبها. ونزل السيد عبدالله وبصحبه بعض الإخوان وأعاد الورقة.

* وفي أول رحلة حج للإمام (١) عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م) ، وكان معه نجله السيد محمد الحسن وعدد من خاصة تلاميذه، وأثناء نزوله في منزل أحد الإخوان بجدة، جاءه مندوب من طرف الشريف حسين أمير مكة يحمل له برقية يذكر فيها: (الإمام السيد محمد ماضي أبو العزائم بجده. الأقطار الحجازية تتشرف بقدمكم. في خدمتكم رئيس البلدية بجدة حتى تشرفوا مكة. حسين بن علي) فتوجه الإمام إلى رئيس بلدية جدة ومعه البرقية، فقال له : إن الأراضي المقدسة ترحب بقدمكم، فرد الإمام قائلاً :

(نسأل الله أن يعيد للإسلام مجده) ، ثم قرأ رئيس البلدية البرقية التي وصلته من أمير مكة وهذا نصها : (كونوا في خدمة الإمام السيد محمد ماضي أبو العزائم ومريديه) حتى يشرفنا بمكة . إمضاء حسين بن علي) ثم قال مخاطباً الإمام: لقد أعدنا لفضيلتكم وجميع المريدين وسائل الراحة والانتقال حتى تشريفكم مكة

(١) بعد بلوغه سن الحلم لأنه سبق أن حج قبل ذلك مع والده وعمره ١٢ عاماً .

وذلك تلبية لرغبة سيدنا وسيد الجميع. وهنا ابتسم الإمام وقال له : (أما إنه سيدك يابني فلك أن تسيد من شئت على نفسك، وأما إنه سيد الجميع فمن يقول بذلك غيرك ؟ إن سيد الجميع هو الواحد الأحد). ثم استطرد الإمام موجهاً الحديث لرئيس البلدية: (أنا يابني لا أستحق هذه العناية من الشريف، وهذا ردائي كما تراه بسيطاً، وقد سبق وأن عمل إخواني لراحة إخوانهم فترة وجودنا بجدة)، ثم كرر الرجاء لرئيس البلدية، وكرر الشكر والاعتذار وانصرف. وما كاد الإمام يصل الى بحرة (قرية بين جدة ومكة يستريح بها الحجاج) حتى كان في انتظاره مندوب من قبل أمير مكة، ومعه بعيرين أحدهما يحمل ماء زمزم وماء عين زبيدة، والآخر يحمل أقفاص الفاكهة المتنوعة، وقدمهما هدية من الشريف حسين بن علي للإمام، وعلل ذلك بأن ماء الشرب في بحرة غير صحي إذ هو ماء الأمطار المخزون في حفر تحت الأرض، وثن الشربة منها خمسة قروش.. فاستدعى الإمام شيخ قرية بحرة وقدم له ما وصله من أمير مكة مخبراً إياه أن أهالي بحرة أولى بهذه الهدية منه .

و لما وصل الإمام مكة زاره وزيار للشريف حسين أحدهما اسمه الغزاوي وهو وزير البريد والبرق يدعوان الإمام لزيارة الشريف في داره، لكن الإمام أخبرهما أن أمير مكة قد أغضب رسول الله ﷺ وآله ﷺ بقتله إخوانه الأتراك المسلمين، والتشجيع بحشتهم بأسلحة الكفار الإنجليز، ولا أستطيع أن أمد يدي في يد رجل هذا شأنه، فاشتد تأثرهما من هذا الفعل.

و في اليوم التالي وبعد طواف القدوم ونزول الإمام في منزل بأحياء (مكة) حضر وزير خارجية الشريف حسين وإسمه فؤاد الخطيب وهو سوري الجنسية وكان يعمل قبل ذلك مدرسا للغة العربية بالخرطوم وكان على علاقة طيبة بالإمام . وعندما سلم على الإمام سألته: أين أنت يافؤاد ؟ فقال مشغولون، فقال الإمام

:كان الله عوناً ومعيناً، فقال الوزير صاحب الجلالة الهاشمية في انتظارك، فقال الإمام متعجباً: في انتظاري أنا؟ أنا متعب من السفر، فأخبره أن الحاضرين معه مبروك باشا قائد الحمل والأمير شوكت علي والأمير محمد علي - من الهند - وهم أحبائك، فاعتذر الإمام كثيراً عن عدم الذهاب ثم قال: أنت تعرفني منذ زمن، إنني أبعد الناس عن زيارة الملوك والأمراء، ولقد أحرمتنا من بيوتنا وتجردنا لزيارة رب البيت لا لزيارة الملوك، فإن كان ولا بد، سأرسل معك بعض أولادي، أما أنا فلا يمكن. وأرسل معه نجله السيد محمد الحسن والشيخ أحمد السبكي والسيد عبدالحليم خفاجي وبعض الإخوان، ولما قابلوا شريف مكة أخبره السيد محمد الحسن أنهم حضروا نيابة عن الإمام أبي العزائم، وأنه لا يستطيع الحضور لعدم استطاعته وضع يده في يد قاتل الأتراك المسلمين الذين لاذوا بأستار الكعبة، فقال له حسين بن علي: والله لولا أنك شاب وسيم ومسلم ومن العلماء وأتيت لحج بيت الله ما علمت أين تمضي من مجلسنا، ولما عادوا وأخبروا الإمام قال: (كذب والله) وكررها ثلاثاً ثم قال: (إنه لا يملك أن يفعل شيئاً فالله معنا وحافظنا).

و في اليوم التالي جاء الغزاوي وزير البرق والبريد وأبلغ الشيخ أحمد السبكي أن شريف مكة سيرسل مرة أخرى مندوباً من قبله لدعوة الإمام أبي العزائم وباراد أخيه في اليوم الذي يلي الدعوة، وأمام حب الغزاوي للإمام أكد على عدم تلبية الإمام لهذه الدعوة السابق معرفته أن الشريف قد دبر هذه المكيدة للفتك بالإمام وبمن معه، وفعلاً جاء مندوبه بعد ذلك بساعات وأخبر الإمام بالدعوة وحدد موعد اللقاء ووصف المكان .

توجه الإمام وأصحابه إلى المكان المحدد في الوقت المحدد رغماً عن نصيحة الإخوان بعدم الذهاب، ولكن الإمام أخبر أنه كلمه ثقة بالله وبالحفظ والرعاية .

ووصل الإمام ومن معه إلى المكان المحدد فلم يجدوا إلا العبيد الذين أوصدوا عليهم الأبواب بعد دخولهم، فما كان من الإمام إلا أن توجه بالدعاء إلى ربه قائلاً: (اللهم إن هذا الطاغية قتل إخواننا المسلمين بأسلحة الكفار وأنت الفاعل المختار، فانتقم يا منتقم، اللهم طهر الحرم الشريف من أمثاله) علا بكاء الإخوان ومعهم هؤلاء العبيد الذين كانوا يؤمنون على الدعاء، واعتذروا للإمام عن سوء استقبالهم وما كانوا ينوون فعله من قتل كما أمرهم الشريف حسين بن علي أمير مكة وتوجه الإمام بعد ذلك إلى منى وجلس بين محبيه يلقي درساً وأثناء ذلك دخل عليه أحد مرافقيه مترعاً باكياً مخبراً إياه أن سارقاً اقتحم خيمة الإمام وسرق منها جميع النقود- وكان الإخوان قد استودعوا أموالهم وأماناتهم عنده للإنفاق منها- فاستبشر الإمام وسجد لله شكراً، وطمأن أصحابه أن الله لن يضيعهم، وأنشأ رضي الله عنه يملي هذه القصيدة:

و مرغ علي ترب البقيع خدوديا	بخيف مني عرج بلغت الأمانيا
ألا رحمة أرجو كشف ما بيا	و ناد ربوعاً نورَ البدر أفقها
تطيب وفيه نور قدس بدى ليا	و في طيبة طب فالوصال بطيبة
و تنظر هذا البدر للقوم ساقيا	إذا وصل العشاق بالروح للعلا
علا نوره حتى أنال مراديا	إذا جن ليلي صرت والبدر قدوتي
إلى منزل فيه الهداة المواليا	فيا أيها العشاق هيا وشمروا

* وعندما كان الإمام يعمل بالتدريس في مدينة أم درمان بالسودان، كان تلاميذه يتنافسون في محبته وخدمته نظراً لشدة تأثيرهم به ومحبتهم له. وكانت إدارة الكلية قد نشرت لتوها كشفاً بترقيات المعلمين بها، فوجد أحد تلاميذه أن للإمام

زيادة في راتبه الشهري تستحق التهئة، فأسرع ليبشر أستاذه، وكان عليه السلام متطيًا دابته وعلى وشك الخروج من باب الكلية، فاستوقفه قائلاً: يامولانا السيد أبشرك، فقال الإمام: أتبشرني يابني؟ بشرك الله بالخير (قالها ثلاث مرات) ، ثم قال: بماذا تبشرني يابني؟ فقال له: لقد رقيت إلى درجةٍ وظيفية أعلى، وهناك زيادة في الراتب الشهري. فما كان من الإمام إلا أن قال: أتبشرني بالدنيا يابني، ثم أردف قائلاً: ما أتاني الله خيراً مما آتاكم، قالها ثلاثاً. ثم أدخل الإمام يده في جيبه وأخرج ريالاً مجيداً وأعطاه لتلميذه ومضى إلى وجهته.

* كان الإمام في بداية عمله ببلدة الإبراهيمية يحب الجلوس تحت الأشجار ويأنس بالخلوات بعيداً عن دنيا الناس. وفي يوم، مر عليه علمي بك وهو ممتطيًا فرسه- وكان من الأعيان وذوى الجاه العريض ومن الأتراك ذوى النفوذ- وقال له: السلام عليك ياماضى، السلام عليك يأبا العزائم. ولما رد الإمام عليه السلام نظر إليه فوجد حب الدنيا والعظمة قد تمكنا من قلبه، فأراد أن يتزل ذلك منه وذلك بفضل سابقة الحسين الأولية له. قال الإمام له: يا علمي بك إن الذى تمتطيه من ركائب الذهب هو التراب الذى يسير عليه أبو العزائم . ضع هذه الركائب على الأرض وقل بسم الله الرحمن الرحيم ثم أنظر إليها، ففعل فإذا بها تراب، ثم قال له خذها وقل بسم الله الرحمن الرحيم، ففعل فعادت إلى ما كانت عليه. ذهل علمي بك ثم تفكر فيما حدث له وهو في مواجهة الإمام. ومن يومها خلع ما كان عليه من حلل الدنيا وارتدى ملابس الزهد وسار خلف الإمام خادماً له طوال حياته، وفتح له بيته وكان سبباً مباشراً في انتشار الدعوة في الإبراهيمية حيث جمع عليه أهل البلد في بيته. وعلمي بك وأمثاله ممن عشقوا فهماموا عددهم كثير.. قال فيه الإمام:

ولا فخر.. ملوك العشق خضعوا على بابي.. وقد طلبوا وصالى
أنا الساقى مداما سلسيلا لأهل معيتى أهل الكمال
وأبدالى هم الأقطاب حقا وأفرادى مفاتيح لحالى

والإمام يعلم علم اليقين حقيقة الدنيا وما ورد عنها فى كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ وآله، لذلك يقول فى بعض حكمه معلماً ومذكراً:

* لم تخلق الدنيا لتنظر إليها، وإنما خلقت لتنظر بها إلى الآخرة.
* من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الآخرة رغب فيها ومن عرف الله آثر
رضاه، ومن لم يعرف نفسه فهو من دينه فى غرور.
* الدار الدنيا فانِ نعيمها، فى عناءٍ سليمها، وفى شقاءٍ سقيمها، وفى كدر
غنيها، وفى كرب فقيرها، لا يصفو عيشها لذى بال ولا يصفو صفوها من شوب
الوبال.

* إذ اشتغل الإنسان بالدنيا نسي الآخرة وإذا اشتغل بهما نسي الله تعالى.
* من قنع من الدنيا باليسير هان عليه كل عسير .
* الدنيا خمر الشيطان من شربها لم يفق إلا بين عساكر الموت نادماً بين
الخاصرين، قد ترك لغيره منها ما جمع، وتعلق بجبل غرورها فانقطع، وقدم على من
يحاسبه على النقيير والقتيل والقطمير.
وعن حقيقة الزهد وفضل الزاهدين يقول العلامة في كتاب (أصول الوصول لمعية
الرسول) :

معرفة الزهد متوقفه على معرفة الدنيا أى شىء هى، فقد قال الناس فى الزهد أشياء
كثيرة، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بين الله تعالى وأغنى بكتابه الذي جعل

فيه الشفاء والغنى، وقد قال رسول الله ﷺ وآله: (هو الحبل المتين والصراط المستقيم، من طلب الهدى في غيره أضله الله) (١)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا اخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ الشورى: ١٠، وقال عز وجل: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة: ٢١٣. فقد ذكر الله جل اسمه في كتابه :

(١) أن الدنيا سبعة أشياء وهو قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ آل عمران: ١٤ ثم قال تعالى في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ آل عمران: ١٤ . فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا، وأن هذه الدنيا هذه السبعة وما تفرع من الشهوات رد إلى أصل من هذه الجمل، فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا نهاية الحب، ومن أحب أصلاً منها أو فرعاً من أصل فقد أحب بعض الدنيا، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا، وفهمنا من دليله أن الحاجات ليست بدنياً لأنها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دل أنها لا تسمى شهوة، وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا.

وأستند ذلك الخبر عن الله تعالى في الأسرائيليات (أن إبراهيم عليه السلام أصابته حاجه، فذهب إلى صديق يستقرض منه شيئاً فلم يقرضه، فرجع مغموماً، فأوحى

(١) ذكره السوطي في الجامع الكبير.

الله إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يارب عرفت مقتك للدنيا فخشيت أن أسألك منها فتمقتني، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا) .

(٢) وَرَدَّ سبحانه وتعالى في آية أخرى السبعة أوصاف المتقدمة إلى خمسة بقوله جل وعلا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ الحديد: ٣٠، فهذه الخمسة هي وصف من أحب تلك السبعة.

(٣) ثم أختصر سبحانه الخمسة في معنيين هما جامعان للسبعة. ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ﴾.

(٤) وقد رد الجميع على وصف واحد بقوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ

هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات: ٤٠ - ٤١ فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ النازعات: ٣٧ - ٣٩ ، فلما كانت

الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا، لأن النهى عنه ضد الإيثار له. فمن نهي نفسه عن الهوى ، فإنه لم يؤثر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهو الزاهد وكانت له الجنة التي ضد الجحيم، فصارت الدنيا هي طاعة الهوى وإيثاره في كل شيء.

فينبغي أن يكون الزهد مخالفة الهوى في كل شيء، فمن زهد في الحياة الفانية وفي ماله المجموع بالجهاد للنفس والإنفاق في سبيل الله فقد زهد في الدنيا، ومن زهد في الدنيا أحبه الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ وآله ﷺ، ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد في الدنيا ولأن الله تعالى يحب من زهد في الدنيا. ثم كانت مخالفة الهوى من أفضل الجهاد لأنه هو حقيقة الرغبة في الدنيا، وقد

عبر رسول الله ﷺ وآله عن الزهد في الدنيا فقال: (ازهد في الدنيا يحبك الله تعالى) (١) .

فالزاهد في الدنيا حبيب ربه تعالى، والراغب في حب البقاء لنفسه منافق في دين ربه تعالى، ومنه الخير الذي جاء: (من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق) (٢) ، وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ محمد: ٢٠ يعني نفاقاً ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغِشِيِّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الْقَوْلُ مَعْرُوفٌ﴾ محمد: ٢١ أى يظهر منه طاعة وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ محمد: ٢١ وحققت الحقائق كذبوا ونكثوا ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ محمد: ٢١ في الوفاء ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ محمد: ٢١.

ولما حقق الله الزهد بغنى النفس وإخراج المال في ذكر المبيع والمشتري في قوله: ﴿يُقَنِّلُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنَلُونُ وَيُقْنَلُونُ﴾ التوبة: ١١١ ، وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى، وكان العوض من ذلك الجنة.. كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع نفسه طوعاً قبل أن يخرج نفسه إليه كرهاً، وكان الله تبارك وتعالى هو المحبوب له القريب منه، فصار العبد محبباً له فجعله من

(١) أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة.

المقربين عنده تعالى. وإذا كانت الدنيا هي طاعة الهوى وحب الحياة الدنيئة لمتعة النفس الشهوانية ، كان الراغب في ذلك آمناً لمكر الله تعالى، مشترياً للحياة الدنيا، بائعاً بذلك الحياة العليا فلم يكن محباً له وكان من المبعدين عنه بسوء إختياره ، وحق عليه الخسران والجحيم في الآخرة لأنه ضد الزاهد المقرب الظافر بدار القرب في جوار الحبيب القريب.

تفضيل حقيقة الزهد:

(١) إذا كان الشيء موجوداً عندك وأنت ممسكه لنفسك ثم توهمت أنك زاهد فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزهد فقد كذبت على نفسك بتسمية إياها زاهداً وكذبتك نفسك بوجوده جهلاً منها بالعلم بتسميتك لك زاهداً ، أو كذبتك وجدك على العلم جهلاً منك بربك عز وجل، أو موهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد، وهذا زهد منك في الزهد، ورغبة منك ايضاً في الدنيا حتى يخرج الشيء الذى تظن أنك زهدت فيه وتعتاض منه محبة إليه تعالى وطلب مرضاته تبارك وتعالى أو ما عنده من ثوابه، فحيث يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء فتكون صادقاً فهناك وصفك الزاهد بالزهد وسمائك الزاهدون زاهداً.

(٢) أما إذا لم يكن الشيء موجوداً لك، فإن زهدك فيما لا تملك لا يصح. والزهد في معلوم باطل من قبل أن تصرفك لا يصح فيما لا تملك، فكذلك لا يصح زهدك فيه، ولعله لو كان موجوداً تغير قلبك به وتقلب فيه إذ ليس الخبر كالمعاينة، لأن الخبر قد يشتبه ويوهم، والمعاينة تكشف الحقيقة وتحكم على الخلقة، ولأن النفس ذات بدوات لما طبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية، فكذلك لا يجعل ظناً معدوماً كيقين موجود، إذ لو كان - كيف يكون الأمر؟

ولكن قد يكون لك مقام من المعدود في المعدوم بقيامك بشرطه وهو أن لا تحب وجود الشيء ولا تأس على فقدته، أو تكون مغتبطاً بعدمك مسروراً بفقرك، يعلم الله ذلك من غيبك ويطلع على سرك أنك لا تفرح بوجوده لو وجدته وتخرجه إن دخل عليك، وأن قلبك قانع بالله سبحانه، راضٍ عن الله سبحانه وتعالى بحالك التي هي العدم من الدنيا، غير محب للاستبدال بها من الغنى بصدق يقينك بفضيلة الزهد.. فإذا كنت بهذا الوصف حسب لك جميع ذلك زهداً وكان لك بأحد هذه المعاني ثواب الزاهدين وإن لم تكن للدنيا واجداً.

وصف الزاهد وفضله:

قوة الزهد الذي لا بد منه وبه تظهر صفة الزاهد- وينفصل به عن الراغب هو:

- (١) أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس.
- (٢) لا يحزن على مفقود من ذلك.
- (٣) أن يأخذ الحاجة من كل شيء عند الحاجة إلى الشيء.
- (٤) لا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة.
- (٥) لا يطلب الشيء قبل الحاجة.

أول الزهد

دخول غم الآخرة في القلب، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى. ولا يدخل غم الآخرة إلا بعد خروج هم الدنيا، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى. وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يؤمن عليه الرجوع فيه، ومن ترك الدنيا ولم يذوق حلاوة الزهد رجع في الدنيا، ولا يذوق حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى.

خالص الزهد

هو إخراج الموجود من القلب. ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، وهو عدم الموجود على الاستصغار له، والاحتقار والتقالل لهوان الدنيا عنده وصغرها في عينه، فبهذا يتم الزهد. ثم ينسى زهده في زهده، فيكون حينئذ زاهداً في زهده لرغبته في مزهده، وبهذا يكمل الزهد.

لبه وحقيقته

وهو أعز الأحوال في مقامات اليقين، وهو الزهد في النفس لا الزهد لأجل النفس، ولا للرغبة في الزهد للزهد، وهذه مشاهدة الصديقين وزهد المقربين عن وجد عين اليقين. ودون هذا مقامات إخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظرته إليه، وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين، وذلك العمل بالزهد عقد وعمل إذا كان الزهد عن الإيمان، والإيمان قول وعمل، وكذلك الزهد عقد وعمل، فالعقد خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة في القلب، والفعل بالزهد إخراج المحبوب من اليد في سبيل الله معاضاً منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جل وتعالى أو قرب جواره في داره. وقد روينا عن رسول الله ﷺ وآله: (أن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب) (١)، والذي يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى، إذ قد تولاه فيما أعطاه.

(١) رواه الحاكم والبيهقي من حديث ابن مسعود.

وتحدث النبي ﷺ مبيِّناً رؤية أهل الله للدنيا، وأنها لا تُدْمُ لذاتها، وأنها محمودة عند الأبرار، وهى الموطن الثانى للأخيار، لا يلهمهم آثارها عن أنوار تجليات الحق سبحانه فيها.. فقال:

هى الوطن المحبوب للأبرار
إليه حنين العارفين وشوقهم
و (كن) مطلب الزهاد جدوا لنيلها
وكون الفنا للغافلين تقيموا
رأوه لهم وطنا فجدوا لنيلها
وأهل الصفاء القدس لهم مطية
أبوا أن يرووه متزلاً فتجردوا
إلى الله ساروا والكيان مطية
رأوا زينة الدنيا وبهجة أهلها
أقاموا بها غرباء والحق أنسهم
بأرواحهم فى حضرة القدس متعوا
تكشفت الدنيا لهم عن مآلها
رأوها غروراً زائلاً فتجنبوا
نعم عاملوا مولاهم بقلوبهم
فصافاهموا مولاهم واصطفاهموا
به أنسوا فى كل ما هو ظاهر
فهم معه فى كل حال وهم به
وهم أنجم من وراث طه تاللات

وقبل (ألست) موطن الأخيار
ولم يحجن عنهم بذى الآثار
و (كن) مراد الفرد المختار
بزهرة حتى رموا فى النار
فحجبوا عن الآيات والأنوار
فساروا به لحقيقة الأسرار
عن الحظ فى طلب العلى البارى
وقد واصلوا الآصال بالأسحار
سراً، وليست عندهم بقرار
على الشرع بين الفكر والأذكار
وأبدانهم فى الكون والآثار
فلجأوا إلى التواب والغفار
معاملة الجهلاء والفجار
وسلكوا سبل مناهج الأخيار
لحضرته وحباهموا بفخار
من الآى والآثار والأطوار
شموس هدى فى أفقه للشارى
بهم وجه التشريع كالأقمار

ومن يده شربوا طهور شرابه
عليه صلاة الله في كل لحظة
وآل وأصحاب كرام أئمة

ثم يخاطب عليه السلام الدنيا فيقول:

آه يادار الفنا فيك البقا
فيك نور الله محكم آيه
فيك منهاج الحبيب المصطفى
أنت روض الشهود مجمل
فيك أنوار التجلى أشرقت
فيك آيات وأسرار بها

مواجهة فضلاً بلا أستار
صلاة بما نحظى بكل فخر
ومن ورثوا الأحوال بالأنوار

ورضا الله وفوز باللقا
وصراط مستقيم للتقى
سلم للوصول سهل المرتقى
قد يراه بالصفاء من ينتقى
والطهور بحانه من استقى
حظوة الزلفى نعيم لا شقا

سيرة الإمام في مصيفه ببرج البرلس (١) تنقل ﷺ في كثير من

البلاد لدعوة الناس إلى الله تعالى إحياءاً لشرعية النبي ﷺ وآله، ومن بين تلك البلاد التي نالت قسطاً وافراً من دعوته قرية برج البرلس بمحافظة كفر الشيخ).

وأهالي هذه القرية يعيشون على صيد الأسماك، وكانت أوقات فراغهم عبارة عن لعب وهو وجلسات سمر، حتى إن الإمام قال عنها فيما بعد عندما باشر نور الإيمان قلوب أهلها في قصيدة طويلة مطلعها:

حيرت فكري في الآثار محصورة أسكرت روعي بالآيات منشورة

إلى أن قال:

يا بحر حيرتني ما أبحت به وى والبرلس كانت قبل معذورة (2)

* وكان الإمام قد التقى بأحد أبنائها وهو الشيخ كامل شمس بمدينة الإسكندرية في مسجد سيدى ياقوت العرش وأحب الإمام وتلقى منه علوماً نافعة أراد أن ينشرها بين أهل قريته، وبدأ في الدعوة إليها فتعرف عليه الشيخ حسن عبد الوهاب القلقاط وغيره من الذين كونوا وفداً زار الإمام بالقاهرة ليجمعوا بين السماع وشهود العيان، فرحب بهم ﷺ وأكرم وفادتهم وجالسوه يستمعون إليه ينهلون من فيض فضل الله المفاض عليه، وعادوا يحدثون بما طالعوه، ويرغبونهم في التلقى عن الإمام ويشوقونهم إلى رؤيته، فاستجاب العديد منهم وتشوقت أرواحهم ولانت قلوبهم وتاقت لرؤياه نفوسهم، ومن بين هؤلاء: الشيخ عرفات الجمال

(١) رواه الشيخ أحمد سرور من برج البرلس.

(٢) أى أنها لم ينكشف فيها نور الإيمان بعد.

الذى سبق أن رأى الإمام فى رؤيا منامية مبشراً بإياه بخير عظيم، فما لبث أن توجه مع الشيخ حسن والشيخ كامل إلى مدينة الإسكندرية التى كان الإمام قد توجه إليها وطلبوا منه زيارة بلدهم ليعم النفع به، فاستجاب لهذه الدعوة.

*وعلى مدى خمس سنوات متتالية وهى من عام ١٣٤٩ وحتى ١٣٥٣ دأب الإمام على زيارتها فى موسم الصيف من تلك الأعوام، وكان يمكث فيها فى كل مرة ما بين الشهر والشهرين تصاحبه أسرته حيث أقام أهل القرية مقراً له أمام البحر مباشرة يجتمعون فيه حوله يتلقون منه أسرار الحكمة وغرائب العلوم والمعارف . وأحبهم رضى الله عنه حباً حمماً، وكان مما انشأ وهو بين ظهرائهم:

هل راح أرواح المحبة دارا	فى الذكر حتى أشهد الأنوارا؟
إن أشرق المذكور أسكر أنفساً	حتى رأينا فى ذكره الأسرارا
إن ناول الراح الطهور حيينا	حتى رأينا المصطفى المختارا
يا خير خلق الله أنت حيينا	أشهد عيون القلب منك منارا
إنا نحبك فاسقنا خمر الصفا	حتى نرى الوجه الجميل جهارا
قلبي لديك وبالبرلس هيكلى	أوصل إليك الفرع أعل منارا
خذنى بكلى يا حبيبى أوصلن فرعى	بأصلى أشهد الأسرارا
لكن قلوب العاشقين دعت إلى	أني أقيم بدارهم مختارا

* وكان قلبه عليه السلام يسوح في آيات الله وفي مكنوناته، فيترجم بلسان العبارة عما كوشف به من أسرار تلك الآيات في قصيدة مطلعها ^(١).

الكون حان وفيه الراح للصادى	لما تجلى لنا قد قدس الوادى
ثغر السرلس فيه البحر يتبعه	بحيرة مأوها ملح لقصاد
وأرضها الرمل : لا زرع ولا ضرع	لكنها تجذب الأرواح للهادى
فيها البساتين من أشجارها إنس	قد جملوا بالهدى من روح إرشاد
مولاي أبدلتهم بالزرع روح هدى	وبالثمار بأسرار وإمداد
منعتهم ما به الأهواء والحجب	أوردتهم منها من خير إيراد
أنت الكريم جواد مانع معط	هينا العناية ياربى بإسعاد

وصف الإمام أهلها بأنهم أشجار في أرض جرداء لا زرع ولا ضرع فيها، وهم مع بعضهم يمثلون البساتين والجنان، مقتدياً بما وصف به ربنا المؤمنين في كتابه العزيز بأنهم أشجار الحق سبحانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ {٢٤} تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ {٢٥} وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ {٢٦} يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ..﴾ ^(٢) فقال الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: (يثبت

(١) قصيدة من خمسة عشر بيتاً قالها عليه السلام يوم الجمعة ٥ ربيع الآخر ١٣٥٢ أثناء رياسته على شاطئ السرلس عندما رأى

الهلل. (ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب)، قصيدة رقم ٤٣٣، دار الكتاب الصوفي ١٩٩٢.

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٤ - ٢٧.

الأشجار).. إذ أن الذين آمنوا هم أشجار الحق وأصحاب الكلم الطيب وأنها تؤتى أكلها كل حين وهى ثمارها.
وقال أيضاً عليه السلام ^(١):

يا إخواني أهل البرلس سر الأئمة من قديم زمان
أحببتمو المختار فزتم بالرضا حتى بلغت حظوة المنان
يا إخواني الحب أعظم نعمة تعطى لأهل الصفو والإيقان
أنتم رجال العصر فضل محمد بشرى لكم فى مولد العدنان
قد صرتمو نوراً لعصر مظلم والله جملكم بنور حنان
شكراً لرب منعم وهب الصفا أعطى المحبة منه بالإحسان

* وجاء بعض الآباء يوماً يشكون للإمام أبناءهم الذين يطيلون تواجدهم معه ومجالستهم إياه، متخوفين أن يؤثر ذلك على أعمالهم وسعيهم لجلب أرزاقهم، فتوجه الإمام يستفسر من أبنائهم عن حقيقة ذلك فأخبروه أنهم يجتهدون فى القيام بأعمالهم وقضاء حوائجهم، وأن قلوبهم لا تطيق بعداً عنه فيهرعون بعد إنجاز أعمالهم للسمع منه والتلقى عنه، ولا طاقة لهم على غير ذلك، فأنشأ عليه السلام قائلاً ^(٢):

فهار الفتى المحبوب فى السعى والفكر وليل الفتى المطلوب فى جذبة الذكر

(١) الجزء الأول من قصيدة تتكون من سبعة عشر بيتاً أولها (أهل العزائم خمرهم قرآني) أملاها عليه السلام بالحضرة ليلة السبت ٥

ربيع الأول ١٣٥١هـ بمصيفه برج البرلس، (ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب)، قصيدة رقم ١٣١ ص ١٣٦ دار

الكتاب الصوفى ١٩٩٢.

(٢) ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب، الجزء الأول، قصيدة ١٤٨ ص ١٥٢، دار الكتاب الصوفى ١٩٩١.

عجيب مجاهدة الرجال نفوسهم لتطهيرها من ظلمة البعد والكفر
شباب مقامهم المعاصى وغفلة يوفقهم للقرب ربى وللخير
نعم هم رجال فى محبة ربهم لقد خصهم منه بساطعة السر
أحبهمو حتى أحبوه هيموا أيا روح الله العلى ألا فرى
تراءى له وجه الجميل فحيروا وفروا من الأكوان فى البر والبحر
فأشهدهم ما فيهمو من جماله فغابوا به عشقاً على الصدق فى السير
فلم يلهمهم حظ ولا شهوة ولا علو وتمكين من الأهل والغير
يقودهمو القرآن ينبئهم بما ينالهمو من ربهم من ضيا الفخر
تراهم سكارى طول ليلهمو بما رأوه من الأنوار فى ليلة القدر
لياليهمو قدر وأيامهم ضيا تجلى لهم مولاهموا ساعة الفجر
على سنة المختار ساروا وفارقوا حظوظاً وأهواء تدل على الشر
قلوبهمو قد عمرت بحقائق وألسنة الأفراد تنبىء بالسر
تراهم فهاراً كالسباع شهامة كما أمر الرحمن بالسعى فى السير
وفى الليل موتى من غرام حبيبهم سكارى حيارى فى شهود وفى ذكر
لقد تركوا آباءهم أمهاتهم وقد جاهدوا بالخال فى السر والجهر
وقد أعجزوا بالعلم كل معلم لأنهم منحوا الحقائق فى الصدر
من الله والإحسان فى كل موطن علومهمو نور يضىء بلا حصر
مجالسهم ذكر وفكر تأدب بآداب خير الرسل من محكم الذكر
فاطمأت الآباء وسكنت نفوسهم.

* وتوجه النبي ﷺ يوماً لنزول البحر ومعه تلاميذه فأنشأ يقول قصيدة هذا جزء

منها:

اعبروا بالبحر كى يجلى الجميل كى أرى فى البحر نوراً لا مثيل
اعبروا بالبحر إني واجد وجد مشتاق إلى بدء العليل
ثمت فى أرض البرلس غامضاً من علوم لاح لى منها الدليل
راح موسى قد أديرت بعدها راح عيسى وهو أستاذ نبيل

وبعد نزوله أنشأ يخاطب البحر فى قصيدة طويلة منها:

طهر يا ماء كللى جسمى وحسى وظلى
طهر حبيبي روحى بنور وجهك حولى
يا بحر أنت جمال محوت عني جهلى
تجلى فيك حبيبي أنلنا كل الطول
يا بحر أشهدت قلبى والعرش فوقك سؤلى

ثم رأى موجة شديدة ستجىء إليه فقال:

والمـوج وافى سـريعاً حتى أقـوم أصـلى

فوصلت إليه شديدة وانتشر الماء على وجهه ورأسه فأكمل قائلاً:

وجهى ورأسى علاها موج عن الحق يملئ

يملئ حديث شهودى عن باطن الغيب مجلى

فأسرع الإخوان برفع كرسيه جهة الشاطئ لشدة الموج، فأكمل فى لهجة سريعة

جداً قائلاً:

وفى البرلس صـحب نالوا الرضا بالسهل

ولما استمع مرة إلى خطيب الجمعة بمسجد سيدى غانم، يشرح قول رسول الله

ﷺ وآله: (العلماء ورثة الأنبياء) (١) ، وبعد انتهاء صلاة الجمعة أقام الإمام

بالمسجد حلقة الذكر فأنشأ قائلاً:

نور الوراثة لاح للأبصار وضيا الفتوة لاح للأسرار

شهد الرجال حقائقاً لم تشهدن إلا لأهل الكشف والأخيار

فاز الكرام بوسعة فى نعمة من منعم معط ومن غفار

ما قد مضى قد عاد نوراً مشرقاً من سادة الأفراد والأبرار

علم وحال.. حجة نبوية

وهنا ضرب الإمام بشدة على فخذه، ثم أخذ عدة خطوات للأمام- وكان

الإمام وقتها قليل الحركة لمرضه- فخر بعض الذاكرين مغشياً عليه لما رأى ما

(١) رواه أبو داود وابن حبان والبيهقي والحافظ الدمياني في المتجر الرابع.

اعتزى الإمام من حال- بدلت ما به من بأساء إلى عافية وقوة- ومن بينهم الشيخ حسن القليبي، ثم أكمل الإمام قصيدة الذكر قائلاً عليه السلام :

راح ظهور دار بالمدرار

طه الحبيب المصطفى المختار

قد أسكر الأرواح محمد

فشاء الله أن تكون الخطبة لشرح الحديث، والحضرة للفهم والمشاهدة، وأحسن الكتبة وهم من كانوا حول الإمام بإجهاده الشديد، فحملوه إلى السيارة لتذهب به إلى سكنه بالمصيف وبقي الكل يتغنون بالقصيدة في الذكر، وأقيم الدرس حتى صلى الكل صلاة العصر، وقد أقبل على الإمام كل من عاداه.

*وقد رد يوماً وهو في برج البرلس على بعض العلماء الذين ينكرون الحال على الصوفية فقال:

الحال حجة دعوى سالك فاني والحال جذبة محبوب لديان
الحال ينكره أهل الجهالة بل أهل الضلالة من خب وشيطان
لكن أهل الصفا يخفون حالهمو عن كل مبتدع عن جاهل جاني
العلم بالله نور لا يراه سوى فرد مشوق إلى روح وريحان
خل الإشارة لا تبدى غوامضها إلا لفان لدى محبوبه داني
إن أنكر الحال أهل الجهل فاعذرهم فالعلم بالله من أسرار إيقان
اخفوا علومكمو صوناً لها عمن مالو إلى الحظ من زور وبهتان
تستروا عنهم فالغيب لا يجلى إلا لأهل الصفا من خير إخوان
وادعوا إلى الله بالحسنى لترتفعوا عنكم بجذبة وهاب وحنان
سيروا على منهج المختار واجتهدوا أن تجمعوا الخلق للحسنى بقرآن

إخفوا عن الخلق ما لا يعلمون فكم خصم أتى طائعاً في حالة الفاني
والله أسأل أن يهدي بنا يعطى رضوانه والعطا فضلاً بإحسان

*لقد أحب الإمام أبناء البرلس حباً جماً، وكان المعروف عنهم أنهم فقراء
الجيوب أغنياء القلوب، وقد شهد الإمام لهم أنهم رجال وقال فيهم:

لا بيت مزخرف أو بمال بل بفقته في محكم القرآن

والكلام في شأن الإمام مع برج البرلس يطول ، فقد اختصها بالذكر في العديد
من مواجيدته وأثنى على أهلها وأحبهم بقلبه، فأثمرت أشجار تلك الحبة ثماراً طيبة
تنشر نور الله في أرضه.

الإمام وزياراته لأولياء الله الصالحين

الأولياء هم صفوة خلق الله وخواص أهل السنة المحافظون على الطريقة (الشريعة) السابجون الغارقون في بحار أنوار الحقيقة، حبسوا أنفاسهم مع الله وأعرضوا عن كل شيء سواه، تولوا الله من عبادة لحضرتة، فتولاهم الله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الأعراف: ١٩٦ ويغدق عليهم من إنعامه وينشر عليهم رحمته ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس: ٦٢، وهم في كل عصر لا ينقصون عدداً ولا يمتنعون مدداً، هم الذين نعتهم رسول الله ﷺ وآله ﴿بقوله﴾: (العلماء ورثة الأنبياء) ^(١)، دعوتهم إلى الله على بصيرة على قدر ميراثهم، يقول ابن عطاء الله السكندري: (إن الأنوار الظاهرة في أولياء الله تعالى إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة الحمديدية كالشمس وأنوار قلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه، فإذا الشمس مضيئة نهاراً، مضيئة ليلاً لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لاغروب لها، فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ وآله ﴿في الأكوان﴾.

وزيارة روضات الأولياء والعلماء العاملين لها فضل عظيم إذ هم ورثة النبي ﷺ وآله ﴿، ولها آداب منها: أن يكون الباعث على زيارتهم امتثال أمر الشارع، قال ﷺ وآله ﴿: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)﴾ ^(٢)، والجزم بفضلهم

(١) سبق تخرجه.

(٢) رواه مسلم والنووي في رياض الصالحين.

وطهارتهم والانتفاع بسرهم والتماس بركتهم لا سيما أهل البيت منهم أصحاب السيادة ومحل الكرم ومهبط الرحمة ومفاتيح السعادة، وأن ينوى بزيارتهم مودة النبي ﷺ وآله ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الشورى: ٢٣ يقول الشيخ ابن عربى رحمه الله:

**أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما اختار خير الخلق منه جزاءه على هديه إلا المودة فى القربى**
والإمداد على قدر الاستعداد، ومن دخل بيت كريم لا يرجع مغبون أو يخرج بغير مدد- قال تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ هود: ٧٢.

يقول سيدى على الخواص رحمه الله: ولا شك فى قبول الدعاء عندهم لأن رحمة الله لا تفارقهم؛ فمن التجأ إليهم لفته الرحمة، ومن انتمى إليهم غمرته النعمة. وفى تحفة المحبين، أن الله تعالى وكل بقبور الصالحين ملائكة يقضون حوائج الزائرين، وبعضهم صرفه إلى حظائر قدسه ويقضى حوائج الزائرين بنفسه، وهذا لا شك هو ود الله لأوليائه سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ مريم: ٩٦.

والإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم رحمه الله لم يترك ولياً إلا زاره عملاً بالسنة، وتوسل ﷺ بهم ودعا الله سبحانه بجوارهم اقتداء واتباعاً، وقد أخرج البيهقى وبطريقه أخرجه التقي السبكي فى (شفاء السقام) وابن حجر العسقلانى فى ((فتح البارى بصحيح البخارى)) من حديث مالك بن دينار فى استسقاء بلال ابن

الحارث المزني رحمه الله في عهد خلافة عمر رضي الله عنه بالنبي صلى الله عليه وآله فقال: أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا، فأثاه رسول الله صلى الله عليه وآله في النوم وقال له: (أنت عمر فأقرئه السلام وأخبره إنهم مسقون) ولم ينكر هذا أحد الصحابة.

والآثار الثابتة أيضاً ما ذكره العلامة ابن حجر في كتابه (الخيرات الحسان) ملخصاً: إن الإمام الشافعي رحمه الله كان يحجى إلى ضريح أبي حنيفة يزوره، فيسلم عليه، ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته، يقول الشيخ العلامة حبيب الله الشنقيطي:

**إن حنيفة الإمام التابعي به توسل الإمام الشافعي
وبالإمام مالك توسلا أئمة العرب فيما أعضلا**

وكان الإمام أحمد رحمه الله يتوسل إلى الله تعالى بالإمام الشافعي رحمه الله حتى تعجب منه ابنه عبد الله فقال له: إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن،

وفي (الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة) لابن حجر الهيتمي:
كان الإمام الشافعي يزور أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ويتوسل بهم كثيراً ويقول:

**آل النبي ذريعتي وهم وإليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحتي**

وكان سيدي أحمد البدوي رحمه الله يزور الإمام الشافعي ويتوسل به ويقول
**يا إماماً يرجي لكل ملم وهماً يرد بأس القوى
وحسباً إننا عليك حسبنا ودخلنا في كهفك المحمي**

وبطل الجنب منك اتقينا من عدو وحاسد وبغى
قد أتيناك زائرين مقاماً وضريحاً عليه نور النبي

وللإمام أبي العزائم عليه السلام قصيدة جامعة في التوسل وحكمه شرعاً يقول فيها:

أيا نفس هل لي في الشريعة برهان يقوم على أن التوسل إيمان؟
وإني لأستفتيك ياقلب حيث قد أمرنا بفتوى القلب والعبد حيران (١)
أعاد رسول الله أهل التقى إلى سؤال قلوب ملؤها الإيقان
ألا اصغ إلى حكم به سر كلمة وفيه شفاء للنهى وأمان
لقد وضع الأسباب ربك حكمة ليشهد فيها، يظهر التبيان
فمن شهد الأسباب تفعل فهو في ضلال مبين قاله القرآن
ومن شهد الأسباب تنبى بأنها أواسط .. فيها الفضل والإحسان
وهذا شهود العارفين برهم لقد خصهم فضلاً به الرحمن
فكن بين بين تفقه الحكم إن من تطرف يهوى ، حظه النيران
توسل أسلاف كرام لربهم بأهل التقى : لباهمو المنان
ولم ينكرن هذا التوسل عالم وكيف ؟ وقد وافى به قرآن (٢)
وإن كان أهل الجهل لم يتوسلوا بميت ولكن ما لهم برهان
توسل بمحبوب إلى الله موقناً بنيل العطايا يمنح الخنان
ولا تلتفت للمنكرين إذا ادعوا عليك بشرك فالهوى خسران

(١) يشير إلى قوله ﷺ : (استفت قلبك ولو أفنأك وأفتوك المفنون).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة).

يلبيك رب العرش عند سؤاله بصفوته والمنعم الديان
إذا كان جبريل الأمين بحجة دعا المصطفى .. في قوله البرهان
ألا انزل على قبر الكليم وصل يا ضيا الأنبياء ، والأمر فيه بيان
وفي بيت لحم فانزلن صل داعيًا وهل بعد هذا حجة برهان؟!
يقول لساني ضارعًا متبتلاً وقلبي توسل ، صدق الفرقان
دعا أهل بدر بل وفاروق قد دعا توسل بالعباس .. صح بيان
توسلت بالمختار والقلب موقن إذا قال .. وافي الفضل والإحسان
وعند زيارته لروضة السيدة لبيبة (١) في يوم الاثنين ١٥ شعبان

١٣٤١هـ، أملى سماحته قصيدتين: بين في الأولى مشروعية الزيارة فقال:

ألهيكلى التذكار حال حضورى أم ذا لروحي حالة التصوير؟
وهل الزيارة للقبور لأنها رمز المشاهد حالة الذكر
والروح تشهد غيب غامض في الكائنات بسرها التقدير
أمر الحبيب المصطفى بزيارة تلك القبور بضحوه وبكور (٢)
هل للحضور مشاهدًا ومراقبًا أم للتأسى بالولى المقبور؟
واجهت حال زيارتى مالا يرى للغافلين من الصفا والنور
أيقنت أن السر في الأمر الجلى لم يدركن بيانه التعبيرى
جسمى يخاف الموت عند زيارتى فيتوب من داعى الجفا وغرور

(١) زوجة الإمام وأم السيد الشفيع الذى توفى جنيًا.

(٢) يشير إلى قوله ﷺ: (كنت نهيكم عن زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم.

والقلب يعقل في الزيارة حكمة وهى الرجوع لمنعم وغفور
والروح تشهد في الزيارة مشهداً فيه البقا لمدير وقدير
والنفخة العليا ترى الاسم العلى يجلى لها بجماله الماثور
سر الزيارة غامض من ذاقه تجلى له الأسماء حال حضور

وفي القصيدة الأخرى بين عليه السلام أسرار الحياة البرزخية فقال:

أفى برزخى روي لها مشهد يجلى فتأنس حين القرب بالمشهد الأعلى؟
وهل تشهد الأرواح روحاً تزورها؟ نعم .. وترى الأشباح فضلاً من المولى
وتأنس أرواح المرادين بمجة لمن لهمو يشتا من هم بها أولى
تراهم بإطلاق شهوداً بلا خفا وأهل الصفا في الله في العالم الأعلى
ومن عشقوا في الله دام صفاؤهم من العالم الدنيا إلى حظوة الجلى
وأرواح أهل الحب في البسط والرضا ومحبوب رب العرش يعطى فلا يقلى
لهم هيمان في البرازخ دائم يحنون للمحبيب حتى لهم يجلى
لقد عشقوا في الله عشقاً مطهرًا عليهم إله العرش حال الصفا صلى
وهذه القصائد من بعض زياراته عليه السلام لأهل البيت والأولياء الصالحين:

الإمام الحسين

أنت نورٌ من سيد الأنبياء أنت فرعُ البتول والأصفياء
أنت ياسيدى الحسين وصيٌّ من وصى من دُرّة في الصفاء
قد شهدت الغيوب بدءاً وختمًا فشهد من خيرة الشهداء
من جمال المختار نصٌ حديثٍ بل ومنك المختارُ في الأنبياء
صاغك الله من جمال وتقوى أنت عيسى الشهيد في الاقتداء

أنت جد الشهيد وابنُ شهيد وابنُ سرِّ الوجود كثرُ الضياء
بالإمام الحسين جُد لي بقرب وانتسابي إليه خير ارتقاء
درة الكثر رفعة وبهاء بل وشمسُ تضيءُ في الأرجاء
أنت نور في كلِّ أرضٍ حبيبي بل ونور من فوق كل سماء
أنت للعالم العلى شهود ذكر ربِّ الحسين خير اجتباء
أنت يا ابن البتول ذخر لراج بل ونورُ لراغب الاهتداء
يا حبيبي فرغٌ توسَّلَ يرجو نورَ جدِّي في الليلة الظلماء
لي قرى منك يا ابن خير وصيٍّ مُنَّ لي بالقوى وخير العطاء
أنت مولى للمؤمنين ابنُ مَوْلى فاسأل الله أن أنال شِفائي
فاعتقادي أنت الوسيلة تُرجى للفروع الرَّاجين خير القراء
يا ضياءً من شمس طه تراءى لأولى الحب بعد كشف الغطاء
سيدي نظرة لفرع مريض قد دعاني حبِّي لكثرت ابتدائي
إنني الفرغُ أنت أصلُ ألح لي نور علمٍ من غيب أهل العباء
لي عيال هم الفروع اسأل الله العطاء العميم بالاجتباء
يا ضياء في مصر لاح مشيراً للحبيب المختار للأمناء
إنني سيدي يُحبُّك قلبي للحبيب المختار في الاصطفاء
أشهدني في ليلة الأُنس وجهًا قد رآه العالون في الإسراء
كى أهني ياسيدي باتصال في مقام يدوم في الإجتلاء
روح حيِّ الحسين، منه تنال علم غيب الآيات والأسماء
واسألي الله إن شهديه فضلاً لي وآلي، والخير للأبناء

سر (مَنى حسين) غيب مصون سرُّ (مَنهُ أنا) به مضمون
تفقه الروح من غوامض هذا سرُّ بدءٍ بدا به التكوين
من حسين إن شئت تفهّم معنى قول طه وقولهُ مضمون
ساطعُ لاح مشرقاً في مقام غامض قد تراه فيه العيون
لامع من ظهور غيب التجلى حيث كان الميثاق وهو الدين
من حسين تمثيله في مثول بل حسين منه بدا التمكن
مثله الرسل الكرام ابتداءً شبهته الأنبياءُ ربى مُعين
اشهديه ياروح مرآة طه في الحسين وهو الوفي الأمين
يا حسينُ المحبوب فيك تراءى نورَ خيرِ الوجودِ صحَّ اليقين

إلى الإمام الحسين الوارث الفرد يُقودني الشوق في جذب وفي وجد
سبطُ شهيد إمام مفرد علم وكوكبُ نوره قد لاح للوفد
نورت في مصر آفاقاً أودية عمرت ياسيدى الألباب بالود
يا ابن البتول أتى المنسوب مشتاقاً رضاك يأسبط طه غاية القصد
استحضر الأصل قلبي تشهده بلا ظلّ الكيان بنور المطلع الحد
وفي الحضور تمثله ترى المعنى معنى النبوة من أصلى إلى جدى
جداه في مصر أستجدى قراك ولى يقينُ حقٍّ بما عودتَ من رفد
وسيلتي أنت للوهاب أستجدى عفوا خلاصى من ذنبى ومن قيدي
أزور روضة مولانا الحسين ولى حال الزيارة أشواقُ إلى العود
في الروض أسألُ ربى العفو والحسنى خير العطايا هُدًى للحق للرشد

هب لي الرضا أغني مولاي جددلي خير الصلات وفضلاً منك للعبد

نسبة الروح نسبة التعيين يا حبيبي ونسبتني في الطين
يا شهيد الجهاد في الله نصراً في سبيل المعبود في المتمكين
يا إمام الأبدال مصر أضأت من ضياء المختار طه الأمين
قائد العارفين أفضل سبط قدم الروح في سبيل اليقين
يا إمام الأسباط جاهدت حق قلدتك الأفراد في كل حين
أنت ياسيدي سراج منير في ربا مصر بين أهل الدين
أنت نور للمسلمين جميعاً في افتتاح الوجود في التعيين

السيدة زينب أخت الإمام الحسين

ألا استحضري ياروح في الصفو أفراداً همو صفوة الرحمن حباً وأمداداً
وإن أشرقت أنوارهم لك فاضرعى إلى الله تعطى منه قرباً وإمداداً
همو جوهر الكثر الثمين سلالة لقد طهروا في محكم الذكر إيراداً
وإن لحظت عيناك ياروح نورهم يلوح بالاستحضار فضلاً وإسعاداً
لديها اشهدى أنوار آل محمد تضيء الأراضى سهلها ووهاداً
وتظهر ملكوت السماء لمن رأى إذا شاهدت عيناك نلت وداداً
ألا يابني الزهراء أنتم وسائلي وقد ذبت حباً فيكمو وسهاداً
وأنتم كنوز المسلمين أئمة ومنكم نال هداية ورشاداً
إلى زينب بنت البتول أتت بنا دواع ونيل الفضل كان مراداً
وردنا على بنت البتول فأشرقت لنا شمس حق تمنح القصاداً

منحنا الذى نرجوه من فضل ربنا قبولاً وخيراً دائماً إمداداً
على زينب بنت البتول تحية نال بها الزلفى عطا ووداداً

لدره كتر من جمال النبوة وياقوتة الأسرار فى كل وجهة
وبضعة أنوار الرسالة والهدى ونور التجلى عن كمال التراهة
وشمس يقين الحق عن أصله الذى أضاءت به الأنوار فى كل حضرة
ولؤلؤة فى تاج حسن معظم أفاضت بحارا للهدى والحقيقة
لسيدة عمت بحار عطائها عواننا العليا وكل الخليقة
لزينب نور الاصطفا مصدر الوفا بتول تسامت فى علو المكانة

ثم قال:

وها أنا فى هذا الحمى خاضع ولي مقام بمحض الفضل بل والميرة
صفونى أجدادى بأسرار حسنهم وإحسانهم رتب العلا والسعادة
وأنفاسهم جلت عن العد سادتى وإحسانهم لا أحصه بالعبارة
بمحض أيادهم رفعت إلى العلا وبالفضل منهم صرت شمس الهداية
ولا عجب إن عم ماضى نوالهم فماض لهم نجل وهم هم أبوتى
وقد كشفوا لى عن بديع جمالهم فشاهدت حتى صرت نور الهداية
وصرت بحان القرب أسقى مدامهم فبشرى لمن شرب المدام الشهية
وعلى عترة النور المطلسم دائماً صلاة من الرحمن فى كل لحظة

أزور المصونة بنت بنت المصطفى لأشهد أنوار النبوة والصفاء

وأشهد سر الاصطناع وآيه تدل على الإقبال غيب الاصطفا
إلى زينب بنت البتول التي بها تشعشت الأنوار في الجهر والخفا
يزورك فرع في اشتياق إلى القرى قراه اتصال النسبتين لدى الوفا
ولى يا ابنة المولى الإمام بنوة إلى النسبة الأولى وذا خير ما انتفى
نعم أنتمو الطهر الميامين والضيا وأبناء خير الرسل ألتمس الشفا
سلام على بنت الإمام وآلها بها يحفظ الرحمن قلبي من الجفا
أياد درة المختار في مصر إن لي وقوفا على باب العناية والصفاء
وقوفاً أناجي فيه ربى ضارعاً ألا وهب لي الرضوان كن لي مسعفاً

السيد إبراهيم الدسوقي بدسوق

على الفرد إبراهيم ذى العرفان فتي نول الراح الطهور بريحان
أبوه به نال الولاية والصفاء له الحال ممنوحاً رضا الرحمن
فتي جاهد النفس الأيية فارتوى من الراح راح العلم والقرآن
نعم ترك الدنيا فراراً إلى الهدى ومات فأحياه الولي بإحسان
مشى بضياء الفضل في الكون كله فمت مثله تحيا بإحسان ديان
نعم أنت إبراهيم سر سمييه بأرض دسوق في على مكان
أزورك ذكرى لي لأعلا فإنني لديك أنادى الله بالإيقان
وفي أي يحيى خمرة تسكر النهى لدى مريم قد صح في التبيان
دعا ربه أعطاه يحيى وزاده فأيده بالروح والفرقان
وعند أبي العينين أسأل ضارعاً إلهي أنلني نعمة الرضوان

وكن لى وأولادى وكل أحبى وليا معيّنًا من عواطف حنان
فإن رأيت الفضل أغدقته على فنى بدسوق واسع العرفان
فايقنت بالفضل العظيم تفضلا من الله بالخيرات والغفران

سقاك رسول الله راحًا روية سكرت بها قد فزت بالإيصال
لقد مت إبراهيم حبًا وصرت فى مقامات تفصيل لى الإجمال
حباك رسول الله منه بحظوة فترجمت بالأسرار والأقوال
فكنت إمام العصر فردًا مؤيدًا بروح من الرحمن من متعال
عليك سلام الله منى مكرراً ومن حضرة المختار بل والأل

إلى الفرد إبراهيم شيخ الطريقة وذا القدم العالى بسر الشريعة

إليك أبا العينين يافرد عصره و من فك رمزاً فى علوم الحقيقة
أشرت إشارات علت عن تعقل فكنت إمام العصر من غير فرية
سقاك إله العرش خمراً طهورة فشاهدت بالعينين فى كل حضرة

أبا العينين ياقطب الرجال أتى المشتاق يرجو خير حال
أبا العينين يانجمًا مضيئاً بلغت القرب فى حلل الجمال
أبا العينين ياشمسًا أضاءت لأهل الحب بالعلم الموالى
سقيت السالكين طهور راح من التوحيد فى رتب المعالى

أبا العينين منسوب مشوق وأنت البحر فامحنى وصالى
وخالك سيدى غوث شهير أبو الحسن المربى للرجال
بأرض دسوق نورك قد علانى وإبراهيم قطب بل وعالى
أبا العينين ودًا منك وصلا فلانى فى اشتياق لإتصالى

السيد أحمد البدوى بطنطا

عبدت الرب بالحال عليه أيا بدوى لقد نلت العطيه
عبدت الرب بالعلم اللدى ففيت عن الأيادى والمزيه
وهبت الحال بعد الكشف حتى رأيت الكون بالذات عليه
حباك المصطفى منه بحال سقاها من مدام عيسويه
فغبت عن الوجود بنور طه وكننت قبله فى المتنويه
شربت مدام عيسى نلت صفوا وكم تشرب شراباً أحمديه
فقهت مقام أهل الكشف جذباً جذبت فنلت أسراراً عليه
أزورك أحمد البدوى شوقاً لنيل الفضل من رب البريه
فأننت الجامع الفانى يقيناً سریت على المراقى الزخرفيه
أحي روح فرد إذ تراءت لروحى فى مقامات عليه
وأسأل منعمًا ربًّا مجيبًا ينيل العبد إسباغ العطيه
وصحبته بجللى وارتحالى وعفواً عن معاصىّ الدينيه
شفاء يمحو سقامى فى مشيى وتبديلاً بأحوال سنيه
وخيراً فى ضيا القرآن أعط به نيل الرضا فى السرمديه
غنى بالله عن شرار خلق وإحساناً يعم به بنيه

من الأولاد من أهلى وصحى وشرب الراح بالعين الرويه
يجذب عناية تعالى مقامًا بمقعد صدق فى الآخريه
جوار المصطفى خير البرايا بكشف الغيب سر الأوليه
على البدوى أحمد فى مثولى سلام عاطر يعطى هديه
أحبك فى رسول الله حبًا رأيت لديك أنوارًا جليته

على طنطدا (١) مر القطار بنا يجرى وفيها أبو فراج العاشق البرى
فتى جاهد النفس الأيية مخلصًا على الله بالإحسان فى صحة السير
أيا هاشمى الأصل نلت مكانة من القرب قد شاهدت من باطن الأمر
أيا أحمد البدوى فى أرض طنطدا بجاهك أرجو الله يشرح لى صدرى
فأنت فتى أولاك ربك منة إلى الكهف كهف العلم والحال والصبر
وقد كنت فى الدنيا خمولاً محقرًا زخارفها حتى وصلت إلى البر
شهدت جمال الآى فى الكون ظاهرًا وقلت أيا روحى إلى الاصطفا فرى
فررت من الدنيا إلى الله راغبًا فهب سيدى خير العطايا لمضطر

فى طنطدا أحمد البدوى قد يبنى عن حاله مغرم عن صولة الجذب
أفناك يا أحمد البدوى عنك وعن كل السوى خطفة تجلى من الرب
غيت يا أحمد البدوى من برق قد لاح لامعه فى الجانب الغربى
حيرت من رشفة فى الجانب الشرقى من روح عيسى بلا أم ولا أب

(١) الاسم الأصلى لمدينة طنطا.

أزور روضتك الفيحاء مقتبساً حيث المشول أراى حاله صوبى
رآك من جهلوا المجنون ويجهمو فررت منهم إلى الرضوان والشرب
سقيت خمرة عيسى أحمد البدوى من البداية فى جمع بلا شوب
صحوت بعد تلقى الآى متصلاً بنور قرآنه صحواً بلا حذب
بلغت حق يقين حقر الدنيا حتى شهدت المعانى فى ضيا الغيب
أمام روضتك الفيحاء أسأل من أولاك إحسانه بالفضل لا الكسب
يا رب أنت كريم محسن هب لى خير المواهب من جود ومن حب

سیدی أبو العباس المرسى بالأسكندرية

بروض أبی العباس والعارف المرسى وفدت مشوقاً فی هیام إلی الأنس
أحبك حباً فی الحبيب محمدٍ وقد وفدت شوقاً إلی روضه نفسی
أتیت أبا العباس والشوق جاذبی إلیک فلاح النور من أفق الشمس
تراءى ضیاء الوجه منک مشاهدا وأنوار علم الله بالحب لا الحدس
أیا نجم أهل الحب علماً وحكمة شهدت جمال الله فی العرش والكرسى
صحبت أبا الحسن المسمى بشاذلی سقاک طهور الحب من غیر ما کأس
ورثت من الأحوال والعلم والهدى فشاهدت غیب الآی بالعين فی الرأس
وخضت بحر العارفين مجاهدا رسیّت علی بحر الحقیقة یامرسى
وریت أفراداً کراماً أئمة علی منهج القرآن بالمأخذ القدسى
قُتلت بسیف الحب أحياء ربنا حياة یقین بانمحا الريب واللبس
أحب الفی المرسى لله راجیاً جوار رسول الله فی روض فردوس
وحبك یامرسى فی الله حجة بها نیل ما ترجوه من ربها نفسی
أحب محب الله فی الله راغباً جوار رسول الله فی حظوة الأنس
أجاور خیر الرسل فی طیبة بها أفوز بنیل الاتصال بلا بأس
أهني بطیبة بالوصال مؤیداً بروح رسول الله من قبس الشمس

سیدی یاقوت العرش بالأسكندرية

إذا سبقت حسنک جملة الثربا یصیر لك المصباح نوراً ولا شوبا
له تسجد الأملاك طوعاً وقربة یعلمهم أسماء یشهد الغیبا
وما آدم لولا ضیا نفخة بها لقد سخر الأکوان یجذبها جذبا

إذا سبقت حسنك ترفعُ سافلاً وتجعلُ ترب الأرض للعالم القطبا
أزور بهذا الثغر ياقوتَ من رقى وكان ذليلاً قارف الجهد والكربا
يذكرني فرداً بلالاً صهيب بل وحارثة نالوا من المصطفى الحبا
سلام على ياقوت في الثغر إنني لديها سألت الله من فضله القربا
لقد جئت يا حبشي في الغل كادحاً وفي الثغر أوليت العناية والشربا
إذا سبقت حسنك يارب أظهرت عجائب أسرار أضأت بها القلبا
تجل لنا باسم المحيب عناية لتمنح ما أوليته الرق والتربا
يذكرني ياقوت إحسان ربنا أيارب فرحني ألح لي بك الغيا
تذكرت يياقوت أيامك الألى وقد كنت في غل تقاسي به الصعبا
وما نلت يياقوت في الثغر منة أدار أبو العباس من بحر شربا
سقاها على الشاذلي مدامة بها تسكر الأرواح قد شاهدت غيا
أيارب بالحسنى التي قد وهبتها لياقوت أو لقمان عمر بك القلبا

سیدی الروبی بالفیوم

بمسجد ربی عند روض الروبی صفا القلب في حال احتسا مشروبی
لديها سألت الله جل جلاله تتزله بالفضل والتقريب
بروض الفتى الروبی من جاء راغباً مهـاجرة لله في ترغيب
من الغرب وافي وهو في حال جذبة من الله في خوف وفي ترهيب
إلى أرض فيوم فكان مقامه فأكرمه مولاه بالموهوب
هو الفرد إدريس نسبته التي إلى الحسن الأعلى إلى المنسوب
أي نسل سبط المصطفى فزت بالصفاء رفعت إلى أعلى مقام حبيب

لديك سألت الله فضلاً عنايته رضا منه غفراناً لكل ذنوبي
لديك سؤالى.. سنة نبوية وفى ليلة الإسرا يقين قلوب
وعند كلهم الله صح تواتر لقد سأل المختار خير نصيب
أيا رب إني مذنب فاعف وارض عن عبيدك وامنحني جمال مجيب
وكن لى فى حلى وفى كل رحلتى معيناً وأنزلنى مقام منيب
أيا رب أولادى وأهلى أحببى تنزل لنا بالفضل والتحبيب
وسيلتنا خير النبيين من أتى بقرآن ذات فى بيان غيوب

الإمام الشافعى بالقاهرة

أمام الإمام الفرد فى فقه قرآن هو الشافعى المجتبي الروحاني
ومن بين الأحكام شرعاً وحكمة وبحراً أفاض العلم كل مكان
أتيت أزور الفرد والشوق قائدى وأنت الوسيلة للمراد الفاني
إلى الشافعى الفرد قد جئت قاصداً لأسأل ربى واسع الغفران
أيا شمس مصر قد أضأت ربوعها بنور وتبيان من الرحمن
حباك رسول الله منه بحظوة فأشرقتم شمساً فى سما الإيمان
زهدت فنلت القرب يا غوث راقياً تورعت عن كون وروض جنان
فررت إلى مولاك يافرد فانياً وربك يعطى القرب فرداً فان
أيا من منحت الفرد خير عطية تفضل علينا منك بالإحسان
فجبريل فى الإسرا دعا الفرد قائلاً هنا بيت لحم للفتى الروحاني
هنا قبر موسى فاسأل الله سيدي وصل عليه فى مقام تدان
هنا قبر فرد بالقرآن مؤيداً تنزل أنلنا صفوة الحنان

ملأت بقاع الأرض علماً وعرفاً أيا شافعي أوتيت حُكماً وفرقاً
 بشارة خير الرسل فيك تحققت لأنك قرشى يقيناً وبرهاناً
 محمدُ يابنَ إدريسَ مدَّكَ ربنا بنور من الفاروق علماً وإيقاناً
 فتحت كنوز الشرع فصلت مجملاً وبينت مبهمه فصيح بياناً
 على الله قد أقبلت بالقلب مُخْلِصاً تُظهِرُ نورَ الشرع هدياً وتبياناً
 وردت على حوض النبي محمدٍ رويت فأرويت العطاشى بياناً
 مدادك يابن إدريس يوزن في غدٍ فيمنحك الرحمن روحاً وريحاناً
 إلى آخر القصيدة

الشيخ حسنين الحصافي بدمنهور

بأرض دمنهور أزورُ فتَّى له مشاهدٌ توحيد ينال بها الخيراً
 أزور بها المولى الحصافي مَجْدُداً عهداً بما قد صدَّقَ الخبرَ والخبراً (١)
 سلامٌ على المولى الحصافي تحية وشوق لأيام خلت جدت ذكرها
 وحقك لم أنس عهداً وثيقة وقلبي لسان في الصفا سيدي يقرا
 سُقِيتَ بآداب الطريق لطيفة شرباً وكنت الشيخ قد تقبلُ العذرا
 وبينت آدابَ الشريعة ناهجاً على منهج الأفراد كنت لنا بدرا
 حسنين إني والذي فلق النوى على العهد باق في هواك ولا هجرا
 أجاهدُ نفسي أن تكونَ على الذي تحبُّ وربِّي يمنحُ الرشيد والبرا

(١) كان الشيخ حسنين الحصافي قد أجاز الإمام أبي العزائم بالطريقة الشاذلية.

يوفقني ربى لما قد تحبّه ويسعدنى مولاي شهرى والدهرا
أموت على الإسلام فى بهجة الرضا بمقعد صدق قد أفوزُ بها قدرا
أرى الخير فى الأولادِ والأهل خلتي نالُ الرضا والخيرَ والعفوَ والفخرا
إلهى بمجلى الذات أفضل مُرسل أيا ربّ سخر لى به البر والبحرا

سیدى جلال الدین المحلى برشید

بأرض رشیدٍ عند خادم قرآن علىّ المحلى فى جنان ورضوان
بمسجد ربى جلّ ناديتُ سائلاً أغثنى إلهى منك بالإحسان
أيا خادم القرآن فسرت نصفه رفعتَ مقاماً فى رياض جنان (١)
لقد فسّر القرآن رغبة نوره فنوره الرحمن بالقرآن
بأرض رشید ياعلىّ زيارتى لروحك لا للقبر والجثمان
أزورك لاستحضار روحك إنما لقد جُمَلت بالعلم والتبيان
على المحلى أنت فرد مُجَمَّلٌ بعلم وأسرار وبالبرهان
سبقت إلى الخيرات أنت فنلت ما تريد من الرضوان والغفران
أزورك أستجلى بروحك ساطعاً من العلم والتفسير والإيمان
لديك سألتُ الله فضلاً ورحمة وكشف يقين فى سواطع عرفان
وفى بيت ربى أسأل الله وسعة من العلم والأرزاق والإحسان
أزور جلال الدین عالم عصره ومن فسر القرآن فى اطمئنان

(١) فسر نصف القرآن الكريم حتى سورة الإسراء وأتمه الإمام جلال الدین السيوطى وسمى هذا التفسير بتفسير (الجلالين)

سیدی البوصیری بالأسکندرية

مدح طه من بعد مدح القرآن راح قدس لواجد روحاني
مدح الله بل وأثنى وأعلى قدر محبوبه بآى البيان
ما مديحى وما مديح البوصيرى بعد مدح من حضرة الرحمن؟
غير أنى بقدر ما نلت منه قدر نفس من نعمة الإيمان
أتغننى بقدر رشف طهور من معانى حقيقة الإيقان
غن ياروح لحن مدح نبي جمل الروح بالهدى والتداني
أسعديني يانفحة القدس حتى أتغننى بمدحه الإنسانى
لن أيا عقل كى أصوغ مديحاً فى عقود الأنوار لا المرجان
فمديح المختار فوق عقول كيف أقوى أصوغ غيب المعانى
غير أن الغرام مثل صوبى صورة المصطفى بهذا الكيان
كنت فى البدء مصطفى الله حى قبل عرش وقبل كل مكان
أنت أصل الوجود علواً وسفلاً قبضة النور كنت نوراً ثان
من جمال اللاهوت صغت انفراداً منك صاغ الأعلين كشف الفانى
منك صاغ الأرواح صورة ربى أنت نور الهدى وحصن الأمان
لمديح المختار يابوصيرى قد دعانى إليك شوق جنانى

إلى أن قال:

قد مدحت المختار يابوصيرى بعقود من ظاهر الأكوان
ومديح المختار جاء صريحاً فى الكتاب العزيز نص القرآن
فزت بالفضل قدحيث مهنى بمديح المختار فى كل آن

كل عصر لهم رجال حباهم باصطلام من جذبة التبيان

إلى آخر القصيدة

على قدر بوصيرى كان مديحه وفى محكم القرآن مدح جواد (٢)
وهل بعد مدح الله مدح لغيره ولكنها الأشواق جذبة إرشاد
مدحت رسول الله فى الآى أحكمت ومدحك مدح لى ونيل مرادى
ومادح خير المرسلين ينال ما تمنى من الخيرات والإيجاد
على قدر تمثيل المقام مدحته ومثلنى فى عجز وفى ترداد
ولكن ألهانيتى (١) تجذب النهى إلى مدحه العالى بلا استعداد
أيا فرد ذات الله ياخير مرسل ويا رحمة الرحمن للوراد
مراد لذات الله أنت وفرده رعوف رحيم حجة الأوتاد
خلقت لذات الله والكل سيدى لقد خلقوا للمصطفى طول آباد
وفى بيعة الرضوان مدحك سيدى لقد أعجز الشراح كل تلاد (٣)
يد الله عن خير النبيين بايعت ومن يطع المختار فاز بإمداد
أتى الفرع ياخير النبيين يرتجى من الله إحساناً بهذا الوادى
وأنت الوسيلة للفروع وحسبنا قرابتنا حال الصفا للهادى
تشفعت بالمختار لله ربنا تقبل متابى وأمح كل عباد

(١) مطلع القصيدة: لدى روض بوصيرى من مدح الهادى تمثلت من منه تجدد إمدادى

(٢) التأله: هو الشوق مع الخشوع والذل والحقبة.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم).

إلى آخر القصيدة

إلى ترجمان شمائل المختار منافس كعب في مديح فخار (١)
وفدت مشوقاً للفتي لشهوده لأن أحب معاهد الأخيار
منحت مديح المصطفى وأجدته نسجت له برداً من الأشعار
فأولاك خير الرسل منه مواهباً فكنت بها نجم الهدى للسارى
محمد بوصيرى وفدت مهاجرًا إليك لما أوتيت من أسرار
وقد كافأ المختار كعباً ببردة وكوفئت بالإحسان والأنوار
إلى الفرد مداح النبي محمد فتى فاز بالحسنى من الغفار
إمام رأى نور النبی مشاهدا حباه رسول الله بالمدرار
له عقد مدح صيغ من در لفظه يفوق النجوم الزهر في الإسفار
بقدرك قد صغت المديح وكيف لا وقد مدح المختار في الأسفار
حباك رسول الله منه بنظرة فشاهدته منها بغير ستار
حببت بحب المصطفى فلك الصفا رفعت مقاماً فوق كل منار
وفي محكم القرآن آيات مدحه يرتلها جبريل للأطهار
بقدر الفتى البوصيرى عقد مديحه به نال إحساناً وخير فخار
ومدح رسول الله فوق عقولنا وفوق الملائك لا يفى مقدارى

(١) لما أنشد كعب بن زهير قصيدته (بانت سعاد) خلع النبی ﷺ وأله برده الشريفة وأعطاهها له، وتيمناً به أطلق البوصيرى

على قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ وأله اسم (فجح البردة) بعد أن رأى النبي ﷺ وأله في رؤيا منامية وقد خلع برده الشريفة

وأعطاهها للبوصيرى.

وفي بيعة الرضوان عقد مديحه (يد الله) فيها مدحة المختار
يذكرني مدح الفتى خير مرسل فتجذبني الأنوار بالأسرار
فيخشع قلبي رهبة عند ذكره وأمدحه شوقاً على مقداري
أيا شمس حق أشرفت بالهدى لنا ويا رحمة الرحمن والستار
توسلت يامولاي لله خالقي بجاهك عند الله والأنصار
ليمنحني الفضل العظيم رضائه يجدد بي المنهاج للأبرار
ويصحبني في رحلتى وإقامتي بإحسانه وبفضله المدرار

سيدي عمر بن الفارض

سلطان العاشقين

يا عمر يا ابن الفارض المشتاق قد أمك الأبدال والعشاق
الشوق ينطق والمحبة أصمت من بادتهم بالهوى الأشواق (١)
أنت الفتى شوقاً وحالك ظاهر قد أشرفت بضياك الآفاق
يا عمر ياسلطان عشاق البها بالافتدائك بك تظهر الأخلاق
أحوالك العليا تشير إلى الجوى فيها الإشارة دونها الأذواق
أحييت يا ابن الفارض الأحوال في أرجاء مصر فعانيت آماق
نار المحبة أزعجتك بنورها والشوق في قلب الفتى إحراق
أنت القتل بسيف حب خالص أحيأك بالحسنى الولي الخلاق
حب لقد سلب النهى بجواذب جذبتك للزلفى فصيح وفاق

(١) يقول الإمام أبو العزائم في حكمة من جوامع كلمه: (الحب يصمت والشوق يزعج والعشق يحرق) .

أولاك يا عمر القريب ولاية أعطاك رؤية وجهه الرزاق
يا عمر ياسلطان من عشقوا ومن خافوا المقام وحالهم إشفاق
وافيت مشتاقاً لأهل الشوق في وله ودمع للجوى مهراق
قد ألهمت روحى إلى الغيب العلى سر المكانة وجهه الإطلاق
يا عمر فى أنفاسك النور الجلى بل خمرة قد ذاقها العشاق
يا عمر أحياك الذى فى حبه صرت القاتل وحبه سباق
تنبى إشارتك العلية بالذى أوليته والمجى لى لحاق
يا من لأهل العشق أوليت الصفا كرمًا فهب لى الفضل يارزاق
هب لى الرضا والفضل ربى عممن جدواك حتى يظهر الإشراق
صل إلهى دائماً أبداً على من فيه منه العشق والعشاق

وفى معرض إجابته عليه السلام عن سؤال (١) عن أحد الأولياء بمدينة فاقوس شرقية

قال (٢):

توفى عبد الله بن سلام بالمدينة ودفن فى خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين رحمة
الله عليه، أما الولى الموجود بهذا البلد فليس هو الإمام الصحابى الجليل، وإنما سمى
بعبد الله بن سلام تبركاً.

أما ما يحصل من الخيالات فى ضريحه فليس من الدين فى شىء، ولكن الخيال
الإنسانى قد يقوى حتى تنطبع فيه الصور التى تتمثل له وذلك من قوة العقيدة
وصفاء الخيال. ومن حصل له الصفاء بالرياضة أو العقيدة أو بالفطرة يمكنه أن

(١) هل صاحب هذه الروضة هو عبد الله بن سلام الصحابى؟ وما رأى مولانا فيما يحدث من الخيالات عنده؟

(٢) مجلة (السعادة الأبدية) السنة ٧ ، العدد ١٣ ، ص ٣٥٦ (شوال ١٣٣٨ هـ) .

يستحضر الأرواح فيرتسم على خياله صورها، ولا فرق في ذلك بين الطائع والعاصي والمؤمن وغيره فإنها خصوصية للإنسان مطلقاً.

والأولى أن يتعلم العامة زيارة القبور وأدب زيارة أولياء الله تعالى أحياء وأمواتاً، وقد بيت السنة آداب زيارة القبور وبيت آداب زيارة مشاهد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ومشاهد أولياء الله رضي الله عنهم، فقد نزل رسول الله عند قبر موسى عليه السلام ودعا. فالسنة عند زيارة تلك المشاهد الدعاء بالخير. وقد أفسد كثيرون من المشعذين أخلاق البسطاء بعمل ما يسمونه مندلاً بوضع زيت في فنجان وأمر صبي بالنظر فيه ويوهم بأنه ظهر له عفاريت وأشخاص فيظهر، وكل ذلك من المضر. فعلى أمثال حضرة الأستاذ السائل من نوابغ الأزهر أن يجودوا ببعض أنفاسهم لتأديب العامة بالآداب الشرعية بالأساليب المناسبة لعقولهم، والله الموفق.

وفي معرض إجابته عليه السلام عن سؤال أثناء زيارته لمسجد سيدي الروبي بالفيوم وأنهم يقولون إن اسمه حنا الرومي، وأسلم، وأن هذا المكان كان كنيسة فحولها إلى مسجد:

توجه الإمام إلى المفصورة وأطرق قليلاً ثم عاد إليهم وقال ما معناه (١) :
يا أولادى إن الروبي من أولياء الله القدامى (عام ٨٠٠ ميلادية) ، وقد تضاربت الناس فى أقولها عنه، ولم تكن هناك مصادر معلومات تاريخية لكى نعلم أنه من الأولياء. إن الروبي من ذرية الإمام الحسن بن على بن أبى طالب، وهو أحد الذين آلت إليهم الخلافة فى الدولة العباسية، ولكنه زهد الخلافة وفر من بغداد إلى

(١) رواها الشيخ نصر العقاد سماعاً من أبيه الذى كان مع الإمام وقتها.

المغرب ومكث بها. وما أن كاد حاله ينكشف ويعلموا عنه أنه حفيد أمير المؤمنين المعتصم إلا أن هرب من المغرب لأنه كان لا يريد خلافة في الدنيا، وظل يتنقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى الفيوم، فترل في إحدى قراها وهي الروبيات (وهي موجودة إلى وقتنا هذا) وظل بها مدة. فلما نزل الفيوم التقى بحاكمها فسأله عن بلده فقال الروبيات، فقال له أنت روبي وسماء الروبي. وكانت هناك قطعة أرض مهجورة عليها أنقاض وأكوام من تراب يقال أنه أنقاض كنيسة فسكن بها. وبعد فترة ذهب إلى حاكم الفيوم وأخبره أن يبلغ والى مصر بسلامه وأن جماعة ستحاول إغتياله ولكن الله سينجي، فاحتاط حاكم الفيوم فسجنه. وبعد قليل جاءت الأخبار تفيد بما أخبر به الروبي وأن والى مصر عاد إلى حكمه بعد يوم واحد من محاولة الانقلاب، فتوجه سنجق الفيوم إلى السلطان وأبلعه بذلك وأقرأه السلام من الروبي. وأعلن السلطان أنه سيأتي للفيوم لزيارة الروبي، فلما وصل وجده قد مات، فأمر بدفنه في هذا المكان وبناء مسجد. ثم أملى الإمام القصيدة السابقة الموجودة في هذا الفصل.

الغريب بالسويس

تضرعت أرجو الله عفواً وغفراً
تبليت مضطراً سألت حناناً
ووجهت وجهي سائلاً نيل فضله
وخير قبول منه نعمى ورضواناً
أيارب طهر لى الجوارح كلها
وأشهدنى الغيب المصون عياناً
فشيخوختى سقمى تفضل والى
وجلى مولاي علماً وإيقاناً
بروض غريب جئت فى يوم جمعة
أزور فتى السودان نلت أماناً
لأنى غريب مثله من بلاده
وأرجو إلهى أفهم القرآناً

تجل مجيئاً قابل التوب غافراً وعمم لنا ياسيدى الإحسانا
وأنسى فى الحل فى كل رحلة لأشهد تواباً غفوراً ورحمانا

وكان الإمام عليه السلام إذا زار سيدى الغريب بالسويس لا يقف عند روضته بل يقف فى مكان غير الروضة ويخاطب صاحبها، وقد تعجب بعض المريدين من ذلك، وظهرت الحكمة عندما أرادوا أن يوسعوا مسجد الغريب ويعدوا روضة جديدة له، فحفروا فى مكان الضريح فلم يجدوا شيئاً، وهنا قتل وجه الحاقدين شماتة وفرحاً بأنه لا يوجد ولى فى المسجد، إلا أن أحد تلاميذ الإمام عليه السلام قال لهم: احفروا فى هذا المكان الذى - الذى كان يقف عنده الإمام أبو العزائم عليه السلام - فحفروا ووجدوا جثمان الغريب تفوح منه أطيب رائحة فهللوا وكبروا؛ فقال تلاميذ الإمام: إن الإمام أبا العزائم عليه السلام كان يزور أفراداً لا أضرحه.

الكرامة والإستقامة

قبل أن نتحدث عن كرامات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم عليه السلام، نوجز القول فى بيان الفرق بين المعجزة والكرامة وتعريف كل منهما حتى تصبح الأمور جلية لا لبس فيها، ويزداد الذين اهتدو هدى ويزيدهم الله من فضله.

المعجزة:

هى فعل خارق للعادة يظهره الله جل جلاله على يد مدعى النبوة على وفق مراده واختياره للتدليل على صدق دعواه أنه نبي مع عجز جميع الخلائق على الإتيان بمثله.

وفى شرح (فريدة الدردير فى التوحيد) قال: خرج بقولنا (خارق للعادة) السحر والشعوذة وغرائب المخترعات، فليست خارقة للعادة بل معتادة، وتعرف بالتعليم، ولها قواعد يعرفها بعض الناس ويحس بها الكثير منهم إلا أنها غريبة لمن يجهل قواعدها. وخرج بقولنا (يظهره الله على يد مدعى النبوة) الإرهاص والكرامة والمعونة والاستدراج، فهى ليست بمعجزات وإن كانت خارقة للعادة لعدم ظهورها على يد مدعى النبوة.

المعرفة:

وهى أمر خارق للعادة يظهر لشخص مستور الحال كاستجابة دعوة أو تيسير فى أمر من أمور حياته أو قضاء مصلحة من حيث لا يتوقع أو تخليص له من شدة بأسير سبيل، يقول بن عطاء الله السكندرى: ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامه، ويقول أيضاً: ليس من ثبت تخصيصه كمل تخليصه.

والمعرفة إما أن تكون تعريفاً لصاحبها وبداية لما بعدها من الكرامة إذا أسند العبد الفضل فيها إلى صاحبه وشكره عليه، وإما أن يكون استدراج وقطيعة إذا عقل صاحبها عن الذى أبدأها له وظن أنه أوتيها بعمله ونسى المتفضل الأول عليه.

الكرامة:

فعل خارق للعادة يظهره الله على يد ولى من أوليائه. والكرامة للولى معجزة للنبي وتصديقاً لدعوته وبرهاناً لا ينقطع على رسالته. يقول اليافعى رحمه الله: ظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلاً وواقع نقلاً، فإنه ليس بمستحيل فى قدرة الله عزوجل - بل إنه من قبيل الممكنات، كظهور معجزات الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم، وهو مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين والنظار الأصوليين والفقهاء المحدثين. ويقول الإمام النووى- رحمه الله- فى (بستان العارفين) : اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات الكرامات وأنها واقعة موجودة مستمرة فى الأعصار، ويدل عليها دلائل العقل، فهى أمر يمكن حدوثه ولا يؤدى وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه، وما كان مقدوراً كان جائز الوقوع، وأما المنقول فأيات القرآن وأحاديثه مستفيضة. ويقول الشيخ إبراهيم اللقاني فى كتاب (جوهره التوحيد) :

واثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

وقال ابن عربى رحمه الله:

عند الرجال فلا تكن مخذولاً

سر الكرامة واجب متحقق

وبها تترلا وحيه تترىلا

وظهوره فى المرسلين فريضة

والكرامة لا تظهر في ولي إلا لانطوائه في جاه نبي وقيامه بعد الاتباع، فلا تنظر إلى قدر التابع ولكن انظر إلى قدر المتبوع وعظيم قدره عند ربه، ولا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة سيده جل وعلا.

وقد تواتر وقوع الكرامات من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الصديقين والأولياء والصالحين في كل زمان. ومثال ذلك ما ورد أن ابا بكر الصديق رضي الله عنه قال لابنته السيدة عائشة رضي الله عنها وهو في مرض موته وزوجته حامل (إنما هما أخواك وأختاك دون بطن خارجة أراها جارية)، فأخبر أن في بطن امرأته جارية وكان كما قال رضي الله عنه. وقول سيدنا علي كرم الله وجهه حين أخبر بالكوفة أن معاوية قد مات فقال: (والله ما مات ولن يموت حتى يملك تحت قدمي هاتين وإنما أراد من هذا أن يشيع ذلك حتى يستر علمي فيه)، ومن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية وعلموا أن الأمر صائر إليه. ومن ذلك ما رواه الرافعي في (الآمال) أن ابن عمر رضي الله عنهما قال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنح، فبصبص بذنبه وذهب، فمشى الناس، فقال ابن عمر رضي الله عنهما صدق رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام القائل: (من خاف الله خوف الله منه كل شيء) (١). ومما رواه أبو نعيم في (الحلية): تسبيح القصعة التي أكل منها سليمان الفارسي وأبو الدرداء. ومن ذلك حديث البخاري في قصة حبيب حين كان أسيراً موثقاً بالحديد وكانوا يجدون عنده العنب وما بأرض مكة حيث عنب.

وكرامة الإيمان هي أعز وأفضل ما أكرم الله به عبده، وما أكرم الله عبداً إلا نور قلبه وأفاض عليه من أسرار القدر وعجائب التصريف نوراً يسمع به ما لا

(١) أبو الشيخ في كتاب الثواب والمنذرى في الترغيب والترهيب.

يسمعه غيره ويبصر ما لا يبصره غيره، قال رسول الله ﷺ وآله: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) (١) وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (إذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به...) (٢). ومن شهد له الرسول أنه ينظر بنور الله وأفاض الحق عليه فكان سمعه وبصره ولسانه فلا يستحال أو يستغرب أن تحرق له العادات أو أن يرى ما عمى عنه غيره أو أن يعلم ما لم يفهمه ويعلمه غيره. فالإيمان كرامة عظيمة والنور والفتح فرعاً الإيمان بالله تعالى، وما فى الجنة من دور وقصور وثمار وأثمار هى من نتائج الإيمان.

ويعرف الإمام أبو العزائم عليه السلام الكرامة فيقول :

(الكرامة هى تكريم الله العبد بما يقربه به إليه، أو إظهار خوارق العادات على يد العبد ليهدى به غيره من غير قصد، فإذا قصد السالك أن تظهر له آية لينال الشهرة أو ليحصل لنفسه مالاً أو جاهاً كان مضلاً، لأن الله أخذ الموائيق على الرسل أن يظهروا له المعجزة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وأخذ العهود من الأولياء أن يحفظوا الكرامة، فإذا أظهرها سبحانه ليكرم غيرهم بالهداية والتوبة فذلك فضله تعالى. وأفضل إكرام يكرم الله به أوليائه هى الاستقامة، والاستقامة عند العلماء خير من ألف كرامة، والكرامات التى يدعيها المشعبدون أهل الجهالة ليوهموا الناس أنهم على تقوى من الله.. والله سبحانه وتعالى لا يصلح عمل المفسدين. ومن أجل ذلك أنكر العلماء الكرامة من غير المستقيمين، ولم ينكر العلماء إكرام الله لأهل الاستقامة كما أكرم مريم ابنة عمران بالطعام والفاكهة،

(١) البخارى فى التاريخ والترمذى فى التفسير.

(٢) رواه البخارى وأحمد فى مسنده.

وأكرم والدته الرسول ﷺ وآله ﷺ ليلة ميلاده بما هو معلوم، وأكرم كثيراً من أوليائه بالنجاة من الوحوش والظلمة، وأكرم بهم ذريتهم كما في حادثة موسى عليه السلام والخضر من رفع الجدان، ولا ينكر إكرام الله لأهل الإيمان عند التجائهم إليه سبحانه أحد من المسلمين، ولكننا ننكر على أهل البدع المضلة المخالفين للكتاب والسنة، وكم أكرمنا ربنا وأغاثنا في كل أحوالنا بما لا نستحق، فله الحمد والشكر. ومن ظن أن الكرامة غير الاستقامة فليس بمؤمن على بصيرة، وكم خدع هؤلاء المشعبدون جهلاء فأضلّوهم عن الصراط المستقيم، وإن أعيد إخواني من هؤلاء الضلال، وقد التبت الكرامة بأعمال هؤلاء الضلال فاعتقد فيهم أهل الجهالة اعتقاداً جعلهم يطعونهم حتى في ترك الصلاة والصيام وفي إباحة المحرمات ظناً منهم أن هذا هو الدين.

ومسلم يعتقد أن رسول الله ﷺ وآله ﷺ خاتم الأنبياء بصريح القرآن ويقرأ الكتاب والسنة، ويأتيه شيطان ضال مضل يهدم أركان الإسلام ويبيح ما حرمه القرآن ويبيح الأعراض ويقبل منه.. لا يكون مسلماً أبداً، وكيف لا؟ والله تعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ البقرة: ٤٣ ويقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ﴾ أَلْبَيْتِ ﷻ آل عمران: ٩٧ ثم يقبل منهم بعد ذلك من يدعى الإسلام محاربة القرآن والسنة.. نعوذ بالله من غضب الله ومن الكفر بعد الإيمان.

الكرامة أن يكرم الله المؤمنين بالاعتصام بالكتاب والسنة ويعصمهم من الفتن المضلة والأهواء المذلة .

كان الإمام رضوان الله عليه لا يحب إظهار الكرامة أبداً، وإذا ظهرت وسمع الإخوان تتكلم عنها يحذرهم حتى لا يفتتن المریدون بالكرامة ويشغلوا بها عن الاستقامة. اهـ

لقد علم الإمام عليه السلام تلاميذه أن خرق عوائد النفس بترك المؤلف بالإرشاد الصحيح وإحياء موات القلوب بالعلم المؤيد بنور الحق أفضل عند الله ورسوله من ألف كرامة.

وقال عليه السلام موضحاً الاستقامة التي هي أفضل من الكرامة:

الاستقامة:

خروج عن المعهود، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق. والاستقامة في الوقت: أن تشهد قيامه، والاستقامة في الأقوال: بترك الغيبة، وفي الأفعال: بنفي البدعة، وفي الأعمال: بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحجة.

والاستقامة:

طلب الإقامة في محبة الله ومراضيه، ولا يتحقق بها إلا من تحقق بخالص التوحيد وتناول صافي شراب الموحدين، لأن التمكين في مقام التوحيد تتميز به الحضرتان وتنجلي به المكانتان، فيتحقق العبد برتبته الحقيقية أمام ربه البديع القادر الحكيم. ولا بد للعبید من لبسة يلبسونها ومعان يتكلمون بها ليتحققوا بكمال العبودية أمام السيد العظيم والولى الكبير المتعال، لأن السيد الكبير المتعال جل جلاله غنى عن الخلق أجمعين، وكلهم فقراء إليه، فهو تتره وتعالى لا يجانسهم ولا يشاكلهم ولا يمازجهم لأنه سبحانه وتعالى لا جنس له فيتجنس به ولا شكل له فيتشكل به، ولا

تصوره العقول ولا تتخيله الأفكار ولا تحوم حول قدس عزته وجبروته العقول والأوهام، ظهرت معاني صفاته في أحكام ما أمر لأنه الأمر القادر، ونهى لأنه الحكيم القاهر، وكلف لأنه الملك القوى، وبين سبل إقامة لحجته على عباده، وهو القاهر فوق عباده، يريد الشئ إرادة تكوين فيقدره سبحانه وتعالى، وينهى عنه ابتلاء منه وهو المبلى جل جلاله، ويحب الشئ ويأمر به ولا يقدره سبحانه على من لم يشأ أن يهديه وهو العزيز المنتقم، لا حجة لعبد عليه لأنه الملك المتصرف في ملكه مما يشاء، ولا ظلم ينسب إليه سبحانه لأنه خلق من شاء لما شاء، قال تعالى:

﴿وَهَدَىٰ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الرعد: ٢٧. فلا العلم بخالص التوحيد يجعل العبد مهملاً، لأن العليم بخالص التوحيد هو الحكيم القادر الناهي، ولا اليقين بحقيقة التقدير يجعل لعبد حجة عليه جل جلاله إذا نسب الله تعالى القبيح إلى العبد وعاقبه عليه، لأنه جل جلاله أرسل الرسل بالبينات وصدقهم فيما جاءوا به من قبله بالمعجزات حتى ثبت للخلق أجمعين أن أحداً لا يعمل هذا العمل إلا رب العالمين، ولا يجريه إظهاراً إلا على يد صادق أمين، إذ لو كانوا كاذبين فيما جاءوا لما صدقهم سبحانه بالمعجزة الخارقة للعادة.. وهب لعباده العقول التي تميز بين المعجزة والكهانة، حتى قامت الحجة القاصمة أن غير المستقيم ولى الشيطان الرجيم ولو بلغ من العلم نهايته ومن الكشف غايته، لأن العلم يجرى مجراه والحكم يجب العمل بمقتضاه، فلا العالم- مهما بلغ- تكون له الحجة على الله، وعالم لا يخشى الله هو الجاهل حقاً.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨.

مراد الله تعالى المحبوب لحضرته العلية والسير بسير العلم المطلوب للعبد، وشتان بين مراد الله تعالى من العبد ومراد العبد من نفسه، فالعبد يطلب الكرامة والله سبحانه وتعالى يطلب الاستقامة. ومن قدم مراده على مراد ربه كان جاهلاً عند العلماء بالله وإن ظن أنه عالم - قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ يَخْنُصُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٧٤﴾ آل عمران: ٧٣ - ٧٤. والسعيد حقاً من سبقت له الحسنى فوفقه الله للاستقامة وأعانه، والمحجوب حقاً من ظن أنه يحسن عملاً فطلب الكرامة، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿الزمر: ٩﴾.

والعالم حقاً من هجم به علمه على عين اليقين فانتشله الله من أحوال التوحيد فكان حاله في مزيد، جاء في الأثر: (من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالنار أولى به) وقال الله تعالى لرسوله ﴿وَآلِهِ﴾: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤. وعلم بمحو الآثار والآيات عندنا هو علم الأطفال، فمن لم يكن في مزيد من العلم حتى يثبت ما أثبتته الله ويسارع إلى مرضاته ومحابه فهو في جهل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿الإسراء: ٨٥﴾. فيجب علينا ان نسارع إلى الاستقامة عملاً بعلم الله وإن جهلنا الحكمة، فإنما نحن مكلفون لنطيع الأمر - فقهننا الحكمة أو جهلناها، وكل علم ينتج شهوداً يخالف الاستقامة

هو جهالة وضلالة. وكيف لا يكون كذلك وصاحبه يحكم بعلمه على علم ربه ويخالف شهوده حكم ربه جل جلاله وهو الخسران المين؟ إلا من صال عليه الحق صولة فسلب منه ما وهب، ولديه يسقط عنه ما أوجب، وهم الموتى وإن كانت أجسامهم تتحرك، الذين اقتطعتهم المحبة من غير سكينه فصيرتهم أرواحاً بلا أشباح، لا يتألمون مما يتألم به الناس ولا يتلذذون بما يتلذذ الناس به، وهم أهل الاصطلام بمشاهدة التوحيد بالتوحيد، لا يشهدون لأنفسهم وجوداً.. فكيف يشهدون مقتضيات الوجود؟! تجلت لهم الأسماء والصفات فحجبت أنوارها الكائنات فغابوا عن أنفسهم. بمنفسهم، وعن مقتضيات قلوبهم بمقلبيها، وليست دعوى يدعيها السالك ولا تكلفاً يتكلفه مريد الحق، وإنما هي حال قاهرة عن سجية صادقة بعد تزكية النفوس وشوقها إلى القريب القدوس، وليس هؤلاء أئمة للمتقين ولا هداة للأمة، لأن القوة التي بها التكليف سلبت والحقيقة التي بها التعريف قويت، خرسست ألسنتهم لاستغراقهم في شهود الواحد، وصمت آذانهم عن غيره، وحجبت أبصارهم عن سواه سر قوله تعالى:

﴿فَإَيْنَمَا تُولُوا فَجْهَ اللَّهِ﴾ البقرة: ١١٥ وقوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ الذاريات: ٥٠. والفار إلى الله من نفسه، المستوحش من وجوده، كيف يأنس بغيره أو يرى وجوداً لسواه؟! فإذا رد إلى الخلق وأنس بهم وفارقه الاستقامة كان داعياً إلى الضلالة ناهجاً سبيل الغواية، نعوذ بالله منهم، ومحجوب الله تعالى إذا رده إلى خلقه جملة بحلل حبيبه ومصطفاه وسلك به على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فكان صورة محمدية كاملة، يمثله ﷺ وآله ﷺ ظاهراً وباطناً، مشكاة لمصباح أشرق زيته وصفت زجاجته،

عمله بالسنة، وقوله الحكمة، وحاله المحبة، والتوكل على الله، والتفويض لله، والشكر بكلام الله، والفرار إلى الله، والمسارة إلى مرضى الله ومحابه، وهو الإمام الذى يظهره الله، فترى جسمه فى الأرض بين الناس وقلبه معلق بالملا الأعلى، أنفاسه ريحان ملائكة الله، وأعماله زينة الفردوس الأعلى، توحدت همومه فصارت همًّا واحدًا فى الله، لو غاب رسول الله ﷺ وآله عنه نفسًا لعد نفسه مشرکًا، وهو الفرد الذى لا تفارقه الاستقامة وإن كانت أحواله توجب الملامة، حصن الله شهوده بالسنة بحقيقة ما تفضل به عليه من المنة، خفيت إشارته لأنها من غوامض أسرار التوحيد، ووضحت عباراته لأنها بيان المبدىء المعيد- قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الرحمن: ١-٤. عبارته شفاء للقلوب، وأحواله التنويع للنفوس، وإشارته تلويح عن الغيوب، لا يقهره حاله لأنه مقهور بقهر الحكيم القادر، محصن فى حصن حكم اللطيف الخبير العليم، تجلت له صفات أهل معية رسول الله ﷺ وآله حتى لو همت نفسه بمخالفة فى صغيرة أو كبيرة تداركته عناية الولي القريب سر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة: ٢٥٧ ، إذا أظهره الله فى الوجود فتح به عيون القلوب وأطلق به الألسنة بالحكم وأسرار الغيوب، نوع به النفوس وزكاها وطهرها من لبسها، وبالأخلاق الطاهرة والاستقامة حلاها، سر قول رسول الله ﷺ وآله: (العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثى وورثة الأنبياء) (١) .

(١) رواه ابن عدى، وقال المناوى هو صحيح، والعجلونى فى كشف الخفاء حديث ١٧١٥، والسيوطى فى جامع الأحاديث.

* وقد جاء بعض الإخوان الجدد إلى الإمام يسألونه إظهار كرامة ويقولون له: ياسيدى إننا لم نشهد منك كرامة، فقال لهم الإمام: يا أولادى إكرام الله للعبد فوق الكرامة، لأن كلمة كن لله، فإذا أعطاهما للعبد يجب عليه أن يحفظها ولا يتلاعب بها ويكرهها كما يكره الندامة، لأن الاستقامة عنده خير من ألف كرامة. وضرب الإمام لهم مثلاً أن فلاناً ضيف على فلان، فيقول الأول أن فلاناً ضيفى أقضى له حاجته من غسيل ثياب وأكل وشرب، فهل يجوز للضيف بعد ذلك أن يطلب ما ليس له حق فيه؟ طبعاً يا أولادى هذه إساءة أدب مع صاحب البيت، وهكذا المثل.

وقال لهم الإمام أيضاً: من إكرام الله لى أنى كنت فى رحله سياحة بالسفينة، وكان بها مسجد صغير أقيم الصلاة فيه على وقتها مع إخوان لى، فقال أهل الغى فيها: إن هذا الرجل جاء فى هذه الرحلة ليعكر صفونا بصلاته ودروسه وعلمه وعبادته، أما كان عنده المساجد فى القاهرة ليصلى فيها ويدعنا هنا وشأننا؟ لابد أن ندبر له مكيدة حتى يخلو لنا الجو لصفونا. وفعلاً دبروا لى خطة فى أن يطلبونى من حجرتى بغرض إقامة صلاة العشاء على أن أخرج من الحجرة ليدخلوا امرأة عاهرة إلى غرفتى، حتى إذا عدت دخلوا على ووجدوها معى فى حجرة واحدة وشهروا بى (١) .

وجاء بعض منهم وطرقوا باب الحجرة وأخبرونى أنهم ينتظرونى لصلاة العشاء، فخرجت معهم متجهين إلى الزاوية وأدخلوا المرأة. وبعد الصلاة أوصلونى إلى حجرتى وتركونى، ثم عادوا إلى بعد ساعات ليشهدوا منى ما يريدون. ولما كنت أصلى صلاة التهجد بعد وصولى مباشرة إلى الغرفة وكان صوتى مرتفعاً فى الصلاة،

(١) أخبرنا بها الشيخ أحمد سرور من برج البرلس سمعاً من الشيخ عرفات الجمال.

فقد اعتقدوا أنني أكلمها، فطرقوا الباب فخرجت إليهم فنظروا إلى الداخل فلم يروا المرأة. ثم عادوا فطلبوني لصلاة الفجر ونظروا بالداخل فلم يروها، ولما أدخلوني المسجد لصلاة الفجر عادوا هم إلى الحجرة فوجدوها نائمة تحت السرير فأيقظوها وقالوا لها ماذا فعلت؟ فأرجعت إليهم نقودهم وقالت: إنها لم تدر شيئاً من الدنيا عندما أدخلوها حجرتي، فعلمت أنني رجل من رجال الله.

وقال الإمام: لما عرف هذه القصة رجل أجنبي، أحبنى جداً لأنه علم مدى صلاحى، فوضع لى ساعة مرصعة بالجواهر فى جيبي كهدية وبدون أن أعرف. فلما وصلت إلى المنطقة الجمركية فتشوا الجميع وفتشوني فوجدوا هذه الساعة فى جيبي، ولما سألوني عنها قلت لهم: إنها ليست لى ولا أعلم عنها شيئاً، فاقتادوني إلى الحجز واقتمونى بالسرقة. وكان هذا الرجل الأجنبى الذى أهدانى الساعة له أخ يعمل فى الجمرك، فلما حضر ليسهل له الإجراءات رآنى وعلم بالتهمة الموجهة لى، فأخبر الأجنبى أخاه أنه هو الذى وضع الساعة فى جيبي وقال لأخيه: إننى شيخ صالح وقص له ما حدث على الباخرة، فردوا لى الساعة واعتذروا لى اعتذاراً شديداً وأخرجوني معزراً مكرماً بعد أن قدموا لى مشروباً. ثم قال الإمام لزواره من الإخوان: أليس هذا يعتبر إكرام من الله تعالى لى؟ وأن هذا أفضل من الكرامة؟

وحدث أن وجه أحد الباشاوات الدعوة للإمام، وبعد العشاء قص عليه قصة مرضه وعجز الأطباء سواء بالداخل أو بالخارج، وأراد الإمام أن يعطى درساً عملياً فى الاستجابة لدعاء الله فسأله الإمام عن عدد بيوت القرية فأجابه الباشا، فطلب منه أن يشتري ذبيحة وتعمل أنصبه بعدد بيوت القرية، ومع كل نصيب قرطاس من الأرز وقرطاس من المكرونة، وأن يمر بنفسه بعد العشاء على بيوت القرية ويعطى كل بيت نصيبه، فوجد الكل يقابلوه بالدعاء بأن يعجل الله بشفائه، فما

كانت إلا أيام قليلة وشفى الباشا بفضل دعاء أهل القرية له نظير هذه الصدقات فاستجاب الله لهم، كما قال رسول الله ﷺ وآله: (داووا مرضاكم بالصدقة)^(١).

وكان بالفيوم رجل من أعيان البلد اسمه محمد الحلواني ولكنه كان مبتلى بالنساء، وكان كارهاً لهذا الأمر لكنه أصبح مرضاً عنده. فلما علم بوصول الإمام جاء إليه بصدق نية وبايعه وعاهده أنه لا يقوم بهذا العمل وأنه تائب إلى الله تعالى، ودعا له الإمام وأعطاه بعض الأوراد التي يقولها بالليل. ولما نام رأى أن يواقع امرأة من الغانيات المعروفات لديه، فذهب للإمام وحكى له أنه زنى في نومه وقال كنت أظن أني خرجت من هذا الأمر وأن الله سبحانه وتعالى تاب علي ولكني مازلت غارقاً في الشر حتى في النوم. فقال له الإمام: يا بني هذا كان قدراً عليك سينفذ، ولكن بصدق نيتك وبحبك في رسول الله ﷺ وآله خفف الله عنك ولطف بك فوق القدر ولكن بغير حساب عليك ولا مسئولية حيث أنه وقع في النوم. هذا يبين لنا سر الدعاء المأثور: اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه.

وقد ركب الإمام البحر مرة في طريقه من سواكن بالسودان إلى السويس. وصعد لأعلى ليتنسم النسيم، فإذا به يجد طاقم ضباط السفينة يلعبون القمار، فلم يغضب ولكنه جلس معهم، وبهدوء أقنعهم أن هذا لا يستوى، فقال الذي ربح للإمام أنه يلعب بالحاجة للمال ولكنها للتسلية، فقال لهم الإمام: أنتم تقولون إنكم

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم والعسكري والقضاعي والبيهقي في الشعب بلفظ: (حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم

بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء).

استعمرتم الشعوب لكي تعلموهم الأخلاق وهذا ليس من الأخلاق في شيء، والعمال على هذه السفينة يتعلمون منكم ويقلدونكم وسيبيعون لوازمهم ليلعبوا مثلكم.

فقدموا الربح للإمام لكنه رفض، وقال: اعطوها لعمالكم على الباكسة. وسأل القبطان الإمام لماذا نعطيهما للعمال؟ فقال له تدفع عنك البلاء، فقال القبطان أعطني مثلاً، فقال تنجيك وتنجي أولادك، فاستدعى رئيس العمال وأعطاه هذا المال. وكان ولد صغير من أبناء هذا القبطان بالسفينة يلعب وراءهم فإذا به يسقط في البحر في هذه اللحظة ومعه كلبه، فسبح الكلب مع الطفل وسحبه بأسنانه، وأطلقوا صفارة الإنذار وأنزلوا معدات النجاة وأنقذوا الولد وكلبه. هذا القبطان البريطاني اعترز بالإمام وربط بين ما قاله من دفع البلاء وما حصل لولده، ثم صار يوالى إكرام الإمام وتكريمه كلما ركب البحر معه.

ومما يذكر أن أخ من الإخوان، وهو صاحب تجارة مالية، جاء من بلدته ليزور الإمام ويتمتع بدروسه العلمية ثم يعود في نفس اليوم. وبعد أن تحقق المراد، اتبع الآداب واستأذن من الإمام، ولكن الإمام طلب منه أن يبيت عنده ويسافر في الصباح. ولمسئليات هذا الأخ الكثيرة في أعماله التجارية أعاد طلب الإذن فرفض الإمام وبات الأخ في سراي آل العزائم، ولما جاء وقت الضحى أذن له الإمام ودعى له بالحفظ والسلامة. ولما وصل الرجل إلى بلدته وجد فيها جريمة قتل وأنه متهم بها، وهنا أدرك في الحال أن الله قد أكرمه بتأخير الإمام له في وصوله إلى بلدته. وفي التحقيق نفى عن نفسه هذه التهمة بحجة أنه كان في سراي آل العزائم بالقاهرة عند أستاذه وشيخه السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام وكان معنا

(وحدد أسماء من كانوا معه كشهود) . ولما تحرت النيابة في هذا الأمر وجدته صادقاً في كل ما قاله.

التراث العلمى للإمام أولاً: التراث النثرى

١ - الكتب:

لقد ترك الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم رحمته الله تراثاً نثرياً ضخماً يحتوى على مصنفات علمية كثيرة شملت شتى نواحي العلم بفروعه المختلفة في العبادات والعقيدة والتوحيد والتصوف والتفسير ومقارنة الأديان والسيرة النبوية الشريفة، وقد طبعت معظم هذه المؤلفات في حياته الدنيوية في مطبعته بالقاهرة، ثم تابعت مشيخة الطريقة العزمية إصدار ما لم يطبع من هذه المؤلفات، وحتى الآن هناك بعض المؤلفات لا تزال مخطوطة ولم تخرج بعد إلى عالم الإصدارات.

ويتميز أسلوب الإمام أبى العزائم رحمته الله في كتبه بالسهولة واليسر واستخدام الحجج وذلك تأكيداً للمنهج السلفى الذى سار عليه رحمته الله في مؤلفاته، كما تتصف مؤلفات الإمام بالتنوع والشمول، وذلك يدل على قدرة الإمام على تطويع اللغة حسبما تقتضيه الفكرة التى يجنح إليها، وفيه من الدلالة على رسوخ قدمه في اللغة وفروعها.

ويمكن تصنيف كتب الإمام النثرية والتى تمكن من نشرها وقام خلفاؤه على دعوته من بعده بطبعها ونشرها وكذلك التى لم تطبع بعد ومعها المجموعة النظامية فى البند رقم ١٢ إلى المجموعات الآتية:

(١) في جانب التفسير القرآني:

أسرار القرآن:

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
الجزء الأول	١٣٦٩	١٩٥٠	٢	١٤١٣	١٩٩٢	٣
الجزء الثاني	١٤٠١	١٩٨١	٣	١٤١٤	١٩٩٣	٢
الجزء الثالث	١٤٠٣	١٩٨٣	٣			١
الجزء الرابع	١٤٠٤	١٩٨٤	٣			١
الجزء الخامس	١٤٠٦	١٩٨٦	٣			١
الجزء السادس	١٤١٠	١٩٩٠	٤			١
الجزء السابع	١٤١٥	١٩٩٤	٤			١

٢- الجمعيات

(٢) في جانب العقيدة:

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
عقيدة النجاة	١٣٢٣	١٩٠٥	١	١٤٠٣	١٩٨٣	٤

٣	١٩٩٢	١٤١٣	١	١٩٢١	١٣٤٠	الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها
---	------	------	---	------	------	---

(٣) في جانب العلوم الفقهية:

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
٤	١٩٨٦	١٤٠٦	١	١٩١١	١٣٢٩	أصول الوصول لمعية الرسول
٤	١٩٨٦	١٤٠٦	١	١٩٢٢	١٣٤٠	هداية السالك إلى علم المناسك
٥	١٩٨٨	١٤٠٨	١	١٩٢٥	١٣٤٣	صيام أهل المدينة المنورة
٢	١٩٨٩	١٤٠٩	٢	١٩٦٧	١٣٨٧	الجهاد

(٤) في جانب الأخوة الإسلامية:

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
٣	١٩٩٢	١٤١٣	١	١٩٢٠	١٣٣٨	الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ وآله
٣	١٩٩٣	١٤١٤	١	١٩٢٠	١٣٣٨	الإسلام والمسلمون جميعاً أهله
١			٤	١٩٩٥	١٤١٦	وسائل نيل المجد

						الإسلامي
--	--	--	--	--	--	----------

في جانب المناسبات الدينية:

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
٦	١٩٨٨	١٤٠٨	١	١٩١٢	١٣٣٠	السراج الوهاج في الإسراء والمعراج
٥	١٩٩٦	١٤١٧	١	١٩٢١	١٣٤٠	بشائر الأختيار في مولد المختار
٣	١٩٩٢	١٤١٢	١	١٩٣١	١٣٥٠	معجزات وفضائل سيد المرسلين
٢	١٩٨٣	١٤٠٣	٣	١٩٧٣	١٣٩٣	أدعية الغفران في شهر القرآن
٢	١٩٨٦	١٤٠٦	٣	١٩٧٤	١٣٩٤	مشارك البيان في فضائل شهر شعبان
٥	١٩٨٧	١٤٠٧	٣	١٩٧٥	١٣٩٥	لبيك اللهم لبيك (أدعية الحج)
١			٤	١٩٩٥	١٤١٥	غزوة بدر الكبرى —
						الهجرة

في جانب القصة والمسرحية الإسلامية:

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
٥	١٩٩٢	١٤١٢	١	١٩١٩	١٣٣٧	محكمة الصلح الكبرى
١			٣	١٩٩٣	١٣١٤	دروس في قصص

(٧) في جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
٥	١٩٩٢	١٤١٣	١	١٩١٤	١٣٣٢	وسائل إظهار الحق
						سيرة النبي ﷺ وآله

(٨) في جانب ما يجب أن يعرفه المسلم:

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
٢	١٩٨٣	١٤٠٣	١	١٩١٤	١٣٣٢	النور المبين لعلوم اليقين

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
						ونيل السعادتين
٣	١٩٨٨	١٤٠٨	١	١٩١٥	١٣٢٤	التضامن ضد الفاقة
٢	١٩٧٨	١٣٩٨	١	١٩١٥	١٣٣٣	تفصيل النشأة الثانية
٣	١٩٩٢	١٤١٢	١	١٩٣٤	١٣٥٢	الوسيلة وما اختلف فيه من السنة والبدعة
٣	١٩٩٠	١٤١١	٢	١٩٥٧	١٣٧٦	الجفر
١			٣	١٩٩٠	١٤١٠	وصية إلى الرجل المسلم
١			٣	١٩٩٠	١٤١٠	وصية إلى المرأة المسلمة
١			٣	١٩٩٢	١٤١٣	الخمر رجس من عمل الشيطان
١			٣	١٩٩٣	١٤١٤	إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين
١			٤	١٩٩٦	١٤١٧	نعيم القبر وجماليات الآخرة
						يمحق الله الربا ويربى الصدقات

(٩) في جانب التصوف:

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
شراب الأرواح من فضل الفتاح	١٣٢٩	١٩١٢	١	١٤٠٧	١٩٨٧	٣
مذكرة المرشدين والمسترشدين	١٣٣٠	١٩١٢	١	١٤٠٣	١٩٨٣	٢
معارج المقربين	١٣٣١	١٩١٣	١	١٤١٤	١٩٩٣	٣
الطهور المدرار على قلوب الأبرار	١٣٤٨	١٩٣٠	١	١٤١٢	١٩٩٢	٣
جوامع الكلم	١٣٨٢	١٩٦٢	٢	١٤٠٨	١٩٨٧	٣
من جوامع الكلم (١)	١٤١٦	١٩٩٥	٤			١
الطريق إلى الله تعالى	١٣٩٩	١٩٧٩	٣	١٤٠٥	١٩٨٤	٢
الفرقة الناجية (الجزء الأول)	١٣٥٢	١٩٣٣	١	١٤١٣	١٩٩٢	٣
الفرقة الناجية (الجزء الثاني)						
دستور السالكين طريق رب العالمين	١٣٥١	١٩٣٣	١	١٤١٧	١٩٩٦	٤
دستور آداب السلوك	١٣٤١	١٩٢٣	١	١٤١٢	١٩٩٢	٣

(١) وهو عبارة عن الحكم الذى نشرت فى كتاب جوامع الكلم، وأضيف إليها حكم أخرى للإمام رضى الله.

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
إلى ملك الملوك						
حديث الجمعة	١٤٠٢	١٩٨٢	٣			١
مصطلحات صوفية						
آداب الصوفية						
الصوفية والتصوف						
مقامات الصوفية والتصوف						
دروس في تركية النفس						
موارد أهل الصفا						
قبس من المضمون ^(١)						

(١٠) في جانب الصلوات على سيدنا رسول الله ﷺ وآله:

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
نيل الخيرات بملازمة	١٣١٥	١٨٩٧	١	١٤١٥	١٩٩٥	٢٦

(١) هذه الكتب تم نشرها وهي: الصوفية والتصوف، مقامات الصوفية، دروس تركية النفوس، موارد أهل الصفا، من المضمون.

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
الصلوات						
الفتوحات الربانية (١)	١٣١٦	١٩٤٢	٢	١٤١٠	١٩٨٩	٤
أكمل الصلوات على سيد الكائنات	١٣٦١	١٩٤٢	٢	١٤١٠	١٩٨٩	٢

(١١) في جانب الأدعية والاستغاثات:

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
إلهي إلهي إلهي	١٤١٠	١٩٩٠	٣			٢
ادعوني أستجب لكم	١٤١٤	١٩٩٤	٣			١

(١٢) في جانب المواجيد:

الكتاب	الطبعة الأولى		العهد	آخر طبعة		رقمها
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي	
ديوان ضياء القلوب في فضل علام الغيوب	١٤١١	١٩٩١	٣			١

(١) اسم الكتاب بالكامل: الفتوحات الربانية والنح النبوية في الصلاة على خير البرية.

رقمها	آخر طبعة		العهد	الطبعة الأولى		الكتاب
	ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
						الجزء الأول
١			٣	١٩٩٢	١٤١٢	الجزء الثاني
١			٣	١٩٩٣	١٤١٣	الجزء الثالث
١			٣	١٩٩٤	١٤١٤	الجزء الرابع
١			٤	١٩٩٦	١٤١٧	الجزء الخامس
١			٤	١٩٣٦	١٣٥٥	المواجيد العزمية في مواجهة الروضة الحسينية

٢- الصلوات على سيدنا رسول الله ﷺ وآله:

كان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ وآله ﷺ يصلون عليه بصيغ يفتح الله بها عليهم، قال الإمام على كرم الله وجهه: لولا أن الله فرض على فرائض لما تنفست نفساً إلا في الصلاة على رسول الله ﷺ وآله ﷺ، ومن صلواته على النبي ﷺ وآله ﷺ: صلوات الله وملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد وعليه وعليهم السلام ورحمة الله وبركاته.

ومن صلاة السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها على النبي ﷺ وآله ﷺ قولها: اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون، اللهم صل وسلم على من هو إمام الأنبياء والمرسلين، اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين. ومن صلاة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنها ما قوله: اللهم يادائم الفضل على البرية، ياباسط اليدين بالعطية، ياصاحب المواهب السنية، صل على محمد خير الورى سجية، واغفر لنا ياذا العلا في هذه العشية.

وقد أدرك الأئمة والعلماء والعارفون بالله تلك الحقيقة فأكثرُوا من الصلاة على النبي ﷺ وآله ﷺ لما لها من الفضل العظيم، ففتح الله عليهم بمواهب عليّة نذكر على سبيل المثال:

صلاة الإمام الشافعي رحمه الله: صلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وصلى الله في الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى علي أحد من خلقه، وزكنا بالصلاة عليه أفضل ما زكى أحداً من أمته بصلاته

عليه والسلام عليه ورحمته وبركاته وجزاه الله عنا ما جرى رسولاً عمن أرسل إليه فإنه أنقذنا من الهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس.

٢- وصلاة الإمام عبد القادر الجيلاني: اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد بحر أنوارك ومعدن أسرارك ولسان حجتك وعروس مملكته وإمام حضرتك وطرار ملكك وخزان رحمتك وطريق شريعتك المتلذذ بمشاهدتك.

٣- وصلاة الإمام أبي الحسن الشاذلي: اللهم اجعل أفضل الصلوات وأسمى البركات وأزكى التحيات في جميع الأوقات على أشرف المخلوقات سيدنا ومولانا محمد أكمل أهل الأرض والسموات، وسلم عليه ياربنا أزكى التحيات في جميع الحضرات واللحظات.

٤- وصلى الإمام عبد السلام بن مشيش على رسول الله ﷺ وآله بصيغة تدل على أنه منح منجاً محمدياً فقال: اللهم صل وسلم على من منه انشقت الأسرار وانفقلت الأنوار... إلى آخر الصيغة.

٥- وصلاة سيدى إبراهيم الدسوقي: اللهم صل وسلم على الذات المحمدية اللطيفة الأحدية شمس سماء الأسرار.. إلى آخر الصيغة.

٦- وصلاة سيدى أحمد البدوى: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية ولمعة القبضة الرحمانية.. إلى آخر الصيغة.

٧- وصلاة سيدى محيى الدين بن عربى: اللهم صل وسلم على الذات المطلسم والغيث المظمم لاهوت الجمال ناسوت الوصال.. إلى آخر الصيغة.

وهكذا لكل عارف ممنوح صيغ تدل على مقدار قربه من الحضرة المحمدية، وإن أستاذنا السيد محمد ماضى أبا العزائم عليه السلام له فتوحات كثيرة تفوق المئات فيها كنوز ثمينة.

صيغ من صلوات الإمام أبي العزائم عليه السلام على سيدنا رسول الله ﷺ وآله ﷺ

ومن إكرام الله عز وجل للإمام أن شرح صدره فصاغ صلوات على الحبيب المصطفى ﷺ وآله ﷺ يشير فيها إلى المقامات التي نالها المصطفى من ربه والتي تحتاج منا إلى ذوق راق لإدراك معانيها، وكل عارف ينال منها قدر استعداده لشهود هذه المقامات، ونسوق هنا بعضاً من صيغ الصلوات التي أملاها رضي الله عنها في الصلاة على النبي ﷺ وآله ﷺ:

١- اللهم صل وسلم على العقل الأول الذى أضاء بنور أوليته عوالم الأرواح النورانية، واللون الذاتى الذاتى الذى تزينت بمحاسن صفاته جميع الآثار الكونية، والمظهر الحقى الذى أفاض على العوالم كلها أسرار التحليات الرحمانية، المتحقق فى المظهرين الحقى والخلقى فى الآخرة.

٢- اللهم صل وسلم على مدينة المجالى الذاتية، وحوض التحليات الصفاتية، وكوثر الفيوضات الأسمائية الذى سطعت من شمس حقيقته جميع الأنوار الملكية والملكوتية، اللهم صل وسلم على الجامع لحقيقات العوالم العلوية، والمفيض لجميع إمداداتها الروحانية، اللهم صل وسلم على محيط الجمال والكمال، المتفرع من بحار معارفه أنوار الهدايات الربانية.

٣- اللهم صل وسلم على حيلة هوية الوجدانية، الذى أعجز الكل فى فهم ما ظهر من صفاته الآدمية.

٤- اللهم صل وسلم صلاة تامة مباركة دائمة على سماء الرفعة القريب فى علوه، ونور القدس المتدلى فى سموه، وشمس الرحموت الباطن فى ظهوره.

والصلوات التى صاغها الإمام عليه السلام على سيدنا رسول الله هى عبارة عن فتوحات يبلغ عددها أكثر من مائة وخمسين فتحاً نشر منها حتى الآن سبعون، والفتح الواحد يتضمن صيغاً عديدة من الصلوات التى تظهر مقامات الرسول الأعظم قد أفيضت على قلب الإمام عليه السلام، وقد طبعت بعض صيغ من هذه الصلوات فى كتاب (نيل الخيرات بملازمة الصلوات) وتتضمن الفتوحات الأربعة الأولى مسبقة بأدعية قرآنية ومختمة باستغاثة التوجه الروحاني، ولا يزال هناك الكثير من الفتوحات لم تنشر بعد مثل الصلاة الذاتية على الرسول ﷺ وآله عليهم السلام والى أفيضت على قلب الإمام وهى خاصة بصفوة أحبابه الكمل الذين عشقوا المصطفى ﷺ وآله عليهم السلام، وهى تقرأ كل يوم ٦٦ مرة على وضوء فيقول عليه السلام:

الصلاة والسلام عليك يا روح الهياكل النورانية، ونور الأرواح الهائمة فى جلال الإلهية، وسر غيب معانى الجمع المحفوظ ببرزخ المواجهات، أنت مجمع الحقائق وشمس اللطائف التى أشرقت من مبنى سدرتك الأنوار، فجملنى يامرادى بحقيقة الجمعية على أسرار الاتحاد، حتى أكون معك مجملاً وبك مؤيداً ولك محبوباً وعندك مقبولاً، فأفنى عنى بجمالك حتى تظهر لى وأغيب عنى بك، حتى تخفى معالى بنور مواجهتك عياناً، وتصفو لطيفتى بمشاهدتك كشفاً عياناً، وأفوز بفضل الله ورضوانه.. آمين.

وتتلى صيغة الذكر هذه بعدها مباشرة ٦٦ مرة: يا حي يا قيوم يا أحد، تحلّ لي بمعاني جمال الربوبية وللاية، وبنور سواطع الإلهية كشفًا، حتى أتتحقق بمكانة العبد في الرغبة والرهبة يا أحد يا الله.

٣- الأحزاب والأدعية والاستغاثات:

الحزب هو دعاء له خصوصية معينة، وبه يتوجه العبد ضارعًا إلى ربه متبتلاً ذليلاً إليه سبحانه، أى إذا حزب الإنسان شىء أهمه أو شغله، فإنه يتوجه به إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به بسر هذا الدعاء، وأغلب الأحزاب التى صاغها الإمام تتضمن التبتل والتضرع إلى الله تعالى، وتشتمل على أدعية قرآنية مشفوعة ببعض المواجيد النظمية التى يبتهل فيها عليه السلام إلى الله تعالى ابتغاء رضائه.

وأشهر الأحزاب عند الإمام حزب الحصن الحصين:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يوسف: ٣١ ، يا جبار يا قهار يا منتقم يا شديد البطش يا حي يا قيوم يا على يا عظيم، ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيئًا وما أنا من المشركين، إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، الله أكبر (٥ مرات) كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفاها الله (٥ مرات) يا سلام يا حافظ يا قريب يا مجيب يا رءوف يا حفيظ ، احفظنا من أهل الشر كلهم ومن شرهم واربط على قلوبهم وألستهم وأبصارهم وأسماعهم (واجعلهم خاضعين لنا يا عزيز - ٣ مرات) لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكان الإمام عليه السلام في بعض الأحيان يملئ حزناً ثم يعبر عنه بقصيدة ورائه مباشرة بحيث يشتركان في معان كثيرة، وكذلك جمع الإمام بين الأحزاب والفتوحات، وقد جمع حتى الآن ٥١٩ حزباً، والأغلب أنها أكثر من ذلك بكثير، وكلما مر الزمان سيظهر تراث آخر للإمام في خزائن تلاميذه ليس متوفراً لدينا الآن.

وهذا حزب من الأحزاب قاله الإمام في غرة محرم ١٣٢٥هـ :

اللهم ياأبدى ياأزلى يا سرمدى، يادهر ياديهور ياكان ياكينون، يامن بيده ملكوت السموات والأرض، وتحت تصرف إرادته وقدرته ومشيتته كل كائن في العوالم كلها تزهت يأحد عن الشبيه، وتعاليت ياصمد عن النظير والمثيل، مقاليد الأمور بيدك، ومقادير الأشياء محصورة بعلمك، سبحانك لا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا يحيط علماً بما أبدعته من جميل صنعك، وأظهرته من جليل قدرتك، وما خلقت من عوالم علوية ومكونات ملكية، أكمل مقرب من الكروبيين، ولا أسمى عقل من عقول المقربين، إلا إذا أحسنت فكشفت لمن شئت عما شئت من معالم دالة على عظمة ذاتك، وآيات منبئة بكمال نزاهتها، فمن يعجز عن أن يحيط علمه بمكونات - مع أن حضرة العلم أوسع من قيود المكاشفات - كيف يمكن أن يحوم حول أفيئة سبحات طلاسمة العظمة السبوحية أو يدنو عقله ولو ارتقى إلى ميادين حجب العزة الربانية؟ فسبحانك من على عظيم عن أن يصل عقل أو يشاهد فكر غيب جلال قهر بظهوره الآثار، وخفى جمال كمل بسره العوالم بجلى الأنوار، جلت قدرتك يا قادر، أسألك ياإلهى نور تسليم، ومكاشفة يقين، ومناجاة تمكين، ونظرة حب، وولاية ود، وحفظ قرب، وسلامة عناية، وأمان هداية وسابق إحسان.

إلهى ثبت قلبى باليقين الكامل على دينك، ونور عيني وأذنى ولسانى وقلبي
وجميع جسدى بالتحقيق والمعرفة، واشرح صدرى بصدق الثقة والتوكل عليك،
ويسر أمرى بدوام العطايا بالجمال والإحسان.

إلهى أيدنى بتأييدك، وأيدنى بسنة نبيك ﷺ وآله، واجعلنى هادياً مهدياً،
وراضياً مرضياً، وألف بى قلوب عبادك المؤمنين.

إلهى احفظنى من الفتن ومن الضلال، ومن المعصية ومن الاستدراج، ومن حظى
وهوأى، ياجيب الدعاء.

إلهى توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين، وعاملنى بالحسن والإحسان فى دىنى
ودنيائى وآخرتى، وأكرمنى فى أولادى وإخوتى وإخوانى وأصحابى والمسلمين،
وسرنى بهم فى الدنيا والآخرة، واجعل محبتنا خالصة لوجهك، واحفظنا من التفرقة
ومن المخالفة ومن شتات الرأى، ومن كل فتنة ومن كل بلاء وعناء ومرض وفقر..
يارب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، لا إله إلا
أنت سبحانه إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناك من الغم وكذلك ننجى
المؤمنين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. آمين يارب
العالمين.

٤- المقالات بالمجلات المختلفة:

وللإمام مقالات عديدة بمجلات (السعادة الأبدية) و(المدينة المنورة) و(الفتاح)
وهى المجلات التى كانت تصدر عن الطريقة العزمية وكذلك مقالات فى الجرائد
اليومية، وهذه المقالات كان يملئها الإمام وتشكل موضوعات متكاملة، وسوف

نشير إلى بعض منها في هذا الكتاب عند الحديث عن جهاد الإمام السياسى والدينى.

٥- خطب الجمعة:

إن خطب الإمام لصلاة الجمعة كان يدونها الكتبة بقدر المستطاع أثناء إلقائها، وقد نشر بعضها بالمجلات الأسبوعية للإمام، ولا يزال الكثير منها بحوزة البعض، وكان الإمام لا يزيد فيها عن ربع الساعة، ونعرض للقارىء نموذجاً لما تيسر جمعه من خطبة جمعة (١) :

الحمد لله الذى ظهر للأرواح بغييه المصون فشوقها إلى لقاء حضرته، وظهر للعقول بآياته الجليلة الظاهرة فى الكائنات فأسجدها لجلاله وعزته، وظهر للأشباح بآلائه الوافرة وأياديه المتوالية فألزمها الشكر والعبادة الخالصة لذاته، سبحانه.. حير العقول فيما أظهر من غرائب قدرته وعجائب حكمته، ترى كوناً منتسقا منظوماً خلقه عناية للإنسان، فما من حقيقة فى الكون إلا وهى مخلوقة مسخرة لك أيها الإنسان، خلق الهواء والماء، خلق الأرض والسماء، والزرع والنبات، بل وخلق يوم القيامة، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاشكر ربك أيها الإنسان وسارع لنيل رضوانه الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الحمد لله الذى جعل باب التوبة مفتوحاً أبداً، وأحب التوايين ورغبتهم فى التوبة علماً منه أن الإنسان محل السهو والجهل والنسيان، فنحن ننساه ليل نهار وهو

(١) مجلة (المدينة المنورة) العدد الصادر فى ١٠ صفر ١٣٦٦ الموافق ٧ يناير ١٩٤٧.

يناديننا بلسان الرحمة: توبوا أقبلكم، وتوجهوا إلى أواجهكم بوجهي، وأقبلوا على أقبل عليكم بنعمتي وفضلتي.

والصلاة والسلام على من صاغه من نور جماله وجعله رحمة لعباده، رحم عوالم عالين ليلة إسرائه ﷺ وآله ﷺ حيث أشهدهم فيه ما أشهد ملائكة السموات السبع في آدم، فهو ﷺ وآله ﷺ مظهر جمال الله وكماله الذي أنست به أرواح عالين وأعلى عليين ليلة إسرائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد سمعها من الصادق فقبلها وانعقد عليها، وأشهد أن سيدنا ومولانا وحبينا محمد ﷺ وآله ﷺ عبده حقاً وفرد ذاته صدقاً المخلوق لذاته، المصطفى قبل وجود العالم، من واثق الله له الرسل الكرام بنص القرآن.

أما بعد.. فيا إخواني: إن للأرواح مشاهد عليية، وإن للقلوب مظاهر جلية، وإن للأشباح آلاء تواليها وفيية، فإذا أسبغ الله علينا نعمة الأبدان وجب علينا السعي لأن نغذى أرواحنا وقلوبنا بنعمة العرفان، إخواني: إنا إذا اشتغلنا بتلك الدار الدنيا بملاذها وحظوظها وأهوائها وانصرفنا عن الله تعالى في طلب ما يقوم به أبداننا ويلذذها وتركنا الواجب علينا نحو ربنا نكون أقل من البهائم الراتعة، لأن البهائم لو علمت أن لها يوماً تقوم فيه بين يدي الله تحاسب على النقيير والقطمير ما أكلنا منها لحمًا سمينًا.

إخواني: إن الموت مجهول وقته خفي أنه، وإنا في تلك الدار معرضون له في كل نفس، فمن لم يتذكره ويلاحظه ويحاسب نفسه راح نادماً وأقبل على الله خائفًا، فطمئنوا قلوبكم باتباع حبيبه ﷺ وآله ﷺ.

إخواني: إن إبليس كان أعبد الخلق أجمعين، وكان أعلم الخلق أجمعين، مكث سبعين ألف سنة يعبد الله وكل ذلك لم ينفعه بشيء، بل طرده الله من رحمته لأن الله يحب أخلاقه الجميلة، فمن صلى الفرض فقط وصام الفرض فقط كان من أهل عليين بل من أعلين، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَأَعْلَوْنَ﴾ محمد: ٢٥ ، إذا تقرر هذا فأخلاق إبليس لا تجهل وأخلاق الله لا تنكر، وها هي أخلاق الله تمثلت في أخلاقه وصفاته ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾، فإذا عزمت على عمل ما يكرهه ربك فتذكر إبليس وما جرى له وجاهد نفسك في سبيله، وإذا عزمت على عمل يرضى ربك ومنعك مانع من لذة وشهوة فسارع إلى تنفيذه غير هيب ولا وجل، فإن الأخلاق الطاهرة الزكية تجذب العبد إلى الله جذبة عالية، قال ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (إن الله تسعاً وتسعين خلقاً من تخلق بواحدة منها دخل الجنة؛ فقال أبو بكر: أفي واحدة منها؟ قال ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: فيك كلها يا أبا بكر) (١) .

إخواني: ليس بعد الأخلاق إلا شهود رب العزة، من تخلق بأخلاق الله كاشفه الله بما لديه، إن العبادة ليست هي عبادة الأشباح إنما هي عبادة القلوب والأرواح، ذلك لأننا نتوضأ غافلين ونصلي ساهين ونصوم جاهلين لأن القلب لم يعمل، والله لا ينظر إلى الأشباح وإنما ينظر إلى القلوب والأرواح، فجملوا النوايا والمقاصد والاعتقاد ينفعكم الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، قال ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى

(١) سبق تخریجه.

الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) (١) .

الخطبة الثانية:

الحمد لله القريب من كل عبد قربه واجتباؤه، والملي لكل من دعاه، المحيب لمن ناداه، خصوصاً من ناداه تائباً مقبلاً عليه مجيباً، هو القريب فلا يبعد، والظاهر فلا يحجب، وإنما المحجوب نحن لأن قلوبنا شغلت عن الله فلم تشهد براهينه وآياته الظاهرة في الكائنات.

والصلاة والسلام على طب القلوب وشفاء النفوس والسر السارى في الآيات ورحمة الله العظمى لأهل الأرض والسموات، ورضوان الله عمن أخبرنا أنه رضى الله عنهم وخصوصاً العشرة الكرام الذين بذلوا أنفسهم وأوطانهم وأولادهم في سبيل نصره الله وإحياء سنة رسول الله، ورضى الله تبارك وتعالى على القائمين بإحياء السنة المجاهدين في سبيل كشف الغمة.

اللهم إنك جعلت التيل بركة لمصر فبارك لنا في النيل واحفظه من الذين يقسمونه بيننا ويتحكمون فينا، اللهم انفع زرعنا وضرعنا ووسع رزقنا، اللهم إن القلوب اختلفت بينها، والألسنة انحرفت فأصلحها، اللهم أظهر أفراداً من أحبابك ولهم أمورنا واجمع بهم كلمتنا وجدد بهم ما اندرس من معالم الدين، اللهم إنا فقراء فأغننا، جهلاء فعلمنا، مرضى فاشفنا، أذلاء فأعزنا، وأغتنا بك عن شرار خلقك، اللهم غير ما بأنفسنا حتى تصلحنا، اللهم اصلح الراعى والرعية واجمعنا جامعة

(١) متفق عليه.

إسلامية، اللهم أهلك الكافرين بالكافرين وشتت جموعهم ومزق شملهم وأعدهم عبيداً يباعون في أسواقنا إنك مجيب الدعاء.

٦- الخطابات والرسائل:

احتوى تراث الإمام أبي العزائم عليه السلام على كم هائل من الرسائل التي تتميز في مضمونها بالأسلوب الصوفي الحكيم، والعبارة العذبة الرفيعة، والصفاء الروحي الذي ينم عن مكانة عالية ودرجة سامية من القرب والمعرفة الإلهية، وتعددت الأغراض: فمنها الرسائل الإخوانية، والرسائل العامة للمشايخ، ورسائل للرؤساء والزعماء وغيرها، وقد نشرنا بعضاً من الخطابات التي كان الإمام يرسلها إلى زعماء وملوك ورؤساء الدول الإسلامية حسب ما تقتضيه الضرورة في أبواب متفرقة من هذا الكتاب.

الرسائل الإخوانية:

كان للإمام رسائل يرسلها إلى بعض الخاصة من المريدين وإخوانه ناصحاً لهم، أو مصلحاً ذات بينهم عند المقتضى، وتعتبر تلك الرسائل ثروة علمية عالية بما احتوته من مقدمات وصيغ من الصلوات صاغها على سيدنا رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، وما تضمنته من علوم دينية ونثرية ومواجيد نظامية تستحق الدراسة والتأمل لتكون زاداً روحياً عالياً يتزود به السعيد في رحلة سيره وسلوكه إلى ربه.

كتب الإمام يوماً إلى تلميذه الشيخ محمد الصبيحي وهو من خاصة تلاميذه

قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله عظمة وقدرًا.. القريب رحمة وفضلاً.. الواسع حيلة وعلمًا.. حمدًا من المقام الأزلى للحقيقة الأحدية، مكانة التريل والعلو

والعظمة والأكبرية، ومن تتزلات الكمالات حمداً من مقتضيات المجد الإلهي والعزة الصمدانية، ومن آلاء تلك المقتضيات حمداً من مظاهر الأسماء جمالاً وجلالاً، كل تلك الصيغ لا باللفظ بل بحقيقة المقتضى من تلك المراتب (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) (١)، وحمداً بكل جارحه وعضو وجزء من عالم الكون وملكه وملكوته، رتبة التقيد بحيطه رفرف الروح الكلى إلى هيكل الجسد الجزئى شهوداً ووجوداً لا حالاً واعتباراً، وشكراً يقتضى الإذعان والخنوع والتحلى بحلل المكانة العبدية مقام اختص به أهل الزلفى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ سبأ: ١٣ المتحقق بعين يقين مكانة (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (٢) .

وصلاة الأحدية بكمالاتها النسبية في عين الشهود بعد التحقق بالوجود، إذ لا يقال لوصفها كمال لها، وكيف لا؟ والكل محو في عين المراد ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَزَّزَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأنعام: ٩١، نسب يترقى بها العنصر حتى يزدوج بالروح الكلية، وحلل تتحلى بها الروح الملكية حتى تشرق عليها أنوار شمس الروح القدسى (ما تقول في اثنين الله ثالثهما)، ولديها تمنحى المحاسن الاعتبارية والكمالات النسبية، ويكون الحسن المعتبر بعد ذلك قبحاً إذا كان بالنسبة لعنصره وبالإضافة لجوهره ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الزمر: ٦٧.

(١) سورة طه آية ١١١.

(٢) ذكر الإمام محي الدين بن عربى في الرسالة الوجودية أنه حديث لرسول الله ﷺ

وقال الخديث عبد الله الصديق الغمارى هو من كلام يحيى بن معاذ الرازى.

وصلاة الأحدية لواحد المراد من جميع العوالم ، مصطفى الحق ومجتباه، حقيقة أخباره الربانية جمالاً وجلالاً، وشمس هدايته المشرقة بنور مراده لعباده جمالاً وكمالاً، آية الجمالات ومحيط الرأفة والرحمة والحرص، المفيض كمالاته من الهداية والدلالة والعلم والسعادة على كل العوالم العلوية والكونية، صلاة ندوق بها حلاوة فهم مقامه ومعرفة أسرار، ونتحلى بها بحلل الوراثة الحقّة والعزيمة الصادقة، وعلى آله وورثته والتابعين.. وبعد.

فمن عبد الله/ محمد ماضى أبى العزائم لأخى وحبىي المخلص المطلوب والواجد المحبوب ولدى محمد الصبيحى، منحى الله وإياك اليقين الكامل بعين يقين المكانتين وحق يقين الوراثة والخلافة محمدياً حقياً.. آمين.. ولدى:

فحرر ناسوتى (١) بكشف بيانى
ليكشف ما أرجوه قول لسانى
تشوق ناسوتى لأنسى بإخوانى
ولكن ذا الناسوت مظهر ثانى
ويا كل فى التمثيل كشف عيان
ويا كله فى عين من هو فانى
تجمع أصداد بصورة إنسان
ويا سيدا فى مقعد الصدق رحمانى
تشير بأنك دائم الجمع روحانى
بنور سناها المخلصون ذوا الشأن
ليطهر من أدران حظ وشيطان
يفاض لمن وصلوا مقامات إحسان
وبلغ تحياتى لأفراد إخوانى

دعانى إلى التحرير (١) بالقلم الثانى (٢)
كتبت وقد قيدت روحى بهيكلى
وخاطبت نفسى بالتححرر عندما
فللروح أنس دائم بشهودها
أيا أيها الجزء المتمم صورتي
ويا بعض هذا الكل فى عين غافل
ويا عدماً عند الكمال وظاهراً
ويا وطنية فى سافلين قد ارتقت
إليك صبيحى نفثة حال نشوتى
أيا ولدى () شمس الحقيقة يهتدى
وشرع الهدى غاية كل وارد
أيا ولدى عنى اليقين وحقه
فكن يا صبيحى عن محمد داعياً

(١) فى نسخة وجدناها (التسطير).

(٢) لسان الجسم هو القلم الثانى، أما القلم الأول فليس فى احتياج لسطور ولا أوراق ولا كتب ولا دفاتر، فهو شراب للقلب

وخطاب الفؤاد للفؤاد.

وبلغ أخاك الفرد والصادق (١) الذى
خليك والمحبوب أحمد (٢) من له
ألا قل له وسطاً (٣) فكن ناهجاً على
كذا أنت أهل الله جعلوك خادماً
تشاهد بالروح العلية قدسه
وبلغه عنى بل وعن ألكم هنا
وبلغ أخى علمى دعائى مكرراً
وذا الجد والإقدام سيد بلغن
وعيد الرحيم الفرد خيرى فبلغن
فنب يا صبيحى عن محمد بشرن
وقل للشهيد مرحباً بك قم إذا
لإخوان صدق والمحبين كلهم
وضع ألفة تجمع أعضاء هيك
ألا يا صبيحى ألفة وتجمعاً
ألا يا صبيحى سورة الروم وضحت
إذا الكوكب القدسى (٤) أشرق ظاهراً
على قلب صديق النبى جميعهم
فدعننى صبيحى والحقائق عن غد

تحقق وجداً بقبول وعرفان
مقام وحال صادق بعيان
رياضة ناسوت لدنيا وديان
لدنيا ودين صادق العزم إنسان
وتعمل للدنيا بمحكم قرآن
تحية أشواق ودعوة رضوان
لأهليه والأنجال بل والإخوان
ومقبل وياقوت وسائر إخوانى
وعيد الحليم المخلص الواجد الفانى
سليماً وإخوانى جميعاً بتحياتى
وبلغ تحياتى بغير توان
وكن ماضياً للعزم فى سر وإعلان
لشخص واحد إنسانى
بقلب وجسم صادق الإيمان
سيغلب جمعهموا بكل مكان
تحف به الأقمار (٦) من كيوان
ووجهتهم للواحد الديان
وبلغ تحياتى إلى إخوانى

(١) هو الشيخ أحمد سعد العقاد من الفيوم، وقد آخى بينه وبين الشيخ الصبيحى لصفات كثيرة جمعت بينهما، وكان الإمام

يقول عنهما: الصبيحى بالفيوم والعقاد بحبش.

(٢) يقصد أحمد سعد العقاد.

(٣) كان غارقاً فى بحار التجليات ناسياً كل مظاهر الدنيا حتى ضعفت صحته وقل طعمه، ويطالبه الإمام بالتوسط فى كل

شئ.

(٤) الوارث المحمدى.

(٦) الأفراد.

وخطاب آخر إلى بعض إخوته وأحابه يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله الظاهر الجلى لكل مصطنع وولى، الباطن بكماله العلى، فلا يدركه ملك روحانى ولا نبى، قرب تتراً وعلا نزاهة آخرًا وأولاً، فهو القريب الذى لا يحجبه عن عيون أهل محبته ظل الآثار فى الكائنات، ولا جلى الأنوار فى الآيات، والصلاة والسلام على حقيقة التعيين، وسر التمكين قبل التلوين، روح الحياة السارية فى العالم، ﴿ﷺ وآله﴾ وبعد:

فمن محمد ماضى أبى العزائم إلى الأخ الذى هو أنا قصداً أو ميولاً، وسيراً أو وصولاً، وإلى الأخ المتحد بحقيقة الشوق علماً ووجداً، مطلقاً وحداً، ذى النفس الصافية التى جذبت عوالم الهيكل الإنسانى مع ما فطر عليه، وجبل للمشاهدة الملكوتية والتخلق بأخلاق الروحانيين (١) ... واجهه الله بوجهه الجميل مواجهة يجمله بها بحل قوله تعالى: ﴿فَإَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ البقرة: ١١٥.

السلام عليكم وعلى أهل الوفاء والصفاء، وعلى رجل الفضيلة المحب الشيخ موسى غازى، وعلى المقبل على الله بقلبه وقلبه الشيخ حسانين محمد نجم، وعلى البار بوالديه الشيخ سيد نجم.

تناولت كتابكم الذى سرت منه روح الشوق وروح الأنس، فذكرت الله على ما تفضل به من شوق ينطق وأنس ينمو به الهيمنان، ولا غرابة فقد صاغ الله نفسك من جواهر نفوس المقربين، وصفى عناصر هيكلك الإنسانى من مقتضيات الميل إلى

(١) لم يشر عند النشر إلى اسم الذى وجه الإمام الخطاب إليه.

أسفل أو سافلين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ البقرة: ٢٥٧ فله الحمد والشكر على أن جعل لى أخًا مثلك هو أنا إلا أنه شخص آخر.

وهنا أحب أن يكون للأستاذ مواجهة خاصة، إن لم تكن بكل الحقائق الإنسانية فبطائف القلب، وتلك المعاني تنبعث منها نفثات الشوق إلى الله تعالى فتسرى في قلوب أهلت، وتشرق في آفاق هياكل طهرت، فيسرني وحقك أن يكون لأهل الأفق الذى أنت به نور إشراق يعمهم، أو وميض شروق يسرهم، حتى تنجذب تلك القلوب إلى علام الغيوب، وتسكن تلك النفوس إلى الملك القدوس، وذلك يأخى أيدى الله وإياك بروحانية رسول الله ﷺ وآله ﷺ هو الطهور الذى يسقيه الرب عز وجل فى مقام الصفا الوفا، والأنس بعد الخوف، ومواجهة المعروف بعد العرفان، والفناء عن المواجهة بالمواجه جل جلاله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩ جعلك الله يأخى من منحهم أعظم قسط وأوفر حظ من الحكمة حتى يفرح بنا رسول الله ﷺ وآله ﷺ فى هذا الزمان.

هذا وإنى يسرنى أن تجعل لى حظًا من المحبة فى قلب من يسرنى أن يكونوا أنجمًا مشرقة فى أفق الدلالة والوصول، واقبل منى توجه قلبى وصالح دعائى وشوقى، إلى أن يكون بعينى رأسى قسط من الأنس بك، والله أسأل أن يجعل إظهاره إيانا ظهورًا له بالفناء عنا به، وبقاء لنا به، حتى يكون هو الظاهر الذى يستر ظاهره الظهور والمظاهر.. آمين.

محمد ماضي أبو العزائم

وكان يوجه النصح في خطابه إلى الإخوان فيقول على نظام الحكم:

نور المواجهة فضل من الله تعالى، إذا أشرف أشهد الخلق غيب من منه النور، فجاهد نفسك أن تكون بفضل الله صورة لحضرة الحبيب ﷺ وآله بأن تجاهد كل عضو أن يتشبه به، حتى كأنه يكون مواجهًا لك ويكون الحق معالم بين عينيك.

ليس كل أخ في الطريق معك في مترتك لأنهم درجات، فعلى المريد أن يصطفى له من إخوانه أخا يعلو بمجالسته حاله، وتزكو بمخاطبته نفسه، ويعامل جميع إخوانه بحسب مراتبهم ليكون روحًا لهم معينة على ما هم فيه، فيمتدح المبتدئ على حسن عمله، والسالك على جميل خلقه، والواصل على حاله، ويتنزل لكل أخ بقدره حتى تألف القلوب وتنشرح الصدور بتألف الجسد كاملاً لكل عضو منه وظيفة يقوم بها، وبذلك تدوم الألفة وتزداد المحبة ويطيب لكل وقته ويصفو حاله ويطمئن قلبه (١) .

وخطاب آخر:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الأحد الصمد، حمداً من حضرة الذات للذات، ومن حضرة الأسماء والصفات لحضرة الذات، إذ لا يقدر حق الله إلا الله، سبحانه.. نعمه لا تحصى وتفضلاته لا تستقصى، سبحانه وتعالى عما يصفه الواصفون وعما يتخيله المتفكرون، ظهر سبحانه وهو الباطن، فكان ظهوره هو عين البطون، شئونه دلت على كماله العلية، وآياته دلت على كبريائه وعظيم جلاله، لا تدركه الأبصار ولا تحيزه البصائر، تقرب لمن أحبهم بلوامع سنا

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ٩ العدد ٣٠ ص ٣٢ (١٣ محرم ١٣٥٦ الموافق ٢٦ مارس ١٩٣٧) .

الأنوار القدسية وهو القريب، فهم قلوبهم وتيم أرواحهم، فهم بجماله مهيمون وبشرابه غابوا عن الآثار لما ظهرت أسرارها، وهاموا في الآفاق عندما أشرقت أنوارها فتبين لهم الحق ووضحت سبله، وظهرت لهم سر الخلوة، وفكت طلاسمه حتى تميزت الحضرتان وظهر الرشاد بعد الغي، أرادهم فوفقهم، وأحبهم فمكنهم، ونظروا إليه فأنسهم، فهم أهله وأحبابه المقربون للوقوف على أبوابه ﴿لَا

يَخْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَنَلَقَهُمُ الْمَلَكُ﴾ ﴿الأنبياء: ١٠٣.

والصلاة والسلام على سر الظهور ونور البطون، الكوكب الدرى الساطع نوره المضىء على العوالم كلها، زيت المكنانة المحمدية، السيد الأكمل والحبيب الأكرم سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وورثته وسلم.

ولدى.. للروح حضرة إطلاق بالوسعة الروحانية، وفي الحضرة التى بها الاستشراق على عوالم الملكوت، والتمتع بالنظر لحضرات الأفق الأعلى، والتنعم برياض الأنس وأسرار التحليات فى لحظات الجلوات.

ولست وإن كنت بعيداً بهذا الجسد عن كشف ما بك من الوجد الصادق- وبقدر صفاء لطيفتك- تود بنور الشوق وحالاً بالتلذذ بذكر المحبوب وتارة بالإقبال بالمجاهدة، فكن على ما أنت عليه، فليس كل ذلك لغيرك، والله سبحانه إذا أحب عبداً جمع همه فى واحد حتى يترقى إلى أن يفنى فى الواحد ويتدلى عبداً للأحد سبحانه.

ولدى.. الشوق معراجهم، والصدق براقهم، والإخلاص حصنهم، ويقظة القلب منهم إذا كانت فيهم، فاجعل الحق سبحانه معبوداً لك لا تشرك به شيئاً، والحبيب الأكبر مقصوداً، وأحب فيه من يقربك إليه.

ولدى.. إن للقلوب أبواباً للخير يفتحها الله فتتلقى بملك الإلهام.

يا ولدى.. دوام الحضور بقلبك، واجعل الدنيا وأهلها ومن يشغلك كنعل
يقيك الأقدار تستعمله عند اللزوم لهذا الغرض، وكن مع إخوانك كأنك مع نفسك
إلا ما يأمرك الله بحفظه عن غيرك، واصحب من يقوى حالك ويزيد رغبتك، وإياك
وأهل الحظ الذين حجبهم الله بأهوائهم وأبعدهم عن أن يشهدهم أسرارهم، واكتم
مجديك واحفظ أسرارك عن أهل الضلال المحجوبين تكن من الفائزين، وتقبل دعواتي
الصالحة.

محمد ماضى أبو العزائم

٧- الحكم العزمية:

من خوالد حكم الإمام أبي العزائم عليه السلام تلك الحكم التي سكنت قلوب المؤمنين،
وغدت لعشاق البيان إماماً وهادياً، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩ فتحجده
بروحانيته ينقل تقوى قلبه إلى قلبك، وترى نور الإيمان يترك في قلبك آثاراً، وعطايا
الحق سبحانه تتوالى عليك مدراراً.

وعن الحكيم يقول رضي الله عنه :

الذى أوتى الحكمة الروحانية وأدرك حقائق العلوم الربانية، إنسان وسط
متمكن، أمكن من جميع العلوم الكونية وغيرها تمكناً جعله يداوى كل وارد بدواء
يناسبه حتى يكون مألوفاً لكل إنسان، وسطاً لم يتطرف عن الجادة السمحاء.

ويتحدث عليه السلام عن الحكمة فيقول:

ليس المراد من الحكمة عبارات متسعة المباني بالغة حدها في سمو اللفظ وانتظام التركيب، ومراعاة مقتضى الحال المكتسب من مزاوله علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات، واستعمال النظائر والقضايا والأقيسة والأشكال والنكات البلاغية، فإن هذا بعيد عن الحكمة بمراحل، لأننا نرى كثيراً من الكفار وأهل المعاصي لهم اللسان المعبر والقلم المبين بحالة تحير العقول، وقد جعل الله حظهم منه لسانهم وحرمتهم من نور الحضور معه ولذة الاستمداد منه.

ويقول أيضاً: الحكمة الإلهية لا تكون بالمدارسة والاكْتِسَاب العلمي، لأن الاكْتِسَاب العلمي كالتجربة التي يكون الحكم بها ظنياً، ولكن الحكمة أن يكشف الله للعبد المراد، مراده من كل شيء أنزله أو خلقه، حتى يعبر هذا الحكيم عن حقيقة ما انكشف له انكشافاً حقيقياً، فتكون حكمته حكمة يقين صادق، ولكن تتفاوت النفوس في الانتفاع بالحكمة: فمن النفوس نفوس الصديقين الذين يشم أحدهم ريح الحكمة تطيب نفوسهم وتطمئن قلوبهم، ولا يجعلون لها كفواً يشغلهم عنها، وهؤلاء هم الذين سبقت لهم الحسن، ويلحقهم في هذا أهل النفوس التي تطهرت وتصفيت بالجهاد الصادق، وأما نفوس أهل البعد فإذا قابلت الحكمة صرفتها بغير ما قصد بها من العلم والعمل، ونوال الخطوة لدى الحق سبحانه وتعالى والتخلق بأخلاق الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين.

وقد افتتح الإمام عليه السلام كتاب (شراب الأرواح) بمجموعة من الحكم الغالية والدرر النفيسة، نذكر منها:

*نسب إليك الأعمال عندما شهدت نفسك في أوج الكمال، وقيدك بالتكاليف لتعلم أن هذا الشهود مخيف، زينك بجميل الصفات لتتكشف لك بها الآيات، أنبأك ببيناته لتتدبر في أسرار آياته، وعدك وأوعدك ليقربك ويععدك، جعلك خليفة في الأرض لتحظى بخطابه يوم العرض، فتح لك باب الرحمة والقبول ليسهل عليك الوصول، وشدد عليك الحساب ليهديك إلى الصواب، فأنت مطلوب لحضرته ومقاد بعوامل حكمته، إنما يخفى عند شهودك وإثبات وجودك، ويظهر عند فقدان أنيتك وانعدام غيريتك، جعلك أشد العوالم احتياجاً إليه ليدلك على التوكل عليه. أوجد لك في معظم أعمالك غير مرادك لتعلم أنه المرید المختار لجميع ذلك، ولينبهك إلى تفويض الأمور لإرادته، وتسليم مالك لمشيئته، إنما حجبك عن شهود أنك لست منه، وأظهره لك تحقّقك بأصلك.

*ليس كل إقبال موجباً للقبول، ولا كل من تمسك بالصالحات مؤد إلى الوصول، وإنما تصل إلى مولاك بنسبك، وتقبل لديه بأخلاقه التي تتجمل بها، فنسبك له عبد مفتقر مضطر، ونسبته إليك رب ممدك بالإيجاد والإمداد. ليس الوصول تلذذاً بالأعمال وتجملاً بالأحوال، إنما الوصول معرفتك نفسك وعلمك مرتبتك، وتحققك بفاقتك واضطررك له، فكم عامل بالكتاب والسنة هو أشر علي المسلمين من الجنة، وكم من متظاهر بزي المساكين وهو أضر عليهم من الشياطين، فجمل باطنك لمولاك يدوم لك رقيق وعلاك. متى تتجمل بالعبودية وأنت ترى نفسك خيراً من سواك؟ أو أولى بفضل مولاك؟ عجباً لك!! أو تقسم رحمة ربك؟ ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ آل عمران: ٧٣.

المقبولون كثيرون والمقبولون قليلون، وعلامات الإقبال تفريد الحق بالقصد دون غيره، ومن لم يتمرن على التفريد في بدايته قل أن يفرد في نهايته، وفتحة التفريد تفريد المرشد بالقصد بأن يجعل كل شيء وسيلة ليدخل في قلبه ليفوز بجه. بين أهل الصفا وأهل الوفا برزخ المجاهدة، فأهل الوفا يجاهدون أنفسهم ليتكملوا، وأهل الصفا يجاهدون أرواحهم لترحم بقية قواهم، فأهل الوفا يجاهدون العدو، وأهل الصفا يجاهدون الحبيب، فالمجاهدة لا بد منها. إذا أقبل عليك فرغ قلبك له، فإن التفت إلى غيره أدبك فيه، واحذر أن تلتفت - ولا إلى كن - فإن الحبيب غيور وأنواره سفور، والالتفات إلى سواه غرور.. أعاذنا الله بوجهه الكريم من الالتفات إلى غيره آمين.

*طلبك له عين طلبه لك، ولولا طلبه لك ما طلبته، فأنت مطلوب به ومطلوب له، ولا أثر لك في طلبك له، إنما أنت به مطلوب وبه طالب، وإلا فمن وفق الطالبين حتى يطلبوا؟ وهل للطالب فعل أو أثر حتى ينسب الطلب لنفسه؟ حاشا.. إنما ينسب الطلب لنفسه من لم يوحد مطلوبه، والواصل لا يشهد غيراً، ولا تميل نفسه إلى سوى، فهو فان به فيه عن شهود الأعمال والعبادات، ومتى شهد لنفسه عملاً وتيقن أنه طالب له بعبادته وبطاعته فهو محجوب عن الحقائق الإلهية، وإلا فمتى يوحد من شهد نفسه أو أثبت له عملاً وليس في الكون أثر لغيره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ

حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ

بِيَمِينِهِ ۖ﴾ الزمر: ٦٧. فالوصول هو إضافة الأعمال والآثار والمظاهر كلها إلى الواحد المتزه عن الشريك والمعين، حتى يغنى عن المشاهدات والمشهودات، والنسبة إلى نفسه، والنظر إلى إضافة الأعمال والتوفيقات إلى نفسه، أو إلى غير الواحد

الأحد، تتره عن أن ينسب إليه ما لا يليق بجناحه السامى من التبجيل والتعظيم،
وتقدس عن أن تكون نعمته معللة بسبب، مرتبطة بعمل، وهو المعطى الوهاب: ﴿

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يس: ٨٢

إذا حججت فلبه لترى آثار أنبيائه، فكن في مقام خليله جسمًا أو روحًا ثم حج
بقلبك لترى آثار ربك، وليس من هاجر ليرى آثار الأنبياء كمن ساح ليرى آثار
الرب جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل: ٥٣. زن نفسك بقدر
نيتك لا بقدر عملك، فإن الأعمال لا توزن عند الله، وإنما توزن القصود والهمم،
واعلم أن أعمال القلوب وارد علام الغيوب، وأعمال الجوارح قد تكون لداعى
الخطأ أو لباعث الشهود، وهم آل العزائم القبول، وإنما الإقبال سبب لا علة، وكم
من مدبر مقبول، وكم من مقبل مفصول، حكم الأزل منفذ أبدًا وإن تغيرت
مقتضياته، فإذا شهدت سر القدر حفظك الله من الحد، وإنما الإقبال إقبال القلوب،
وإنما الجوارح آلاتها، والشأن كل الشأن تصحيح النية، ومعراج الأعمال الإخلاص،
وكمال الإخلاص الفناء عنه مع التحقق به.

كن واجدًا لا متكلفًا، وعارفًا لا متعرفًا، فإن التكليف سير والسير غير، والوجد
قربة تثبت حبه، والتعرف سلوك، والعارف واصل، وبين المتعرف والعارف كما
بين السالك وملك الملوك، فاعط لكل مقام حقه يرفعك الله فوقه (١)، فتنفوز
بالرقى وتحظى بالمتزل الصديقى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾
﴿العنكبوت: ٦٩، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

(١) أى فوق المقام.

النحل: ١٢٨ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الأعراف:

٢٠٦. وشتان يأخى بين من هداه لسبيله، ومن هو معه ومن جعله عنده.

وهذه بعض الحكم القصيرة:

* لا بد للإنسان من اثنين للرقى: قلب مخلص، وجسم مقتد برسول الله ﷺ وآله ﷺ.

* من أعطى الكل أخذ الكل.

* من ذلك على الدنيا قطعك، ومن ذلك على الآخرة حجبك، ومن ذلك على العمل أتعبك، ومن ذلك على الله أراحك.

* ليس الرجل من جعل الحجر ذهبًا، وإنما الرجل من جعل البعيد قريبًا من الله.

* إنما ميزان الرجال بأخلاقهم.

* من شغلته الشمائل عن الذات أحاطت به البليات.

* أصل المحبة المعرفة، وأصل الطاعة التصديق، وأصل الخوف المراقبة. وأصل المعاصي طول الأمل، وحب الرياسة أصل كل موبقة.

* علم بلا عمل وبال، وعمل بلا علم ضلال.

وقام خلفاء الإمام العلي عليه السلام بجمع الكثير من هذه الحكم في كتاب خاص تم طبعه وفيه من الحكم العزمية الكثيرة.

٨- القصص:

قص الإمام على مريديه قصصاً كثيرة كان يعالج بها أموراً شتى هى قضايا الساعة فيها العلاج وفيها الشفاء، ويمكن تأويل كل قصة منها على معان شتى، ففيها العبارة وفيها الإشارة وفيها الرمز، ولا تزال الأحداث فى كل جيل مر ويمر بنا تحتاج إلى الأخذ بعبرتها.

ويصور لنا الإمام محادثة بين الدين وإبليس ليصور لنا الواقع الذى كانت تعيشه مصر فى عصره من حيث إباحة البغاء رسمياً بأمر الدولة، ووقوف العلماء على باب السلاطين، وشرب الخمر وانتشار الربا، وأمثلة أخرى، وذلك بأسلوب مؤثر يأخذ بالألباب، ثم يضع عليه السلام سبيل العلاج، فيقول مفتتحاً مقالته تحت عنوان (محادثة الدين) (١) :

مضى الدين فلقى إبليس فقال له إبليس: مر معى حتى أريك أعمالى، فإني أفرغت جهدى فيما يشقى آلامى. ومر الدين معه فوجد جنوده فى استعداد تام كأهم فى ميدان القتال، وقال إبليس للدين: سلهم عن عملهم، فدنا الدين وسأل الجنود: ما عملكم؟ فقال جنودى له: نحن حرس على النساء الفواحش حتى يآمن على أنفسهن من أذية أقاربهن، ويآمن الزانى على نفسه من المتعصين الذين ليسوا عصريين. فقال له الدين: يابنى، أنت أزلت الكفر بسيفك، ومحوت الظلم برمحك، وأزلت الرذائل بشجاعتك، وأقمت حدود الله بغيرتك، ودفعت الباطل ليظهر الحق.. مالى أراك وقفت بعد أن كنت على ثغر تحمى الأمة من أعدائها أو فى ميدان لتفتح مملكة للإسلام أو ممتطياً جوادك لصد أعداء الله المهاجمين!! بلغ بك

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ٢ ص ١١ (٢٠٠٦ جمادى الآخرة ١٣٥٦ الموافق ٢٧ أغسطس ١٩٣٧).

الذل أن تقف بسيفك ورمحك لتحفظ باغية وتحرس زانية، أين تلك الغيرة الإسلامية؟ وأين هذا الدم الإيماني الحار؟ وأين الأنفة والعزة التي كانت للمؤمنين؟ أترضى أن يكون سيفك لحق وظهور الباطل؟.. فنظر له إبليس وقال له: إني فتحت عليهم باب تقليد أعداء الله وأعداء رسول الله فاستحسنوا أعمالهم ونسوا ما كان عليه سلفهم الصالح ليغضب الله عليهم فأكون قد انتقمتم لنفسى منهم.

ومر الدين فوجد رجلاً مجملاً بزى النساك وحواليه رجال، فقال إبليس للدين: سله، فسأله إلى أين أنت متوجه؟ فقال: دعائي وزير كبير فعلمت أنها السعادة فأسرعت إليه لأنال الخطوة لديه وأنفذ به أغراضى وأنتقم به من أعدائي، فنظر إليه الدين وقال: أنت موسوم بسمة العلم والتنسك، وأنت السراج الذى يستضىء بك العامة، والإمام الذى يقتدى بك الخاصة، وقد صرح القرآن بأن لا نتخذ لنا ولياً إلا من المؤمنين، وأمرنا ألا نولى أعداء الله تعالى ولا نسارع فيهم، وقد نهانا ﷺ وآله عن الوقوف على أبواب الملوك من خلفاء المسلمين، وقد كنت فيما سبق تعظم نفسك عليك أن تزور أمير المؤمنين، وأخبار فضيل بن عياض ومالك بن أنس وغيرهما برهان، فكيف رضيت بولاية أعداء الله وموالاهم؟ أترضى أت تحمل أوزارك وأوزار من يقتدون بك إلى يوم القيامة؟ هذا عمل من نسي الآخرة ونسى ذكر الله فأنساه نفسه، أما سمعت قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم) (١)؟ ما الذى حدث؟ أنزل قرآن نسخ ما أنزل الله على حبيبه ومصطفاه ﷺ وآله؟ أو بعث رسول بعد خاتم الأنبياء؟ إني لأعجب من أن أرى رجلاً

(١) سورة المائدة آية ٥١.

عليه سيما النساك ولبسة العلماء يسارع إلى الوقوف على أبواب من نهانا الله عن موالاتهم واتخاذهم أولياء. فنظر إليه إبليس وقال: لقد أفرغت جهدي حتى أفسدت قلوب العلماء والنساك وأبدلت محبة الله تعالى ورسوله ﷺ وآله والدار الآخرة بمحبة المال والنساء والسيادة، وأبدلت من قلوبهم محبة القرآن والسنة بتقليد أعداء الله والرأى والهوى، وهذا الناسك العالم الذى تراه ناهز السبعين من عمره وسافر أقصى الأرض ولم يحج إلى بيت الله ظاهره ظاهر الناسك ولباسه لباس العلماء والقلوب قلوب الشياطين، فقال الدين لإبليس: كل ذلك بسعيك؟ قال: إني طلبت من الله تعالى أن ينظرني إلى يوم يبعثون، وأن أقعد لهم الصراط المستقيم حتى لا يجد أكثرهم شاكرين.

ثم مر الدين مع إبليس فرأى رجلاً حوله الشرطة، فقال إبليس: سلّه، فقال ما ذنبك؟ قال: شربتُ خمرًا بعشرة دنانير فنما المال علىّ بالربا حتى صار مائة دينار، ورفّع الأمرُ فحكم علىّ القاضى بسجن سنة لأنى غررت بصاحب المال، فعجب الدين وبكى بكاءً شديداً وقال: مسلم يشرب الخمر ويستعمل الربا ويقضى عليه فى بلاد المسلمين؟ ثم سأله: ومن الذى قضى عليك بهذا؟ فقال: كافر بالله تعالى، فقال الدين: كافر يجلس على كرسى القضاء فى بلاد المسلمين؟ فضحك إبليس وتمايل عجباً وقال: لتعلم مقدار عملى. فتوجه الدين إلى وجهة الدعاء قائلاً: اللهم يامن أنت الله الذى لا إله إلا أنت، يامن وعدك الحق ودينك الحق، أسألك أن تأتى بقوم تحبهم ويحبونك تذلل بهم إبليس وجنوده، كما قلت سبحانك ﴿إِنْ كَيْدَ

الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿النساء: ٧٦﴾ ، يامن قلت (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (١) ، أغث دينك وأظهره بإحسانك.

ثم انصرف الدين فجذبه إبليس وقال: سر معي حتى ترى القضاة في محاكمهم ويم يحكمون، والعلماء في معاهدهم ويم يعلمون، والتجار في حوانيتهم ويم يتعاملون، والنساء متبرجات وكيف يغازلن الرجال متفضحات، ثم تنظر إلى المساجد زحرفت بالفراش والرياش وأغلقت أبوابها، فبكى الدين وتخلص منه مبتهلاً إلى الله ضارعاً متوسلاً برسول الله، فلباه الله وأجابه ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾
الطلاق: ٧.

ويضرب الإمام أمثالا في أسلوب شيق يعطى أمثلة في صورة قصصية جميلة حتى لا تنسى، وهذه قصة منها قالها ~~الشيخ~~ درس من دروسه:

أراد رجل من أهل العراق أن يحج فركب البحر مع رفقة له قاموا بالخدمة طيلة أيام سفره. ولما أوغل في الإقيانوس (٢) الهندي عصفت الريح بالسفين، فلم تبق عليها شيئا، وضل الربان الطريق، وتجهم الزمان واكفهر جو المكان وتلبدت الغيوم، فارتطمت السفين بالصخور، فغرقت السفين وهلك كل من فيها إلا هذا العراقي الذي كانت له دراية في السباحة وقدرة على مقاومة الموج بالصبر الجميل.

(١) سورة طه آية ١٤.

(٢) أى المحيط الهندي.

وقذفته أمواج البحر العجاج اللجاج على شاطئ جزيرة وجد عليه أقواماً فرحين مهللين مكبرين، ثم جاءوا معهم بالطبول والمزامير والعيش الكثير والموادج ذات الأثاث الوثير.

خرج الرجل من البحر عرياناً فلا رداء عليه وجوعاً لا يقوى على المشى، فما أسرع أن ألبسوه قميصاً موشى بالذهب الإبريز وجبه في أحسن تطريز، وجيء بأخزنة من الطعام عليها ما لذ وطاب، فأكل وشرب ونام، فاستيقظ والقوم بين تحليل وتكبير وفرح ومرح ماله من مزيد، حتى كان اليوم السابع لقدومه عليهم فتجمع حوله القوم وألبسوه تاجاً موشى بأعلى الجواهر الحسان والآلى فوق الجمان، ونادوا به ملكاً على هذه الجزيرة، الأمر الذى كان لا يحلم به فى سالف العصر والزمان.

وفكر الرجل وقدر فيما أتاه الله من هذا الحظ الكثير والملك الكبير، فاستوزر لديه بعض الحكماء من رجالات القوم المعداد برأيهم بعد أن مكث طويلاً فى تعلم لغتهم، فلما تم له تعلم هذا اللسان، وأمكنه أن يخاطبهم بما فى الجنان، جمعهم ذات يوم وسألهم عن هذا الحال الذى لاقاه والحظ الذى وافاه وهم يكتمون عنه أمرهم فيه وحرصهم على أن يوافيه، ولكن لما تودد إليهم ووجدوا أنه فضله دائماً واصل إليهم، وأنه أغرقهم بنعماء، واستطابوا العيش معه قالوا له: أيها الملك العزيز والذهب الأبريز، إننا كل عام نقود ملك هذه الجزيرة إلى الهاوية، قال: وما الهاوية؟ قالوا: بئر أعددناه لأمثالك سحيفة القاع سيئة المتاع بها فى كل مكان منها شواظ من الصلب مسنونة، إذا هوى فيها إنسان لا يصل إلى القاع حتى يتبعثر جسمه فى كل مكان، ثم بعد أن نفرغ من هذا العمل الوبيل نسرع إلى الشاطئ فى فرح ومرح لنستقبل من يلقيه البحر إلينا ليكون ذلك الملك الجليل.

فلما أخبروه الخبر، وأراد أن يكون منه على حذر، قال لهم: وكيف إذن المفر؟ فقال له أكبرهم سنًا، وأعظمهم قدرًا: أرى أنه إذا طابت نفس المليك للبقاء فما عليه إلا أن يأمر بإصلاح هذه البلقاء، قال: وما هذه البلقاء؟ قال: جزيرة تبعد عنا مسيرة يومين، فليعمرها ويستثمرها فتكون له مأوى أمين، وحصن حصين بعيدًا عن غوغاء هذه الجزيرة، وهو جاء هذه الفئة الشريرة التي لا تعرف قدر الملوك.

وصحت عزيمة هذا الملك على استصلاح هذه الجزيرة، فأرسل إليها العمال والبناء فشيّدوا له قصرًا عظيمًا، وأرصد لهذا العمل الجليل أموال الدولة، فما أن قرب انتهاء العام حتى هروا إلى هذه الجزيرة فألفاها جنة عالية قطوفها دانية تجرى من تحتها الأنهار تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها العزيز الغفار.

ثم قال الإمام عليه السلام: فمن يكون إذا هذا الإنسان؟؟ وبماذا ينطق هذا المثل يأهل العرفان؟؟ قال عليه السلام: بعد أن سكّت الجميع:

إن هذا المثل يصور لكم حياة الإنسان في دائرة هذا الإمكان، فالسفينية: بطن الأم، وتحطيمها على الشاطئ: حالة الوضع، والملوك: المولود الجديد، ألا ترى النساء يزغردن ويضربن بالدفوف والرجال من ورائهن يرقبون البشري وعلى قدم الاشتياق إلى سماعها في صفوف، ثم يخرج الطفل عريانًا فيكسونه بكل نفيس وغال ويطعمونه أشهى ما يكون من الرزق الحلال، ثم ما زالوا يكرمونه حتى يبلغ الرشد ويتم له حسن الحال، فإذا كان شريراً ألقته ذنوبه وآثامه في الهاوية، وإن شب مفطوراً على الخير أنجاه الله من هذه الداهية فعمّر آخرته بعمل صالح في دنياه

ليطيب له العيش فيها!! ولا ينفك طول وقته ذاكراً شاكراً لله الذى لا يسأله غير رضاه وحسن لقاءه (١).

وقصة اخرى على شكل مناظرة تبين حقيقة العلم: (٢)

جاهد طالب نفسه جهاداً أكبر لينال بغيته من العلم، فتحصل على ما مالت نفسه إليه، وناظر شيوخه وأساتذته حتى ظهرت له المساواة. كان يعتقد أن أهل العلم لهم درجة عالية بنص قوله سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة: ١١، فلم يجد له درجة لنفسه فوق ما كان عليه قبل التعلم، ووجد الذى كان عليه فى دار أبيه من الصلاة والصيام والزكاة لم يزد وربما حصل التساهل فى تأديتها، فعجب وقال ما الذى اكتسبته من التعلم؟ وابتهل إلى الله تعالى أن يكشف له الستار عن الحقيقة وأن يبين له أقرب الطرق الموصلة إليه وأصفى الموارد المقربة منه سبحانه وتعالى، وجلس متوجهاً إلى الله بقلبه.

وفى هذا التوجه حضر قلبه فرأى أنه فى مجتمع من أهل الصفا ومع الله تعالى وكأنهم فى مجلس علم، وكأن العلم يبين له حقيقته، فأصغى بأذن قلبه متجرداً من هيكله الإنسانى ولوازمه، مقبلاً بكليته على التلقى، فسمع العلم يقول :

إنما يحتاج إلى عند غيبة الحقيقة لرسمها على جوهره النفس بمقدار قابلية النفوس لا بقدر الحقيقة على ما هى عليه. فإذا صفا جوهر النفس ورسمت عليه صورة

(١) مجلة (المدينة المنورة) السنة ١٠ العدد ٤٤ (٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ الموافق ١٩٣٨/٧/٢ م).

(٢) مجلة (المدينة المنورة) السنة ١٠ العدد ٦ (١٧ رجب ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩٣٧/٩/٢٤ م).

الحقيقة، تاقت النفس إلى جليلة الأمر وكنيته، فارتقت من العلم إلى الذوق ومن الذوق إلى الشهود وجدًا، ومن الشهود إلى العيان وجُودًا.

ومن تلقى العلم، فظن أنه بلغ الغاية بالعلم، حرم الرعاية وهى العمل بالعلم، فإن كمال العلم العمل به، لأن العمل به دليل على حصول علم الرعاية للعالم، ومن حرم الرعاية حرم العلم أى لازمه. وأنا وإن كنت مقصداً عظيماً لمن رغبوا في السعادة، إلا أنى بعد تحصيلى أكون وسيلة لمقصد عظيم. وكل علم لم يكن معلومته الله ورسوله فهو في غايته تحصيل ما به حفظ الصحة وبقاء الحياة في كون الفساد.

سأله أحد أهل الصفا الجالسين قائلاً: يا أخى ولو نال علم أحكام الله تعالى؟ قال:

نعم، فإن من تعلم الأحكام قبل العلم بالحاكم هلك وأهلك. انظر إلى العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ وآله كانوا يكرهون الولاية كسيدنا على بن أبى طالب عليه السلام حين ولاه رسول الله ﷺ وآله المدينة في غزوة تبوك، وكمعاذ بن جبل حين ولاه رسول الله ﷺ وآله اليمن، حرصاً على دوام مواجهة رسول ﷺ وآله، وكأبى حنيفة الذى ضرب على الولاية فأبأها، وابن أبى ليلى وابن جريح ومالك بن أنس الذى ضرب وأوذى - رضى الله عنهم - وذلك لأنهم تعلموا الإيمان ثم تعلموا القرآن ثم الأحكام.

وسأله آخر قائلاً: يا سيدى، إن أكثر العلماء الآن يهتمون بتحصيل علم الأحكام والأخبار والأقاصيص، فقال: أما الذين يتعلمون الأخبار فإنهم أهل الشهرة لأنهم يحفظون الأحاديث باختلاف الروايات ويعلمون التجريح والتعديل حتى

يكون لهم المتزلة العليا، وأما الذين يتعلمون الأفاضل فهم الذين يحبون أن يكونوا شيوخاً على العامة لينالوا حظهم.

أما العلم الذى هو علم يطلبه أهل الصفا والوفا من خيرة عباد الله فهو: العلم بالله، والعلم بأيام الله، والعلم بأداب سلوك طريق الله تعالى، وهذا لا يقبل عليه إلا من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى لأنها رعاية أزلية تجذب النفوس إلى ما خلقت له،

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤١-٤٢ وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (١) وقال ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) (٢). وليس تحصيل الأحكام بعلم يقرب من الله تعالى، ولكنه يقرب من الملوك. ومن حصل العلم بالأحكام ولم يحصل العلم بالحاكم كان كمن لم يجعل الله لهم نوراً.

ولم تحصل التفرقة بين جماعة المسلمين والخلاف بينهم إلا ممن حصلوا العلم بالأحكام ولم يهبهم الله تعالى العلم به سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨ بأي علم؟ قال: العلماء بالله تعالى. ولكن العلماء بالأحكام لا خشية فى قلوبهم من الله تعالى، وكيف تكون فى قلوبهم الخشية وهم أسرع الناس منافسة فى الوظائف، والتقرب من الملوك والأمراء، والخوف من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومجاراة أهل الأهواء لا للمدارة ولكن

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢.

(٢) البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى.

للمداهنة. ولو أن الخشية من الله تعالى في قلوبهم لرخصت الدنيا في أعينهم، بل رخصت دماؤهم غيرة للحق.

وإن نفساً واحداً في تحصيل العلم بالله تعالى يقوى به اليقين قوة تُبذل به الحياة العزيزة غيرة للحق كما فعل سحرة فرعون الذين قالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ طه: ٧٢ بعد أن ظهر لهم آية من عجائب قدرة القادر سبحانه وتعالى. وهذا درس لم يتجاوز أنفاساً، كيف أنتج بذل الحياة محافظة على الأدب مع الله سبحانه وتعالى؟ .

وقد فعل أكثر من ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وآله، فقد عذب بلال وياسر وزوجته وابنه عمار في الله تعالى حتى قتلت أم عمار طعنًا بالحربة في فرجها غيرة لرسول الله ﷺ وآله أن تسمع فيه ما تكره، ومات سيدنا ياسر وهو مولى من فادح العذاب وكان ينحيه أن يدارى قريشاً. وكم عذب في الله رجال حتى فارقوا أوطانهم وأعراضهم وأموالهم، وأبت خشية الله التي في قلوبهم أن يداروا.

فإذا كان العلم بأحكام الله تعالى ينتج الخشية من الله تعالى، لما رضى العلماء أن يتنافسوا في خدمة الملوك والأمراء على ما هم عليه من البدع المضلة والأهواء المضرة، وكيف يرضى العالم الذى يخشى الله تعالى أن يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً؟ ويبيع الآخرة بالدنيا؟ ويرى معالم الله قد انتهكت وحدود الله قد عطلت وشعائر الله قد استهين بها؟ وهو متلذذ بطعام شهى وثوب بهى وفرش وطى وخدم وحشم!! يداهن الأمراء ويرضيهم في غضب الله تعالى؟ وكيف يكون عالماً من يجعل العلم آلة لجمع الدنيا أو يتعلم ليتولى رئاسة أو ولاية؟

ثانياً: التراث النظمي

(وهو ما يعرف بالمواجيد)

قال العلامة في باب المنن التي من الله سبحانه وتعالى بها عليه: (ومنها أنه سبحانه من عليّ بمواجيد عن عين اليقين في علوم اليقين من غوامض علوم التوحيد وروح حكمة التشريع، ومن عليّ سبحانه بالمعونة في أن أئين تلك المواجيد بالعبارة وأضبطها بالكتابة، ومن عليّ سبحانه بأن أنعم عليّ بالخبين له سبحانه ولرسوله ﴿ﷺ﴾ وآله ﴿ﷺ﴾ فتلقوا عن تلك المواجيد.. وهم كثير مع قلتهم) .

وقال العلامة أيضاً مقدماً لبعض مواجيده عند نشرها:

(إني والحمد لله لما عرفت أن الله جل جلاله حاضر لا يغيب، وظاهر لا يحجب، ومُنزّه عن الحد بالبصر فلا يدرك، وأنه ظهر بأسمائه وصفاته وآياته في كل كائناته.. تلمست غيبه في مكنوناته حتى انبلج لي سر الأسرار ونور الأنوار، فأحببت أن أنفع إخواني بما أودعه الله تعالى في كونه وزمانه من سر عجيب وغيب غريب، حتى ينتفع بتلك المواجيد من بعدى، ممن ذاقوا حلاوة القرب من الله تعالى وصحبوني، وتجعل القارئ لها حاضراً مع الله تعالى ذائقاً معانيها الروحانية مبتهلاً بقلبه وقالبه، والله يحيى من يشاء بالعلم والذوق والشهود ويبارك لمن يشاء بالدعاء والابتهاال والتضرع في آنات الإجابة والقبول.. والله تعالى أسأل أن يمن علينا بالإجابة إليه والتوبة والرجوع له والوفاة على الإيمان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) .

وقد امتدت الدهشة إلى العلماء والباحثين في أيامنا هذه فبحثت عقولهم ونقبت أقلامهم عن مواجيد الإمام أبي العزائم وما تميزت به عن غيرها نرى ذلك جلياً في

تلك الدراسة التي قدمها الأستاذ/ سري محمد حسن هاشم الشريف بعنوان: (آثار الإمام أبو العزائم عليه السلام الشعرية- دراسة فنية) للحصول على درجة الماجستير بقسم اللغة العربية- كلية الآداب جامعة سوهاج عام ١٩٩٢م حيث يقول في رسالته:

أولاً: إن مصادر القصائد عند الإمام أبي العزائم عليه السلام هي:

- ١- القرآن الكريم
- ٢- السنة الشريفة
- ٣- المصدر الإلهامي والوجداني
- ٤- أحداث العصر وقضايا المجتمع
- ٥- تجاربه الصوفية.

ويقول عن المصدر الأول:

إن من يطلع على قصائد الإمام المجدد أبي العزائم عليه السلام يجد معظمها مقتبس من القرآن الكريم، ومن يعن النظر في قصائده يجد أيضاً الكثير منها اعتمد اعتماداً كلياً على كتاب الله سواء باقتباس بعض ألفاظه، أو بالإشارة إلى معنى من المعاني الكريمة، ثم يوضح أن سبب ذلك هو حرص الإمام على التمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام ونزعتهم ونشأته الدينية الصوفية الخالصة وحفظه للقرآن الكريم منذ طفولته وعمله في المجال الديني، ثم يضرب أمثلة من مواجيد الإمام ليؤكد ما يقول :

بين نفس وبين نفس شئون تتجلى حتى تراها العيون
ومع العسر إن تدبرت يسراً ولدى الصبر كل كرب يهون

فهو بذلك يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ الشرح: ٥.

وقول الإمام المجدد:

أَلَا بَعْتُمُو اللَّهَ مَالًا وَأَنْفُسًا بِمَدْلُول (إن الله) والذكر ينطق

مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ

بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ التوبة: ١١١ .

وقوله عليه السلام :

إِنْ كَانَ ذَنْبِي عَظِيمَ فَعَفُو رَبِّيَ أَكْبَرُ

مشيرًا علي قوله تعالى ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الزمر: ٥٣

وقوله ﷺ:

لَمْ يَلْهَمَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ فَقْرٌ وَلَا يَشْغَلُهُمْ عَنْهُ غِنًى وَرِضَاءٌ

مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ النور: ٣٧.

و غير ذلك كثير جداً في مواجيدہ ﷺ مما لا يتسع المجال إلى ذكره.

وأما المصدر الثاني:

فقد يضمن الإمام مواجيدہ إشارة إلى الأحاديث النبوية ذاكراً معناها أو ناصحاً

بالتمسك بها. كقوله ﷺ:

حديث صحيح قاله المصطفى لنا توسلت للرحمن منكسر القلب

(أنا منه) برهان جلي لمؤمن (حسين نعم مني) يقيناً بلا ريب

مشيراً إلى حديث المصطفى ﷺ وآله: (حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً) (١) .

وقوله ﷺ ناصحاً لإخوانه بالتمسك بالسنة المحمدية:

ألا سارعوا أحيوا لسنة أحمد ففتنة هذا العصر كالنار تحرق

وقوله ﷺ:

من لدن آدم إلى يوم عيسى وهو شمس ومصدر الأنوار
أنت شمس للرسول منك تخلصوا بالأيادي في محكم الأسفار

مشيراً إلى قوله ﷺ وآله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) (٢) .

وقوله ﷺ:

يا قلب حال الصفا تبدو معانيه تكون عرش استواء عن تجليه
تكون يا قلب معموراً ومبتهجاً بما تزل نوراً من أياديه

مشيراً إلى قوله ﷺ وآله: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم
ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (٣) .

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والبخارى في الأدب المفرد.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد في مسنده.

(٣) رواه مسلم وابن ماجه.

وأما المصدر الثالث وهو المصدر الإلهامى والوجدانى.. يقول الباحث:

كانت مشاعر الإمام المجدد ووجدانه مصدراً هاماً لقصائده ومواجهه، فعندما يسيطر على وجدانه الحب العميق لسيدنا رسول الله ﷺ وآله ينشد قائلاً:

حبيب قلبي محمد بالحسن والنور مفرد
كلامه نور روحى منه العطا يتجدد
خزنى بكلى حبيبى إلى المدينة أشهد
مولاي أسعد بوصلك حتى أرى نور أحمد
أنس مشوقاً بوصل عساه بالوصل يسعد
وهذا الفيض الإلهى يمثل كمّاً هائلاً من المواجيد التى خلفها الإمام فى تراثه
النظمى.

أما أحداث العصر وقضايا المجتمع:

فكانت هى الأخرى مصدراً هاماً من مصادر قصائده عليه السلام حيث شارك الإمام المجدد فى أحداث عصره وقضايا مجتمعه وأدلى فيها بدلوه، يقول الباحث وها هى امثلة مختصرة توضح ذلك:

قول الإمام المجدد عليه السلام:

يا بريطانيا قد ظلمت ولكن شق ظلم العباد منك المראה
يا فرنسا نشرت كفرًا وزورًا بين أهل التوحيد بئس التجارة

والقوى القهار أمهل حتى أحرق الكل من لهيب الشرارة
بشرق الشرق باتحاد وحب بين أهل التوحيد معنى الإشارة
يظهر الله دينه يمام حقق الله بالقرآن انتصاره

فيشير في هذه الآيات إلى ظلم الاحتلال الأجنبي والدول المعايية للإسلام ثم
يؤكد أن الله تعالى سوف ينصر دينه ويهلك الأعداء الظالمين.
وقد تضمن كتاب (الجفر) الكثير من هذه الأمثلة وكذلك ابتهاالاته واستغاثاته
النظمية فراجعها إن شئت.

أما عن تجارب الإمام الصوفية:

فيقول الباحث: إن قصائد الإمام المجدد تتسم بعدة سمات وهى:

أ- اختلاف هذه القصائد عن عامة الشعر، فهى تعد بمثابة مواجيد نظميه
والهامات عرفانية، ولعل ذلك هو الذى جعل الدكتور مصطفى محمود يقول فى
كتابه (السر الأعظم) : والإمام أبو العزائم عليه السلام يقول هذا الكلام عن علم كشفى
لدى، وليس عن اجتهاد برأى.

ولذلك فلا تعد قصائده الصوفية شعراً بل يعدها بمثابة خمر طهور، فنراه يقول :
ليس شعراً ما قلت حال شهودى بل هو الخمر يحتسى فى الوجود
راح قدس قصائد من قصود وهى إشراق علمه التوحيدي
بينت قصد آله ومشوق يسكر الروح فى خفاء الوجود
يحتسيها الأفراد حال صفاء بعد نيل القبول حفظ العهد
أظهرت غيب العلوم عيائاً تشهد الصب غامض التوحيد

مقتضى نشوتى بحال ألت حين واجهت وجهه فى سعود
توقظ النائمى منها بمعنى تجذب الروح لا بكد الجهود
نور فضل يجلى الحقائق كشفًا للمراد المحبوب سر المزىد
لىس شعرًا ما صىغ بل هو سر لاح للعارفین بعد الشهود
بل هو الذكر تسبح الروح فىه فى على الملكوت حال الورود
وهو ذكرى للمؤمنین حضورًا يكشف الحجب للمحب المريد
ب- إن هذه القصائد جميعها إملائية، فلقد كان الإمام المجدد يملئها على تلاميذه

فنراه يقول عليه السلام :

عنى اسمعوا ما تعقلون من الكلام فالعلم بالرحمن من صافى المدام
والعلم بالله العلى غوامض لم يفقههن إلا لصب فى اصطلام
خذ ما صفا لك من إشارة عارف فالعارفون كلامهم يشفى السقام

ونراه يقول عليه السلام :

خذوا من عباراتى بقدر مبانيها وخلوا لأهل الذوق سر معانيها
ففيها من الأسرار ما لىس يكشفن وقد خفيت أسرارها ومبانيها
يذوق عباراتى مراد لخصرتى ويشهد أسرارها فتى فى فيها
ولىس لسانى ناطقًا بعبارتى ولكنها نور يفاض بباريها

ثانيًا: ويذكر الباحث أنه يمكن تقسيم قصائد الإمام المجدد من ناحية أحجامها إلى خمسة أنواع هي:

١- الأبيات المتفرقة: مثل قول الإمام:

أما ومجلى كمال الذات في القدس وعزة عظموت وسعة الكرسي
لو أن جرمي ضاق الكون أجمعه عنه لما يئست من عفوكم نفسي

٢- المقطوعات القصيرة: ويتراوح حجمها بين ثلاثة أبيات إلى ستة أبيات ومن أمثلتها:

للطيف الخير أرفع أمري وبه في الوجود يرفع قدري
كيف يرجو عبد من العبد عونًا والكريم الحلیم عونى وذخرى
ويقيني بالله أضحي قويا بفؤادى وظاهرى وبسرى

٣- القصائد القصيرة: ويتراوح عدد أبياتها بين سبعة إلى عشرين بيتًا وهذا أكثر قصائد الإمام.

٤- القصائد المتوسطة: ويتراوح حجمها من عشرين بيتًا إلى أربعين، ويأتى هذا الحجم في المرتبة الثانية من حيث انتشاره في قصائده.

٥- القصائد الطويلة: والتي تزيد عن أربعين بيتًا وتصل إلى أكثر من مائة بيت وكان الإمام لا يميل إليها كثيرًا ومن أمثلتها قصيدة:

إلهى بمجلى الذات سر الحقيقة
وغيب التجلى من كنوز الهوية
ومثل قصيدة:

كن أضاءت بشمسها الواحدة
عن معانى تقدست أزلية

ثالثاً: أما عن أغراض القصائد عند الإمام أبي العزائم عليه السلام فيقول الباحث:

إذا نظرنا إلى قصائد الإمام المجدد نجدها تنقسم إلى أغراض كثيرة هي: المدح، والفخر، والهجاء، والرتاء، والغزل، والطبيعة، والعتاب، والشعر الوطني.

أما المدح:

لم يمدح الإمام في قصائده حاكماً أو وزيراً أو صاحب سلطان أو جاه وانحصر مدحه في ثلاثة أنواع:

١- المدح البشري ٢- مدح المكان ٣- مدح الزمان

* والمدح البشري عند الإمام يقتصر على أربعة أنواع هي: المدح النبوي، ومدح أهل البيت، ومدح أهل التقوى والصلاح، ومدح تلاميذه وأتباعه السائرين على نهج النبي ﷺ وآله عليهم السلام.

* أما في مدح المكان فقد مدح الأماكن المقدسة مثل الروضات الطاهرة، والمقامات المقدسة، كمدحه في مقام إبراهيم عليه السلام وحجر إسماعيل عليه السلام، وزمزم والخطيم وغيرها.

* ومدح الزمان كمدح الإمام المجدد ليلة القدر إنزال قرآن ذات المنعم البر

وقال في شهر رمضان:

يا شهر رمضان نور الوجه يشرق لي أتلو به آية القرآن إشهاداً

ولقد اتسم مدحه عليه السلام بخصائص الصدق والواقعية وانطلاقه من مبادئ إسلامية ترمى إلى رضا الله تعالى ورسوله ﷺ وآله عليهم السلام.

وعن الفخر:

يقول الباحث: إن الفخر في قصائد الإمام أبي العزائم عليه السلام يختلف اختلافاً كلياً عن الفخر عند الشعراء السابقين، فلقد جدد الإمام كثيراً في غرض الفخر في قصائده، حيث إنه رأى في صفات الفخر عند السابقين أنها صفات فانية زائلة لا تستحق الفخر، فالشجاعة والقوة والسلطان كلها صفات لا تدوم، بيد أنه وجد أن الصفات التي تستحق الفخر هي التقوى والإيمان والقرب إلى الله ورسوله، لقد كان الفخر عند الإمام أبي العزائم عليه السلام منطلقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال: ١٧ فمن ثم يظهر الاختلاف بين الفخر عند أبي العزائم عليه السلام ، والفخر عند السابقين، حيث أنه لم يفتخر في قصائده بقوته أو بعلمه أو بشجاعته بل افتخر بقربه من الله تعالى ورسوله ﷺ وآله عليهم السلام فنراه يقول عليه السلام :

سقاني رسول الله كأساً مززماً وصيرني طه إماماً مقدماً

ونراه يقول عليه السلام :

سقاني رسول الله راح وداده وصيرني بالفضل باب شهوده

ونراه يفتخر طوراً آخر بعبوديته لله تعالى فيقول عليه السلام :

أيقنت قدرى مقامى أتى الرغام قوامى

عبد لرب قد ير بر محيط سلام

ونراه يفتخر بانتسابه لرسول الله ﷺ وآله عليهم السلام قائلاً:

كيف أخشى أو أخاف ولى بكم نسبة صحت لدى أنسابكم

أو أرى ضيماً وجدى أحمد قد ورثت المجد عن أحسابكم

أما في الرثاء:

لقد استطاع الإمام أبو العزائم عليه السلام أن يجدد في رثائه بالدعاء لمن يرثيه بالمغفرة والرحمة والدرجات العالية والفوز بالجنة، وكان عليه السلام يتحلى بصفات الإيمان في رثائه، لقد رثى الإمام والديه فقال:

أعنى أبر الوالدين أيا ربى فإنهما أصلاى مذ كنت فى الغيب
بررتهما حين هب لى عناية أبرهما فى القبر بالجسم والقلب
وقال ايضا عليه السلام فى رثاء تلميذه محمد عبد الخالق:

محمد يا ابن عبد الخالق أزورك مشتاقاً لخل وصادق
ولى طمع فى الله جل جلاله أنالك غفراً من فضل رازق
لقد كنت صديقاً لك الوجه مشهد وكنت كبير القلب فى حال خافق

وعن الهجاء:

يقول الباحث: إن الإمام أبا العزائم ما ساقه إلى الهجاء إلا غيرته الشديدة على دينه ووطنه، وكراهيته للاستعمار والحاكم المفسد، فدوافعه للهجاء تعد دوافع من أجل المصلحة والمنفعة العامة، لا المصلحة الشخصية الذاتية كسائر الشعراء.

ومن أمثلة هجائه عليه السلام لموسوليني وجورج الخامس يقول:

يا وحش	روما	تأدب	فلمست	كسرى	أو	قيصر
وطعنة	القهر	تأتى	وأنت	كالثوب	تنشر	
كبير	لندن	فاحذر	فالله	ربك	أكبر	

وطعنة القهر تأتي من حيث لا تتصور

وقد هجا الإمام الغرب وروسيا والموالين ولالأعداء والمتخاذلين في الأمة، وأهم السمات التي سيطرت على قصائد المهجاء عند الإمام المجدد أبي العزائم عليه السلام هي: الصدق والتهذيب، والوعيد، والدعاء والبساطة. أما قصائد العتاب عند الإمام:

فقد اتخذت اتجاهين: أحدهما عتاب خاص ويخص فيه مجموعة من تلاميذه وإخوانه فيعاتبهم نتيجة حدوث مواقف معينة منهم وهو عتاب قليل لا يذكر، وثانيهما: عتاب عام يوجهه إلى عامة الأمة الإسلامية لمن يتجاهل نعم الله عليه أو يوالى أعداء الله، وسبب قلة قصائد العتاب عند الإمام قلة المواقف التي تستدعي اللوم، وطبيعة الإمام المتسامحة، وانشغاله عليه السلام بمصلحة الدين والوطن جعله لا ينظر إلى مواقف العتاب بأهمية كبيرة.

وعن الغزل:

استطاع الإمام أبو العزائم عليه السلام أن يجعل كل حبه في قصائده موجهًا إلى الله تعالى وحده فلم نجد في قصائده أى غزل بشرى، لأن الحب الإلهي سيطر عليها بكثرة.

وقصائد الطبيعة:

عند الإمام أبو العزائم عليه السلام كثيرة متنوعة تناول فيها بديع صنع الله وقدرته، ويخاطب فيها الكائنات كالشمس والبحر والغمام والنيل والصحراء، وغيرها.. ومن أمثلة ذلك يقول في ماء البحر:

طهرت بالماء كلـى جسمى وروحى وظلى
طهر حبيـى روحى بنور وجهك حولى
يا بحر أنت جمال محوت عنى جهلى

وقد أراد الإمام من خلال مواجهته عن الطبيعة أن يزيد من إيمان المسلمين
بربهم، وأن يعبر عن جمال الله الذى استودعه آيات الكون مذكراً بنعم الله الكثيرة
علينا ومتوجهاً بالدعاء والشكر على ذلك.

أما القصائد الوطنية:

فتنقسم إلى نوعين: قصائد تتعلق بحبه لمصر ومخاطبة أهلها وحثهم على التضامن
والألفة والقوة، وقصائد تتعلق بالأمة الإسلامية والعربية يتنبأ فيها الإمام المجدد بالخير
والنصر كقوله:

نبأ الصحابة والهداة الأولين

يا أمة الهادى اسمعوا

وقوله أيضاً:

بربكم وطنى الإسلام أفديه بالنفس والمال والرحمن يعليه
والمسلمون همو نفسى وحبهمو فرض على بصدق القول أرويه
* والنوع الأخير من قصائد الإمام هو القصائد الإسلامية وهى كثيرة جداً
ومتنوعة، فمنها قصائد الدعاء والحكمة والنصح والإرشاد وقصائد العبادات
والمناسبات الدينية والقصائد الصوفية ونظراً لكثرة هذه القصائد وانتشارها مع كافة
الإخوان وتلاميذ الإمام يصعب حصرها وجمعها إلا أن خلفاء الإمام المجدد من بعده

جمعوا منها عددًا كبيرًا صدر في خمسة أجزاء حتى الآن تحت العنوان الذي اختاره الإمام لقصائده وهو (ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب) .. وبه نماذج متعددة لمواجهيده وقصائده عليه السلام مصنفه ومرتبة.

مقتطفات

من مواجيد الإمام الجدد

سماحة السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

قدس الله سره

وقد أفيضت على قلبه عليه السلام إلهاماً عن وجد وحال حيث أملاها على أصفياه وأحبابه فى الخلوة والجلوة، وكان إملأؤه لها أسرع من قلم الكاتب الذى سألـه يوماً أن يملـى عليه رويداً، فقال مخاطباً له ولنـ معه:

اكتبوا لا تكررُوا أقوالى فلدى الحال لا يعاد خطابى
واسمعوا لى بالروح لا بعيون فى مقام الأخفى يصح غيابى
حيث طلعت على القلوب شمس مشرقات من بعد رفع الحجاب
يتهنى بها مراد قريب لا ترى للمريد والطلاب

وهذه المواجيد تأخذ نظم الشعر من حيث الوزن والقافية، لكنها فى حقيقة الأمر ليست بشعر، فهى وعاء لحقائق علوية ومشاهدات قدسية مما عجز الآخرون عن إملائها نثرًا، ومع هذا كان يملئها نظمًا وبسرعة البرق الخاطف، وكأنه يغترف من بحر لا ساحل له، لأنها من لوازم القدس الأعلى، وفوق ذلك فإنها لا حصر لها ولا عد، لأنها تعبر عن سياحته الكبرى مع الله منذ بدء نشأته حتى لقائه لربه، وما يقولـه اليوم لا يقولـه غدًا، فسبحان الله الفتاح العليم ذى الفضل والعطاء الواسع العميم.

ولقد أدهش الإمام علماء عصره بحاله، فكانوا يعجبون من استرسال الإمام في مواجيدته النظامية ويغير توقف.

ومواجيدته عليه السلام هي روح القدس الأعلى، ولا دخل للتأليف فيها، ولا لإملاء الفكر ولا لجولة العقل، لأنه كان يغيب غيبة هي عين الحضور لأنه كان أحياناً ما يكتب ويسطر في الأوراق إذا لم يجد من يكتب له ما يقول. كما أنه كان ضارباً على فخذه، بمعنى أنه كان عندما كان يعتريه الحال لإملاء قصيدة سواء كانت أثناء إلقاء درس أو حديث عادى أو في حالة صمت وتأمل، فكان يضرب بكفه الأيمن على فخذه الأيمن مع ذكر لفظ الجلالة قولاً وبالمدة الطويل بقدر الاستطاعة حتى ينتهي النفس، فكان ذلك إشارة انتباه يعلم منها الإخوان أن الإمام سيملى قصيدة. وفوراً تخرج الأقلام والأوراق من عند الكتبة لتدون ما سيلقيه الإمام.

وسيجد المتصفح لمواجيد الإمام والحاذق للشعر وضروبه بعض الأبيات التي خرجت عن الوزن الشعري، وهذا ليس عن خطأ وقع فيه الإمام أو ضرورة اضطر إليها، ولكن وقع هذا عن عمد ليخرج به عن قواعد الشعر المعروفة وإن كان قد جاء به على هيئة الوزن الشعري. وفرق بين هذا الشعر والشعر الموزون المقفى ذي التفاعلات والبحور المعروفة المخبر عنه بقوله: (أعذب الشعر أكذب) الرامى إلى الخيال الآخذ بالهوى، وبين النوع الذى بين أيدينا الذى جرى على ألسنة العلماء كنوع من الحكمة جاءت على وزن الشعر، فكونه على تلك الكيفية، لا يدخله في الشعر وخيالاته، وإنما كما قلنا نوع من الحكمة جاءت على وزن الشعر، فلا ريب حينئذ أن يعتمد فيه الأئمة كسر الوزن لأنهم لا يرضون بالشعر وقرضه.

وقد أملى الإمام بعض القصائد التي تنتهى بالشرطة الأولى فقط من البيت الأخير، وكان هذا شيء محير جداً لدرجة أن الشيخ مفتاح زيدان سكرتير الإمام وهو في مبدأ عهده بالطريق قد تعرض لإحدى القصائد فأكمل البيت الأخير ظنّاً منه أن الإمام ربما قد نسى إكمالها، أو أنه لم يتمكن من ذلك تحت أى ظرف من الظروف، وكان ملتحيّاً، فوجد في إحدى شقى الوجه التهاباً شديداً مما اضطره إلى حلق جانب اللحية جهة الإلتهاب. وقد غطى وجهه وذهب للإمام الذى سأله عن سبب ذلك، وكاشفه الإمام أنه من السهل عليه جداً أن يكمل الشرطة الأخرى ولكنها مقتضى الأمانة فيما أملى عليه (وما أنا عنه ياقوم إلا راوياً) .

وكان الإمام يتحدث في بعض المواجيد عن بعض الأحوال والمقامات والمشاهدات والمواجهات والتي لا يباح ذكرها نثراً ولكن تحفظ معانيها في المواجيد لأنها قابلة للاستعارة وقابلة للكناية لمن يوفقه الله أن يفهم. وكان الإمام أحيانا بعد إلقاء هذا النوع من المواجيد يقول: أسمعوني ماذا قلت، وبعد أن يستمع يقول: ما قلت هذا الكلام.. فإنها ما كانت إلا معاني مسجلة في قلبى فنطق بها لسانى، لأنه كان في حالة غياب واستغراق في مشاهداته ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ الأنفال: ١٧.

وكان يقوم من نومه رغم قصر فترته ويستدعى من يكتب عنه. ونوم أهل الله عامة ليس كنومنا لأن ما ينام في الإنسان كثافته، فإذا تخفف الإنسان من الدنيا أصبحت الأشياء التي تطلب الراحة في الجسم قليلة فيتغلب الصفاء على ظلمة البدن فيصبح نورانياً. ولذلك ثبت من معجزات رسول الله أنه ليس له ظل، وقد ذكر المفسرون أنه احتراماً لظل الرسول حتى لا يقع على الأرض وعلى النجاسة، ولكن

الإمام قال غير ذلك: وهو أن الله عز وجل جعل جسمه بللورياً شفافاً نقيّاً فلا يكون له ظل. فكان نوم هؤلاء كصمت العلماء.. (أن يكون نطقى ذكراً وصمتى فكرياً) .. صمتهم عند الهدوء ليس بنوم ولكن تفكير في مستقبل الأمة، وفي الإخوان وفي أقرب الطرق لعلاج الأمراض التي تعترى الأمة، فقد يلهمه رب العزة علاجاً أو ظهور معنى يريد إبلاغه لأولاده؛ فيقوم الإمام من نومه ليملى عليهم لأن هذه معاني تظهر في لحظتها.

وهذه المواجيد تتناول في الإنسان جوانب متعددة، ففيها تركيبة النفس، وتربية الروح، وعقد القلب على كمال التوحيد والحب الخالص لله عز وجل الذي يصل إلى عين اليقين وحق اليقين، والسعادة كل السعادة لمن نهل من هذا المعين فاحتسى طهوره حتى اختلط بدمه وعظمه ولحمه، وغيبه من الأغيار وأوصله بالعزير الغفار

﴿وَاللَّهُ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة: ١٠٥.

يقول العلامة مخاطباً للنفس:

يا نفسى هيا صالحى مولاك فهو البديع بفضله سواك
يا نفس هيا من سواه تجردى وتخلصى من حظك وهواك
يا نفس للمولى العلى تضرعى فعساك تحظى بالرضا فعساك
يا نفس فيك لو تبصرت لحظة هو ظاهر بصفاته رقراك
يا نفس لى إن أردت نواله فهو الولى بنوره حلاك
يا نفس طيعى أمر من هو قادر بالفضل والإكرام قد رباك
يا نفس هيا فاحذرى أن تشركى بالله هيا نزهى مولاك
يا نفس قسماً بالنبي وآله لى عطوفاً للقا ناداك

يا نفس مالك لا تحنى وتعشقى جمال الذى من نوره حلاك
يا نفس دوماً للمعاصى ترغى وتنسى حليماً حاشا أن ينساك
وبتساءل تارة أخرى عن حقيقة النفس ويحيب قائلاً:

يا نفس ما أنت نور أنت أم عرض أم كوكب مشرق بضياء ميناه
وهل بك الجسم قد قامت معالمه أم قمت فيه فهذا السر أهواه
حيرت أفكار أهل العقل لم يصلوا إلى يقين وفيك ضل أهاده
العقل يعقل محسوساً ونسبته لا يدرك رتبتي والمنعم الله
سرى خفى عن الأبواب يحجبه عنه نظائره فيه وأشباه
من أمر ربى ومن يطلبه يعرفه فيعرف الله رب العرش مولاه
ونفخة منه تجلى للمراد له فيشهد الوجه بالتزييه عيناه
من كان يعرفنى بالفضل يعرفه أنا المثال له أفق لمراه

ثم هو ﷺ يكشف عما فى النفس من النوازع الدنية والكنوز العلية فيقول:

هى النفس للدانى تحن وترغب وللعاجل الفانى قميل وتطلب
هى النفس قهوى حظها لو أنها أضاء لها التحقيق من ذاك قهرب
يا نفس لو تدرين عاقبة الذى ترومينه جهلاً لصح التجنب
فزهرة دنياك الغرورة بهجة ولكنها سم يذاب ويشرب
تغر رجالاً جاهلين بقدرهم وتخدعهم بجمالها ثم تسلب
أيا نفس إن تصفى وتزكى وتطهرى تلوح لك الأنوار يصفو التقرب
وتشرق شمس الحق من كل وجهة عليك وهذا الوهم بالحق يغرب
أيا نفس يكثر الجمالات كلها ويا مطلع الأسرار ربى أقرب

فلو نفساً طهرت من رين مبعد لك الراح في روض المعية يوهب
دعى عنك زهرة عاجل وتحققى وللحق أوبى تصفو ثم المشارب
على سنة المختار طه إمامنا ألا فانهجى فالمستقيم محب

ويتكلم ﷺ في مقام العلم وما فيه من معاني الخشية من الله، سر قوله تعالى:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١) حيث حصر الحق سبحانه في العلم.

فيقول ﷺ:

العلم يجعلني أخشى من الرب أراقب الله بالأعضاء والقلب
إن لم أكن أخشى من ربي فمن جهلى ولو علمت علوم الكشف والغيب
ولو تحصلت من علم ومن فقه مثل الجبال الرواسى لم يزل حجبى
العلم معراج أهل الحب والحسنى مهواة أهل الجفا والبعد والريب
العلم يهذى إلى المعلوم يُشْهِدُنَا ما غاب عنا من الأنوار والشرب
جَذَبُ القلوب به بالحال والعشق به أفر لمعطى الخير والتوب
فعلى بعلمى تحقيق لما أبغى نيل الرضا والصفاء من عالم الغيب
العلم موهبة من منعم مُعْطٍ في (وَاتَّقُوا اللَّهَ) سر العلم والجذب (٢)
من يخشى بالعلم مولاه ومبدعه يرقى إلى حضوة الزلفى بلا صعب
إني تحققت أن العلم لا يجدى إن لم أنل خشية من قابل التوب
لجأت لله مضطراً فأيدنى بالعين عين يقين منك في حب
أنسى علومى وآتى كل معصية بها ابتعدى وآى الذكر قد تنبى

(١) سورة فاطر آية ٢٨.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ) البقرة آية ٢٨٢.

فاحفظ إلهي بحفظ منك مضطراً فالذنب أوقعني في السهو والعيب
 وجئت مستغفراً فاغفر وتب واستر لأشهد الوجه يجلى بالضيا صوبى
 مولاي واجهني بالوجه آنسى بما به أرتقى لمراتب الصحب
 حصن بشرع رسول الله ياربى عبداً دعاك لطهر الجسم والقلب
 واعصم من الناس مضطراً لخالفه هب لى العبودة ياغوثى ويا حسى
 وسخرن لى كل الكون عاليه وكل من هو فى سفلى على الترب
 أعن على الشكر والأسرار أشهدنى جمال وجه بلا لوم ولا عتب
 ويقارن ﷺ بين مقام العلم ومقام اليقين، مبيّناً أن اليقين هو مراد العبد
 السالك إلى ربه، وأن العلم وسيلة إلى العليم جل جلاله، وكان ذلك فى ٦ محرم
 سنة ١٣٥١هـ ، فيقول متسائلاً:

العلم هل فهمه يكفى لتقريبى إلى مقام التدانى نور محبوى
 إن كان هذا فمالى قد أميل إلى داعى الهوى بعد فهمى بعد تأديبى
 العلم كامال برهان على نفسى أنى تطهرت أم أنى كمكسوب
 أما اليقين فبرهان على قربى صححت حالى لتأييدى وترغيبى
 ذق باليقين مقام الفرد واستجلى سر الحقيقة منه غير مكذوب
 كم عالم تائه يهوى إلى سفلى مسارع للهوى فى كل منسوب
 لو كان علمى جذاب إلى الأعلى لما رمانى الهوى فى سفلى تغريبى
 العلم عند بنى الإفرنج أوقعهم فى هوة الظلم فى كفر وتعذيب
 علم اللسان وعلم الكون هاويتا شرك لكل أمرىء للعلم مقلوب
 العلم بالله حصن الأمن يطلبه فرد يقول أيا نفسى الهوى غيبى

العلم بالله طهر النفس ظاهره سير إلى الله في أمن وترحيب
 وباطن العلم كشف الغيب بعد هدى كشف الحقائق نبلى كل مطلوب
 في فجر سادس يوم للمحرم لى شوق شديد إلى فوزى وتقريبى
 الله أسأل إحساناً ومغفرة فضلاً من الله أعطى خير مشروب
 في خطوة الاجتلا أعطى الرضا الحسنى بالوصل أحظى وبالزلفى وبالطيب
 مولاي شبت فوفقنى لما ترضى يا نفسى بعد مشيى سارعى توبى
 شيخوختى تقتضى جذبى إلى ربى حتى أهنى برضوان وترحيب
 يارب هب لى العطايا منك واسعة فالفضل منك إله العرش مرغوب
 أكرم بنى وأهلى منك بالنعمة إخوان صدق وأكرم كل مجذوب
 فى دار دنيا فهبنا الخير واحفظنا فى دار أخرى فهبنا خير موهوب
 وفى مقام المعرفة يبين عليه السلام أن له عينان: عين تشهد الآيات فى النفس والآفاق،
 وعين تنفذ إلى الحقائق والأسرار، وأن سبيل المعرفة أن يموت الإنسان عن حظه
 ونفسه فيحييه المولى سبحانه حياة العلم والإرشاد فيقول عليه السلام :

عيناي عين قد رأت آياتى فتمتعت بحقيقتى وصفاتى
 والعين عين القدس تشهد ظاهراً متزهاً عن حيطه الحيطات
 تراه فى كل الوجود مقدساً وهو العلى فلا يرى بجاتى
 بالموت أشهده بعين أشرقت بضياء زيت حقيقة المشكاة
 ولدى شهودى نوره من نوره ينفك رمز حقيقة المشكاة
 ويكون نور الحق يشهد نوره وحقيقة الأسماء لنور الذات
 وأبوح بعد شهادتى بمشاهدى قهراً لأنى صرت فى الأموات

والميت أحييناه نص كتابه والنور يأتيه من الحضرات
وأكون نوراً في زجاجة حسنه بل زيت مشكاة بغير فوات
تري حالي أهل القلوب وتشهدن حسنى قلوب جملت بصفاتي
وبين عليه السلام أحوال العارفين بالله فيقول :

العارفون لهم ظهرت حقيقتهم فجملتهم بعلم الحق خشيتهم
بعلمهم أنفسهم علموا مقام علا فأوقفتهم على الآداب رهبتهم
عرفوا نفوسهم ذلاً ومسكنة وقد حباهم فدامت فيه رغبتهم
عكفوا عليه بإخلاص فواجههم بالوجه فانبجست من ذاك نشوئهم
سكروا فطابوا به أنسوا فأنزلهم منازل القرب فاتضحت محبتهم
فروا إليه به والوجه مقصدهم والعلو والسفل لا تحويه فكرتهم
الله معبودهم وهو المراد لهم وقد رأت نوره علناً بصيرتهم
وجنة الخلد لو ظهرت بطلعتها لفارقت حسننها بالزهد همتهم
لا كفؤ الله يحجبهم فيعدهم أحد تتره تعلمه سريرتهم
هو الولي تولاهم فحصنهم عن العوالم قد رفعت مكانتهم
العرش والفرش والكرسى خلفهم وجنة الخلد والفردوس حيطتهم
لا يخطر الملك والملكوت في نفس على قلوبهم والخوف شيمتهم
حصن الجلال وسر الكبرياء بلداً فحصنوا فيه واتضحت هدايتهم
قد قُرَّبوا لجناب القدس منزلة رفعت بها بين أهل القرب نسبتهم
في غيب غيب عن الأكوان قد رفعوا عن الشئون وقد وافتك حالتهم
الذل عزهم والجهل علمهم وخشية الله بهجتهم ولذقم

رضوا عن الله في الدنيا فجملهم منه بحق يقين فيه نعمتهم
أنسوا بما استوحش الجهال منه وقد صحت بدايتهم طابت نهايتهم
لم تستفزه الدنيا وبهجتها والوجه مشهدهم والكون آيتهم
تدرعوا باليقين الحق واتشحوا بالصدق حتى به دامت معيتهم
ما حيلة الملك والملكوت عندهم إلا منازل سفرآن أوتيتهم
ومرجع الكل لله العلى على حق اليقين وقد وضحت طريقتهم
لم يلتفت أحد منهم لعاجلة والكل لله قد خلصت سريرتهم
شربوا من الراح راح الذكر خمرتهم وهدي طه على التحقيق سريرتهم
يا رب صلى على طه وعترته وآله مَنْ به رفعت مكانتهم

وقال مبيّنًا لأحوال العارفين، بما أفاضه الله على قلبه من المزيد:

لأهل الله أسرار خفيه وأحوال ترى فيهم عليه
وأنوار ترى فيهم جهارًا يرون بها حقائقهم جليته
وعلم غامض يعطى بفضل لأنهم وقنوا بالمعيتهم
معية ربه حال التجلى بأفئدة من الدنيا خليته
صفوا لله من ميل وحظ فكان القرب منه لهم عطية
حباهم بالشهود وقد سقاهم وناولهم من الراح الشهيته
صفت ألبابهم فسموا ونالوا مقام القرب من رب البريه
رأوه بأعين ملئت يقينًا عيون بصيرة صارت مضيه
بلا كيف ولا كم ولكن بأسرار تعالت معنويه
ولم يحجبهم كون ووهم عن الأنوار فافهم يأخيه

هموا الأنوار ناولهم فغابوا به عن رؤية الدنيا الدنيه
 قلوبهم بنور الله عمّرت فقاموا بالأوامر والوصيه
 عبيد أخلصوا لله ديناً وقاموا صادقين بحسن نيته
 فلم تشغلهمو دنيا وأخرى عن الإخلاص للذات العليه
 رأوا مولاهموا أحداً تعالى وأنفسهم به صارت غنيه
 عليه توكلوا وإليه فروا فواجههم بأنوار سنيه
 وكل أمورهم قد فوضوها وأنفسهم به صارت رضيه
 بذكر الله عن دنيا وأخرى فأنسهم به بعد العطيه
 ونجّاهم وأدناهم إليه بمحض الفضل حسنى أوليه
 رضوا عنه فرضى الله عنهم على سنن الهداة محمديه
 ومن عين الشريعة قد سقاهم براح الحال خمراً عيسويه
 ومن سيد الرسل التهامى سقوا خمراً بشائر أحمديه
 على مولاهموا عكفوا بصدق فرققاهم إلى روض المعيه
 وخصهمو بمحض الحفظ حتى لقد فازوا بحسنى السابقيه
 وجملهم بأخلاق التهامى فحفظوا من صفات الجاهليه
 عبيد ذلهم عز ومجد وفقرهم الغنى حلل جليه
 إذا أودوا فمولاهم قريب يغار عليهمو من ذى الحميه
 ويكرمهم ويرفعهم مقاماً ويمنحهم به الرتب العليه
 أداموا شكرهم فى كل حال وحمدوه على كل العطيه
 على سنن القويم صراط طه بصدق والعزائم ماضويه

فخل الخلق خلفك ثم عامل بصدق ذات مولاك العليه
وقم لله لا بالخلق واحفظ فؤادك من وساوسه الخفيه
فإن الله مولانا مجيب يلبي من دعاه بحسن نيه
صلاة الله مولانا تعالى على الفرد المراد به العطيه
وأصحاب ووراث كرام وعترته الكرام الهاشميه
ويقول عليه السلام في مقام الحب:

الحب أعلى مقامات المريدنا به الوصول إلى رتب المرادين
الحب حبان حب عن مواجهة بالاجتلاء وهذا للأقلينا
أو فهم أسرار آيات مسخرة بها الوصول إلى روضات عالينا
فالحب معراج مبتدئ له سبقت عناية فغدا بالحب مجنوننا
والعارف الفرد محبوب خالقه فات المقامات تحقيقاً وتيقينا
في كل نفس له نور يواجهه من عالم القدس ترويحاً وتيقينا
قد فارق الكون والآيات فانبلجت أنواره فغدا في الغيب مضمونا
لا يعرف الفرد إلا من له سبقت عناية الله إذ يراه مكنونا
معناه غيب ومناه مشاهدة والفرد معنى وليس الفرد تكويننا
يمشى على الأرض في ذل ومسكنة هام الملائك شوقاً فيه وحنينا
أنفاسه النور في الملكوت مشرقة لكل عالين فافهم دمت مأمونا
لا يعرف الفرد إلا ذو مواجهة صفا فصوفي فأحيا النهج والدينا
فرد مراد لذات الله منزلة حظائر القدس في أعلى وعالينا
شمس نعم مشرق ملكوت خالقه بنوره جل من مولاه بارينا

صل إليه على الفرد المراد ومن به نال من المعطى أمانينا

قال عليه السلام مبيّنًا أن الحب نور وسر ومعراج وبه القرب والإسعاد:

الحب في الله نور يشرح الصدر والحب في الله سر يرفع القدر
والحب في الله معراج الوصول له من يعشق الله بالحبوب قد ظفر
كم عاشق شاهد الوجه العلى بلا حجب ولما نمت أشواقه حضر
الحب قربنا والحب أسعدنا بشرى لنا فجمال الوجه قد ظهر
لما ذكرنا نمت أشواقنا فبدت شمس التجلى لنا قد تخجل القمر
في الذكر ناولنا المذكور خمرته قد أسكرت أنفساً بشرى لمن سكر
خمر الجلالة قد درات مقدسة و الذكر حان لها طوبى لمن ذكر
صل على المصطفى المحبوب سيدنا تشهد ضياه بعين القلب إذ حضر
ومقصد الإمام في مواجهه من الخمر والراح، أى: الفيض الإلهى المقدس الذى
يغيب به المحب المحبوب عن وجوده الكونى بالمكون جل جلاله.

قال عليه السلام مبيّنًا أن للحب ثمرته من العلم والمعرفة والنور الذى يواجه به وجه الله

عز وجل:

خمر الخبة جذاب إلى القرب و العلم بالله يحو ظلمة القلب
و الحب من بعده علمى ومعرفى بالله تشهدنى نوراً من الرب
أسعى بعلمى لما يرضى إليه وما يرى القلوب الضيا من حضرة الغيب
فى طى معرفتى جذب مواجهة فيها اليقين بلا شك ولا ريب
والعارفون لهم حال به انجذبوا بالراح قد طهرت من وصمة الشوب
لاحت لهم حضرة الأوصاف مشرقة فروا إلى الله بالإخلاص فى جذب

الوجه واجههم والعشق أزعجهم شوقاً لخبوهم في توبة الصب
تابوا أنابوا إلى الله العلى إلى نيل الرضا مع كل الآل والصحب
هم في معية خير الرسل أنسهمو بالوجه أشرق نوراً ظاهراً صوبى
الروح آنسة بالوصل راغبة في الفضل من ربها يعطى بلا حجب
يا قلب يابيته المعمور هل ظهرت أنوار مجلاه بالزلفى لنا تنبى
في الذكر يشرق نور الله يؤنسنا بما تجلى لنا من حضرة الرب
العلم أسكرنا والذكر هيمنا حتى رأينا ضيا المذكور في القرب
أرواحنا عشقت أجسامنا اهتزت في الذكر دارت لنا الأقداح للشرب
الراح ربى سقاها في محبته بشرى لمن ذكروا الرحمن بالحب
يا ظاهراً لعيون الروح تشهده هبنا الرضا والعطا من عالم الغيب
هبنا الولاية والإحسان واجمعنا عليك ياسيدى في المنزل الرحب
أكرم بنينا وهبهم منك عاطفة أعط الأحبة خير الفضل في القرب

قال العلامة مبيّنًا ما للحب من أنوار الكشف والشهود والفناء والهيام:

هو الحب نور يكشف الحجب عن قلبى فأهتز حال الذكر شوقاً إلى ربى
أهيم بذكر الله والوجه مشرق فأشهد نور الوجه من غير ما حجب
فأفنى عن الآثار شوقاً إلى اللقا فيمنحنى ربى الطهور من الشرب
سقانا رسول الله خمرة حبه فأسكرنا طه فهمنا إلى الرب
فبشرى لأهل الحب نالوا مرادهم إمامهم المختار كشفاً بلا حجب

قال العلامة مبيّنًا ما فى الحب من أنس وجمال ونور وسياحة تصله بحضرة

القدوس:

في صفا الوصل قد حلا لي أنسى حيث حيي قد لاح لي في القدس
لاح نور الجميل صوبى جهاراً حجب الكون بل ولوحاً وكرسى
يا سرورى والوجه واجه روحى شاهد النور عين قلبى ورأسى
كنت قبل الشهود في حجب رسمى صرت نوراً جسمى البدنى وحسى
وى عجيب وكنت ترباً وماء جانست عالم الملائك نفسى
كنت في الكون فوق أرض ولكن ساحت الروح شاهدت نور شمسى
أشرق الوجه جمال الكون نوراً في صباحى وفي غدوى وأمسى
هل حبيى لما تجلى أرائى من جمال الآيات ما فوق نفسى
أين رسمى البدنى بل أين كوى هل أنا الغيب لا بفكر ولبسى
صار كوى ألواح آى لفرد بل أنا صورة الجميل القدسى
أخفى وجه الجميل عنى كيانى كاختفاء النجوم من ضوء شمسى
بعد شعبى تجلى لروحى شمسى بعد سقمى وفي اقتراب الرمسى
يا حبيى يا نور ربى ألح لي روح قرآن ربى أنسى
أنت ياسيدى الوسيلة كن لي عند ربى الشفيع في كل بأسى
سله لي يغفر الذنوب جميعاً يمنح الخير لي وأحباب نفسى

ويقول عليه السلام في مقام الأنس:

الأنس بعد سكون القلب بالله هو الرضا لأخى وجدٍ وأوَّاه
وهو السعادة في الدنيا وآجلة والأنس بالدون للمبعود واللاهى
أنسى به القرب للقدس العلى على براق ود من الإقبال والجاه
يحيا سعيداً به في حصن خالقه مُنعمًا بمعانى وصفه الباهى

الأنس بالله أغناه وأسعده والخط بالدون للمحجوب والساهى
دامت معيته بالحق واتصلت بالقدس همته بغير متناه
ثم يبين أنس كل حقيقة بما يناسبها فيخاطب ما فيه من الحقائق الظاهرة
والباطنة حيث يقول عليه السلام:

أنس عقلى فى آى تلك المظاهر بهجة الروح بالصفاء الوافر
نفخة القدس أنسها فى شهود من تجلى هذا الجمال الباهر
يا مبانى فىك المعانى أضاءت يا معانى يانور رب ظاهر
أيها النور فىك غيب التجلى فىك أسماؤه تراه السرائر
غيب أسمائه يلوح ضياها للفتى فانيًا بأسرار قادر
آه منى ونفخة القدس أجلت لى غيوبًا برفع تلك الستائر
أين مبنائى سترته شموسى بينت لى من بعد ما كنت حائر
بينت لى من حكمة الغيب أنى صورة للجميل والخير وافر
فتحت لى كترًا بذاتى خفيًا عن عقول فى حجة بالمناطر
فى كتر معنى الصفات إذا ما فك رمزى رأيت ربا غافر
كتر معنى الصفات أثبت قدرى كن لأجلى وغيرها لى صائر
صرت عبدًا لله وهو غنى عن جميع الشئون جل القاهر
عن مبان وعن معان غنى بل على عن كل خاف وظاهر
رب أنت القدير أنت معين هب لى الحب والعطاء الوافر
أشهدنى جمال وجهك ربى وامنحنى مولاي خير المفاخر
واشفنى سيدى وأكرم عيالى بعميم الإحسان من فضل قادر

واقبضن سيدى بيمناك روحى واجعلنى لوجهه حى ناظر
و حال سياحته مع الله أملى على تلميذه الخاص الشيخ مفتاح زيدان قائلاً له:
يامفتاح أكتب سر النجاح:

أسوح وفى العالين مشهدى العالى سياحة مقتبس ضيا آمالى
فتشرق روحى فى سياحتها على مرابع أنس بعد تفصيل إجمالى
يفك لديها كثر هيكلى الذى تلوح معانى الوصف للأبدال
صفات المعانى فى اجتلائى بغيها يجاذبنى اللاهوت فى إقبالى
فيلحظ سرى فتح بدئى وأولى لدى كنت صورة قادر متعال
وأشهدني لى فوق التراب محيلاً بسور المباني فى حضيض وأعمال
فتلحظ روحى سر كينونتى التى بها ظهر الوهاب بالأفضال
ونفخة قدس تلحظ الغيب غامضاً عن العقل عن حس وعن أقوالى
لديها تفر الروح من هيكلى الدنى لتشهد غيباً والصفات ظلالى
أرى الوجه ماوليت وجهى مواجهى بليلى فهارى بل وحلى ترحالى
فأعجب أين الكون فى مثويى و هل جردت روحى فصيح وصالى
كأنى فى العالين والكون فى الخفا وموتى حياتى فى امحاء خيالى
فنائى البقا فى حظوة واحدية تجلّى فأجلى لى على جمالى
فهمت لأنى قد فهمت معانها تؤيدنى بالروح فى استقبال
وشيخوختى جذب إليه وشيقتى هل القرب قربى من ولى والى
أعدت إلي بدئى الذى كنت أولاً أنا العبد عبد الذات صبح وصالى
وصال به فى الاتحاد تنعمى تفردت فى سرى وفى أحوالى

وغيث فلم تدرى العقول مكاني أنا طلبه الأفراد والأبدال
أرى آنسًا في الاتحاد وبهجتى شهود جمال الوجه في إقبال
وحال أنسه في سياحته يبين عليه السلام أن الأنس لا يكون إلا بالله وأن من كان
يأنس بالجنات فهو في حجب عما فوقها من الدرجات السنية والمنازل العلية، لأن
المقصد أعظم وأجل فيقول عليه السلام :

من كان يأنس بالجنات والخور فذاك في حجب عن مشهد النور
والآنسون بوجه الله قد رفعوا عن المقامات والإحسان والسور
والأنس بالله بعد الخو لا نسب فيه به هو فضل سر تقديرى
أنسوا به وهو واجههم وقربهم أنس بلا كيف لا يديده تعبيرى
في مقعد الصدق لا بل في حظيره ومع وعند بها فكرى وتصويرى
بها الخيال يُهَنَّى بالمشال ولا أنس بها فتدبر سر تقديرى
ما للخيال وما للأنس إن ظهرت شمس الجالى وصار الوجه منظورى
سجد الخيال ولا معنى يُمثِّلها إذ الجالى محت كوى وتخيبرى
وصرت لا كون لى يخفى منازلتي والوجه حيطه منه ذات تنويرى
ويقول عليه السلام مستعطفًا مستجدًا عطف الحبيب المصطفى ﷺ وآله عليهم السلام :

أبا الزهراء ود الاتحاد وعطفًا من جمالك والوداد
أبا الزهراء أنت حبيب قلبى ووصلك والرضا قصدى مرادى
أبا الزهراء أنت أنيس روحى وأنت المرتجى غوثى عمادى
أنا الزهراء أنت النور هادى ونورك ظاهر لى فى فؤادى
أبا الزهراء عطفًا أنت أولى فأشهدنا الجمال به رشادى

أبا الزهراء ولهان مشوق فحقق منك قصدى واعتقادى
 أنلى سىدى قربا وخيرا فأنت شفيعنا يوم المعاد
 وأوصلنى بطه يا حبيبى أنلى القرب منك بلا عباد
 تشفع لى حبيبى عند ربى لأسمع منه بشرى يا عبادى

ويقول مصليا ومسلما على النبى ﷺ وآله مبيئا ما فى الصلاة عليه من
 الحل العلية والمكاشفات الربانية التى تفتح للسالك باب الدخول على حضرة علام
 الغيوب فيقول **الصلوة**:

يا رب صل وسلم على ضياء العيون
 تاج أليها البسـونى وبالصفى أوعـدونى
 ومن رحيق المعاني والقرب قد أسـكرونى
 عانيت فى القلب نورا يضئ لما سـقونى
 فهمت لهفان مما عانيتـه فاعـذرونى
 ومجنت لما سـكـرت والسـكر عـين جنـونى
 حاولت خلع عذارى فى حب نور العيون
 والموت فى الحب سـهل يا سـادتى فـارحمونى
 يا لائمى دع ملامى فالسـكر فيه يقـينى
 هذا الجمال بدلى عنه فلا تبـعدونى
 يا قوم إني معنى وحبـه صـار دىـنى
 أوأه يـهـلـف قلـبى عيـدوا ولا تمـطلـونى

منوا بكشف حجاب وفي الحمى أدخلون
نوديت من كل واد قد فزتمو فاطلبون

ويقول **عليه السلام** :

صلاة الله خالقنا على المحبوب سيدنا
نعم بشهوده فزنا وبالوادي لقد جزنا
خلعنا نعلى النسب وأم بنا فقر بنا
أجنا السر للراحي وأسقينا خمرتنا
فمن رام الوصول لله بنا تجلى له المعنى
فباب الوهب مفتوح وعشق الذات شرفنا
فكن عبداً لذات الله لا تعدل إلى وثنا
ولا تعب لجنته فتلقى في لظى الأذى
فمن ذاق المدام صفا وقال لمن يلهم دعنا
وصاحب من به تحيا وتدخل جنّة المعنى
ولا تصحب أولى الأهوا ومن مالوا عن السننا
وجنن من تراه صفا ومال إليك بل ودنا
ولا تركزن إلى اللاهى فتحجب ياأخى عنا
مضى عنا تغيب وأنا قريب واهب المننا
إلهى فامح عن قلبى حجاب الرين واجمعنا
فنادانى وإخوانى وفوق العرش أطلعنا
وعند صعودنا ظهرت شمس القدس تنبؤنا
به ظهرت كواكبنا وهذا الكون مظهرنا

فثبتتنا وأم بنا إلى المجلى وأيـدنا
هو الشمس التي ظهرت بنور القدس تشهدنا
بطه كل ذا فانهض بعزمك كى تكن معنا
وقال ﷺ مترجماً عن حبه لرسول الله ﷺ وآله الذى على يديه كان
العلم المصون والنور المعين:

أحب الحبيب المصطفى غاية الحب لأنى به أوليت عاطفة الرب
عرفت به نفسى علمت حقائقاً علت عن مقام العقل من حضرة الغيب
فذاك رسول الله روحى وكيف لا ولولاك روحى لم تنل نعمة القرب
ألحت لها العلم المصون فجملت بأنوار توحيد الشهود بلا حجب
لقد كانت الأرواح فى سجن رسمها بعثت فناولت الطهور من الحب
فجملت ناسوتى بطاعة ربه فصار لروحي مظهر الرب قد يبنى
بعثت رسول الله والكون مظلم فأشرق شمس الحق فى الشرق والغرب
بعثت لكل الناس نوراً ورحمة تبين أسرار القرآن لذى لب
فتابعك الأفراد أحباب ربنا وخالفك الكفار فى النار والخطب
متابعة المختار إحسان ربنا وحب من الله القريب بلا ريب
أحبك فوق الروح ياخير مرسل وقصدى رضاء الله فوزى بالحب
قال ﷺ مبيِّناً أن حبه قديم وأنه اقترن بالروح منذ نشأتها قبل هذا الكون ثم
هو يعاوده فى الكون فيقول ﷺ:

هو الحب من قبل افتتاح وجودى لذى كنت نوراً فى على شهودى
دعائى إليه نور مجلى كماله تألق قبل الكون والتجديد

تراءى لنا من قبل عهد وموثق لقد جذبتني حضرة التفريد
لدى صاغ من نور الحبيب محمد نفوس أولى التخصيص والتأييد
وأرواح كل الأنبياء ومن لهم من الصحب والأتباع بالتحديد
نعم صاغهم من نور أكمل مرسل وأهلهم من حوضه المورود
شممت عبير الطيب في البدء أولاً وفي الكون قولي شمس عهدتي عودي
تعاودني في الكون كالبرق لامعاً فتختطف الأرواح لا كالغيد
نعم يقشعر الجلد إن ذكرت لدى سماعي أحاديثاً بسورة هود
وكم وجل القلب المعنى بحبها إذا ما تلا الحادي حديث ورودي
أيا نور ربي يامثال جماله ورحمته والحب والتمجيد
عشقتك كشفاً لا سماع رواية بحجة فيكم (٣) فامنحن مقصودي
ومن فوق كشف العين آي (يحبهم) (١) وحسبي آي الفتح للتوكيد
رعوف رحيم آية في براءة (٢) وأولى بنا منا بلا ترديد
غرامى به أولى مثولى تملئى ووجهك صوبى في الصفا مشهودى
ولى حاجة مولاي أنت وسيلتى إلى الله فيها صح لى التوحيد
وتوبة إخلاص نصوحاً ورشفة من الحب إحساناً بغير جهودى
وخيراً لأولادى وواسع نعمة لآلى وإخوانى وكل جدودى
وأرجو الشفا من كل داء وعلة وفاة على الإيمان نور شهيد

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ الحجرات: ٧

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة: ٥٤

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿حَرِصٌ عَلَىكُمْ عَلَيْهِمُ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨

وصحبته في حال حلى ورحلتي بإحسان وهاب وخير ودود
وقال عليه السلام مخاطباً رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام الذي أذابه بحبه فغاب، وأنسه
فطاب:

أنا يارسول الله يأصل مجدنا محمد ماضى قد غدا منك في حبس
فأدرك رسول الله وانجد مبادراً وخلص من الأهوال ياسيدى نفسى
فحبك يامولاي منه تفتت عظامى وأمست منه في شدة الدرس
تجليت لى حتى صعقت وإنى إذا لم تثبتنى تبوح به نفسى
فثبت بحق الحق قلبى وإنه بحقك ياطه إماماً لدى اللبس
وكن لى وللإخوان والأهل كلهم مجيراً من الهول العظيم ومن بأسى
بجاءه أبى بكر وفاروق ديننا وعثمان ذى النورين من بك فى أنس
وبالباب من أحيا العلوم إمامنا ونجليه أجدادى فنور به رمسى
وبالأهل والأصحاب والقدس والحمى وبالكعبة العليا وطيبة ذى القدس
فحسّن لى العقبى وبلغ محمداً زيارة قبر ضم نورك فى أنسى
عليك من الله المهيم دائماً صلاة تجلت من ضيا العرش والكرسى
وللإمام أبى العزائم عليه السلام مواجيدته فى الذكر، فتارة تراه يتعجب من حاله

فيتساءل عن هيامه وعشقه للمذكور مع أنه حاضر معه لا يغيب فيقول عليه السلام:

عجباً ولم أنس حبيب فؤادى نَفْسًا إذا ذكروه طال سهادى
يا ذكر لم ألك غافلاً عن بغيتى فَلِمَ الهيام وفى الفؤاد مرادى
أنا حاضر وحبيب قلبى لم يغيب نَفْسًا فما هذا الغرام البادى
فأجابنى لم تَنَسَ نَفْسًا إنما ذكر الحبيب مداممة الأفراد

فالروح في أنس بوجه حبيها والجسم في شوق إلى الإمداد
يهتز حال الذكر طرباً شاهداً معني الجميل المنعم الجواد
فتكون روحى في شهود حبيها والجسم في طرب وفي إسعاد
هذا جوابك لا تلم ذا صبوة واشرب رحيق الذكر بالإرشاد
فالذكر راح للنفوس مطهر وبه أنال سعادتي وودادى

وتارة يخاطب الروح حال ذكره فيقول عليه السلام:

يا روح هل تشهدين جمال من ذكر يا روح من تذكرين جماله حضر
يا روح هيا فمحبوبى لقد ظهرت أنواره والمراد الفرد قد نظر
يا روح قد أشرقت شمس الهدى علناً تجلى لأهل الصفا والوجه مستترا
شمسى لقد أشرقت بجمال طلعتها من شام أنوارها منها لقد سكر
لقد أطلقت ألسنا بالعلم ناطقة قد جملت بالضيا قلباً بها بشرى
يا روح راح الصفا دارت بلا قدح كم هيمت أنفساً في ليلة الإسرا
من حكمة من هيام من رضا وهدى راح طهور على الأرواح قد نشر

وتارة يتكلم عما في الذكر من السبيل الموصلة إلى الله عز وجل فيقول عليه السلام:

نعم ذكره نور لعين البصيرة وباب لنيل الوصل حال الشهادة
نعم ذكره راح طهور مقدس وذكره يرفعني لأعلى مكانة
نعم ذكره معراج قرب شهوده وذكره المحبوب في كل حضرة
به يطمئن القلب إن كان غافلاً وتشرق أنوار النبي بسرعة
فقم ذاكراً لله ياطالب الرضا فذكرك مفتاح لكل السعادة
ولا تتركنا للغافلين فإنهم أولو البعد والطغيان أهل الجهالة

فذكرى لربي أنس قلبي ولذتي وأنس لسانى بل سرورى وبهجتي
إذا ما لسانى قال (الله) ذاكرًا أشاهد أنوارًا بعين بصيرتى
وأشهد وجه الحق بالنور ظاهرًا لديها ترى عيناي سر حقيقتي
أروني فتى ذكر الإله مصدقًا ولم ير نور الحق في كل وجهة
وقد قال رب العرش في نص ذكره بأيات قرآن أضاءت منيرة
ألا فاذكروني إن ذكرتم فإنني لديها لكم أذكر برضوان جنتي
هو الذكر من رفعوا به لحبة يوفق أهل القرب للذكر سادتي
و من لم يوفق يذكر الله مخلصًا فذاك بعيد عن شهودى وجنتي
عليك بذكر الله إن كنت راغبًا نوال الرضا منه بكل بشارة
فإنك إن تذكره يكشف لك الغطا وتشهد أنوارًا بسر المعية
و في بيانه للذكر الذى لم يكن عن غفلة أو بعد أو حجاب وإنما هو ذكر الواله
العاشق الذى يزداد بذكره ولها وعشقا وكشفًا يقول **الشيخ** :

ذكرتك لا أنى غفلت عن المعنى ولكننى الولهان والعاشق المضنى
ذكرتك لا أنى حجبت وإنما شهدتك يامولاي في ظاهر المبنى
ذكرتك لا أنى بعدت وإنما رأيت تجلى الوصف ينبىء بالمعنى
ذكرتك والذكر عين حقيقتي وذكرى له معنى يدق عن المعنى
يقول لسانى (هو) وقلبي مشاهد و سرى لدى الجلى يرى وجه من أغنى
أذكره بالحق والحق ظاهر ولكننى بالخلق أبدى لكم معنى
إذا ذكر المذكور فالروح جردت وفرت إلى قدس التراهة ما أهنى

ويتكلم عن فراره إلى الله من حيلة الأكوان حيناً وشوقاً إليه سبحانه فيقول

عليه السلام :

لدى الذكر تخناني إلى المذكور لأنني غريق في بحار النور
أفر إلى المذكور من كل حيطي تتره عن كيف وعن تصوير
ومنى فرارى للعلی تترهت معانيه عن فكر وكشف ضمير
أراه به وهو القريب مترها عن الرسم عن حد وعن تقدير
(وما قدروا) (١) البرهان ذقها مسلماً ترى وجهه تحظى بكل حبور
وصل على ساقى الطهور محمد وآل وصحب تعط كل سرور

وعن الحلل النورانية التي يتحلى بها العبد المطلوب المحبوب يقول عليه السلام:

نور القبول عن المطلوب قد لاحا من لحظة فرأى المشكاة مصباحا
نال المشوق بلهفة وحنانة حنوا إليه فناولوه الراحا
لما تناول راحهم بجمالهم قد رخص الأموال والأرواحا
منحوه روحاً قدست فسمت به وتبدلت أتراحه أفراحا
لم يرض بالسفل الحضيض وحظه يرقى يراه منعماً فتاحا
سكر المشاهد من جمال ظاهر لما علا وجه المشاهد صاحا
أواه لو نفسا يلوح للائم لرأى الحقيقة بالشهود صراحا
لكنه في سجن حظ مبعده عن كشف ما قد هيّم الأرواحا
أنا غارق في بحر نور مطلق لا برّ يحصرني ولا ملاحا
من رام يعرفني تجرد عن سوى نصّ الشريعة إن أراد فلاحا

(١) يشير إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الزمر: ٦٧

النور محظور على أهل الهوى والحظ بادر نعطك الأقداحا

وفي قوله ﴿وَاللهُ﴾: (الولى من إذا رأى ذكر الله لرؤيته) يقول عليه السلام:

من يشهد الوجه وجه الظاهر البارى متزهّجاً في معاليه وأطوارى
يرى جمال التجلى مشرقاً أبداً من غير كيف ولا حد ومقدار
وكيف يحجب من فى قلبه ظهرت شمس التزاهة من سرى وأنوارى
شمس إذا أشرقت فى قلب طالبها يرى الجميل بلا حُجبٍ وأستار
وإن تجلّت لمطلوب بها ولها يكون كعبة أرواح وأبرار
فرد هو الكل والمحجوب ظاهره والوارثون بآيات وأسفار
وباطن الفرد نور لا يواجهه إلا مراد صفاً من خير أخيار
سر خفى فلا عقل يمثله نور جلى لأحبابى وسمارى
يأيهما النور روحى فيك آلهة واجه بوجهك روح المخلص السارى
وفى بيانه للأسماء الإلهية من حيث تجليها بمعانيها فى المظاهر والشئون والأكوان

وبطونها فى غيب الغيب عن المدارك والعقول والأرواح يقول عليه السلام

هى الأسماء تظهر مقتضاها ليشهد من دعى بدءاً ضيائها
أضاءت بالتجلى فى ظهور وهذا الكون مظهرها علاها
ألاحت للنفوس إذا تزكت شمساً أظهرت معنى هداها
تراها الروح بالإشراق جهراً بآثار وحقاً لا تراها
وكل الكون مرآة لنور على أظهرت فيه بهاها
جلال مقتضى عظموت مجد جلال يقتضى فضلاً رضاها
هى الأسماء يشهدا مراد رأى بعيونها الحسنى صفها

فأبصرها بها غيًّا مصوًّا وقد حجب النهى قهراً سناها
هي الأسماء تظلل من أرادت وتلبسه لباساً امن حلاها
وقد جهلت وقد عرفت وخفيت وقد ظهرت وسترت في حماها
علت قدراً عن الأرواح مجداً ولاحت بالتزل في عطاها
هي الأسماء غيب الغيب تجلى لأهل الإصطفا في مقتضاها
تزلها جمال من جميل تفيض الخير يولى في علاها
وكم قد أسكرت فرداً مراداً تجنن في هواها ما رآها
فتلبسه إذا ظهرت وتجلّى له ولدى الشهود صفا وتاها
وكم جذبت إليها من مراد تجرد في هواها عن سواها
إذا نظرت إلى فرد بعين يفر بها إليها في دعاها
هي الأسماء ومن أزل لأبد تليح جمالها ييدى ضياها
هي الأسماء لذات قد تعالت وروحي تبتغى منها رضاها

وعن الآيات البينات التي أشرقت على هيكل الإنسان وألواح الكيان مشيرة إلى

معاني القدرة والإرادة والعلم يقول **العلية** :

رُتِّلاً في هيكل آيا سطور فالمعاني قد تلوح به سفور
واتل في لوح الكيان حقائقاً ترجمت عنها العوالم في دهور
واقرأن حكمة أحكام بدت تمحو ظل الحجب عن قلب الغيور
رتل القرآن مجلى ذاته واتل فرقان الحقائق في حضور
رتلا بالروح واتل حاضراً بالجنان إذا بدا لك في ظهور
أنت لوح الآي تتلى في الصفا رُتِّلَتْ في البدء من قبل العصور
واشهدن ما فيك بالعين التي أبصرت بالحق في محو السطور

واسبحن في سدرۃ غشيت بما
سدرۃ تنبي بصورتى التى
صرت عبرانى وبدئى خاتمى
صرت بحرًا ليس يعبر لحتى
كنت فى سكرى أرائى فارقًا
فى بحورى فى عبورى فى أنا
هيكلى قاف وصادُّ رتبى
آه والعين العلية نزهت
واصطلامى فى التجلى جاذبى
دكت الأطوار والأرواح قد
حيرتى فى نور مجلاه نمت
دولة الإيجاد تصعقها على

وحول المعانى المشرقة فى الإنسان الذى جملة الله تعالى حتى صار لوحًا عليًا

لجلى آياته يقول **الطاهر** :

أنت لوح مجمل بالمعاني
فاقرأنها بالفكر تشهد نورًا
جهلوا نفوسهم وفيهم تجلت
سلم الأمر للولى وفكر
ودع العقل يعقل الكون والنفس
وتحصن بالشرع فهو أمان
واجعل العقل باحثًا عن إمام
عرف الحق ظاهر الأنوار
فيك نطق بالحسن والأسرار
لا تفكر فى حيرة التُّظَّارِ
مشرقات لم يهتدوا بالنهار
فى بديع الشئون والاعتبار
ليسعى إلى جناب البارى
وتجمل بسنة المختار
عرف الحق ظاهر الأنوار

فاتبعه مسلماً لتَهْنِئِ بالتحلى بجلية الأخيار
و صلاة على الحبيب المُرَجَّى قبضة النور مقصد الأبرار
وحال هيمانه واصطلامه وغيبته عن وجوده وحضوره مع محبوبه، وما تجلى له
في هيكله وعلى لسانه وقلبه من معاني الآيات يقول عليه السلام :

لدى الهيمان يخلو لي اصطلامى فأخفى فيه عني عن مقامى
أغيب وغيبتي جذبي اتحاداً و أحضر والحضور به سلامى
تظللني معاني الوصف حتى أُسْتَرَّ عن شئوني عن غرامى
كأنى في مقام القرب غيب عن المبني ولست من الرغام
وهيكلى المسوّر بالبيان يكون اللوح محفوظ الدوام
به الآيات أنوار التجلى معاني الوصف تتلى في اصطلامى
تراه الروح مشكاة مضيئاً بزييت البدء نوراً للظلام
تلوح به معاني الوصف جهراً لمن شربوا طهوراً من مدامى
لسانى عندها قلم على يسطر آيه حال الهيام
على عرش استوا الرحمن قلبى هو البيت المعمّر بالكلام
وحان الراح ناسوتى أديرت به الراح الطهور لدى اعتصامى
و كثر فيه أنوار المعاني لأملاك السما جلى حرامى
عجيب جمع ضدين اتحاداً معانٍ في مبانٍ في رغام

وفي حوار بين الروح والجسم حيث تتكلم كل حقيقة عما يناسبها، وتأتى
نتائج الحوار وثماره أن كلاهما يكمل الآخر، ويشهد كل منهم لصاحبه بالفضل في
بناء هذا الإنسان الذى صاغه الله على أحسن التقويم فيقول عليه السلام :

لى غرام من نشأتى الأوليه حين واجهت وجه رب البريه
 لاح لى الوجه فى صفا الروح أحيا ذا غرام إلى المعانى العليه
 كنت روحاً أشتاق والنور حولى صرت جسماً فى دار دنيا دنياه
 كيف صبرى من بعد رؤية وجه فى صفاء عن صورتى المثويه
 ظل كونى قد حجب الروح ويحى عن شهود الأسرار فى الصمديه
 أنت يا جسم قد سترت حبيى صرت يا جسم للقريب بليه
 خلّ روحى تفر لله إني فى هيام للوصل للأحديه
 قال لى الجسم صاغنى الله ربي باليدين فاشهد جمال العطيه
 كانت الروح قبل حين وجودى فى حجاب عن مشهد الواحديه
 فى قد شاهدت جمال جميل فى مقام الأعلين فاشكر أخيه
 سخر العالمين علواً وسفلاً لى ياروحى كونى عنى رضىيه
 إننى الكثر فى غيب المعانى صاغنى الله باليد الروحيه
 صاغنى الله باليدين وأنت بى نلت طهوره الأحمديه
 قالت الروح أنت يا جسم رق أشرقت فىك شمس الأوليه

ويتكلم عن تنزلات الحق سبحانه بمعانيه فى قلب العارف المعمور بأنوار أسمائه
 وصفاته مبيناً أن المؤمن مثل صادق لنور الحق جل جلاله حين يصفو هيكله من
 الحظوظ والأهواء فيصير كأنه مشكاة، وحين يصفو قلبه فيصير زجاجة تتراعى من
 صفائها الأنوار، وحين تصل الروح ما بينها وبين ربها فتكون مصباحاً تنجلي بها
 معانى الآيات فيقول **عليه السلام** :

نور التنزل قد ظهرت معانيه والقلب يشهد بالذكرى تحليله
 تنزل الحق فى الأفق العلى له والقلب يشهده بعيون تزيه

قد واجه الروح نور لا تكيفه مقدس عن حدود بل وتشبيه
 أيا ظاهراً لعيون السر قد وضحت للروح أسرارها والفضل توليه
 أنت القريب بلا كيف يحيزه أنت العلى فلا الأكوان تحويه
 روحى تشاهد وجهاً مشرقاً أبداً قد حجب الوجه عن روحى مبانيه
 تنزل الحق للأرواح يشهد لها غيب التجلى وسراً من معانيه
 فشاهدته بلا كيف ولا مثل و العرش بل ما حواه ليس يخفيه
 يا روحى أنت شهدت نور طلعت وهيكلى فى هيام هل يجاييه
 أهيكلى أنت مشكاة لظاهره و العقل فى حيطه ما ثم يدرية
 أنا الزجاجه مصباح لباطنه منعم بشهود الوجه أرويه
 يا هيكلى أنت معمور بآيته وصورة الفرد تبدى سر خافيه
 دعنى أنعم بالوجه العلى فلى حال التزل فضل منه يوليه
 نظراً إلى أيا روحى بعاطفة بعد الشهود لهذا الجسم تحييه
 هذا التزل فى الأفق المبين جلى فواجهنى هيكلى بجمال باريه
 إن كنت ياهيكلى ترجو مواجهة فالطور لا يقوى أن يراى بتزيه
 هذا الكليم على طور النداء لقد لاح الجميل له بقيود تشبيه
 يا هيكلى أنت فى الملكوت تشهد من سر المعانى ونوراً من تجليه
 والروح صورته مصباح طلعت فضلا فواجه معني من مجاليه
 يا هيكلى واجهن ملكوته فيه جماله وبه ما أنت تبغيه

وسأل سائل يوماً عن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور: ٣٥

فقال: أتنى

بالقلم والقرطاس، ثم أُملى على السائل:

فتحت كنوز مواهب الفتاح
لاحت لنا (الله نور) فانجلت
لا يبق مشكاة ولا زيت لدى
مثل لمن حُجِبُوا يقرب وصفه
ما شجرة الزيتون إن حققتمو
والحاضرون الناظرون جماله
ظهرت لهم أنواره في ذاتهم
عين رأتَه مترهًا ومقدسًا
هو ظاهر ببطونه بل باطن
دع عنك مثلاً بل مثلاً واشهدن
العين تشهده بنور هباته
قرب بلا كيف أراه بمقلتي
قرب بذوق للمريد ومشهد
راح لإخوان الحبيب تخصصت
إخوانه والناصرين لدينه
وصغيرهم وكبيرهم وصديقهم
بشرى لنا اشتاق الحبيب لذاتنا
شوقاً لذاتك يا حبيبي دائماً
يا سيدي خصصتنا بأخوة
شكراً وشكراً سيدي متابعاً

فأضاء زيت حقيقة المصباح
نور العليّ بِسِرِّهِ الوضّاح
كشف الحجاب بحضرة الفتاح
والشاهدون بروضة الأفراح
إلا لمن حُجِبُوا عن الإفصاح
قد واجهوه برحمة وسمّاح
ولنا تجلّى غدوة ورواح
لم تكتف بمثاله الوضاح
بظهوره ياطالب إيضاح
وجه الجميل بحضرة الأشباح
وهو القريب فذق أُخَيَّ لراحى
ما غاب من قد ذاق قطرة راح
لذوى المكانة من أولى الأرواح
من كان مشتاقاً لهم بصباح
والمرشدون لحضرة الفتاح
سر الأخوة من رضا وسمّاح
وتمتّى يرآنا بقول صراح
شوقاً وشوقاً زائداً إيضاح
ناولتنا من حوضك الفيّاح
قمنا بكم في مشهد الفتاح

ويتكلم ﷺ مبيناً أن ما فيه من قلب وروح وعين ونفس إنما تشاق للحق جل
جلاله الذى ظهر بمعانيه فيها من سر قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
الذاريات: ٢١

فيقول ﷺ :

القلب فى بهجة بجمال رؤيته والروح سكرى بكشف جميل طلعه
والعين فى لهفة تشاق تشهد ما به فؤادى فى أنس يبهجته
والنفس ما بين قلبى بل وباصرتى تألّمت لمعان من حقيقته
فيها أضاءت ولكن سترت بسنا أنوار غيب بمعنى سر صورته
ترى الزجاجة والمشكاة وهى على غرامها فى اصطلام فى معيته
إن شاهدت أى معناه مترهة تاقت إلى الغيب فى وله لحيطته
وإن محانوره الأعلى معالمها حنت إلى مظهر عن نون نسبته
وإن تجلت معانى سر وحدته تنبى بعظموته وعجيب حكمته
تتمت بشهود الآى واجدة وجد المؤله من آيات قدرته
للروح مجلى كمال فى نراهته والقلب كشف التجلى عين بغيته
ما بين نفسى وروحى بل وباصرتى كالثلج والنار قد جمعا برحمته
وعين رأسى سر الآى مطلبها والآى قد سترت بجمال عزته
صرت المؤله لا أنفك من وله نفسى وروحى وعينى عند رؤيته
لا ينتهى ولهى أبداً وقد جمعت كما علمت معاليمى بحكمته
عناصرى هى أركان الوجود إذا فققتها سكنت نفسى لحضرته
عجيب قدرته وغريب حكمته وجلّى آياته وعميم نعمته
قد حيرت أنفساً طهرت لطائفها وأوقفت كل عقل عند رتبته

وهذه قطرة من بحار مشاهداته التي أملاها في مواجيدہ النظمیة، وهی لعلو معانیها وعمق أغوارها تحتاج فی سماعها إلى أرواح أهلت، فتغشاها أنوارها التي تحوم بها حول قدس المعرفة بالله عز وجل، فإذا بها قد عادت بطرائف الفوائد وغرائب الزوائد ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الجمعة: ٤.

انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى

قبل التعرض لموضوع انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى، لابد من وقفة نستعرض فيها حالته الصحية، والأحداث التي سبقت ذلك وكان لها تأثير عليه، إلى أن قضى الله أمراً كان مفعولاً.

كانت حياة الإمام مملوءة بالأعمال التي تنوء عن حملها الجبال. لقد حمل مسؤولية العالم الإسلامي كله على كاهله، فما رأى مرضاً استشرى في الأمة الإسلامية إلا وأوجد له العلاج من الكتاب والسنة ونصح الأمة واتجه بالكلية إلى حضرة رب البرية، يتذلل إليه ويدعوه أن يكشف الغمة ويحفظ الأمة.

وكان لكثرة تفكيره في أحوال المسلمين وشدة غيِّره على الإسلام وما نزل بالمسلمين أثر كبير في إصابته بمرض الفالج (١) قبل عشر سنوات من انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وكان أحد تلاميذه قد زاره - وهو طبيب - قبل مرضه، وأخبره أنه ينهك قواه العقلية كثيراً، وأنه معرض للإصابة بهذا المرض إذا لم يتحفظ منه، فأجابه الإمام على الفور: وكيف التحفظ منه وأنت ترى حالة المسلمين في الشرق والغرب تستدعي الكثير من التفكير، وأنا أخشى أن يأتيني الحين (٢) وأنا لم أضع دواءً ناجعاً لهذه الأمراض الاجتماعية التي توشك أن تودى بهذا المجتمع إلى التهلكة. أنت تحذرن مما يجب على أداؤه، ولقد قمت به أنت لى، فكيف لا أقوم به لغيرى ممن هو أحوَجُ إليه منى؟

(١) مرض الشلل.

(٢) الموت.

ولم تمض بضعة أسابيع حتى أخبر الإمام وهو جالس يلقي درسه أن الإيطاليين ألقوا بالمسلمين من الطائرات ولا سيما المجاهدين في ليبيا، فغضب الإمام غضباً شديداً وحزن حزناً بالغاً وشرع يملئ إحدى قصائده وقد غمره الإنفعال بما أخبر به، وبدأت عليه في الحال آثار ما نزل به من مرض، وثقلت يده ورجله على أثر جلطة دموية ألت به.

وقد صدر أول خبر عن حالة الإمام الصحية في العدد السادس من السنة الأولى والصادر في شهر المحرم ١٣٤٦هـ من المدينة المنورة مجلة السعادة الأبدية ص ٤٤ تحت عنوان عجل الله الشفاء، حيث يقول الخبر:

ألم بفضيلة مولانا السيد محمد ماضى أبو العزائم مرض بسيط في أوائل هذا الشهر، وكان عقب إجهاد فكره واستغراق ليله ونهاره في العمل لخير المسلمين في هذا الظرف العصيب الذى تكالبت فيه عليهم أمم الغرب، فنجم عن هذا الإجهاد الذى لا يقوى عليه الجسم في مثل هذا السن ضغط دموى على القلب. ولما شعر فضيلة السيد بمبادئ المرض استقل سيارته إلى الدكتور الشهير محمود عبد الوهاب، فأشار على فضيلته بالتماس الراحة التامة والكف عن التفكير والجهد. وفي اليوم الثانى عاده من الأطباء الدكتور عبد العزيز إسماعيل والدكتور إسكندر الجرجاوى والدكتور محمود معاذ والدكتور محمد بك النجار كدوائى والطبيب الفرنسى الشهير كاركولو، وقد اتفقت آراؤهم جميعاً على التزام السكينة والراحة التامة والبعد عن كل المؤثرات. ومع ما أشار به علينا فضيلة السيد من تكتم الخبر لئلا تترعج القلوب، فقد انتشر الخبر، وتقاطر على دار آل العزائم الوفود من سائر أنحاء القطر المصرى للاستفسار عن صحة هذا السيد المحبوب لما له في قلوب من عرفوه من المكانة السامية والمحبة الخالصة. ونحن نبشر جميع إخواننا من حضر منهم ومن لم

يحضر أن صحة مولانا السيد قد تحسنت كثيراً والحمد لله، وأنه يسير الآن نحو العافية بخطوات سريعة. عجل الله لفضيلته الشفاء وألبسه ثوب العافية القشيب.

وبالرغم من وجوده عليه السلام في فراش المرض، ورغم قرار الأطباء له بلزوم الراحة والسكون، ورغم إلحاح كبار الأطباء وعظماء الزوار عليه ألا يشغل باله بأمر من الأمور خصوصاً ما فيه إجهاد الفكر والعقل، فلم تمض أيام على مرضه إلا وقت أبت نفسه العالية وروحه الفياضة بالحكمة والعرفان وعزيمته القوية وقلبه المفعم بالآمال لخير الإسلام والمسلمين إلا أن يكون مجاهداً في كل نفس من أنفاسه، أبى فضيلته إلا أن يقضى كل أوقاته فيما يعود على المجتمع الإسلامى بالخير العام، فخرج يحمله بعض خواصه إلى الزاوية للاستمرار في حلقاته المتوالية لتفسير القرآن الكريم.

وما أن جاء يوم الجمعة ٢١ صفر إلا وتشرف وفد لجنة الخلافة الإسلامية بالدقى بزيارة دار آل العزائم للاستفسار والسؤال عن صحة الإمام وهو رئيس جماعة الخلافة بوادى النيل. ونزل الإمام إلى الزاوية إلى أن انتهى إلى مجلسه الخاص طلب المصحف الكريم، فتلى مقرئه الخاص الشيخ مفتاح زيدان عليه قول الله تعالى: ﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت: ١-٢، فشرح الآية كعادته بأسلوب جميل على قدر ما يسمح المجلس، وأحس خاصته بتعبه وإجهاده، فالتمسوا منه رحمة به وشفقة عليه أن يعود إلى حجرته الخاصة، فاستأذن الإمام من الحاضرين طلباً للراحة. وبعد ذلك بشهر تقريبا، وعملا بنصيحة أطباء في طلب الراحة في جو هادىء، وإجابة للمتمس تلاميذه بالواسطى، توجه الإمام إليها بالقطار وسط حفاوة وتوديع الكل له. وكان بالقطار نخبة من الوجهاء وبعض

رجال القضاء والموظفين، ولم يكن بينهم بالطبع من يجهل فضيلة السيد ولا مكانته الدينية في المجتمع، وكانوا جميعاً ملتفتين حوله وهو مقبل عليهم يحدثهم بأحدثه الدينية العذبة. وأثناء الحديث سأله أحدهم عن رأى فضيلته في الحالة الحاضرة في مصر فأجاب بالآتي (١) :

إن أملنا في الله تعالى يملأ قلوبنا ويبعث في نفوسنا قوة التفاؤل بما في المستقبل من سعادة مصر وخيرها. إن الأمة الآن في أشد الحاجة إلى التمسك بالدين والرجوع إلى ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم، ولا أقصد بالرجوع التأخر والانحطاط، وإنما أعني به إحياء ما كان لسلفنا من مجد وتمكين لم يصلوا إليه إلا باتحاد قلوبهم على نصره الحق وإعلاء كلمة الله. إنهم لم ينشأوا ملوكاً ولا قادة، بل كانوا قبل الإسلام وحوشاً غلاظاً، فلما تلقوا الحرية من القرآن الكريم لم يروا فوقهم إلا الله تعالى، فقاموا بقلوب تلتهب غيرة، وصدور تفيض إيماناً وعقيدة، ففتحوا نصف العالم تقريباً، وتغلغلوا في قلب أوروبا وآسيا بل ووصلوا إلى أمريكا الشمالية، فقد اكتشفوا من آثارهم عند بوغاز بهرنج حجراً مرسوماً عليه دائرة منطقة فلك البروج، كل ذلك سببه التمسك بروح الدين الذي جعل الجهاد في سبيل الحق من أقدس الواجبات، لا تحسبوا أن ديننا الحنيف يدعو إلى الرجعية أو الجمود، أو يقف بمعتقديه عند حد الأحكام والعبادات وما يليهما .. إن الذي يحكم على الذين يمثل هذا إنما هو جاهل بحكمته ناكب عن سبيله ومقصده.

إن القرآن الكريم مملوء بالحث على تعلم الصناعات والعلوم والفنون واستخراج كنوز السموات والأرض، ولا أدل على ذلك من تاريخ أسلافنا المجيد، فإنهم لما

(١) مجلة السعادة الأبدية.

آخذوا بتعاليم القرآن وتفهموا روح الدين وحكمته قاموا فملأوا الأرض علماً ونوراً وعدلاً، فالفوا المجلدات الضخمة في مختلف العلوم، ونشروا الصناعات والفنون، وعرفوا كيف يسوسون ممالكهم الواسعة بالقسط والمساواة. ولقد سرن انتخاب مصطفى النحاس باشا لرئاسة الوفد في عهد الوزارة الحاضرة التي يرأسها صاحب الدولة ثروت باشا، وهو الرجل لذي عرف الحكمة والكفاءة مع ميله إلى الدين وأهله، وتجمع وزارته رجال الغيرة والجهاد في سبيل الدين والوطن أمثال محمد باشا محمود وأحمد باشا خشبه وعلى باشا الشمسي ونجيب باشا الغربلي وغيرهم.

ثم استطرد فضيلته متكلماً عن الحالة الاقتصادية، ثم قال: إن أساس نهضة الأمة يقوم بالدين أولاً وبالذات ثم بالثروة. وثروة البلاد تنحصر في حاصلاتها الزراعية التي من أهمها القطن. فوصيتي إليكم أن تحافظوا على هذه الثروة، وأن تقيموا أعظم الإهتمام بتنميتها والعمل على إعلاء شأنها والاحتياط في بيعها وتصريفها من دسائس التجار.

ثم ختم كلامه عليه السلام بالحث على التمسك بالسنة ونبذ البدع والعناية بتربية النشء وتغذيتهم بما يجعل منهم رجالاً صالحين للعمل لدينهم ووطنهم وأهلهم.

وكان القطار قد دنا من الواسطى، فودعه الجالسون في لهفة وأسف. وما أن توقف القطار حتى اندفعت جماهير المستقبلين كأنها السيل، واستقل فضيلته السيارة وجماهير المستقبلين تتبعه حتى وصل الركب إلى سراى شاكر بك المهندس الواقعة على ضفاف النيل التي أعدها آل العزائم بالواسطى لتزول فضيلته. وقد أقيم تجاهها سرادق فخم لاستقبال زواره من نواحي الواسطى والفيوم وبني سويف. وظل

فضيلة السيد يستقبل كل تلك الوفود بما عرف عنه من رقة ووداعة يمتزجان دائماً في أحاديثه الدينية وعظاته العالية. والحق أن سيادته كريم بقدر ما هو حكيم، إذ لم تثنه تعليمات الأطباء وتشديد خاصته بالتزام الراحة التامة عن أن يلقي على كل زائر ما يناسبه من حكمة وموعظة حسنة وقد انتقشت كلماته على قلوبهم ولهجت بالثناء ألسنتهم.

ومع اقتراب ذكرى الإسراء والمعراج، زاره سمو سلطان حضرموت ومعه ولى عهده ووزير خارجيته الذى بقى لحضور الاحتفال. وأثناء لقاء الإمام بالسلطان، ألقى سيادته درساً في أخلاق الملوك والسلاطين العاملين بكتاب الله وسنة رسوله وما أعد لهم في جنات الخلد، والفائدة التى تعود على تعارف الشعوب الشرقية ببعضها، وما تنتجه الرابطة، وذلك بأسلوب حكيم جذب هذا السلطان حتى إنه كان يقبل يدي السيد بين آونة وأخرى قائلاً: إن هذا هو الفرد الذى شاهدت فيه العمل بكتاب الله وسنة رسوله.

وقد ألقى نائبه خطبة في الإحتفال بالذكرى عدّد فيها صفات الإمام، ومما قاله: لست بمبالغ إن قلت إن هذا هو وارث حضرة المصطفى صلوات الله عليه أخلاقاً وأعمالاً وأحوالاً، ولو كان هذا في بلادنا لكان فوق الملوك قدراً، ولن تنال الأمة خيراً إذا لم تجتمع حول هذا القلب الرحمانى الذى إذا أقسم على الله لأبره... إلى آخر حديثه.

ثم القى الإمام درساً في الإسراء والمعراج أنصت له الكل وكأن على رءوسهم الطير، حيث طوف بأرواحهم في بيان آية الإسراء والمعراج، وقد نشر ذلك بالتفصيل في جريدة الأهرام (١٩٢٨/١/٢١) تحت عنوان (ليلة المعراج) ، وجريدة

السياسة (١٩٢٨/١/٢٤) تحت عنوان (سلطان حضرموت: تناول طعام العشاء على مائدة حضرة الأستاذ الشيخ محمد ماضى أبو العزائم) ، وجريدة مصر (١٩٢٨/١/٢٥) تحت عنوان (سلطان حضرموت) ، فارجع إليه إن شئت.

وبعد مضي عام على مرضه جاء موعد الإحتفال بذكرى مولد المصطفى ﷺ وآله ﷺ، وكعاداته في كل عام تناول بالشرح سورة الكوثر مبيّناً ما فيها من الأسرار، ورذاذاً من مقامات رسول الله ﷺ وآله ﷺ لأهل القلوب المشرقة بأنوار علام الغيوب، واستغرق في بيانه حتى أصابه الإرهاق الشديد، فخشى عليه خاصة تلاميذه وطلبوا منه أن يستريح.

ولما بلغه ﷺ نبأ قتل الإيطاليين للمناضل الليلى الكبير عمر المختار، وإن موسولين يدعى أنه حامى حمى الإسلام، وكان الإمام مريضاً لا يستطيع القيام، طلب من مرافقيه أن يجلسوه في سريره، وألقى القصيدة التالية: وطلب أن ترسل إلى موسولين:

يا وحش روما (١) تأدب فلسفتَ كسرى وقيصـر
وطعنة القهـر تـأتى وأنت كالثوب تُنشر (٣)
كبير لندن (٢) فاحذر فالله ربك أكـبر
وطعنة القهـر تـأتى من حيث لا تتصـور
الله ربى غيـر فاحذر يغار فتقهـر

(١) إشارو إلى موسولين.

(٢) وقد تم تعليق موسولين وأعوانه من أرجلهم وأعدموا رمياً بالرصاص، كما يعلق الثوب من اسفله.

وكيف يرضى إلهى بالظلم يعلو ويظهر؟
أغار ربى تعالى على العباد وأنذر
فسارعوا بمتاب يا آل كسرى وقيصر
أولى بأمر عصيب والعبد (١) أوصى وحذر
وصيتي فاقبلوها أنا لا أرد المقدر
عيسى أتى بسلام نعمنة الله تُشكر
أعطيتموا الملك فضلاً وفضل ربى يُذكر
كفرتموا باله ذو العرش بالعدل يظهر
توبوا إليه أنبيوا فقهه لئلا يُنكر
وكنم أزلّ ظلومًا لما طغى وتكبر

ومع شدة المرض وزيادة وطأته، كان عليه السلام حريصاً على مجالسة إخوانه، وكثيراً ما كان ينتقل من مكان إلى مكان متكئاً على عصا أو محمولاً من خاصة تلاميذه، وكان يفتتح مجالس الذكر جالساً، ثم يشتد به الحال فيذكر الله قائماً فينسيه ذكر الله ما ألم به حيث ترجم عن ذلك مرة منشداً:

يا ذكرُ قد أنسيتنى شيخوختي وألحت لى ياذكر أسرارَ العيان
وخلال سنوات مرضه تلك التى سبقت انتقاله إلى جوار ربه، مرضت زوجته
السيدة (منتهى طلبه) مرضاً أقعدها عن خدمته، فاحتاج إلى زوجة أخرى تعينه
وتخدمه، فتزوج السيدة (لبية محمود سلامة) التى توفيت أثناء حملها ولذلك سماها

(١) إشارة إلى الإمام.

الإمام أم الشفيع، ثم تزوج عليه السلام بالسيدة (عزيزة السماحي) من البرلس وهي آخر زوجاته.

وفي عام ١٣٥٤ هجرية (١٩٣٥ ميلادية) استخرج الإمام تصريحاً رسمياً من وزارة الداخلية لبناء المدفن الخاص به في نفس مقر سكنه وبالتحديد في غرفته الكبيرة (١) التي تطل على الزاوية، وحفرت بها الروضة التي سيدفن فيها، وكان قد تم بنائها قبل ذلك (شهر رجب ١٣٤٨) في نفس المكان، وهي بطول ٣,٥ وعرض ٢,٨ متراً وتسع لفردين.

وفي أواخر شهر المحرم من عام ١٣٥٤ هـ اشتد به المرض، فلاذ به أهل محبته الخاصة من تلاميذه، وانفض من حوله القليل، وهم من طلاب الدنيا الجاهلون بقدره، ولما أراد الجلوس حاول بعض من حوله إجلاسه، ولكنه رفض وجلس رغم مرضه الشديد وبدون مساعدة أحد، فأنشد عليه السلام يقول:

رجل بألف كيف لا يقوى الجلوس وهو المُمِدُّ وقدره فوق النفوس
الجاهلون بقدره من حوله باعوه في سقم بأبخاس الفلوس
لو أنهم علموا به في سقمه لرأوه أعلى من دروس من شمس
باعوه يبعة زاهد جهلاً به لو قدروا وضعوه من فوق الرؤوس
كنت الرحيم بطفلهم وكبيرهم حتى سقيتهم الطهور بلا كئوس
وبرغم اشتداد المرض عليه، فقد كان يحضر الحاضرة ويلقي قصيدة الذكر ثم يعطى الدرس للإخوان ويصعد إلى غرفته لراحة قليلة، ومرة جاءه بعض الإخوان

(١) وهي بطول ٩,٧ وعرض ٧,٥ متراً. وهي تمثل الآن جزءاً من المسجد.

أثناء راحته فقرأوا الصلوات على الرسول ﷺ وآله، قبل بداية الذكر وإذا بالإمام يخرج عليهم كي لا يحرمهم من ذكره معهم وأنشد قائلاً:

بحالكمو جددتمو حالى القديم وأشجائى فرفقاً بحال سقيم فالسقم أضنائى
فإنى لا أقوى على الحال إخوتى وحالى على فوق جسمى وأركانى
تحملت حالكمو مع السقم والضنا ومن يحملن حالى؟ وحالى روحانى
أريحوا فتى فى ثورة السقم والضنا يروح من الأذكار فى القرآن
سلام عليكم من حبيب مقرب سرى فدنا للواحد الديان (١)

وكان البعض منهم يظن أن الإمام لمرضه قل إدراكه وذلك لعدم كلامه فترة، فنادى الإمام أحد أتباعه- وكان ذلك فى البرلس- وقال له: يابنى إن البرلس قد أخذت منى قسطاً وفيراً ويجب علىّ الشكر لله، وقد أمليت هنا قصيدة تشير إلى معانى الشكر فهل تعرفها؟ قال: نعم. وقالها:

إن كان شكرك فرضاً فمن يقوم بشكرك؟
أنت الشكور إلهى بالفضل وفق لذكرك
الشاكرون عباده لن يدركوا سر قدرك
وشكرهم لك نعمى واليتهم من خيرك
قد يوجب الشكر فرضاً عليهمو سر أمرك
فاشكر إلهى عنا نعماك فضلاً ببرك
إننا عجزنا جميعاً عن أن نقوم بشكرك

(١) قالها رضى الله عنه فى ٢٦ رجب ١٣٥٤.

فقال الإمام له أكمل، فقال: إن هذا آخرها وقد أمليتها علينا سبعة أبيات، فقال له الإمام: اكتب:

و العجز حمدٌ وشكر والعبد قد صار يدرك

وفي عام ١٣٥٥ هجرية، أى قبل الانتقال بسنة بالضبط، وفي المناسبة السنوية للاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج، وكما هو معتاد فقد كان من المقرر أن يلقي الإمام كلمته في السرداق المعد، ولكن لم يتمكن الإمام من ذلك لظروفه الصحية، وظل في غرفته، وأنا ب أحد أبنائه لإلقاء كلمته، وكان هناك أخ سيلقى كلمة بمناسبة الاحتفال أمام الإمام، فلما علم أن الإمام لن يستطيع الحضور لمرضه قرر أن لايلقيها. وفجأه وجد أن الإمام يستدعيه فتوجه إلى غرفة نومه، وطلب منه أن يلقي كلمته أمامه وهو في سرير مرضه في خلوته. وبعد الفراغ من إلقاء الكلمة قال له الإمام: لقد سمعتها، فلا بد أن يسمعها الناس، وأنا معك في الصيوان كما أنا معك الآن، هيا ياولدى ولا تبخل بما آتاك الله من فضله. وهذا هو نص الخطاب (١):

سيدى ومولاى.. سادتى:

قف على الروض ياحمامٌ وغرّد وأشد باللحن فى سمالك وردّد
قل تعالى المَحْيى المَعزّز تعالى باعث الروح بالجمال المخلد
مَظْهَرُ اللهِ فى الشفاء عَظِيمٌ يا مفيض الشفاء إياك نعبد

(١) مجلة (المدينة المنورة) السنة ٩ العدد ١٠ (٧ شعبان ١٣٥٥ هـ الموافق ٢٣ أكتوبر ١٩٣٦ م). المقالة بإمضاء ن.م. ويعتقد

أنه الأخ نبيه المذكور.

ذاك عيدُ الأفراح عيد التهاني (١) إذ تجلّى العيدُ أحيا وجدد
أيها القومُ عادَ ماضٍ إلينا عاد بالروح والكيان محمد

وبعد أن قدم لحديثه... قال:

إخواني.. كثير على أن أقف الليلة مثل هذا الموقف الرهيب، أقف أمام من علم
وأتكلم!! ، واقف بين يديه وأنا موطنى تحت قدميه، وأظهر حيث كنت أوتر أن
أختفى، ولكنها روح عليّة ونفخة قوية سرت في دمي ولحمي وتفجرت من قلبي
على فمي وقالت لي: هذه الليلة عيدنا فتقدم وقف وتكلم وسبح بحمد ربك الأكرم
الذى علم الإنسان ما لم يعلم.

ما أجمل نعمتك ياالله، لقد كنت في إبلائك عظيماً بقدر ما تجليتَ في عطائك
كرماً، أبليتَ ثم أعطيت، وأمضت ثم شفيت، وأنت في هذا وذاك أنت، ولكن
أبيت إلا أن تحتفى وراء أسمائك وصفاتك، وتنكر خلف أسبابك وآياتك، لتميز
بين عبادك وتبلو قلوب أوليائك، ولتدع العقول حيرى تتخبط في محيط الأسباب
وتضل في ظلمات الأوهام حتى إذا طلعت عليها شمس قدرتك فأذابت الحجب
وأشرقت من غير سبب، هتفت باسمك الأرواح وسجدت لعظمتك العقول، ونادى
كل: سبحانك إني كنت من الظالمين.

سادتى وإخوانتى: لقد كنتم تجتمعون في مثل هذه الليلة من كل عام لتحتفلوا
بذكرى الإسراء، ولتحيا ليل هذا العيد الذى أسرى الله فيه بحبيبه صلوات الله

(١) كان الإمام مريضاً لمدة ستة شهور، ثم تقدمت صحته إلى الأحسن، فجهز الأخ خطبته على أن الفرح فرحان: فرح

الاحتفال بمناسبة الإسراء وفرحة شفاء الإمام وعودته إلى إخوانه، ولكن الإمام أحس بالوعكة الصحية قبل إلقاء كلمته

بساعات.

وسلامه عليه إليه وأراه من آياته وأسمعه لذيد مناجاته وكشف له الحجاب عن وجهه الجميل. أما الليلة فقد شاءت عناية الله أن تجمع لنا بين عيد سعيد وعيد جديد، بين عيد الإسراء وعيد الشفاء، بل بين عيدين للإسراء معاً، فلقد كانت الروح العلوية سارية في ملكوت الشهود ما يقرب من نصف عام، ولو قد لبثت في سبحها وجاءت هذه الليلة لحرمتنا شهود عيد الإسراء، ولا حتبس عنا غيث السماء، فشروق هذه الطلعة فينا شروق لشمس الإسراء، واحتفالنا بشفاء هذا الجالس بيننا هو احتفال بليلة الذكرى، إذ لولاه لما اجتمعنا هذه الليلة ولولاه لما شهدنا جمالها ولا ذقنا خمر شراها ولا سعدنا بها.

من أجل هذا ترون ما أضفاه الله على تلك الليلة من حلل السرور وألوية النور، وتحسون أن الفرح بما فرح مزدوج، والابتهاج فيها شامل كامل، وكيف لا وقد امتزجت نشوة الذكر بلذة الشكر، ولئن كان الشكر موعوداً من الله بالمزيد فليس بعجيب أن يهبط علينا عيد الإسراء ومعه عيد.

سيدي ومولاي : لقد كان لي شرف الخطوة بمعيتك الذاتية خمسة عشر عاماً أو يزيد، شهدت فيها من آيات معرفتك ومن كمال عبوديتك لله ما هذب نفسي وأذهلني عن وجودي وحسي . ولقد صحبتك في السفر والحضر وفي الخلوة والمجتمع، وكنت تحت أقدامك في ميدان السياسة وحلبة الدين، وبيدي هذه لقد كتبت عنك ما كنت تثيره في صحف العالم من حرب على طغاة المستعمرين، وشهدت الدنيا بمالها وزخرفها وجاهها تحبو إليك وأنت تركلها بقدميك، وأشهد

أنك كنت في كل طور من أطوارك مثلاً أعلي للعبودية الكاملة وعنواناً صادقاً على التضحية والفناء في محبة الله . ولكن هذا الطور الأخير كان شيئاً آخر يختلف عن كل ما شهدتُ ويسمو على كل ما عرفت، لقد كنتَ تناجي الله في جوف الليل مناجاة تنخلع لها الصدور وينفجر من ثناياها النور، وكنت المثل الأعلى للصبر والرضا والاحتمال . تعلمنا - حتى في هذا الموطن الذي ينسي المرء فيه كل شيء - كيف يكون الرضا عن القضاء والأنس بالله في البلاء، كنت تسبّح وتقدس وتشكر على ألم الداء ومرارة الدواء .

انظروا كيف كان وهو في سقمه أطل الله حياته، يتملّكه همّ المسلمين فيعلو في همه بنفسه ويشغله عن التفكير في صحته، كأنما قد تحلل العالم الإسلامي بأسره في شخصه، وأصبحت أمم المسلمين أعضاء في جسده لا تشاك منها أمة بشوكة إلا وجد ألمها وشاركها همها وقام يناضل عنها ويدعو الله من أجلها .

هذه حالة إخواننا المسلمين في سوريا وفلسطين وغيرهما، هل شَعَلَهُ عنها سقمه أو أغفله عن الجهاد ألمه ؟ لا والله .. وإني لموقن أن هذا الانتصار الذي أحرزه المجاهدون من المسلمين في صد غارات المستعمرين إنما هو قبس من نور هذا القلب الذي يبيت يناجي ربه في ظلمات الليل : يارب أهلك الظالمين بالظالمين وأخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين .

وإليكم بضعة أبيات رقيقة من مقطوعة جفرية أملاها عليّ عليه السلام قبل أن تعلن الحرب في الحبشة يتوجه إلى الله ضارعاً أن يمحى الظلم وأهله، ويتميز غيره وألماً لتحكم هؤلاء الطغاة في الأرض بغير الحق . ولو سألتموني رأيي لقلت أن تلك الثورات المشتعلة في كل مكان قد انفجرت من بين هذه الأبيات :

يا وحشَ رومًا تـأدب فلسـتَ كـسـري وقـيـصر
وطـعـنة القـهـر تـأتـى وأنـت كـالثـوب تنـشـر
كـبـير لـنـدن فـاحـذر فـالـلـه ربـك أكـبـر

أيها السادة : ولقد أراني هذا الطور الأخير ما لم أكن رأيت، وعلمني من تلك الذات ما لم أكن أعلم . وكنت أود أن أطيل في هذا الصدد، ولكن جمال هذا العيد قد طغى على جلال العلم والشهود . وقد أذهلني نشوة الفرح عن كل ما شهدت وعلمت .

سيدي ومولاي : لم يبق إلا شيء واحد هو الذي يحز في صدري ويملاً قلبي ألماً ونفسي ندمًا : ذلك أنك وفيت لنا كل الوفاء ونحن لم نستطيع أن نوفي لك بعض فضلك ولا أن نقوم بذرة من شكرك أو شكر الله على نعمته علينا بك، بل ليس فينا من يستطيع أن يرفع وجهه ليطيل النظر إلى وجهك المتأليء الجميل دون أن تصبغه حمرة الخجل وتحتبس في عينه دموع الندم، لقد كان هذا الطور الأخير محنة لنا وفتنة . ولقد سنحت لنا فرصة كنا نستطيع فيها لو وفقنا الله أن نقيم الحجة على صدق الدعوي وحسن الاتباع، ولقد كان أدبي ما تستحق منا أن نبذل في سبيلك النفس والنفيس وأن نوصل على أعتابك الليل بالنهار، ولكن عجزنا عن الوفاء لك هو شفيعنا اليوم إليك، ولا زلت يا سيدي أهلاً للإحسان ولا زلنا أهلاً للإساءة، لكن كانت شيمتنا الذنوب فإن شيمتك ستر العيوب والأخذ بيد العاثر القاصر، وإن فرحتنا بشفائك هي عزاء حسرتنا على التقصير معك، فتجاوز يا سيدي عن جهد المقل فأنت للعفو والحنانة أهل . والله نسأل أن يعيد علينا هذا العيد السعيد ومثله معه ونحن في ظل هذه الدوحة الوريث من ثمارها ونسبح في

أنوارها، وأن يجعلنا يا سيدي من أهل معيتك يوم يظهر الله بك دينه على الدين كله .. إنه سميع مجيب .

وقبل الوفاة بحوالي ثلاثة شهور، توجه الإمام إلى مسجد سيدي زغلول برشيد (يوم الأحد ١٩ ربيع الآخر ١٣٥٦هـ) وصلي كثيراً، ثم زار المقام، ووقف في المكان الذي ولد فيه منذ حوالي سبعين عاماً قمرياً عندما زارت المقام أمه وهي حامل فيه ثم فاجأها المخاض وولدت له . لقد اشتاق الإمام إلى مكان ولادته ليشاهد معاني وجوده وفضل الله عليه طوال سبعين عاماً، ثم سلم على أبيه وسلم على أمه من هذا المكان اعترافاً بفضل الله عليهما في إبرازه للحياة، وألقي هذه القصيدة في مقام المواجهة والحضور فقال :

هنا استحضري روحي افتتاح وجودي لدي ولدتي الأم .. بدء ورودي
بمسجد زغلول ولدتُ وها أنا وبعد مشيبي جئتُ للتجديد
أزور مكان ولادتي بعد شيبتي وأسأل ربي مُبدئي ومُعَيدي
جمال العطايا في مشيبي ولاية أنال بها الزلفي لدي تفريدي
بمسجد زغلول حضرت لأجتلي معاني وجودي حال فك قيودي
سلام على أمي، سلام على أبي أنلني إلهي الكشف حال شهودي
أيارب فاحفظني لدي شيخوختي وهب لي إلهي الخير فضل مزيد
وكن لي حلي وفي كل رحلتي بفضلك والإحسان غير جهود
أيارب أشهديني وكل أحبتي جمالك يا وهاب جود ودود
بأرض رشيد عند زغلول لاح لي جمال افتتاح البدء حال ورودي
تذكرت بدئي بعد سبعين حجة فشاهدت أطواري وصح وجودي

كأني طفل بعد سبعين قد مضت من العمر هب لي يا ولي قصودي
أنلنا العطايا واسعات إنها أدر لي الصفا من حوضك المورد
وسيلتنا طه الشفيع محمد وأهلي وأحبابي وكل مريد
جوار رسول الله أكمل مرسل أدار علينا خيرة التوحيد
وكان الإمام عليه السلام قد أملي في جموع الإخوان جملة من الوصايا، أحس الجميع
منها بقرب مفارقتة للدنيا، وقد تأثر إخوانه أيما تأثر عندما خاطبهم متمثلاً قول
الإمام الغزالي (١) رحمته الله :

قل لإخوان يروني ميتاً ليس والله بالميت أنا
أنا عصفور وهذا قفصى طرت منه إلى دار هنا
لا تظنوا الموت موتاً إنه حياة وهو غايات المني
لا ترعكم هجمة الموت فما هو إلا نقلة من ها هنا
ثم أخذ يلاطفهم برحمته المعهودة ويواليهم بعظاته ويسري عنهم ما ألم بهم .

وأثناء تواجده بمثل الأخ محمد عبد ربه بالاسكندرية قبل الوفاة بشهر، أملي عليه السلام :
مولاي أسرع بي إلى الوجه إني فنيت عن الأولاد والأهل
إني فنيت عن الدنيا ولازمها وعن بنيتها، عن الأولاد، عن أهلي
مولاي أنت ولي والوكيل فكن عوناً لهم، يسرن لي سيدي سؤلي
مولاي فاغفر لي ذنبي وأكرمني بالعفو وارحم عبيداً جاء بالذل
مني سلام على أهلي على ولدي أستودع الله من أبقيت بالفعل

(١) وقيل إنه قول السهروردي عند وفاته .

كذلك من مرضوني أبتغي لهمو خيرا عميما وحسني واهب الطول
وزج بي في رياض القدس مشرقة أنوار وجهك بالغفران والوصل
مني عليهم سلام الله أسأله يُعْطِيَهُمْ خيره في الفعل والقول
عقوا الأبوة فاغفر سيدي لهمو وخذ عُيْدَكَ للجنات في سهل
مختار ريحاني مهديّة بنّي^(١) قد تبت فاغفر لي يا واسع الفضل
الدار دار غرور كلها ألم^(٢) أرجوها وله من فضله الكلي
كونوا مع الله في أدواركم فعسى أن تمنحوا فضله بالحوّل والطول
يارب صل على المختار سيدنا في القبر وسع لي واجعل به وصلي

وعندما استشعر العزائم شدة المرض ودنو الأجل وقرب ساعة الرحيل إلى الرفيق
الأعلي، أمر الإمام أن تفتح خزانته، وأخرج كل ما فيها من نقود، ووزعها على
أولاده وأهله وذوي رحمه ولم يبق منها شيء لأنه لا يريد أن يخرج من الدنيا وفي
بيته شيء منها تأسيساً بالنبي ﷺ وآله في إخراج ما في بيته قبل انتقاله إلى الرفيق
الأعلي عندما كان آخر عهده بالدنيا، ثم نقل الإمام إلى ((مستشفى بابا يني))
بالدقي صباح يوم الأحد الموافق ٢٦ رجب ١٣٥٦هـ حيث أجريت جراحة
لتوسيع مجري البول وخرج الأطباء على إثرها مستبشرين، وكان ولده الأكبر السيد
أحمد ماضي أبو العزائم ملازماً له .

وبعد فجر يوم الاثنين ٢٧ رجب ١٣٥٦ هـ كان الإمام نائماً في سريره، فلما
تحرك أسرع السيد أحمد ماضي أبو العزائم إلىه وقبل يده، فقال الإمام له : لا

(١) أولاد الإمام من السيدة عزيزة السماحي زوجته الثالثة .

(٢) العارفون كانوا يقولون عن الدنيا إنها دار أمل، ولكن الإمام أبو العزائم أخبر بأنها دار ألم .

تترعج يا ولدي .. أنا مع الأحبة، يا ولدي : أعطي فلاناً كذا وفلاناً كذا ..
واجعل مختار ومهدية في عينيك .. ثم توجه لأعلي جهة اليمين رافعاً يديه قائلاً :
مرحباً برسول الله .. مرحباً برسول الله .. مرحباً بقضاء الله، ثم هم ليقوم وكأنه
يقبل شخصاً فتدلت يديه إلى جواره، وهنا تحقق نجله من نزول القضاء، وصعدت
روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلي بعد حياة امتلأت بالجهاد لم يهدأ له فيها بال نشر
فيها العلم بلسانه وقلمه ونافح عن الإسلام وترك من ورائه تراثاً فكرياً ومدرسة
رائدة في الدعوة إلى الله لا يزال نورها يملأ الأفق .

وما أن ذاع الخبر حتى أقبل أبناءه وتلاميذه وأجباؤه يهرعون من كل صوب،
ونظروا إلى الإمام نظرة أخيرة، وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً نقل الإمام إلى
سراي آل العزائم بالحنفي مسجي على سريريه في حجرته الخاصة التي أعد فيها
روضته من قبل .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر نودي لصلاة الجنازة، وتقدم نجل الإمام الأكبر
السيد أحمد ماضي أبو العزائم عليه السلام لصلاة الجنازة، وألحد الإمام في روضته.

وهذا ما شاء الدائم الذي له الخلق والأمر، دعا الإمام إليه بعد أن أدي الأمانة
وقام بالتكليف وأرسي القواعد وشيد البنيان وترك الأبناء والأحباب والمريدين على
الصفاء والوفاء والمحبة، واستودعهم ذخيرة لا تنفذ من العلوم النافعة والسيرة الزكية
العطرة، وتلك سنة الله في خلقه ورسله، قال تعالى :

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾^(١).

(١) سورة الأحزاب آية ٣٨ .

ثم أذن لصلاة العصر، وبعد أداء الصلاة أقيمت الحضرة، ووقف الشيخ عبد
الباسط القاضي ^(١) وقال :

يا آل العزائم ، يا آل العزائم، يا آل العزائم : إن آل العزائم جميعاً كانوا
يُحشون هذا اليوم وكانوا يعملون له ألف حساب، وكان كل فرد من آل العزائم
يحب من صميم فؤاده أن يسبق هذا اليوم إلى الدار الآخرة ويكون الإمام الوارث
مشيعاً له إلى مقره لا مشيعاً، ولكن الأجل المحتوم والقضاء السابق قضى علينا أن
نكتوي بناره وأن تستعر قلوبنا بحجيمه، ووالله لولا سكينه من الله ألقاها وتمكن
الإمام في مقام العبدية حياً في الدنيا وحيّاً في برزخ القرب الإلهي لصعقت أرواح
الكثير منا وللحق به في هذا اليوم العدد الوافر، ولكن المواهب الحنانية والرحمة
العزمية التي غمرنا بها الزمن الطويل لم تزل توالينا، ولم يزل نور عطفه ولطفه وودده
من حوضه يسقينا، وشمسه أبداً مشرقة علينا، وأمثله في كل شعب وواد وصوره
التي صورها له الحق إكراماً في الكرة الأرضية لا حصر لها، والنفوس التي زكاها
بعلمه وعمله وحاله ظاهرة للعيان لا تخفي إلا على من أعماه الهوي وأبعده الحظ
والحياة الدنيا، وكيف لا يكون المثال محفوظ والإمام قد أدّى الأمانة وبلغ ما والاه
به مولاه . فهذا هو يا آل العزائم كوكب شمس أمامكم ودرة كتزه صوبكم : بنجله
الأكبر ونائبه الذي اخترتموه في حياة الوارث وأقركم على ذلك ~~عليه السلام~~ . فهذا اليوم
فبايعوه وأجمعوا أمركم وسيروا في طريق إمامكم واعلموا أن الله وليكم وناصركم
والممدد واصل إليكم، لأن العطايا الإلهية والمواهب الأحمدية التي كان منها يمدكم لم
تزل أبد الآبدين ودهر الداهرين، وقد بينها ~~عليه السلام~~ ووضحها حتى أصبحت تحس

(١) أحد تلاميذ الإمام .

وتجس وكتب عنها نظماً ونثراً إجمالاً وتفصيلاً قال : إذا زكت النفوس فهي كالشموس، وإذا صفت القلوب واجهت علام الغيوب، وقال واصفاً لنور المصطفى ومعرفاً :

لا يغيب النور عن أهل اليقين كيف ذا والنور في الأفق المبين
نورنا شمس علت تدعو إلى ربنا المعبود مولانا المتين
لم تغب شمس الحبيب محمد وهي نور الروح فوقني عن يمين
من يقل غابت فذاك لحجبه كيف يخفي نور رب العالمين ؟
شمسنا طه الحبيب المصطفى لم تغب يا طالب الحق اليقين
نورتنا الشمس أصبح نورها مشرقاً في كل فرد في أمين
ربنا آنس بنورك روحنا كي نري النور بعين المستبين
في حضور في غياب لم تغب شمسنا والشمس غابت عن ضنين
أيما كانت يعم ضياؤها تشهد لها الروح في عين اليقين
ولكن لا بد للهيكل من رمز ومظهر . وقد أقام سيدي ومولاي السيد محمد
ماضي أبو العزائم عليه السلام رمزه الجسماني ومظهره في الأمانة وفرعه الأكبر والجميع
عنه راضون : السيد أحمد ماضي أبو العزائم عليه السلام.

وإني أشهد الله ورسوله ومولاي السيد أبو العزائم عليه السلام أني في هذا اليوم بايعت
من أقامه مولاي نائباً وفاء لولي نعمتي ومربي روحي ومنقذي من الضلالة إلى
الهدى، إني أباعه على كتاب الله وسنة رسول الله التي بايعنا عليها وعلي القيام
بأوامر الإمام وبتنفيذ تعاليمه، وإني لا أملك إلا نفسي ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم، فمن شاء أن يوفي لمولانا وأستاذنا بالعهد ويحفظ له البيعة فليتقدم .

وهنا تراحم الإخوان على تقبيل يد السيد أحمد ماضي أبي العزائم عليه السلام ومبايعته
خليفة لوالده عليهما السلام بقلوب مفعمة من البكاء حزناً وألماً على هذا السيد
الأكبر، وفرحاً وسروراً في الآونة على هذه التولية التي نالت من قلوب الجميع
مكاناً سامياً له قيمته عند الإمام العارف .

التجديد الديني في القرن الرابع عشر الهجري

(عصر الإمام)

- ١- الإمام وتفسير القرآن .
- ٢- الإمام وتفسير الحديث .
- ٣- الإمام وعلم التوحيد .
- ٤- الإمام والنفس البشرية .
- ٥- الإمام وحملات التبشير .
- ٦- الإمام والإصلاح الاجتماعي .
- ٧- الإمام والتصوف .
- ٨- الإمام وعلم الفقه .
- ٩- الإمام والسماع .
- ١٠- الإمام والقصة .
- ١١- منهج الإمام في الدعاء .

إن الكون منذ بداية الخليقة كان يتأهل لظهور النبي والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ وآله، ويمكن القول إنه بظهور البعثة المحمدية .. فقد فتحت جامعة خاتم الأنبياء والمرسلين بابها على مصرعيه لكل من على الأرض لأن الله قد أرسله للناس كافة بشيراً ونذيراً .

ويمكن القول أيضاً إن الكون من حيث التأهيل العقلي لبعثة الرسالة الخاتمة تدرج كما يأتي :

- ١- من عهد سيدنا آدم إلى عهد سيدنا نوح كان كمدرسة ابتدائية .
- ٢- ومن عهد سيدنا نوح إلى عهد سيدنا إبراهيم انتقل الكون إلى مدرسة إعدادية.
- ٣- ومن عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد سيدنا عيسى ارتقي الفكر الديني عن ذلك ففتح الكون مدرسته الثانوية .
- ٤- وبعد أن مهد الكل لظهور بعثته ﷺ وآله، فتحت الجامعة الكلية أبوابها بمختلف كلياتها وشعبها وتخصصاتها، فوضع رسول الله ﷺ وآله حجر الأساس للعقيدة الحقة والعبادة الخالصة والمعاملة الحسنة والأخلاق الفاضلة، وظل رسول الله ﷺ وآله يرتقي بالأمة الإسلامية حتى تم لها مكارم الأخلاق مصداقاً لقوله ﷺ وآله :

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١). وبعد أن اطمأن رسول الله ﷺ وآله على الأمة وتطبيق المنهج قال : (إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل بظل

(١) البخاري ومسلم .

شجرة ثم راح وتركها^(١)، وبذلك تركنا على الحجة البيضاء ليلها كنهارها، ثم قال : (إن عبداً خيراً فيما عند الله وما عند الناس فاختر ما عند الله) واختار الرفيق الأعلى .

إن الله لم يطل في عمر حبيبه ومصطفاه ﷺ وآله ﷺ بالرغم من أنه داعي الخير الأعظم، وعلي جانب الشر فقد أعطي الله تعالى إبليس النظرة إلى يوم الوقت المعلوم بناء على طلبه، ولذلك فقد طلب الرسول ﷺ وآله ﷺ من ربه أمرين وهما: القرآن، ومن يقوم بالقرآن .. فأمنه ربه فيهما .

١- لقد طلب رسول الله ﷺ وآله ﷺ من ربه ضماناً للقرآن حتى لا يُحَرَّف ولا يُبدَّل . إذ لا كتاب بعده ليصحح كما صحح القرآن ما قبله من التوراة والإنجيل، فطمأنه ربه بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢)، وقال تعالى أيضاً له : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾^(٣) إلى آخر الآيات التي تدل على ذلك .

٢- ولما اطمأن رسول الله ﷺ وآله ﷺ على الكتاب طلب من ربه من يقوم بالكتاب بياناً وتبيناً فقال له : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾^(٤) .

ولما نزلت هذه الآية وسئل عنها رسول الله ﷺ وآله ﷺ قال : (يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها)^(٥)، وبناء على هذا الحديث

(١) الطبراني والحاكم والبيهقي وأحمد في مسنده .

(٢) سورة الحجر آية ٩ .

(٣) سورة فصلت آية ٤٢ .

(٤) سورة الرعد آية ٧ .

(٥) الحاكم وأبو داود في كتاب الملاحم والسيوطي في الجامع الكبير وابن حجر في فتح الباري .

فإنه يظهر في الأمة من يجدد الله به ما اندرس من معالم الدين وما خفي من سبل أهل اليقين، وقال ﷺ وآله: (العلماء ورثة الأنبياء)^(١) وقال أيضاً : (علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل)^(٢). والعلماء لا يورثون درهماً ولا ديناراً ولكنهم يورثون العلم والهدي والرحمة، وهذا الميراث لا يفني ولا يبلى، وهو المعنى بقول المصطفى ﷺ وآله: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي)^(٣)، ودليل عدم الفصل بين الكتاب والسنة قوله : (به) وليس ((بمها))، فالكتاب والسنة منهج واحد، والميراث واحد، وهي التركة المشار إليها بـ : تركت فيكم .

إن الله قد حفظ رسول الله في أمته بأتمته وبورثته، فقال لنا مبيناً ذلك :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٤)، وقال : ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾^(٥)، ولم يقل وفيكم محمد .. فلم يناده باسمه في القرآن أبداً إظهاراً لعظمة مقامه، بل بوظيفته الخالدة التي لن تموت أبداً .

حفظ الله رسوله في أمته بأتمته وبورثته، فأخبرنا ﷺ وآله منبها عقولنا عن ذلك بقوله : (حسين مني وأنا من حسين)^(٦)، وقال له ربه في كتابه العزيز :

(١) أبو داود وابن ماجة وابن حبان والبيهقي والحافظ الدميطي في المتجر الرابع .

(٢) كشف الغطاء للعجلوني حديث رقم ١٧٤٤، والفخر الرازي، وابن قدامة، والأسنوي، والبارزي، والياضي، وأشار إلى الأخذ بمعناه : التفتازاني وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلي والسيوطي في الخصائص .

(٣) الإمام مالك في الموطأ بلفظ [كتاب الله وسنة نبيه] .

(٤) سورة الحجرات آية ٧ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٠١ .

(٦) الترمذي وابن ماجة والبخاري في الأدب المفرد .

(وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّاجِدِينَ) ^(١)، أي تقبل أنوارك وعلومك وحكمك وسنتك في الساجدين، فكم من ساجد لا يتقبل الله صلاته، ولكن السجود هنا لمن سجد ظاهره وباطنه لله، والعبد إذا سجد بقلبه لله فلن يرفع أبداً وإن تقبل في دنيا الناس لكن حقيقته ساجدة لله، وهذا ما يعنيه ربنا في قوله :

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ ^(٢)، أي قلوبهم ساجدة لله عند ميبتهم وحقائقهم قائمة بقيومية الله وقياماً بحق العبودية له سبحانه وتعالى، ولذلك كان سيدنا على بن أبي طالب عليه السلام وكرم الله وجهه يقول :

(اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهراً مشهوراً وإما باطناً مغموراً) ^(٣).

وصدق الله العظيم فقد قال له : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ؟ أي يهدون بأمر الله من بعدك وعلي نهجك وسنتك، وهم الأئمة والورثة والعلماء العارفون بالله تعالى وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه تبارك وتعالى .

والوراثة ألوان مع اختلاف المراتب والمنازل، ولكل عالم قسط من الميراث على قدر سعة قلبه وتزكية نفسه واتصال روحه بأصلها ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ^(٤)، فالميراث موزع بين علماء الأمة، ولذلك وبإيجاز شديد تنقسم الوراثة إلى أربعة أصناف :

(١) سورة الشعراء آية ٢١٩ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٤ .

(٣) كتاب نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

(٤) سورة آل عمران آية ١٦٣ .

١- ورثة الأقوال : وهم حملة الشريعة الأمناء الممنوحون الفهم .

٢- ورثة الأعمال : وهم العمال الورعون .

٣- ورثة الأحوال : وهم أهل المواجد الروحانية الصادقة الذين يعيشون بيننا بأبدانهم وأرواحهم في الملاء الأعلى .

٤- الوارث الفرد الجامع : وكل صنف من الثلاثة السابق ذكرهم يتبعه مجاميع كثيرة، أما الصنف الرابع فهو فرد واحد على رأس كل مائة عام، ورث الأقوال والأعمال والأحوال وراثته كاملة ومنح الزيادة، وهو المعني بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي أن الكل ورثة بقدر مراتبهم ومقاماتهم وبقدر ما أهلوا له روحياً وعلي رأسهم فرد قمة .

وكان إمام العصر ينضم تحت لوائه أفراد يكرمهم الله بمعرفته، فكما يذكر الإمام الشعрани في كتاب الطبقات الكبرى في باب الأولياء أن من أكبر الدلائل على إمامة الوارث الأكمل لعصر من العصور أن يسلك على يديه علماء ربانيون ورثة للأنبياء، وكم انضم تحت لواء الإمام أبي العزائم عليه السلام رجال أفراد كمل ليتحملوا على يديه ويمنحوا من رهم المزيد، تركوا دنياهم ومناصبهم الدينية العالية ليدخلوا إلى حضرته تلاميذاً يتعلمون من جديد .

وقد ورد في الأثر في فضل العلماء أن دماء الشهداء يوزن ومداد العلماء يوزن، فيرجح مداد العلماء، لأن الشهيد ضحي بدمه في سبيل إرساء قواعد الدين، والعلماء جاهدوا بألسنتهم وقلوبهم وتلك هي صفة الأنبياء كما أخبر ﷺ وآله عليهم السلام : (إنما بعثت معلماً)^(١)، ولذلك فقد ورد عن الإمام الشافعي رحمته الله وأرضاه أنه

(١) ابن ماجه والغزالي في الإحياء

كان يطلب من تلميذه الربيع الحيزي أن يحتفظ بمخلفات بري أقلامه البوص حتى كوم منها أكواماً كثيرة وهو لا يدري ما يريد الإمام من ذلك، إلى أن جاء الوقت الذي أملي فيه الإمام وصيته، فطلب منه أن يجعل من هذه المخلفات الوقود لتدفئة ماء غسله ﷺ، وهذا سر قول الله تعالى : ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾^(١).

والورثة هم الأئمة القائمون، وفيهم يقول الإمام : أئمة الهدي هم الروح السارية في الجسد الإسلامي ليحيا حياة طيبة عاملاً لله ولرسوله ﷺ وآله ﷺ، وهم خلفاء رسول الله ﷺ وآله ﷺ الذين يحفظ الله بهم شريعته ويعينهم فيسيرون في الناس بسيرة رسول الله ﷺ وآله ﷺ محافظين على الأحكام من أن يغيرها أو يعمل بخلافها المفسدون وهم على يقظة تامة بحراسة الشريعة المطهرة وتعظيم شعائر الله تعالى وإقامة حدوده سبحانه والمصارعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم الذين يمنعون الجاهلين من أن يسيروا بغير سيرة رسول الله ﷺ وآله ﷺ خوفاً من ضياع الشريعة وفساد جماعة المسلمين بما يقوم به أهل الضلال بين العامة فيغيرون أحكام الله تعالى بالبدع والضلالات بآرائهم الفاسدة وعقائدهم الزائغة بالكيدهم والخديعة التي يخدعون بها قلوب العامة فيخرجونهم من حصن الشريعة المطهرة ويوقعونهم في مساخط الله تعالى ومخالفة رسول الله ﷺ وآله ﷺ، وهؤلاء الأئمة بهم قوام الدين وحياة الشريعة وحفظ أركانها، قال سيدنا عثمان بن عفان ﷺ : (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن) .

(١) سورة يس آية ١٢

إذا تهاون أئمة المسلمين في القيام بواجبهم تمكن الخوارج المفسدون من الأمة فأفسدوا العامة وشغلوا الخاصة، وإن الخارج على المسلمين بسيفه أخف ضرراً عن الخارج بعقيدته الزائغة ورأيه المفسد، لأن القلوب تميل إليه فيتفرق المسلمون بعضهم على بعض، لأن الأمة ما اتحدت على الحق فإن الله معها ورسول الله ﷺ وآله ﷺ معها، ومتى اختلفت الأمة التفت الله بوجهه الجميل عنهم ووكلهم إلى أنفسهم - قال تعالى : ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ^(١).

ويقول عنهم أيضاً : وورثة الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم هم الذين أثني الله عليهم في كتابه العزيز، وهم الراسخون في العلم، آمنوا بكل الكتاب وسلموا لله متشابهة وعلموا بمحكمه وأقبلوا على الله تعالى بقلوبهم ملتفتين عن الدنيا بالكلية وعن الآخرة . ولولا أن الله تعالى رغبهم .. لما رغبوا فيها .. وهم نوعان : نوع تولاهم الله فجذبهم إليه به جل جلاله وملأ قلوبهم علماً به وخشية منه وهم أصفياء الله السابحة قلوبهم في ملكوت الله تعالى، تراهم على الأرض مع الناس وقلوبهم في الرفيق الأعلى، انكسرت قلوبهم من خشية الله فصمتوا إقبالاً على الله بالقلوب والجوارح وغابوا عن الكون الأدني بالكون الأعلي وعن الكون الأعلي بالعلي العظيم . صغرت الدنيا في قلوبهم فنظروا إليها بعين ملؤها البغض فيها والزهد في زينتها، سقاهم ربهم شراباً طهوراً فغابوا عن أنفسهم بعد معرفتها غيبة ذكرتهم بنشأتهم الأولى والأخري فكانوا إذا لحظوا أنفسهم لحظوا عدماً وطيناً أو ماء مهيناً وشهدوا النعمة بالمنعم والفضل للمتفضل والوجود بالله، والحياة بالحي والقيام بالقيوم، فكان الحق جل جلاله معالم بين أعينهم لا يغيبون إذا غاب الناس

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

ولا يحجبون إذا حجب الناس، وهم أولياء الله حقاً وأصفياءه صدقاً، وهم ورثة رسله وأبدال أنبيائه والصديقون من عباده رضي الله عنهم^(١).

ويقول عن وظائفهم : ووظيفة ورثة رسول الله ﷺ وآله ﷺ معالجة النفوس الجائحة إلى الغواية وتزكيتها من أدران الأخلاق الفاسدة وتطهيرها مما ألم بها من فساد الوهم أو اختلال الخيال أو الهبوط إلى أفق البهيمية لعدم تناسب الأعضاء أو الإخلال إلى الأرض بسبب ما اكتسبته النفوس من المجتمع الذي نشأت بينه فتراهم دائماً يميلون إلى أهل المعاصي، ويألفون أهل الأخلاق التي ليست على الوسط بما وهب الله تعالى لهم من الحكمة والعلم بأمراض النفوس، ولذلك فقد قال سيدنا عيسى عليه السلام عندما أنكر عليه اليهود صحبة الأشرار له : إنما أنا طيب، وإنما يميل الطبيب إلى المرضي، وكذلك العلماء بالله تعالى هم أطباء النفوس^(٢).

ومن وظائفهم أنهم يبينون للنفس سبيل الله تعالى لأنهم سرج الدنيا ومصايح الآخرة فهم النور الذي تستبين به محجة الله تعالى وتقوم به حجته سبحانه، وكما أن الشمس تبين محجة المنافع وطرق المواصلات لنيل الخيرات من زراعة وتجارة وإمارة وغير ذلك، فكذلك أهل المعرفة بالله شمس تنبعث منها الأنوار التي تستبين بها طرق الله تعالى ويظهر بها الصراط المستقيم . وهم أنفع للمجتمع من شمس النهار المشرقة ضحوة، لأن الشمس تبين طرق الأرض وهم يبينون طرق الله تعالى الموصلة إلى الخير الحقيقي والسعادة الدائمة، وشتان بين الشمس التي توصل إلى

(١) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٣١ (٢٠ المحرم ١٣٥٦ الموافق ٢ إبريل ١٩٣٧)

(٢) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٢٨ ص ١١ (٢٩ ذي الحجة ١٣٥٥ الموافق ١٢/٣/١٩٣٧).

المقصود التي نهايتها الموت وبين شمس توصل إلى المقصد الأعظم الذي هو رضوان الله تعالى والفوز بجواره في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ولما كانت هذه الوظيفة هي أعظم وأجل وأنفع الوظائف للمجتمع، كان لهؤلاء القوم في القلوب محبة وهيبة .. ويخضع لهم ذو جلال، يهابهم السلطان ويحبهم المؤمنون ويتوسل بهم العامة .. كل ذلك لما جملهم الله تعالى به من الأخلاق الجميلة والرحمة والرأفة ولين الجانب، ولما أطلق به ألسنتهم من الحكمة والموعظة الحسنة، ولأن النفوس لها ميل إلى القوة التي فوق الأسباب وقد فطرت على التقرب إلى الله تعالى بأهل التقوي، فنري جميع النفوس تحب المتقين وخصوصاً المبالغين للعزلة عن الناس المشغولين بذكر الله تعالى، الزاهدين فيما في أيدي الناس من أهل الصفاء والإقبال على الله بالكلية .

ولا يعترض على معترض فيقول : إن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم عاداهم أهل الكفر بالله تعالى، فأجيبه أن رسل الله صلوات الله عليهم تحدوا الناس بدين الله تعالى وأقاموا الحجة على الخلق بما جاءوا به من عند الله تعالى وعرضوا أنفسهم على العالم وبينوا للناس عاقبة ما هم عليه من الضلال والكفر بالله تعالى، فكان ذلك موجباً لمعاداتهم، أما أهل الصفا من أولياء الله تعالى فإنهم لم يكلفوا بالتحدي ولم يطالبوا بدعوة الناس إلى الحق لفرارهم من الخلق وإقبالهم على العبادة والتنسك، ولكن الناس يألفونهم ويتقربون إليهم لافرق بين المسلم والكافر لا لطلب العلم فقط بل لأغراض أخرى، يعتقدون أن الله تعالى ييسرها لهم ببركتهم، وباجتماع الناس عليهم يشرح الله صدورهم لما يسمعون من العلوم التي تزكي النفوس إلى الاستقامة أو إلى الإسلام، وكم أسلم مشرك على أيديهم وكم استقام عاصي واهتدي فاسق . ولا عجب فإن الله تعالى يلقي محبة منه على من اجتباهم

من عباده بقدر ما يوفقهم له من القربات ومن إقبالهم بظواهرهم وباطنهم على الله تعالى، فإذا منحهم الله لسان البيان والحكمة وبلغ أحدهم من المقامات ما صار به وارثاً لرسول الله ﷺ وآله، كان من التمكين بحال به يحبه أهل الإيمان والتقوى، وكان ممن قدر الله لهم السعادة، فيغضه أهل النفاق والكفر، فيكون لهم قسط وافر من سر الأنبياء وسيرهم صلاة الله وسلامه على نبينا وعليهم وهم خلفاء رسول الله ﷺ وآله وأمناء الله تعالى على شريعته .

إننا نتكلم عن أئمة الهدي الذين يظهرهم الله بتجدد الأزمنة فيقومون كالأنجم المضيئة في المجتمع الإسلامي، إما بقول وعمل كالعلماء، وإما بعمل وحال كالعباد الزهاد، وإما بحال ومجاهدة جامعة وبيان كورثة رسول الله ﷺ وآله، وليس برجل من لم يكن منهم أو معهم .

ومعلوم أن الرسل صلوات الله عليهم لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولا كنوزاً ولا عقاراً، وإنما ورثوا هدي ونوراً وبياناً وأخلاقاً طاهرة ومعاملة لله خالصة ورحمة على الخلق وحناناً ولما كانت النفوس تتفاوت جواهرها استعداداً وقبولاً، وكان نيل هذا الفضل العظيم إنما هو بفضل الله تعالى، وكان من أعظم الفضل ظهور وارث لرسول الله ﷺ وآله، ومتى تفضل الله تعالى على العالم بوارث دل ذلك على عميم إحسانه على أهل عصره، ولكن لا بد هنا من الميزان الذي يزن به السالك نفسه ويزن به غيره .

ومعلوم أن الاتصال بالوارث الحمدي سبب لفهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وآله، وتزكية النفس، وتعليم مالم يعلمه الإنسان بالدراية وطول الدرس والمذاكرة كما قال الله تعالى : ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ فما من سالك مع الوارث إلا ويهبه الله قسطاً من تلك المعاني، وتلك العطية تمنح بفضل الله وتحفظ ويحصل النفع بها بأمرين عظيمين :

الأمر الأول : الأدب مع من جعله الله سبباً لهذا الخير .

الأمر الثاني : شكر الله على تلك النعمة الذي به المزيد مع مجاهدة النفس خوفاً من الغرور بنسيان المرشد .

العلماء الربانيون والراسخون في العلم وهم النور المشرق المبين لمناهج القرآن وأحوال رسول الله ﷺ وآله، يكشف الله تعالى لهم غوامض أسرار القرآن ويمنحهم الحكمة والبيان، ويلهمهم الصواب في القول والعمل والحكم، ويمدهم بروحانية رسول الله ﷺ وآله، وهم الذين اشتاق إليهم رسول الله ﷺ وآله في الحديث الطويل واشتاق إليهم سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في حديث كميل في قوله : واشوقاه إليه — وهم الذين أثني الله عليهم وأخبر أنهم أولو الأمر من المسلمين بقوله : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (٢) ولو كانوا مجهولين أخفاء لا يعرفهم أحد فإنهم معروفون لله، معروفون للملأ الأعلى . وكل واحد منهم شمس يضيء لأهل السماء كما تضيء الشمس لأهل الأرض، وهم العرائس ضنائن الله تعالى في أرضه لا يوصل الله تعالى إليهم إلا من سبقت لهم الحسني وقدر الله لهم الوصول إليه سبحانه وتعالى باتصاله هؤلاء الأخيار . أولئك والله الأئمة الهداة يرحم الله بهم وينظر إلى من شاء من عباده في قلوبهم، ذرة من أعمال قلوبهم خير من أعمال الجوارح الدهر كله .. وهم الذين أكرمهم الله تعالى .. فكان معهم وجعلهم معه سبحانه،

أرضاهم عنه ورضي عنهم، لا تفي عباراتنا بأحوالهم ولا تكشف إشارتنا مباديء شهودهم في وجودهم - قال تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(١).

ومن صفاتهم إخفاء حالهم وستر مقاماتهم، فلا يقهرهم ولا يشغلهم مقام ولا يغضبهم مؤلم، يغضبون لله ويريضون لله، تراهم منقبضين على بساط المؤانسة وخائفين وهم في حصن ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٢) وفي خشية وهم على موائد إكرام الله تعالى لهم بالاستجابة - قال ﷺ وآله : (رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ)^(٣). كمل والله توحيدهم شهوداً فأفردوا ربهم بالعزة والجلال والعظمة والكبرياء والعطاء والمنع والضر والنفع، فذلوا للحق ولأهل الحق ذلاً للحق، وعزوا على الباطل وعلي أهل الباطل كراهة لما كره الله وحباً لما أحب الله . ذلوا للمؤمنين كما أمر الله تعالى وعزوا على الكافرين إعزازاً للحق، صغرت الدنيا في أعينهم عن أن تشغلهم عن الآخرة نفساً .. فكيف تشغلهم عن الله تعالى ؟! إذا رعووا ذكر الله، مجالستهم تجذب النفوس إلى حضرة القدوس ومحبتهم تحبب في الله، والقرب منهم تقريب من الله تعالى - قال ﷺ وآله : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ حَبَبْتَنِي فِيكَ) وكلام رسول الله ﷺ وآله هنا يوقظ قلوب المؤمنين إلى محبة أهل المعرفة بالله تعالى المقبلين على

(١) سورة السجدة آية ١٧.

(٢) سورة الأنعام آية ٨٢.

(٣) مسلم والطبراني والترمذي والحافظ الدمياطي في المتجر الرابع.

الله تعالى بكليتهم، وهم الحياة لأهل عصرهم والنور لمن والاهم والنجاة لمن اقتدي بهم رضي الله عنهم ^(١) .

إن الذي أقنع الناس بإمامة أبي العزائم عليه السلام، وأنه الحجة وأنه الوارث الكامل لهذا العصر، وأنه الرجل الذي كان ينتظره الرجال ليتكلموا على يديه .. ما تخلق به من الأخلاق النبوية، إنه نعمة كبرى أنعم الله بها على أهل هذا العصر، ولذلك فإن الحديث عنه هو أيضاً حديث عن الدين، به علمنا الأخلاق الحميدة، وبقيت عندنا نغماته العذبة التي كان يشدو بها

وقد التقى الشيخ خضير، وهو شيخ طريقة صوفية من حضر موت، وهو أيضاً من أهل البصرة، مع المرحوم فضيلة العارف بالله الشيخ طاهر محمد السيد مخاريطه كبير وعاظ آل العزائم آنذاك، وكان ذلك في الأراضي الحجازية . تفرس الرجل في وجه الشيخ طاهر فوجد من سيما الصلاح والتقوي ما دعاه ليسأله قائلاً : أنت تابع أم متبوع ؟ فقال : تابع، فسأل لمن ؟ فأجابه الأستاذ طاهر قائلاً : لمولانا السيد محمد ماضي أبي العزائم. طلب الشيخ خضير - وكان يصحبه مجموعة من مريديه - أن يجلس معه قليلاً، ثم سأله على الفور : هل السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام سليل النسبين ؟ فقال الشيخ طاهر : نعم حسيني من جهة والده وحسني من جهة والدته، فرفع الشيخ خضير يديه إلى السماء وقال : إذن هو، فسأل وقال : أولد بمسجد ؟ فكان الرد : نعم ولد بمسجد سيدي زغلول برشيد، فقال الشيخ خضير : إذن هو، ثم سأل أكان يملّي أم يكتب ؟ فكان الرد بل يملّي، فقال : إذن هو، ثم سأل وقال : أكان ضَرَّاباً على فخذه إذا أبطأ الكلام ؟ فكان

(١) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٣٣ ص ٩ (صفر ١٣٥٦ الموافق إبريل ١٩٣٧) .

الرد : نعم . فقال : إذن هو، ثم سأل فقال : أله خال على وجهه ؟ فكان الرد : نعم، فقال : إذن هو، ثم سأل فقال : أفلج الركبتين ؟ فكان الرد : نعم، فقال : إذن هو، ثم سأل فقال : لأول خليفة له اسمه أحمد ؟ فكان الرد : نعم، فقال : إذن هو، ثم سأل فقال : أله زوجة حتى الآن أول حرف من اسمها هو ع ؟ فكان الرد : نعم اسمها السيدة عزيزة السماحي، فقال : إذن هو . فقام الرجل ووجه كلامه إلى أتباعه قائلاً : يا أبنائي إن لم نل من حجنا هذا العام إلا معرفة الإمام الختم أبا العزائم لكفانا، إنه تفوه بصلوات على رسول الله ﷺ وآله ﷺ لم يتفوه بها إمام قبله (فأعطاه الشيخ طاهر نسخة من الصلوات كانت معه)، إن حَمَلَة سر هذا الإمام في الكون سبعة لو أعطيت سرًّا من أسرارهِ على ما تفضل الله به عليه مت لساعتي . وانفض الحديث عند هذا الحد وانصرف فوراً^(١) .

قال الإمام عليه السلام مبيناً أسرار الرجال : نعم للرجال أسرار حجت عنها أهل العقول، سبحان من يهب الحكمة من يشأ . إن الحق تقدست صفاته وتعال آياته اختص من عباده قومًا اجتباهم للدار الآخرة فشغلهم بها، فأجسامهم في الدنيا عاملة على نوال تلك الخطوة التي تحققوا يقينًا بأنها ولا محالة كائنة ولا بد من الرجوع إليها، وأما لا تنال السعادة فيها إلا بنوال الوسيلة إليها في تلك الدار الدنيا، فوفق الموفق من أحب للجد والنشاط في كل ما به نوال تلك السعادة الآجلة في الظاهر العاجلة في اليقين، حتى بشدة صدقهم تحققوا أنهم يرون الجنة ويتمتعون بها عند العمل الصالح كما يتحقق التاجر بربح السلعة الراجعة ويجد في طلبها منشرح الصدر مرتبًا ماليته وما يربحه حتى كأنه قبل البيع قد ملك الربح في خزينته، فهؤلاء

(١) رواه الأخ أحمد بيومي من المحلة الكبرى

حدي بهم اليقين حتى ذاقوا لذة وقوع البشري والوعد كما يذوق المحقق لذة حصول النتيجة، ومنهم العاملون على نوال هذا الخير الباقي والنعيم المقيم واللذة الدائمة في الدار التي لا فناء فيها بعد أن يناله أو زوال من ناله عنه لقصور مداركهم ووقوفهم عند أملهم وهواهم حتى حسن لهم الحظ والهوي تلك الحظوظ الفانية فطلبوها، وقوي ذلك الرأي الناتج عن تلك الأميال، وزين مدد الرب لهم ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ ^(١) حتى رأوا حزباً يحسن ما حسنوا أو يقبح ما قبحوا، فسعي بهم ساعي المهلة إلى القول بالرأي والعمل بالهوي، فعلا ما هم : ألسنة تنادي بتقويم أود الدين وقلوب ملؤها الحظ والشقاق والتفرقة ومساعدة أهل السؤدد الدنيوي، وأبدان متعاصية على أعمال الدين ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي يُرَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ^(٢) الحج عندهم ساقط لأن الله أوجبه ولأنه بأرض بها آثار دينية مجردة عن الزينات والبهجة الدنيوية، فتري أعلمهم يري بلاد الكفر كعبة له والتحول فيها قربة لربه الذي يسعي في نواله، وأهل العقول القاصرة التي لا تمتد إلى كشف حقيقة السعادة إخوان لهم حتى حكموا أن الله ليس إلا كما يتخيلون محكوم عليه بعقولهم، لا يختص بسر غامض عن الأعضاء الحسية عبداً من عباده، وكيف يمكنه أن يفعل ذلك وقد حكم عقلهم السخيف عليه سبحانه بحكم لا يتعداه وفهم هذا الوهم الكاسد كتابه العزيز برأي حكم أنه مراد الله حقاً حتى لو كان الله مراد سواء لخاف الحق سبحانه من هذا الشريك وغير مراده بمراده .

(١) سورة مريم آية ٧٥

(٢) سورة النساء آية ١٤٢ .

تعباً لك أيها الغبي الغر، إن للرجال أسرار أذاقهم حلاوتها بعد أن هذب نفوسهم بتوفيقه وألبسهم حلل الذل والتسليم والمجاهدة لذاته وفي ذاته، منهم المجملّة أبدانهم بالعمل الصالح والخشوع والتواضع والذل، وقلوبهم بالثقة والتوكل واليقين والتسليم والتوجه إليه والرضا عنه والحب فيه والدعوة له بالحكمة والموعظة الحسنة، للرجال سر أخفاه حتى عن الملائكة حتى كان العبد المصطفى له سبحانه بيتليه، فإذا صبر اجتباه وإذا رضي اصطفاه بنص الحديث . لم يكن الدين أيها الغر كما تزعم عكوف على العمل الصرف للدنيا والغفلة عما أمر الله أن يعمل .. الدين عقيدة كما نص القرآن، وخلق كما كان الأنبياء، وعمل كما كان الصديقون، ومعاملة كما كان الحكماء الرحماء والكرماء، أكان الدين جدل ومعارضات ورأي وترجيح ؟ قم فتريض وزك نفسك وقف موقف الجاهل بنفسك أمام الحق ليفيض عليك علم من أنت، ولديها تذوق لذة أسرار الرجال ^(١) .

الإمام وتفسير القرآن

القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يلقى، وهو أجل من أن يحيط بكنهه وصف الواصفين، وهو كتاب توحيد وإيمان، وكتاب تشريع وسنن، وكتاب تأمل وعبادات وكتاب بلاغة وأدب، وقبل كل ذلك فهو كتاب جمع فأوعى، وفيه بيان كل شيء ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٢) ففيه أصول كل العلوم، وفيه الحكمة والموعظة الحسنة، وفيه كل ما يتطلب ويحتاج إليه الإنسان في نشأته

(١) مجلة المدينة المنورة : السنة ٢١ العدد ٨ ص ١٦ (١٤ ربيع أول ١٣٦٨ الموافق ١٤ يناير ١٩٤٩) .

(٢) سورة النحل آية ٨٩

الدينية والأخروية، وهو الكتاب الذي قال فيه المولى جل وعلا ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١).

والمفسرون رضي الله عنهم يدلي كل منهم بدلوه ليستخرج من علوم القرآن الكريم مايسره له الله جل شأنه وكل يحصل من القرآن بقدر استعداده وتوفيق الله له، ومع ذلك تظل الآيات تفيض الخير والشفاء والرحمة للمؤمنين في كل عصر، تحقيقاً لقول الله سبحانه : ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) فجعل الشفاء والرحمة للمؤمنين تترىلاً من القرآن وتتجدد المعاني القرآنية في كل عصر بحسبه، قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٣).

والتفسير في اللغة : الاستبانة، وفي الاصطلاح : علم يبحث فيه عن معاني ألفاظ القرآن وخصائصه، فالنظر في ألفاظ القرآن الكريم وحيث كونه كلاماً له دلالة ومعنى، والله تعالى فيه هدف وقصد، ومن أجل بيان هذه الدلالة وشرح المعنى وإيضاح القصد والإفصاح عن الهدف نشأ علم التفسير الذي تكفل بتلك الغايات، ولا بد لطالب هذا العلم من مؤهلات منها العلوم العربية بشتي أقسامها، وعلم الفقه وأصوله، ومنها علم الحديث، وعلم الكلام، ومنها علم التجويد والقراءات، ومنها أسباب النزول والناسخ والمنسوخ .

والإمام المجدد عليه السلام في تفسيره للقرآن المسمى (أسرار القرآن) ينتهج منهجاً فريداً من نوعه، يتميز بسلاسة عبارته، وعذوبة إشارته، وقوة حجته، ووضوح

(١) سورة ص آية ٢٩.

(٢) سورة الإسراء آية ٨٢

(٣) سورة القيامة آية ١٩.

بيانه، وتوضيح المبهم وإزالة المشكل فكأنك وأنت تقرأ له تفسيره كأنما أنت في جنة عالية الجمال والمذاق دانية القطوف والبركات ينفذ بعبارته إلى عقلك وبأنوارها إلى قلبك .

ولسنا في مقام المفاضلة بين مفسر ومفسر، لأن الله يهب من بيان القرآن وأسراره لمن اختصه بفضله ولا حرج على فضل الله، لكن الوسعة الإلهية اقتضت أن تتفاوت المقامات والمنازل والدرجات، وأهل البشري من الله هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وفي صدر تفسير الإمام المجدد لسورة البقرة تطالعنا العبارات التالية التي تعطي صورة من آدابه وتوقيره لأهل العلم جميعاً مع تفاوت مقاماتهم، فعند تناوله لشرح قوله تعالى : (الم) يقول عليه السلام :

معلوم أن العلماء بالتأويل تتفاوت مقاماتهم في العلم، فمنهم الراسخون فيه، ومنهم ومنهم، ولكل فريق تأويل في هذه الآية الشريفة وكلهم على حق لأنهم يجتهدون، والآيات الشريفة تحمل كل تلك المعاني، وقول بعضهم : الله أعلم بمراده، كلمة يقولها كل مؤمن ولو أطلعه الله على مكنون العلم، قال تعالى : (لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) ^(١) فمن شاء الله أن يحيطه بشيء من العلم أحاطه به، وعندني أن الله تعالى كشف تلك الحقائق لمن شاء ممن اجتباهم فعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

ثم يبين عليه السلام العديد من معاني (الم) حيث يروي ظمأ المشتاق إلى معرفة أسرار كلام ربه جل شأنه، وتسرح الروح في نور حد القرآن، وتتجلى حقائق

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥.

اليقين للنفحة القدسية في مطلع القرآن، وهذا في معني ما ورد عن رسول الله ﷺ وآله أن : ((لكل حرف من القرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً))^(١).

ويجري تفسير الإمام مع الآية حيث تجرى، ويكشف معناها حيث تشير، ويوضح دلالتها حيث تدل، فهو تفسير حكيم حينما تشتمل الآية على الحكمة، وهو تفسير أخلاقي حينما ترشد الآية إلى الأخلاق، وهو تفسير فقيه حين تتعرض الآية لفقهه، وهو تفسير اجتماعي حين تبحث الآية في الاجتماع، إذ أنه دائرة لمعارف القرآن ومحور جميع العلوم الإنسانية والكونية الإلهية التي جاء بها الإمام عليه السلام.

وكان للإمام المجدد عليه السلام مسلكان في تفسير القرآن الكريم :

أولهما: أن يفسره متسلسلاً وبالترتيب وقد ابتداءً ذلك بالسودان حيث خصص يوماً من كل أسبوع يجتمع فيه تلاميذه ويؤمهم الناس من كل مكان لسماع تفسيره، فإذا تناول الآيات بالشرح والتفسير استغرق في بيان معانيها واستولي اهتمامه بها على كيانه كله، ولا يكاد يفرغ من مجلسه هذا إلا وقد أجهد إجهاداً شديداً وظل يتصبب عرقاً .

ثانيهما : أنه كان إذا سمع القاريء يقرأ قبل الدرس آيات قرآنية، تناول الإمام تلك الآيات بالشرح والتفسير، وربما تعرض لتفسير الآية الواحدة أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يجلي فيها معان جديدة وألوان شتى من الدلالات والإشارات القرآنية العالية .

(١) الغزالي في إحياء علوم الدين وابن حبان في صحيحه .

ومع تصفحنا لـ (أسرار القرآن) ^(١) نطالع بعض المعاني التي تضمنها ذلك الأثر الإسلامي الجليل مثل :

حقيقة الأسماء التي تعلمها آدم ﷺ :

أنزل الله تعالى القرآن عربياً ليعين الخلق على تدبر معانيه، ولقد استطاع الإمام بإبراز بعض الجوانب النحوية أن يعطي مفهوماً جديداً على غير ما عهد الناس في معني قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٢) حيث كان المفهوم السائد في معني ذلك أن الله تعالى علم آدم أسماء المسميات - فقال ﷺ في قول الحق سبحانه : (ثم عرضهم) إشارة عالية حيث أتى بالهاء والميم المنبئة بأن المعروض من العقلاء .. وفي قوله : ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ بالإشارة إليها دليل على أن المعروض على الملائكة أسماء ظهرت معانيها جليلة في آدم وهي معاني الصفات التي لم يتجمل بها نوع من المخلوقات إلا آدم مشيراً إلى أنها معاني الصفات الإلهية التي جمل الله بها آدم ﷺ فصار مرآة تظهر للملائكة أسرار وأنوار تلك الأسماء . **الحكمة في أن الله**

أَخَّرَ الدِّينَ مَعَ أَنَّهُ مُقَدِّمٌ شَرْعاً عَلَى الْفَرَائِضِ وَالْوَصَايَا : عند تناول الإمام لشرح قوله تعالى : ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ^(٣) بين الحكمة في أن الله تعالى أخر الدين وقدم الوصية في السياق القرآني، فقال ﷺ : أخر الله الدين هنا مع أنه مقدم شرعاً على الفرائض والوصايا لحكمة أرادها الله تعالى، وهي أن

(١) أسرار القرآن : هو تفسير الإمام المجدد أبو العزائم ﷺ الذي تصدره مشيخة الطريقة العزمية على أجزاء تباعاً

(٢) سورة البقرة آية ٣١ .

(٣) سورة النساء آية ١١ .

الورثة لا يجدون مشاحنة في الدين، بل يدفعونه بصفاء من غير معارضة، ولكنهم يجدون في الوصية غضاظة في أنفسهم، فقدم الله الوصية حثاً لهمم الورثة، وأخّر الدّين لأنه لا مانع من تنفيذه، وعلى هذا فيكون الدّين مؤخراً شرعاً وتكون الوصية نافذة ما دامت في الثلث أو في أقل من الثلث، فإذا زادت الوصية عن الثلث كان للورثة الخيار في تنفيذه .

معني بياض الوجه أو سواده يوم القيامة :

في سياق بيانه معني قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ^(١) يقول : لما كان الهم حبس القلب، وكان القلب إذا نزلت بالإنسان مصيبة يحبس بها فيختلط دم الوريد الأسود بدم الشريان الأبيض فتسود البشرة، فيري السواد في وجه الإنسان عند همه، وإذا بشر بخير عظيم انبسط القلب، وظهر البياض واللمعان في وجه الإنسان . وأعظم الهموم هم يوم القيامة، خصوصاً إذا كب الكافر على وجهه في النار، فإن وجهه — أعاذنا الله منه — يعلوه السواد الفحمي .

وإذا أكرم المؤمن بالدخول في الجنة ؛ انبسط من الفرح، وعلاه نور الجنة فابيض وجهه، أخبرنا الله تعالى بذلك بشري للمؤمن، وإزعاجاً للكافر ليرجع إلى الله تعالى ويقبل على الإسلام .

ولك أن تقول : إنه مجاز عن سوء عاقبة الكافر وفوز المؤمن، وهو سياق عربي . وكثيراً ما نسمع من الناس تقول : فلان ابيض وجهه، إذا ظفر بحاجته أو دُفِعَ عنه .

(١) سورة آل عمران آية ١٠٦ .

سوء . ويقولون : فلان أسود وجهه، إذا أصابته مصيبة لا قبل له بها، نعوذ بالله من سوء القضاء وقضاء السوء .

ولما كانت رحمة الله تعالى وسعت كل شيء وقد سبقت غضبه، افتتح الآية ببياض الوجه فقال : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ) وجعل سواد الوجه في وسط الجملة، وبياضه في أولها وآخرها، ليطمئن قلوب المؤمنين ويفرحهم بالآية .

بيان الحكمة في أن للمرأة نصف ما للرجل من الميراث :

يتناول الإمام المجدد عليه السلام في الجزء الرابع ص ١٤٣ بياناً للحكمة في أن الله تعالى جعل نصيب الأنثى من الميراث نصف نصيب الذكر فيقول :

((وتلك الحكمة هي أنه جل جلاله جعل الرجل يدفع صداقاً للمرأة، وأوجب عليه نفقتها ونفقة أولادها منه، ولذلك جعل لها نصف ماله .

فلو فرضنا أن رجلاً مات وترك ولداً وبنثاً، وترك ثلاثمائة دينار، أخذ الولد مائتين، وأخذت البنت مائة واحدة، وبعد ذلك دفع الولد خمسين صداق زوجته، وأخذت البنت خمسين صداقها من آخر، فاستوي ذلك، فصار عند الرجل مائة وخمسون، وعند المرأة مائة وخمسون، فاستويا)) .

بيان حكمة الوضوء وحكمة التيمم :

يشير الإمام المجدد عليه السلام في الجزء الخامس من (أسرار القرآن) ص ٤١ فيقول:

((وهنا حكمة غريبة، وهي أن المراد من الوضوء طهارة الجوارح المحترحة مما لا يسته من صغائر الذنوب التي لا يتره عنها الإنسان، وهي فاتحة لطهارة القلب مما لا يسه من الهمم واللمم والنوايا والقصود المكروهة، ليعلم المتوضي أن الله ما أمره

بطهارة جوارحه لوجود نجاسة حسية عليها، بل ليوقط قلبه أن طهارته أولي من طهارة الجوارح، لأن الجوارح مسخرة للقلوب، فإذا أمر الله العبد بطهارة الآلات التي هي : العينان والأذنان والأنف والفم واليدان والرجلان، وليس لها في الحقيقة عمل، وإنما العمل منسوب إلى القلب لأنه سلطان الجوارح، فالواجب شرعاً أن يطهر القلب من باب أولي .

وما توضحاً من غفل عن طهارة قلبه وطهر جوارحه، لأنه طهر الجوارح التي يراها الناس وليس بها نجاسة حسية، وترك القلب الذي هو محل نظر الرب، ينظر الله تعالى فإذا هو نجس وهو مول وجهه إليه جل جلاله، وينظر الناس إليه فيرونه طاهر الجسم، متقناً لطهارة الأعضاء، عالماً بشروطها ودقائقها، جاهلاً بوضوء القلب، فتضرب الملائكة بصلاته وجهه ويقولون : إن الله غني عن عمل الغافلين .

ولما كانت هذه حكمة الوضوء التي هي طهارة الجوارح لطهارة القلب، كان مسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر كسراً للقلب، لأنه يضع أثر التراب على وجهه، ثم يضعه في السجود على التراب، وفي هذا العمل ذكرى أنه من التراب، فيطهر من غرور نظره إلى نفسه أنه إنسان مستقيم القامة، سميع بصير متكلم، ويقف أمام ربه حافظاً لرتبته التي تجذبه إليه جل جلاله)) .

معني النفي من الأرض لمن حارب الله ورسوله وسعي في الأرض فساداً :

يتناول الإمام المجدد أبو العزائم عليه السلام في (أسرار القرآن) الجزء السادس ص ٩٧ بياناً لحكم الله تعالى في الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً فيقول :

((... ولكن قوله : ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ^(١) (أو) هنا ليست للتخيير، وإنما هي لبيان الحكم، والذي يقتل هو من قتل النفس بغير حق، والذي يصلب هو من قطع الطريق وقتل النفس وسلب المال في القرى أو في الأمصار، والذين تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف هم الذين يسرقون ولم يقتلوا، ولم يقطعوا الطريق على المسلمين، وقوله تعالى : (من خلاف) أن تقطع الرجل اليسري واليد اليميني أو بالعكس، والذي ينفي من الأرض هو من قطع الطريق ولم يقتل نفساً ولم يسرق .

والنفي من الأرض هنا لا يكون بإخراجه من بلد إلى آخر من بلاد المسلمين لأنه يخشى منه على المسلمين، ولا إلى أرض الكفار لأنه يخشى عليه منهم أن يفسدوا عقيدته .. والنفي هو السجن الذي تدوم له فيه المراقبة)) .

دليل قرآني على نزول عيسى عليه السلام من السماء في آخر الزمان :

يورد الإمام عليه السلام في الجزء الثالث ص ١٥١ عند تعرضه لشرح قوله تعالى في شأن سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ^(٢) فيقول في معني كلمة (وَكَهْلًا) :

((معني هذه أنه يتكلم كهلاً بما لم يتكلم به طفلاً، وبهذا المعني يكون كلامه كهلاً معجزة، ولكننا نفهم في هذه الكلمة أن كلامه كهلاً من أكبر المعجزات، وإن كان بعض العلماء عرف الكهل من سن استواه إلى صباه الأعلى، أي : من ثلاثين

(١) سورة المائدة آية ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٦ .

سنة إلى الأربعين، إلا أنه بحسب العرف لا تطلق إلا على من تجاوز الستين، والمسيح رفع إلى السماء وهو في ريعان شبابه حيث كان سنه ثلاثاً وثلاثين سنة .
وإذا فهمت ما أورده عليك تتحقق أن كلامه كهلاً معجزة كبرى، وذلك لأنه يتزل من السماء بعد رفعه في آخر الزمان فيتكلم مع الناس، فيكون كلامه في ذلك الوقت من المعجزات الباهرات، ويصير عليه عندها أنه كهل بالنسبة لطول الزمن الذي أمضاه في السماء الرابعة كما ورد .

بيان في حقيقة إسناد الأفعال :

والآن، تعال معاً لنطالع سرّاً من أسرار القرآن من معني قوله تعالى :

﴿وَأَنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا {٧٨} مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١) واستمع إلى بعض المعاني التي ذكرها الإمام المجدد في الجزء الخامس من (أسرار القرآن) حيث يقول :

((هذه الآية الشريفة من معضلات آيات القرآن، ومن لم يلهمه الله الفقه فيها زلت به القدم، وإني مبين لك ما علمته فيها وأحب منك التسليم : كان المشركون والمنافقون إذا نالوا خيراً من نصرة أو غنيمة أو سلامة قالوا : هذا من عند الله، وإن أصابهم بلاء من جراح أو أمراض أو هزيمة قالوا : هذا منك يا محمد، نظراً منهم إليه ﷺ وآله ﷺ بعين العناد، فكذبهم الله تعالى وأثبت التوحيد الخالص

(١) سورة النساء آية ٧٨، ٧٩.

بقوله تعالى : (قل) يا محمد ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي : أن العافية وتوإلى الخيرات والنصر والتأييد والهداية والتوفيق من عند الله تعالى، كما أن البلاء والشدة والمصائب هي كذلك من عند الله، إذ هو الضار النافع، والمعطي المانع، والحيي المميت، والمعز المذل لا شريك له . ثم شنع على المنافقين الذين يجعلون الخير من الله والشر من رسوله ظناً منهم أن ذلك حصل بسوء تدبيره أو غلظه، أعاذنا الله من الكفر بعد الإيمان، ومن سلب العطا وحرمان الرضا وكفران النعمة .

وفي هذا التشنيع برهان على سوء طبعهم وخبث نفوسهم فقال تعالى : ﴿فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ .

وما أورده الإمام المجدد من المعاني التي سبق ذكرها لا غرابة فيه على العقل، ولكن لما يقول عز من قائل بعد ذلك : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ هنا يحس العقل بغرابة الأمر، وبالحاجة الماسة إلى مزيد بيان وتوضيح المبهم وإزالة المشكل .

إن الذين نسبوا الحسنة إلى الله ونسبوا السيئة إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وآله ﴿ﷺ﴾ شنع الله تعالى عليهم بقوله : ﴿فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ وذلك بعد أن حسم المسألة وأظهر الحقيقة بقوله : ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

ويختار العقل متسائلاً : أبعد كل ذلك يقول الله تعالى لرسوله ﴿ﷺ﴾ وآله ﴿ﷺ﴾ : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ ؟ ما سر ذلك ؟ .

خاصة بعد قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ؟)) .

لكن الإمام المجدد لا يترك العقل في حيرته، بل يكشف السر عن ذلك المعني فيقول : ((وهنا محذوف تجب رعايته وملاحظته وهي كلمة : يقولون . كأن سائلاً سأل الله تعالى : تدم هؤلاء وتشنع عليهم !!؟ فأجابه سبحانه بقوله إنهم يقولون ما تقدم من مقولهم الأول، ويقولون : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ ولهذا التقدير تطمئن القلوب على فقه آيات القرآن، ولا يكون هناك حيرة ولا تردد في فهمه، فإنه سبحانه بعد قوله : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا يرجع فيقول : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ الآية محكمة، فقالوا : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ وهي تقدير الله والكل من الله، ولكن الله جعل العبد سبباً في الوقوع في السيئات التي قدرها سبحانه، وعلى هذا الوقوع يكون الحساب والعقاب)) .

ثم يستطرد الإمام المجدد عليه السلام مبيناً وجهاً آخر من وجوه معاني الآية القرآنية : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ فيقول : ((والذي أستحسنه ما بينته لك أولاً، لأنه لا يحتاج إلى تكلف في التأويل، وإن كان في تأويل الآية ما يقتضي الأدب مع الله . مع أن ينسب العبد السيئة لنفسه، والحسنة إلى الله، كما قال صاحب موسي عليه السلام عند قوله : ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ^(١) . وقال : ﴿فَارَدْتُ أَنْ أُعْيِيَهَا﴾ ^(٢) فنسب الخير لله والشر لنفسه، وكما قالت الجن : ﴿وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَشَرُّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ

(١) سورة الكهف آية ٨٢.

(٢) سورة الكهف آية ٧٩.

رَشَدًا ﴿١﴾ فلما ذكروا الشر نسبوا الفعل إلى نائب الفاعل، ولما ذكروا الخير أسندوه إلى فاعله الحقيقي . ولكن العلم يقتضي كشف الحقائق والبيان كل البيان، والأدب شيء والعلم شيء آخر، فإذا جلس العالم كشف الحقائق جليلة لمن زكت نفوسهم بالأدب)) .

القصاص قتل فكيف تكون فيه الحياة ؟:

عند شرح قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ^(٢) يبين الإمام المجدد عليه السلام حكمة القصاص فيقول :

((يبين الله تعالى حكمة حكم القصاص بأقصر آية عجز فطاحل البلغاء من أصحاب المعلقات على الكعبة أن يأتوا بمثلها . وأفصح كلمة قالوها في هذا المعنى : (القتل أنفي للقتل) وفي كلمتهم تكرار لفظ القتل، وفيها نقص بياني وهو أن القتل لا يكون أنفي للقتل . وكلمة الله هي العليا . وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كأنه يبين الحكمة فيقول : إنكم إن تركتم القصاص وهو قتل القاتل أحرق الغل القلوب فثارت، فجرت الدماء أنهاراً بتعطيل حكم القصاص .

ولو قال لنا قائل : القصاص قتل، وكيف تكون فيه الحياة ؟ والجواب : إن مراد الله سبحانه وتعالى الرحمة للمجتمع الإنساني فإنك إذا حكمت بحكم الله فقتلت القاتل إن لم يعف أولياء المقتول أثلجت صدور من أحرقت قلوبهم نار الغل على من قتل قتيْلهم وربما كان بسبب ذلك هرج ومرج يفسد القلوب ويفرق المجتمع، وهذا معناه والله أعلم . يعني أن القصاص بقتل القاتل حياة لفئة كثيرة، بل

(١) سورة الجن آية ١٠

(٢) سورة البقرة آية ١٧٩ .

وراحة لقلوب المجتمع المصاب بهذا البلاء، بل وصفاء لهم من الهرج والمرج والفتن
.. ((

الحكم بكفر من يعين اليهود :

أفتي الإمام المجدد رحمته الله بما يلي في سياق تفسيره (أسرار القرآن) الجزء الأول
ص ٤٤ حيث يقول :

((ولو تتبعنا سير اليهود وسيرتهم من حادثة يوسف عليه السلام، وما عمله الأسباط
مع يعقوب عليه السلام إلى زمننا هذا، لعجزنا عن شكر الله بما تفضل به علينا برسالة
سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله عليهم السلام، ولا أبعد بك فإننا نرى تلك الفئة التي لعنت في
التوراة والإنجيل والقرآن لا تزال ينبوع تلك الخبائث والشرور والفتن فهم كما قال
العربي : (في كل واد أثر من ثعلبة) يسلط الله عليهم يختصر قديماً ودول أوروبا في
هذا الزمن، وقد أراد الله أن يحدد لهم البلاء فانقلبوا شياطين لإهراق الدماء
والإفساد في فلسطين، فإنهم انتهزوا فرصة خوف الإنجليز من الترك، وبذلوا أموالاً
طائلة للإنجليز مساعدة لهم على حرب الترك، وطلبوا منهم أن يبيحوا لهم الهجرة
إلى فلسطين، وأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود، وقد رأى الإنجليز أن ذلك في
فلسطين قوة تدفع عنهم ثورة العرب وغيرهم، فمكنوا لهم فيها بقوة الحديد والنار

وقد استفتاني علماء فلسطين في حكم من يبيع لليهود عقاراً أو أطيئاً، فأفتيت
بكفر من يعينهم بدليل الآية التي نزلت في اليهود وهي قوله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ

أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿١﴾، وسبب نزول الآية هم اليهود، وإن كان خصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم والواجب على كل مسلم آمن بالله وبكتابه وبرسوله ﷺ وآله، أن يعادي من حاد الله ورسوله، فإن تساهل مسلموا فلسطين مع اليهود أثار عليهم غضب الله فانتقم منهم بالعدو (اليهود والإنجليز)، حفظ الله إخواننا المسلمين من موالاة غير المؤمنين)).

اليهود أهبطوا قدرًا ومرتبة :

يكشف الإمام في موطن آخر أن اليهود أهبطوا قدرًا ومرتبة حيث يقول في سياق تفسيره لقوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ ^(٢):

((الذي أفهمه أن الهبوط ليس مكانياً، ولكنه هبوط قدر ورتبة، كما قال لآدم وحواء : ﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا ﴾ ^(٣) أي: انزلا عن قدركما، وإن كان الهبوط المكاني تحقق، وفي قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى سلب منهم الصبر الذي يقوي النفس على تحمل أعباء القيام بأوامر الله تعالى، فقوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ دليل على أنهم استحقوا من الله أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، لأن الأرض التي كانوا فيها متعهم الله فيها بما هو فوق ملك الأرض لكل واحد منهم، فليس عليهم أمر إلا الله تعالى ثم كلمه، وليس ثم منافس ولا منازع لحصول المساواة المطلقة بينهم وفقد المعاوضة التي تقتضي المعاوضة المقتضية للمعارضة، حيث لم يكن ما يوجب التنازع ولا الحسد، لأن طعامهم المن والسلوي وشرابهم

(١) سورة المجادلة آية ٢٢

(٢) سورة البقرة آية ٦١.

(٣) سورة طه آية ١٢٣.

الماء الذي تفجر من الحجر، وهي عيشة كعيشة أهل الجنة، ولكن أبت النفوس اللقسة إلا الخروج من الحق إلى الباطل)) .

الإمام يكشف في تفسيره عن سبب أكثر أمراض الأطفال :

في سياق تفسيره للآية ٢٢٦ من سورة البقرة، يقول عليه السلام :
((فإن نكاح الرجل زوجته سبب في أمراض المولود إلا إذا احتاط لنفسه فأمرها بالامتناع عن رضاع الولد حتى تطهر، لأن هذا النكاح يجعل الدم يسري في الثديين فإذا أرضع الولد عقب الجماع مباشرة تسمم، وأكثر أمراض الأطفال من هذا العمل الجاهلي)) .

أسرار القرآن والعلوم الكونية :

وقد تناول عليه السلام بياناً لبعض العلوم الكونية حال تعرضه لتفسير قوله تعالى :
(وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)^(١)
فقال : الرياح جمع ريح، واسمه مأخوذ من الروح لأنه حياة العالم أجمع، فهو كأنه روح الوجود المادي، وقد ورد الريح في القرآن المجيد بلفظ الجمع ولفظ الأفراد، وبعض العلماء يري أن لفظة بـ ((ال)) تكون فيها (ال) للجنس فيكون بمعنى الرياح، وبعضهم يفهم أن لفظة الريح بالأفراد تدل على مخصوصة وهي الريح العقيم التي تضر ولا تنفع، ولفظة الرياح تدل على الرياح النافعة للعالم، قال تعالى :
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيَّحَ لْعَقِيمَ﴾^(٣) وقال ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾ : (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً)^(١)

(١) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(٢) سورة الروم آية ٤٦ .

(٣) سورة الذاريات آية ٤١ .

عندما كان يري هبوب الريح . وفي قوله : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ يقظة لأهل القلوب المطمئنة، وسبحان المعطي الوهاب الفتاح العليم القائل سبحانه : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ^(٢) والقائل جل جلاله : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ^(٣).

قوله تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ يقظة لأهل القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى، فإن تصريف الرياح وتغيرها تكون شمالية أو جنوبية أو صبا أو دبوراً. وفي هذا التصريف، المنافع العامة لمصالح العالم أجمع، وهناك تيارات دورية وهو التيار الذي يأتي من جهة القطب الشمالي فيمر على نصف الأرض الشمالي حتى يصل إلى خط الاستواء ((المنطقة المحترقة)) فيتبخر ويرتفع ملتهباً جداً متجهاً من خط الاستواء إلى القطب الشمالي حيث المنطقة الثلجية، فيثقل ويتزل إلى الأرض حاراً فيحيا به ما هنالك من الحيوانات والنباتات والأناسي في هذا الأفق المتجمد، ثم يأتي بارداً إلى البحر الأبيض المتوسط ماراً على البحر الأسود فبحر البلطيق ويمر على شمال أفريقيا محملاً بالبرودة التي اكتسبها من الشمال، ويمر على خط الاستواء كما تقدم . وهذا التيار الدوري دائم المرور من خط الاستواء فيتبخر هناك بحرارته الشديدة، ويرتفع إلى الأفق الأعلى ثم يميل إلى الجنوب لنفع العالم عند القطب الجنوبي، وهكذا يفعل كما يفعل التيار الشمالي . وهناك رياح تسمى الرياح الموسمية، وتلك الرياح تتولد من مصادمة تلك التيارات الدورية بالجبال الشاهقة فيتغير مجراها، فقسم منها بانفعال المصادمة ينصرف إلى الغرب، وقسم ينصرف إلى الشرق، وقد تتغير تلك

(١) الإمام الشافعي في الأم بلفظ : (ما هبت الريح إلا جثا صلى الله عليه وسلم وآله على ركبته، وقال : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) .

(٢) سورة يوسف آية ٧٦ .

(٣) سورة ق آية ٣٥ .

التيارات بتغيير الظواهر الجوية من حرارة شديدة إلى برودة شديدة فيثقل تيار من التيارين، فيحصل اصطدام الهواء بعضه ببعض فتتولد منه الزوابع التي تقتلع النباتات وتغرق السفن وقد تهدم البيوت بشدة تصادمها وضغطها.

وتلك الرياح المختلفة هي التي تلقح النباتات فتأتي بذكور النباتات إلى إناثها كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾^(١)، وقد تنقل تلك الزوابع بذور نباتات إلى بلاد لم تكن فيها تلك النباتات . وفي كل ذلك من تطهير الهواء في الآفاق، ونقائه من الأوساخ والكائنات الصغيرة السامة كالذباب والناموس وما دونه من البعوض، ولولا ذلك التصريف لفقد أكثر الناس صحتهم . وفي هذا التصريف حجة قاصمة لظهور الملحددين، لأن هذا النظام والتركيب لا يكون عبثاً ولا لغير حكمة، لكنه بقدره وإرادته ومشئته، يريد فاعله سبحانه أن ينفع الناس جميعاً بهذا التصريف، ولو نظر أهل القلوب العامرة بنور الله تعالى إلى تصريف الهواء في يوم واحد لشهدوا بعظمة الله تعالى في كل نفس من أنفاسهم، ولعجزوا عن شكر الله لإنعامه عليهم، فسبحان مصرف الرياح الذي جعل فيها فضله وإحسانه وإمداده لخلقه .

ولو أن الله أمسك الهواء أن يتصرف حتى فقد من أفق الآفاق لما وجد على ظهرها دابة، بل ولا نبات ولو أنك حبست الهواء عن الحيوان لمات فوراً، أو عن النبات لذبل وفقد حياته . قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾^(٢) ولو في نوع واحد من أنواع العناصر من نعمه ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ فكيف يمكن بني الإنسان أن

(١) سورة الحجر آية ٢٢

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٤

يُحصوا نعمه في كل خلقه من العرش إلى الفرش بالنسبة لنا ؟ وإذا عجزنا عن حصر نعمه في الهواء فكيف يمكننا أن نقدر الله سبحانه حق قدره أو نخطط به علمًا ؟ فسبحان من أعجز العقول عن علم آياته في مكوناته، وأعجز الأرواح عن علم حقيقة أسمائه وصفاته، وتتره وتعالى عن أن تحوم الأرواح العاليات حولي قدس عظمته وكبريائه، قال تعالى : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ { ٣ } ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (١) .

من جوانب الإصلاح الاجتماعي في تفسير الإمام عليه السلام :

حث الإمام عليه السلام الأمة على التوحيد ونبذ الاختلاف، والعمل على عودة المجد الذي فقده المسلمون عند تناوله لتفسير قوله تعالى :

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٢) فقال : ((الاعتصام : هو التحفظ والتحرز من فقد المقصود، والتمسك بما يوصل إلى نيل الخير الحقيقي . وهذا الحبل إما أن يكون كتاب الله تعالى عند هجر العمل به، أو يكون الجماعة عند التفرقة، أو يكون الإخلاص لله في التوحيد عند الشكوك والريب، أو يكون المسارعة إلى التوحيد والإنابة عند ارتكاب الخطايا . فهو في كل حال بحسبه، ونحن في زماننا هذا في حاجة إلى كل تلك المعاني، بعد أن هجرنا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، فأصبحنا عالة على من كانوا عالة علينا، في حاجة إلى أن نتلقي الصناعات والفنون والحرف ممن عنا نقلوها، في تفرقة تحتاج إلى أن يتدخل في شئوننا من كنا سببًا في خلاصهم ورقبهم . فإذا اشتقنا إلى مجد سلفنا الصالح

(١) سورة الملك آية ٤، ٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

وعزهم ومنعتهم، يجب علينا أن نعتصم بحبل الله تعالى، وهو القرآن والسنة المطهرة، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بما من به على سلفنا، ويكون معنا كما كان معهم، ويعيد لنا مجدنا، ويجعل لنا التمكين في الأرض، حتى يصلح بنا جميع خلقه، قال عبد الله بن مسعود: (عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة هو خير مما تحبون في التفرقة)، وكيف يميل المؤمن بالله ورسوله إلى التفرقة للذة عاجلة تفنى، وجاه يورث ذل الأبد، ومال قد يعين على الخلود في نار جهنم؟! ويرضي أن يذل بتفرقة المسلمين، فيكون مسئولاً عنهم جميعاً يوم القيامة؟!

أيها المؤمن المحب للخير العاجل: هذه النفس التي تحب الخير، ألا تذكرها أنها لو باعت هذا الخير العاجل المفسد للدين وللجماعة بالخير الدائم الباقي عند الله تعالى تكون رابحة؟ ما الذي يناله الجاهل المغرور بالميل إلى التفرقة إذا عاجلته المنية قبل أن ينال قصده؟ لعمري إنه ليموت على أكبر الكبائر، فيحرم لذة أمله العاجل وبهجة النعيم الأبدى، ويخلد في نار الشقاء والعذاب.

وإن النعمة مقولة على معنيين: عند العاقل نعمة الشرف والعز والفرح بالاجتماع الإسلامي، ونعمة لذة الحيوانات في الشهوات والشهرة الكاذبة.

وإني لأرى نعمة الشرف قد تستعلى في البهائم على لذتهم البهيمية، فقد يجهد الفرس نفسه في الجري حتى يقع صريعاً ليفرح بسبق نظيره لذة بنعمة الشرف.

وقد يلقي الكلب بنفسه على السبع ليحفظ صاحبه حتى يقتل فرحاً بلذة الشرف.

وقد يترك الديك غذاءه وينادي الدجاج متلذذاً بلذة الشرف .

فوا عجباً ! تعظم نفوس الحيوانات، فتقدم لذة الشرف على اللذة البهيمية التي هي فطرتها !! وتصغر نفس المؤمن حتى يدنسها بالتعس والخيبة، ليسمع كلمة جميلة أفسد لأجلها دينه ودنيا إخوته المؤمنين !! بل أعجب من هذا أن أجهل إنسان يعلم أن عز جماعته عز له، وذل قبيلته ذل له .

وترى الجاهل يهدم مجد المجتمع ليتلذذ بأنه قريب إلى عظيم من العظماء، أو محب عند ذي منزلة، والله تعالى يقول : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾ ^(١) ما هي تلك النعمة التي ينالها من ترك الاعتصام بحبل الله واعتصم بحبل شهواته وحظه وحبه لذاته ؟! لا أراها إلا أعظم نقمة، فإنه يمقتة الله تعالى، ويمقتة رسول الله ﷺ وآله ﷺ، ويمقتة المؤمنون من أهل عصره .

وليس الاعتصام بحبل الله بأمر صعب عليك، تذكر أيها المؤمن أيام كانت القلوب مجتمعة معتصمة بحبل الله، والأبدان عاملة لله، ومن أنت وما كان حالك وشأنك ؟ لعلك إذا ذكرت تبكى، وتحن إلى هذا المجد حين الشكلي أو أعظم، لأن العبد المملوك المسلم يعزه الإيمان على كل من في الأرض، كان أصغر مسلم يمنح الأمن، ويقبل في ذمته من استجار به فينفذ له الخليفة، كان المسلم عنوان الكمال في نشأته ومعاملاته ورحمته ورأفته بالعالم أجمع، ومسارعته إلى الخير، وكان العالم أجمع إذ ذاك في ظلمات الجهالة والضلالة لم يهتد للخير إلا بسببك أيها المؤمن .

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

أيها المؤمن : استعمرت مشارق الأرض ومغاربها، ودان لك أصحاب تيجانها، وممكنك الله في الأرض بالحق، حتى فصمت تلك العروة، وترك أهل الجهالة الاعتصام بحبل الله تعالى، فتغير الحال، وتبدل الشأن، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

قم أيها المؤمن فتنبه، وبحبل الله فاعتصم، وبسنة رسول الله فتمسك، وجاهد نفسك أعظم الجهاد في ذات الله تعالى، وقد منحنا الله الإرادة والحرية والقوة، فإذا نحن تمسكنا بأحكام شريعة الله تعالى ؛ وعملنا بوصايا رسول الله ﷺ وآله ، جملنا الله تعالى بالرحمة، فكنا رحماء بالعطف وبالأمانة والصدق والعفاف، والغيرة له سبحانه وتعالى، وتركنا ما يضرنا، ونشطنا لما ينفعنا، وتشجعنا على فعل المكاره والفضائل، وأحب بعضنا بعضاً، حتى نصبح كجسد واحد، يشعر الرأس بألم الإصبع، وتتلذذ الرأس براحة الإصبع، ونكون - مع كثرتنا - كعائلة فاضلة يسعى كل فرد منها لخيرها، ونستعين بنعم الله على ما يحبه ويرضاه، ولديها تلذ الحياة، ونفوز بمسراتها في الدنيا والآخرة، ونورثه أبناءنا).

* ولقد أشرنا إلى قليل من كثير من ((أسرار القرآن)) وعلى طالب المزيد أن يطالع ما شاء من ذلك التفسير الذي بين الإمام المجدد في بدايته سر قوله تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ)^(١) فقال : أشار سبحانه وتعالى إلى الكتاب باسم الإشارة الدال على البعد مع أن الكتاب قريب من الذاكرة، فأشار إليه بما يدل على البعد لعلو مكانته، أو لعظمة منزلته سبحانه .

(١) سورة البقرة آية ٢ .

ولقد منح اسم الإمام المجدد نوط الامتياز من الطبقة الأولى تقديرًا من الدولة لما قدمه في ((أسرار القرآن)) وقام رئيس الجمهورية بتسليم هذا النوط لحفيد الإمام وخليفته الثاني سماحة السيد عز الدين ماضي أبي العزائم عليه السلام وذلك في ليلة القدر من عام ١٣١١هـ الموافق ١٩٩١ م .

الإمام وتفسير الحديث

الحديث : كلام رسول الله ﷺ وآله وهو امتداد لكلام الله سبحانه كما أخبر ﷺ وآله بقوله : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)^(١)، وقال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لَذِكْرٍ لِّلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٢)، فكلامه ﷺ وآله هو بيان للقرآن وقد قال الله تعالى فيه : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٣) .

وقد اعتنى العلامة بالحديث الشريف، فتعلمه منذ نشأته حيث حفظ صحيح البخاري والمختصر للإمام الزبيدي وهو في صغره وقام بشرحه شرحاً وافياً أثناء فترة تواجده بالسودان، وقد شرح صحيح البخاري في المسجد الكبير بالخرطوم . وقد التزم العلامة في كتبه ومؤلفاته منهجاً خاصاً به وكان العلامة في كتبه يترك ذكر السند وأسماء الكتب والرجال الذي أخذ منها ويوضح ذلك بقوله : ربما أنكر بعض المطلعين على هذه الكتب لتركي ذكر أسانيد الحديث وذكر أسماء الكتب والرجال الذي أخذت منها، ولكني والحمد لله على يقين أن العلم أمانة وأن كل الأحاديث التي وضعتها كلها في كتيبي هذه هي مما أوردها الأئمة في كتبهم، وضعتها في كتيبي هذه لتكون لإخواني أهل الطريق نوراً من نور السنة المحمدية وعوناً لهم بعد كتاب الله تعالى على ما يقرب إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وآله، وكلها إما أن تكون مما أخرجه الشيخان سيدنا الإمام البخاري والإمام مسلم في جامعيهما أو أحدهما، أو أورده أبو داود والترمذي وغيرهما من

(١) القرطبي في تفسيره ٣٧/١

(٢) سورة النحل آية ٤٤

(٣) سورة النجم آية ٣

الأئمة في تصانيفهم رحمهم الله، وهي صحاح على شرط البخاري لأنها بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ وآله، إلا أنها لم تبلغ غاية شرط الشيخين في علو الدرجة، وقد حذفت الأسانيد لعدم الإطالة حتى يسهل على المرید أخذ الأحكام الشرعية .

على أني لا أبريء نفسي من الزلل والخطأ : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(١)، فكل أخ ظهر له زلل في كتيبي هذه فإنما أنا إنسان مسكين تحررت بقدر ما في وسعي كما قال الله تعالى : ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾^(٢) فما كان من الزلل والخطأ فإني أعوذ بالله أن يكون عن قصد مني أو تغيير لسنة رسول الله ﷺ وآله أو انتهاج على غير طريق المؤمنين، أعوذ بالله من مخالفة رسول الله ﷺ وآله . كيف يرضي المؤمن بأن يكون من أهل جهنم بأن يتبع غير سبيل المؤمنين؟! قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣) .

اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وباسمك العظيم وبكلماتك التامات من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن عمل لا يرفع، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)) .

(١) سورة يوسف آية ٥٣ .

(٢) سورة النساء آية ١١٥ .

(٣) سورة النساء آية ١١٥ .

ومما تناوله عليه السلام من أحاديث رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام نورد بعض الأمثلة:

١- قوله ﷺ وآله عليهم السلام : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (١) .. وقوله : (اطلبوا العلم ولو بالصين) (٢).

يقول عليه السلام في كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ وآله عليهم السلام : أورد شرح أئمة السلف هداة الأمة، وما بينوا به قوله ﷺ وآله عليهم السلام : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) وقوله ﷺ وآله عليهم السلام : (اطلبوا العلم ولو بالصين) وبإيراد أقوالهم يمكن لكل مطلع أن يعلم مجموع العلوم التي فرضها الله تعالى ورسوله ﷺ وآله عليهم السلام وإن تفاوتت بالنسبة لمعلومها، فقد يكون العلم فرض عين وهو أول واجب على المسلم، كعلم التوحيد، وقد يكون فرض عين ولا يفرض عليك إلا بعد فرض علمه كعلم العبادات، لأن عملها فرض وعلم تأدية العمل الفرض كاملاً فرض عين على من فرض عليه العمل .

أقوال الأئمة في معني هذين الحديثين

* قال الإمام أبو محمد سهل رحمه الله : أراد بذلك علم حال، يعني علم حال العبد من مقامه الذي أقيم فيه، بأن يعلم أحدكم حاله الذي بينه وبين الله عز وجل في دنياه وآخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى في ذلك .

* وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضي منه في كل ساعة من نهاره .

(١) ابن ماجة في المقدمة والمنذري والطبراني .

(٢) ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب والغزالي في الإحياء.

* وقال بعض علماء الشام : إنما عني به طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها، ومعرفة مكاييد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضة كله من حيث كان الإخلاص في الأعمال فريضة، ومن حيث أعلم بعداوة إبليس، ثم أمر بمناوئته، وذهب إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموي ومن تابعه .

* وقال بعض البصريين في معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لأنها رسل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدو والنفس، فيستجيب العبد لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه في نفيها، ولأنها أول النية التي هي أول كل عمل، وعنها تظهر الأفعال وعلى قدرها تضاعف الأعمال، فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وفوادح العقل ليميز بذلك الأحكام، وهذا عند هؤلاء فريضة وهو مذهب مالك بن دينار، وفرقد السنجي، وعبد الواحد بن زيد، وأتباعهم من النساك، وقد كان أستاذهم الحسن البصري يتكلم في ذلك وعنه حملوا علوم القلوب .

* وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة إذ قد أمر الله تعالى به، وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام، وقد جاء في خير مفسر ((طلب الحلال فريضة بعد الفريضة))^(١)، ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد وحبيب بن حرب .

(١) الطبراني في الكبير، والسيوطي في الجامع الصغير .

* وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله، قالوا : وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن اشتغل به واقتضي منه دون غيره من عوام المسلمين، ولأنه جاء في لفظ الحديث :

(تعلموا اليقين)^(١) فمعناه : اطلبوا علم اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذي هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر في قوله ﴿ ﷺ وآله ﴾ : (وعلم باطن في القلب وهو العلم النافع)^(٢) فهذا تفسير ما أجمل في غيره، وقال جندب : (كنا مع رسول الله ﷺ وآله ﴾ فيعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا إيماناً وسيأتي زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان، يعني تعلمنا علم الإيمان، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

* وقال بعض السلف : إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد، وأصول الأمر والنهي، والفرق بين الحلال والحرام، إذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هي معلومات، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضاً . وإنما فيه فضل أو ندب .

* وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه مع دخوله في ذلك طلب علمه، لقول عمر بن الخطاب ؓ : (لا يتجر في سوقنا هذا إلا من تفقه ؛ وإلا أكل الربا شاء أم أبي) وكما قيل : تفقه ثم اتجر، ومال إلى هذا سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابهما .

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء، وابن أبي الدنيا في اليقين .

(٢) ابن أبي شيبة في مسنده والخطيب البغدادي في تاريخه والسيوطي في الفتح الكبير .

* وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو أن يكون الرجل يريد أن يعمل شيئاً من أمر الدين، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد وعلى العبد في ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة فهذا فريضة، وحكي هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث .

* وقال آخرون : يعني طلب علم التوحيد فرض، وإنما اختلفوا في كيفية الطلب وماهية الإصابة، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والإعتبار، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر، ومنهم من قال : من طريق التوفيق والأثر، وقالت طائفة من هؤلاء : إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلي بها، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم، ومعتقد جملة المسلمين لا يقع في وهمه ولا يحيك في صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث . فإذا وقع في سمعه شيء من ذلك ووقر في قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله، لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلاً أو ينفي حقاً، فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه، حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيماً على شبهة فيتبع الهوى، أو يكون شاكاً في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم . ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في دعائه : (اللهم أرنا الحق حقاً فتبعه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك متشابهاً علينا فتبع الهوى) . وهذا مذهب

أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي وداود بن علي والحسين الكرايسي والحارث بن أسد المحاسبي ومن تابعهم من المتكلمين .

فهذه أقوال العلماء في معني هذا الخبر، حكينا ذلك عن علمنا بمذهبهم على معني مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعني لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون في المعني إلا أهل الظاهر منهم فإنهم حملوا على ما يعلمونه، وأهل الباطن حملوه على علمهم، هذا ما وصل إلينا من أقوال الأئمة في شرح هذين الحديثين .

والرأي عندي

أن الظاهر والباطن علمان لا يستغني أحدهما عن صاحبه، بمرتلة الإسلام والإيمان، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه . والأئمة رضي الله عنهم وإن اختلفوا في الأقوال فإنهم مجمعون أنه ﴿ ﷺ وآله ﴾ لم يرد بذلك طلب علم الأفضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه، وإن كان الله تعالى لا يخلي من ذلك من يقيمه بحفظه، والذي عندنا في حقيقة معني هذا الخبر والله أعلم، أن قوله ﴿ ﷺ وآله ﴾ : (طلب العلم فريضة) يعني علم هذه الفرائض الخمس التي بني الإسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها .

ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه، فأول العمل العلم به، فصار علم العمل فرضاً من حيث افتراض العمل، فلما لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس، فصار طلب علم هذه الخمس فرضاً، لأنه فرض الفرض، وعلم التوحيد داخل فيها لأنه في أوله شهادة أن لا إله إلا الله، بإثبات صفاته المتصلة بذاته ونفي صفات سواه المنفصلة عنه إياه، كله داخل في علم شهادة أن لا إله إلا الله، وعلم

الإخلاص داخل في صحة الإسلام، إذ لا يكون مسلمًا إلا بإخلاص العمل لقوله ﷺ وآله: (ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله)^(١) فبدأ به واشترطه للإسلام، والأصل في هذا أنه لم يرد ﷺ وآله علم كل ما جاز أن يكون معلومًا بإجماع الأمة، أنه لم يقصد بذلك علم الطب أو علم النجوم ولا علم النحو أو الشعر أو المغازي، وهذه تسمى علومًا لأنها تكون معلومة وأربابها علماء بها، إلا أن الشرع لم يرد بالأمر مقتضاها، والأمة مجتمعة أيضًا أنه لم يرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تسمى علومًا عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان، والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكلية ومعني الاسم، فقال (طلب العلم فريضة) ثم قال : (على كل مسلم) بعد قوله : (طلب العلم)، فكان هذا على الأعيان، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه، فأشير بالألف واللام إليه .

علم ما بني الإسلام عليه فريضة :

فإذا بطلت هذه الوجوه صح أن قوله ﷺ وآله: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) أي طلب علم ما بني الإسلام عليه، فافتراض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ وآله: للأعرابي حين سأله :

(أخبرني ماذا افترض الله على ؟ - وفي لفظ آخر - أخبرنا بالذي أرسلك الله تعالى إلينا به، فأخبره بالشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان،

(١) ابن حبان في صحيحه بلفظ : (ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)

وحج البيت، فقال : هل على غيرها ؟ فقال : لا إلا أن تطوع، فقال والله لا أزيد عليه شيئاً ولا أنقص منه شيئاً، فقال : أفلح ودخل الجنة إن صدق (١)، فكان علم هذه الخمسة فريضة من حيث كان معلومه فريضة، إذ لا عمل إلا بعلم، وقد قال تعالى : (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٢)، وقال في مثله : ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (٣)، وقال : ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (٤) وقال : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ (٧) وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (٨) وقال : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩).

فهذه الآيات افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذي جاء في أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول ﷺ وآله ﷺ فيه هذه الأعمال، ثم قال مجملاً : (طلب العلم فريضة) ثم وكده بقوله ﷺ وآله ﷺ : (على كل مسلم) فكان

(١) البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والدارمي ومالك في الموطأ.

(٢) سورة الزخرف آية ٨٦.

(٣) سورة النساء آية ٤٣.

(٤) سورة الأنعام آية ١٤٨.

(٥) سورة الروم آية ٢٩.

(٦) سورة الجاثية آية ١٩.

(٧) سورة هود آية ١٤.

(٨) سورة النحل آية ٤٣.

تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التي هي أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

٢- معني قوله ﷺ وآله: (لا عصبية في الإسلام)^(١):

ثم تناول ﷺ في كتابه (الإسلام نسب) بيان مراد رسول الله ﷺ وآله من قوله: (لا عصبية في الإسلام) شارحاً معني التعصب للدين والفرق بين العصبية للإسلام والعصبية في الإسلام فقال: بالتعصب للدين يقوي سلطان المسلمين فتكثر الفتوحات وتفتح الكنوز ويدخل الناس في الدين عندما تظهر أنواره وتباشر بشاشته القلوب، وتري العيون معاملة المسلمين التي هي حقيقة الرحمة والعدالة والمساواة والنصفة من النفس للغير، ومن الوالد والولد للأجنبي، فتجذب قلوب العالم بعامل الرغبة والحب عندما تتضح لعقولهم أسرار الإسلام وتلوح لبصائرهم أنواره فيحيون الحياة الحقيقية في الدنيا والآخرة، والمسلم المتعصب يفوز بخير الخيرين أو بهما والمتساهل يعاقب بشر الشرين أو بهما، والمسلم المتعصب يحبه الله ورسوله ﷺ وآله، والملائكة والعلماء والأتقياء وأئمة المسلمين، ويعز بين الناس، ويحيا ذكره بعد موته، ويؤسس لمن بعده من قومه مجداً باقتداء المسلمين بعمله وقوله وحاله، ويقوي به سلطان المسلمين، فهو خير للمسلمين حياً وميتاً، وسعادة لأهله في الدنيا والآخرة.

(١) يؤيد ذلك الحديث الشريف الذي رواه أبو داود في مسنده: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية).

التساهل في الدين وعواقبه :

التساهل في دينه ييغضه الله ورسوله ﷺ وآله ﷺ والملائكة والعلماء والأتقياء وأئمة المسلمين، ويلحقه الذل والهوان بين الناس، ويسوء ذكره بعد موته، ويلبس من بعده من ذريته الخزي والخيبة، ويضعف به سلطان المسلمين، فهو شر حياً وميتاً، وشقاء لمن بعده من آله .

التساهل بدينه مرض عضال بين جماعة المسلمين، والأحري بالمسلمين أن يطاردوه بأشد مما يطاردون به السيل الجارف والحريق المتلف والطاعون المهلك، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١).

بالتساهل في الدين زال سلطان المسلمين وتبدلت محاسن الحق بقبائح الباطل، وذل أهل العزة وعز أهل الذل، وأصبح من يدين بعبادة الأحجار أو من يعبدون إنساناً أو يعتقدون أن جسماً صنعوه بأيديهم إله يعبد، أو أن صورة صورها إنسان هي رب خالق، أو أن إنساناً أكرمه الله بالمعجزة - كما أكرم من قبله ومن بعده من الرسل بأكمل وأعظم مما أكرمه به - إله أو ابن الإله، ينظرون إلى الدين الحق بعين الازدراء ويقيمون الحجج الباطلة التي تلبس منتحلها الخزي وتحكم عليه أنه أقل من الجمادات، لتجرده عن العقل الحيواني فضلاً عن الإنساني.

(١) سورة المائدة آية ٣٣.

كل ذلك من نتائج تساهل أدعياء الإسلام الكاذبين في دعواهم الإسلام، لقولهم إن التعصب للدين جمود وتقهقر، فجروا على المجتمع فساد العقول بالخمير، وفساد النسل بالزنا، وفساد الأخلاق الفاضلة بالربا، والفشل بترك التوكل على الله، والتفرقة بالاعتماد على أنفسهم، وحب الخير لها، والحرص على المال والجاه.

المتساهل في الدين هو أشد أعداء المسلمين وألد خصومهم قبل الكفار المحاربن والأعداء المناوئين، والله يحفظ الإسلام والمسلمين من كل كافر بقلبه مؤمن بلسانه ينطق بالكلمة ويعمل لإطفاء نور الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، قال الله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(١).

الفرق بين العصبية للإسلام والعصبية في الإسلام :

لعل جاهلاً بمراد رسول الله ﷺ وآله ﷺ يعترض عليّ قائلاً : إن رسول الله ﷺ وآله ﷺ قال : (لا عصبية في الإسلام) فاهما لضعف عقله أن مدلول كلامه ﷺ وآله ﷺ نفى التعصب مطلقاً، وهذا ما لا يقول به طفل من أطفال المسلمين، فإن صريح لفظ الحديث الشريف بين لا يحتاج إلى توضيح، وذلك لأن مدلول (لا عصبية في الإسلام) معناه أن العصبية يجب أن تكون للإسلام لا في الإسلام، فإن العصبية في الإسلام تفرقة لجماعة المسلمين، دليل ذلك قوله ﷺ وآله ﷺ لرجل فارسي من الصحابة، في غزوة من الغزوات عندما قال للمشرك خذها وأنا الفتي الفارسي، فغضب رسول الله ﷺ وآله ﷺ وقال له : (هلا قلت وأنا الفتي الأنصاري). قال له ذلك عليه الصلاة والسلام ؛ وقد رئي الغضب الشديد في

(١) سورة المائدة آية ٥٤.

وجهه الكريم مما جري على لسان ذلك القائل بكلمته التي هي عين التفرقة، وما ينبغي لمسلم إلا أن تكون دعواه للإسلام، وكل ما يدعو إلى الاتحاد والوئام .

وهذا الحديث الشريف المتقدم أساس من أسس الدين القويم يجلي لنا الحقيقة، وهي قوله ﷺ وآله : (المسلم أخو المسلم)^(١) أي أن الأنساب والأحساب والعصية للآباء والقبائل محيت بالإسلام، وصار التعصب للإسلام، والشرف بالإسلام، والإسلام هو النسب والحسب بدليل قوله ﷺ وآله : (كل نسب منقطع إلا نسي) ١، فهذا الحديث الشريف الذي يظنه سخييف العقل حجة على ترك التعصب للدين، نعم هو حجة ولكن عليه، وبرهان ولكن على بطلان دعواه، لأنه نص ظاهر في وجوب التعصب بقوله : (إلا نسي) فهو الذي يتعصب له تعصباً تقوي به كلمة الله، وتحيي به سنن رسول الله، ولا يحسن التعصب للنسب الجسماني إلا إذا كان شرف هذا النسب بسبب الدين، كتعصب المسلم لنسب مولانا الحسن أو الحسين، أو تعصبه للأنصار أو الخلفاء الفاتحين فيكون تعصباً للدين .

اللهم فاشهد أنني أشكرك على أن وفقني وأعتني على التعصب للدين، وأسألك أن تمن عليّ بالصدق في التعصب للدين .

٣- قال رسول الله ﷺ وآله : (إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكره)^(٢).

(١) أحمد في مسنده والحاكم في المستدرک بلفظ: (كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا ما كان من سبي ونسي)

(٢) أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وابن المبارك في الزهد، والحاكم وصححه : (إنكم تجالسون بينكم بالأمانة) وذكره الغزالي في الإحياء .

قال **العلامة** في كتاب (الإسلام وطن) : أما حسن المجالسة فأدائها :

١- أن لا يعين ظالماً على ظلمه، ولا يفتح باب شر على أحد من الناس أمام من يمكنه أن يؤذيه، ولا يذكر غائباً بسوء إلا أن كان متفضحاً وسئل عنه على سبيل نصيحة أو مشورة .

2- ويلزم أن يغض بصره في المجلس عن عورات المجلس خصوصاً إذا جلس مع رجال ونساء فيجب عليه أن لا يحدق ببصره إلى النساء ولا أن يصغي بأذنيه إلى اثنين يتكلمان في المجلس إلا إذا دعوا إلى سماع الكلام .

٣- ومن آداب المجالسة أن لا يتكلم سرّاً مع جلسيه إذا كان معهما ثالث فإن ذلك يحزنه ولا يتكلم معه بلغة لا يفهمها الثالث، وليجنب اللمز والهمز والإشارة باليد أو العين أو اللسان، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

٤- وعلى المسلم أن يكون باشّاً طلق الوجه لمجالسيه ما داموا في خير، فإذا تكلموا في غير الخير فالواجب عليه أن يذكرهم بحكمة ويبين لهم التكلم فيما يضر ولا ينفع أو يصمت إن خاف عنادهم أو يفارق المجلس إن كان ذلك لا ضرر فيه عليه .

٥- ومن آداب المجالسة أن يجتهد المسلم في إدخال السرور على جلسيه بقدر استطاعته فلا يذكر عورة من عوراته يريد بها احتقاره ولا ينتقد عليه في عمل مباح

(١) سورة الحجرات آية ١١ .

عمله، قال ﷺ وآله : (إن الرجل ليقول الكلمة في المجلس لا يلقي لها بالاً يضحك بها الناس يهوي بها في النار سبعين خريفاً)^(١).

الآداب التي يراعيها المسلم مع جلسائه:

وجلساء الرجل إما أن يكون مضطراً أن يجالسهم أو غير مضطر، أما جلساؤه الذين لا بد له من مجالستهم فكمّن معه في مزرعة أو صناعة أو شركاؤه في تجارته أو معه في بيت واحد.

١- فإخوانك الذين معك في الصناعة أو المزرعة أو التجارة يلزمك أن تبتهد في استحلاب مودتهم لك وحبهم بما يمكنك مما لا يغضب الله ولا يخالف السنة.

٢- ويجب عليك أن تحفظ لسانك عن ذكر عوراتهم وهفواتهم أمامهم أو خلفهم، فإن كل إنسان لا يخلو من عيوب يجتهد أن يخفيها عن الناس ولكنها تظهر قهراً عنه، وإنما المعصوم رسول الله ﷺ وآله.

٣- وكما أنك يا أخي تحب أن تخفي صغائرك وهفواتك عن الناس فالواجب عليك أن تخفي هفوات أخيك وصغائره وعيوبه عن الناس وعنه في حضوره ما دامت ليست مما تضره ديناً ولا دنياً، فإن كانت تلك الأعمال مما يضره ديناً أو دنياً فالواجب عليك أن تحتلي به وتنصحه بطريقة يقبلها لا تريد بذلك احتقاره ولا تهديده والتنديد به.

٤- ومن أكمل صفات أهل الأدب أن يحفظوا سر المجالس، ومن أقبح صفات أهل النقائص أن الرجل يجلس في المجلس ثم يقوم منه فينشر أخباره لكل من لقيه،

(١) الترمذي وابن ماجه والحاكم وأبو داود .

وقد يبلغ الجهل ببعض الحمقى أنهم ينشرون معاصيهم ورذائلهم حتى خلوتهم بنسائهم يقول ﴿وَاللهُ﴾ (المجالس بالأمانات) ^(١). وورد أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أسبل الله عليه ستره فكشف عنه ستر الله، ومعني ذلك أن الرجل يعمل المعصية ليلاً أو في خفاء عن الناس ثم يخرج فيذكر عمله للناس.

٥- ومن محاسن الآداب في المجالسة أن لا يتجسس المؤمن ولا يتحسس وأن يجتهد المؤمن أن يجعل في مجلس جلس فيه عملاً صالحاً يرفع له من ذكر الله أو نصيحة أخ أو رد غيبة عن رجل صالح أو توبة عن ذنب عمله في المجلس.

٦- ومن آداب المجلس أن يباعد الرجل عن الجلوس بجوار زوجة غيره، ولا يسارع إلى قضاء حوائجها ما دام معها محرم، ولا يلامس جسمها لمعاونتها في شيء أو ركوب أو نزول إلا إذا كان محرماً لها، وإذا دعت الضرورة أن يتكلم معها يجب أن يجعلها خلفه على يمينه أو يساره إذا كان واقفاً وإن كان جالساً أن يجلسها إن استطاع في الجهة التي لا تكون مواجهة له ، بل يجعل محل نظره الجهة التي لا يراها فيها وإن دعت الضرورة أن يواجهها بوجهه فعليه أن يغض بصره أو يطأطئ رأسه أو يلفت عنقه ، فإن عمله هذا مرضاة لله محمداً عند الناس موجباً لمحبة الخلق وثقتهم ، وموجباً لكمال حياء المرأة ، فإن الأصل في المرأة الحياء ، وإنما يقوي عندها إذا تحمل الرجل به أمامها ، ولا يجوز لك يا أخي أن تختلي بامرأة أجنبية منك مهما وثقت من نفسك ، فإنك أعلم بنفسك من غيرك ، فإذا كنت واثقاً من نفسك أن خلوتك بها لا تشغل قلبك ولا تنقض وضوءك لما تراقبه من الخوف من

(١) أبو داود والترمذي بلفظ : (المجالس بالأمانة).

الله ومن عقوبته سبحانه.. فهل تثق أن المرأه بلغت ذلك ؟ فإن لم تخف على نفسك يا أخي فخف عليها أن توقعها في المعاصي .

٧-ومن آداب المجالسة أن يجلس الصبيان وراء الظهر وأن يترك الرجل البسط مع الصبيان مطلقاً إلا مع ابنه أو ابن أخيه أو من له به نسب من سن السنة الخامسة حفظاً لآداب الصبي وبعداً عن الشبه .

٨- ومن آداب المجالسه أن يجتهد المسلم في حفظ لسانه مما يخجل من ذكر العورات ، وإذا كان لابد من ذكر شيء من العورات فليعبر عنه بكناية أو إشارة .

٩-ومن الآداب التي يراعيها المسلم أن لا يطمع فيما في يد أخيه ويجتهد أن لا يخسر شيئاً من ماله ، والأولي أن يكون متفضلاً مسارعاً إلى فعل الخير مساعداً أخاه بماله ونفسه ، فإن ذلك من أخلاق المؤمنين الذين يمنحهم الله فضله ورحمته ورضوانه .

١٠-ومن آداب المجالسة أن الجليس يفسح لأخيه عند احتياجه لذلك قبل أن يلتبس أخوه منه ، كما أن الجالس يتزل القادم منزله من التكرمة خصوصاً إذا كان ذا شبيهة أو عالماً أو صاحب المنزل أو ذا سلطان ، فيتنحي له عن المجلس المناسب له مع غض البصر وعدم إظهار التفضل عليه .

١١- كما أن من آداب المجالسة أن لا يجلس على محل تكرمه الرجل في منزله إلا بعد إذنه له، ولا ينصرف من المجلس حتى يستأذن، لأن تلك الآداب تقوي روابط المحبة وبها نيل رضا الله تعالى ورسوله والمؤمنين. وعلي الجالس توقي الغضب ولو حصل له ما يغضب، فإنه ربما غضب بما يغضب فأدي غضبه إلى ما لا يرضي الله ورسوله، وليدفع بالتي هي أحسن، وعلي الجالسين أن يجتهد كل واحد منهم في أن

يدخل السرور على قلوب جميع جلسائه، وليكن أصغر الناس في المجلس أعظمهم ما دام على الحق، وأعظمهم أصغرهم إن وقع في باطل مع كمال آدابهم. ومن مدح منهم في المجلس شكر الله تعالى الذي أظهر الجميل وستر القبيح، وإذا ذم رجل رجلاً فالأولي أن يقل: اللهم إن كان صادقاً فاغفر لي وإن كان كاذباً فاغفر له تشبهاً بأصحاب رسول الله ﷺ وآله. ، فإن أساس المجالسة التسامح وأن الرجل المتسامح الكريم الأخلاق إن سمع كلمة من محالس يكدره أو رأي عملاً يكيده حملة من أخيه على أجمل محامله ليدوم بذلك الصفاء. ومعلوم أن أكثر الخصومات والمنازعات قد تنتج من كلمة يقولها الجليس لجليسه بسلامة نية فيردها عليه بحماقة ويتأولها شر تأويل فتوقد نار البغضاء، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فقد يقول الأخ الكلمة الثقيلة على أذن أخيه لا يقصد بها إلا خيراً ولو حمل الأخ كلمة أخيه على أجمل المحامل لدام الصفاء والوفاء وكان المسلمون كالجسد الواحد كما شبههم رسول الله ﷺ وآله. . وإن اللسان شر أبواب جهنم وخير أبواب الجنة، يقول ﷺ وآله. (وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم) ^(١) وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ {٢٤} تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ {٢٥} وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ {٢٦} يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ

(١) رواه الترمذي بلفظ: (وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم)

آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^(١).

١٢- وللمجالسة آداب تتفاوت بحسب مراتب الجالسين، ومجملها أنك إذا جلست مع العالم فأمسك لسانك واصغ، وإذا جلست مع الولي فأمسك قلبك لترد عليك واردات الحق، وإذا جمع الله الولاية والعلم في رجل فأمسك قلبك ولسانك، وإذا جلست مع ذي سلطان فاجعل له ظاهره وأكتم سره ولن له الكلام في النصيحة وغض بصرك عن حرمه، وإذا جالست العامة فتجنب المزح والمنافسة في شيء يسارعون إليه، واستخدمهم بما يشرح صدورهم منك إن استطعت، وإذا جلست مع من ليسوا على مذهبك فسلم لهم مذهبهم ولا تعارضهم بمذهبك فإن مذهباً لا يعارض مذهباً، وإذا سئلت فأجب على قدر السؤال.

قال بعض الحكماء: كل إنسان مع شكله كما أن كل طير مع جنسه، والناس كالشجر: منهم من له ظل ليس فيه ثمر، وهذا الذي فيه نفع الدنيا ولا ثمر له في العقي ويحتاج إليه في وقت، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا، ومنهم من فيه ظل وثمر، فهذا الذي يصلح للدين والدنيا وهو أعزها، ومنهم من لا ظل له ولا ثمر، وهذا هو الذي لا يحتاج إليه فمثله في الشجر مثل شجر الغضا وهو شوك البرية التي تسميه العامة أم غيلان الذي يمزق الثياب لا طعام فيه ولا شراب فهو في الناس يضر ولا ينفع ومثله كما قال الله تعالى: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾^(٢). وقال الإمام الشافعي

(١) سورة إبراهيم آية ٢٤-٢٧.

(٢) سورة الحج آية ١٣.

ﷺ ليونس بن عبد الأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحاً أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل فانظر ما يصلحك فافعله، وقال الثوري ﷺ: رضاء الناس غاية لا تدرك فأحق الناس من طلب من لا يدرك نسأل الله العفو والعافية.

المجالس التي ابتدعها الناس:

وقد ابتدع الناس مجالس يقتلون فيها أوقاتهم ويسودون فيها صحفهم: أما أنهم يقتلون فيها أوقاتهم، فإنها ليست لعمل في الدين ولا في الدنيا، وكفي الإنسان العاقل المطالب في كل نفس بواجبه أن يأتي يوم القيامة وقد ترك القيام بواجب أوقاته.. وأما كون تلك المجالس تسود الصحف فلا أنهم يجلسون فيها إما لشرب المحرم أو التعاون على الإثم والعدوان أو لكشف عورات الناس أو للفخر والرياء، وقد عظمت البلية حتى كثرت تلك الأماكن المعدة لتلك المجالس وصارت مفسدة للأخلاق، فإن شياطين الإنس جعلوا لها أماكن في المواضع العامة وأعدوا فيها كل منكر من طعام وشراب ونساء متبرجات وغلمان، كل ذلك مصائد لإلقاء المسلمين في مهاوي غضب الله تعالى حتى صار سخييف العقل يخرج من بيته الطلق الهواء، الجميل الفرش والرياش، وهو فيه أمر مطاع، فإذا سئل إلى أين؟ يقول: أستنشق الهواء، فيذهب إلى بؤرة فساد في وسط شارع تنبعث منه روائح القاذورات وأنفاس المارة وتعلو به الضوضاء بأصوات السوق، فيجلس وعلي يمينه مواقف السيارات وعلي يساره روث الحيوانات، فيستنشق هواء ممزوجاً بأخبث الروائح بين قوم يكون معهم محتقراً منتقداً، فيخسر ماله ودينه وجاهه ويشرب في أقذاح تنفس فيها المرضى بالأمراض القتالة، وربما جلس بجواره مريض بمرض يجب شرعاً الإحتراز منه

فيجلس المسلم بهذا الحال في هذه المجالس فيسمع الظهر والعصر والمغرب والعشاء ينادي لها المؤذن وكأنه أصم لا يسمع وبهيم لا يعقل. وعندي أن المساجد الآن أنقي هواء من الملاهي وأدعي لانشرائح الصدر ولترويح النفس فإن المسلم إذا توجه إلى المسجد يستنشق هواء جيداً نقياً، لأن المساجد غالباً تكون في الأماكن البعيدة عن القاذورات وتكون كثيرة النوافذ، ويجد فيها المسلم من يجالسه فيها ديناً وخلقاً وأدباً، ويجد فيها من يثني عليه، ويحبه لقيامه بما فرض الله عليه ويتعرف فيه بإخوان الصديق الذين يكونون جمالاً له في غناه ومالاً له في فقره، يسألون عنه إن غاب، ويشنون عليه ويسرون به إن حضر ويخلصون له. فيا أيها الأخ التارك لقصرك الذي جمع أنواع مسراتك، التارك لبيت ربك الذي به نيل سعادتك في الدنيا والآخرة المسارع إلى الملاهي ما الذي اكتسبته من العلم أو الجاه أو الصحة؟ ومن هم الإخوان الذين تكتسبهم في الملاهي؟ وهم إخوانك مادمت غنياً قادراً على مساعدتهم فإذا دعت الضرورة- لا يخلو إنسان من الضرورة- كانوا عليه لا له.

كل هذا في الدنيا، وفي الآخرة عذاب شديد وخصومة بينك وبينهم وعداوة شديدة.

إذا أردت يا أخي أن تؤاخي إخوان صفاء وخلان وفاء فاجتهد أن تصطفي لك إخواناً من المساجد ومن مجالس العلم النافع ومن أهل التقوي والصلاح وكل أخ غير هؤلاء فهو عليك لا لك، وكل جليس لا تدعوك الضرورة إلى مجالسته غير هؤلاء فهو مرض ينبغي أن يفارقه الإنسان بحكمة حكيم خصوصاً شياطين الإنس الذين يعينون على معصية الله ومخالفة سنة رسول الله ﷺ وآله ، فإنهم ألد الأعداء وأسوأ الجلساء. وقد أمرنا الدين بالاجتماع وعين لنا مكان الاجتماع

وزمانه لتدوم صحتنا وتجدد بهجتنا وتقوي أمتنا، والله أسأل أن يشرح صدرنا للعمل بالكتاب والسنة، ويصرفنا عن العمل لحظنا وهوانا.. إنه مجيب الدعاء آمين.

من المأثور عن آداب المجالسة:

جاء في الأثر: (ثلاثة من المروءة في الحضر تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة مساجده، واتخاذ الإخوان في الله تعالى) وكان سعيد بن العاص يقول لجليسي على ثلاثة إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له، وعن ابن عباس قيل له: من أحب الناس إليك؟ قال: جليسي. وكان يقول: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة تكون له إلى فعلت مكافأته من الدنيا.

ومن علم أن أعماله وأقواله وأحواله محصية عليه وأنه سيسأل عنها أمام الله عز وجل بخل بأنفاسه أن يصرفها إلا في طاعة الله تعالى والمؤمن يظهر كمال إيمانه في ثلاث مواطن في البر والصلة بأقاربه وفي المسارعة إلى عمل ما أوجبه الله وفي حسن مجالسته ومعاشرته ومن لم يستطع أن يقهر نفسه لتتجمل بتلك الآداب فالأولي له أن يخدم الدواب سنين حتى يكتسب منها الصبر والتواضع والطاعة ودفع المضرة وجلب المنفعة والله يوفقنا لخير العمل وعمل الخير وجميل الآداب.

٤- قال رسول الله ﷺ وآله: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)^(١).

(١) البخاري ومسلم والترمذي وابن خزيمة والحافظ الدمياني في المتجر الرابع.

وفي رواية: (الصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن شاتمته أحد أو قاتله فليقل إني صائم) ^(١). وقال ﷺ وآله: (إن في الجنة باباً يقال له الريان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد) ^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وآله: من فطر صائماً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيئاً ^(٣). وقال ﷺ وآله: (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وسلسلت الشياطين) ^(٤). وقال ﷺ وآله:

(لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا- ورواية فأكملوا- العدة ثلاثين) ^(٥).

وعن حفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ وآله: (من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له) ^(٦)

فرض الله على المسلمين صيام شهر رمضان ليطمئن قلوبهم بنعمته سبحانه على خير أمة أخرجت للناس، فنوع سبحانه وتعالى العبادات ليشهد المسلمين المشاهد العلية وليقيمهم سبحانه وتعالى في مقامات ملائكته المقربين الحافين حول العرش، فيجمع لنا بين الصلاة الجامعة للركوع والسجود والتسبيح والتحميد ومناجاته سبحانه

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري ومسلم وابن خزيمة والحافظ الدمياني في المتجر الرابع .

(٣) الترمذي وابن ماجة وابن حبان وابن خزيمة والحافظ الدمياني .

(٤) مسلم والحافظ الدمياني في المتجر الرابع .

(٥) أخرجه الستة إلا الترمذي .

(٦) أخرجه الإمام أحمد والسيوطي في الجامع الصغير .

بكلامه وبين الصيام الذي نكون به سائحين في فسيح ملكوته الأعلى متشبهين
بالأرواح النورانية المجردة الهائمة في جلال الله.

والصيام هو ترك ما أباحه الله تعالى للمسلم من شهوتي البطن والفرج الذي
يقتضي ترك ما أباحه الله تعالى لجميع الجوارح المجترحة مما لا تدعو إليه ضرورة
شرعية كالسعي على المعاش وقضاء ما لا بد منه من الحوائج والشئون. والصائم في
الحقيقة هو من حفظ عينيه وأذنيه ويديه ورجليه وعقله وروحه بالعكوف على
صرف أنفاسه في رمضان في العمل بمحاب الله ومراضيه حتى يقوي تشبهه بالملأ
الأعلى فيمن الله تعالى عليه بأن يصغي سره إلى كلام الله من الله تعالى فإن الله
سبحانه من علينا جماعة المسلمين بما من به على أنبيائه الأطهار فقال تعالى:
(لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) ^(١) وقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن
لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ^(٢) وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُيَاغِرُونَكَ إِنَّمَا يُيَاغِرُونَ
اللَّهَ﴾ ^(٣) وكل تلك المقامات العالية موروثة من الرسل عليهم الصلاة والسلام،
وقال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ^(٤) ليتفضل عليه سبحانه بالكلام
ففرض علينا شهر رمضان إحساناً منه إشارة إلى أن الله تعالى يتفضل علينا بقسط
من وراثته كليمه عليه الصلاة والسلام.

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) سورة هود آية ١٤ .

(٣) سورة الفتح آية ١٠ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

والصيام عبادة جسمانية روحانية، ومتى صام المسلم بجوارحه وعقله وروحه فاز بالوصال وتفجرت ينابيع الحكمة في قلبه وتجرد من دواعي الإبلسية ولوازم الحيوانية وصار أشبه بأهل الرفيق الأعلى.

وليس من ترك الأكل والشرب والنكاح بياض النهار وأفطر ببقية الجوارح بصائم. ، بل الصائم من حفظ عينيه مما يكره الله فنظر بها معتبراً، وحفظ لسانه عن اللغو وسكت عن الكلام مفكراً أو ينطق ذاكراً، وحفظ بقية الجوارح وقلل النوم نهاراً حتى يعمر أوقات النهار بالشعور بآلام الصيام وبالعمل النافع لأهله وإخوانه وبالقربات من مواساة الفقراء ومساعدة أهل الحاجة والصلح والإصلاح. لأن خير القربات عند الله تعالى بذل الفضل من المال والعلم والجاه في رمضان.

ومن آداب الصيام أن يشكر الصائم ربه على أن أعانه على هذا العمل، وأن يري نعمة الله عليه من أعظم النعم، وأن يحفظ صيامه من أن يغتر به أو ير نفسه متضرراً منه. وليحذر الصائم من الغضب وسوء الخلق، فإن الصيام يهذب الأخلاق ويحمل الصائم بأخلاق الله تعالى. ومن تعود الغضب والحقاقة في الصيام أو ترك المباح في غير رمضان من أكل وشرب ونكاح وعمل ما حرمه الله عليه في غير رمضان من الغيبة والنميمة والحسد وظلم العباد والربا والفخر وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم والإفطار على الحرام والجلوس في المجالس التي يكرهها الله تعالى، فقد ظلم نفسه وجاع من غير فائدة وسهر من غير أجر. ومن ذاق حكمة الصيام يعلم أن الله تعالى أراد أن يرفعنا من طور الحيوانات إلى عالم الملكوت لنكون من أهل الحضور والشهود.

وقد اتفق الأئمة السابقون على تقسيم الصيام إلى ثلاثة مراتب هي: صوم العامة وصوم الخاصة وصوم خاصة الخاصة، والأول صوم البطن والفرج والثاني صوم الجوارح والثالث صوم القلب، وجاء الإمام عليه السلام وفصل هذا الجمل من القول بصورة غير مسبقة في كتابه (صيام أهل المدينة المنورة) حيث وظف الأحاديث النبوية الشريفة الخاصة بالصيام لكل مرتبة على حدة حيث يقول تحت عنوان

مراتب الصيام:

أولاً: صوم العامة

ترك الأكل والشرب وملامسة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ثانياً: صوم العلماء

ترك شهوتي البطن والفرج، مع حفظ الجوارح من الاستطالة، فإن الصوم إذا أطلق أريد منه الترك مطلقاً.

ولكل عضو صيام بحسبه، فصيام اللسان ترك الكلام إلا في ذكر الله أو ما لا بد منه، وصيام الأذن ترك الإصغاء إلا إلى العلم أو ما لا بد منه.. قال سبحانه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(١).

والعلماء يمتازون عن العامة بصيام كل جوارحهم، ولكن العامة يصومون بترك شهوتي البطن والفرج، وشتان بين الصيامين.

(١) سورة مريم آية ٢٦..

ثالثاً: صوم العارفين بالله

وصيام العارفين بالله عمارة الأنفاس في اليقظة بمراقبة الله تعالى، وعمارتهما في النوم بسياحة الروح في ملكوت الله الأعلى، لتقتبس لطائف العوارف من عالم الطهر والصفاء، وتعود إلى الهيكل الإنساني بتحف الروحانيين حملة العرش والحافين حوله، لأنهم تركوا لوازم الحيوانية نهاراً، فتشبهوا بالملائكة الكرام، وقاموا بين يدي مولاهم ركعاً سجداً يبتغون فضله ورضوانه، فتشبهوا بعالم الطهر من عليين وأعلي عليين، فإذا ناموا ليلاً سرت أرواحهم الطاهرة إلى فضاء هذا العالم لأنها مجانسة له. هذا مقام فوق العبارة، بل فوق الإشارة وقد ألمعت إلى غوامض هذا المقام في كتاب (معارج المقربين) و(النور المبين) وكتاب (الإسلام دين الله) .

رابعاً: صوم المقربين

أما صيام المقربين ممن أخلصهم الله لذاته، فهو تزيه سر الصائم عن خطور ما سوي الله عليه، لأنهم شغلوا بالمعروف عن المعرفة، وبالمعلوم عن العلم بعد تحصيل العلم والمعرفة، وأهل هذا المقام عمرهم كله رمضان، إلا أنهم في هذا الشهر المبارك يتركون ما أباحه الله لهم نهاراً، قياماً بالفرض والسنة ورعاية لواجب الوقت، الذي لا يشغلهم عنه أعظم شأن من شئون المشاهدة، فإن القيام بفرائض الله تعالى فوق كل مقام، ومن ظن أن الشهود يسقط الفرائض التي فرضها الله وقام بها رسول الله ﷺ وآله ، أوقع نفسه في مهاوي الهلكة، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي الطويل (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ من أداء ما افترضته عليه)^(١).

(١) رواه البخاري.

وأهل هذا المقام في صيام طول عمرهم ولو أكلوا وشربوا في غير رمضان نهاراً، لأنهم صاموا بست جوارح في غير رمضان، وصاموا في رمضان بثماني جوارح، وغيرهم يصوم في رمضان بجارحتين، وربما يفطر بالجوارح الباقية، فيكون صائماً عند نفسه فقط، وإن أسقط بعمله ما فرضه الله عليه، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وأول ما يسأل عنه المسلم يوم القيامة (هل تعلمت أم لا؟) .

خامساً: صوم المحبوبين

وهؤلاء يعلمون أن رمضان شهر الله تعالى، ونسبة هذا الشهر إليه سبحانه دليل على أنه يقرب من أوليائه فيؤنسهم فيه كما نسبت إليه الكعبة فسميت ببيت الله، فسارعوا إلى أن يعمرُوا الأنفاس بالحضور مع مولاهم، فحرصوا عليه كل الحرص، ونظروا إلى أمر الله في رمضان، فظهر لهم أنه حرم عليهم المباح في نهاره، ورغبهم في إحياء ليله بالقيام، فظهرت لهم حكمة عناية الله بهذا الشهر من التشبه بالعالم الأعلى، عالم الأرواح النورانية المجردة من العناصر السفلية، عالم اللطائف الروحانية الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فساحوا بأرواحهم في فسيح الملكوت حضوراً أو استحضراراً وفكراً وتجردوا عن وجودهم الباطل بالوجود الحق، وتخلقوا بأخلاق الله حلمًا ورحمة ورأفة وعطفًا وكرمًا وإحسانًا وفضلاً، أحسنوا إلى من أساء إليهم ووصلوا من قطعهم، واستحضروا عظمة الله وجلاله، فانكسرت قلوبهم بين يديه، فكان سبحانه عندهم بما هو أهله من جمال وقرب وحب وولاية وعناية، أوحشهم أنسه عن كل أنس من سواه، وأنسهم بجماله ففروا من سواه وما سواه، وأقبلوا بكليتهم به سبحانه عليه، فكانوا كأنهم في ضيافة الله على بسائط مؤانسته وموائد كرامته، أرواحهم سائحه في ملكوته، وسرهم مشرف على قدس عزته وجبروته، فهم بين الناس بأجسامهم ومع الله بأرواحهم،

اجتباهم لحضرته فأفردهم له، وواجههم به بجمال وجهه العلى، ففروا به إليه سبحانه، تلهذوا بما يتألم به أهل الجهالة وفرحوا بما يحزن منه أهل الغرور، تصعد أنفاسهم إلى الملكوت فتضيء عوالم عليين، يناجون الله تعالى بكلامه حتى كأنهم يسمعون منه سبحانه، ويضعون وجههم ليلاً على تراب الذل، تملقاً بين يدي مولاهم، أمانيهم أن يكون الدهر كله رمضان، وحزنهم أن يمضي نفساً منهم في غير الحضور مع الملك الديان، انكشفت لهم حقيقة الدنيا والآخرة، ففارقوا ما يزول بقلوبهم وزهدته أجسامهم، وسارعوا إلى ما يبقى طمعاً في شهود الوجه العلى الكريم في النعيم المقيم.

سادساً: صوم الصوفية

الصيام لغة الصمت، والصيام عند الصوفية صولة الروح على الجوارح، صولة تجعلها تجانسها بجانسة ما، فتجاهد في سبيل الإتحاد بها من حيث ما تقتضيه الروح في حقيقتها، وبكمال تلك الحقيقة تمنح الجوارح قبساً من الملكوت الأعلى تنال به الرفعة عند ردها إلى أسفل سافلين، وتلك الرفعة تتلقي من ربها كلمات الإنابة الموصلة إلى المقام الذي أكرمها ربها به في المرتبة الآدمية، إلا أن آدم أسكن في مقام الزوجية النفسانية الجنة متمتعاً بنعيمها، وهذا الصائم يكرم بدخول جنة الرضا متمتعاً بأسرارها لتجرده عن مقتضيات الجوارح المتحرجه بترك ما أبيح له مما لا بد منه، والإقامة في محاب الله ومراضيه، فيكون صائماً بكل جوارحه مع وجود المقتضي لا فقده، وهو الجهاد الأكبر جهاد الحس والنفس والعقل والجسم، معني قوله ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (الصيام جنة)^(١). وليس بصائم من ترك ما أبيح له ووقع فيما

(١) البخاري ومسلم .

حرمه عليه، وعلامة قبول الصيام تخلق الصائم بأخلاق الله أو على الأقل بأخلاق عالم الطهر الروحاني من عوالم الملكوت.

والصيام سياحة عظمى، قال تعالى: (السائحون) ^(١) بمعني الصائمين، والصيام صبر على خرق العادة من طبعه، وهو الذي بشره الله بمعيته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ^(٢)، والصابرون من معناها الصائمون. فجاهد نفسك في الصيام أن تتخلق بتلك الأخلاق مهما ضحيت بكل غال ورخيص في سبيل ذلك، لتفوز بمعية الله لك. وبقدر نزوع النفس إلى ما يخالف تلك الآداب وقهرها عليها تكون رفعتك وقربك ونيلك وحظك، ولعلك فهمت إشاراتي وأنت في فاتحة الشهر فاستعن بالله وقل لا حول ولا قوة إلا بالله.

٥- قال النبي ﷺ مبيناً لغوامض أسرار الحديث النبوي الشريف: (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإذا تهاون إخوانك فاشدد لثلاً يدخل العدو من قبلك) ^(٣).

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان حراً مريداً، ومنحه سبحانه وتعالى العقل، وبين له سبيل نجاته وهاوية هلاكه، وأمره ونهاه، وقدر في أزاله سبحانه وتعالى لو قهرهم على توحيده وقدر عذاب بعضهم لكان ظلماً، ولو قهرهم على الكفر به سبحانه وقد نعمهم لخالف ذلك الحكمة والعدل.. وهو الحكم العدل ذو الفضل

(١) سورة التوبة آية ١١٢.

(٢) سورة البقرة آية ١٥٣.

(٣) أبو داود وابن ماجه والدارمي ومالك في الموطأ.

العظيم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ {١١٨} إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ ﴿١﴾.

فاختلاف الخلق لحكمة عليية هي ظهور الفضل والعدل لذلك سلط سبحانه أهل الباطل على أهل الحق، وأمر جل جلاله أهل الحق بالتحفظ من أهل الباطل ومجاهدتهم ابتلاء منه سبحانه للفريقين حتى يتجلي فضله على عباده الذين وفقهم وأعانهم، وعدله فيمن خالف وأبى.

ولما كانت الحقائق التي ركب منها الإنسان لا تقتضي بذاتها الإقبال على الحق والإسراع إلى ما عنده لميولها إلى الفطر الحيوانية والمفاسد الإبليسية بطبيعتها، لذلك كان إقباله على الله وقبوله للهدى والنور بعناية من الله زائدة على حقيقته. وليس العجب أن تري الإنسان مسارعاً إلى ما يوبقه في نار جهنم ويلبسه الخزي والعار في الدنيا من الشرك بالله ومخالفة وصايا رسول الله ﷺ وآله ﷺ والتهاون بأحكام الله تعالى والتدنس بالردائل الأخلاقية من ضعف المهمة، حتى يبلغ منزلة الذل من خوف الذل، ودرجة الموت من خوف الموت، وحالة الفقر من خوف الفقر، فيعيش أضل من الحيوان وأخبث من الشيطان فرحاً بما ناله من لذة أو جاه أو مال لعمي عيون بصيرته عن الخير الحقيقي الذي يناله أهل المهم العلية في الدنيا والفوز العظيم في الآخرة. ولو فكر الإنسان لاستبان له الخير وطريقه فساد إليه، ويظهر له الشر ومدارجه فيتباعد عنه، ولو كان في بعده عنه جوع بطنه وعري جسده وآلام جوارحه، لأن بهجته باللذة الروحانية وأنس ضميره نصيره على المجاهدة في سبيل

(١) سورة هود آية ١١٩.

الخير الحقيقي ينسيانه كل ألم وشدة.. كيف لا، وإن صاحب الدمى ليتلذذ بتمزيق جلده بالمشروط ويلتمس من الطبيب أن يستأصل الأجسام الغريبة من جسمه مع فادح الألم لاعتقاده نيل الراحة والحياة الطيبة بعد تلك المجاهدات الشاقة.

ولما كان كلام رسول الله ﷺ وآله عليه السلام يجب أن يتلقي بأذان القلوب حتى تفقه من أسرار ما هي مؤهلة له بقدرها، لزم أن نتلقاه بتسليم، ونستمد من روحانيته ﷺ وآله عليه السلام أنوار بيانه وفقهه، ويظهر والله أعلم أن الإسلام هنا مقول على حقائق كثيرة منها أحكامه، ومنها جماعة المسلمين، ومنها كل أرض تقل المسلمين، وأهل ذمة الله ورسوله ﷺ وآله عليه السلام، ثم خص ﷺ وآله عليه السلام المسلمين لأنهم مكلفون بأحكام الله تعالى، ثم خاطب كل فرد منهم ليبين ﷺ وآله عليه السلام أن الرجل الواحد من المسلمين هو كأمة عظيمة، وأنه ما خلق إنساناً وهداه الله للحق إلا وأقامه سبحانه وتعالى عاملاً مخلصاً ممثلاً لرسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

فإذا فسرنا الإسلام بالأحكام.. كانت ثغوره: أولاً: حفظ كلام الله تعالى. ثانياً: تفسير آياته المقدسة، ثالثاً: الأحكام الشرعية، رابعاً: الجهاد في سبيل الله، خامساً: تنفيذ الأحكام الشرعية، سادساً: الدعوة والإرشاد، سابعاً: الإمامة العظمى، ثامناً: الإمامة الخاصة في المساجد والخطب في الجمعة وغيرها، تاسعاً: التمسك بعلوم اليقين، عاشراً: الإقبال على الله فراراً مما يشغل عنه بالشوق والتنسك والزهد.

هذه هي الثغور، وعلي كل ثغر واحد أو جماعة من المسلمين يحافظون على هذه الثغور بالنفس والنفائس إبتغاء وجه الله الكريم ورغبة في نيل رضوانه الأكبر في جوار أولياء الله الأطهار.

وإن فسرنا الإسلام بالمجتمع الإسلامي: كانت ثغوره: رحمة الكبير الصغير، وتعظيم الصغير الكبير، أو حب كل مسلم لكل مسلم ما يحبه لنفسه، ومعاملة أهل ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وآله ﷺ بما يعامل به نفسه، ونصرة الأخ ظالمًا أو مظلومًا فيمنع عنه الظلم بالقوة ويمنعه عن الظلم بالنصيحة، وجلب الخير ودفع الضر ابتغاء مرضاة الله تعالى وإحياء لشعائر الإسلام، والنصيحة لله ولرسوله ﷺ وآله ﷺ ولخاصة المسلمين وعامتهم وأهل ذمة الله ورسوله، وبذل المجهود في اختراع ما به راحة المجتمع حتى تكون الأمة مهيبة آمنة، وجلب ما لا بد منه وأكمل مما هو غير ميسور لدي الأمة راحة للمجتمع، وتصريف ما لا حاجة إليه من محصولات الأمة لتنمو الخيرات ويحصل للأمة الغنى، والعمل بالإخلاص بعد الراحة من عناء الشغل بالضروريات لتوفير ما لا بد منه، والمسارة إلى فتح كنوز الأرض حتى تنتفع الأمة بما خزنه الله من الخيرات في الأرض، وقيام رجال منحهم الله الرحمة والشفقة بتحصيل ما به حفظ الصحة على أهلها وإعادتها عند فقدها حتى تكون الأمة هي من أعظم القصود الدنيوية، وهناك ثغور أخرى تعلم ولا تجهل، وثغور أخرى تتلقي من أفواه أهل العلم بالله تعالى لآذان الراغبين في نيل الكمال. وتلك الثغور يجب أن يكون على كل ثغر منها واحد أو جماعة من المسلمين.

وإن فسرنا الإسلام بالبلاد الإسلامية: فهذا هو الأمر المهم الجامع المانع الذي به نيل السعادة والمجد والعزة في الدنيا والآخرة. وثغوره لا تخفي على ذي بصيرة، وهي حسية ومعنوية.

فثغوره الحسية: فرضه أو أبوابه المقابلة للأعداء وعواراته التي يتمكن الأعداء منه بسببها، وتلك الثغور الحسية فرض الله تعالى المراقبة عليها فرض كفاية متى قام بها البعض سقطت عن البقية وتعين على كل مسلم إذا أهملت، وإذا فاجأ العدو أرض المسلمين تعينت المدافعة عنها، وتجب بتعيين الإمام الأعظم، وبإهمالها ضياع خير الدين والدنيا والآخرة.

أما خير الدين: فبالتهاون بأحكامه والعمل بغيره، وأما خير الدنيا: فلانتقال الفنون والصناعات والحرف والأعمال والرياسات والتجارات لغير أفراد الأمة وهي موارد الثروة والترف، فتصبح الأمة وقد أفسدت الحاجة أخلاقها والذلة آدابها والمخاوف عوائدها وتقليد المسلمين دينها، فتبوء الأمة بخسران الخيرات والآداب والأخلاق والثروة والعزة والحرية والإرادة بسبب إهمال فرد من أفرادها لثغورها الذي هو عليه إما لجهالته أو لشهره وطمعه، فيضيع مجداً عظيماً وخيراً عاماً لمال يقتنيه أو لسيادة يبتغيها أو لأمل كاذب يدعوه، ومثل هذا يبوء بالخزي والعار والشنار وسوء الأحداث في الدنيا، والنار بعد موته، ولو تدبر هذا الغر فيما يجره من الخيبة والوبال على نفسه وقومه لتمنى أن يحترق بالنار ولا يعمل هذا العمل أو يتمزق جسمه بالمقذوفات ولا يهمل في ثغره.

تلك الثغور هي التي يجب أن توصل (تسد) في وجه كل مناويء وتحصن بأمنع الحصون وأقوي الرجال أهل التقوي والغيرة، ويجب أن يكون القائمون بها من

العاملين بمقدار ما ينالونه من الشرف والمجد والرفعة في الدنيا ومجاورة الأطهار في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فإنهم أمناء الله على خيرها الدنيوي والديني والأخروي، بل وعلي حياتها السعيدة في ظل الحرية والأمن والإرادة.

جعل ﷺ وآله ﷺ كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام ليبين لكل فرد مقداره المعنوي في تلك الدار الدنيا لتعظيم الهمم ولتكبير النفوس، وليعلم كل مسلم أنه قائم مقام رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، وأنه عامل من عمال الله، عملاً لا يقوم به المقربون من ملائكة الله، فيكون لكل مسلم عند الله تعالى مقام فوق ملائكة الله تعالى، فيحصل لكل مسلم نشوة من تناول هذا الطهور المقدس تجعله مسارعاً إلى الخير ب كله، نشيطاً شجاعاً كريماً متمثلاً بمقدار منزلته عند الله تعالى بإقامته في حفظ ثغور المسلمين، فكل مسلم مطالب أن يجعل له وقتاً يفكر فيه في دوام حفظ هذه الثغور في إبداء فكرة أو إحداث مخترعات أو بذل أو تنبيه إلى ذلك حتى يكون من عمال الله تعالى في أرض الله تعالى ومن جعلهم الله أبدال رسله.

أما الثغور المعنوية:

- ١- فيقظة القلب لإقامة حدود الله.
- ٢- الغلظة في دفع المظالم وكبح جماع الظالم.
- ٣- السهر في مراقبة شئون المجتمع لئلا يدخل عدو عليهم فيفرق جامعتهم ويفسد آراءهم ويحقر أمامهم فضائلهم.
- ٤- الجذب بذل ما في الوسع في رعاية أحوال المجتمع خوفاً من مخادع يدس بين المسلمين فيفسد بين العامة والخاصة لفك عروة الإخاء وتعكير الصفاء.

٥-المسارعة إلى رعاية العدل بالإحسان إلى المحسنين والإساءة إلى المسيئين مع الإحتياط إلى قوم والعفو عن بعضهم.

٦-تقبيح كل عمل أو عادة أو هيئة ما لم يستحسنه الدين أو تؤدي إلى إسراف أو ضياع لفضائل الأمة وأخلاقها حتى يتنبه الغافل ويستيقظ النائم ، فإن معظم النار من مستصغر الشرر.

٧-تعزيد كل من قام بعمل خير أو بقول خير أو دل على خير مهما كانت منزلته في الأمة لتنافس الأمة في الفضائل ويقتدي بعضها ببعض في الخيرات.

٨-تغذية الأبناء بلبان الشجاعة الأدبية والآداب الشرعية والأخلاق المرضية، ومجازاتهم على الحسن من الأعمال بالمدح والثناء حتى يسارعوا إليه، وتأديبهم على القبيح منها بأسلوب الحكيم ببيان مضرته وسوء عاقبته حتى يكرهوه، فيشبون على أحسن الأحوال رحمة وعزة نفس ومسارعة إلى النافع وعملاً للخير لأنهم الأمة المستقبلية.

وهذه نماذج الثغور المعنوية كل ثغر منها عليه رجل من المسلمين أو امرأة أو رجال ونساء كل بقدر قسطه .

وأهم الثغور المعنوية العناية الكبرى بتربية النشء حتى يسروا سلفهم الصالح بحفظ آثارهم، ووالديهم بتيسير الخير لهم، وحفظ شرفهم والمجتمع أجمع بالقيام بحفظه وجلب الخير له ودفع الضر عنه، ورجال المستقبل بما ييقونه لهم من جميل الآثار وجليل الأعمال فيقتدون بهم وينافسونهم في فضائلهم، وإهمال تربية النشء بتسليمهم إلى من لا يحسن التربية علماً وعملاً وأدباً وأخلاقاً ومعاملة، أو إلى من يسره بقاءهم في الحضيض الأسفل خوفاً من مزاحمته فيما اغتصبه منهم أو مساواته

فيما امتاز به عنهم.. فقد سعي في هلاك الأمة ومحو آثارها الجميلة ديناً ودنياً، وكيف يأمن الرجل على ابنه الذي هو حقيقته في حياته وصورته الباقية بعد مماته وخليفته على أقاربه وذكره الخالد له فيسلمه بيده ليعلمه أعداء نعمته وحساد مجده والساعون في سلب سيادته وعزه، ويعتقد بعد ذلك أن ينال خيراً.. اللهم رحماك بأمة باعت مجداً يدوم وخيراً يبقى بأجنس الأئمان، ومن تساهل فأضاع يجب أن ينبه ليسارع إلى رد ما أضاع أو يفتح الباب لغيره، والله ولي المتقين.

الإمام وعلم التوحيد

معرفة علم التوحيد واجبة على كل مسلم ومسلمة وذلك لما يترتب عليه من صحة العقيدة وسلامة الإيمان وما ينتج عن تركه والجهل به من الوقوع في الشك والالتباس والانحراف والزيغ والضلال.

ولما كان علم التوحيد هو أول العلوم الواجبة على المكلف، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ^(١) وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٢) وقوله سبحانه: ﴿وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٣).

لأجل ذلك شرع الإمام أبو العزائم عليه السلام في بيان عقيدة التوحيد في كثير من كتبه بياناً مرتباً ترتيباً على قدر قوة السالك، متدرجاً حسب تمكنه في المقامات التي هي الإسلام والإيمان والإحسان والإيقان، فجاء ذلك كما يلي:

أولاً: تناول الإمام عليه السلام عقيدة السلف متمثلة فيما قاله الشيخ أبو طالب المكي في كتاب (قوت القلوب) ، وعقيدة العامة كما ذكرها الشيخ عماد الدين الأموي في كتاب (حياة القلوب) ..

(١) سورة محمد آية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٨ .

(٣) سورة البقرة آية ١٦٣ .

فقال عليه السلام في كتاب (عقيدة النجاة) :

١- عقيدة السلف الصالح:

فرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، أول لا ثاني له، موجود لا شك فيه، حاضر لا يغيب، عالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حي لا يموت، قيوم لا يغفل، حلیم لا يسفه، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت، آخر بغير حد، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد، لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه لم يحدثها لنفسه، لا بداية لكيونته لقدمه، ولا غاية لأبديته، آخر في أوليته، أول في آخريته، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شيء، ووراء كل شيء، وفوق كل شيء، ومع كل شيء، وأقرب إلى كل شيء من نفس الشيء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له، وأن الله جل شأنه هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شيء، ليس في الخلق إلا الخلق.

وأنه تعالى ذو أسماء وصفات، وقدرة وعظمة، وكلام ومشیئة وأنوار، كلها غير مخلوقة، ولا محدثة، بل لم يزل قائماً موجوداً بها جميعاً، له الخلق والأمر والسلطان والقهر، يحكم بأمره في خلقه وملكه ماشاء كيف شاء، لا معقب لحكمه، ولا مشیئة لعبد دون مشيئته، لا حول لعبد عن معصيته إلا برحمته، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته، ولا يجب عليه في الأحكام ما أجري علينا، لا يختبر بالأفعال، ولا يشار إليه بالمقال، عادل بحكمه وعدل هما صفته، لا تشبه حكمته بحكمة خلقه، ولا يقاس عدله بعدل عباد، قد جاوز العقول وفات الأفهام، وهو كما وصف

نفسه، وفوق ما وصفه خلقه، نصفه بما ثبتت به الرواية وصحت عن رسول الله ﷺ وآله ﷺ

وأنه ليس كمثله شيء في كل شيء بإثبات الأسماء والصفات ونفي التمثيل والأدوات، وأن ما سوي أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من الملك والملكوت محدث كله ومظهر، كان بعد أن لم يكن ولم يكن قديماً ولا أولاً، بل كان بأوقات محدثة وأزمان مؤقتة، والله تعالى هو الأزلي الذي لم يزل، الأبدى الذي لم يحل، أحد صمد، لم يلد وبمعناه لم يولد، ولم يخلق من ذاته شيء، كما لم تخلق ذاته من شيء، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علواً كبيراً.

٢- عقيدة العامة التي لا بأس بها:

يعتقدون أن الله تعالى واحد فرد صمد، قديم أزلي، باق أبدي، وأن ما سواه فهو صنعه وخلقته، لا شريك له، ولا ضد ولا ند ولا شبيه، موصوف بكل ما وصف به نفسه من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، مسمي بكل ما سمي به نفسه، ليس بجسم فإن الجسم ما كان مؤلفاً والمؤلف يحتاج إلى مؤلف، ولا هو بجوهر فإن الجوهر ما كان متحيزاً وهو سبحانه خالق كل متحيز، ولا هو بعرض لأن العرض لا يبقى ويحتاج إلى جوهر.

سبحانه لا يكييفه العقل ولا يمثله الفكر، ولا تلحقه الإشارة ولا تعنيه العبارة، العقول محجوبة عن درك حقيقته إذ العقول للعبودية لا للإشراف على الربوبية.

ويعتقدون في الاستواء ما قاله مالك بن أنس حين سئل عنه فقال: (الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة). ويؤمنون بجملة ما ورد في الكتاب العزيز وجاءت به الروايات الصحيحة عن النبي ﷺ

وآله ﷺ من أحوال المعاد ويوم القيامة وما فيه وما بعده، وأجمعوا أن الله خالق أفعال العباد، وأن الخلق يموتون بأجلهم، وأن الشرك والمعاصي كلها بقضاء الله وقدره من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة فلله الحجة البالغة، ولا يرضي لعباده الكفر والمعاصي، والرضا غير الإرادة. ويتبرأون من المعتزلة والقدرية والجهمية والمشبهة والمعطلة والخوارج والروافض وسائر أهل البدع.

وأجمعوا على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، فمن ترك الإقرار فهو كافر، ومن ترك التصديق فهو منافق، ومن ترك العمل فهو فاسق.

٣- مآخذ الإمام في عقيدة التوحيد:

بين الإمام عليه السلام أنه عند الكلام في عقيدة التوحيد فإن مآخذه هي: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وآله ﷺ، وأقوال وأعمال الصوفية الكمل. والعمل بإخلاص بما علمته فيعلمني الله تعالى علم ما لم أعلم، والاجتهاد في الأمور إذا لم أجد لها صريح حكم في كتاب الله وكتاب رسوله وأقوال السلف بكل احتياط.

٤- عقيدة العلماء الربانيين:

وهنا ينسب الإمام عليه السلام إلى الأصول التي أخذ بها العلماء الربانيون في العقيدة التي لا نجاه لمسلم إلا بها لانحصارها في الكتاب العزيز والحديث الشريف فيقول: تنحصر هذه الأصول عندهم في مسألتين هامتين:

أولاً: الإمداد، ويسمونه العناية.

ثانياً: الإيجاد، ويسمونه الإبداع.

وإنما اخترنا الإمداد والإيجاد لأنهما لفظان قريبان لعقول الجمهور، ولأن كانت هذه الدلائل مما يعسر فهمه على العامة إلا أننا نطمح أن يسطع نور ما فيها من

أسرار القرآن وحكمة الشريعة على تلك العقول فتتفع منه بحسب القوة القابلة فيها.

ومن أراد مزيداً من تفصيل هذه الأصول، فعليه بمطالعتها في كتاب (عقيدة النجاة) ص ٢٢ وما بعدها.

ثانياً: تناول الإمام أبو العزائم عليه السلام بيان التوحيد من ناحية تعريفه وحقائقه وأنواعه وكيفية تلقي التوحيد والدروس التي يجب على المسلم أن يتعلمها في كتاب (دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك) فقال:

١- تعريف التوحيد:

هو تمييز الحادث من القديم حتى يذوق - أي المريد - حلاوة التوحيد. ومن حكم عليه خياله ووهمه نظر إلى المادة وأعراضها فنسي الله تعالى فأنساه نفسه - قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾^(١)، ومن نسي نفسه بدءاً ونهاية تمضي يوم القيامة أن يكون تراباً.

الحادث والقديم: إذا نظر القلب إلى الحادث الجديد صار محجوباً بعيداً - قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٢) وإنما الجديد ليشير للقلب إلى ما فيه من سر الحي القيوم ونور الخلاق العليم، فإذا تجرد القلب من نظره إلى الجديد، أشرقت أنوار الآيات وصار للغيب شهيداً، وإذا تجرد من شهوده ظهرت غرائب القدرة وعجائب الحكمة فجذبت به إلى القادر الحكيم، وأظهر الجديد كله ليعرف جل جلاله بقدرته الباهرة، ويلحظ القلب أنواره الظاهرة، فيشكره العبد ويذكره ولا

(١) سورة الحشر آية ١٩.

(٢) سورة ق آية ١٥.

يكفره، ويطيعه ويعبده ولا يجحده. ومن شغله القديم الفاني عن الجديد الباقي طال اغترابه ودام عذابه.

٢- حقائق التوحيد:

بين الإمام عليه السلام أن حقائق التوحيد ثلاثة فقال:

أولاً: توحيد الله نفسه بنفسه:

وهو التوحيد الذي لا يطيقه مخلوق مقهور. وفي الأثر (كلكم حمقى في ذات الله)، وقال الصديق الأكبر: (العجز عن درك الإدراك إدراك).

ثانياً: توحيد من اصطفاهم:

توحيد الله الذي يتفضل به على من اصطفاهم من أولي العزم، وعلي من اجتباهم من رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، من اختطفتهم يد العناية من ورثة رسول الله وأبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام ممن أظهر أرواحهم بدءاً على بديع جماله العلي وذكرهم في الكون بالسنن الرسل والورثة بما أظهرهم عليه بدءاً وأعانهم فقبلوا وأقبلوا قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١).

ثالثاً: توحيد الخلق ربه بالنظر والاستدلال:

ولكل حقيقة من هذه الحقائق شواهد قائمة ودلائل واضحة، وطهور يدار على أهل الصفا من الأخيار، فالتوحيد الذي وهبه الله لعباده مأخذه ﴿وَذَكَرَ فَإِنْ

(١) سورة الزمر آية ٢٣.

الذِّكْرِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾، والتوحيد الذي يحصله الخلق مأخذه من قوله سبحانه: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢).

يقول العلامة:

كل شيء دلائل التوحيد ينيء العقل في مبادي الشهود
في الكيان المحدود آيات ربي فيه غيب الغيوب في التجريد
سر هذا التجريد كشف المعاني وهو آي دلت على المعبود
انظرن في النبات تشهد غيباً يجذب الروح للولي الحميد
حيرتني آي النباتات لأني قد شهدت الوجود سر معيد
حيرتني آثار قدرة ربي طمأن القلب قول رب رشيد
يا إلهي أدر طهور المعاني كي أري الغيب في غصون الجديد
يا إلهي وافتح كنوز العطايا وفقني أفي بكل العهدود
واشفني من سقام جسمي وقلبي هب لكل الأولاد خير المزيد
أعط خير العطا لآلي وصحبي في حصون المختار فاجعل شهودي

٣- كيفية تلقي علوم التوحيد:

الدرس الأول: وأول درس من دروس التوحيد تلقته الأرواح من ربها عياناً
وسماعاً منه سبحانه في يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (٣)، وهذا أول خمر أديرت على
الأرواح فأسكرتها.

(١) سورة الذاريات آية ٥٥.

(٢) سورة يونس آية ١٠١.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) سورة الأعراف آية ١٧٢.

عاهد الله الأرواح ألا تغفل ولا تنسي ولكن الأشباح حجب الأرواح فنسيت.

الدرس الثاني: يتلقاه المسلم من والديه بالتقليد والتسليم، وبهما يسعد إن كانا مؤمنين أو يشقي إن كانا كافرين، قال ﷺ وآله في الحديث الطويل: (..) وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه^(١).

الدرس الثالث: يتلقاه المسلم بعد البلوغ من العلماء الربانيين والأمناء والعارفين الذين حصلوا هذا العلم من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وآله، ومن صحة صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده، وهم أهل التمكين وحق اليقين بعد عين اليقين.

ومن تلقي هذا العلم من علماء الكلام أو من الفرق المتفرقة أهل الرأي والجدل والبحث والدلائل العقلية، لم يفز بالتوحيد، بل ارتد بالشكوك في لبس من خلق جديد، أعاذني الله وإخواني من أن نتلقي هذا العلم بموازين أهل الكفر من اليونان والرومان والفرس ونترك ما جاءنا به رسول الله ﷺ وآله من عند الله.

الدرس الرابع: يتلقاه المسلم من القرآن والسنة ذوقاً وإلهاماً حتى يبلغ درجة يقرأ القرآن فيسمعه من رسول الله ﷺ وآله، ويرقي إلى مقام يسمع فيه من رسول الله ﷺ وآله في حالة استحضار، ولديها يتفضل الله تعالى عليه فيقربه قرباً ينال به حالة روحانية يستظهر منها القرآن من الله تعالى، وهنا نظوي بساط دروس التوحيد في مقامات التمكين غيرة للأسرار العلية ورحمة بالعقول الإنسانية، ومن طلب المزيد لزم أعتاب المرشد الكامل.

(١) البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد ومالك في الموطأ والسيوطي في الجامع الصغير .

٤-أنواع التوحيد:

(١)توحيد الإقرار: ومأخذه قوله ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) ^(١)، وهذا الإيمان يحفظ الله به العبد من ذل الكفر، ويحفظ الله به ماله ودمه ولو لم يكن معتقداً. ومن أقر دخل الجنة مهما كانت ذنوبه، فالإقرار بالتوحيد نجاة في الدنيا من كل شدة، وفوز بالجنة يوم القيامة إن غفر الله له ذنوبه، أو رجوعه إلى الجنة إن حاسبه الله عليها، ومن أقر بالتوحيد معتقداً، وعمل بشرائع الإسلام: دخل الجنة مع الذين يقولون: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً﴾ ^(٢).

(٢)توحيد العلم: ومأخذه قوله سبحانه وتعالى: (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ^(٣).

وهذا التوحيد ينتج الإيمان بعد وضوح الدلائل المشرقة في الكائنات وشهود الآيات البينات، وصاحب هذا التوحيد مؤهل للفقه في دين الله وذوق أسرار القرآن المجيد وصحبة أبدال رسل الله، بل وصحبة الوارث الفرد الجامع. وإذا عمل هذا الموحد العالم بعلمه، ذاق حلاوة الوحدة في الكثرة.

٣-توحيد الشهود: مأخذه قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٤). وهذا التوحيد اليهودي ثمرته الإستقامة، وصاحبه يتمكن في مقام الإحسان، قال تعالى: (إِنَّ

(١) البخاري ومسلم وابن ماجة وأحمد وابن خزيمة .

(٢) سورة الحاقة آية ١٩ .

(٣) سورة هود آية ١٤ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٨ .

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ^(١)، وهو الواصل المتصل، بل هو نجم لآله وخلانه، يسقي الماء واللبن، ويمنح الفضل والمنن.

(٤)- توحيد وجود التوحيد: مأخذه من قوله سبحانه وتعالى: (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) ^(٢). ووجود التوحيد يدار فيه خمرة المحبة بالعناية، وتمنح فيه حلل الولاية، وصاحبه جذب جذبة الخلقة طمست بقية آثار بشريته الباطلة، فإذا حفظ السر وقهر الحال اتحد بالمتعال، لأنه رام فهم، وكان فبان، غار الحق عليه فأمسكه لديه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ^(٣)، وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ^(٤)، وهم القائمون لله بالحجة، الموضحون للمحجبة، تجاوزوا الرسوم والجسوم والعلم والعرفان إلى مقام قاب قوسين اتباعاً للحبيب الأكبر ﷺ وآله، وفي الأثر (أوليائي تحت قبائي لا يعلمهم غيري)، إن صالت عليه صولة الاتحاد أو غمرته أنوار القدر غشته العزة بصفة البشر سر قوله تعالى: (مرضت فلم تعديني وجعت فلم تطعمني وعريت فلم تكسني) ^(٥)، وإن فاجأه متكبر بحرب أسرع إليه الرب معني قوله في الحديث القدسي: (من آذي لي ولياً فقد آذنته بالحرب) ^(٦)، جملة بحلة الخلافة، وتوجه بتاج أبدال أكمل مرسل ﷺ وآله ﷺ وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

(١) سورة فصلت آية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام آية ٩١.

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٦.

(٤) سورة الشورى آية ٢٢.

(٥) مسلم والحافظ الدميطي في المتجر الرابع .

(٦) البخاري بلفظ: [من عادي لي ولياً] وأحمد في مسنده .

رَمَى ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ﴿٢﴾. وصاحب هذا المقام عشق فاحترق، وجذب فاصطفي وصوفي، اضمحلت في وصفه العلوم واندثرت في آثاره الرسوم.

(٥) محو التفريد بالتوحيد: وهو النوع الخامس: لا يسطر على صفحات الأوراق، ولا يباح للعقول والأفهام، لأنه محو التفريد بالتوحيد سر قوله تعالى: (وما قدرُوا الله حق قدره) ﴿٣﴾، ولكنه يشم شميماً من إشارات أهل التمكين في حال اصطلام صولة الاصطناع ، وهي نتف من الإشارات لا تعقل ولا تذاق للنفوس، قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ﴿٤﴾. ومن نظر إلى الجديد لا يذوق حلاوة التوحيد، والموحدون نظروا بعين المحبة الأزل أنه على ما هو عليه لم يزل، ولكنهم ميزوا بين الحادث والقديم فلم يلتبس عليهم الأمر بخلق جديد.

٥- وقال الإمام عن التوحيد: ﴿٥﴾:

التوحيد هو الشراب الطهور الذي سقاه الله بيد عنايته من سلسبيل محبته إحساناً منه سبحانه بسابقة الحسيني أزلاً.

(١) سورة الأنفال آية ١٧.

(٢) سورة الفتح آية ١٠.

(٣) سورة الزمر آية ٦٧.

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٣.

(٥) في كتاب : (شراب الأرواح من فضل الفتاح).

وهذا العلم يتلقي من: القرآن والسنة، ومن أفواه أهل الخشية من الله الذين واجههم بجماله العلي مواجهة منحتهم اليقين الحق فرأوا ملكوت السموات والأرض.

وليس للعقول- وإن كملت- قوة تستبين بها حقيقة هذا العلم لأن المطلوب على عظيم. غيب عن الأرواح والدليل عليه خفى، وإنما هو الحس يحكم على الأجسام والأغراض، وفي هذا العلم لا يقاس الغائب بالحاضر، لأنه متره عن النظر والشيء، ومن طلب هذا بالبحث والنظر ارتد خاسئاً وحسيراً، ولكن لابد من رياضة النفس بالنظر إلى الكائنات لتنبج الآيات.

وإذا ظهرت الآيات انشرح الصدر واطمأن القلب، فأقبل العبد سميعاً مطيعاً مؤمناً بما يتلى عليه من آيات التوحيد في القرآن والسنة وعبارات وإرشادات السلف الصالح. والعقل مقهور مخلوق، منحه الله القوة التي يدرك بها المصالح، وليس له أن يحكم على القهار القوي ولا أن يحوم حوالي سواطع أنوار العزة والعظمة والكبرياء، قال تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)^(١).

والذي دعا علماء الخلف إلى هذه الحرب الطاحنة بينهم إثباتاً وسلماً وتشبيهاً وتعظيلاً، أمران عظيمان:

الأمر الأول: إقامة الحجة على أعداء الإسلام من الجسمين كالنصارى واليهود والمجوس والصابئة والمشبهيين كالغلاة من الزنادقة والفلاسفة والشاطحين من الممرورين الذين ارتاضوا على أيدي الجهلاء وتركوا مجالسة أهل العلم بالله تعالى

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣.

العارفين واعتزلوا الناس اشتغالاً بالذكر والخلوة قبل أن يتعلموا العلم النافع فمثلوا الحق بأوهامهم وشبهوه بخيالاتهم، ومن دخل الخلوة للرياضة قبل أن يتلقي العلم النافع والفرق بين التشبيه والتزييه، هلك بوهمه وخياله، وكان السلف الصالح لا يدخلون السالك للخلوة وله وهم أو خيال في هذا الجانب.

الأمر الثاني: إنهم وقفوا عند عقولهم فخافوا على الله تعالى فترهوه سبحانه تزيهًا اقتضي التعطيل فوقعوا فيما وقع فيه المشبهون، حفظنا الله وإخواننا المؤمنين من الخلط في هذا المقام ومنحنا التسليم لله ولرسول الله ﷺ وآله ﷺ والافتداء بسلفنا الصالح.

ولا ينبغي للسالك في طريق الله أن يلتفت إلى أي شيء قبله إلا ما لا يتحصل على هذا العلم إلا به من الضروري كالغذاء والنوم وقضاء حاجة الإنسان والسعي في تحصيل ذلك. ولا أعني به أن يتلقاه الإنسان بالطريقة التي يلقتها أدياء العلم بالأقيسة المنطقية التي أخذوها عن اليونان، فإن ذلك والعياذ بالله من البدع المضلة، ولم يكن في عصر رسول الله ﷺ وآله ﷺ ولا في عصر الصحابة رضوان الله عليهم ولا التابعين وتابعيهم بإحسان، وإنما تتلقي العقيدة بطريقة السنة كما يبين ذلك رسول الله ﷺ وآله ﷺ وبالمآخذ القرآنية، فإن الله تعالى بينها في كتابه العزيز بطريقة البرهان الذي لا يفهمه إلا من تركت نفسه وصفها خياله واطمأن قلبه للحق بما جعله الله فيه من النور والهدى.

٦- و الفرق الإمام بين علم التوحيد والعلوم الظاهرة^(١):

قال العلامة: واعلم أن علم التوحيد ومعرفة الصفات مبين لسائر العلوم، فالاختلاف في سائر العلوم الظاهرة رحمة، والاختلاف في علم التوحيد ضلال وبدعة والخطأ في العلم الظاهر مغفور، وربما كانت حسنة إذا اجتهد، والخطأ في علم التوحيد وشهادة اليقين كفر من قبل أن العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى في طلب العلم الظاهر، وعليهم واجب موافقة الحقيقة عند الله في التوحيد، ومن ابتدع شيئاً ردت عليه بدعته، وكان مسئولاً عنه، ولم يكن حجة الله تعالى على عباده، ولا غيئاً نافعاً في بلاده، بل كان موصوفاً بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلاً على الله عز وجل ولا من دعاة الدين ولا إماماً للمتقين.

٧- قصيدة في حقائق التوحيد:

يبين الإمام مقام اليقين بدرجاته وهي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. وهي التي تمثل علم التوحيد وعين التوحيد وحق التوحيد وكلها جواذب للحق لا تذاق إلا بالمرشد الرجل فرد وقته وزمانه.. كل هذا في قصيدة احتوت كل علوم ومشاهد ومعارف ولطائف ودقائق التوحيد:

فوق علم التوحيد عين اليقين فوقها الحق حظوة المتمكين
نور علم التوحيد يخفي المباني حيرتي فيه مبدأ التلوين
فيه صبح التعبير سرياني ثم عين التوحيد في المضمون
فوق فحوي إشارتي وبياني في خفاء من الكتاب المبين
ثم حق التوحيد في غيب غيب فوق إدراكنا بكثر مصون

(١) كتاب (أصول الوصول) ص ١٤٨.

كل ملاح فهو علم بيان
ثم عين التوحيد للروح تجلى
ثم حق التوحيد غيب خفى
لم تسعه الأوراق بل ولسان
فوق ذوقي وفوق حالي وكشفى
رأس مال المريد علم يقين
جذبة القرب بعد علمي وحي
جذبة الاتحاد عين يقين
مشهد الانفراد حق يقين
جذب عبديّة لأحد قريب
بعدها العبد هو كثر المعاني
نسخة الأصل بل وأم الكتاب
شمس حق تضيء طرق اقترابي
نور أنفاسه أضاءت قلوباً
إن يشر للعلوم أحياء نفوساً
حضرة العبد حظوة للتداني
هيكل فيه نفخة القدس لاحت
من رآه يفز بعلم يقين
من إشارات عالم بالدين
في مقام اصطفاء أهل اليمين
غامض قد يلوح في التعيين
لم ييحه من مبدأ التكوين
وهو فضل من منعم ومعين
قصد أهل الوصال عين اليقين
وهي عين اليقين في التمكن
في مقام الصفا لكل أمين
أفرد الله باختفاء الشئون
سلب كل الظلال والتكوين
صورة جملت بغيب مبین
لوح محفوظه إليه حنيني
فوق شمس النهار في التبيين
هيئت كل مخلص ومكين
أو أدار الطهور صبح جنوني
سدرة الاجتلا تري للعيون
للمرادين من ودود مبین
يمنح الحب بالصفاء المأمون

الإمام والنفس البشرية وأمراضها

النفس تمرض كما يمرض البدن، وكما جعل الله للأبدان أطباء تسارع إليها عند المرض محافظة على صحتها الجسمية، جعل للنفوس أطباء وهم العلماء العاملون والأئمة المحددون في كل زمان لكيلا تبطل حجج الله وبياناته.

والإمام أبو العزائم عليه السلام يبين أن الوصول إلى الله تعالى مبني على أصليين عظيمين وهما:

١- صفاء جوهر النفس.

٢- استقامة الطريق.

ولما كان صفاء جوهر النفس لا يتحقق إلا بمعرفة النفس وأمراضها وكيفية علاجها، تحدث الإمام عليه السلام في عدة مؤلفات منها (دستور السالكين طريق رب العالمين) فوضع في هذا الكتاب رسالة الشفاء من بعض أمراض النفوس، وكتاب (مذكرة المرشدين والمسترشدين) الذي تناول فيه طرق تزكية النفس فبين أمراض النفوس وعلاجها وعلامات هذه الأمراض وأنواعها، كما دعا إلى حفظ الصحة على النفس وبين أسباب مفسدات النفس، وفي كتاب (معارج المقربين) تناول الحديث عن النفس من حيث تعريفها ومعني صفاء جوهرها وفضائل النفس ورذائلها، كما أشار عليه السلام إلى لذة النفوس الطاهرة وأقسام تزكية النفس وأنواع النفوس، وفي كتاب (شراب الأرواح) تحدث عن مداراة النفوس والمشاهدات والمنح الربانية التي تفاض على السالك.

تعريف النفس:

عرف **الطائفة** النفس بتعاريف متعددة منها:

- النفس هي اللطيفة النورانية، بل هي الجوهرية الربانية، بل هي الحقيقة التي هي أمانة الله المشرقة أنوارها في هيكل الإنسان.

- النفس ليست عرضاً ولا جوهرًا، لأنها لو كانت كذلك لحيزها المكان، ولأدركها الصبيان، ولم يختلف فيها اثنان.

والنفوس المعروفة سبعة أنواع: جمادية فنباتية فحيوانية فإبليسية فملكوتية فقدسية فالنفس الملكية.

ومما قاله **الطائفة** نظمًا في بيان حقيقة النفس ^(١):

نفسي هي الكثر فيها سر معناه بغير كيف وفيها نور مجلاه
جهلي بما الحجب عن علمي بمبدعها وعلمها كشف حجب فهم معناه
نفسي مثال تراءي لي به وضحت آياته وبه أعطيت جدواه
نفسي له صورة تنبي مشاهدتها إذا تحقق أن المبدع الله
جهلي بما اللبس والتشكيك أجمعه وعلمها الكشف عن غيب وأخفاه
جهلي بما التيه بل والبعد عن نسب بها يلوح جمال الوجه أجلاه
لو أنها أشرقت نفسًا لعالمها فكت طلاسمه ورقني لعلياه
يا نفس ما أنت؟ نور أنت أم عرض؟ أم كوكب مشرق بضياء مناه
وهل بك الجسم قد قامت معالمة؟ أو قمت فيه فهذا السر أهواه
حيرت أفكار أهل العقل لم يصلوا إلي يقين وفيك ضل أهاده

(١) راجع كتاب (مذكرة المرشدين والمسترشدين) ص ١٢٢.

العقل يعقل محسوساً ونسبته لا يدركن رتبي والمنعم الله
سري خفي عن الأبواب يحجبها عنه نظائره فيه وأشباه
من أمر ربي ومن يطلبه يعرفني فيعرف الله رب العرش مولاه
ونفخة منه تجلي للمراد له فتشهد الوجه بالتزيه عيناه
من كان يعرفني بالفضل يعرفه أنا المثال له أفق لمراه
الإمام وأمراض العصر:

لم يفصل الإمام عليه السلام عن الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه، بل كان العصر وما
يزخر به من أمراض النفوس المختلفة هو شغله الشاغل الذي جعله لا يعرف للراحة
سبيلاً. نظر عليه السلام إلى أهل عصره وما اعتراهم من ضعف ووهن واستكانة وخذلان
ومن سيطرة للمستعمر على كل المقدرات وانتشار للرذائل وتقلص أثر الفضائل
وتفشي الخنا واللهو والمخدرات والفجور بين الناس، تكلم عليه السلام عن أمراض
العلماء والأمراء، والزراع، والتجار، والدعاة إلى الحق، وأمراض العامة.. فحدد
الداء ووصف الدواء.

وقبل أن يتناول عليه السلام الحديث عن أمراض النفوس يقول في إحدى مقالاته:

إذا عرف الإنسان ما جبلت عليه النفس ومعاني ما هي مفطورة عليه، ظهر
جلياً أنها لا تقبل مواجيد أهل اليقين إلا بالجهاد الأكبر، ويكون المجاهد عالماً بما
يكون من جهاده في ذات الله تعالى أو في سبيله، وبذلك تزكو نفسه ويتحلي
بأحوال أهل المقامات ومواجيد العارفين.

إذا تقرر ذلك فاعلم أن النقصان يبدو من الغفلة، والغفلة تنشأ عن آفات
النفس، والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون وهو اجتلاؤها لتفتقر إلى

مولاهما وتبرأ من حولها وقوتها- ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْوُنْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١ لتفزعوا إليه وتقولوا: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) (٢) وكما قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (٣) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ثم قال: ﴿سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾ (٤) وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (٥)، فأخبر عن وصفه بالعجلة ثم أمر بتركها للبلوى، فإن نزلت السكينة وهي مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوي بإذن نفسها، وإن حجب القلب بالغفلة وهي علامة على الإفتقار والتضرع تحركت النفس بطبعها فإن سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل وإن تحركت بوصفها فلإبتلاء والعدل، فأول الإبتلاء وأول خلافها، ومقدمته الهمة، وبابه السمع وهو الطريق إلى الكلام، والنظر والقول طريق إلى الشهوة، والشهوة مفتاح الخطيئة، والخطيئة مقام إلى النار حتى يزحزح غيها الجبار بالتوبة في الدنيا والعفو في العقبى.

وقد تكون المخالفة على الحب العارف أشد من النار كما حدثت عن بعضهم قال: لأن أبتلي بدخول النار أحب إليّ من أن أبتلي بمعصية. قيل: ولم؟ قال: لأن في المعصية خلاف ربي وسخطه، وفي النار إظهار قدرته وانتقامه لنفسه. قال: فسخطه أعز إليّ وأعظم من تعذيب نفسي. وكذلك حدثونا في معناه عن بعض المؤمنين من العمال أنه قال: وركعتان تتقبل مني أحب إلى من دخول الجنة. قيل: وكيف؟ قال:

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢.

(٢) سورة الأعراف آية ١٢٦.

(٣) سورة الإسراء آية ١١.

(٤) سورة الأنبياء آية ٣٧.

(٥) سورة النحل آية ١.

لأن الركعتين رضا ربي عز وجل ومحبتة، وفي الجنة رضاي وشهوتي، فرضا ربي عز وجل أحب إلى من محبتي. وقد قال مهيب بن الورد المكي في لبن سئل أن يشربه فلم يفعل لأنه سأل عن أصله فلم يستطبه فقالت له أمه: اشربه فإنني أرجو إن شربته أن يغفر الله لك فقال: ما أحب أني شربته وأن الله غفر لي. قالت: ولم؟ قال: لا أحب أن أنال مغفرته بمعصية.

وصف النفس:

لوصف النفس معنيان: الطيش والشره، فالطيش عن الجهل، والشره عن الحرص، وهما فطرة النفس، فمثلها في الطيش كمثل كرة أو جوزة في مكان أملس منحدره فإن أثرت إليها أو حركتها أدني حركة تحركت بوضعها، وهي في صفتها وصورتها في الشره متولدة من الحرص ألما على صورة الفراشة ألما تقع في النار جاهلة شرهه تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها، فإذا وصلت إلى شيء منه لم تقتنع بيسيره لشرهها فتحرص على الغاية منه وتطلب عين الضوء وجملته وهو نفس المصباح فتحترق، ولو قنعت بقليل الضوء عن بعد سلمت.. فكذلك النفس في طيشها الذي يتولد من العجلة، وفي شرهها الذي ينتج من الحرص والطمع هما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة لأنه طمع في الخلود فحرص على الأكل. وقد مثل بعضهم النفس في شرهها بمثل ذباب مر على رغيف عليه غسل فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله، وآخر مر به فدنا من بعضه فنال حاجته فرجع إلى ورائه سالماً. وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه لأن القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فلا يجده وربما غمزوه بالأيدي حتى يموت لئلا يقطع القز ليخرج القز صحيحاً، فهذه صورة المكتسب

الجاهل الذي أهلكه أهله وماله فتعم ورثته بما شقي به، فإذا أطاعوا الله به كان أجره لهم وحسابه عليه وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية لأنه أكسبهم إياها فلا تدري أي الحسرتين عليه أعظم: إذهابه عمره لغيره، أو نظره إلى ماله في ميزان غيره.

جبال النفس:

جبال النفس الأربعة هي أصول ما تفرع من هواها، وهي مقتضي ما فطرها عليه مولاهما:

- ١- الضعف وهو مقتضي فطرة التراب.
- ٢- ثم البخل وهو مقتضي جبلة الطين.
- ٣- ثم الشهوة وموجبها الحمى المسنون.
- ٤- ثم الجهل ومقتضاه الصلصال.

وهذه الصفات هي معاني تلك الجبال للابتلاء بالأمشاج، ففيه بدأ الأمن.
قال تعالى: (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ^(١).

ابتلاءات النفس الأربعة:

ثم أن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة:
أولها: معاني صفات الربوبية نحو الكبر والجبروت وحب المدح والعز والغنى.

(١) سورة الأنعام آية ٩٦.

ثانيًا: بأخلاق الشياطين مثل الخداع والحيلة والحسد والظنة.

ثالثًا: بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنكاح.

رابعًا: وهي مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل: الخوف والتواضع والذلة بمعنى ما قلناه قبل أنما خلقت متحركة وأمرت بالسكون وأني لها ذلك إن لم يتداركها المالك، وكيف تسكن للأمر إن لم يسكنها محركها بالخير، فلا يكون العبد عبدًا مخلصًا حتى يكون للمعاني الثلاث محصلًا، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصًا من المعاني التي هي بلاؤه من صفات الربوبية، فإخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشد من الإخلاص في المعاملة عند العالمين، وبذلك رفعوا إلى مقامات القرب، وذلك أنه لا يكون عندهم عبدًا حتى يكون مما سوي الله عز وجل حرًا، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد؟ لأن ما قاده إليه هو إلهه، وما ترتب عليه فهو ربه، وهذا شرك في الإلهية عند المتألهين ومزج بالربوبية عند الربانيين ومهلك منقوص منكوس بدعاء رسول الله ﷺ وآله ﷺ إذ يقول: (تعس عبد الدنيا تعس عبد الدرهم تعس عبد الزوجة تعس عبد الحلة) ^(١)، فهؤلاء عبيد العدو الذين قال مولاهم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ {٩٣} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ^(٢) أصحاب النفوس الأمارة بالسوء المستولة الموافقة للهوى المخالفة للمولي ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ^(٣) إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة، علمهم من لدنه واختارهم لنفسه. ولا يكون المريد بدلًا حتى

(١) كشف الخفاء للعجلوني ج ١ ص ٣٦٦.

(٢) سورة مريم آية ١٩.

(٣) سورة الفرقان آية ٦٣.

يبدل بمعاني صفات الربوبية صفات العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين، وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم.. فعندها يكون بدلاً مقرباً. والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها فتسخر له فيسلط عليها، فإذا أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ولا توسع لها، فإن ملكتها ملكتك وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك، فإن أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحتبسها عن معتاد بلاها، فإن لم تمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوي عليها فأضعفها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهواتها وإلا قويت عليك فصرعتك، فالملكة لها أن تحاسبها في كل ساعة وتراقب حسبتها في كل وقت وتقف عند همة من خواطرها فإن كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت في إمضائها ^(١).

مجاهدة النفس بالرفق والتدرج ^(٢) :

ولعلم أنه يجب أن تكون المجاهدة والرياضة بالتنقل والتدرج والرفق بالنفس شيئاً فشيئاً، ولا يهجم عليها بما يشق عليها من الأعمال فتتفر منه نفوراً شديداً يخشى منه الترك والخروج بالكلية، فيستحب الرفق بها إلى أن تتعود ذلك، وهذا هو الذي نبه عليه ﷺ وآله بقوله: (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) ^(٣)، فإذا أراد المجاهدة نقل نفسه عن عوائدها المذمومة إلى الحمودة، فليمنعها من الفعل المذموم، وليذكرها ما ورد فيه الوعيد على فعل المذموم والوعد على فعل الحمود، فإن ثقل عليه ذلك قطع عنها لذاتها الناجزة وداوي نفسه بترك الشهوات العاجلة، ومن عزم

^(١) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٠ العدد ١٩ ص ٩ (٥) ذي القعدة ١٣٥٦ الموافق ٧ يناير ١٩٣٨ .

^(٢) كتاب : (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم رحمته الله .

^(٣) البزار والبيهقي في السنن .

على تحصيل مقام السخاء مثلاً فطريقه إلزام نفسه القيام بإخراج الواجب من الزكاة والنذور والكفارات ونفقة الأب والأولاد الصغار والزوجة وغيرهم من العيال، فإذا قام بذلك بسهولة عود نفسه الإنفاق في المندوب، وإذا وصل إلى ذلك أثر على نفسه ذوي الحاجات، ثم ينتقل إلى الزهد في حظوظ نفسه في الترفه والراحات، فهذه طريق المجاهدة والرياضة يدرج العبد نفسه في سلوك الطريق إلى مولاه مع الرفق بنفسه.

والانقطاع إلى الأعمال دفعة وإخراج ما في اليد دفعة واحدة منهي عنه، فإن قيل إن الصديق عليه السلام أتى بجميع ماله إلى النبي ﷺ وآله عليهم السلام ليخرجه في سبيل الله قلنا: ذلك لأن الحاجة كانت إليه متأكدة إذ كان ذلك وقت فاقة وضرورة وبالمسلمين حاجة إليه، وأيضاً فإن الصديق كان عنده من الوثوق والصبر واليقين بالله تعالى مالم يس عند غيره. ولا بأس أيضاً أن يرقع المجاهدة لنفسه بالعبادة بشيء من المباحات ليقوي بذلك على الطاعات ويتنفي عنه الملل ويزول عنه السأم، قال سيدنا علي عليه السلام (روحوا النفوس فإنها إذا كرهت عميت)، والشرعية جاءت بمداواة النفوس المريضة وتطبيب القلوب المعلولة.

ويستعرض الإمام أمراض النفس البشرية وعلاماتها وأنواعها وما يفسد مزاجها، وكيف لمريد الحق أن يحتاط ليحافظ على صحته النفسية وذلك في كتاب (مذكره المرشدين والمسترشدين) فيقول عليه السلام:

كل مريد سلك الطريق لا بد وأن يكون على علم من الأخلاق الجميلة والأخلاق السيئة ما لا يعلمه غيره ممن لم يسلك الطريق. ومن آمن بيوم القيامة الإيمان الكامل كان أهم شيء أمامه: فوزه بنعيم الآخرة ونجاته من عذاب النار.

ولذلك فإنك تري المريد المخلص أشغل الناس بعيوب نفسه، وأحرص الناس على المحافظة عليها من الوقوع في الأمراض أشد من حرص أهل الدنيا على صحة أبدانهم

وعلي حفظ أموالهم وحريمهم، بحيث أن المريد الصادق لو سقط سقطة أو زل زلة أو هفا هفوة أو غضب أو احتد أو بخل بما لا يبقى أو أسرف فيما ينفع أو تهاون في واجب أو تساهل في عمل فضيلة.. تحقق أنه كاد أن يهلك، فأخذ يداوي نفسه إن علم الدواء بندم واستغفار أو توبة وإنابة وعمل قربات وخروج من مال للفقراء، حتى يتحقق أنه عالج نفسه مما ألم بها من مرض المعاصي والذائل.

وإن كان حصل منه أمر دعاه إليه مرض في النفس من أمل أو طمع أو حرص أو حب علو في الأرض أو تكاثر في الدنيا، أو لسبب من أسباب المعاصي كمشاورة من يفسد عليه حاله أو نيل رزقه على يد قوم يسببون له أمراض النفس.. أسرع إلى الطبيب الحاذق بأمراض النفس، وهو المرشد الحقيقي، فرفع إليه الأمر بدون أن يستحي أو يخجل كما يكشف الرجل والمرأة العورة على الطبيب ليعرف المرض ويعالجه، ويفهم المرشد أنه يريد النجاة بأي دواء، فإذا كاشفه حقيقة الأمر وظهر له أسباب المرض أمره بالعلاج النافع والدواء الناجع، فقبله منه فرحاً لأنه وجد لمرضه دواء، وأسرع إلى استعمال الدواء مبادراً بدون تأن ولا تأويل، هذا هو الواجب على المريد.

ومن كان هكذا في بدايته فاز بأمرين عظيمين:

الأمر الأول: أن يكون طبيباً حاذقاً.

الأمر الثاني: أن يكون وارثاً من ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، متصفاً بصفات التوابين المتطهرين، منعماً عليه بمحبة الله تعالى.

علامات أمراض النفس:

أما المريد الذي تمرض نفسه فيستر مرضه ويخفيه، حتى إذا ظهرت علاماته وكلمه فيه صديق له أو محب، نفر منه وعاداه وأنكر عليه ذلك واشتغل بعيوب غيره، فذلك ليس بمريد، إنما ذلك جاهل بنفسه عدو لها، سالك بها سبل الهلاك.

قلت: ظهرت علامات أمراض النفس.. هل لأمراض النفس علامات؟ نعم.. لها علامات كما أن لأمراض الجسم علامات، فإنك ترى الجسم إذا مرض فإنه قد يتغير عقل المريض، ولا تكون آراؤه صحيحة، وقد يعتريه النسيان والذهول وإنكار نفسه وأقاربه وأهله، وتلك من مرض الجسم. وكذلك إذا مرضت النفس بعشق شهواني أو بعمل معاص شهوانية، أو بغل وحسد، أو مرضت النفس بمرض الغضب والحقاقة أو بالحزن، أو بغير ذلك.. فإن الجسم يصفر ويرتعد ويضعف، وتنقص قوته وتقل شهواته، كما قدمنا من أن قوة العقل والفكر تضعف بضعف البدن، كذلك يضعف الجسم بمرض النفس، وأمراض النفس لا تخفي على المتوسمين.

أسباب أمراض النفس وأنواعها:

تقرض النفس لأمرين عظيمين:

(١) اختلاف تركيب الجسم أو فساد المزاج.

(٢) سوء الاعتقاد والعياذ بالله تعالى.

أولاً: أنواع الأمراض الناتجة عن اختلاف التركيب وسوء المزاج

١- فساد الرأي.

٢- البله.

٣- الحيرة في الأمر البسيط.

٤- ضعف الذاكرة.

٥- عدم الفكر في غد.

٦- التهيج مما لا يتهيج منه.

٧- الغلو في كل شيء حباً أو بغضاً، مدحاً أو ذمماً.

٨- الشره.

٩- فساد التخيل، وهي أهمها.

ثانياً: أنواع أمراض النفس من جهة فساد العقيدة:

١- الجدل.

٢- إنكار غير المحسوس.

٣- الشك في يوم القيامة.

٤- حصر الملاذ في تلك الحياة الدنيا.

٥- الحرص على الدنيا.

- ٦- حب المرء ذاته حباً يجعله يعق والديه، يقطع الرحم، يسيء إلى المحسن، يتمني زوال نعم غيره ونوالها لنفسه.
- ٧- البخل بالمال حتى على النفس.
- ٨- بذل الفضائل لاكتساب شهواتها.
- ٩- التجرد من الحياء.
- ١٠- التهكم بالعلماء العاملين والعباد الزاهدين.
- ١١- تقبيح مجاهدة النفس وحبسها عن الشهوات والردائل.
- ١٢- غلوه في الحب لذاته غلوّاً يجعله يري كل ما هو عليه فضائل وكمالات وإن كانت من أرذل الرذائل.
- ١٣- التلذذ بفعل الفواحش والمنكرات.
- ١٤- الفرح بالانتقام والأبية.
- ١٥- الجبن لخوفه على نفسه من الموت لاعتقاده أنه يموت ويفارق الملائكة والكرامات.
- ١٦- اليأس عند أقل مؤلم.
- ١٧- القنوط عند فقد الأسباب لجهله بالله تعالى.
- ١٨- التملق والتذلل عند الاحتياج، والغرور والطيش والكبر عند عدم الاحتياج لجهله بالمستقبل.
- ١٩- الكذب تخلصاً من المؤلم أو انتقاماً من عدو جهلاً بيوم الحساب.
- ٢٠- الغيبة والنميمة للإفساد بين الناس لينال خيراً لنفسه.
- ٢١- التحمل للخلق، والغفلة عن تحمل السريرة للحق، لأنه لم يؤمن بيوم القيامة.

٢٢- الذل والتملق لمن يظن أنه ينفعه أو يضره في دنيا، والمسارة إلى رضاه ولو في معصية الله لسوء ظنه بالرزاق المقدر، حتى قد يبلغ به أن يستعمله من له عليه نعمة أو رياسة في عمل أكبر الكبائر: كأذية الخلق، أو شهادة الزور، أو التحسس والتحسس، أو الاشتراك معه في عمل الفواحش وارتكاب الرذائل. ويفرح بذلك المسكين ويرى في نفسه أنه وثق برزقه وضمن سعادته وأذل عدوه ونفع حبيبه، وينسى أنه سقط إلى مكان سحيق وانحط عن الرتبة الإنسانية إلى أقل من رتبة الحيوانات الداجنة، واستحق مقت الله وغضبه وأليم العذاب يوم القيامة.

أولاً: علاج أمراض النفس الناتجة عن اختلاف التركيب

فأهم علاج لإختلاف التركيب أن يعتني بالطفل من صغره بما يلي:

١- يعلم ما يستطيع تعلمه من الحرف النافعة لمعاشه التي تستغرق وقته نهاراً في شغل.

٢- يلحق أركان الإيمان وأركان الإسلام، ثم تفصل له- من أركان الإيمان- الآخرة بمثل تنقش في نفسه من صغره تجعله يشق إلى النعيم فيعمل لنواله ويخاف من العذاب فيتباعد عما يوقعه فيه.

٣- يلاحظ أن يمرن على الأعمال الواجبة شرعاً من الصلاة وغيرها من أول ما تندب عليه.

٤- يحافظ عليه من صحبة الأشرار والفجار ليكون أبعد عن موجبات أمراض نفسه المفطور عليها.

ومثل هذا لا دواء له إلا الرضا منه بما أهل له وعدم مطالبته بما لا طاقة له عليه من أعمال الفكر والتدبير و التبحر في العلم، وخير له أن يعيش بين نظرائه في العلم

والفكر بشرط أن يكونوا أتقياء، وأن يكلف بكثرة الأذكار والأعمال البدنية ليشغل بها عما يوقعه في المرض، كما يتحفظ على الأطفال والصبيان من الوقوع فيما يضر أبدانهم.

علاج أمراض النفس الناتجة عن انحراف المزاج:

تقدم بعض أنواع تلك الأمراض، وأهم علاج لها العناية باعتدال الأمزجة ورد الصحة على الجسم، وهذا منوط بفن الطب الجسماني.

ثانياً: علاج أمراض النفس الناتجة عن فساد الاعتقاد

اختلف العلماء في هذا الموضوع فمنهم:

(١) من رأي أن الإنسان يتخذ له صاحباً يسأله عن علوم نفسه، وليست هذه بالطريقة المهيئة للشفاء.

(٢) استحسن بعضهم أن يعلم عيوبه من عدوه، وإني أرى هذا الدواء لا ينفع إلا للأخيار، لأنه لا ينتفع من عدوه إلا الرجل التقي الورع. وأرى أكثر الناس يتغالي كل واحد في إذلال عدوه ونسبة عيوب له ليست فيه لمهنته وعداوة الناس له، ولذلك فليس هو الدواء الوحيد إلا للكمال العالم الذي إذا سمع عدوه ينسب إليه عيباً من العيوب بادر بمحوه واستبداله بفضيلة ومكرمة، كما إذا رأى في عينيه قذري أو على وجهه أوساخاً بنظره في المرأة بادر إلى نظافة وجهه. وإني إذا تكلمت في هذا الموضوع فإنما أتكلم عن تجربة في نفسي، ومعرفة بآداب أهل التقوي والصلاح من السلف ومن عاصرتهم، وعن خبرة ومزاولة لأمراض النفوس وأخذ في علاجها.

لما كان علم الطب الجسماني يراد منه أمران: أ- حفظ الصحة. ب- ردها إذا فقدت.. وكان حفظ الصحة على الجسم يقتضي التوسط فيما لا بد منه للجسم والمحافظة عليه مما لا يتحمله، والعناية بمواد الأغذية من جهة النظافة والجودة والسهولة والمقدار، ومراعاة الوقت المناسب، والبعد عن المؤثرات الشديدة، كل تلك لازمة لحفظ الصحة الجسمانية، فكذاك ينبغي لصحيح النفس أن يجتهد في حفظ صحتها عليها باستعمال ما أوجبه عليه الشرع بنسبه ومقاديره في أوقاته ومن عبادات وأخلاق واعتقادات ومعاملات، بحيث لا يتهاون فيسبب مرض النفاق والقطيعة والبعد، ولا يتغالي فيقع في الفتن والضلال ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١)، وأن يتباعد بكل ما في وسعه عن المبتلين بالأمراض النفسانية، كأهل الجدل والإنكار والفساد وغيرها، وعن أهل الشغف بالملاذ الحيوانية وعن مطالعة سيرهم وأخبارهم، ويتباعد عن أهل الخبث المفسدين وأهل الشر المضلين، فإنه قد يقع في أمراضهم من حيث لا يشعر. بمجرد مجالستهم، وذلك لأنه لصحة نفسه أول ما يقع نظره عليهم يري فيهم علامات الأمراض والسقم، كما يحس الإنسان من الآخر بمرض الجسم بعلامات المرض، فكذاك صحيح النفس إذا جلس مع مريضها أنكر عليه، ومريض النفس يري أن الصحيح الحقيقي مريض، فيحصل الإنكار من كل على الآخر، فيكون بمجرد جلوسه معه مرض بمرضه. فعلي صحيح النفس أن يتباعد عن مرضي النفوس إلا إذا جاءه مريض النفس فشكى إليه مرضه وطلب منه دواءه.

(١) سورة الفرقان آية ٦٧.

العناية بحفظ الصحة على النفس:

من العجب أن الرجل صحيح النفس يهمل صحته حتى يقع في الأمراض، لأن أمراض الأجسام يشعر صاحبها بأن يدعوه إلى الطبيب، وأما أمراض النفوس فقد يحصل منها اللذة للنفس والأنس لها، لأن غالب أمراض النفوس مما يلائم النفوس، فينسى الرجل قبائحه ويغفل عن دواء نفسه، وإذا ذكره أخوه بعيوب نفسه قذفه وعاداه وهو يظن - المسكين - أنه على أكمل الفضائل وأجمل الأخلاق، ناسياً أمراض نفسه لحبه لنفسه، فتجب العناية بحفظ الصحة على النفس خشية من الوقوع في المرض.

العلاج عند حصول المرض:

فإذا حصل للنفس مرض من الأمراض السابقة، فعلاج ذلك محصور في أمرين أساسهما العلم:

الأمر الأول:

(١) أن يبادر من حصلت منه المخالفة للمرشد - إن كان مسترشداً - فيعرض عليه أمره، ثم يعمل ما يكلفه به مما هو شفاء لنفسه وتوبة من ذنبه، غير خجل ولا مستتر، فإن أصحاب رسول الله ﷺ وآله ﷺ، كان الرجل منهم إذا نسي أو أخطأ رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ وآله ﷺ، وقام فجز ما يكلفه به، فمنهم من يقول زيت يا رسول الله، وغير ذلك مما قل أو كثر. فإذا خجل المخالف أو رأي أن رفع الأمر للمرشد فضيحة، تماون بيوم القيامة وجهل الفضيحة فيه، ودعاه التساهل بصغير المخالفة إلى الوقوع في كبيرها، حتى قد تبلغ به الحالة إلى أن يترك عمل الواجبات.

(٢) أما إذا كان ليس له مرشد بأن كان من العلماء أو كان من القائمين بالدعوة إلى الله، فالواجب عليه إذا رأى نفسه أوقعته في الحماسة والغضب والعداوة بين الناس أن يبادر بأن يتعرض إلى سفيه أحق يسبه أمام الناس ويتحمل ذلك ويفرح، ليعالج نفسه ويرد عليها صحتها، أو يبادر بأن يذل نفسه لمن كان يعظمه ويقبل يده ويخدمه، ويتوب مجاهدًا نفسه بترك تلك الصفة القبيحة، وإن شعر منها بحب الشهرة والسمعة بادر بأن يعرض عليها مبدأها ونهايتها وحقارة الدنيا وزوالها

الأمر الثاني:

وأكمل دواء للنفس المبادرة بتلقي علوم الدين من أهل اليقين، الذين يعلمون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ويدعونهم إلى الله على بصيرة، ويجعلون أساس دعوتهم كشف عناية الله بهم وإظهار آياته في الآفاق وفي أنفسهم بطريق مقنع، ويبينون أسرار الصورة الإنسانية وما احتوت عليه من غرائب الحكمة وعجائب القدرة، وكيف كان مبدؤها من آيات القرآن بقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ) ^(١)، ويتباعد في الدعوة من غير ذلك بذكر عناية الله تعالى وإبداعه للعالم كله، وهو الأمر الجامع، حتى إذا اطمأنت القلوب وانشروحت، دعاهم بعد ذلك إلى التصديق بالآخرة وبيان لهم حقارة الدنيا وزوالها، ودعاهم لمعرفة أنفسهم وما به تكميلها وسعادتها.. وهذه هي طريق القرآن في الدعوة، وسبل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم في الدلالة والبيان.

(١) سورة المؤمنون آية ١٢.

القرآن الكريم:

فاقرأ أيها الأخ البار كتاب الله متدبراً، وتأمل قصصه متفكراً، واعتبر بتكرار أخبار الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأساليب البيان، وحكم التبيان الحليّة لكل ذي بصيرة في كل مكرر القرآن، يظهر لنور شرك ساطع حجج القرآن الكريم، وجلي نور براهينه، وما حث فكرك عليه وما نبه قلبك إليه، وما دعاك إلى تدبره والنظر فيه من الآيات الدالة على كمال عنايته، والحجج المؤيدة أنه هو المبدع الخلاق.

فإذا زكت نفسك أيها الأخ المؤمن، وتناولت من سلسيل القرآن الشريف، ومن كافور كلام رسول الله ﷺ وآله ، سكنت نفسك واطمئن قلبك وانشرح صدرك، ودعاك شرك دعوة الحق إلى الحق، وانكشف لك سيما الناس، فعلمت بسيماهم مقادير استعدادهم وفطر نفوسهم، فدعوت عباد الله إلى الله بالحكمة والموعظة على قدر النفوس ومناسبات العقول، ناهجاً على الطريق المستقيم، لا تميز بين المسلم وغيره ما دمت تجعل أساس دعوتك طريق القرآن العظيم.

واحذر يا أخي- أيديني الله وإياك بما أيد به الصديقين والشهداء من عباده الصالحين- أن تتجاوز هذا الطريق في الدعوة والإرشاد بأن تسلك مسالك النظر بعقولهم فتفتح أبواب الجدل والشكوك والريب، فتكون من الفتانين التائهيين في بيداء الغفلة، وتحقق أن كل من أراد أن يجادل أو يعارض فهو عدو لأخوة المؤمنين، محروم من التصديق واليقين، والأولي الإعراض عنه وعدم العناية به، فإنك إن أعرضت عنه هلك وحده، وإن جاريته في الجدل والمعارضة ربما هلك وأهلك معه

كثيرين.. والله أسأل أن يهدينا بالقرآن، ويعصمنا بسنة رسول الله ﷺ وآله ﷺ آمين.

أسباب مفسدات النفس:

اعلم أيها الأخ - روحني الله وإياك بروح العناية والولاية وريحان الإحسان والرضوان - إن أمهات الخطايا التي لعن بها إبليس وأخرج أبونا آدم من الجنة وقتل قابيل أخاه هابيل ترجع إلى أصول الكبائر وهي:

(١) الكبر: الذي أوقع إبليس في القطيعة واللعنة.

(٢) الطمع: الذي هو سبب المعصية لأبينا آدم وأهبط بسببه من الجنة لأنه طمع في الخلود فيها.

(٣) الحسد: الذي دعا قابيل أن يقتل هابيل حسداً له على النعمة عليه بأخت قابيل.

وما من رذيلة من الرذائل إلا وهي ترجع إلى أصل من تلك الأصول، فإذا حفظ الله العبد من تلك البليات الثلاث وفروعها، كان وهو في الدنيا من أهل الآخرة. وقد بين لنا رسول الله ﷺ وآله ﷺ تلك المعاني بكلمة هي الحصن الحقيقي للسلامة بقوله ﷺ وآله ﷺ : (حب الدنيا رأس كل خطيئة) ^(١).

قد أفلح من تركي:

فإذا جاهدت نفسك حتى تزكت فقد أفلحت، فامش في الناس عاملاً عمل أهل الدنيا غير خائف فإنك في الآخرة، دليل ذلك كتاب الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ

(١) البيهقي في شعب الإيمان .

مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» ١. فالملت من زكي نفسه حتى صار في الملكوت الأعلى، فجعل الله له نوراً من اليقين والعلم والفقہ يمشي به في الناس آمناً لانكشاف الحق له وبيانه، فلا يضره مشيه في الناس وعمله معهم لأنه ينفعهم النفع الحقيقي وينفع نفسه (٢).

الشفاء من أسقام النفس:

وقد أسهب الإمام في ذكر وبيان أمراض كل قسم وكذا طرق العلاج، مما لا تتسع الأوراق هنا لذكره، ولكننا نشير إلى اهتمامه الأكبر بأمراض العلماء وأمراض الدعاة إلى الحق فقال:

العلماء الذين أعنيهم في كلامي هذا هم الذين منحهم الله تعالى الفقه في دينه ووهب لهم سبحانه وتعالى علم الرعاية في أحكامه حتى علموا حكمته في كل حكم فسارعوا إلى المراد له جل جلاله فيما حكم لا الحكم كما يفعل أهل التقليد الذين لا هم لهم إلا تأدية المأمور به بحركات وسكنات وألفاظ مجردة عن الرعاية التي بملاحظتها يصير العالم كأنه يري الله أو تحصل له الخشية من رعاية أن الله يراه فيكون إما في مقام الإحسان لاستغراقه في شهود آيات الله وحكمته معاينة آثار وأنوار عجائب قدرته فيكون روحانياً وهو جسماني، وملكوتياً وهو إنسان حيواني، جامع بين الضدين، غلبت عليه أنوار الروح فأخفت ظلال جسمه ففارق لوازم البشرية استحضاراً أو مقتضيات الآدمية حضوراً فقام عاملاً مخلصاً لله بالله

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢.

(٢) من كتاب ((مذكرة المرشدين والمسترشدين)) للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام.

كأنه يري الله أمامه أو مخلصاً لله محجوباً عن شهود أنه بالله فيكون موقناً أن الله يراه في عمله، وهؤلاء هم العلماء الذين أعينهم بكلامى.

ثم ذكر أمراضهم فقال:

١- وأمراضهم خفية عن العقول غامضة عن النفوس، لأنهم مع كمال الإخلاص يشوب توحيدهم شوب بواعث الهمة على العمل، فيحجبون عن خالص مشاهد التوحيد إما للعلة الباعثة أو لعدم تصفية مشهد التوحيد من شوب نسبة العمل لأنفسهم بشهود المجاهدات منهم، وهو أمراض الأخفي التي تظهر ألقا قربات إلى الله وشوق إليه وحب فيه. وقد يقوي هذا المرض حتى يدعو إلى شهود الإلهية في العامل من حيث لا يشعر فيأنس بالعمل ويطمئن بالعرفان. والأنس بالعمل والطمأنينة بالعرفان شرك أخفي في طريقنا هذا، ومن شغله العرفان عن المعروف والعمل عمن هو مولى وجهه شطره واحتجب بنسبة العمل لنفسه.. فهو مشرك في طريقنا وإن كان من أهل الفردوس الأعلى.

٢- ومرض الإلهية أعظم مرض عضال يصاب به الربانيون. وقد جعل الله من أنواع العلاجات أمرها ومن العقاقير أحدها. قال تعالى: (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ^(١). ومن دواء هذا المرض قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ^(٢)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ﴾ ^(٣)، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ {١} إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

(١) سورة الإسراء آية ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢.

(٣) سورة الواقعة آية ٦٢.

نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا^(١). وأهل العلم يعلمون أن الغواية غير الضلال، فإن المؤمن قد يغوي ولا يضل لأن الضلال هو الكفر بالله تعالى، وأما الغواية فهي معصية الله تعالى شهودًا أو ذوقًا أو وجدًا أو علمًا أو بالجوارح. وإن من حجب العلم والعمل والمعرفة والتقوي عن كمال التوحيد الذي هو الجوهر المقصود بالذات لله تعالى غوى. والغواية قد تحصل من الإنسان بالتأويل أو لقصد نيل الخير الذي يظنه - قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٢).

٣-الفرح بإقبال الناس سكونًا إليهم من غير ملاحظة، وقد جعل الله سبحانه لهذا المرض علاجًا للمؤمنين - قال تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقططرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث)^(٣). وقد خاطب الله رسوله ﷺ وآله ﷺ وأراد بخطابه المؤمنين، وهم من أعلم الناس مراقبة لله وخشية منه، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٤). تناول من هذا الطهور واسكن بكلك إلى ربك وافرح بفضل الله وبرحمته وسبحه واستغفره عند إقبال الخلق، ولا تفرح بحالك وعملك لأن العصمة من الزلل لله تعالى.

٤-وهنا مرض آخر فوق هذه الأمراض كلها ينتج عن الشوق إلى المفارق فيخفي على العالم واجب وقته في مرتبة الوجود الذي أقامه الله فيها فيأنس بالمفارق فيخفي على العالم واجب وقته في مرتبة الوجود الذي أقامه الله فيها فيأنس بالمفارق أنسًا بنسبة لازم رتبته الكونية فيحصل له الشوق الشديد الذي يخرج به عن الوسط

(١) سورة الإنسان آية ١ ، ٢

(٢) سورة طه آية ١٢١.

(٣) سورة آل عمران آية ١٤.

(٤) سورة النصر آية ١.

فيفارق مكانته الإنسانية التكلف بما لاح له من أنوار الملكوت في نفسه وفي الآفاق وفي السموات وفي الأرض فقد يقع في الفتنة المضلة أو الضراء المضرة، ودواء هذا المرض قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١)، وقوله ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾ (اللهم إني أسألك الشوق إليك بغير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة)^(٢).

٥- وهناك مرض فوق هذا كله: وهو أن ينكشف له نور قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾^(٣) فتسخر له الكائنات كلها طوعاً لأمره ومسارعة إلى هواه لأنه بجواذب العواطف الإلهية يتفضل الله عليه فيصير عند ربه ويمن عليه بأن يجعل له ما يشاء من سر قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٤)، فيلتفت لفتة تدعو إليها الرحمة التي جملة الله بها لعباد الله تعالى فيتجاوز حدها إلى حال الغيرة التي لا يكون إلا لله تعالى عند انتهاك حرماته تنفيذاً على تعدي حدوده بسيف أو بسوط الشريعة لا بنار الحال وشرار الابتهاال فيسرع بعامل الغيرة للغضب وليس بيده سوط ولا سيف الشريعة فيكون نظره بعين التقيد في الإطلاق، مع أن الناظر بعين التقيد في الإطلاق قد ينظر بعين الإطلاق في التقيد فيما يلائمه فيكون انحط عن الرتبة العلية. وقد داوي الله هذا المرض بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٥).

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) النسائي والحاكم والسيوطي في الجامع الصغير .

(٣) سورة الجاثية آية ١٣ .

(٤) سورة الزمر آية ٣٤ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

ومن أمراض الدعاة إلى الحق:

١-النظر إلى أهل المعصية بعين ملؤها المقت والغضب: وقد جعل الله لهذا المرض دواء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (١)، وقوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) (٢) وقوله تعالى: (رحماء بينهم) (٣) .

٢-الأنس بما يشاهدونه وإن خالف ما عليه الجماعة: وقد جعل الله لهذا الداء دواء وهو قوله تعالى: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) (٤) ، وقوله تعالى: (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) (٥) .

٣-استعجال النعمة لمن خالفهم والكرامة لمن وافقهم: جهلاً بسر القدر، فقد يتوب المخالف فيكون من أكمل أولياء الله، وقد يكون الموافق لهم عدواً لله وحفظنا الله من المعاصي. وقد شفي الله هذا المرض بقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ (٧) وكم سارع إلى الكفر رجال أظهروا الإيمان ولم يحصل لهم الأنس بالإيمان ولم ينالوا

(١) سورة فصلت آية ٣٣.

(٢) سورة النحل آية ١٢٥.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

(٤) سورة النور آية ٦٣.

(٥) سورة الحجرات آية ٢ .

(٦) سورة البقرة آية ٢١٦.

(٧) سورة الحجرات آية ١١.

مَا رُبَّمَا فَارْتَدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾^(١). وسر القدر غيب على النفوس الزكية.

٤- الغضب على من لم يقم بالواجب عليه لهم: وذلك مما يدسه عليهم عدوهم من أن المقصر في حقهم مقصر في حق رسول الله ﷺ وآله ، والحقيقة غير ذلك فإن ذلك مرض خفي لأن المرید قد يقوم بالواجب عليه لله ولرسوله غير ملاحظ الواجب عليه للعالم لأنه إنما حجه ليسارع إلى مرضاة الله ومرضاة رسوله باتباعه، وشفاء تلك الأمراض قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِئُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢).

٥- الغرور بما يهب الله لهم من الفقه والفهم: حتى قد ينظروا إلى من سبقهم بعين المساواة، أو يظنون فيهم التسامح والتساهل أو عدم الضبط، وقد يرمونهم بما لا يليق أن يكون بين المؤمنين. ودواء المرض قوله تعالى: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)^(٣). أقول قولي هذا وأعتقد أنه لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ وآله الذي عصمه الله بقوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى)^(٤) وعصمه من الناس بقوله: (والله يعصمك من الناس)^(٥). وأعتقد أن الحكمة الإلهية يهبها الله لمن يشاء وأن خبر من

(١) سورة آل عمران آية ١٧٦.

(٢) سورة الحشر آية ٩.

(٣) سورة الحشر آية ١٠.

(٤) سورة النجم آية ٣.

(٥) سورة المائدة آية ٦٧.

سلفنا قد يكون بعصمة من الله وإلهام منه وكمال إخلاص من العالم لله تعالى بالله ويكون فهمنا عن عجلة وحظ خفي علينا وشهوة دعا إليها أمل أو طمع.. والله يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم.

٦- ميل نفوسهم إلى مجالسة الأمراء وزيارتهم لدسياسة خفية عليهم: هي أن يكونوا أعواناً للحق فيعظم الداء، ومن جالس جانس، وقد عد الله لهذا المرض أنفع الأدوية وهي قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١). وهذه إن لم تكن كل الأمراض فهي أصولها التي تتفرع منها كل الأمراض، وقد يكون مرض واحد يتفرع منه عدة أمراض فيجهل الطبيب أصل المرض فيعالج الفروع ويترك الأصل فيزداد المرض، ولو أن الطبيب اعتني بالمرض الأصلي لزال كل الأمراض الأخرى وشفاه الله.

٧- ومن أمراضهم: أن الرجل منهم إذا أخطأ في حكم وفشي بين الناس وعورض فيه كره أن يخضع للحق وقام مجادلاً بالباطل ينصر نفسه على الحق غير مبال بسخط الله وغضبه إذا أقام الحجة على خصمه أنه محق ورضي الخلق عنه فيكون أبطل الحق وأحق الباطل خوفاً على نفسه الفضيحة بين الناس، ولو أنه عالم كما يدعي لأعلن خطأه وغلطه بين العالم ليرضي الله تعالى ورسوله ﷺ وآله ﷺ غير مبال بالخلق، فإن الإنسان محل النسيان. ومن كبرت نفسه أن يرجع للحق بعد الخطأ أقام الحجة أنه من أهل جهنم، أعادنا الله من سوء الأدب مع الله تعالى ومن تعظيم الخلق في جانب الحق حتى يكره أن يحتقر أمامهم فيتمادي على الباطل، وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا

(١) سورة هود آية ١١٣.

يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴿١﴾. ومعلوم أننا مكلفون باتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقال تعالى مداوياً هذا المرض العضال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ (٢)، وقال تعالى في أنفع دواء لهذا الداء: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣)، وقال تعالى مثنياً على أهل مقام الخوف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (٤)، فالعالم الذي يخطيء في الحكم ثم يذكر بالحق فيأبى أن يخشع للحق خوفاً من أن يشاع عنه الخطأ بين الناس فيستحقر كان من الذين شنع الله عليهم بقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ (٥). ومثل هذا عند العلماء بالله تعالى أدنى من الجهلاء لأن هذا من أكبر أمراض المنافقين. ولو أن مدعي العلم صدق الله تعالى فيما أخبرنا به عن يوم القيامة ومن الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى وأن الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار لذاب قلبه خشية من الله تعالى أن يرضي الناس ويغضبه وأن يخشي الناس ولا يخشاه، وأن يحب المترلة عند الناس بسقوطه من عين الله تعالى.. أعوذ بالله من الذنوب التي توجب النقم، وأعوذ بالله من الذنوب التي تغير النعم، ومن الذنوب التي تهتك الحرم، ومن الذنوب التي تدل الأعداء، ومن الذنوب التي تحبس غيث السماء.

(١) سورة الأحزاب آية ٣٩.

(٢) سورة الصف آية ٧.

(٣) سورة المائدة آية ٩٥.

(٤) سورة الرحمن آية ٤٦.

(٥) سورة النساء آية ١٠٨.

٨- تأويل الأحكام بما يناسب هوي الخلق والعمل بالرخص لجلب الأموال وميل القلوب إليهم خصوصاً فيما يتعلق بالطلاق والميراث والمعاملات، ففري الرجل منهم يفتي بغير ما أنزل الله تعالى اجترأ على الله تعالى وعلي رسول الله ﷺ وآله ﷺ ليكسب مالاً أو شهرة أو منزلة في قلوب الأمراء. وقد ضرب مالك بن أنس وأهين ليفتي أن طلاق المكره يقع عليه فأبي، وضرب أبو حنيفة رحمه الله تعالى لتولي القضاء فأبي، وكان الرجل يسأل أحد الصحابة عن المسألة المعلوملة لأقل صحابي فيرده إلى غيره حتى يرجع إلى المسئول الأول لأنهم رضي الله عنهم يعلمون الناس بقول: لا أدري حتى يقتدي بهم من بعدهم، وكان إذا سئل أحدهم عن الفتيا يرد السائل إلى الأمير ليكون خاملاً بين الناس. وإنما يتعلم العلم ليعمل الإنسان به في نفسه حتى يكمل نفسه بالعلم والعمل، وهذا المرض داواه الله تعالى بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(١)، وهؤلاء هم الذين يكذبون على الله تعالى وعلي رسول الله ﷺ قال ﷺ وآله ﷺ: (من كذب على متعمداً فليتبوء مقعده من النار)^(٢). ومن أفتي بحكم عالماً أنه برأيه وحظه ليس له مأخذ من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ وآله ﷺ ولا من سنة الهداة المهتدين فهو من المتعمدين الكذب على رسول الله ﷺ وآله ﷺ.

٩- إهمال الغاية بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ وآله ﷺ وبأئمة الهدي وضياح الأنفاس النفيسة والأعمار الطويلة في خدمة كتب أهل الجدل والمناظرة

(١) سورة المائدة آية ١٣.

(٢) البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي في مسنده .

والفرق المختلفة من المتكلمين مما يشير ثائرة الأخلاق ويفسد العقائد ويمزق الجماعة ويكثر الخلاف بين المسلمين، وهذا الداء عضال جداً لأنه أذهب نور الإيمان من القلوب ومحي لين الأعضاء لعبادة الله، فتراهم وتلاميذهم يمشون سواد الليل وبياض النهار في فهم الأقيسة والنفي والإثبات والسلب والإيجاد، وجعلوا المواضيع التي يمرنون عليها نفوسهم صفات الله تعالى كما يتمرن المتعلمون بحفظ أراجيز الجاهلية وقصائدهم ليطبقوا عليها القواعد النحوية والصرفية تقوية لاستقامة ألسنتهم حتى صارت العقائد الدينية كالمسائل الحسابية والهندسية التي تعطي للتلاميذ ليشحنوا بها قواهم الفكرية ضبطاً للقواعد، أدي هذا المرض والعياذ بالله تعالى إلى سوء الأدب، فصار من السهل عندهم أن يوردوا الاعتراضات على الصفات الإلهية وعلي الكلام الإلهي وعلي عمل القدرة الإلهية، ولا يصدر هذا الاعتراض والانتقاد من قلب فيه خشية لله تعالى، وتراهم مع هذا كله يجعلون هذا الجهل علماً وتلك البدع المضلة عملاً ويقررونه في المجتمعات أمام النشء من طلبة العلم حتى يملأ قلوبهم استهانة بكلام الله وكلام رسول الله ﷺ وآله ﷺ وإنكاراً على آيات الله تعالى التي أجراها على أيدي رسله وأوليائه حتى بلغ منهم سوء الأدب أن أحدهم إذا قال له خصمه: قال الله أو قال رسول الله أو قال فلان الفلاني.. قال له تكلم معي بالعقل. ومن أراد أن يظهر التقوي خوفاً على نفسه من تشنيع العامة أول الآية أو الحديث إلى ما يلائم حظه وهواه غير هباب من الله تعالى ولا وجل من لقاء الله، وقد انتشر هذا المرض حتى عم أكثر طلبة العلم إلا من عصمهم الله، وقليل ما هم، وصارت تلك البدع المضلة هي السنة عندهم، وإن اختبار العلماء لرفعة شأنهم بين الأمة لا

يكون إلا بإتقان تلك البدع حتى كأن السنن الماضية للإسلام والمآخذ الحقة لأحكامه نسخت بأفكارهم والله تعالى يقول: (وخاتم النبيين) ^(١)، ومعني ذلك أن شريعته لاتنسخ أبداً، فمن ابتدع بدعة سيئة في دين الله كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. وقد داوي الله هذا المرض العضال بقوله تعالى: (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) ^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قرأت القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا {٤٥} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ^(٣).

كل مؤمن يعلم أن رسول الله ﷺ وآله معه ولو كان في القرن العشرين أو أكثر، لأن المراد من الرسول الكتاب والسنة، ومن استظهر على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وآله، فتلك الآيات تجره بذيلها إليها، فإن من خالف رسول الله في حياته المحمدية ومن خالفه بعد عشرين قرناً سواء عند الله تعالى، وإنما هي نفوس شريرة أعدت للضلال والإضلال، أعاذنا الله من هذا الشر، وقد شنع الله بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُوا فَاحْذَرُهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ^(٤).

(١) سورة الأحزاب آية ٤٠.

(٢) سورة الفرقان آية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء آية ٤٥، ٤٦.

(٤) سورة المنافقون آية ٤، ٥ مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٤١ - ٤٣ (٩، ١٦، ٢٣ ربيع الآخر ١٣٥٦

هـ الموافق ١٤، ٢٥ يونيو، ٢ يوليو ١٩٣٧).

ومن أمراضهم الأخرى:

الأولي بالمؤمن أن يجتهد في عمارة قلبه باليقين الحق، ومجاهدة نفسه في ذات الله مخلصاً في عمله فانياً عن إثبات عمله لنفسه كذا فانياً عن العمل بعد إتقانه. هذا المرض جعل الله لنا منه وقاية وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢) وقوله ﴿وَاللَّهُ وَآلَهُ﴾: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)^(٣). لعل بعض من يجهل حكمة الأحكام يظن أي أحب التساهل في الأعمال البدنية، لا، ولكني أحب أن تكون العناية العظمي بالقلوب، فإن الأعمال البدنية سهلة ميسرة ليس هناك ما يعارض فيها أو يعرض عنها، بخلاف أعمال القلوب فإن القلوب ميدان الجيش الحق والباطل وليس القلب تحت سلطان الإنسان ولكن الجوارح تحت سلطانه بكل ما في وسعه خوفاً من أن يتسلط عليه العدو من الحظ والشهوة والطمع والأمل والشيطان الرجيم فيفسده على العامل، وهؤلاء العلماء إما أن يكونوا جهلوا حكمة الأحكام أو عملوا بغير علم.

ولا يخفأك في ذلك من النقص، فإن كانوا جهلوا الحكمة فالواجب أن يسارعوا إلى البحث عن العارفين بالله فيتلقوا علوم اليقين وطرق تزكية النفوس وعلاجها من أمراضها الأخلاقية، ومتي أسعدهم الله بعارف بالله وسلموا له أنفسهم عمر قلوبهم باليقين وأشهدهم آيات الله الظاهرة في الآفاق وفي أنفسهم، فاشتغلوا بالله تعالى مقبلين عليه بالكلية متشبهين برسول الله ﷺ وآله ، فداده روعي وأبي وأمي.

(١) سورة الناس آية ١ .

(٢) سورة الحج آية ٧٨ .

(٣) البزار والبيهقي في شعب الإيمان .

ولعل من ألم به هذا المرض يعتقد أنه أكمل النساك لاعتماده على التشديد على نفسه، والحقيقة أنه ظلم نفسه وتعني في العبادة، والعبادة ليست تعنياً ولا تمنياً وإنما هي قيام لله بما كان عليه رسول الله ﷺ وآله ﷺ وأصحابه بقدر استطاعة العامل ابتغاء مرضاة الله مع رعاية مشاهد التوحيد في أن الموفق المعين الهادي هو الله، وعلاج هذا المرض الأدب مع رسول الله ﷺ وآله ﷺ وترك الاستظهار عليه ﷺ وآله ﷺ حتى لا يعمل إلا بعد أن يتبين له أنه على ما يحبه الله ورسوله، فإن المراد القبول من الله تعالى، ولا يتحقق إلا باتباع رسول الله ﷺ وآله ﷺ، ومن أقبل على الله تعالى مستظهراً على رسول الله ﷺ وآله ﷺ متعنياً كأنه هو والمتساهل المتمني سواء، وكيف يقبل العبد المؤمن على الله تعالى بمخالفة رسوله ﷺ وآله ﷺ بالقول أو بالعمل، وما جاءنا به رسول الله ﷺ وآله ﷺ إنما جاءنا به من عند الله تعالى، وقد فرض الله تعالى علينا طاعته ﷺ وآله ﷺ وجعل التولي عن طاعته كفراً - قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(١). فإذا كانت طاعة رسول الله ﷺ وآله ﷺ هي طاعة الله تعالى فمخالفته ﷺ وآله ﷺ هي مخالفة الله تعالى، وهذا العامل لو أشرقت عليه أنوار حكمة الأحكام لذاق حلاوة الإيمان ولذة التقوي ولكنه وقف عند نفسه فأفسد عليه الشيطان عمله، والأولي له أن يتوب إلى الله تعالى من مخالفة رسول الله ﷺ وآله ﷺ بما ابتدعه في العبادة، وإنما نعبد الله تعالى بما أمرنا به وبينه رسول الله ﷺ وآله ﷺ بالقول والعمل والحال حتى نفوز بمحبة الله لنا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ

(١) سورة آل عمران آية ٣٢.

تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ^(١) ، وكيف يقبل الله عملاً يخالف العامل فيه رسول الله ﷺ وآله ﷺ وقد كره ﷺ وآله ﷺ لأصحابه التعني فيما هو خير من مواصلة الصيام ومواصلة قيام الليل والزهد في بعض المباح، كما كره للإمام الجليل سيدنا عبد الله بن عمر بقوله له: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) . وكما كره لغيره من المستظهرين عليه مما عزموا أن يتركوا الكلام مع الناس فمر رسول الله ﷺ وآله ﷺ فحياهم فلم يردوا عليه فقال ﷺ وآله ﷺ: (من رغب عن سنتي فليس مني)^(٢) أما معاملات القلوب والأحوال التي تنتج عنها فإن كان يحبه ﷺ وآله ﷺ وكان من أصحابه رضي الله عنهم ونفعنا الله بهم على أكمل الأحوال النبوية وأجمل المعاملات فكان الرجل منهم يبذل ماله لأخيه ويبذل دمه ويؤثر على نفسه مع الخصاصة وينافس فيما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ وآله ﷺ مما عجز العقل عن تصويره وتقف الأفكار أن تحوم حواله لأنه فوق الطاقة البشرية وبه أثني الله تعالى عليهم وبه نشر الدين في أنحاء الأرض، وتبتلك الأحوال بعينها صارت كلمة الله تعالى هي العليا وجاء الحق وزهق الباطل، ولكن هذا العامل يشدد على نفسه في الطهارة جسماً وبدناً ومحلاً ويترك قلبه ميداناً للوساوس والمفاسد، ولو اعتني بقلبه لشهد جمال ربه.

* ومن أمراضهم الدعوة إلى الحق بالفضاظة والغلظة والجفوة، مع أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة مع رعاية قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) البخاري ومسلم ومالك في الموطأ .

بَيْنَهُمْ ﴿١﴾ حتى يقهر المؤمن الشيطان فينجيه الله منه. وقد قص الله علينا أخبار الرسل صلوات الله على نبيينا وعليهم في الكتاب العزيز لتستبين لنا أحوالهم من الصبر والرضا والعفو والرأفة والرحمة والحب في الله والبغض في الله وتحمل الأذى في الله ومعاداة الوالدين والأولاد في الله تعالى، والتبرئة من الخليل والرفيق والصاحب والصاحبة والولد لله تعالى حتى يكون البعيد البغيض أحب إليهم من الوالدين والأقربين إذا آمن بالله ورسوله، ويكون الشقيق الرفيق أبغض إليهم من النار إذا كفر بالله تعالى أو عصاه سبحانه وتعالى، شرح الله لنا ما كان عليه رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وكرر أخبارهم وقصصهم في القرآن لتستبين الحجة وتتضح الحجة فتكون الحجة البالغة لله، ولم يكن تكرار أخبار رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم عبثاً، فإن كل قصة كررت مزيد بيان لحال أو مقام أو خلق جميل أو صبر من الله تعالى أو شكر منه جل جلاله أو كشف خفي لطفه بعباده، كيف صبر الله تعالى على من خالفوا رسله وأمدهم بالمال والبنين حتى طغوا وضلوا وأضلوا، ومن لم يتلق بالأسرار الحكمة من العقيدة والأخلاق والمعاملة والأحوال والمقامات من أخبار رسل الله تعالى غوى.. أسأل الله تعالى أن يحصني وإخواني جميعاً بحفظه من مخالفة رسوله ﷺ وآله من البدع المضلة والأهواء المضرة إنه مجيب الدعاء.

*ومن أمراضهم النظر إلى أنفسهم بأنهم لا يخطئون، ودليل ذلك أن الرجل منهم إذا قيل له أخطأت في رأي أو قول أو عمل، كبرت عليه نفسه أن يري مخطئاً فيثور ثورة الليث مشنعاً على من نبهه لخطئه متعصباً لنفسه مفارقاً للحق، ويبلغ فيه العنا

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

وأن يكتب فيه الرسائل ويشيع القبيح فيمن نهبه للحق، أنا لا أنزه العلماء من الحدة والإنفعال النفساني عند الصولة لله، ولكن هذه الصولة تكون من العالم غيرة لله على من تعدوا حدوده أو خالفوا صريح البيان أو الإجماع، ولا تلبث تلك الصولة إلا ريثما يظهر للعالم الحق إما برجوع المخالف وتوبته، وإما ببيان الحجة أنه على الحق فيرجع إلى الله إما مستغفراً لذنبه وإما شاكراً له على حسن عنايته بأخيه المؤمن ومثلياً على أخيه المؤمن التي من أعظمها الرجوع إلى الحق. أما الصولة على من لاحظ عليك وأنكر عليك والثناء على من تملق لك ووالاك فهما الأمران المنكران وذلك أن إبليس لعنة الله عليه علم أن الباب الذي يدخل منه على قلوب العلماء هو باب الحسد، فإنه لعنة الله عليه يدخل على النساء من طريق الكيد، وعلي التجار من طريق الخيانة، وعلي قلوب الحكام عن طريق الظلم، وعلي قلوب الشبان من طريق النساء، حفظنا الله من مكره وكيده إنه مجيب الدعاء.

وشفاء هذا المرض أن يعتقد في نفسه العصمة لرسول الله، فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ وآله ، ومن أنزل نفسه منزلة الرسل - صلاة الله وسلامه عليهم - فاعتقد أنه لا يخطيء فقد أقام الحجة على أنه مخطيء وظالم لنفسه، وإنما هو رأي يراه الإنسان فإن كان حقاً فمن الله بحسن توفيقه وعنايته وإن كان باطلاً فمن الإنسان العجول قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرِي تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وكل

(١) سورة طه آية ١١٥.

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١.

(٣) سورة الذاريات آية ٥٥.

مؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ وآله ﷺ ضالته المنشودة الذكرى، فإن المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن لا يري عينيه اللتين يكشف بهما الأشياء إلا بمرآة، فكيف لا يقبل من أخيه المؤمن ما بينه له من عيوب نفسه التي لا يراها بنفسه اللهم إلا إذا تمكن الشيطان من قلبه فأنساه ذكر ربه. هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفداه أبي وأمي - أمر الكاتب أن يكتب لرجل من الولاة في شأن من الشئون بينه له فكتب الكاتب، هذا ما أراه الله أمير المؤمنين، فلما أسمعته الكتاب غضب غضباً شديداً وقال: من أعلمك أن هذا ما أرانيه الله تعالى؟ هذا رأي عمر إن كان حقاً فمن الله تعالى وإن كان باطلاً فمني بعجلتي وأسأل الله أن يغفر لي. وهو من أمرنا ﷺ وآله ﷺ أن نفتدي به ^(١) بقوله اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر " بأن عمر رضي الله عنه من المحدثين بقوله ﷺ وآله ﷺ: (إن كان منكم لمحدثون فعمرو) ^(٢) وسماه ﷺ وآله ﷺ الفاروق. ومع تلك المقامات العلية تراه كما أخبرك أدباً مع الله ورسوله ومجاهدة لنفسه، فكيف يدعي غيره العصمة لنفسه ويغضب إذا نبه للخير ويرى أنه أكبر من الحق.

الشفاء من هذا المرض: ذق حلاوة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ^(٣) وقوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ ^(٤) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) أحمد وابن ماجة والحاكم والطبراني .

(٢) البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي .

(٣) سورة الأنعام آية ١٥٩ .

(٤) سورة الجاثية آية ٢٣ .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ ﴿٢﴾ وقوله ﷺ وآله: (المؤمن يكفيه قليل الحكمة) ﴿٣﴾. إذا ذاق المؤمن حلاوة تلك الآيات والأحاديث الشريفة علم حق العلم أنه ذو قلب يتقلب وذو جوارح مجترحة وذو نفس تتزع إلى مقتضيات فطرها ولوازم طبعها وأنها في حاجة إلى التزكية والتهديب وأنها لا تصلح إلا بالتزكية كما قال سبحانه: ﴿فَدَأْفَلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٤﴾. وبعد أن يجاهد نفسه حق الجهاد، ولتزكيتها يجب أن يجاهدها مجاهدة أخرى ليفني عن شهود تزكيتها إياها حتى يتحقق بمشهد التوحيد بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿٥﴾. وعالم يجهل تربية نفسه منفرداً، والمسارة إلى علاجها عندما يلزم بها نقص في العقيدة، أو عيب في الأخلاق، أو نزوع إلى حظ أو ميل إلى معصية، فيسارع إلى معالجتها بما بينه الله ورسوله ﷺ وآله، وبما أخذ به أهل المعرفة بالله أنفسهم من فادح الرياضات وشديد المجاهدات حتى تلين للحق وتنقاد مسالمة فليس بعالم، لأن العلماء كما قال ﷺ وآله: (سرج الدنيا ومصابيح الآخرة) ﴿٦﴾ والسراج يضيء يضيء نفسه وما حوله- فكيف يكون السراج مظلماً ويشهد غيره منه نوراً؟! فإن

(١) سورة الأنفال آية ٢.

(٢) سورة المائدة آية ٨٣.

(٣) الترمذي في كتاب العلم وابن ماجة في الزهد بلفظ: [الحكمة ضالة المؤمن يَلْتَقِطُهَا حَيْثُ وَجَدَهَا] .

(٤) سورة الشمس آية ٩.

(٥) سورة النور آية ٢١.

(٦) كشف الخفاء للعجلوني حديث ١٧٥١ بلفظ: [العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء] ورواه ابن عدي عن الإمام علي وهو حديث صحيح كما قال المناوي، وهو موجود في جامع الأحاديث للسيوطي بنفس نص كشف الخفاء.

كان العالم مفسود الأخلاق كيف ينفع غيره بعلمه وعمله وخلقه؟ والعالم مسئول عن العمل بعلمه. وقد ورد: (أعوذ بالله من قلب لا يخشع ومن علم لا ينفع ومن عمل لا يرفع). وأدعياء العلم الذين هم أضر على المسلمين من أعدائهم لأنهم ينظرون إلى الخلق بعيون الانتقاد فيحتقرون عباد الله تعالى، وينظرون إلى أنفسهم بعين الإعظام والإجلال فيغفلون عن نقائصهم وعيوبهم وأمراضهم، فترى الرجل منهم يبذل ما في وسعه للتقرب من الأمير أو من المتكبرين في الأرض بغير الحق لينال دنيا أو جاهًا ويتقرب إلى الأمير بما أحب مما حل أو حرم، وإذا رأى مسلمًا سها عن مندوب قام فشنع عليه وسبه، وينسي عظام الأنام من نفسه حتى كأنه عميت عينه عن تطهير نفسه أو كأنه لم يطالب بآداب الشريعة^(١).

جهاد الإمام ضد حملات التبشير والتنصير

قام الاستعمار بتدريب دعاة التبشير والاستشراق ووجههم نحو العالم الإسلامي وقسمهم إلى مجموعتين :

أولاً : مجموعة المباحث الفكرية :

وتعتبر من أقوى وسائل الاستشراق . ونظرًا لأهميتها، فقد اعتمد عليها المستشرقون . ولها أوجه متعددة :

١- الأبحاث التي تشوه حقيقة الإسلام في صورة تأليف كتب أو إلقاء محاضرات ودروس .

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ٢ ، ٣ (٢٧، ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦ هـ الموافق ٢٧ أغسطس ، ٣ سبتمبر ١٩٣٧ م) .

٢- تحريفهم معاني ألفاظ القرآن لإنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية لماضي الأمة الإسلامية والازدراء بهذه الشعوب في المجالات الدولية العالمية .

٣- التعليم الإرسالي، لبيان أن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، والإعلام عن طريق الصحافة ودور النشر لمقاومة الأزهر الشريف وإضعاف تأثيره، وإذاعة الدعوات المشبوهة كالتسامح، والدعوة إلى الحوار والجدل .

٤- إحياء القوميات التي أزالها الإسلام، كالفرعونية في مصر، والأشورية في العراق، والبربرية في شمال أفريقيا والأندلس، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان، والفارسية في إيران .. وذلك لتخريب العالم الإسلامي وتقطيع أوصاله بغية تمزيق الوحدة الإسلامية التي كان من آثارها إلغاء الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية وإثارة الفتن الداخلية في الأمة العربية .

ثانيًا : مجموعة العمل الخيري :

وهي من أخطر وسائل التبشير . ونظرًا لأهميتها وخطورتها فقد اعتمد عليها المبشرون في أساليبهم التي منها :

١- العلاج الطبي في المستوصفات والمستشفيات، فالطبيب في هذه الإرساليات هو مبشر أولاً ثم طبيب ثانياً .

٢- الملاجيء التي تضم الأطفال، والجمعيات والنوادي والمعونات لاستغلال حالات الفقر والحاجة .

وقد حاول التبشير والاستشراق أن يحقق أهدافه بكل هذه الوسائل، وسلوكوا كل مسلك ظنوه محققاً لأهدافهم، غير أن علماء المسلمين كانوا يعتبرون وسائل

المستشرقين هذه فقايع لا تلبث أن تتلاشي أو كلاماً فارغاً تصده العقيدة الإسلامية الموروثة وحدها .

ولكن الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبا العزائم رحمته الله لا يهون من شأن وسائل المستشرقين، فلا يقول كما قال علماء المسلمين : (إن كتب المستشرقين كلام فارغ)، ولم يلق هذه الكتب بعيداً مردداً ما قاله هؤلاء العلماء : (إن ما بها كذب وتضليل وحقد عميق)، بل شمر عن ساعده وكتب مجادلاً هؤلاء المستشرقين بالتي هي أحسن، ودفع المطاعن التي وجهت للإسلام والمسلمين، من واقع مسئوليته كإمام مجدد لهذا القرن الذي نعيش فيه .

ويعتمد ما أثاره المستشرقون في كتبهم قديماً وحديثاً على مصدرين أساسيين يردد فحواهما كل جيل من هؤلاء المستشرقين :

المصدر الأول : كتاب ((ميزان الحق)) للمستشرق د. فندر .

المصدر الثاني : كتاب ((تذييل مقال في الإسلام)) للمستشرق هاشما العربي .

وقد تعرض للرد على كتاب ((ميزان الحق)) المرحوم الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه ((إظهار الحق)) ولكن المستشرق د. تسدل حاول جاهداً أن يرد على الشيخ رحمة الله الهندي .

فمن أجل ذلك كله، رأي الإمام المجدد أن يتضمن كتابه (وسائل إظهار الحق) الرد على المستشرق د. فندر والمستشرق هاشما العربي والمستشرق د. تسدل . والقاريء لهذا الكتاب يعجب كل العجب من آراء هؤلاء المستشرقين الذين تدفعهم دراساتهم التي تملئها عليهم العصبية الحمقاء ومظاهر الحياة الدنيا ومتاعها، أن يحاولوا الكتابة بالباطل وهم يعلمون أنها باطل . كما سيجد القاريء لهذا

الكتاب البراهين القاطعة التي تملئها قوانين العقل والمنطق، والتي تناولها الإمام عليه السلام لبيان الصحيح من الفاسد . ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذي قام بالرد على دعاة التبشير والاستشراق في ذلك الوقت، والذي كان الاستعمار للشعوب الإسلامية هو البوابة التي دخل منها التبشير بحرية كاملة داخل هذه البلاد، ولذلك كان هذا الكتاب عرضة لأن يمنع تداوله من السلطات البريطانية في مصر أكثر من مرة .

وقد أخذت أساليب التنصير والتبشير أسلوباً إضافياً حديثاً له تأثير عميق وسريع الانتشار وهو إقامة محطات تغطي جميع أنحاء العالم سواء للبث المسموع أو المسموع والمرئي متخصصة في التبشير للدين المسيحي ومحاولات التنصير وهي تعتمد على نوعين من الدعوة :

١- تقوية وتعميق المستوي الديني عند المستمعين والمجاهدين المسيحيين.

٢- توجيه هذه البرامج المسموعة والمرئية إلى كل بلاد المسلمين في العالم في محاولات للتبشير والتنصير .

٣- تصدير كم هائل من المعلومات والمقالات وكل ما يعتقدون أن له تأثير في هدم الدين الإسلامي على شبكات الإنترنت internet المتاحة لكل من يمتلك جهاز الكمبيوتر وطبعها على الورق وتوزيعها على ضعاف النفوس، حيث أن حرية بث المعلومات على هذه الشبكة مكفولة للجميع .

من مواقف الإمام للرد على النصاري والمستشرقين :

(١) أخبر الإمام أبو العزائم عليه السلام في كتاب ((أسرار القرآن)) : سألي رجل من كبار علماء النصاري أمريكي الأصل وأنا بالخرطوم فقال : إنكم تتهمون ربنا بالظلم في العقاب يوم القيامة، يعيش الرجل منكم سبعين سنة فيعصي الله ويتوب

فيدخله الجنة أبدئاً، وكان العدل أن يدخله الجنة سبعين سنة، ويعيش الرجل النصراني أو اليهودي أو المجوسي سبعين سنة فيدخله النار أبدئاً، وكان العدل أن يقيم في النار سبعين سنة مدة كفره بالله ومعصيته .

و كنت في مجتمع من أهل السودان والهند واليمن، فخشيت أن تقوي هذه الشبهة في نفوسهم فقلت : يا أخي، إن الخلاق العظيم خلق حقائق الأناسي من جواهر معلومة لديه، فمنها جواهر نورانية، وجواهر نورانية وظلمانية، ثم جواهر ظلمانية من أسفل سافلين . ولو أنه ترك من نفوسهم من النور مخلصين في الدنيا لداموا على عبادته وطاعته أبدأ، ولو ترك النفوس المخلوقة من سجين لداموا على كفره وعصيانه أبدأ، فهو ينظر إلى ما قدره على تلك النفوس أزلاً ويعاملهم بما يعلم فيهم .

وقد سألتني سؤالاً آخر فقال : إن القسس والرهبان والأخبار يمشون عشرات السنين في عبادة وتسبيح وترتيل وأنتم تقولون إنهم مخلصون في جنهم، وأنتم المسلمون أكثركم عصاة تخالفون الله وتعصون أحكامه وتدخلون الجنة .

فأجبتة على الفور بعد أن ظهر لي أنه مبشر يريد إحداث الفتنة في الدين : إننا كما تقول، جوارحنا تعصي الله، فإذا تكاثفت الظلمات عليها، ظهر نور توحيد الله وتفريده بالآلوهية الذي انعقدت عليه قلوبنا فظهر تلك الجوارح . وأنتم تعبدون الله ليلاً ونهاراً، فإذا أنزلت أنوار الرحمة عليكم من السماء ظهرت ظلمات الشرك واعتقاد أن لله ولداً فمحت تلك الأنوار، فكبر المسلمون، وما كنت مستعداً أن أجيبه على هذه الأسئلة .

وسألني أحد المستشرقين كيف يعذب إبليس بالنار وقد خلق منها ؟ وكيف يكون بالقبر رجلان أحدهما يعذب والآخر في نعيم ولا يشعر أحدهما بالآخر ؟

فأخذت حفنة تراب وقذفتها في عينه فصرخ، ثم احتضنته .. وقلت له : أن الذي عذبك بالتراب وقد خلقك منه قادر أن يعذب إبليس بالنار وقد خلق منها، وها أنا احتضنك وأنت تعذب وأنا في نعيم ولا أشعر بعذابك ولا تشعر بنعيمي .

(٢) كان ثلاثة من المستشرقين البلجيكي يبحثون في شيء يطعنون به الإسلام . وأثناء بحثهم في الحديث النبوي الشريف وجدوا بغيتهم في قول النبي ﷺ وآله : ((علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل))^(١)، وتوصلوا إلى أن أنبياء بني إسرائيل كانت لهم تنبؤات بالغيب، فإذا كان علماء الأمة المحمدية كأنبيا بني إسرائيل فليأتونا بعالم ينبئنا عن الغيب . نزلوا إلى مصر ودارت المناظرات ولم يصلوا إلى حل، وأسلوب التعجيز هذا هو ما يريدون الوصول إليه . وكان قد مر عليهم في نهاية الوقت مدرس بالأزهر اسمه الشيخ محمد المدني، وأخبرهم أن العلماء الذين ناظرهم لا يتكلمون إلا في حدود اختصاصاتهم في الفقه والفتوي وما إلى ذلك، ولكن هناك علماء ليس علمهم قاصراً على علم الدراسة وإنما منحهم الله بعد علم الدراسة علم الفراسة، وهم العلماء الربانيون الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى : (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)^(٢) وقال فيهم

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٧٩ .

رسول الله ﷺ وآله : ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله))^(١)، ومن هؤلاء العلماء الإمام السيد محمد ماضي أبو العزائم.

ولما اصطحب الشيخ محمد المدني هؤلاء المستشرقين إلى منزل الإمام وجده في زيارة لخشبه باشا في أسيوط، فاصطحبهم إليها . ولما دخلوا على الإمام خلعوا قبعاتهم تحية للإمام، فما كان منه ~~السلام~~ إلا أن ضرب كل واحد على خده، فتعجب الشيخ محمد المدني من أن يكون رد تحيتهم له قلم على الخد، هذا مع ثقته البالغة بفعل الإمام .

ثم أخبرهم الإمام عما أسروه في صدورهم ولم يطلعوا عليه أحدًا فقال : لقد اجتمعتم في بلجيكا وأردتم أن تطعنوا الإسلام، فبحثتم عن آية في كتاب الله فلم تجدوا، فبحثهم في الحديث فوقع نظركم على حديث (علماء أمي كأنبياء بني إسرائيل)، ونزلتم إلى الجامع الأزهر وأردتم أن تقيموا علينا حجة، وناظرتم العلماء، ولكن قومًا اختبرناهم في دينهم فسقطوا (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) لا ينبغي أن يختبرونا في ديننا . وهنا علم المستشرقون أن هناك من الأمة المحمدية من كاشفهم الله بالغيب، فقاموا واغتسلوا وتابوا وبايعوا الإمام على الإسلام .

(٣) سأل أحد المستشرقين الإمام ~~عليه السلام~~ فقال : الحي أفضل أم الميت ؟! فأجابه الإمام بسؤال : مريم أفضل أم إبليس ؟؟ فهت هذا المستشرق الخبيث وانصرف فوراً . وتعجب تلاميذ الإمام لما حدث فقال لهم : إن السائل كان يود أن أجيبه

(١) البخاري في التاريخ والترمذي في التفسير .

بأن الحى أفضل من الميت، فيصل إلى أن عيسى وهو فى نظرننا حى .. أفضل من سيدنا محمد، فأجبتة بأن إبليس حى ومريم قد ماتت .

(٤) ولما تكلم الإمام وأملى كثيراً عما يزعمون أنه نظرية ((النشوء والارتقاء)) وفند أيضاً مزاعم ((دارون)) فى أن الإنسان أصله خلية تطورت حتى وصلت إلى قرد ثم تطور القرد إلى إنسان، جاء إلى الإمام وفد من أوربا، إلا أن الإمام كلف أحد تلاميذه فى مناقشة الوفد وهو مطرق يستمع ولا يتكلم . ولما وصل الحديث بين الطرفين إلى طريق مسدود، رفع الإمام رأسه وقال لكبير الوفد : أريد أن أسألك سؤالاً : هل الفرع أحسن أم الأصل ؟ . وقع هذا السؤال عليهم وقع الصاعقة، وأخبر من شاهد هذه الواقعة ^(١) أن وجوههم قد تغير لونهما وغادروا المكان فجأة عندما سمعوا هذا السؤال .

وقد شرح الإمام بالتفصيل أصل الإنسان كما جاء فى القرآن الكريم بأسلوب واضح ودقيق مع الإشارة إلى الأدلة النقلية والعقلية، وأجلى الرد بالأدلة العملية القاطعة التى قوضت دعائم نظرية دارون فى النشوء والارتقاء فى كتابه : ((إنسان المؤمنين وإنسان الملحد)) .

(٥) يرد الإمام على شبهات منكري البعث ويفند مزاعم أعداء الدين، ولا يتكلم عن منكري البعث إذ أنهم ليسوا أهلاً لأن يخاطبهم ولكنه يقول:

((ولكن نخطب من أثبت بعث الأرواح دون الأجساد، ونعلم أن الذى حدا بهم إلى هذا الحكم وقوفهم عند الحواس، ولأنهم يقولون إذا أكل إنسان إنساناً

(١) روى هذه القصة السيدة فاطمة عبد الباسط القاضى حيث شهدت هذه القصة عندما كانت تخدم الإمام فى ذلك الوقت .

بحيث صار المأكول جزءاً من الآكل فإذا أعاد الله تعالى هذين الإنسانين بعينهما فتلك الأجزاء التي كانت للمأكول ثم صارت للآكل إما أن تعاد في كل واحد منهما وهو محال لاستحالة أن يكون جزء واحد بعينه في آن في شخصين متباينين، أو يعاد في أحدهما وحده فلا يكون الآخر معاداً بعينه والمقرر خلافه وهذا في مذهب الفلاسفة .

وقد تسرب هذا المذهب إلى بعض من لم ترك نفوسهم تركية تجعل النفس تسوح سياحة ملكوتية فتقتبس من مجانسة عالم الطهر أسرار الجنة وما فيها من نعيم الجسم ومسراته، وبهجة النفوس وملاذها وما في النار من عذاب يذيب الأشباح وحجاب يحزن الأرواح، حتى ترجع إلى هذا الجسم فتمثل له ما هناك تمثيلاً يجعله يطيعها فيما تطلبه منه .

والحقيقة أن الجسم يعاد كما كان في تلك الدار الدنيا، وإلى العقل بيان كل نوع من الأنواع تتسلط عليه المؤثرات الكونية كالذهب بالنسبة للمعادن فإن النار وغيرها من المؤثرات لا تنقصه شيئاً ولا تغيره عن كماله الذي بلغه، فلو أُلقي في الأرض السبخة أعواماً ما تغير، بخلاف بقية المعادن فإنها تتنوع إلى غيرها فتكون شراًباً أو ينقلب النحاس إلى توتياخضراء، فكذلك الإنسان هو أكمل الأنواع الموجودة ولكماله النوعي لا تؤثر عليه المؤثرات الكونية، فلا يتغذي النبات بشيء من حقائقه الأصلية ولا تهضمه تلك الحقائق في معدة حيوان، فلو اندثرت المقابر وصارت أرضها مزرعة تغذي النباتات بالفضلات الزائدة على الحقائق، وتحفظ أجزاء الحقائق في الأرض كما تحفظ أجزاء الذهب .

وإذا أكل الإنسان أو الحيوان إنساناً فإن الذي يتغذى به هو المواد الغريبة والفضلات الزائدة على الحقائق، وتلك المواد الغريبة والفضلات الزائدة ليست هي الإنسان، وإنما هي لتعويض ما فقد منها بالعمل حفظاً للحقيقة الإنسانية .

إذن فكل الحقائق التي هي العظام والأوردة والشرابين والأعضاء الرئيسية كالقلب والرئتين والكبد والطحال والكليتين والمعدة والمعي وحقيقة العينين والأذنين واللسان وغيرهما مما يكون به الهيكل الإنساني هيكلًا مجردًا عن الحياة لا سلطان عليه للأرض ولا لما عليها .

وإذا تقرر فالجسم يعاد يوم القيامة كما كان في الدنيا مع روحه، والقول بأن الروح هي التي تعاد باطل، وإن فهم ذلك بعض من لم يعقل عن الله ولا عن رسوله من النصاري الذين يظنون أن سيدنا عيسى يقول بإعادة الأرواح، فإن هؤلاء القوم ما فهموا شيئاً من كلام سيدنا عيسى عليه السلام، ومن أنكر البعث وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة ارتد عن الإسلام ومن أنكر بعث الأشباح جهل صريح الدين .

(٦) شبهة أفضلية الغرب على الشرق : وقد ردد المستشرقون - وتابعهم فيها المستغربون - أكذوبة حيث قالوا : إن الغرب أفضل من الشرق وأنه مهد الحضارة والتقدم، وأن الشرق مهبط الظلم والجهالة والتخلف .. لكن الإمام المجدد رد عليهم مدافعاً عن الشرق بمقولته الحاسمة والخالدة التي قال فيها :

(كفي الشرق فخراً أنه أولد مولوداً صار للغرب معبوداً).. فأوربا التي تستعلي على الشرق تعبد المسيح الذي هو ابن الشرق !! ثم يزيد الإمام المجدد الأمر بياناً في كتابه ((وسائل نيل المجد الإسلامي)) قائلاً : (إن الغرب عبارة عن أوربا

وأمریکا وهما القارتان اللتان لم ينظر الله إليهما نظرة إحسان وحب فيبعث فيهما رسولاً أو يجعل لهما نوراً في قلوبهم تتضح به أنوار التوحيد) .

ويتساءل الإمام في عجب !!؟

يتساءل الإمام عليه السلام في كتاب (وسائل إظهار الحق) فيقول:

* ما الذي يرمون به الإسلام ؟ أأوردوا برهاناً على فساد عقيدته ؟ لا والله، وإنهم ليعتقدون أنها العقيدة الحقّة مع أنهم أعداء .

* أم ظهر لهم فساد في أحكامه ؟ لا والله، وإنهم ليعلمون بأحكامه ويسيروا على سيرة الأئمة الفاتحين من المسلمين .

* أو أقاموا الدليل على أن الإسلام لم يأت بالأخلاق الفاضلة ؟ لا، ولم يعتنق الدين الإسلامي جميع من اعتنقه إلا حبّاً في فضائل الأخلاق التي يأمر بها وتصديقاً للعقيدة الحقّة التي يدين بها .

فما الذي ينكرونه عليه إذا كانوا لم ينكروا على عقيدة الإسلام ؟ وكل عقيدة غير عقيدة الإسلام منكرة عقلاً وحساً لا يقبلها عقل عاقل ولو كان طفلاً .

١- ينكرون على الإسلام أن أصله تنزيه الخالق المبدع عن الحلول والولد والوالد وعلوه سبحانه عن الاحتياج إلى المكان .

٢- ينكرون عليه أن خالق الكائنات قادر لا يعجزه شيء .

٣- ينكرون على الإسلام أنه يتره الجنب الإلهي عن أن يقدر عبداً من عباده يجعله يحل ويحرم .

٤- ينكرون على الإسلام أنه جاء بالعدل الصحيح والمساواة الكاملة .

٥- ينكرون على الدين الإسلامي أنه لم يأت بالرهبانية وترك العمل للدنيا مرة واحدة .

٦- ينكرون على الإسلام أنه وضع الحدود لمرتكبي الجرائم والمعاصي ولم يجعل أحداً يغفر الذنوب إلا الله تعالى .

٧- ينكرون على الإسلام أمره بالرحمة وحسن الظن حتى بغير المسلمين والتجمل بالفضائل حتى مع غير المسلمين .

٨- ينكرون على الإسلام أنه حظر حتى على التقى الورع الزاهد أن يخلو بامرأة أجنبية أو أن يعترف له مذهب بدين إلا إذا توجه إلى الإمام المنفذ للأحكام واعترف له ليقم عليه الحد .

٩- يشنعون على الإسلام أنه انتشر بحد السيف .

١٠- يتهمون الحج بأنه عمل صنمي .

١١- يتخذون من حديث الإفك مادة للتشنيع .

١٢- ينكرون على الإسلام تعدد الزوجات .

١٣- يتهمون رسول الله ﷺ وآله في تزويجه زينب بنت جحش لزيد بن حارثة .

ونورد هنا بعض الموضوعات التي رد بها الإمام على مطاعنهم حيث يقول ﷺ:

١- أسرار النواميس الإلهية عند الجاهل أعمال صنمية :

ما هو التابوت الذي كان يحمله موسى عند الجهاد وعند الشدائد وعند الاستغاثة والنجدة ؟ وذاك موسى كليم الله ؟ لم يكن التابوت إلا صندوقاً من الخشب فيه قطع بالية من سفينة نوح عليه السلام، وماذا قال اليهود فيه وقد أمر الرب كليمه أن يحمله أمامهم وهو كليم الله ؟ ويستنصر به ويستسقي به ويستفتح

به، قالوا : إنه أنزل مع آدم من الجنة . أنا لا أنكر عليهم قولهم ولا أسلمه لهم، فإن الرب الذي أنزل الناموس بمشيئة يقدس ما يتزله من الجنة، وبمشيئة يقدس ما شاء من الأرض من طين أو ماء أو شجر أو مدر . فحمل التابوت هذا عند من لا يعقل أسرار النواميس عمل صنمي، وعند من يعقل النواميس يقول : الرب يحكم على خلقه بما شاء ويأمرهم بما شاء ويختبرهم بما شاء . هذا التابوت بعد موسي رفع إلى السماء كما بين في التوراة . خصوصاً عندما فشى الزنا والفسوق في بني إسرائيل . ولما قام العمالقة لهلاك شعب إسرائيل، بشرهم الرب في التوراة أن التابوت يتزل مع الملائكة . هذه أسرار الناموس وغرائب آياته تحجب العقل المكسوف نوره عن أن يدرك حقائق الحكمة وغرائب الآيات .

نزل التابوت تحمله الملائكة . ما الذي كان فيه ؟ كان فيه : نعلا موسي وثيابه وعمامة هارون وعصا موسي . سبحان الله !! نعلان لرسول من رسل الله يبلغ بهما التعظيم إلى درجة أن يكونا في التابوت ؟؟ ويكون هذا التابوت به النصر وبه الفتح وعود المجد لشعب إسرائيل ؟؟ وتزل به الملائكة ؟؟ تلك مرموزات الناموس لا تكشف إلا لمن جاهد نفسه مجاهدة يطهر بها من خبث الضلالة وظلمة الجهالة ودخان العناد ونار العصبية للآباء ويخرجها من هوة الطمع فيما يفني .

انتقل بنا إلى عصا موسي عليه السلام ما هي عصا موسي ؟ غصن من شجرة ربما زرعها كافر، وسقاها كافر، وقطعها من الشجرة كافر . وإذا أراد الله أن يظهر الآية يظهرها كيف شاء وبما شاء وفيما شاء . كانت العصا عند شعيب عليه الصلاة والسلام، ثم أعطيت لموسي، فقدسها الله وبارك فيها حتى صارت كألف كلمة الله، وصار موسي - كلم الله - بدونها إنساناً لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً . فالقادر على أن يجعل العصا كلمة كن في يد موسي قادر أن يجعل هذا كله

بكلمة من موسى وبجركة يده وبأي عصا من العصي، ولكنه سبحانه يقدس ما شاء ويظهر ما شاء ويضع سره فيما شاء وفيمن شاء، وهذا أيضاً رمز من مرموزات الناموس الأعظم .

انتقل بنا إلى الخليل أصل الرسل عليهم الصلاة والسلام ووالدهم الأوسط ومبدأ الفيض الأقدس . ثبت بالتواتر وبالأثر أنه عليه الصلاة والسلام هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام رفعا قواعد البيت ووضع الحجر الأسود بيديهما عليهما السلام وأخبرا أنه كان مع أبيهما آدم أنزله معه من الجنة .

فما للإنسان ينحني رأسه إذا ذكر التابوت ويصدق أن صندوقاً من الخشب نزل من الجنة ولا ينكر على موسى الكليم أن يحمله عند الشدائد، ثم إذا سمع أن التابوت نزلت به الملائكة تحمله إلى طالوت عند قتال العماليقة وأن التابوت كان فيه نعلا موسي عليه السلام .. ينحني تعظيماً للتابوت وما فيه ويعترف أن التابوت باركه الله وجعل فيه سر الفتح والنصر !! ولا يخطر على قلبه أنه كالصنم لبني إسرائيل !! ومن موسى عليه السلام في جانب الخليل عليه الصلاة والسلام في جانب آثاره العلية وآياته الجليلة، وهو عليه السلام عند خروجه من مصر لبني إسرائيل أمسك عليه مسالك الخروج حتى حمل معه الصندوق الذي به جثة يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام، فهل كانت تلك الجثة صنما لموسي عليه الصلاة والسلام، ما للإنسان ينسي عيوبه وينظر الحسن في أخيه قبيحاً ؟ كان التابوت صندوقاً من الخشب فيه رضاوض من سفينة نوح عليه السلام باركه الرب حتى أمر كليمه أن يحمله وجعله وجهة للأجسام حتى لا تقع الأعين عليه إلا اطمأنت ولا تمسه الأيدي إلا سرت في القلوب روح يقين وإقدام، ولا يفتح إلا

حصل النصر وانشرحت الصدور . سبحان الله .. لأنه صندوق خشب داخله نعلان ؟.. لا، ولكن الرب يبارك فيما شاء وبارك فيمن يشاء .

فكذلك الكعبة التي هي حجرة بناها الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وهذا الحجر الأسود هو الحجر الذي وضعه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، ورفعوا هذا البيت بأمر الرب جلّت قدرته وبشرهم الرب بأن هذا البيت مبارك، وبشر إبراهيم بأنه سيكون من ولد إسماعيل أمة مباركة يظهر فيها خير رسول .

فكان هذا البيت هو الذي بناه الخليل وابنه وباركه الرب كما بارك في التابوت، وبارك في عصا موسى، وبارك في الحجر الذي كانت تتفجر منه الأنهار، وبارك في الطينة التي خلق منها آدم وأسجد له الملائكة بنص التوراة، وهذا الحجر هو الحجر الذي لمستته يد الخليل ويد ابنه وأخبرا أنه نزل مع آدم عليه الصلاة والسلام، وإني لمصدق أن الرب باركه ولو لم يكن من الجنة، فإن الرب كما تقدم يبارك فيما شاء وفيمن شاء، والعرش والأرض سواء في نظر الرب لا فرق بين الأرض السفلي والعرش الأعلي بالنسبة للرب، ولكنه سبحانه يرفع ما شاء على ما شاء .

والرب على عظيم عن القرب المكاني من العرش أو الأرض، والعرش والأرض في قبضته سبحانه، وفي حیطة علمه وفي تدبير قدرته ومشيئته، ولو شاء أن يجعل قطعة من طين الأرض ترتفع حتى تكون فوق العرش لفعل سبحانه، وقد فعل .. فإن الإنسان من طين، وبعض أفراد من الرسل الكرام والصديقين والشهداء

يكونون في جوار الرب يوم القيامة فوق عرشه، فمتزل الناموس سبحانه وتعالى
بارك في هذا البيت وبارك في هذا الحجر وجعله رمزاً من رموزات الناموس.

لا يسعني أن أكشف تلك الأسرار العلية الغامضة عن العقول المحجوبة بالخط
والهوي في مقام أدعو فيه أخي في النوع إلى نجاته من هاوية العذاب إلا بقدر معلوم

إن المسلم يقبل الحجر مستحضراً اليد التي وضعته، وكأنه يبايع تلك اليد على
اتباع الإسلام الذي هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لأن الله تعالى أكرم خليله
عليه الصلاة والسلام وجعل من ولده إسحاق أمة إسرائيل وأكرمها بالرسول
والأنبياء حتى أنجز ما قدر سبحانه وأراد، وأكرمه عليه الصلاة والسلام فجعل من
ولده إسماعيل عليه السلام الأمة العربية، وأكمل نعمه على جميع خلقه وأتم فضله
عليهم بأن جعل من الأمة العربية خاتم رسله الذي بعثه لكافة الناس بشيراً ونذيراً،
واستجاب لخليله دعوته التي دعاها لإسماعيل وبنيه بأن يجعل منه أمة عظيمة بقوله :
﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾^(١) إلى آخر الدعاء الذي دعاه
وهو معني قول موسي عليه السلام : يكون من بني عمنا .. إلى آخر البشري .
وبنو عمهم بنو إسماعيل، فكان الإسلام هو ملة إبراهيم الحقيقية التي عليها هو
وأولاده عليهم السلام، وبرهان ذلك : جعل بيته كعبة للمسلمين .

إن الله فرض حجه على المسلمين بشروطه المخصوصة، ولم يكن عملاً صنمياً
وإنما هو عمل للتقرب إلى الله تعالى وللقيام بحقوق عباد الله وإطاعة أمر الله

(١) سورة البقرة آية ١٢٩ .

والاقتداء بسنن رسل الله . وكأن المسلم بلمس الحجر الأسود ^(١) وأداء فريضة الحج :

- ١- عاهد الخليل عليه السلام على العمل بإخلاص، معتقداً أنه نفذ أمر الله تعالى وقلد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .
- ٢- تقرب إلى الله تعالى بأكمل العبادات التي بذل فيها ماله، فوسع على خلق الله في السفر إلى مكة .
- ٣- بذل فيها نفسه بمفارقة الأهل والمال والوطن .
- ٤- شهد من عجائب قدرة الله وغرائب حكمته سبحانه وآثار رحمته ما جعل قلبه يطمئن بالقدرة وصدوره ينشرح بالحكمة .
- ٥- جعل الإيمان ينمو في قلبه حتى يبلغ درجة اليقين .
- ٦- قابل إخوته المؤمنين فانتفع بعلم العالم وحكمة الحكيم وحلم الحليم وأخلاق الكريم وعمل الموفقين .
- ٧- شهد من أنواع العادات واختلاف الألوان والأشكال واللغات ما جعله يحب الله سبحانه وتعالى ويعظم جنباه العلي .
- ٨- تتجدد العافية بالحج بعد فقدائها والصحة بعد زوالها، ويتعلم التدبير والحكمة والمدارة والترتيب، وينشط بعد الكسل ويشجع بعد الجبن ويسخو بعد البخل .
- ٩- يمكنه أن يجمع بين الحج والتجارة فيتجر تجارتين للدين والدنيا، فيأخذ ما يحتاج إليه أهل الحجاز ويحلب ما يحتاج إليه أهل مصره .

(١) يخاطب الإمام أهل العقول المعاندة على قدرهم، لكن أسرار الحج والعبادات الأخرى موجودة في كتب الإمام ومواجهه ومقالاته بالجلات، فارجع إليها إن شئت .

حكمة لا تنكشف إلا لمن فهم أسرار الكتب السماوية وذاق حلاوة الإيمان بها والتسليم لها .

أسألك أيها المنكر حكمة الحج وأسراره على جهل منك بفوائدها الجليلة وخيراته المحسوسة: ما هو هيكल الرب ؟ وما هو المذبح الذي كانت تذبح عليه الأنفس أمام هيكل الرب؟ وما هو القربان الذي كانت تأكله النار ؟ أكوشت بأسراره أم ظهر لقلبك خفيه؟ مالك والإنكار على الحج ونوره ساطع وسره باهر وخيره وافر وبركاته مفاضة ؟ وما هو الدهن المقدس الذي كان لا يدهن به إلا نبي ؟ أمن الجنة نزل ؟ أم ذلك دهن لبن النعجة التي كانت نعجة الخروف المذكور في رؤيا يوحنا الذي له قرون من ذهب ونعال من ذهب وأنه هو الرب وأنه ذبح؟ أنا معتقد أن يوحنا نفسه لو سمع أنه نُسب إليه هذا لصعق فضلاً عن أن يقوله بنفسه . وليس جعل خروف له قرون من ذهب ونعال من ذهب إلها يتزل به الناموس . فإن كل مرموزات الناموس نزهت الجناح العلي عن التشبيه والتحديد وعن المثل والنظير والوالد والوالدة، وكل مرموزات الكتب السماوية لإظهار آيات دالة على أنه واحد مريد فاعل لما يشاء يأمر بما شاء وينهي عما شاء، له الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير .

فالتابوت، وعصا موسي، وحجره الذي تفجرت منه ينابيع الماء، وصنع السفينة قبل الطوفان، وناقاة صالح عيه السلام، وحمل سارة بإسحاق بعد اليأس، وبناء بيت للرب، وعمل مذبح يذبح عليه أمام الرب، وماء المعمودية.. كل تلك إشارات من إشارات الكتب السماوية تنكشف غوامضها للمقربين المحبوبين، وكذلك الأرض المقدسة والصخرة المقدسة . فالله سبحانه وتعالى بارك في النار التي ألقى فيها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأبقي فيها الإشراق وأبطل منها الإحراق، وبارك في

نافقة صالح فكانت وجهة أمته، وبارك في حمار العزيز فكان آية كبري، وبارك في كلب أهل الكهف فكان عجيبة للعقول، وبارك في عصا موسى عليه الصلاة والسلام فكانت ككلمة كن، وكم بارك لأنبيائه ورسله : فمنهم من جعله يقبض الحديد محمياً بيده، ومنهم من جعل له بساطه يحمله ويمشي به في الهواء، ومنهم من بارك له في يده فكان لا يمس بها ميتاً إلا أحياه الله ولا مريضاً إلا شفاه الله، وكل آثار رسله عليهم الصلاة والسلام .

وقد رفع الله تعالى خاتم رسله وأمته عن كل تلك البركات الحسية التي هي قاصرة على الأجسام وربما أطفأت نور العقول السليمة، لأن العقل إذا شهد آية يجهل سببها يعجز عن التصرف فيها ويقوم الوهم والخيال يقضيان بلا ميزان، ولكن الله تعالى جعل معجزة خاتم رسله وبرهان خير خلقه المبشر به كل رسله السابقين، نور حكمة وبيان وأسرار موعظة وفصل خطاب، فثبتت العقول على الحق وقبلته بتسليم فكمّل التوحيد بكمال التثنية عن التشبيه والتحديد والإدراك . وصار المسلم عندما يتوجه إلى الكعبة يعلم أنه إنما يسعى قياماً بأمر ربه وزيارة لبيت رفع قواعده الخليل وابنه، لأن الله تعالى بارك موضعه وأمر خليله أن يرفع قواعده، ثم يقرب من الحجر معتقداً أنه لا ينفع ولا يضر، وضعه خليل الله بيده وبارك الله تعلي فيه، فيقبله اقتداء برسول الله واتباعاً لسننهم عليهم الصلاة والسلام .

ذلك الإنكار إنما جاء من دين أسس على أن رجلاً حل فيه الرب، أو أن الرب حل في فرج امرأة وتجسم إنساناً، أو أن الرب مجهول في ثلاث، ثم أسسوا دينهم بعد ذلك على أن الذي يترك أكل اللحم والسمن يكون حماراً يأكل النباتات أو فرساً أو جملاً، والذي يترك الزواج يكون نباتاً يتغذى وينمو، والحقيقة أن النبات له عضو ذكورة وأنوثة، فإذا كان الإنسان ينحط عن رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية

إلى الرتبة النباتية يحل فيه الرب ويكون مترهاً مقدساً يخلو بالنساء الجميلات ويغفر السيئات ويعفو عن الخطايا ويبيع الملكوت ويحل ويحرم .. من كانت هذه عقيدته لاشك أن أعماله جميعها تكون صنمية.

والرسول الذي بعثه الله بالتوحيد للناس جاء بالمعجزات التي سجدت العقول لها وعجز الخيال عن تمثيل كمالاتها : كشف للعقل الحجاب حتى أشهده أنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا أن يشاء الله، وأنه لا يعلم الغيب، وأنه إنما هو بشر مثلنا أوحى الله إليه أنه لا إله إلا الله، وأنزل عليه الوصايا والتعاليم التي استقبلها العقل بتسليم وإخلاص وتصديق .. لاشك أن أعماله تكون مؤسسة على تزويه الحق جلت قدرته عن النظر والضد والمثل .. كل أعماله تكون موجهة للواحد الأحد المتره عن أن يكون محلاً للأشياء وعن أن تكون الأشياء محلاً له، سبحانه هو المنفرد بنفسه المتوحد بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء، بائن من جميع خلقه، لا يحل بالأجسام ولا تحله الأعراض، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه من ذاته شيء، ليس في الخلق إلا الخلق ولا في ذات الله إلا الخالق .. فتبارك الله أحسن الخالقين .. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

هذه العقيدة التي يجب أن يعقد عليها قلبه الصبي المسلم من فطامه وتنمو معه في كل يوم جديد عندما يتديء في حفظ كلام الله القديم، وعندما يسمع قوله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وآله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١) وقوله سبحانه وتعالى له : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿وَالِهَكُمْ إِلَهَ

(١) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨ .

وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ^(١) وقوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢)، فلا يحفظ آية من القرآن المجيد إلا وتنمو العزة في نفسه وتعظيم الله وحده في قلبه، أفمن كان هذا أصل أصول دينه يقال : إنه يعمل عملاً صنمياً ؟ إنما الذي يعمل عملاً صنمياً من اتخذ إنساناً يأكل ويشرب ويبول ويتغوط وينام ويجوع ويمرض ويفرح ويحزن ويخاف من الهوام ومن الوحوش ومن إنسان يعاديه، وبعد تلك النقائص التي يتتره عنها الرب - ويتره جنابه العلي عنها عقل الأطفال - إذا نظر ما حوله من الآيات وما فوقه ثم يقول بعد تلك الخسة والنقائص هو الله الذي خلق السموات والأرض .

والله لو أن إنساناً وقف أمامي فقال لتكن السماء أرضاً والأرض سماء فكانا كما يقول وشهدت ذلك بالحس وقال إني لست إنساناً ولكني ملك من السماء لكذبه في دعواه أنه من الملائكة وحكمت أنه إنسان له تأثير نفسي على الخيال الإنساني، فكيف بإنسان أتى بمعجزة لم تخرج عن القدر الذي أهل الله الإنسان لنيله من الطب، فإن كثيراً من الأطباء برعوا في علم الرمد حتى يمكنهم أن يزيلوا ما على العين من الغشاوة والماء الذي حجب نورها، ومن الحكماء من يعلم أن يعالج من حصلت له السكتة بطريق التنفس الصناعي، ويعالج من أصابته النقطة بالاستفراغات والدلك . تلك الأمور التي في العالم الطبيعي لها نظائر تجعل أهل العقول السخيفة يجعلون من اتصف بها إلهاً يعبد من دون الله أو ابن الله أو حل فيه الإله . وتنسي

(١) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

تلك الأعمال الموجبة للفضائح أمام العقول وتنكر الحق الصريح البين على أهله، ما لك وللجولان في ميدان وقف العقل دونه خاشعاً؟؟

الشمس مشرقة أيها الحيوانات الليلية، لم يخل الأفق من الشمس العلية . وإني أسأل الله أن يحفظ بني الإنسان من شر أكابر المجرمين الذين أفسدت عليهم السيادة والرياسة الدين والدنيا وأنستهم يوم الحساب وشديد عذاب الهاوية، وأن يمن عليّ وعليهم بنور يبين لنا الحق والباطل، فنتبع الحق ولو لم يكن عليه آباؤنا، ونتجنب الباطل ولو كان عليه آباؤنا، ويمنحنا السعادة الحقيقية والخير إنه محجب الدعاء، ويعيذنا من الضلال والضلال لنعمل بالكتاب والسنة، وأن يحفظني بحفظه من الشر وأهله، ويكرمني وأهلي وأولادي وإخواني والمسلمين .

الحج من مرموزات الكتب السماوية، وقد بينت لك ما ظهر لأصغر مسلم يعتقد أن الله فرض عليه الحج . ولو أنك أسلمت لله رب العالمين وتوجهت إلى الحج تأدية لما أوجبه الله عليك .. لا نكشفت لك أسرار تلك المرموزات بما يجعل عقلك يعقلها عن قلبك الذي جعل الله له نوراً يفقه به أحكامه ويقوي به يقينك .. والسلام على من اتبع الهدى .

٢- حكمة زواج النبي ﷺ وآله من السيدة زينب بنت جحش:

يقول الإمام المجدد في كتابه ((وسائل إظهار الحق)): لا تعجب أيها المسلم إذا رأيت الخفافش - أي الوطواط - يسكن نهاراً ويتعيش ليلاً، فإن الله خلق خلقاً ييغضون النور ويحبون الظلمة، يسارعون في الفتنة والضلالة والغواية وهم يعلمون أنهم على الباطل عناداً وعلواً بغير الحق ويحسبون أنهم يحسنون صنعا جهلاً بالحق وعمي عن الهدى . وكيف لا ؟ وقد صارت الفضائل العمرانية والخيرات

الاجتماعية والمنافع العامة للمجتمع الإنساني رذائل وظلمات في أعين من هم أعمى من الخفاش بصراً، وكيف لا ؟ وهم ينكرون على رسول الله ﷺ وآله ﷺ الذي بشر به المسيح في أناجيله، وموسي في توراته، وإبراهيم في أسفاره، ودادود في مزاميره، وذكر اسمه في النبوات بأوصافه، ما الذي ينكرون على رسول الله ﷺ وآله ﷺ ؟ ينكرون عليه ﷺ وآله ﷺ تزويجه بالسيدة زينب بنت جحش، ولو أنهم قرأوا آية القرآن وكانت لهم عقول تعقل حكم هذه الحادثة، ولكن صدق الله العظيم في قوله سبحانه : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١) .

يقولون : إن النبي ﷺ وآله ﷺ عشق زينب بنت جحش حتى أخذت من قلبه مأخذاً - تزه قلبه ﷺ وآله ﷺ عن أن يشتغل بغير ربه - حتى طلقها زيد فتزوجها ﷺ وآله ﷺ . سبحان الله !! لو كنت أيها المنكر راغباً في البيان لبين لك طفل صغير من أطفال المسلمين أسرار تلك الحادثة !! أو كنت باحثاً عن الحق لتجلب لك الحقيقة بمجرد سماع آيات القرآن !! أكتب لك الآية ثم أشرح لك ما فيها صريحاً من الحكم، ومما يؤخذ منها بطريق الالتزام أو التضمن من الحكم، يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا^(١). هذه الآية الشريفة ليس على أنوارها العلية ستائر تحجبها عن العقل، ولا حجب تمنع أشعتها من أن تنفذ إلى القلب، ولكن لعن الله الضلال وقبح الله العناد .

أشرح ما يمكن أن أبينه لعدو منتقد، وأخفي من أسرار الحكمة العالية وأنوار الأسرار الغالية ما لا يمكن أن أبيحه إلا لمسلم كامل :

أنت تعلم أن زيدا مملوك من موالي رسول الله ﷺ وآله، وأن زينب بنت جحش من أشرف بيوتات قريش . وقد بلغت من المجد والشرف أن لها نسباً مع رسول الله ﷺ وآله، فزوجها زيدا ليمحي ظلمات الجهالة عن نفوس المسلمين فيعلموا حق العلم أن العبد المملوك في مستوي واحد مع الهاشمي المالك وأنه كفاء لأشرف امرأة من قريش حتى يكون الفخر بالتقوي لا بالأنساب، وبالنفوس الزكية الطاهرة لا بالعصبية والأموال .

ولو أنك أيها المنتقد أدركت سر زواج زيد لزينب وما أنتجه في المجتمع الإسلامي من المساواة بين أفراد المسلمين حتى صار العبد المسلم مع الشريف القرشي المسلم لذقت من رحيق الكمالات الإسلامية شراباً طهوراً يجعل قلبك يدرك حكم الأحكام الإسلامية، فتنبه من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، ويوحى إليك أن المراد النجاة بأي دين وعلي أي طريق وبتابع أي نبي يكون دينه مطابقاً للعقل والحق، وليس المراد التعصب للآباء الضالين والافتداء بالرؤساء المضلين، تعصباً يبلغ بالإنسان مبلغ البغض للحق الصريح والعناد لإحياء الباطل القبيح . هذا سر جلي من أسرار زواج زيد بزينب رضي الله عنهما، قال الله تعالى :

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ إلى أن قال سبحانه وتعالى : ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾^(١) . هذه الآية تحرم على الرجل أن يتزوج زوجة ابنه الذي من صلبه، وكان العرب قبل الإسلام ينسب الرجل الولد لنفسه فيقول ابني ثم يتزله منه منزلة ولد الصلب، وأحكام الله تعالى تغاير أحكام الجاهلية . ولما كان رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم يجب أن يبدأوا بتنفيذ الأحكام على أنفسهم قبل كل أحد .. ليكونوا قدوة وأئمة للأمة ويكون للأمة أسوة حسنة فيهم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ وآله ﷺ أن يأمر زيد بطلاق زينب وأن يتزوجها لنفسه ليهدم أحكام الجاهلية، وكانت عوائد العرب مستحكمة في أنفسهم استحكاماً يجعلهم ينقصون من يخالف العادة، ورسول الله ﷺ وأله ﷺ حريص على تأليفهم كما وصفه الله، فشق هذا الأمر عليه ﷺ وآله ﷺ خوفاً على قلوب الناس من الانزعاج وعلي نفوسهم من الرعونات والتزوع إلى مالا يحمد . وابتهل إلى الله تعالى أن يجعل هذا الحكم علماً لا عملاً، حتى كان ﷺ وآله ﷺ كلما وقع نظره على زينب وعلم الآية التي يأمره الله بتنفيذها على نفسه في نفسه ليمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته، يصعب عليه الأمر خوفاً على الخلق، ويخشى أن يكون هذا الأمر مفسداً لعقائد بعض الصحابة، وكانت زينب كلما نظرت إلى زيد عزت عليها نفسها أن تكون زوجاً لمولي، وهي الشريفة النسب الكبيرة النفس، وكان زيد يلتبس من رسول الله ﷺ وآله ﷺ أن يأمره بطلاقها تخلصاً من أذيتها له، ورسول الله ﷺ وآله ﷺ يمنعه، حتى طلقها زيد ﷺ، ورسول الله ﷺ وآله ﷺ يخشي على قلوب الناس وعقائدهم حتى عاتبه الله عتاباً

(١) سورة النساء آية ٢٣ .

شديداً بقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ ما أمرك الله به من زواج زينب بعد طلاقها من زيد لحو تلك الضلالة التي كان عليها أهل الجاهلية من أن الرجل إذا تبنى ولداً لا يتزوج زوجة الولد ولا الولد يتزوج زوجة من انتسب إليه، وهي أحكام جاهلية لم يزل الله بها من سلطان، وهذا الأمر حكم من أحكام الله تعالى لا بد أن يبيده الله في ذات رسوله ﷺ وآله ليتقرر علماً وعملاً، فلا يشك مسلم بعد ذلك في صريحه، ثم بينه صريحاً فقال سبحانه: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا) أي: طلقها (زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) زينب بنت جحش مطلقة زيد الذي تبنيته ليرتفع الحرج عن المؤمنين ويجوز لكل مؤمن أن يتزوج زوجة من يتبناه إذا طلقت منه وهو حكم الله سبحانه وتعالى، وإنما التحريم بالنسب الحقيقي لا بالانتساب القولي، وهذه سنة الله تعالى في رسله، فإنه سبحانه إذا أمر بأمر وجب على الرسول أن يسارع في تنفيذه عملاً أو تركاً. انظر إلى قوله ﷺ وآله: (كل دم في الجاهلية تحت قدمي هذا، وأول دم أضعه دم الحارث بن عبد المطلب، وكل ربا في الجاهلية تحت قدمي هذا، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب) ^(١) فبدأ بتنفيذ أحكام الله في نفسه بنفسه ليقدر الأحكام علماً وعملاً، ثم نفذ أحكام الله في أقرب الناس له لأن الحارث بن عبد المطلب عمه والعباس بن عبد المطلب عمه.

إذا سلمت أيها المعاند وفقهت تلك الحكم الجليلة، يمكن أن تباح لك من أسرار الحكم التي تنتقش كمالاتها في نفسك وتشرق أنوارها على قلبك، فتكون بها رجلاً كاملاً مؤهلاً لدخول ملكوت الرب سبحانه رحمة بك أيها المعاند لأنك

(١) ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك ٢/٢٠٥.

إنسان مثلي قارك هواك وحظك إلى الهاوية، والأخوة الإنسانية تقضي على أن أسعي في نجاتك منها بقدر استطاعتي بالموعظة الحسنة والرفق لأنني أدعوك إلى الحق وإلى السعادة، لا كما تفعل أنت من فحشك وقذفك وجعل الحسن قبيحاً وأنت تدعو إلى الضلال بالجهل عن الحق . فعساك أيها الإنسان أن تحفظ ربتك من الوجود وتعلم أن التعصب للآباء والغرور بالملك والسيادة من مهاوي الهلاك عاجلاً وآجلاً . وكفي بالإنسان تعساً أن يترك الحق الجلي ويسعي في إخفائه وينصر الباطل الوبيء ويسعي في إظهاره .

وأكتفي بما أشرت إليه في معني الآية لأن مريد الحق يميل إليه متى ظهرت بوادره، ومريد الباطل يفر من الحق ولو لمسه بيديه .أهـ.

* وفي عام ١٣٣١هـ جاء وفد كبير من دول أوروبا إلى مصر، يضم قساوسة وكتاباً وصحفيين يصطحب أحدهم معه زوجته، يجادلون علماء المسلمين في محاولة لبث سموم التشكيك في الدين الإسلامي . وبعد مناظرات عدة بينهم وبين عدد من العلماء ظنوا أنهم قد حققوا أغراضهم إلى أن دلهم البعض على الإمام أبي العزائم لمناظرته، فتوجهوا إليه طائنين أنه كغيره ممن سبق لهم مناظرتهم ومجادلتهم .

جلسوا مع الإمام في بيته، وجلس المترجمون، وبدأ الإمام الحديث مع رئيس الوفد قائلاً : كيف حالك ؟ قال : بخير : فقال الإمام : أأكل وتشرب جيداً ؟ قال : نعم، فقال : يعني صحتك على خير ما يرام ؟ فتعجب لهذه الأسئلة وأجاب بهذا اللفظ : زي البمب، وهنا قال له الإمام : وكيف حال أولادك ؟ فضحك الرجل باستهزاء ناظراً إلى الوفود وهو يقول لهم : إنه يسألني عن أولادي .. فتضحك الوفود . وفي النهاية قال للإمام : لقد جئنا إلى هنا على صيتك الذائع المشهور،

ولكن للأسف وجدناك تجهل أبسط قواعد المسيحية، فقال الإمام : وما هي أبسط قواعد المسيحية ؟ فرد قائلاً : إنني لا أتزوج وبالتالي فلا يكون لي أولاد . وهنا انبري الإمام قائلاً : تزهون أنفسكم عن الولد وترعمون أن الله ولدًا ؟ وهنا وقعت الواقعة وبدأ رئيسهم يتصب عرقاً .. فقال الإمام : ألم أسألك أولاً أتأكل وتشرب ؟ فقلت : نعم، إذن أنت أسير نعمته سبحانه، ولو منع عنك نعمته لهلكت فقل لي بالله عليك لو احتبس البول فيك أو الغائط ماذا يكون مصيرك ؟ إذن أنت أسير بولة وأسير غائط، تنسب لنفسك التزاهة عن صاحبة الولد وتنسب لله المـتره القادر صاحبة الولد .

وأشار إلى السيدة الموجودة وسأل عنها، فقالت : حضرت مرافقة لزوجي هذا، فقال لها : تزوجت على سنة من؟ السيد المسيح لم يترك سنة للزواج والمسيح لم يتزوج، وبذلك فإن سنة المسيح تقتضي انقراضكم من الحياة، وما نحن نعيش فيه الآن هو على سنة رسول الله سيدنا محمد ﷺ وآله الذي سن لنا الزواج .

وهنا طلب الوفد الانصراف لأنهم علموا أن الإمام سيدخل في الموضوع الذي حضروا من أجله وهو زواج السيدة زينب بنت جحش وسيدنا زيد بن حارثة وكذلك موضوع تعدد الزوجات، وأنه سوف يفند آراءهم بالحق، ويكشف نواياهم الخبيثة التي حضروا من أجلها إلى مصر، وصدق الإمام حينما قال منذ اللحظة الأولى للقائهم : إذن استوي الماء والخشبة . وغادروا المترل فوراً إلى الإسكندرية ولم يطبقوا البقاء فيها فذهبوا إلى الميناء وأمضوا وقتهم وليلهم بها حتى إقلاعهم إلى بلادهم. وقد كتبت إحدي الصحف الإيطالية بعد وصول الوفد تقول

: إن في القاهرة رجل يدعي محمد ماضي أبو العزائم لن يكون للاستعمار بقاء وهذا الرجل موجود في هذا الشرق^(١).

٣- حكمة تعدد الزوجات لرسول الله ﷺ وآله:

الإنسان في حاجة للتعاون، وأكمل من يعينه أقاربه وأصحابه . فقد يتزوج الرجل من العائلة ليكون أولاده أهل شرف وعصبة، وقد يتزوج ليكون أولاده أصحاب أقوياء البنية، وقد يتزوج لتكون الزوجة معينة له على دينه ودنياه، وقد يتزوج لتكون الزوجة مدبرة لمنزله مربية لأولاده، والمعاني المعقولة التي ترجح تعدد الزوجات محسوسة راجحة . والحقيقة أن الإنسان إذا تزوج امرأة أخرى هي كالأولي لا تتفاوت عنها، لم ينصف .

ولما كان الدين الإسلامي يوجب العمل والنشاط على كل مسلم ويجعل أول واجب التعليم، كان ولاشك كلما كثر النسل انتشرت الفضائل وعمت الخيرات . ولما كان الدين المسيحي أوجب على الناس ترك الدنيا وكرههم في العمل لها فيها، وأخبر أن الغني لا يدخل الملكوت، ولم يتزوج المسيح ولم يأمر أحداً من تلاميذه بالزواج، وكان يتناول طعامه من أيدي الناس بلا عمل .. كان ولا بد أن يأمر بترك الزواج مرة واحدة أو بتزويج واحدة فقط، وإلا مات الناس جوعاً، لأنه لم يأمر بتعليم الصناعة والحرف ولا بالزراعة ولا بالعمل مطلقاً للدنيا فيها .

فكان دين المسيح دين الكسل والبطالة والرهبانية وسكني الغابات والكهوف، ولذلك تري أن أهل أوروبا لما أشرقت عليهم أنوار العلوم الإسلامية والعمل في

(١) روى هذه القصة الأخ أحمد بيومي من الحلة الكبرى سماعاً من المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم الخطيب كبير وعاظ آل العزائم الذي حضر وقائع هذه الجلسة .

الدنيا، وقام أهل الأفكار منهم وطالعوا التعاليم المسيحية التي تحتم على بني الإنسان أن يترك الحضارة والمدنية والتمتع بنعم الله من الائتلاف والتعاون، حكم أن أصل الإنسان قرد وأنه لا بد وأن يؤمر بالرجوع إلى ما كان عليه من العيشة في الكهوف والغابات وترك استكشاف أسرار الكائنات وخواصها للانتفاع بها .. وإلا ما الذي دعا دارون أن يقول : إن الإنسان أصله قرد ويقوم مبرهناً بالبراهين التي تنبئ عن فساد قواه العقلية واختلال تركيب أمزجته وضعف المجموع العصبي .

لا تعجب .. فأكثر أهل أوروبا تلاميذ دارون، وقد كادت تلك الحقيقة تكون مقررة في أذهان نصاري الشرق، لأن تعاليم الدين المسيحي ترغب في العيشة الحيوانية، وهم يعتقدون أنه ابن الله، فلم يرغبهم في العيشة الحيوانية إلا ليرجعهم إلى أصولهم . أستغفرك الله من حكاية أقوال من لا يعقلون، وأعوذ بوجهك الكريم من أن أقصد الشر لأحد من بني الإنسان . اللهم وأنت سبحانك تعلم لا غيرك أي لا أريد إلا الخير، فأنزل يا إلهي بياني هذا من قلوب الذين ينتقدون علينا مترلته من قلبي من القبول، واحفظني يا إلهي بحفظك من شرهم وكيدهم ومكرهم إن قدرت سبحانك عدم هدايتهم .

إذا تقرر هذا الأمر، أبين لك أيها المنكر ما يمكنك أن تفهمه من حكمة تعدد زوجات رسول الله ﷺ وآله :

اعتقد معي أنه رسول لجميع الخلق، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه أرسله الله على فترة من الرسل بين جاهلية عمياء وأمم ظلمة ومدن فاسقة وملوك جبابرة، وهو الذي يضع الحرب كما بشر به المسيح الذي قال : (ما جئت لأضع حرباً ولكني جئت لأضع سلاماً، والذي يأتي من بعدي يحصدهم بالسيف) أو كقوله عليه السلام .

وكان الرسل قبل رسول الله ﷺ وآله ﷺ يبعثون لأمرهم فقط، وأرسله الله تعالى للناس كافة، فلا بد أن يكون له ﷺ وآله ﷺ حزب قوي متماسك متحد اتحاداً بكل معني الكلمة من أوجه الاتحاد كلها : من جهة الدين ومن جهة الألفة ومن جهة القرابة ومن جهة النسب . فحقق الله تلك الرابطة القوية بالدين وباللغة، فكان يتكلم مع كل قبيلة بلغتها، ثم أكمل الله تلك الرابطة بما أباحه له ﷺ وآله ﷺ من تعدد الزوجات بوسعة : فتزوج ابنة أبي بكر الصديق وابنة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وزينب بنت جحش للحكمة التي سبقت وابنة أبي سفيان وغيرهن ممن كن سبباً في تقوية الروابط الدينية بسبب النسب واتصاله . ومن نظر بعين المفكر العالم الحكيم يتحقق أن تعدد الزوجات للنبي ﷺ وآله ﷺ من علامات النبوة وأكمل دليل على أنه خاتم الرسل وأنه المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً، وكيف يخفي على إنسان يعقل البديهي حكم هذا الحكم ؟

وقد مكث ﷺ وآله ﷺ راضياً بزوجة واحدة مدة عشرين سنة تقريباً وهو في ريعان الشباب وراحة البدن وصفاء الوقت . ولم يتزوج السيدة عائشة والسيدة حفصة رضي الله عنهما وغيرهما إلا بعد بضع وخمسين سنة من عمره الشريف وهو في أعظم أوقات العمل وأصعب آفات الصعوبة، وهو بين جهاد بالسيف أو باليد أو باللسان، وبين تقرير أصول الدين وبيان فروعه وبين تنظيم الجيوش وتركيب النفوس، حيث أن أنفاسه ﷺ وآله ﷺ كانت أنفوس من النفائس . ومن قرأ تاريخه ﷺ وآله ﷺ بعد الهجرة يتحقق أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين بعد الهجرة لشهوة أو رغبة في لذة، ولم يتزوج قبل الهجرة على التحقيق إلا السيدة خديجة عليها السلام قبل البعثة، ومكثت معه ﷺ وآله ﷺ راضياً بها وراضية به عليه الصلاة والسلام منذ كان عمره الشريف

سبعة وعشرين سنة إلى بضع وأربعين . فهل القائم بعظائم الأمور الذي يدعو الخلق أجمعين إلى نجاحهم بالرحمة والرأفة الحريص عليهم، المنكب بكليته على الحق، المجاهد بنفسه منفرداً في سبيل الله إظهاراً لدين الله ومحوراً للضلال والكفر يتلذذ بغير الحق أو يشتغل نفساً بغيره ؟ حاشا أن يخطر على قلب رسول من غير أولي العزم هذا الخاطر، فكيف يخطر على قلب أفضل أولي العزم ؟. إنما هي أعمال لحكمة عالية هي من أكمل الجهاد في الله سبحانه وتعالى والعاقل يكتفي بأقل إشارة، فكيف لا يكتفي بالعبرة ؟!

٤- سيف الإسلام سيف الرحمة :

ليس تاريخ العرب بالتاريخ الذي كان منقوشاً على الأحجار فمحي من عليها، أو مرموزاً باللغة العجمية وليس من يقرأه، ولكنه تاريخ جلي يعلم كل عاقل ما كانوا عليه وما آلوا إليه .

عجباً عجباً !! يخرج العربي من جوف مكة في زمن لم تكن هنالك معدات سفر ولا عوارف حضر ولا آلات للنقل، فيخرج القرآن في يمينه، وحب الخير لعامة بني الإنسان في ضميره، وقليل من القوت والماء على ظهره، والسيف الذي هو رحمة الله في يساره . أقول رحمة الله لأنه : في يد من سل ؟ وعلي من سلط ؟ في يد إنسان ملأ الله قلبه رحمة ليسوي بين أفراد الإنسان، وجعل في قلبه نوراً لينشر العدل بين بني جنسه، لا يقصد بذلك أن يقهرهم على اعتناق دينه ولا أن يخرجهم من الملك الذي هم فيه ما داموا على مبادئه الشريفة الفاضلة من العدل والمساواة والرحمة والشفقة والتعاون والصلة والبر، لا فرق عنده بين النصراني واليهودي والصابي، وما هم أهل الذمة في كل بلد إسلامية برهان ساطع على أن الأمر كما أقول .

علي من سلط هذا السيف ؟

سلط على جبار عنيد يستعبد عباد الله، وطاغية فاجر عامل لحو الحق وإظهار الباطل . سبحان الله .. ما للعيون عميت عن الحقائق وهي مجلوة !! وما للقلوب انصرفت عن الآيات وهي مضيئة !! اللهم رحماك . فكأن الإنسان ليس بإنسان لأنه أهمل عقله إهمالاً جعله يجعل الباطل حقاً ويؤيده بأباطيل، ويجعل الشمس الجلية ضحوة مظلمة .

قلت إن المسلم لم يجعل سيفه في قهر الناس على اعتناق الدين، لأن الجمال الإسلامي تجلي للعقول الكاملة وللقلوب السليمة تجلياً جذبها إليه . ومن رأي الكتب التي ألفت في تفسير القرآن وخدمة الأحاديث النبوية واستنباط الأحكام من الكتاب يتحقق أن أكثر مؤلفيها من غير العرب، وأنهم من عقلاء الأمم وعلمائهم الذين جذبهم الحق إليه وقرّبهم منه، الذين تجلت لهم أنوار الإسلام فاهتدوا بها إليه وظهرت لهم حقائقه فأقبلوا بها عليه، فلما أن باشرت بشاشته قلوبهم تفجرت ينابيع الحكمة منها فترجمت بها ألسنتهم. ومن قرأ تلك الكتب يعلم حق العلم أن الذي دعا العالم إلى الإسلام جماله الحقيقي ونوره الجلي . وإنما كان السيف الإسلامي لحو الظلم والفسوق والجهالة والردائل، وإلا فما لنا نري أكثر من أسلم من غير العرب هم الذين خدموا الدين بعلمهم وأفكارهم !! وبينوا أسرارهم وأنوارهم وكشفوا للعقول عن حكمه وآدابه !! ونري من بقي منهم على دينه ممتعين بأملاكهم وأموالهم وخدمهم وهم أقل ممن أسلم عقلاً وأدني منهم فكراً وأبعد منهم معرفة بأسرار الحكمة .

خرج هذا العربي بعد أن تلقى عن سيد رسل الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة مخترقاً تلك البوادي القاحلة والصحاري الماحلة والجبال الشاخنة والبحار المحيطة، حتى رمى بنفسه إلى الأقطار النائية . فما مر على مجتمع جاهلي إلا جملته بفضائل الإسلام، ولا على أمة ضالة إلا هداها إلى الحق، ولا على مدينة فاسقة إلا أرجعها إلى الهداية .. فكان كأشعة الشمس التي تسري في الدقيقة الواحدة بسرعة تحير عقل العاقل في سرعة سريانها وفيما تفيضه من الخير ومن النور والهدي والبيان، فكان رسول الله ﷺ وآله هو الشمس، وكان أصحابه هم الأنوار المنبعثة من تلك الشمس العلية .

خرج العربي من مكة حتى خاض لجة المحيط، محيط الظلمات (المحيط الأطلنطيقي) غرباً، وخرج من مكة حتى سبح في لجة المحيط الهادي شرقاً، ونشر النور في أقطار الهند والصين حتى جبال القوقاز، ولم تقف به عزيمته حتى أبقى له في كل واد أثراً لا يزال لسان صدق ناطقاً بما للإسلام من الفضل العميم، ونوراً مبيناً شاهداً بأن الإسلام هو الدين الحق الذي يجب على كل عاقل أن يعتنقه .

قام هذا الرسول الكريم ﷺ وآله بين أصحابه، فنور قلوبهم بالحكمة النظرية بما أنزله الله عليه من كتابه المجيد، وما أوحاه الله إليه من الحكمة والبيان، ثم قام ﷺ وآله بأكمل أحوال الحكمة العملية، فعمل الأعمال الروحانية والبدنية خالصة للدار الآخرة، والأعمال البدنية للدنيا والآخرة، والأعمال الروحانية والبدنية لخير بني الإنسان، فبث ﷺ وآله روح تلك الأعمال في أرواح سلمت له ﷺ وآله، وقلوب تخلت من سواه ﷺ وآله، وآمال تعلقت به ﷺ وآله، فكانوا صورة كاملة لجناحه صلوات الله وسلامه عليه، وآية كبرى دالة على أنه خاتم رسل الله وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وليس بنقص في

الشمس أن يراها الخفاش مظلمة وأنكر فضلها اليوم والعقارب والأفاعي وأشكالها من الحيوانات المؤذية التي لا تتهدي في النور المشرق . وكم من حيوانات تنطيب بالقاذورات وتتغذى منها، وتموت إذا شمت الطيب، وكذلك الحيوان الذي هو على صورة الإنسان يري الحق باطلاً والباطل حقاً، كما يري الخفاش نور الشمس ظلمة وظلمة الليل نوراً .. نعوذ بالله من هوي يعمي عن الحق وحظ تنقلب به الحقائق، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل لنا نوراً في قلوبنا نتهدي به إلى الحق، ويحفظني وأهلي وإخواني والمسلمين .

لعل المنكر يجهل مامن الله به على جميع الخلق من الرحمة برسول الله ﷺ وآله ﷺ فيقول قام والسيف صلت - أي مسلول - في يده، ونعم .. ولكنه سيف رحمة وحنانة ورأفة وشفقة، وإلا فالذي كان في يده السياف للنقمة لم أبقاك أيها المنكر حياً وكان من السهل عليه أن يقول كلمة صغيرة في وصاياه تكفي أن تكون الكرة الأرضية كلها ليس على وجهها غير مسلم ؟.

لعلك لا تسلم بحكمي هذا، لكني أبين لك بالبرهان الحسي أنه لم يشهر السياف إلا على الظلم ولم يضرب به إلا هامة الجور . انظر إلى المدن التي أسسها الإسلام والبلاد التي ملكها المسلمون، تري النصراني واليهودي والمسلم سواء في كل الحقوق المدنية . فلو كان السياف سيف النقمة لغير المسلم لما أبقى نصرانياً ولا يهودياً .. أقول على وجه الأرض، لأن المسلمين إذا كانوا متمسكين بالدين تمسكاً حقيقياً مكثهم الله في الأرض بالحق تمكيناً حتى جعل لهم من القوة ما يمكنهم به أن يقهروا الخلق أجمعين على الإسلام أو القتل - ولم نسمع بهذا أبداً - وإنما كانوا يقهرون الظلمة الذين كانوا يستعبدون خلق الله من الملوك والرؤساء، ليجعلوا عباد الله يتنعمون بنعمه سبحانه في مستوي واحد، ويكون لليهودي وللنصراني ما

للمسلم من الحقوق كلها، ويمتاز النصراني واليهودي عن المسلم بأنه لا يكلف بحماية الثغور ولا بمدافعة الأعداء في الجهاد ولا بحراسة المدن ليلاً، بل يكونون في أمن وأمان يعملون في أعمالهم الخاصة ويستريحون متى شاءوا .

وكان المسلم يكلف بدفع زكاة ماله في كل سنة والذمي يكلف بنظيرها من ماله، وزكاة المال من المسلم لا تجعل له امتيازاً . وما يؤخذ من الذمي من المال يجعله في رياض الأنس وحصون الأمن، تسفك دماء المسلمين وهو آنس بزوجته وأولاده فرحاً مسروراً، ويفارق المسلمون أولادهم وأهلهم وبيوتهم وهم كأئهم ملوك في منازلهم ومزارعهم ومصانعهم . هذا هو الذي سل لأجله سيف الإسلام، فهو رحمة لا نقمة، ونور لا ظلمة، وحياة لا موت، وسعادة في الدنيا لأهل الذمة، وسعادة في الدنيا والآخرة لمن انكشفت له أسرار الدين ممن أسعدهم الله بالعقل .

إن العرب الجاهلية الأذلاء، الجائعي البطون، العراة الظهور، المتفرقي الكلمة، الجبارين، كيف سادوا وملكوا الأرض شرقاً وغرباً وأسسوا المدينة الفاضلة على أكمل أسس ؟ لم يكن ذلك إلا بالإسلام . نعم .. ولم يكن قبل الإسلام مدينة فاضلة بمعنى الكلمة، لا، ولا في عصر رسل الله السابقين، فإن شاهد الحق لدينا أقاصيص التوراة وما جاء في الكتب المقدسة من الحوادث المهمة . أي مدينة من المدن القديمة كانت مؤسسة على الفضائل الكاملة ؟ الأمر جلي كالشمس في السماء الصحو، وإنما صار المجتمع الإنساني مجتمعاً فاضلاً بعد الإسلام لا قبل الإسلام . كان الحق للسيف والسوط والقوة قبل الإسلام، فما ظهر الإسلام إلا وظهرت الفضائل الكاملة بأجلي مظاهرها، والمساواة الحقيقية بأجلي معانيها . لا تجعل أعمال بعض أهل الجهالة من المسلمين حجة على الإسلام، وإنما هي وصايا

محفوفة لم تغيرها السنون والدهور، ولم يحرفها أهل المطاعم والجهالة والغرور، لأنها تزيل من حكيم حميد .

٥- يتخذون من حديث الإفك مادة للتشيع :

أنكروا على الإسلام أموراً خارجة عن نواميس الدين بعيدة عن أصوله . يقولون إن زوجة النبي ﷺ وآله ﷺ وهي في سفر خرجت لتقضي حاجة في مكان البراز ليلاً، لأن قضاء الحاجة لا يتحمل الصبر عليه الإنسان وابتعدت عن الناس بحاجتها حياء، فقام الجيش . فلما أقبلت جلست في مكانها الأول حزينة باكية مسلمة أمرها لله، حتى جاء الراكب الذي يكون بعيداً عن الركب ولا يقوم إلا بعد قيامه ليتمكن من حمل المتأخر وحفظ ما يضيع منه . فلما أقبل وجد امرأة نائمة، وكان من أتقياء الصحابة رضوان الله عليه، فترل من على ناقته ثم وقف وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، فاستيقظت عند استرجاعه وركبت على الناقة وانصرفت بها وهو يعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ وآله ﷺ . فلما أن قدموا المدينة قام يهود المدينة فقالوا : تأخرت زوجة نبيهم .

وما الذي كان لو تأخرت ؟ إن الرجل ليرسل زوجته وأخته مع رجل آخر صديقه فيسافر بها اليومين والثلاثة والأربعة لجرد الصداقة . واليهود معذورون إذا قالوا : إن عيسي ابن زنا، وإذا رموا أمه بالفسوق، لأنها بنت بكر راهبة حملت وولدت ورؤي ابنها، الأمر الذي لا يرتاب فيه عاقل حتى برأها الله تعالى، ولكن ما وجه الشبه في هذا ؟ سبحان الله . أهذه من الأمور التي تنقص مقام الأنبياء ؟ إن كان هذا مما ينقص مقام الأنبياء فمسألة المسيح ليست شبهة ولكنها حقائق . فمن كان يصدق أن بنتاً بكرًا تحمل وتلد ويقول : إنها بريئة طاهرة ؟ كيف ينكر أن زوجة نبي كريم تكون في سفر وتمنعها الحاجة ثم يأتي حارس الركب بها محمولة

على ناقته وهو من أكرم الصحابة وأعلمهم بمقام رسول الله ﷺ وآله ﷺ ويظن به
السوء من له عقل ؟ أخرج الخشبة من عينيك، فإن عيني أخيك ليس فيها قذي -
هذا أكبر ما يرمون به هذا النبي الكريم .

وقد علمت أن أسفار التوراة دالة على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يحفظ
الله أهلهم ويبعد عنهم من ليس منهم . إن كانت مريم التي حملت وولدت برأها
الرب، فتلك السيدة التي لا يخطر على قلب عاقل خاطر بسوء في حادثتها هذه إلا
من لعنهم الله من اليهود والمنافقين ومن قام يظن السوء في أمهات المؤمنين .. قد
حفظ الله شرفها ودافع عنها سبحانه من محكم القرآن بصريح العبارة . فمن أنكر
براءة الله لأُم المؤمنين وهي البعيدة عن الشبهة، المصونة عن الرية .. قال : إن
المسيح ابن زنا . ولعل من عنده قابلية للفهم أن يتوب إلى الله ويرجع، وإلا فعسي
الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين .

٦- ليست الآية في خلق عيسي توجب تأليهه:

وليس حمل مريم بولدها عيسي عليه الصلاة والسلام بأعجب من حمل الأرض
بولدها آدم . والذي يعتقد أن الأرض التي ولدت رجلاً هو آدم وأن رجلاً ولد
امرأة هي حواء لأن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر، لا يتعجب إذا رأى فتاة
بالغة خلق الله منها ولداً . ولو أرجعت الأمر إلى الأمور العقلية الطبيعية وجردت
نفسك من وساوس الخيال ومن فساد الأوهام لحكمت أن الأمر ليس فوق العقل
ولا يحتاج أن يكون الذي يولد بهذه الصفة هو ابن الله ولا أخاه ولا أنه الله حل
وتجسم فصار ولداً، لأن العناصر الأربعة في المرأة إذا توازنت توازناً حقيقياً مؤدياً
إلى كمال الرتبة الحيوانية الإنسانية يجوز أن يتحلل من المجموع المنوي مني صالح لأن
يتطور في الرحم أطوار مني الرجال، فيكون منه إنسان ينقصه قوة الشهوة

الإنسانية، وثقل الطينة الآدمية، كما حصل كثير مما يقول عنه غير المتدينين أنه من فلتات الطبيعة، ويقول أهل الدين قدرة الله صالحة لكل شيء والله قادر على كل شيء .. نعم .. خفاء السبب يوجب العجب، ولكن لم يخف السبب .

إذا .. القدرة التي خلقت إنساناً من الطين، وإنساناً من إنسان، وجعلت غصناً - الذي هو عصا سيدنا موسى عليه السلام - من شجرة حيواناً يسعي يلقف كل شيء يمر به، وجعل الريح تصوير كبساط يجلس عليه الإنسان (سيدنا سليمان) ثم تحمله وتطير به، وجعل تلك الآيات العجيبة المشرقة جلية في المجموعة الشمسية وفيما بين السماء والأرض وفي الأرض .

كل تلك الآيات لم تكن عجيبة عند العاقل لظهور سببها جلياً، وهو قدرة القادر الحكيم . ولكن الجاهل بقدرة الله تعالى وبكمال تزيهه سبحانه وبعلي جلاله وعظيم كبريائه وعزته إذا رأى آية مما لا يعجب منها العقلاء يظن أنها هي الله أو جزء من الله، وكفي بالجهل شراً . أكرم الله عبده ورسوله عيسى بن مريم ﷺ بما يلفت إليه الخلق، وخصوصاً بما كان يتنافس فيه أهل زمانه من الطب والسحر، وكان ﷺ يبريء الأكفم والأبرص بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله، الأمور التي أعجزت أئمة الأطباء في عصره كما فعل سيدنا موسى عليه السلام حين ألقى العصا فصارت تلقف ما صنعوا . وإن العجب من عصا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عند العاقل أولى من العجب بآيات سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، لأن المرض من شأنه أن يزول لأنه عارض، والموت سبقته الحياة، فإرجاع الأصل سهل على القدرة، ولكن تفجير اثني عشر نهراً من حجر صغير يحمل في الكم أعجب وأغرب، وشق البحر حتى يصير الماء كجبل انفلق فكون وادياً بين جزأيه وجمد الماء كأنه جبل وييس ما بين الفرقين بحيث صار الماء لا يسيل حتى مر سيدنا

موسي عليه الصلاة والسلام ومن معه من بني إسرائيل ثم انضم بعد ذلك فصار متلاطمًا بالأمواج . تلك الآية أعجب وأغرب من كل آية أتت بها سيدنا ومولانا عيسي عليه الصلاة والسلام .

فالجاهل ربما يظن أن العصا هي الله، وأن الله حل في العصا، كما ظن بعض بني إسرائيل أن عزيزاً الذي أماته الله مائة عام وأحياه بقدرة وحكمة هو ابن الله لجهلهم السبب، ولكن إذا ظهر السبب بطل العجب .

فأي عجب في أن امرأة ولدت بدون زوج - وقدرة الله صالحة لأكثر من ذلك ؟!!- وأي عجب في أن إنساناً يقول في الإنجيل : (لست المعلم الصالح، المعلم الصالح هو الله) ويقول : (اعبدوا أبي وأباكم الذي في السماء) ويقول : (من يؤمن كيإيماني يعمل كأعمالي وأكثر)، ثم يقيم الحجة على أنه عبد الله ورسوله بما يعجز أهل زمانه فيعتقد الجاهل أنه ابن الله أو أنه هو الله أو أنه جسم حل فيه الله . لا تعجب إذا اعتقد الجاهل عقيدة من تلك العقائد، فليس بعد الجهل ذنب . وكفي ذمًا للإنسان المؤهل لتلقي العلوم المفيدة ونيل كمالات النفس أن يكون جاهلاً يلقي نفسه بجهله في هاوية العذاب .

إن يحيى بن زكريا عليهما السلام المذكور في التوراة باسم (ملاخي) وهو رسول كريم على الله تعالى جاء بمعجزة في حمله ووضع لا تقل عن معجزة المسيح في حمله ووضع، لأن زكريا عليه السلام كانت عنده امرأة عاقر كما هو صريح التوراة وطال عمره حتى بلغ سن اليأس من أن يكون له ولد، ذلك لأن امرأته عاقر وأنه حرم القوة التي بها نيل هذا الأمر حتى أن الله بشره على لسان جبريل عليه السلام فعجب من بشارة الله له لأن حاله هو وزوجته لا يقبل العقل أن يكون لهما

ولد، ولكن الله قادر على أن يوجد الشيء من لا شيء، فكيف لا يوجد ولدًا من امرأة عاقر ورجل يائس بلغ به ارتقاء مفاصله ويس المادّة الغريزية مبلغًا جعله كالميت وامرأته كأنها ميتة لأنها عجوز بلغت سن اليأس .

إن المعجزة التي ظهرت لعيسي ظهرت بأجلي مظهرها في يحيى (يوحنا) . لم يكن عيسي أولي من يوحنا في هذا المجد، لأن يحيى رسول الله وعيسي رسول الله عليهما السلام، والله أعطي يحيى الرسالة صبيًا، وبلغ من الثقة به عند قومه أن جعلوه رئيس المعمودية وهي وظيفة كمل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأجمع كل شعب إسرائيل على أن المعجزة التي أظهرها الله ليحيى من أكمل المعجزات، لأن حمل بنت شابة ليس بعجيب كحمل امرأة عاقر - يئست من الحيض - من رجل ارتخت مفاصله ويئست مادته وأكله الهرم حتى صار بالنسبة لهذا كالميت .

أقول : لم يكن المسيح عليه السلام أولي من يوحنا (يحيى) في هذا المجد، لأن يحيى عمد المسيح عليهما السلام، فكان ذلك برهانًا على منزلة يحيى من المسيح عليهما السلام .

الإمام والإصلاح الاجتماعي

من أهم القضايا التي شغلت فكر الإمام أبي العزائم عليه السلام قضية الإصلاح الاجتماعي للفرد خاصة وللمسلمين عامة.

عاش الإمام في عصر تجرع العالم الإسلامي فيه مرارة الاستعمار الغربي الذي سيطر على مقدرات الشعوب وسلب الأمة حريتها وأفقدتها هويتها وطمس حضارتها التي أخرجت أوروبا من ظلمات الجهالة ورق الاستعباد إلى نور الحرية

وآفاق الفكر والعقل السليم. كان هذا الحال يعن للإمام عليه السلام. وهو يتوق إلى المجد الذي فقده المسلمون، ويبحث جاهداً ومنقّباً عن أسباب وطرق علاجه ووسائل عودته. فيري أن البداية الصحيحة والأساس القوي أن يبدأ الإصلاح من الفرد ثم المجتمع الإسلامي العام فتناول ذلك من خلال خطبه ورسائله ووصاياه، وعالج قضية الإصلاح الاجتماعي للفرد بأسلوب عصري شيق وروائي على هيئة مسرحية (محكمة الصلح الكبرى) عرض فيها مطالب النفس والروح ورغائب الجسد وكيف يمكن للإنسان تحقيق التوافق والانسجام مما يحقق له التوازن النفسي والاجتماعي ويقضي على الصراعات الداخلية التي تتنازعها. وقد تجعل منه إنساناً قد يقتل من بني جنسه من أجل رغائب الجسد أو يهيم في البوادي والقفار من أجل مطالب الزواج، وكل ذلك من ألوان التطرف التي تميل بالإنسان إلى هاوية سحيقة من التردّي والتخلف وتجعله أسيراً لشهوته أو رغبته، فكان بذلك عليه السلام قد وضع ميزان الحكمة وقسطاس الحكيم الدواء الناجع لإصلاح الفرد داخلياً وتهيئته لأن يكون عضواً صالحاً في المجتمع الإسلامي العام يبني ولا يهدم ويشيد ولا يبدد.

ثورته عليه السلام على الواقع الاجتماعي للفرد المسلم: أراد عليه السلام أن يلهب روح الحماس ويوقظ الحمية في قلب الفرد المسلم حتي يتعهد نفسه بالإصلاح، فيقول مخاطباً كل فرد في المجتمع مذكراً إياه بمجد أجداده المسلمين الذي فقد ويجب أن تحن إليه نفسه: ((يحق للنفس الإنسانية أن تحن إلى المجد، حنين الظمآن إلى الماء في اليوم الصائف في الصحراء، وكيف لا والمجد حياة النفوس ؟ كيف يرضي الإنسان بالحياة البهيمية التي بهجتها الأكل والشرب والنكاح ؟ بل هي أدنى من حياة البهائم، فإن بعض الحيوانات يشعر بالحياة الحقيقية التي تشبه الحياة الإنسانية، فتري الكلب يفضل المدافعة عن أصحابه وهو جائع، فينسي شهوة

الأكل، والديك يفضل المدافعة عن الدجاج إذا رأي ديكاً آخر حتي يسيل دمه ولا يحس بالألم ولا بالجوع وهي أدني الحيوانات، ومن أنواع الحيوانات ما يشعر باللذة المعنوية كالخيل في المسابقة ويلتحق بها الحمير والبغال، إذا كانت تلك الأنواع الدنيئة تستعلي فيها على ملاذ الحس فالإنسان أولي)).

ثم يلهب الثورة داخل الإنسان حتي يهبّ لأجل نيل حريته وفكّك أسرهِ وقيدهِ فيقول: ((الإنسان في الحقيقة خلقه الله حرّاً، مريداً، وتلك الحقيقة مهما أخفتها العوامل القوية بعامل السحر أو الخويصة أو الشعوذة أو القوة القاهرة بالظلم، والعلو بغير الحق، فإنها لا تلبث إلا ريثما تنتبه تلك الحقيقة - بسبب تلك العوامل - إلي أمنيته التي سلبها منها العاملون لنفعهم الخاص، فتأبّي تلك النفوس إلا نيل المجد ولو ببذل الرؤوس، وإن لتلك الغاية خمرة تجعل الجبان شجاعاً والبخيل كريماً والخامل ناجماً، حتي تكون عظام الأمور صغيرة في نظره، والرجل المهيب محتقراً أمامه.

لابد لرئيس العائلة - ولو كان والدها- أن يسارع إلي محو الظلم والتظالم والعمل بالإنصاف والتناصف معتقداً أن هذا يحفظ له سيادته، ومجداً لعائلته - ولو ناله في سبيل ذلك الآلام والشدائد - وإن العائلة تمثل الأمة المستقلة تمام الاستقلال: يكون الوالد ملكاً، والأبناء وزراء وعمال وأعوان وفعلة، كل فرد منهم يسعى لخير جميع العائلة بذلك يدوم لهم المجد)).

الإمام يكشف الفساد الاجتماعي:

ينظر الإمام عليه السلام إلي واقع المسلمين في مجتمعاتهم فيجدهم قد تعدوا الحدود وخالفوا الوصايا الشرعية، وصار كل فرد منهم يعمل لنفسه دون مراعاة لأحكام

الله ولا رحمة بإخوانه ولا خوف من يوم الحساب، ففتحوا بذلك على أنفسهم أبواب الشرور وارتكبوا الآثام وتحاسدوا وتباغضوا وتدابروا وتقاطعوا وسلطهم الله على بعضهم وتفرقوا وصاروا شيعاً وأحزاباً وتركوا الحق فتركهم ووكلهم إلي أنفسهم وطمع فيهم من كان يهاهم ومكن منهم وكانوا عبيداً لهم، وانتشرت الأمراض في الجسد المسلم وظهر أهل الباطل على أهل الحق وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر فيقول عليه السلام:

((قام خطباء الفتنة وعلماء الدنيا يحسنون للأمرء والأغنياء ما قبحه الله تعالى، ويحقرون أهل التقوى، حتي نشروا على صفحات الجرائد المنتشرة ما يغضب الله ورسوله، من أعمال الأمم الأجنبية، وجعلوها فلسفة وحكمة وحضارة ورقياً، وأنسأهم الشيطان أنوار القرآن، وحكمة رسول الله ﷺ وآله ﷺ وأثار سلفنا الصالح، فقتلوا الشعور الإسلامى، وستروا عن العقول كمالاته، وأخفوا فضائله، حتي أصبح أكثر المسلمين لا همّ لهم إلا تحصيل زخرف الدنيا، والتجمل بتلك الرذائل، فاستبدلوا العفة بالتهتك، والاقتصاد بالإسراف، والاستقامة بالضلال، أباحوا الخمر، وانتشرت علنا في الأسواق، وشربت في نهار رمضان، وانتشرت العهارة أكثر مما كانت في الجاهلية وظهرت حتي خصص لها أماكن معلومة، يقصدها المسلمون للزنا في المسلمات، فيدخل المسلم على المسلمة في دار مشهورة، يشرب الخمر ويزني وجندي يجرسه!! وقد ألف القوم هذا المنظر الحزن، بل يتوجه المسلم إلي الحانة فيري المسلمة ترقص أمامه وأمام غيره من الأجانب فيسر ويعينها بالمال، وكأن العيون الإسلامية بدلت بعيون بهيمية، بل البهيم أعلي شرفاً، فإن ديك الدجاج وذكر الحمام، بل الحمار تأبى نفسه الحمارية أن يري حماراً ذكراً في مثل هذا الموطن، فعجباً!! كيف ينحط الإنسان إلي أن صار أقل من البهيم ؟.

انتشر الربا حتي صار خير ما يعامل المسلم به أخاه، فترى المسلم يقف أمام القاضي لا يستحي من الله ولا من الناس، فيسلب مال أخيه، ويتركه جائعاً بما تراكم عليه من الربا، كأن القلوب الإسلامية صارت شيطانية.

فشا الميسر حتي صار المسلم يغتصب مال أخيه حراماً، فيتركه فقيراً لا يملك قطميراً، فلا يرحمه فأين الفضيلة الإسلامية ؟ وأين الرحمة الإيمانية ؟ إن بعض تلك الأعمال يجازي بها الإنسان بالمسخ أو بالخسف، فسبحان الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه !!)).

ويقف الإمام عليه السلام نائراً وناصحاً الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم بأسره فيقول: ((يا قوم: التفرقة هي الجيش الذي جنده أرسطو لتمكين الاسكندر المقدوني من قهر الملوك لسلب الملك. كتب اسكندر إلي أرسطو بما معناه: إني باتباع وصاياك تمكنت من قهر ملك الفرس، واستوليت على مملكته، ولكنك تعلم قلة جندي وبعد الشقة، وهم رجال طوال الأجسام كبار الرؤوس أهل جرأة وشجاعة، فزودني برأيك فيهم، فكتب إليه: ألبس كل كبير مدينة تاجاً وسمه ملكاً، وأمره بما شئت وأسرع بالسفر وارجع إليهم تجد ما يسرك، فنفذ اسكندر وصية معلمه، فاستوت شرارة الحسد في جمر الطمع، ودارت رحى الحرب بينهم جميعاً فأهلك بعضهم بعضاً، وبقي أذئاب كالبهائم السائمة يكفهم من الدنيا ملء بطونهم، وستر عوراتهم، وهذا هو السلاح الذي يضرب به الغرب الشرق)).

التنازع مرض يفرق الأمة وعلاجه الرجوع إلى الحق:

شغل عليه السلام بحال الأمة وتنازعها وعدم استيعابها لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(١) والتنازع مُذْهَبٌ للقوة. ولذلك يقول عليه السلام: ((التنازع فطرة الوحوش الكاسرة، وصفة الشياطين، وعمل الجاحدين بالله، لكننا نحب التنافس في الفضائل ونكره التنازع في الرذائل، ولكننا قد نهمل تحصيل العلم النافع حتي نجهل الفرق بين التنازع والتنافس، فتقلب الحقائق في أعيننا، فنري الشر خيراً، والخير شراً، ولا أدل على ذلك مما نحن فيه.

قال العربي:

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يري حسناً ما ليس بالحسن

والواجب علينا أن نتدارك الأمر بالرجوع إلى الحق، فإن الحق فوق الخلق وخصوصاً في وقت الشدائد الفادحة التي يتعين عليها فيها التعاون على البر والتقوى، لأن مقصد الأمة واحد، وهو أن تعيش حرة مريدة مستقلة)).

أثر الإمام المجدد أبي العزائم عليه السلام على الحياة الاجتماعية في عصره:

في مجال المال والاستثمار كان الإمام عليه السلام يدعو المصريين في عصره إلى العمل الجاد المثمر، فكان يدعوهم إلى تكوين الشركات الزراعية والتجارية والصناعية قائلاً: ((يجب ألا يترك المسلمون الأغنياء غيرهم يستثمروا أموالهم، ويشري على حسابهم، ويستخدمهم كطاقة بشرية واقتصادية فتستغني شعوبهم بقدر ما تفتقر شعوبنا)).

(١) سورة الأنفال آية ٤٦.

ولقد كان ((طلعت حرب)) مؤسس بنك مصر في كل خطواته قبل وبعد إنشاء البنك يتوجه إلى الإمام أبي العزائم عليه السلام في ذهبته بالعجوزة يطلب منه الدعاء الخالص والتأييد الروحي من قلبه الكبير، وكان الإمام أبو العزائم عليه السلام يطمئنه في ذلك ويشرح صدره.

فانتشرت شركات بنك مصر وازدهرت مصانع الغزل والنسيج والملاحة وغيرها. وكان سرور الإمام أبي العزائم عليه السلام عظيماً عندما ارتدي الملابس التي صنعت في مصر لأول مرة واقتدي به عدد كبير من أتباعه ومريديه^(١).

لقد ألف الإمام أبي العزائم عليه السلام سلسلة من الكتب تعكس مدي اهتمامه عليه السلام بالمجتمع في أطواره المختلفة. محلياً وعربياً وإسلامياً وإنسانياً وهي كتب ((الإسلام دين الله، والإسلام وطن، والإسلام نسب)).

والإمام أبو العزائم عليه السلام يرى أن الصوفي الحق يعلم أن واجباته متعددة ومتفرقة ويحاول أن يوزعها نحو نفسه، ونحو ربه وأولاده، وإخوانه، وأقاربه بدقة لا يهمل في أداء واجب منها لشغله بواجب منها عن غيره. وهو عليه السلام يهتم بالوقت وتنظيمه ومعرفة أوجه إنفاقه حسب أولويات الفروض والواجبات التي يطالب بها الفرد المسلم فيقول: ((لا يعد المرید سالکاً علی الطريق إلا إذا علم بواجب كل وقت، وعرف المبدأ والمرجع والمقدم والمؤخر، وتمكن من معرفة نفسه ونوع أمراضها ودوائها، وكيفية تزكيتها وماهية وسائل كمالها، حتي لا يقع في صغائر الأمور التي تشتبه عليه لشدة خفائها. كما يحصل من بعض المريدين الذين يسارعون إلي عمل النوافل، ويتساهلون في عمل الواجبات من بر الوالدين أو صلة الرحم، أو نجدة

(١) راجع (أثار الإمام أبي العزائم الشعرية) رسالة ماجستير للأستاذ / سري محمد حسن، ص ٤٠.

ملهوف، أو عيادة مريض، أو جهاد في سبيل الله، أو اكتساب رزقه ورزق من يعولهم، فقد يكون شيء من هذا واجباً يقتضيه الوقت فيتركه ويقبل على الأوراد، ويكثر من الصيام والقيام والتعب في خلوة عن الناس حتى يصير وليس عنده وقت لعمل المطلوب منه في الحياة، فتتحول تلك النوافل إلى معاصي على المريد من حيث لا يعلم^(١).

جهاد الإمام أبي العزائم عليه السلام من أجل جمع الكلمة:

استخدم الإمام أبو العزائم عليه السلام كل ما يملك من وسائل من أجل جمع كلمة الأمة ووحدة صفها، وما ترك منبراً من منابر الدعوة إلا نصح ووعظ، ومؤلفاته ودروسه مملوءة بالعديد من الوصايا والنصائح التي تزخر بزيادة قوي من أساليب الدعوة إلى الاجتماع ونبد التفرقة، وكتب في المجالات والجرائد التي كانت تصدر وقتذاك. ومما كتبه عليه السلام ينصح الأمة بأسرها:

((خير وسيلة لنيل الخير أن يثق كل فرد من الأمة بنفسه معتقداً أنه جندي من جنود الوطن فيضع نفسه حيث يكون الخير للأمة، فإن كان من أهل الشوري فمعهم، وإن كان من أهل التنفيذ فمعهم، وإن كان من العمال الذين يجب عليهم ملازمة أعمالهم الضرورية للأمة لزم أعماله من زراعة أو صناعة أو حرفة أو تجارة، والفساد إنما يحصل بقيام كل واحد بعمل مالا يحسن وترك ما لا بد منه. وأهم ما يجب علينا الآن عمله تكوين الأمة حتى تكون جسداً واحداً ويكون كل فرد ككل

(١) راجع كتاب ((دستور السالكين طريق رب العالمين)) للإمام أبي العزائم عليه السلام.

عضو في الجسد، وبذلك تقهر الأمة أعداءها ولو اجتمع عليها كل من بأقطار الأرض)).

وفي جريدة الأخبار نشر للإمام عليه السلام مقال بعنوان:

(حول الحالة الحاضرة- الدين النصيحة) ينصح فيه الحكام والعلماء والتجار والصناع ورجال الأحزاب.

ومما قاله لرجال الحكومة:

((إنكم أفراد من الأمة، وما تمتعتم به من نفوذ الكلمة ومن واسع النعمة، ومن الجاه والعزة، إنما هو بالأمة ومنها، فإذا عاديتهم الأمة وهي مصدر الخير لكم، وأرهبتموها بالحديد والنار قتلتم نفوساً أنتم في حاجة إليها، وأضعتم ثقة من القلوب لا غني لكم عنها، وفتحتم على الأمة أبواب الشرور من الجبن، والعمل على نيل السلامة بالمكر والخديعة، فيهملوا الواجب عليهم من التعليم والتجارة والصناعة والزراعة ويخرج بعضهم على بعض فيتفرقوا شيعاً وأحزاباً)).

وخاطب رجال الأحزاب فقال:

((انظروا إلي ما آلت إليه حالكم. لقد أصبحتم أحزاباً تتطاحنون، مع أن القصد واحد، وإنما الاختلاف لا سبب له إلا الطمع، أوريا كثرت فيها الأحزاب ولكن لكل حزب مقصداً خاصاً به، والأحزاب أحزان في أمة تجاهد لدفع العدو الغاصب، والتفرقة في أمة لا قوة لها على دفع عدوها الرابض في عقر دارها هي موت أبدي، فليضح كل فرد من الأمة بكل رخيص وغال لنيل الخير العام، وليحقر كل رجل ما يناله من الجاه والسلطان الذي يكون فيه ذله وذل أمته)).

ولم يكتف الإمام عليه السلام بتشخيص الأمراض في مجتمعه فقط بل قدم برنامجاً شاملاً للإصلاح والنهوض بالمجتمع ويرى عليه السلام أن الأسباب التي وقفت عثرة في طريق تقدم الأمة الإسلامية ورفيها وتحضرها تنحصر فيما يلي:

١- تمهون الحكام بأحكام الدين.

٢- ترك الحكام إقامة الحدود.

٣- رغبة العامة فيما يفني وإيثاره على ما يبقى.

ولكي يعود للمجتمع الإسلامي حضارته لا بد من:

١- أن تكون اللغة العربية هي لغة التفاهم بين جميع المسلمين أو مع غيرهم.

٢- أن يجتمع المسلمون على إمام واحد يكون هو خليفة رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام سواء كان عربياً أو أعجمياً.

٣- أن تقام حدود الله، وأن يعمل بالكتاب والسنة.

٤- أن تكون تربية المسلمين مؤسسة على التربية الدينية بحيث يكون التعليم أولاً قاصراً على تعليم الإيمان، ثم القرآن، ثم يكون تعليم الصناعة والزراعة والتجارة، أو تعليم فنون الجهاد وتدريب المدن، أو سياسة المجتمعات.

وهكذا نجد أنه عليه السلام كرس حياته لخدمة المسلمين والنهوض بالمجتمع المسلم بكل الوسائل. حتي كان المسلمون هم شغله الذي يشغله عن نفسه ويقدمه على كل شيء في حياته. وتلك هي صفات الرجال الذين يعملون بالإخلاص لربهم، سيرا على سنة نبيهم ﷺ وآله عليهم السلام.

الإمام والتصوف

تميز العصر الذي نشأ فيه الإمام بانتكاسة لعلم التصوف، حيث تعرض كسائر العلوم الأخرى إلى ظهور أفكار منحرفة وظواهر غريبة كالـدجل والشعوذة والتواكل وترك التسبب، وتصدر للمشيخة من ليس لها أهلاً من علم وتقوى وعرفان، الأمر الذي دعا الإمام أبا العزائم عليه السلام إلى الغيرة والتنبيه على هذه الأخطاء والانحرافات.

ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

- ١- غياب دور المرشد أو القدوة.
- ٢- ندرة معاهد التربية الصوفية الصحيحة. فلم تعد الطرق الصوفية إلا مأوى للعاطلين أو الشاطحين.
- ٣- اقتصار الطرق الصوفية على الاهتمام بالأزياء (المرقعات) والرايات والعلو والتقديس المفرط للمشايخ.
- ٤- التفريط في التكاليف الشرعية باسم التصوف، والتحلل من الأخلاق باسم الصوفية، حتي أصبح علم التصوف عند الناس منكراً واسم الصوفية مرذولاً.
- ٥- ندرة الكتاب الصوفي النقي والمحقق على أساس من الكتاب والسنة وعقيدة السلف والجماعة ومذاهبهم الفقهية، فنجد الكتب إما مملوءة بالمغالاة أو الإفراط أو الشطح أو الألباز التي لا يرتاح لها مطلع فضلاً عن فقيه.
- ٦- ميل الكثير ممن كتبوا عن التصوف أن يجعلوه في حيز ضيق تحت مسمى (علم الخاصة) مع أن موضوعاته وبحوثه لا غني عنهما لكل مسلم، بل هي

مطلوبة من كل إنسان لارتباطها به ارتباطاً قوياً كتركيزية النفس وعلم أمراضها وعلاجها، والعناية بصحة القلب، وتصريف النية وأحوال العباد وغيرها، وكلها أمور تكليفية في حق كل مسلم.

٧- إن أكثر القائمين على هذا العلم والمتصدرين للمشيخة فيه أصبحت تصوراتهم قاصرة، ومفاهيمهم ضيقة، ويعيشون بعيداً عن عصرهم، وعن بديهيات إسلامية لا يصح أن تغيب عن أصغر مسلم، منها إبقاء المريدين في الزوايا والخلوات وحبسهم عن العمل العام والمشاركة الاجتماعية، ومنها إغفال الجهاد الذي كان هو السمة المميزة للتصوف في عصوره الأولى أمثال: أبي الحسن الشاذلي وأحمد البدوي والعز بن عبد السلام، وثورة سعيد الكردي النقشبندي في تركستان وجهاد المجدي في الهند.

كانت هذه العوامل مجتمعة كافية لتهيئة مناخ للعمل ودافعاً قوياً استنهض الإمام أبا العزائم عليه السلام إلى دخول هذا الميدان الذي يجمع الغالبية العظمى من طبقات المجتمع ليصحح المفاهيم ويأخذ بيد الحيارى ويرشد الراغبين ويقم الحجة على المنكرين عملاً بقوله ﷺ وآله عليه السلام:

(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يغرهم من ناوهم إلي قيام الساعة) (١).

بذل الإمام أقصى ما يستطيع لنشر الثقافة بين الجماهير، وذلك لعلمه أنها خير أداة لتربية الشخصية الإنسانية على نمط إسلامي حق، وحماتها من الانحراف عن صراط الله القويم بالوعي المدرك وبالكمال المستدرك. ومن خلال هذه التجربة

(١) رواد مسلم والترمذي وأحمد بألفاظ مختلفة والمعني واحد.

الطويلة والنشطة استبان له ﷺ أن تنقية الجو الروحي من نوازع الهوي وشوائب ومطامع النفس وضراوة الأنانية، فكان جنوح الإمام إلي إضافة التصوف في منهاجه التربوي، الذي غطي كل مجالات المعرفة واستوعب كل مناهج التربية تحت علم ((جماعة آل العزائم)) التي أسسها عام ١٣١١هـ - ١٨٩٣م، فلم تترك مجالاً إلا وتكلمت فيه.

وقام ﷺ يربي تلاميذه على منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله، واهتم بتربية المريدين من كافة الجوانب، وخصوصاً تزكية النفس التي حرص عليها الإمام أشد الحرص وخطط لها أساليبها التطبيقية من أقصر طريق موصل، فإن رسول الله ﷺ وآله الذي أخذ عنه أئمة الصوفية رضي الله عنهم وأرضاهم كان قواماً على تزكية النفس والجسم معاً وإحاطة النفس علماً بما أودعه الله فيها من أسرار غامضة وحكم عجيبة تحيرت فيها العقول.

بين الإمام رسالة التصوف الروحية والأخلاقية، وبين أن التصوف أخلاق نبيلة، وتخل وتخل وتجل، وكما أنه تفوق في العبادة فإنه أيضاً تفوق في العمل، وهو جهاد إلي أن يصل الإنسان إلي طور المعاد، وأن واجب رجال الطرق الصوفية أن يكونوا قدوة ليهدي الله بهم بالحق لأنفسهم والناس كافة، فتصح العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، ويكونون من أهل المزيد فيتبعون من القول أحسنه.

كان التصوف مزدهراً في عصوره الأولى، ثم بدأت عوامل الضعف تسري إليه حتي وصل إلي ما هو عليه كما أسلفنا في عصر الإمام، أما الناس فقد انقسموا بالنسبة إلي التصوف والصوفية إلي عدة أقسام يمكن اختصارها فيما يلي:

١- طائفة تنكر على التصوف والصوفية: وهؤلاء؛

أ- إما أن يكونوا على غير تجربة صوفية أو اطلاع على علوم القوم ومشاريهم وأذواقهم، فهم ينكرون العلم وأهله، ولا يتكلفون مؤنة النظر والبحث قبل رفض الأصل جملة واحدة.

ب- وإما أن يكون لهم سابق اطلاع على كتب القوم التي لم تسلم إما من الشطح والتفريط، أو المغالاة والتحريف.

ج- وإما أن يكونوا قد نظروا إلى حال معاصريهم وماهم عليه من منكرات فأنكروا، وهم معذورون في حكمهم.

٢- طائفة بين المؤيدين والمعارضين للتصوف:

وهؤلاء هم الذين نظروا إلى التصوف كعلم فوجدوه لا غني عنه للإنسان لما يحتويه من مباحث وأصول قائمة على الكتاب والسنة، ونظروا إلى أهله والمنتسبين له والمتزيين بزيه فوجدوهم على غير ما طالعوه في كتب أشياخهم، فهم لا يجدون سبيلاً أو دافعاً للإنكار على التصوف من حيث كونه علم لازم وضروري، ويعترضون على الصوفية لخروجهم عن حد الالتزام بما قيدهم به التصوف المحرر على ضوء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله.

٣- المتمصوفة (أدعياء التصوف):

وهؤلاء هم الذين اتخذوا التصوف حرفة، والصوفية ستاراً يجمعون من ورائه الدنيا ويسعون لئيل حظوظهم وأهوائهم وشهواتهم، فجعلوها تقاليد وطقوس، وجعلوها كرامات، وكم تاجروا وارترقوا باسم التصوف المظلوم والصوفية البريئة، وهؤلاء هم أس الداء والبلاء، جعلوا التصوف من حياة كلها جهاد وعمل إلى حياة

كلها تواكل وعزلة وبطالة وتكفف ومسألة، ومن حياة التجريد إلى حياة الشريد، ومن حياة العلم والمعرفة إلى الجهالة والخرافة، ومن حياة النور إلى الظلمة.. مما جعل التصوف يزدرى ويحتقر، والصوفية منكرة مردولة عزف الناس عنها.

٤- الصوفية المقلدين:

وهؤلاء قد يكونون أحسن حالاً إن كان التقليد في الأعمال الصالحة رغبة في التشبه بالصالحين والسير على دريهم:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

هذا إن كانت القدوة كاملة في الاتباع لرسول الله ﷺ وآله.

أما أن يكون التقليد ناتجاً عن حب التمسك بما كان عليه شيخه بتسليم كامل ليس مع نظر ثاقب وبغير علم ولا حجة ولا تحقق من موافقة العمل لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآله، فهذا ضرره على أهل الطريق أكثر من نفعه، وضرره على نفسه أقوى من ذلك. أو يكون مقلداً لشيخ جاهل الشريعة على غير دراية بالأحكام جاهل بطرق تسليك المريدين، فهذا أكثر ضرراً لنفسه، وهذا يعيش طول عمره ساكناً لا يتحرك من مكانه قدماً واحداً وهو يظن لجهله أنه مع المقربين.

٥- صوفية الأذواق:

وهؤلاء هم المغمورون في الخلق، وهم أهل الله الذين انجذبت أرواحهم إلى معرفة ربهم، سلكوا الطريق الصحيح فزكت نفوسهم، وتزل الله عليهم بفضله، وعلمهم من لدنه علماً أشرقت به بصائرهم، واستنارت به قلوبهم، وهوت إليه أفئدتهم، فهم بمناجاة ربهم يتلذذون، ومن رحيق شرابه يتناولون، بحسب مقاماتهم

تعرف أذواقهم، يحفظ الله بهم سننه وآدابه، وهؤلاء كالكبريت الأحمر عزيز وجوده، وإن وجدوا لا يلتفت إليهم أو يهتم بهم وبشأنهم.

بدأ عليه السلام بتعريف التصوف بطريقة سهلة تتناسب مع كل مقام حتي ينكشف لأهل الطريق أنه لا يفارق السالك في سيره وسلوكه إلى الله تعالى، فقال:
التصوف^(١):

- الأخذ بالأصول، والترك للفضول، والتشمر للوصول.
- ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع.
- حمل النفس على الشدائد.. للري من أشرف الموارد.
- مفارقة الأشرار، ومصادقة الأخيار، ومتابعة الآثار والأخبار.
- أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة. فالعلم يكشف المراد، والعمل يعين على المطلوب، والموهبة تبلغ غاية الأمل.

الصوفي:

ثم يعرف عليه السلام الصوفي الذي نهج نهج التصوف علماً ومسلماً فيقول:
((الصوفي عمل بكتاب الله مجاهداً، وبسنة رسول الله ﷺ وآله ﷺ مشاهداً، الصوفي جاهد نفسه في الله حتي أطاعته، وانسلخ من مقتضيات نقائصه كما ينسلخ الليل من النهار^(٢)). ويقول عليه السلام الصوفي من جاهد نفسه في ذات الله بتوفيق حتي صفا قلبه ووقته وحاله، فصافاه الله، فسمي صوفياً، وهو فعل ماض مبني للمجهول،

(١) كتاب (جوامع الكلم) للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم ص ٩٨.

(٢) كتاب ((جوامع الكلم)) للإمام أبي العزائم ص ٩٧.

بشري له، وهي كلمة ينشرح لها صدر الموصوف بها لما دلت عليه. وهو مذهب
قديم ومنهج سابق وفق الله له المقربين، وقد تحمل بهذا المذهب كثيرون من الصحابة
في عصر رسول الله ﷺ وآله، وهم أهل الصُّفَّة من أئمة الصحابة كأبي ذر
العفاري وصهيب وسلمان وسعيد بن خزيمة والعبادلة وبلال وأبو رافع مولي
رسول الله ﷺ وآله ورضي الله عنهم أجمعين.

ولولا أن اللفظ مضبوط بالرواية لقلت إن صفي نسبة إلى أهل الصفة الذين
أقبلوا بكليتهم على الله ورسوله ﷺ وآله مجاهدين أنفسهم في ذات الله ((^(١)).

الصوفية:

عرف الإمام الصوفية فقال: ((هم الذين صفت قلوبهم من شوائب الكون،
وتطهرت نفوسهم من رجس الشهوات، وتعلقت همهم بالله تعالى، ففنوا عما
سواه، ووجهوا وجوههم شطره، لم تحجبهم الكائنات عن شهود مبدعها، ولم
تشغلهم الآيات الجلية عن فهم إشاراتها وذوق معانيها، هم عبيد الله السائرون على
منهج نبيه ﷺ وآله، وهم الذين تلقوا أسرار التوحيد وأنوار الحكمة بقلوب
واعية ونفوس صافية عن العلماء العارفين بالله ورثة رسول الله ﷺ وآله. وسموا
صوفية إما: لأن أئمتهم أهل الصفة، أو لأن كل واحد منهم ((صوفي)) فعل ماض
مبني للمجهول أي صافاه الله، أو لأنهم كانوا يلبسون الخشن من الصوف تزهداً
((.

(١) كتاب ((أصول الوصول)) للإمام أبي الغزائم ص ٨٨.

سئل الإمام يوماً أثناء درس من دروسه عن الصوفية مبدءاً وقصوداً، فأجاب عليه السلام على البديهة والكتابة يكتبون:

إن هذا اللفظ لا دليل لغوياً يدل على أنه مشتق من الاستصفاء ولا من الاصطفاء ولا من الصف ولا من الصفة نسبة لأهل الصفة ولا من الصوف، والظاهر أن مدلوله فعل ماض مبني للمجهول خبراً عن صفاء قلب من سمي به. والصوفية إمامهم الأول بعد أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه سيدنا أبو ذر الغفاري وسيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنهما. معلوم أن الأشياء كلها لها ظاهر، وباطن وهو لبها، فكذلك الدنيا والآخرة. وللدنيا أبناء، وللآخرة أبناء:

١- فأبناء الدنيا شغلوا بما تقتضيه حظوظهم وشهواتهم وأهواؤهم وما يدعوهم إليه الحس والجسم، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾^(١). فاستخدموا جوهر النفس النوراني ونور العقل الروحاني لتحصيل كمالات الجسد الفاني جهلاً بالآخرة أو تجاهلاً.

٢- والصوفي عرف قدر الدنيا بالتعليم، وتحقق زوالها بالتفكير، أيقن أن بعدها دار هي الدار حقاً لا يسعد فيها إلا من تخلي عن دنس الأجسام، وخبث الشياطين، ودناءة البهائم، وبلادة النباتات، وثقل الجمادات، حتي يتشبه بعالم الملكوت الأعلى

الصوفي علم قدر الدنيا والآخرة فقدم ما يبقى على ما يفنى، وباع ما يزول بما يدوم، ورأى في نفسه عوائق تعوقه عن بلوغ كماله الحقيقي.. تلك العوائق راسخة

(١) سورة الرعد آية ٢٦.

في فطرته، راسبة في حقيقته، جواذبا إلى الرذائل قوية، ودافعها عن نيل الخير شديدة، ومقتضياتها التي توبق في الدرك الأسفل من النار ملازمة، ولكنه سطعت على جوهر نفسه أنوار تلك الكمالات من جانب الروح وناداه الحق من قبله.. [إني أنا ربك.. خلقتك لذاتي وخلقت لك كل شيء، ومنحتك الحرية والإرادة، وبينت لك الشر، وأعددت لك النظر إلي وجهي في دار كرامتي وجوار الأطهار المقربين من اصطفتيهم من خلقي]. فسمع ولي، وحن واشتاق، ثم دعت فطرته الحيوانية في دار البلية، فنظر وفكر وتأمل وتدبر، فرأى الدنيا قد آذنته بزوالها وأشهدته عملها في أبنائها، فرآهم بين راحل إلى القبور وبين غافل عن الآخرة مغرور، فجاهد نفسه في الله حتي أطاعته، وانسلخ من مقتضيات نقائصه كما ينسلخ الليل من النهار، صغرت والله الدنيا في عينه حتي كره المقام فيها بين أهله لولا رحمته ببني جنسه ليدعوهم إلى الخير، واستوحش والله حتي من نفسه، وتمني أن يكون نفسه الثاني في رmse شوقاً إلى جوار حبيبه المختار، والأنس بالصفوة الأطهار في مقعد صدق عند مليك مقتدر، رجع بكليته إلى الماضي مسارعاً إلى ماكان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وآله من العقيدة والعبادة والأحوال النبوية والأخلاق الربانية ومعاملتهم الله تعالى في خلقه، رجع إلى الماضي من السنة السمحاء والطريقة المستقيمة فكان غريباً بين أهله لجهلهم بالسنة وتساهلهم بالملة، ولو ظهر بينهم رجل من الصحابة لأنكروا حاله وجهلوا أعماله، ولكن الصوفي قوي في دين الله، لا تأخذه لومة لائم في الله، شهد الحق حقاً فاتبعه مسارعاً، والباطل باطلاً فاجتنبه فازعاً، يغار لله ولسنة رسول الله ﷺ وآله.

عمل بكتاب الله مجاهداً، وبسنة رسول الله ﷺ وآله مشاهداً، فسبحت نفسه الطاهرة في ملكوت الله بين صفوف ملائكة الله، فرفعه الله قدراً، لأن الصوفي

مجاهد والملائكة غير مجاهدين، ينازع بالمجاهدة فطرته والملائكة على الخير مفطورون، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

لم تقف همة الصوفي على السياحة في ملكوت الله الأعلى، بل فرت إلى لوامع وميض أنوار قدس العزة والجبروت، فألهمت إلى الإشراف على القدس الأعلى، فجذبتها العناية الأزلية واختطفتها يد الحسيني بالسابقة، فأشرف على قدس العزة والجبروت، فأشرقت عليه أنوار مشاهد التوحيد العلية، فاتحد بالحق مفارقاً للخلق وهو في الخلق محفوظ الظاهر والباطن، فألهمه الله تعالى نور البيان في فهم القرآن، ومنحه المنة بذوق السنة، فكان أمة وحده.

جعل الله نوراً له منه سبحانه حفظه به من دواعي الفطر، ولو ازم الطبع، ومقتضيات رتبته من مراتب الوجود. وجعله نوراً لأهل عصره، يجمع بأعماله الأشباح، وبعلمومه الأرواح، ويجذب القلوب إلى علام الغيوب، ألقي الله عليه محبة منه فأحبه كل شيء إلا شياطين الإنس والجن الذين جعلهم الله قطاعاً لطريقه.

الصوفية لا خلاف بينهم في كل زمان ومكان، وبدانيتهم تزكية النفوس من أدائها، وتطهير الأجسام من نجاستها المعنوية، والاتصال بالمرشد الكامل الذين يتلقون عنه العقيدة الحققة، ويتشبهون به في الأعمال السنية، والأخلاق المرضية، والمعاملات المقربة إلى الله تعالى. لأن المرشد وارث رسول الله ﷺ وآله، ورسول الله ﷺ وآله لم يورث درهما ولا ديناراً ولا أطيئاً وعقاراً ولكنه ﷺ وآله ورث نوراً وهدى وحكمة وبياناً، قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا

(١) سورة النساء آية ٩٥.

لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ^(١)، فهذه الخيرات هي ميراث رسول الله ﷺ وآله ﷺ التي ورثها الله بفضله من شاء من عباده.

الصوفية هم أنصار الله وأنصار رسوله ﷺ وآله ﷺ في كل زمان ومكان، سترهم الله عن أعين الجهلاء وأخفاهم عن أهل الظلم والطغيان، ولكنهم هم النجدة عند الشدة والقوة عند الضعف والحصون عند الخوف. ذلوا ولانوا وخشعوا واختفوا وتستروا.. نعم، ولكنهم إذا غضبوا لله غضب الله لهم، وإذا دعاهم الحق لبوه رخيصة دماؤهم عليهم حينئذ إلى الموت في سبيله والقتل في إعلاء كلمته، متى تحرکوا لله لا يسكنون حتي يظهر الحق أو يتصلوا بدار الحق، كم لهم صولة لله بالله أزالوا بها باطلاً تعسر زواله على الجيوش الجرارة، فهم الأنوار التي تسطع في حالك الظلمات فتمحوها.

وقد أثبت التاريخ ما أظهره الله تعالى بهم. منهم آل بدر أنصار الله المهاجرون استضعفوا في أوطانهم ففروا إلى الله تعالى، والفقراء من الأنصار الذين خرجوا ليقابلوا تجارا من الشام فقابلوا صناديد العرب وجمراهما، فكان كل رجل منهم كأنه جيش جرار.. غضبوا لله تعالى غضبة تحت الكفر وأهله، وفي كل عصر وزمان قام فيه أهل الطغيان ليطفئوا نور الله بأفواههم، أشرقت أنوار الصوفية فمحت الظلمات، هم الذين نشروا تلك الأنوار في سائر الأقطار بالقرآن والسنن شوقاً إلى لقاء ربهم وحباً في إعلاء كلمة الحق.

وأهل الصفة رضي الله عنهم هم الذين بشوا تلك الروح العالية في كل الحوادث. أقبل جيش الروم عندما قام الصحابة لفتح القسطنطينية، وكانوا رضي الله عنهم

(١) سورة البقرة آية ١٥١.

قليلين وجيش الروم يناهز الستمائة ألف مقاتل، فهجم رجل من التابعين على قلب الجيش منفردًا فناده آخر قائلاً:

(ارجع فإن الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ^(١)، فصاح سيدنا أبو أيوب الأنصاري - وهو من كبار أئمة الصوفية قائلاً: (ويحك.. لقد نزلت الآية فينا وأنا أعلم سبب نزولها، ليست التهلكة الإقدام على هذا الجيش وإنما التهلكة الإحجام، فإن المؤمن إذا أقبل فاستشهد لأحياء الله الحياة الحقّة وإذا أحجم هلك).. ثم كبر ﷺ وهجم على الجيش كله منفرداً فاخترق صفوفه وأقبل المسلمون بعزيمة ماضية وراءه، فهزم الله جيش الروم وكادت تفتح القسطنطينية لولا موت أمير المؤمنين معاوية ورجوع أمير الجيش وقواده لهذا الحادث العظيم، فكان الصوفي في وقت الغيرة لله يجعل من معه مشاهدًا فردوس الله، ليس بينه وبينها إلا أن يُطعن بسنان أو يُضرب بسيف، فهم رضي الله عنهم زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، ولكنهم عند المقتضيات يقومون لله رغبة لإعلاء كلمته سبحانه.

وهم الذين إذا أقدموا لم يحجموا، يعملون ولا يقولون، كثرت أعمالهم وقلت أقوالهم، خافوا مقام ربهم ونهوا النفس عن الهوى، لهم جانب مع الله تعالى إذا سألوه استجاب لهم، ولهم أعمال خالصة لذات الله إذا قاموا بها كان الله معهم ولهم.

لم تقم دولة من دول الإسلام إلا وهم مؤسسوها، ولم تقم فتنة من أعداء المسلمين إلا وهم مطفتوها، أول الخلفاء بعد رسول الله ﷺ وآله ﷺ إمامهم، ودام الأمر فيهم إلى سيدنا الحسن السبط عليه السلام، ومدّهم عمر الخلافة حتى انتقلت إلى الملك العضود، وهم الذين قلبوا دولة بني أمية وأعادوا الدولة لبني هاشم، وهم

(١) سورة البقرة آية ١٩٥.

الذين أيدوا دولة آل عثمان حتي شيدت المساجد في بودابست وفي بولونيا، ولم يبق إلا أن تصير أوربا إسلامية كما كان أولاً، والتفت الصوفية إلي خلواتهم وتجريدهم عندما رأوا أنه لا حاجة لهم لقوة سلطان المسلمين، وهم الذين ردوا الصليبيين عن الثغور الإسلامية في زمان صلاح الدين الأيوبي عندما غاروا لله غيرة سلبت عقول الإفرنج حتي أصبح الحليم سفيهاً. ولا غرابة: فإن درويشاً لم يبلغ خدمة المرشد غار لله هو ودرأويشه غيره قهرت ملك الحبشة وجيوش الطليان وجنود فرنسا والجيش المصري والإنجليزى، حتي مات منصوراً ظافراً وجيشه على أبواب مصر، ولكن غادرته المنية وقام بالأمر غير الدراويش فاختلقت القلوب وتغيرت.

وللصوفية أسرار فوق كل قوة لأنهم تابوا إلي الله فعملوا بالأسباب، حتي إذا قاموا بقدر طاقاتهم رجعوا بالكلية إلي مسبب الأسباب فكان معهم ولهم.

وناهيك بقوم يعملون بما أمرهم الله ويجاهدون بأنفسهم أكبر المجاهدة في ذات الله ثم يسارعون غيرة لله في محو ما يكره وإظهار ما يحب، فإذا لم تساعدهم الأسباب التحأوا إلي القوة التي هي فوق الأسباب وهي قوة الله تعالى^(١).

وهكذا نجده ~~الطاهر~~ قد كشف النقاب عن الصوفي وحقيقة الصوفية بما يجعلك تفرق بين صوفية الأحوال والأعمال والجهاد والمجاهدة، وصوفية الأقوال والأوراق والارتزاق بعين المنصف للحق المين للحقيقة الرافع للوهم والخيال. وفي سبيل ذلك قام بما يلي:

١- قدم علم التصوف في قالب خال من التعقيد والتراكيب الرمزية التي تجعل الأمر غيباً عن المدارك والعقول.

(١) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٧ العدد ٦ ص ١٥٢ (١٥ ربيع الآخر ١٣٣٨).

٢- جمع بين طريقي السابقين في الوصول وهى:

أ-طريق الإشراف: أو ما يسمونه الجلاء والتصفية. لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل.. أو ما يقولون عنه: إذا زكت النفوس من الأغيار والأكدار أشرقت عليها شمس المعارف والأسرار، وفي ذلك قال الإمام: جاهد تشاهد، وقال: من حاسب نفسه عوفي من العقاب.

ب-طريقة البرهان: التي اشترطت إصلاح الظاهر أولاً وعلاجه قبل علاج الباطن لقوله ﷺ وآله:

(تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة.. وهو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء) (١).

والجمع بينهما يكون الكمال للسالك، فيكون قد أتقن الشريعة والطريقة، وسار على الحقيقة.

٣- بين أن التصوف علم وذوق متلازمان، وعلم مجرد لا ينتج، وذوق بغير علم لا يكون.

٤- نبه على عدم الدخول في الجدل مع المنكرين، وأكد ضرورة صرف أنفاس المريد في مرضاة الله سبحانه وتعالى.

٥- اهتم بتزكية النفس فهي الجهاد الأكبر، وتصفية القلب فهو الطهارة الكبرى، وكان دائماً يقول: (زك نفسك قبل السماع لتشرق عليك أنوار المعرفة، فإن النفس كالبدن إن لم يكن صحيحاً كلما غذيته ازداد مرضاً)

(١) المنذري في الترغيب وابن عبد البر في مسنده.

ومن هنا ندرك أن الإمام عليه السلام اهتم بالوعاء الذي يوضع فيه العطاء الرباني، ولاظهار هذا المعنى كان يقول:

لا تمنعن ماعون شراب الراح طهره يشهد حضرة الفتاح
لا تمنعنه تري جميلاً ظاهراً قد لاح بالترتبه للأرواح

٦- عمل عليه السلام على إحياء ما اندرس من أحوال الأئمة السابقين ومقاماتهم وأذواقهم، فكان متمماً لما أرسوه من قواعد للتصوف، مشيراً إلى ما تناولت إليه يد العابثين أو حرفته يد الغالين حتي أجلي صورة التصوف الحق، وقدم صورة كاملة للصوفي الكامل الذي يكون في الأمة طبيباً لأمراضهم حكيمًا في مداواة أحوالهم.

وأمام الواقع الجاثم على صدر التصوف من البدع والانحرافات، كان لابد للإمام من موقف صريح وصوت قوي يصحح هذه المسيرة، وهذا ما نراه فيما يلي:

١- موقف الإمام في خروج أدعياء التصوف عن الشرع^(١):

أساس طريقنا هذا محبة الله تعالى إعظاماً وإجلالاً ومحبة رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام تسليمًا وانقيادًا، وإيثار كل مسلم على نفسه بأن يحب له ما يحبه لها ويؤثره عليها في الخير، لأن الله تعالى أوجدنا وشرح صدورنا بنور رحمته وضياء المعرفة لنجدد ما خفي من معالم سنة رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام علمًا وعملاً وحالًا، ولنحيي ما اندرس من أنوار كتاب الله تعالى علمًا وشهودًا وتسليمًا ورضاء، ونعيد الماضي بما كان عليه سلفنا الصالح نفعنا الله بهم ليكون الله تعالى معنا وعندنا، ونكون مع الله

(١) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٩ العدد ١٠ ص ٢٥٥ (غرة شوال ١٣٤٠ هـ).

تعالى هذا وإن كان كل أخ من أحبائي في الله يجب عليه أولاً أن يحصل ما لا بد له منه من علوم الشريعة، ليصل بما أمره الله، وليكون قدوة حسنة في أحبابه في الله دالاً على الحق بعمله أولاً، وبقوله ثانياً، وبحاله ثالثاً، فمن ترك العمل الذي يكون به عبداً لله تعالى عابداً حرم السعادتين، ومن بين لغيره بياناً يخالف بيان رسول الله ﷺ وآله، أو عمل عملاً يخالف رسول الله ﷺ وآله، أو تحلي بحال ينكره العارفون بالله تعالى كان ضالاً مضلاً مظهراً لإبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومن بين الحق بلسانه ولم يعمل بجوارحه ونفسه كان فتنة للمسلمين كالسراج الذي يحرق نفسه ويضيء لغيره لأن الناس أسرع تقليداً للعمل منه للعلم. وإنما أفسد العقائد وفرق المجتمع الإسلامي عالم اللسان جهول القلب يأمر الناس بالخير ولا يعمل به فيقتدي به الناس ولا ينتفعون بعلمه. وليس هؤلاء بأئمة المسلمين لأنهم أعوان الشياطين وعبيد الدنيا وخدمة الملوك ولو كانوا كفاراً.

إخواني.. إن كثيراً من الناس من أعماهم الحظ وأضلهم الهوى وقادهم الشيطان الرجيم، فنسبوا أنفسهم إلى المعرفة مع جهلهم، وإلى الكشف مع بعدهم، فأضلوا كثيراً من الإخوان بزخرف القول غروراً فتركوا الصلاة والصيام ووقعوا في شر من ذلك وهو القول بالحلول، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُّسْتَدَّةٌ يَعْسُبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أُنِّي

(١) سورة التوبة آية ٣٤.

يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ {٢٠٤} وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ {٢٠٥} وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢﴾. وكلنا نعلم أن كل آية نزلت في بني إسرائيل جرت بذيلها أهل الغواية، قال رسول الله ﷺ وآله: (افترقت بنو إسرائيل على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي) (٣).

وتمسكوا يا أحبابي في الله تعالى بالسنة وعضوا عليها بالنواجذ وفروا من كل متساهل. واعلموا حق اليقين أن الله ما أمرنا بعمل على لسان رسول وهنأنا عنه على لسان ولي.. ومن تأول القرآن والسنة تأويلاً يؤدي إلى مخالفة الشرع فهو شيطان مارء. فاحفظوه واتقوا الله حق تقاته بأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه ولا تكفروه.

هو الشرع حصن الأمن سر وصولى به كشف إجمالي به تفصيلي
صراط عليه المفردون تفردوا ومعراج أهل الحب والتأويل
هو الحبل حبل الله مد لأهله به يرتقي المحبوب للمأمول
من جاوز الشرع الشريف هوى به إلى السفلى من غاوى وكل جهول
فشاهد بحسن الشرع أيا عليه تلوح لأهل الأنوار في التزبل

(١) سورة المنافقون آية ٤.

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤-٢٠٦.

(٣) الترمذي والسيوطي في الجامع الصغير.

تحصن بحصن الشرع تشهد مشاهدًا تنال بها الزلفي بخير وصول
ومن راحه الصافي الطهور تناولن يواليك وهاب بنور سبيل
تلوح لك الأسرار فيها تترلاً تحاط بوجه ظاهر وجهيل
ويخاطب **عليه السلام** مريديه وطلاب الحقيقة فيقول:

وادخل حصون الشرع قلبًا وقالبا تحيا سعيدًا في شهود المتقين
تلك النفوس قوية في فعلها قد تحجب الأفراد كم أردت سجين
الشرع عصمة سالك يهدي إلى دار الصفا رضوان رب العالمين
٢- موقف الإمام من دعاة الاتحاد والحلول:

يري الإمام **عليه السلام** أن دعاة القول بالاتحاد أو الحلول أو المجسمة هم الذين تلقوا
الحكمة من شيوخهم وكانت نفس الواحد منهم خبيثة، ففهمها على قدر نفسه
وتعصب لفهمه، فقال بالجسمية والحلول. ولذا فإن الإمام أطلق على أصحاب هذه
النظرية بأنهم محوس هذه الأمة، كما حذر أتباعه من مصاحبتهم أو الاقتداء بهم^(١).
ويتكلم الإمام شارحًا بعض مقامات السير والسلوك إلى ملك الملوك فيقول^(٢):

فناء الصادقين وفناء الكاذبين:

لا تزول البشرية - وزوالها حصول البلية لأن بها الجهاد في سبيل الله -
ولولاها لما امتاز الإنسان عن عوالم الروحانيين، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي
الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ

(١) من رسالة ماجستير بعنوان: ((الإمام محمد ماضي أبو العزائم وأثره في التصوف الإسلامي)) للأستاذ /

محمد السيد المليحي. كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

(٢) كتاب ((قيس من المضمون)) للإمام أبي العزائم تحت الطبع.

وَأَنْفُسَهُمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا^(١).

فناء الكاذبين مخالفة أمر الحاكم سبحانه مع قيام البشرية مقتضي ولازمًا، وإمامهم في هذا إبليس في كاذبًا فترك الأمر جانبًا، أما فناء الصادقين فالقيام بالأمر مسارعة إلى السمع والطاعة والفناء عنه بنسبته إلى الموفق المعين الموجد الممد سبحانه حتي لا تشهد المنة من العامل فيستكثر عمله، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾^(٢)، فأفناهم عن شهود نسبة العمل إليهم بعد أن تفضل سبحانه عليهم بالإحسان بالقيام به، فهم العاملون كما أمر عن نسبته إليهم كما أحب منهم وطلب، وإمامهم رسول الله ﷺ وآله كان يستغفر الله صلوات الله وسلامه عليه ليستر عنه العمل بعد قيامه به ليفني عنه ﷺ وآله لكمال تحققه بحقيقة التوحيد، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣)، وهو الفناء عن نسبة العمل إلى العامل بعد القيام بالعمل كما أمر سبحانه.

ومن ترك الأمور وظن أنه فان بترك الأمر وشعر بألم الجوع والعطش فهو شيطان الإنس اقتدي بشيطان الجن، وأهل الفناء هم أهل الكهف الذين مكثوا بضعا وثلاثمائة سنة فانين عن البشرية ولوازمها مستغرقين في شهود التوحيد بالتوحيد.

(١) سورة النساء آية ٩٥.

(٢) سورة الأنفال آية ١٧.

(٣) سورة فاطر آية ١٠.

ومن ادعي الفناء فترك الأمر والنهي كان ممن شنع الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، رزقنا الله السمع والطاعة لأمره جل جلاله والفناء عن نسبة الأعمال لنا بعد القيام بها مخلصين له الدين يارب العالمين. ونعيم الفناء طريق المخلصين من أولياء الله الموقنين، ولكنه ترك ليس للسالك أن يتزل فيه إلا بعد معرفة طريقين: الخبرة به، والسير فيه.. والله الموفق للصواب.

ثم ميز الإمام عليه السلام بين الفناء والبقاء، والغيبة والحضور، والغيبة والصحو، والجمع والفرق فقال:

الغيبة والحضور:

اغمض عينيك عن نفسك وعن كل غير الله تعالى، فإنك في هذا المقام تحترق صفات آدميتك بنار القرب من الله، وهذا هو مقام حال الغيبة الذي أخرجك به الله من ظهر آدم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٢)، وأهلك لسماع خطابه المقدس، وخصك بلباس التوحيد وحلة المشاهدة، وكلما كنت عائباً عن نفسك كنت حاضراً مع ربك وجهاً لوجه، لكن إذا حضرت مع صفاتك كنت غائباً عن معية

(١) سورة الأعراف آية ٢٨.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢.

الله تعالى. وحيث كان ذلك كذلك فحضورك هلاكك، وهذا المعني من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(١).

والتممكن يري أن الغيبة والحضور اصطلاح لمقامين، وإن اختلفا لفظاً إلا أنهما اتحدا معني من كل الوجوه، فالحضور هو حضور القلب ليكون علامة على اليقين حتي يكون ما هو غيب محض عنه في قوة ما هو مشاهد له. والغيبة هي غيبة القلب عن كل ما سوي الله تعالى حتي يكون غائباً عن نفسه وغائباً عن غيبته، وبذلك لا يعتبر نفسه، وعلامة ذلك حال صادق لا يخرج عن حكم الرسوم، فهي فطرته، وهي كالعصمة للأنبياء من كل ما يخالف الشرع. لذلك كانت غيبة الإنسان عن نفسه حضوراً مع الله والعكس بالعكس، والله تعالى هو المسيطر على قلوب بني آدم، فإذا قهرت الجذبة الإلهية قلب طالب كانت غيبة قلبه متساوية بالحضور مع الله تعالى، وانمحت الشركة والقسمة وانتهى النسب الذي يدلي لنفسه.

الغيبة والصحو:

إذا جذبتك به العناية حتي أجلسك على مستوي الوراثة أو زجت بك في أفق البيان بعامل الانتقال فيين في الغيبة جلي البيان، فإذا صحت فاحذر أن تبين إلا ما يناسب المسامع والقلوب، فإنك في حال غيبتك عنك محمول على رفارف العناية، وإنما تمد موائد الكرامة لأهل العناية، فإذا بسط بساط الإيناس فأطلق عنان الأنفاس، فإنك في ذا المقام مأذون وعلي ما تبديه مأمون، وليس هذا الشأن عادة وإنما هي صولة الحق على من يتجمل بالحب لنفع الخلق.

(١) سورة الأنعام آية ٩٤.

الجمع والفرق:

حقيقة سر الجمع هي معرفة إرادة الله، أما الفرق فهو إثبات ما أمر به أو نهي عنه، مثال ذلك: أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام ولكنه أراد ألا يفعل ذلك، وأمر إبليس أن يسجد لآدم وأراد غير ذلك، وأمر آدم ألا يأكل من الشجرة وأراد أن يأكل منها. فالجمع: هو ما اتصل بصفاته، والفرق: هو ما فرقه بأحكامه، وكل ذلك يحتوي سر الإرادة الإلهية وإثبات المشيئة الإلهية حتي تفني المقاصد الشخصية. والجمع بلا فرق زندقة، وكل فرق بلا جمع تعطيل، والجمع تجريد التوحيد والفرق تجريد الاكتساب عن العبد، وفلان عين الجمع يعني استولت مراقبة الحق على باطنه فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى الفرق. فصحة الفرق بالجمع وصحة الجمع بالفرق وهذا يرجع إلى أن الجمع من العلم بالله وأن الفرق من العلم بأمر الله، ولا بد منهما جميعاً. فالجمع حكم الروح، والفرق حكم القلب، فما دام هذا التركيب باقياً فلا بد من الجمع والفرق، فإذا نظرت إلى نفسك فرقت، وإذا نظرت إلى ربك جمعت.

٣- موقف الإمام من فساد القدوة في الطريق:

لاحظ الإمام أن بعض الناس - مما لا علم لهم - اقتدوا ببعض أدعياء الطريق، فأدخلوا في قلوبهم أن التسليم للشيخ مهما كان وعلي أي حال كان، فيه خير لهم، ولا يصل السالك إلى الله إلا بالتسليم للشيخ، ثم يعملون أمام المريدين صريح الحرام، أو يقولون صريح الكفر، أو يأمرهم بترك الفرض والسنة، أو ينهاون عن الأعمال الشرعية، فيسلم لهم أهل الجهالة تسليم الأعمى لاعتقاد أنهم أهل الحقيقة وأنهم ارتقوا عن الشريعة، ولعل فساد القدوة في الطريق الآن من الدوافع الأساسية التي زادت من انتشار البدع وتهاون المريدين والأتباع في أداء الفروض والشرائع،

ومما يؤسف له أن هناك العديد من رجال الطرق الصوفية لا يؤدون الصلاة ولا يأمررون بالمعروف أو ينهون عن المنكر، وذلك لجهلهم بالدين وجهل شيوخهم أيضاً^(١).

ولذلك أوصي الإمام بما يلي^(٢):

أوصيكم يا إخواني أن تكونوا على بصيرة من أمركم، فإنكم إنما صحبتموني في الله لنجدد السنن ونسارع إلى محاب الله ومراضيه، والعهد بيني وبينكم. وأني عبد لست معصوماً، فإذا خالفت السنة وجب عليكم قهري على العمل بها شفقة عليّ ورحمة بي، فإن أبيت أن أرجع إلي الحق وجب عليكم معاداتي ومحاربتني، ومخالفتكم لي نجاة لأنفسكم من الاقتداء بمضل.

وإني أسألكم الدعاء لي عقب أعمالكم الصالحات، وإكرام إخوانكم في الله بنصيحتهم ومساعدتهم وخصوصاً من طالت صحبتهم لي من أهل الخشية من الله والأدب مع رسول الله ﷺ وآله، وأن تعينوا أولادي على الخير ما استقاموا وتذكروهم بالحق إذا نسوا، وترجعوهم إليه إذا عقلوا، حتي تكونوا أنجما في سماء الدلالة على الله تعالى، فإن أكثر الناس يقتدون بهم ولو كانوا على غير السنة ظناً منهم أن هذا إكرام لي والحقيقة غير ذلك، وإنما إكرامي حقيقته مساعدتهم إذا استقاموا، وتكليفهم بالاستقامة إذا تساهلوا وقهرهم على تحصيل العلوم النافعة والعمل الرافع الذي كان عليه سلفنا الصالح. وهذا هو إكرامي حقاً لأنه يسرني أن يكونوا دعاة إلي الحق وأن يكونوا نجاة للعالم أجمع، والله وليي عليكم ووليكم عليّ.

(١) كتاب ((بحوث ورسائل علمية عن الإمام المجدد أبي العزائم، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٩ العدد ١٠ ص ٢٥٨ (غرة شوال ١٣٤٠ هـ).

٤- موقف الإمام من قضية الوراثة في الطريق:

لاحظ الإمام أنه جري العرف عند وفاة شيخ الطريقة تعيين أحد أولاده أو أقاربه خلفاً لذلك الشيخ، ويرى الإمام أن هذا أمر حسن لو أن من سلموا له يكون على شيء من العلم والعمل والحال واجتهد في تحصيل ما به كمال نفسه ونفع غيره وحافظ على الاقتداء بالمرشد محافظة حقيقية في القول والعمل والحال.

ثم يقول عليه السلام: أما إذا سلموا لابن المرشد أو لأحد أقاربه وكان صبيّاً لم يبلغ الحلم، أو كبيراً على غير استقامة بعيداً عن معرفة الطريق وأهله، فإنهم بذلك يكونون عرضوا من اقتدوا به للهلاك، ولا يزيده الإقبال عليه إلا غروراً وبعداً عن الله، وكأنهم بذلك أساءوا إلي مرشدهم لأنه جعلهم بالعلم والعمل والحال وهم لم يحسنوا إليه في أولاده وأهله^(١).

ويقول الإمام عليه السلام في ذلك^(٢): واعلموا يا أبنائي أن النسب نسبان: نسب روحاني، ونسب طيني، فاحذروا أن تكرموني في أقاربي بالتسليم والتعصب والانقياد إلا إذا كانوا عاملين بما كان عليه سلفنا الصالح للسنة عاملين بها. ولكني أحب أن تكرموني فيهم بالنصيحة والموعظة ليكونوا أنجماً مشرقة لبيان السنن والعمل بها. واعتبروا بنجر الله عن خليله في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٣)، وبنجر الله عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤).

(١) ((بحوث ورسائل علمية عن الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي الغزائم)) ص ٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٩ العدد ١٠ ص ٢٥٧ (غرة شوال ١٣٤٠ هـ).

(٣) سورة التوبة آية ١١٤.

(٤) سورة هود آية ٤٧.

ويقول رسول الله ﷺ وآله: (إن بني فلان ليسوا لي بأولياء - يعني جماعة من بني هاشم - إنما وليي الله ورسوله وصالح المؤمنين ولكن لهم نسب أبله بباله..)^(١). وإني أبرأ إلى الله من كل قريب وصاحب ورفيق يخالف السنة والكتاب ويعين على مخالفتهما، وقد حذرنا الله تعالى بقوله لنا: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٢). فاحذروا أهل الفتنة الجاهلين الشاطحين ولو استدرجهم الله تعالى فأظهر على يدهم العجائب، واحذروا علماء الدنيا المفتونين بحب المال والجاه والرياسة، وقد ورد في الخبر: (إذا رأيتم العالم على أبواب السلاطين فاحذروه فإنه لص)^(٣).

٥- موقف الإمام من الذكر عند الصوفية:

الذكر من الواجبات على كل مؤمن ومؤمنة لأمر الله عز وجل به، وتكرار ذلك في كتابه المجيد. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^(٦)، وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٧)، وقال جلت

(١) البخاري ومسلم.

(٢) سورة التوبة آية ٢٤.

(٣) الديلمي في مسند الفردوس.

(٤) سورة الأحزاب آية ٤١.

(٥) سورة البقرة آية ١٩٨.

(٦) سورة البقرة آية ٢٠٠.

(٧) سورة البقرة آية ١٥٢.

جلت قدرته: ﴿فَإِذَا قُضِيَّتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾^(١)، وقال عز وجل:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)، وفي الحديث القدسي: [أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه]^(٣)، وقول رسول الله ﷺ وآله: (سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله ؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)^(٤)، وفي رواية الترمذي قالوا يا رسول الله وما المفردون ؟ قال: (المستهترون، بذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم فيأتون يوم القيامة خفاً) .

وقد أنكر البعض على الصوفية الذكر جملة واحدة، والبعض الآخر أقرهم على الذكر ولكن أنكر الهيئة التي يذكرون بها، ويمكن باختصار تقسيم المنكرين على الصوفية إلى نوعين:

١- نوع يري من الصوفية ما يخالف الشريعة عنده بحسب إدراكه، ولم ير صحة ما يفعلونه في الكتب التي قرأها وتداولها ولم يسمع دليل على جوازه فينكرهم وينكر ما يفعلونه، وإذا رأي دليل صحة على ما يفعلونه يزول إنكاره.

(١) سورة النساء آية ١٠٣ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٥ .

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ب- ونوع ينكرهم وينكر أفعالهم، وإن رأي دليل صحة ما يفعلونه لا يزول إنكاره، لأن الحسد أعمى عين قلبه وطمس على بصيرته، وخبائة باطنه أصمت أذن فؤاده، فيزداد مرضاً على مرضه ويصير مقارناً لمن قال الله في حقه:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(١)

ولما نظر الإمام عليه السلام إلى حال الصوفية في عصره، والمتسبين إلى التصوف والمنكرين على الصوفية والتصوف وجعلهم من الذكر قضية لا يسأمون الحديث عنها ولا يملون الكتابة فيها بين التأيد من جانب والإنكار والاعتراض من جانب آخر.. أدلى عليه السلام بدلوه في هذا المضمار مبيناً وجه الحق والصواب وما يجب أن يعرفه كل مسلم عن الذكر منصفاً لكل ما هو معروف منكر، داحضاً بالحجة كل ما ليس له سند شرعى، فقال:

أنواع الذكر:

الذكر إما أن يكون بالقلب أو اللسان أو بالقلب فقط أو باللسان فقط. فالذكر بالقلب واللسان هو أن يشرق على القلب نور معني من معاني الحق يتحقق بها القلب بحال من أحوال الحضور مع الرغبة أو الرهبة أو الفرح أو البهجة أو الخوف والقبض أو البسط والجمال أو الطمع والرجاء. وقد يقوي الحال حتى يستغرق القلب في أسرار تلك المعاني المجلوة له حتى يترجم بلسانه عن حقيقة وجوده، فإذا نطق بلسانه باللفظ الدال على نور المعني المشرق في القلب كان ذاكراً بقلبه ولسانه. وفي هذا المقام ينبغي للذاكر ولمن معه أن يكونوا في خلوة خاصة،

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩.

ويجب عليهم أن يخفوا أسرار هذا المجلس ويطووا بساطه حتي كأنه لم يكن، خصوصاً إذا علا الذاكر الوجد حتي انحلت عقدة اللسان فأباح بمكنون وجده عن مشاهد سريرته، فإن السامع له إذا نقل عبارته أفسد وخان أمانة أخيه كما قال ﷺ وآله: (الجالس بالأمانات) ^(١)، فإن للبصيرة عيوناً تشهد إذا صفا القلب مالا تشهد الأبصار .

ومن الآداب في ذكر القلب أن المرید يلزمه أن يقف عند ما أمر به، وأن يحافظ على الاقتداء بإمامه بحيث لو لاح له مشهد من المشاهد التي تخالف ما ورد في السنة أو ما عليه المرشد، فيلزمه أن يخالف كشفه وشهوده ويسيء الظن بنفسه لأن ذلك ربما كان من رعوناتها أو من وسوسة الخناس الذي يوسوس في صدور الناس.

وليعلم المرید أن ذكر القلب هو الذكر حقيقة، لأنه تفكر في آيات الله واعتبار بما في الآثار من أسرار الحكمة وعجائب القدرة حتي يبلغ به الفكر والاعتبار والتدبر إلي حال يكون فيها كأنه حاضر مع ربه، ويبلغ به الحضور إلي حال لا يقع نظره على شيء ويلحظ أنوار البديع الحكيم القادر المرید الحي القيوم، بل ولا يسمع ولا يحس ولا يمس إلا يلحظ معاني القدس كأنها جليلة أمام سره.

ومن وصايا الإمام في الذكر:

إخواني: منحني الله وإياكم حسن الاقتداء برسوله ﷺ وآله وحققة الاتباع له ﷺ وآله حتي نفوز بمحبة الله تعالى لنا، اعلموا منحني الله وإياكم العلم

(١) سبق تخريجه ص ٣٣٢.

والفقه والعمل أن مجالس الذكر في الأماكن العامة كالمساجد والزوايا وفي الأماكن المشهورة إنما قررها العارفون لغرضين رئيسيين:

الغرض الأول: صرف الوقت في ذكر الله تعالى ابتغاء فضله سبحانه ورضوانه بإخلاص.

الغرض الثاني: أن يلاحظ الإخوان - ودي الله وإياهم - أن الناظرين لهم والسماعين لذكرهم:

أ- إما أن يميلوا بقلوبهم ويقبلوا على الله لما رأوه من الخشوع والآداب وحسن الحال والزى، وما سمعوه من صحة اللفظ وتوسط الصوت، فيكون الذكر في الأماكن العامة إعلالاً بما عليه أهل الطريق من اتباع الشرع الشريف، ومن التجمل بصفات العلماء التي هي الخشية والخوف ودوام الذكر والخشوع والتواضع والانكسار والألفة في الله والتعاون على طاعة الله والاجتماع للخير، فيكونون بذكرهم جمعوا الخلق على الله، وكأنهم بذكرهم دعاة إلى الخير.

ب- إما أن يكون السامعون لهم والناظرون إليهم ألسن تقبيح وذم وأيدي أذية وشر:

١- إذا رأوا ما لا يألفونه من حركات الأجسام.

٢- وما ينكرونه من المزاحمة بين الإخوان.

٣- وما ينكرونه من تحريف الأسماء الحسيني والنطق بها على غير ضوابطها الشرعية وما تكرهه أسماعهم.

٤- وما يكرره بعض الذاكرين من عبارات المدح لشيخهم أو من الإشارات القدسية العالية التي لا يفهمونها.

فيسبب ذلك نفورهم وتنفير غيرهم وفتح باب المعارضة علي الطريق وأهله ويكونون بذكرهم قد خالفوا الطريق وفتحوا على أنفسهم باب شر وفتحوا على المسلمين باب فتنة.

إخواني: جملني الله وإياكم بجميل الأخلاق والأحوال. أوصيكم:

١- بأن تجعلوا مجالس الذكر العامة قاصرة على من لا يغلبهم الحال.

٢- أن تكون العبارات التي يقولها القوال قاصرة على فضائل الذكر والصلاة والصيام والحج وعلي التشويق إلي الجنة والتخويف من النار وعلي الاستعداد للموت وترك الظلم والحث على التوبة.. فإذا خلوتم في مجالسكم الخاصة يطيب لكم الحضور ويحسن الذكر والحال وسماع أسرار الحكمة.

إخواني: ليس كل من اتصل بكم وذكر معكم يؤمن على مجالس الخلوة ولا يقبل في الخلوة، بل يلزم الرواتب والأذكار العامة ومجالس المذاكرات في الأحكام الشرعية حتي تهذب نفسه وتطهر أخلاقه ويؤمن على أسرار الشريعة وأنوار علومها، ولديها يتخذ أختاً فصاحباً فرفيقاً فصديقاً فبدلاً.

هيئة الذكر:

إخواني: معلوم أنه ورد كثيراً كلمة حلق الذكر وصفوف الصلاة، فيظهر أن الأكمل أن يكون الذاكرون حلقة، ومعلوم أنه ورد أن الأولي للمصلين أن يتقاربوا حتي يتماسوا، وورد أن ذلك أصفي لقلوبهم وأبعد لعدوهم الشيطان، من ذلك رأي بعض أئمة الصوفية أن يكون الذاكرون حلقة، وأن يضع الذاكر يده في يد أخيه واضعاً أصابعه بين أصابعه برفق إظهاراً لصفاء القلوب، وتحصناً من وسوسة الشيطان الرجيم، وقد روي أبو طالب المكي في كتابه ((قوت القلوب)) أن

سيدنا عبد الله بن عمر بعد أن صلي صلاة العيد في صلاة جلس يذكر الله هو ومن معه من الصحابة، فجاء مصعب بن الزبير فقال: يا عبد الله خالفت كلام الله، يقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾^(١) وأنت تذكر قاعدًا، فقام عبد الله بن عمر هو ومن معه فذكروا قِيَامًا بعد أن ذكروا قُعُودًا.. هذا ما ورد عن الصحابة في الذكر قِيَامًا وقُعُودًا في مصلي العيد خارج المدينة، وقد صح أن أصحاب رسول الله ﷺ وآله كانوا يجلسون في المسجد حلقًا: حلقة يذكرون الله، وحلقة يتدارسون القرآن، وحلقة يتعلمون. وكان يدخل رسول الله ﷺ وآله المسجد فيراهم فيتوجه إلي حلقة العلم ويجلس معهم ويقول: (إنما بعثت معلمًا)^(٢)، ويقر الذاكرين.

أما حركات الجسم في الذكر، معلوم أن الركوع والرفع من الركوع ركنان في الصلاة، ولذلك فإن بعض أئمة الصوفية استحسنوا أن تكون حركات الجسم في الذكر من قيام وقعود كركوع ورفع، والأولي المحافظة عليها ما لم يقو وجد الذاكر، فإنه يباح له ما لا يباح لغيره.

أعمال الأخ الذي يتقدم مجلس الذكر:

من المقرر أنه لا بد أن يكون لكل جماعة في بلد أو قرية أو مدينة أخ مقدم عليهم، ويلاحظ أن يكون:

١- عالمًا بالسنة حتي يردهم إذا سهوا أو خالفوا.

(١) سورة النساء آية ١٠٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٩٩.

٢- عالماً بأحوال وأقوال أئمة الصوفية ليبين لهم: مقامات السير والسلوك، وطرق تزكية النفوس وحقيقة الآداب، وهما الأصلان العظيمان اللذان بهما يقدم الأخ السالك طريق الله.

وأعمال هذا الأخ هي: المحافظة على الرواتب المأثورة من الصلوات والأدعية والأذكار، ويفتح مجالس الذكر أولاً بقراءة بعض سور القرآن الكريم مما يحفظه الجماعة ولو الفاتحة والصمدية والمعوذتين، ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١). ملاحظاً النطق بها حسب رواية القرآن الشريف حتي يكون تالياً للقرآن ذاكر الله تعالى، ويلزمه أن يبين للإخوان تلك الملاحظة فيكونوا مرتلين للقرآن ذاكرين الله تعالى، ويشرح لهم معني لا إله إلا الله إجمالاً، بأن يفهمهم أن الإله هو الغني عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه، وأن الإله الحق المتصف بتلك الصفات هو الله سبحانه وتعالى الذي لا شريك له، وأنه هو المعبود بحق دون غيره، ثم إذا علم أن القلوب أشرقت عليها أنوار التوحيد وأنست بالواحد وتركت الأغيار يرفع صوته بالتهليل ويقرأ: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٢) مستحضراً الأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ وآله ﷺ ووجوب الاقتداء به صلوات الله عليه، ويكون قد ذكر الإخوان بتلك المعاني، ويقول الله بالتفخيم ويقول معه الجماعة، ويلاحظ ما يرد على قلبه من أنوار الأسماء الحسني فقد يقولون بألسنتهم الله ولقلوبهم مشاهد تتم بها الجملة، فالقلوب تشهد بعد نطق الله: ربي - شافي - معافي - وليي - بديع - عزيز - رءوف - غفار - تواب... مما يرد من الغيوب على القلوب.

(١) سورة محمد آية ١٩.

(٢) يسورة الأنعام آية ٩١.

وقد يقوي الوجد على الذاكر حتي ربما غلبه، فيجب على المسئول عن الذكر في هذا الحال أن يروحه بذكر اسم من أسماء التفصيل، فإن اسم الذات حيطة الأسماء كلها، فالأولي أن يرفع صوته بالاسم الشريف وينبهم للإصغاء ثم يقرأ: (وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ^(١) وينطق بالاسم ((هو)) مضموم الهاء ساكن الواو ملاحظا في قلبه عظمة الهوية مستحضرا أن يتم الجملة بمعنى اسم من الأسماء مثل ((هو)) باللسان.. وبالقلب ((الأول أو الآخر أو الحي أو القيوم)).

فإذا حصل الوجد وغلب الحال نقلهم إلي اسم آخر مثل ((الحق)) بأن يقرأ قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ^(٢) ويذكر الاسم أو يذكر (حي قيوم) بشرط أن يلاحظ معني هذين الاسمين ويستحضر بقلبه الاسم الشريف، بأن يكون قلبه يذكر (الله) ولسانه يذكر (حي قيوم) لتتم الجملة إلا إذا استغرق القلب في معني الاسم المفرد وأشرق على السر نور معناه، ففي هذا الحال يكون اللسان ناطقاً بلفظ الاسم المقدس والقلب ذاكراً معناه والسر آنسا بوميض الأنوار، وهذا حال تطيب فيه النفس بعد تزكيتها وتصفو فتصافي بقبس الأنوار القدسية، فلا يكون هذا الحال إلا لأهل خاصة الخاصة في خلوتهم.

فإذا ختم الذكر فينبغي أن تلاحظ تلك الآداب:

أولاً: يتحفظ الإخوان بملايسهم تحصنا من الهواء، لأنه إذا مر بأجسامهم وثياهم مبلولة بماء العرق ربما حصل منه ضرر.

(١) سورة البقرة آية ١٦٣.

(٢) سورة فصلت آية ٥٣.

ثانيًا: يترك الإخوان شرب الماء البارد عقب الذكر مباشرة حتي تستريح أبدانهم، فإنه مضر عقب الذكر.

ثالثًا: يغمض الإخوان عيونهم توجهًا إلى الله تعالى لترد على قلوبهم منح الملكوت وأنوار الذكر.

رابعًا: يقرأ أحدهم ما تيسر من القرآن الكريم، والأفضل أن يقرأ الآيات الدالة على التوحيد أو الذكر أو الفكر أو البشائر ليتدبر الإخوان معانيها وتشرح صدورهم.

خامسًا: إن شرح الله صدره لشيء من المذاكرة ذاكر، أو عرض على الإخوان إن أحب أحدهم أن يتكلم بوارد ورد له أو فهم فهمه أو حكمة نقلها أو سيرة من سير السلف رواها فليفضل بإلقائها، وإن أحب أن يروحهم بسماع الحكمة المنظومة من أخ حسن الصوت أمر بذلك بشرط أن يقول ما يناسب الأكثرية من الحكم والعلوم، ثم ذكر التهليل ثلاثًا أو خمسًا أو سبعا ورفع يده، وصلي على رسول الله ﷺ وآله ﷺ، وترضي عن الصحابة وعن جميع إخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ودعا بالمغفرة للذين سبقونا بالإيمان، وسأل الله لإخواننا المعاصرين الحاضرين والغائبين، ثم يأذن بالانصراف.

٦- موقف الإمام من تعدد الطرق الصوفية:

روي أن الإمام دعا يومًا مشايخ الطرق الصوفية على مائدة الغداء، وكان الإمام قد عقد العزم من هذه الدعوة على أن يكلمهم عن اتحاد هذه الطرق الصوفية كلها في طريق واحد ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (١)، وقد قال الإمام عن الطريق المستقيم (٢): إن الطريق المستقيم يا إخواني واحد لا يتعدد وإن تعددت أنواع السير عليه، سرعة وبطءًا، وتأنياً وإقبالاً، والسالكون عليه وإن تفاوتت همهم وتنوعت عزائمهم إلا أنهم لا خلاف بينهم، لأنهم كلهم على اعتقاد واحد ورأي واحد ومذهب واحد، سارعوا إلي وجهة واحدة، وتعاونوا على مقصد واحد، وتنافسوا في مراد واحد. إنما الخلاف بينهم أن هذا على الطريق الحق إلا أنه توسط وعمل بالقلب والجسم بحالة وسط، وأخوه معه على الطريق الحق إلا أنه عمل بالواجب البدني ووقف عنده وزاد في عمل القلوب على الواجب القلبي، والآخر على الطريق الحق إلا أنه جاهد نفسه ليتخلي وأخوه معه إلا أنه ينافس ليتحلى، والكل في حيلة واحدة وهي المدينة التي أشار إليها ﷺ وآله ﷺ بقوله: (المدينة خير لهم لو كانوا يعملون) (٣).

وبعد تناول الغذاء على مائدة الإمام والترحيب بهم، بدأ الإمام الحديث بقوله:

يا إخواني: ليس الطرق لنكون فرقاً مختلفين وعصباً متنافرين وشيعاً متباغضين، قلوب على الحظ والهوي عقدت، وبالدين وما فيها اطمأنت، وللشهرة والسمعة طلبت، حتي أصبح المسلمون وهم كثيرون قليلاً، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٤).

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣.

(٢) كتاب ((مذكرة المرشدين والمسترشدين)) للإمام أبي العزائم ص ٥٨-٥٩.

(٣) متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير وقد أورده الغزالي في الإحياء ج ١ ص ١٧.

(٤) سورة آل عمران آية ١٠٣.

ثم أفاض عليه في شرح آية الاعتصام وعدم التفرقة. وبعد ذلك طلب منهم أن يختاروا واحدا منهم ينصبونه إماماً للطريق ويسلم له الجميع ويساعده على أداء رسالته، وقال لهم: الرجل الذي تختارونه أنا أول من يحمل حذائه، وحتى لا تظنوا أنني جمعتكم في بيتي لتختاروني، فسأترككم لمدة ساعتين تختارون من بينكم من شئتم.

تركهم الإمام وصعد إلي خلوته. ولما عاد إليهم عرف أنهم اتفقوا على أن يظلوا على ما هم فيه !!. وجلس الإمام وضرب على فخذه قائلاً: الله بالمد الطويل، فأخرج الكتبة الحاضرون أقلامهم وأوراقهم ليكتبوا، قال الإمام عليه السلام:

مَا اخْتِلَافُ الطَّرِيقُ وَالْقَصْدُ وَاحِدٌ وَالصِّرَاطُ السَّوِيُّ لِلْمُتَوَاجِدِ
ذَا لَأَنَّ النُّفُوسَ مُخْتَلِفَاتٌ كُلُّ نَفْسٍ لَهَا سَبِيلٌ وَشَاهِدٌ
وَالرَّجَالُ الْأَفْرَادُ فَوْقَ صِرَاطٍ بَدْوُهُ الْكَشْفُ لِلْمُرَادِ الْوَاجِدِ
مِنْ أَلَسْتُ شَرِبُوا طَهُورًا مُدَارًا أَسْكَرْتَهُمْ لَمْ يَلْفَتْنَهُمْ مُعَانِدِ
أَفْرَدُوا اللَّهَ بِالْيَقِينِ وَفَرُّوا مِنْ سِوَاهُ إِلَيْهِ وَالْفَضْلُ وَارِدِ
مِنْ لَدِي الْبَدءِ وَوَجَّهُوا بِجَمَالِ يَجْذِبُ الرُّوحَ لِلْوَلِيِّ الْمَاجِدِ
وَاخْتِلَافُ الطَّرِيقِ فِي السَّيْرِ يُنْبِي بِاخْتِلَافِ النُّفُوسِ بَلْ وَالْمُورِدِ
وَالْمُرَادُ الْمَحْبُوبُ أَفْرَدَ بِالْقَصْدِ عَلَيَّا وَهُوَ إِلَاكُهُ الْوَاحِدِ
وَالنُّفُوسُ الْمَرْضِي تَسِيرُ أَلْهُوَيْنَا لِلْأَيَادِي أَوْ لِلْعَطَا وَالْمَوَائِدِ
أَوْ لِأَجْرِ تَسْعِي وَيُلِ حُظُوظٍ فِي جَنَانِ النَّعِيمِ بَيْنَ الْوَلَائِدِ
بَيْنَ بَاكٍ مِنْ خَوْفٍ نَارٍ وَرَاجٍ جَنَّةِ الْخُلْدِ فِي عَنَاءٍ يُجَاهِدِ
بَيْنَ زُهْدٍ فِيمَا يَزُولُ لِقَصْدٍ فَوْزُهُ بِالْقَبُولِ تَجِدُهُ عَابِدِ

ذَاكَ سِرُّ التَّفْرِيقِ وَالْوَجْهَ قَصْدِي مِنْ أَلَسْتُ وَطَالِبُ الْغَيْرِ جَاوِدٍ
أَفْرَدَ الْمُجْتَبُونَ وَجْهًا عَلِيًّا بِالْيَقِينِ الْقَوِي مَخَوُّ الْعَوَائِدِ
شَاهَدُوا بِالْيَقِينِ فِي الْكَوْنِ نُورًا كَانَ بَدْءًا يَرَاهُ كُلُّ مُشَاهِدٍ
لَمْ تَعْفُهُمْ عَنَّا صِرَ وَحْدُودٍ كُلُّ فَرْدٍ لِلَّهِ بِاللَّهِ عَائِدٍ
ظَلَّلَتْهُمْ أَنْوَارُ شَمْسِ التَّجَلَّى سَتَرَتْهُمْ عَنْهُمْ فَبُشْرِي لِصَاعِدٍ
نَاوَلَتْهُمْ يَدُ الْعِنَايَةِ رَاحًا أَسْعَدَتْهُمْ بَنِيْلَ كُلِّ الْمَقَاصِدِ
قَصْدُهُمْ وَاحِدٌ إِلَيْهِ أَنْبَأُوا بَلْ لَهُ أَسْلَمُوا بِقَلْبٍ وَاجِدٍ

٧- رد الإمام على من يفرق بين الشريعة والطريقة^(١):

سبق لي في غير هذا الموضوع أني بينت أن مدلول (شريعة - طريقة - منهاج - صراط - سبيل) واحد، وكلها ألفاظ مترادفة دالة على المسافة التي يلزم العبد أن يتجاوزها من الدنيا إلى الآخرة ومن الآخرة إلى المكون سبحانه، وهي المسافة التي لا نجاة لعبد إلا بتجاوزها على الصراط المستقيم. وتلك المسافة شاسعة طويلة الشقة صعبة المشقة إلا على من يسر الله لهم السلوك وسهل عليهم مراحلها، وأنعم عليهم بالمرشد الكامل الذي يبين لهم سبل الله ويبين لهم حكمة أحكام الله ويشهدهم في أنفسهم وفي الآفاق آيات الله، ويعالج أمراض نفوسهم وأسقام قلوبهم بما أمر الله به من قوله سبحانه:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢):

(١) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ٧ ص ٩ (٢٥ رجب ١٣٥٦ هـ الموافق أول أكتوبر ١٩٣٧).

(٢) سورة النحل آية ١٢٥.

١-فالحكمة: لأهل الاستعداد الذين سبقت لهم الحسني وحصلت منهم الرغبة في الحق والشوق إلي ما عنده سبحانه، وهي بيان أسرارهِ وكشف غوامض آياتهِ وشرح مكنون حكمه سبحانه وتعالى.

٢-والموعظة: للمؤهل الذي سبقت له الحسني ولكنه ملتفت ببصره إلي غير ما يجب أن يواجهه، والموعظة هي التلبية إلي ما يجب على العبد، وهي الذكرى، لأن من شهد شيئاً وتصوره والتفت عنه يذكره، ولذلك فإن الله تعالى قال: (وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ) ولم يقل بالحكمة الحسني، لأن الحكمة حسنة والموعظة تذكير من شهد مشهداً وشغله غيره ليلتفت إلي مشهده الأول.

٣-وأما المجادلة: لمن لم يكن فيه أهلية ولا استعداد، فتقام عليه الحجة بالتي هي أحسن حتي لا يحصل له النفور. وأشار الله تعالى بقوله: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لتكون الحجة قائمة عليه، فإن وفقه الله تعالى أقبل مطمئناً، وإن لم يقدر له توفيقه أدبر وقد قامت عليه حجة الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ ^(١). فمن أسعده الله تعالى بمرشد عالم بطريق الوصول ورزقه الله التسليم له كان ذلك أكبر دليل على سعادته في الدنيا والآخرة.

ولما كانت تلك الألفاظ كلها مترادفة، كان قولنا شريعة وطريقة بمعنى واحد، ولكن اصطلاح السلف الصالح على أن يضعوا لفظ (طريقة) علماً على تلاميذهم الذين تفرغوا لتلقي العلوم والعمل بها وأقبلوا بكليتهم على مجاهدة أنفسهم ليتجاوزوا تلك المسافات الشاسعة، وصار لفظ (الطريق) علماً على طائفة مخصوصة من تلاميذ العلماء الربانيين الذين يتلقون عنهم أسرارهم ويتشبهون بهم في

(١) سورة الأنعام آية ١٤٩.

أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم وأحوالهم ويسارعون في العمل بما يعلمونه منهم. ومن انتسب إلى الطريق ولم يكن مسترشداً على يد مرشد عالم رباني عامل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وآله ﷺ فليس من أهل الطريق ولكنه دعي. فالطريق إذن عمل بالعزائم في الشريعة المطهرة لأن الشريعة تجمع الرخص والعزائم.

ولفظ (الطريق) صار خاصاً بأهل العزائم، وهذا شيء معلوم من عهد رسول الله ﷺ وآله ﷺ، فإن كثيراً من أصحابه ﷺ وآله ﷺ عكفوا في مسجده ﷺ وآله ﷺ أخذين بالعزائم متفرغين لتلقي الأسرار المحمدية والأنوار القرآنية، وبهم رضي الله تبارك وتعالى عنهم اقتدي الخلف بعد السلف، فهم أئمة أهل الطريق وقادتهم.

ودام الأمر على هذا حتى كان الرجل إذا رغب فيما عند الله خرج سائحاً على وجهه يفتش على المرشد، فلا يقر له قراره إلا بعد أن يصل إليه، فإذا وصل إليه عكف عليه. ومن أحب أن يعلم سيرتهم فليقرأ تراجمهم رضي الله عنهم، فإنهم هجروا الأوطان وفارقوا الأهل والأولاد سعياً في طلب الرجل الدال على الله بقوله وعمله وحاله. ولا يخلو زمان من الرجال المحددين لسنن رسول الله ﷺ وآله ﷺ القائمين بحجة الله.

ولا خلاف بين الشريعة والطريقة لأن أهل الطريق اهتموا بعمل القلوب، لأن أساس الخير كله عمل القلوب. ولعلك تعلم أن النفاق قد يخفي على كثير من العلماء، فقد يكون الرجل منافقاً وهو يحسب نفسه من أكمل الموقنين وذلك لعدم عنايته بعمل القلوب واهتمامه بظاهره. وجلي أن القلب محل نظر الرب جل جلاله، ولذلك سارع رجال الطريق إلى صفاء قلوبهم وتخليتها من النجاسات لتخلص لهم

الإرادة ويكمل لهم القصد وتصح العزيمة حتي يبلغوا درجة فقه القلب. وكم من فقيه اللسان جهول القلب، وإنما هي مراقبة الله جل جلاله بالقلوب تكسبها خشية وخوفاً ورهبة وحجاً وثقة به جل جلاله وصبراً على مر قضاياه وقدره أو رضا عنه في كل شئونه سبحانه.

لعلك تسألني قائلاً: إنك تقول لا خلاف بين الشريعة والطريقة مع أنا نري الخلاف بين كثير من الناس، فتري أهل الطريق ينكرون على غيرهم، وغير أهل الطريق ينكرون على أهل الطريق إنكاراً مرّاً حتي يرموهم بالبدعة والضلالة والخروج عن الشرع. فأقول لك يا أخي:

لا يلزم من حصول الإنكار وجود ما ينكر عليه أو الاختلاف بين الشريعة والطريقة، ولكن ما نراه من الخلاف بين الناس في مثل هذا فهو الجهل بأصول الطريق ومآخذها، أما الإنكار من أهل الطريق على غيرهم فلم يكن ذلك من علمائهم ولكنه من بعض من يؤذيهم إنكار المنكرين، وإن كان ثم إنكار فهو على الشخص المنسوب للطريق الذي يخالف أحكام الشريعة مدعيّاً أن ذلك من الطريق وهو كاذب، لأن الطريق هو روح الشريعة والأخذ بعزائمها، وليس من أهل الطريق من خالف صريح السنة. ولجهل الناس صاروا ينكرون على الطريق إذا شاهدوا رجلاً من أهلها يعمل ما يخالف الشريعة، وكذلك إنكار أهل الطريق على العلماء لأنهم رأوا من يدعي العلم يعمل بغير علمه فالإنكار على عمل الأشخاص لا على الطريق.

والطريقة منهاج المخلصين، والحقيقة أن الشريعة اسم جامع للعزائم والرخص - قال تعالى: ﴿اعْتَدِي عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿٢﴾. فمن اعتدي على من اعتدي عليه عمل بالشرعية، ومن عفا وأصلح عمل بالشرعية - ولكن من عفا وأصلح تميز عن غيره لأخذه بالعزائم.

٨- رد الإمام على الإدعاء بأن أهل الطريق يحكمون الذوق والحال والوجد ولو خالفوا في ذلك الشرعية^(٣):

جهل بعض الناس ممن لا علم لهم بالطريق فظنوا أن أهل الطريق يحكمون الذوق والحال والوجد ولو خالفوا في ذلك الشرعية، ومن يعتقد ذلك في أهل الطريق فقد جهل مبادئهم، ومن جهل شيئاً عاداه، فإن الذوق: قيس من نور اليقين الذي فوق العلم، والحال: ظهور أنوار اليقين على السالك المخلص حتي يكون متجماً بأهل الخشية والخوف من الله تعالى والرغبة فيما عنده سبحانه، والوجد: حضور بالقلب والسر مع الرب جل جلاله.

ولا يمين الله بتلك المعاني على من خالفوا حكمه سبحانه، ومن حكم الذوق والحال والوجد وخضع لحكمها فقد عبد غير الله، وما عند الله لا ينال بمعصيته، فإذا انقاد أهل الطريق للحكم بذوقهم وحالهم ووجدهم فليس ذلك انقياداً لها وإنما هو انقياد لواجب الوقت الذي أوجبه الله على السالك مسارعة إلي تنفيذ حكم الله تعالى الذي تلقاه عن الله إما صريحاً من كتابه العزيز، أو من عمل وكلام رسول الله ﷺ وآله ﷺ وعمل أئمة المهدي من الصحابة والتابعين، أو استنباطاً من الكتاب

(١) سورة البقرة آية ١٩٤.

(٢) سورة الشورى آية ٤٠.

(٣) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ٨ ص ٩ (٢ شعبان ١٣٥٦ هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٩٣٧ م).

والسنة، فإذا اضطر إلى الحكم على أمر ولم يستتب له رفعه إلى أعلم منه، فإن خفي عليه نظر بعين المخافة من الله وفكر فيه بقلب ملؤه الخشية من الله، فإن ظهر فيه مصلحة وخير، حكم بإباحته، وإن ظهر له فيه مفسدة ومضرة، حكم بكراهته، فإن روح الشريعة تقضي أن كل ما هو خير مباح، فهم في ذوقهم وحالهم ووجدتهم مقهورون بحكم الله تعالى، وكل ذوق أو وجد أو حال يخالف حكم الله تعالى يفرون منه ويتبرأون منه.

ولعلك تنكر قولي: ((واجب الوقت)).. فأبين لك هذا الأمر: أخر رسول الله ﷺ وآله ﷺ صلاة العصر إلى الغروب في غزوة من الغزوات وقال:

(حبسونا عن الصلاة الوسطي مألأ الله قبورهم ناراً)^(١). وجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المسجد يذكر الصحابة بأمر فأخر صلاة العصر، فقال المؤذن: الصلاة يا أمير المؤمنين، فقال: نحن في صلاة. فقد يقتضي واجب الوقت طهارة القلب فيسارعون إلى طهارة القلب، فإن كل عمل لم يكن صادراً عن قلب.. مردود. وإن الله سبحانه قد أكرم أهل الطريق بما هو كمعجزات أنبياء الله السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وكيف يستجيب الله تعالى لمن لم يستجب له؟ أو يكرم بآياته من خالف حكمه؟ فأساس طريقهم رضي الله عنهم العمل بحكم الله تعالى ومخالفة كل من خالفه، حتى أنهم يخالفون كشفهم الصريح ويرجعون إلى حكم الله تعالى، وأئمتهم أصحاب رسول الله ﷺ وآله ﷺ. كان الرجل منهم رضي الله عنهم إذا حكم بحكم وظهر له حكم الله تعالى قال أخطأت ويرجع إلى الحق، وإنما أهل الطريق أتباع لأصحاب رسول الله ﷺ وآله ﷺ ومقتدون بهديهم

(١) الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن كثير في تفسيره.

رضي الله عنهم جميعاً. وكيف يتخيل متخيل أن قوماً أقبلوا على الله بالكلية يعتقدون أنهم غير معصومين يحكمون ذوقهم وحالهم ووجدتهم ويترون حكم الله تعالى؟ والحق فوق الخلق عند غيرهم.. فكيف عندهم؟ فهم مع الحق وإن شهدهم من جهل حالهم مخالفين، ولذلك فإنك تراهم يطيعون فقيراً مسكيناً وتذل له نفوسهم الكبيرة وتخشاها قلوبهم، ويبدلون له نفوسهم ونفائسهم، يعادون لأجله الملوك والجبابة ما ذلك إلا لأنهم أحبوا أهل الحق ولو كانوا أذلاء فقراء مهانين مردولين في أعين الناس، ولو أنهم لم يكن الحق مقصدهم الأول لما ذلوا أنفسهم العزيزة لفقر مسكين سمعوا منه الحكمة وفقهوا عنه العظة وعلموا منه الحشية من الله. وكم من سيد في قومه عزيز في سربه ذل لفقر مسكين اتخذه سيدياً وإماماً يخدم نعليه ويذل بين يديه ويسمع له ويطيع، مع أن الملوك تسترضيه فلا يرضي عنهم، ما ذلك إلا للحق سبحانه، فأهل الطريق رضي الله عنهم صغر في أعينهم ملوك الأرض ما داموا على غير الحق وعظم في أعينهم الفقير الذليل ما دام على الحق.

ولو قرأت تراجم من سادوا في عصورهم لرأيت أغلبهم من العبيد أو من الأذلاء والموالي أو من أهل المهن الدنيئة، بم عزوا وبم سادوا؟ بما أظهره الله على ألسنتهم من الحكمة، وبما وهبه لهم من الحب له وفيه سبحانه، وكيف لا؟ وقد ألقى الله عليهم محبة منه سبحانه بما وفقهم له من العمل بما علموا فصاروا عظماء حتي في قلوب العصاة والفسقة لما أظهره الله عليهم من أنوار محبته، فترى الفاسق الفاجر الجبار العنيد إذا رآهم يخشع قلبه ويتذلل أمامهم ويسألهم الدعاء له وهم في شظف العيش ورداءة الثياب وخشونة الظاهر، ولا تري أحداً يعاديهم إلا عليم اللسان جهول القلب أو معاند للحق خب لئيم لا يؤمن بيوم الحساب. وكفاه

شرفاً أن الله تعالى ألقى عليهم محبة منه سبحانه فأحبهم الأميون والعامة والصبيان والنساء، وهي سنة الله في أوليائه، ولعلك قرأت قوله تعالى مشنعا على أعدائه: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ (١)، ولعلك قرأت حديث البخاري في باب المجرعة عندما أخرج كفار قريش سيدنا أبا بكر رضي الله عنه وجاء ابن الدغنة ليمنعهم من إخراجهم فقالوا: إنا نخشي على نساءنا وصبياننا منه، واشترطوا عليه أن يمنعه عن قراءة القرآن بصوته خارج بيته لأن النساء كن يجمعن عليه ويكيبن ببكائه ويجمعن عليه الصبيان والبسطاء ويكون معه عندما يرتل القرآن باكياً، ذلك لسلامة قلوب العامة وصفائهم من درن الحظوظ والأهواء وحب الدنيا.

٩- رد الإمام على من يقولون إن الشريعة والحقيقة ليست طريقاً واحداً:

أدعاء الطريق وتأويلاتهم:

إن الأصول الشرعية يجب على السالك في طريق الله أن يرهاها حق رعايتها فلا يجيد عنها قيد شعرة، والسلوك إلى الله تعالى لا يمكن أن يكون من غير الطريق الشرعي. ولما كانت هذه النقطة من أدق النقاط وأصعبها فهمًا على عقول العامة - خصوصاً في هذا الزمان المظلم الذي تفشت فيه البدع واشتدت وطأة المضلين والجاهلين - فقد رأينا أن نعرض الكلام فيها ونفصل ما خفي منها حتي تستبين الحجة فيها وتتضح المحجة، وينجلي ذلك الستار الموهوم الذي أسدله أدعياء المتصوفة وقاطعوا طريق الله تعالى على أنفسهم لتضليل البسطاء وإغواء الأبرياء والتحایل على العيش من وراء هذا الافتراء والبهتان.

(١) سورة هود آية ٢٧.

يحاول أولئك القوم أن يفهموا السذج من الناس أن الشريعة والحقيقة مختلفان متناقضتان في لفظهما وجوهرهما، وأنهما طريقان متباينان لكل طريق منهما أصول وقوانين، وأن كلا منهما انفردت بأهلها ومعتنقيها عن الأخرى، ولذلك يهتمون على كل من سار في طريق الحقيقة أن يترك كل ما يتعلق بالشريعة لأنه يسير بزعمهم في طريق أعلي وأسمى من تلك الطريق، ولا يجمل بمن رقي أن يتزل، ولا بمن تغلغل في بطن الدار وجالس أهلها أن يعود للوقوف على بابها.

الرد على هذه التأويلات:

وجهل أولئك المغرورون أن الشريعة والحقيقة طريق واحد بدايته الأولي ونهايته الثانية، وأن الحقيقة من الشريعة كالقصر المشيد العالي من الأساس المتمكن في أعماق الأرض، فلو لم يبق هذا الأساس ويحكم بناؤه لما قام ذلك القصر ولما دام بقاؤه. وإنه وإن كانت الحقيقة بيتاً والشريعة بابه، فإن البيوت لا تؤتي من غير أبوابها، وإن الذي يدخل البيت من غير الباب إنما هو لص مريب لا ينظر إليه بعين الثقة ولا الاحترام.

ولقد بين العلماء العارفون بالله وهن تلك الدعاوي الباطلة التي يضل بها أولئك الأدعياء عقول الناس، يقذفون بهم في هوة مخالفة الشريعة والخروج على أوامرها، حتي إذا ما انقضت تلك الحياة الدنيا - وسرعان ما تنقضي - وجاء يوم الحساب والعقاب: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ {١٦٦} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١﴾.

(١) سورة البقرة آية ١٦٦، ١٦٧

مكائد أدعياء التصوف وحيلهم:

وإليك بعضاً من مكائدهم وحيلهم التي ينصبون شراكها لإيقاع البسطاء:

أول ما يبدو لك من أحوالهم: جرأة على الشريعة، وسوء أدب مع الله تعالى وأمن واستهتار ينبئك بأن نفوسهم لقسة لم تتطهر من رجس الشهوات ولم يوجد فيها القابل الذي يقبل الحقائق ويرضخ لها، وإذا ما أنكر عليهم منكر بعض أمورهم المخالفة للشرع الشريف قالوا كذباً إن حرمة ذلك في العلم الظاهر، وإنا أصحاب العلم الباطن وهو في علمنا حلال، وإن الناس يأخذون من الكتاب والسنة، أما نحن فنتلقي من صاحبهما محمد ﷺ وآله، فإن أشكل علينا ما نتلقاه منه رجعنا إلى الله تعالى بالذات وإنا بالخلوة، وهمة شيخنا نصل إلى الله فتكشف لنا العلوم فلا نحتاج إلى كتاب وسنة، إن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا برفض العلم الظاهر والشرعي، وإنا لو كنا على الباطل ما حصلت لنا تلك الكرامات العلية والأحوال السنية من مشاهدة الأنوار وكشف الأسرار.

الرد على هذه المكائد والحيل:

كل ذلك ونحوه أكاذيب وترهات بل هو إلحاد وضلال، إذ فيه إزدراء بالشرعية السماح وإبطال لحكمة تشريعها، وإن الشيطان لم ينل من المسلمين ما ناله الفساق من المدعين التصوف بالباطل، فإن الله تعالى يقول: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (١)، والتقوي هي العمل بعلم الشريعة لأن الأخذ بالعزيمة من شأن الأتقياء، ومن خالف الشريعة صار غويّاً لا تقياً، ومثله يعلمه الشيطان الطمع في الأموال وإباحة الأعراض والكيد لمخالفه والمنكرين عليه.

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢.

الذين يحصلون علم الشريعة ولا يعملون به:

كما أن الذين يحصلون علم الشريعة ولا يعملون به هم شر الخلق، لأن العالم إذا استعان بعلمه على نيل الدنيا من الملوك والأمراء — بل ومن المتسلطين من غير المسلمين — بأن يواليهم ويودهم ويتردد عليهم، سلب الله منه بركة العلم وكان العلم حجة عليه يوم القيامة، روي الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي بسنده في كتابه (جامع بيان العلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أول الناس يقضي فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد في سبيل الله فأتي به ربه فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتي استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فحسب على وجهه حتي ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما فعلت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن، قال: كذبت ولكن ليقال هو قاريء وقد قيل، ثم أمر به فحسب على وجهه حتي ألقي في النار. ورجل أوسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما فعلت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن أنفق فيه إلا أنفقت فيه، قال: كذبت ولكن ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتي ألقي في النار) (١). هذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه ولا عمله وجه الله، وقد قيل في الرياء أنه الشرك الأصغر. (٢)

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.

(٢) كتاب ((الطريق إلى الله)) للإمام أبي العزائم.

الشريعة والحقيقة:

يقول الإمام عليه السلام: ((لا خلاف بين الشريعة والحقيقة، فإن الشريعة حقيقة والحقيقة شريعة. ولكن الشريعة في الاصطلاح أمر بالقيام بواجب العبودية، والحقيقة شهود معاني الربوبية. ولا يكون المسلم مسلماً كاملاً إلا إذا وفقه الله فالتزم بالعبودية وتفضل الله عليه فأشهدته معاني الربوبية فشاهد في الشريعة أسرار حكيم وفي الحقيقة أنوار قادر. ومن أحاط بالشريعة علماً والتزم بالعبودية ولم يشاهد معاني صفات الربوبية فغير مقبول، وكل من شاهد معاني صفات الربوبية ولم يتقيد بالشريعة لم يفز بمحصول.

فالشريعة أنزلها الله تعالى للقيام بما أمر.. والحقيقة لشهود ما قضي وقدر وهي سر تصريف الحق لما أراد ودبر وأخفي وأظهر، والشريعة أن نعبد سبحانه... والحقيقة أن نشهده جل جلاله، وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حفظ للشريعة وقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إقرار بالحقيقة.

قلت لك الشريعة حقيقة والحقيقة شريعة، لأن الشريعة وجبت بأمره سبحانه فهي حقيقة، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث أن العلم به سبحانه وجب بأمره. ولم تكن السياحة في السلف الصالح إلا لطلب العارفين بالله من أهل الحقيقة، لأن ما من بلد من بلاد المسلمين إلا وفيها علماء للشريعة لا يحتاج طالب الأحكام إلي غيرهم، وكان السائحون من كمل العلماء بالشريعة، قال رسول الله ﷺ وآله: (الشريعة أقوال والطريقة أفعال والحقيقة أحوال)^(١). وإنما بينت لك تلك

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء: [الشريعة أقوال والطريقة أفعال والحقيقة حالي والمعرفة رأس مالي] لم أر من ذكره، فضلاً عن بيان حاله، وذكر بعضهم أنه رآه في كتب بعض الصوفية فليراجع. ((كشف الخفاء حديث (١٥٣٢)).

الألفاظ الثلاث ليتضح لك اصطلاح القوم فيها ولتعلم أنه لا بد للسالك من العلم بالشرعية أولاً والعمل بما علم، ولديها يكون من السالكين على الطريق المستقيم. ثم يجتهد أن يطلب العارف الرباني حتي يبذل ما في وسعه، فإن فاز به فهي السعادة وإلا جاهد نفسه على العمل بما علم حتي يورثه الله علم ما لم يعلم وهي الحقيقة التي تنبلج بها آيات الحق جليلة في نفسه وفي الآفاق ويشهده الله جل جلاله أنواره المضيفة في الكائنات التي قام بها كل شيء، وبذلك يكون مؤمناً كاملاً في مزيد من فضل الله، يتجدد له الخير بتجدد أنفاسه.

وما من سالك أقامه الله في مقام مشاهدة معاني صفات الربوبية إلا وخرق العادة من نفسه أو خرقت له العادة، وهم أنواع:

- (١) منهم ورثة الأنبياء وهم أصحاب الأحوال العالية والكرامات الظاهرة.
- (٢) منهم وارث رسول الله ﷺ وآله ﷺ في سر من أسرارهِ صلوات الله وسلامه عليه إذ لا يمكن لأي مخلوق أن يرث المقام المحمدي إلا بقدر ما.
- (٣) وارث رسول الله ﷺ وآله ﷺ خفي عن الخلق مجهول عندهم لا يعرفه إلا الأفراد المحبوبون لله لأنه يقهر حاله ووجده وذوقه، وهو الإمام المقتدي به، صورة رسول الله ﷺ وآله ﷺ، صغرت في عينه الكرامات واضمحلت الآيات، وهو الختم المحمل بجمال الخلقة المتحقق بميراث: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١)، وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَدْعُ عِبَادِي إِلَى الْإِرْبَابِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، فهو العبد المتكامل بحلل العبادة الخالصة، وأما

(١) سورة الأنعام آية ٧٩.

(٢) سورة الشعراء آية ٧٧.

غيره ممن ورثوا أسرار الأنبياء السابقين صلوات الله على نبينا وعليهم، فهم أصحاب الأحوال، وبينهم واث رسول الله ﷺ وآله ﷺ كما بين الشمس ضحوة وبين كوكب من الكواكب، وأن الله تعالى يجدد لهذه الأمة أمر دينها على لسان ويدي وارث رسول الله ﷺ وآله ﷺ في كل زمان عند المقتضي.

وقد تغلب مشاهد صفات الربوبية السالك فتخرجه عن الاعتدال فيستغرق في شهود قادر ويحتجب عن شهود حكيم فهي صولة لا تدوم إلا ريثما تتجلي الآيات ويتداركه الله تعالى بمرشد كامل عناية به من الله تعالى أو يسلب منه القوة التي بها التكليف فيكون هائماً على وجهه روحانياً لا يشعر بلوازم بشريته، وهؤلاء ليسوا أئمة للمتقين، ومن فضل الله تعالى عليهم أن يضع لهم في قلوب عباده عاطفة ورحمة، وهؤلاء لهم العذر، فإن ما به التكليف فقد منهم، وهم الذين يتزل الله بهم الأمطار ويوسع بهم الأرزاق لأنهم الفقراء إلى الله، والإحسان إليهم يدفع الله به البلاء عن عباده ويهب به الخير لأنهم مستغرقون في شهود صفات الربوبية فانون عن مقتضيات البشرية، قال بعضهم:

شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

تركت للناس دنياهم ودينهم

وفي الأثر: بفقرائكم ترزقون وترحمون.

ظهر لك الفرق بين الشريعة والحقيقة في اصطلاحنا، والأمر سهل عليك، وما عليك إلا أن تسارع إلى تحصيل ما لا بد لك منه من العلم بأحكام الله وأيام الله، ثم تسارع إلى العمل به، ولديها يورثك الله تعالى علم ما لم تعلم على لسان من يشاء من أحبابه، أو بنور يجعله الله في قلبك من قبس مشكاة الأنوار)).

١٠ - أخذ العهد أو البيعة:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤) وقال ﷺ وآله: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً... الحديث) (٥) وقال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) (٦).

فالعهد أولاً أخذه الله تعالى على رسله الكرام بأن يكونوا أمة لحبيه ومصطفاه إن أدرك زمانه أحدهم، وأخذت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم العهد لله على أممهم، وقام العلماء الربانيون ورثة الأنبياء بأخذ العهد لله تعالى بالنيابة عن رسول الله ﷺ وآله على أهل عصرهم في كل زمان بأن يبينوا لهم ما أوجبه الله تعالى عليهم وما رغبهم فيه وما كان عليه رسول الله ﷺ وآله وأئمة الهدى، ثم يأخذون عليهم العهد أن يأتروا بما أمرهم الله ورسوله وينتهوا عما نهي الله ورسوله عنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (٧). وكما أن الله أخذ عليهم العهد أن يقوموا بالعمل بوصاياه سبحانه، فقد

(١) سورة المؤمنون آية ٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٧.

(٣) سورة الإسراء آية ٣٤.

(٤) سورة الفتح آية ١٠.

(٥) رواه البخاري.

(٦) سورة الفتح آية ١٨.

(٧) سورة التوبة آية ١١١.

ضمن لهم فضلاً منه وكرماً أن يدخلهم الجنة ويشرهم بأن يفي لهم بعهد سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (١).

وفي تلك الآية الشريفة سر غامض تلوح أنواره لمن انتشل من أحوال التوحيد إلى فضاء التزيه والتفريد بعد التزكية والتجريد، وأشرقت أنوار حضرة الرب العلي الكبير على حضرة العبد الذي واجه الرب جل جلاله فأشهدده معاني ربوبيته فتحقق بالتمكين بالقيام بحقوق العبودية، فكان الرب جل جلاله مع العبد والعبد المضطر مع الرب معية جعلت العبد متحدًا مع ربه جل جلاله فيما يريد بمحو مراد العبد في مراد الرب وهمّ العبد في استجلاب رضاء الرب جل جلاله، وبذلك تقوي الرهبة والرغبة من عظمة العظيم وفي الفضل العظيم من الله تعالى. ويشتد الخوف من مقام الرب جل جلاله والطمع في عفوه ومغفرته، فتكون معاني الربوبية معالم بين عيني العبد فلا يري شيئاً إلا ويرى أنوار الربوبية قبله وفيه وبعده، وبذلك يكون ربانياً يفقه عن الله ويتلقى بسرّه عن رسول الله، ويكون له وجود عيني بالله تعالى ثابت بإثبات الله له ظاهر بإظهار الله له عامل في محاب الله ومراضيه بتوفيق الله وهدايته، فيكون له من الله الفضل العظيم وعليه الواجب المقدس الذي هو حكمة إيجاد له سبحانه وتعالى وسر إمداده منه سبحانه وتعالى، ولذلك فإنه سبحانه بعد أن قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: ﴿وَأَيَّيَ فَاَرْهَبُونَ﴾، لأن هذا الخطاب المقدس ربما أشهد السالك في مقام فرقه بعد الجمع مشهدًا يجعل رغبته ورجاءه وطمعه وأنسه وشهوده سواغ النعماء وجميل الآلاء وتسخير كل شيء هو في الملك

(١) سورة البقرة آية ٤٠.

والملكوت يقوي فيستر عنه مشاهد المنة وبوارق العظمة والعزة والكبرياء، فربما يأنس بمشهد دون مشهد، فأشار سبحانه بقوله:

(وَأَيَّيَ فَارْهُبُونِ) إلا أن مقام العبادة أرقى من مقامات العبادة والعبودية. وإنما الأحوال نتائج الشهود، والشهود نتائج المقامات.. فمن غلب عليه مقامه قهر حاله، ومقام الرهبة أعلي المقامات لأنه من علم آيات عظيم كبير متعال على قادر منان. وكم من سالك وقف عند مشاهد الرغبة والرجاء والطمع ولم يتجاوزها إلى مقامات التمكين وحق اليقين، فتاه شاطحاً، فيتداركه الرب جل جلاله بنعمة منه والله أرحم بالسالكين من أنفسهم بأنفسهم ورسوله ﷺ وآله ﷺ أولي بالمؤمنين من أنفسهم. ولتلك الآية الشريفة من غوامض الأسرار مما تكاشف به النفوس الطاهرة قيس من مشكاة الأنوار تواجه به السرائر من أنوار الكوكب الدرى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

كيفية أخذ العهد:

لما كان العلماء الربانيون ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكان لابد من تجديد عري الإيمان لأن الإيمان يخلق كما يخلق الثوب وتخفي معالمه ولكن الله سبحانه وتعالى يجدده على السنة العارفين به، ولما كان المرشد خليفة رسول الله ﷺ وآله ﷺ في بيان شعب الإيمان وتفصيل ما أجمل من السنن وتوضيح ما أجم منها وبيان سبل الله وكان عليه بعد أن يعلم تلاميذه ما يجب عليهم أن يعاهدوا بالنيابة عن رسول الله ﷺ وآله ﷺ ويوثقهم له صلوات الله وسلامه عليه مبيناً لهم أن يده التي يضعها على أيديهم هي يد رسول الله ﷺ وآله ﷺ حتى يكون صورة كاملة لرسول الله ﷺ وآله ﷺ.. فاصطلح أهل الطريق رضي الله عنهم أن يبتدئوا

مع المرید بتعلیم العلم الواجب علی المرید فی الوقت من علوم المعرفة والأخلاق والعبادات والمعاملات وآداب رسول الله ﷺ وآله ﷺ، ثم یواثقونه بعد ذلك علی أن یمعل بما علم بقدر استطاعته، وینتهي عما نهي عنه الله جملة واحدة إلا ما أكره علیه كما یبینونه له، فیبايعونه البيعة الكاملة علی أن لا یشارك بالله شيئاً وأن یقیم الصلاة ویؤتی الزكاة ویصوم رمضان ویحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأن یجتنب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن یجاهد نفسه وهو فی ذات الله، ویبینون له أن الله اشتري من المؤمنین أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة... الآية، هذا سر العهد عندهم.

ولا ینبغي أن یعاهد المرید إلا عارفاً ربانياً یصح أن یكون صورة كاملة لرسول الله ﷺ وآله ﷺ بحسب زمانه لا بحسب المعانی الحمديّة الكاملة^(١).

وكانت البيعة أيام الإمام عليه السلام تجری فی خلوة لا یكون فیها غریب مستنداً فی ذلك إلی ما روي عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما وهما عند رسول الله ﷺ وآله ﷺ حين أمر بغلق الباب وقال: (ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله، فرفعوا أيديهم، ثم وضع رسول الله يده وقال: الحمد لله، اللهم إنك بعثني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: (أبشروا فإن الله قد غفر لكم)^(٢). وعن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأذمعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية فقال ألا تبایعون رسول الله - وكنا حدیثي عهد ببيعته - فقلنا قد بايعناك يا رسول الله، فبسطنا أيدينا وقلنا نبايعك يا رسول الله،

(١) مجلة المدينة المنورة: السنه ١٠ العدد ١٠ (٢٤ شعبان ١٣٥٦ هـ الموافق ٢٩ أكتوبر ١٩٣٧ م).

(٢) الإمام أحمد فی مسنده والطبرانی.

قال: (أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتقيموا الصلوات الخمس وتطيعوا الله ورسوله ولا تسألوا الناس إلخافاً)^(١).

١١ - الأخذ عليهم بكثرة الإشارات في كلامهم:

مأخذ ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وآله:

١- أما كتاب الله تعالى: فما ورد من الآيات المتشابهات كأوائل السور التي هي كلمات مركبة من حروف (جمعسق) (كهيعص) وغيرها. وفي كل كلمة من تلك الكلمات الكريمة علوم يشير إليها كل حرف من حروف الآية الكريمة يسجد العقل على أعتاب فنائها.

٢- أما مأخذه من السنة: فما روي أن رسول الله ﷺ وآله قال يوماً لأبي بكر: أتدري يوم يوم ؟ فقال أبو بكر: نعم يا رسول الله، لقد سألتني عن يوم المقادير. وقال له يوماً: يا أبا بكر أتدري ما أريد ؟ فقال أبو بكر: نعم يا رسول الله هو ذاك ذاك^(٢).

ولذلك حكمتان: لفظية ومعنوية:

١- أما الحكمة اللفظية: فالأن الألفاظ وضعت على محسوسات أو معقولات، وسر الربوبية غيب عن الأرواح فضلاً عن العقول والحس، ولم توضع ألفاظ تدل عليه، فضاقت الألفاظ عنه، ولا بد من ضبط تلك العلوم الإلهية لأهلها، فاصطلح كل واحد على إشارات خاصة يكشف غامضها لتلاميذه المخلصين.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

٢- أما الحكمة المعنوية: فلأن الحكمة العلية المشيرة إلى سر الربوبية أعز من أن تكون شريعة لكل وارد، وإنما يتلقاها الفرد عن الفرد، فإذا كتب أهل المقامات العلية والمواجيد الصادقة عن عين اليقين لنظرائهم وخواص تلاميذهم حجبوا الحكمة بالرموز كما تحجب النفائس المدفونة في الأرض بالرموز فلا يعلم محلها إلا من فك رمزها.

وإفشاء سر الربوبية كفر، جاء في الأثر:

(إن الله يكره أن تبينوا كل البيان). ومن قرأ كلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام لكميل عندما وصف الرجال وذكر قلتهم واشتاق إليهم يعلم أن أهل هذه الأسرار قليلون، وأن من بلغ مقامات المشاهدة لمعاني الربوبية وبينها كل البيان يخشي عليه من غيرة الله على سره فإن الله غيور. وللقوم في إخفاء أسرارهم بالرمز رحمة بمن لم يفقه أسرارهم، فإن سر الحكمة على عن مدرك العقل لأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق، ليس للعقل وإن كمل أن يدرك نفسه التي هي بين جنبيه، فكيف يكون له الإشراف على عوالم الملكوت الأعلى وحظائر القدس الأعلى؟ فلو بينوا تلك الأسرار بالعبارة الجلية وأنكرها أهل العقول، يكونون أنكروا على الحق.

التصوف عند الإمام أبي العزائم عليه السلام في ميزان البحوث العلمية^(١):

وفي رسالة للماجستير اهتمت بدراسة دور الإمام في التصوف الإسلامي، قال الباحث في ختام رسالته:

(١) كتاب (بحوث رسائل علمية عن الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم).

يمكننا القول في ضوء ما سبق: إن الإمام أبا العزائم عليه السلام حاول إعادة الدور الذي قام به بعض أسلافه من أئمة الصوفية في المجال الاجتماعي بالإضافة إلى المجال الديني الذي يتمثل في الدعوة إلى الله تعالى. وهو بذلك يخرج عن الإطار الذي ألفه الناس عن كثير من شيوخ الطرق الصوفية، فقد عرف عن شيوخ الطرق الصوفية في القرون الأخيرة عزلتهم عن المجتمع وقضاياه، والنظر إلى التصوف على أنه خرقة بالية يتدثر بها الشيخ أو المريد ليعرف عنه الزهد والورع، أو الإقامة الدائمة في المساجد أو الخروج إلى الصحراء دون الاهتمام بطلب الرزق أو المشاركة في أحداث المجتمع.

نتائج البحث:

١- تناول البحث موقف الإمام أبي العزائم عليه السلام من عصره، وقد انتهى إلى وجود دور فعال مؤثر قام به في المجالين السياسي والاجتماعي.

٢- كشف البحث عن وجود دور علمي ونظري للإمام أبي العزائم عليه السلام تجاه التصوف والطرق الصوفية. ويكمن الدور النظري في رصده لأهم البدع والانحرافات التي أخذها أدياء التصوف والطرق الصوفية، ويتمثل الدور العلمي في وضعه منهجاً علمياً تربوياً استطاع من خلاله تربية جيل من الأتباع والمريدين على الأصول الصحيحة للتصوف.

٣- دل البحث على وجود تجربة صوفية صادقة لدى الإمام أبي العزائم عليه السلام بعيدة كل البعد عن المغالاة في القول والعمل، وتأخذ بما يرشد إليه الشرع الشريف.

٤- توصل البحث إلي تمتع الإمام أبي العزائم عليه السلام بثقافة دينية وعلمية واسعة كانت من وراء نجاح دعوته إلي الله تعالى وتكوين أتباع ومريدين كانوا بعد ذلك الأسس والقواعد التي قامت عليها طريقته الصوفية الجديدة.

توصيات البحث:

وفي ضوء ما توصل إليه البحث من نتائج دلت على قيمة الدور الذي قام به الإمام أبو العزائم عليه السلام في التصوف، فإنه يجدر ذكر بعض التوصيات التي لاحظها البحث ويرى أنها جديدة بالذكر والإشادة، ومنها:

١- يوصي البحث شيوخ الطرق الصوفية وأتباعهم الأخذ بآراء الإمام أبي العزائم عليه السلام النقدية. ليتسني لهم تصحيح مسار التصوف المعاصر وتنقيته من البدع والانحرافات.

٢- كما يوصي البحث بالأخذ بمنهج الإمام أبي العزائم عليه السلام في الإصلاح عن طريق الاهتمام بشيوخ الطرق، ومراعاة الشروط التي عليها لائحة الطرق الصوفية في شيخ الطريقة العزمية، حتي يمكن تربية الأتباع والمريدين على أيدي أمينة.

٣- حث الإمام أبو العزائم عليه السلام أتباعه على طلب العلم وعدم اعتراضهم على علم من العلوم. وهذا ما يجب الأخذ به بين الطرق الصوفية اليوم لترتفع نسبة التعليم بين أبناء الطرق وشيوخها.

٤- وجه الإمام أبو العزائم عليه السلام إخوانه إلي العمل بآداب الأخوة الإسلامية والحرص على بقاء القلوب وصفائها حتي يظل الحب والإخلاص فيما بينهم، وهذا ما يفتقده كثير من أبناء الطرق الصوفية الآن، ولذا يجب الأخذ بآداب الأخوة التي بينها الإمام أبو العزائم عليه السلام لإخوانه.

٥- يوصي البحث المشيخة العامة للطرق الصوفية بمصر أن تنظر إلى المنهج الذي وضعه الإمام أبو العزائم عليه السلام لإصلاح أبناء الطرق الصوفية وشيوخها، وأن تحاول تطبيقه وممارسته.

الإمام أبو العزائم عليه السلام وعلم الفقه

الفقه: في اللغة هو الفهم والعلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾^(١) وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(٣)، وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٤). وتطلق عند الفقهاء على ما يتناول الأحكام الدينية جميعها، ويستوي في ذلك أحكام العقائد والتوحيد والصفات، والأحكام العملية أو أحكام الفروع.

وقد ندب الله إلى تعلمه ونشره بين الناس وذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٥). فقد جعل الله عز وجل ولاية الإنذار والدعوة للفقهاء، وهذه درجة الأنبياء تركوها ميراثاً للعلماء، كما قال ﷺ وآله: (العلماء ورثة الأنبياء)^(٦) ومشتملات الفقه الإسلامي تتناول حياة الفرد والجماعة والدولة، دينية كانت أم دنيوية، سواء أكانت من العقائد أم العبادات أم المعاملات أم الجنايات أم

(١) سورة هود آية ٩١.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩.

(٣) سورة الإسراء آية ٤٤.

(٤) سورة النساء آية ٧٨.

(٥) سورة التوبة آية ١٢٢.

(٦) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والبيهقي والحافظ الدمياطي في المتجر الرابع.

الأحوال الشخصية، أو ما يتعلق بكل ذلك من القضاء والشهادة والمرافعات، أم كانت متعلقة بالناحية الدستورية أو الاقتصادية أو الدولية، وما يتعلق بذلك من حرب وسلم ومعاهدات.

وقد تناول الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم رحمته الله الفقه من جميع جوانبه وعرضه بأسلوب ميسر خال من التعقيد يسهل على السالك المبتدي فهمه والعمل به، لقناعته رحمته الله أن الفقه الإسلامي من العلوم التي يجب على المسلم تحصيلها لتستقيم أعماله مع الشريعة فجعل له كتاباً خاصاً سماه: ((أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ وآله)) وأفرد لعلم الفقه ثلاثة أبواب:

الباب الأول: عرف فيه العقيدة، وبين فقه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.. وفضائل النطق واليقين بها.

الباب الثاني: وتضمن فقه العبادات، وهي النظم التي شرعها الله ليأخذ المسلم بها في نفسه في علاقته بربه، وسبيلها أداء الواجبات الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج، وقد جاءت فريضتا الصوم والحج في كتاب مستقل لكل منهما فضلاً عن المختصر الفقهي لهما في هذا الكتاب حيث جعل لفريضة الصيام كتاباً سماه ((صيام أهل المدينة المنورة)) وللحج كتاباً سماه ((هداية السالك إلى علم المناسك في الحج)).

والباب الثالث: فقد احتوي على فقه المعاملات، وهي أحكام الدين الإسلامي في المعاملات والأحوال الشخصية، كي يعلم المسلم أحكام دينه، فإنه إذا عرف أحكام دينه في البيع والشراء والزواج والعقود والتأمينات وغيرها واستبانت له سماحة الإسلام - مع دقته في التشريع وأحاطته بكل صغير وكبير مما يجري في

المعاملات بين طوائف البشر ومما يتضاءل بإزائه تشريع المشرعين وتقنين المقننين من غربيين وشرقيين - دعتهم عظمتهم وحملته دقته وسماحته إلى الأخذ به والتعويل عليه.

أما ما يتعلق بالوضع الدستوري في الفقه فقد وضع الإمام له باباً في كتابه ((النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين)) بين فيه علاقة الحاكم بالمحكوم، وتكلم عن الشورى، وتكلم عن الإمامة من الناحية الفقهية باعتبارها النظام السياسي في الإسلام والتي يقوم على أساسها سائر التنظيمات الأخرى الاجتماعية والمالية والاقتصادية والعسكرية فينبى الله وجوب تنصيب الإمام وصفته وطريقة اختياره والواجب عليه لكل فرد من أفراد المسلمين والواجب للإمام على كل فرد من أفراد المسلمين وعلي جماعتهم حتى يتضح للشباب المسلم - سواء من كان في حقل الدعوة منهم، أو في التنظيمات السرية التي أشاعت الرعب في البلاد أو في جماعات قتل المسلمين - أنه وقع ضحية فكر الخوارج وفقههم المتطرف الذي يحمل بذوره لشبابنا دعاة لهم قوة تعبير وحرارة تأثير.

وبالنسبة لما يتعلق بالعلاقات الدولية في الفقه الإسلامي فقد بينها الإمام في كتاب ((الجهاد)) وكتاب ((وسائل نيل المجد الإسلامي)) وذلك في السلم والحرب، ونظام الأسرى والمعاهدات.

أما ما يتعلق بأحكام الجنايات، كالسرقة والقذف وقطع الطريق والزنا والقتل العمد وشبه العمد والخطأ إلى غير ذلك، وما يتعلق بأحكام العقوبات من حد وتعذير وديات وقصاص، وما يتعلق بأحكام المرافعات ونظم الإجراءات القضائية، ووضع قواعد الدعوي وجعل البيئة على المدعي واليمين على من أنكر وما يشترط في الشهود وسماعهم.. وما يتعلق بالوضع الاقتصادي والمالي في الفقه الإسلامي

ووضع قواعد العدالة الاجتماعية، والاحتكار والعقود التي تؤثر على الاقتصاديات، ونظم الموارد المالية، كأحكام الغنائم والزكاة والكنوز، ونظام الخراج والعشر ونظام الفدية، كل ذلك من الآثار التي مازالت مخطوطة أو قيد البحث عنها وتجميعها تمهيداً لطبعها وإخراجها تبعاً بإذن الله تعالى.

نموذج لتبسيط الأمور الفقهية:

(١) ((فرائض وسنن الصلاة)) تناولها الإمام عليه السلام في عبارة قصيرة وبيان محكم وجيز فقال: الأفعال كلها فرائض في الصلاة إلا ثلاثة: رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام والجلوس في التشهد ولفتة السلام على الشمال. والأقوال كلها سنن إلا ثلاثة: تكبيرة الإحرام، والفاحة، والسلام على اليمين.

(٢) الحضور بعرفة: تحت هذا العنوان يقول الإمام عليه السلام: قلت: الحضور بعرفة، بدل: الوقوف بعرفة، لأن المراد وجود الحاج فوق عرفة سواء أكان جالساً أو مضطجعاً أو راكباً أو ماراً ما دام أمكنه الوجود على عرفة جزءاً من النهار يوم عرفة وجزءاً من الليل ليلة الأضحي.. والذي يعيننا هنا أن الإمام عليه السلام رأي أن كلمة ((الوقوف)) تعني حالة واحدة من الحالات عند الإنسان ووصف واحد من حركاته أما كلمة ((الحضور)) فهي أوسع في المعنى وتشمل جميع أحوال الإنسان من وقوف وجلوس واضطجاع وغيره. فآثر استخدام اللفظ المطلق على اللفظ المقيد وهذه رحابة في الفهم ورجاحة في الفقه لا يصل إليها إلا من نور الله قلبه وزكي نفسه وألهمه الرشد والصواب.

والإمام أبو العزائم عليه السلام بعد تناوله للفقہ الإسلامي من جميع أصوله وفروعه بين أن الفقه نوعان، فقال عليه السلام (١):

١- فقه اللسان: إنما يفقه اللسان من الأذن - أي عن طريق السماع بالتعليم في دور العلم ومجالس الفقه - ولا يلزم من فقه اللسان فقه القلب فكمن من فقيهه اللسان جهول القلب أو كفووره وإنما كان ذلك لأن الجوارح خلقها الله وأودع في كل عضو منها ما يقوم بما أعده له.. أهـ.

٢- فقه القلب: إن أوعية الحق وخزن الفقه هي القلوب، وتتلقى القلوب من علام الغيوب، وذلك لأن النفس الملكية شهدت الجمال، وفقّهت خطاب الجميل، فإذا تعلقت بالجسم لم تغب عن مشهد التحلي الأول، وحقائقه مشهودة لها مصورة في ذاتها، فإذا سمع الإنسان المتعلقة به النفس الملكية تعلقاً فعلياً حكمة من متكلم - ولو كان غير حكيم - أصغت إليه، فطابقت الحكمة حقيقة ما في ذات النفس فحن الإنسان إلى تلك الحقيقة وانفعلت قوي نفسه، وتأثرت أعضاؤه واشتاق إلى الحق، وخشع قلبه وامتألاً خشية ورهبة من ذات الله تعالى ورغبة في مرضاته، ولظهور أسرار الحق للنفس تتلقى الحكمة من الرب سبحانه مع أن المتكلم بها إنسان.

هذا ومتي حصل تعلق النفس الملكية فعلاً بالإنسان، قوي عامل العبرة واشتد باعث الفكرة، وحصل شهود المعية وأشرق أنوار الشهود، وتبدل الوجود المقيّد بالإيجاد والإمداد الرباني، ثم تألأت تلك الأنوار عن مجلي الذات، فحجب الإيجاد والإمداد بالوجود المطلق، وكان الإنسان مع الله والله معه، وبهذا يكون القلب بيت

(١) كتاب ((معارج المقربين)) للإمام أبي العزائم ص ٩٠، ٩١

قدسى، والجسم هيكّل الرب، كثر رموز بغاشية المباني، انطوت فيه أسرار المعاني، ويكون الإنسان العالم الحقيقي الذي انطوي فيه العالم الأكبر، شهد فيه أكمل مشاهد المقرّين، ومعاني تتّلات الصفات، وأسرار ظهور الأسماء، رفعت مكانته عن المقامات، وعزت مشاهدته عن العقول الكاملة، وهو الإنسان الكامل صورة الرحمن الكاملة، وكعبة الأرواح العاشقة، وترجمان حقائق الآيات، ومبعث أنوار الإشارات، محل نظر الله من عباده، والمحجوب لذاته العلية في دور التجليات المقيدة بالزمان والمكان، شمس تشرق في الملكوت الأعلى، كإشراق شمس السماء في على الملك الأدنى، بلغ به الرضا عن الله مبلغًا جعله آنسًا في كل حال، والتوكل على الله جعله مشغولًا بذات الله في كل حال، لا تشغله زهرة الفانية عن البهجة الباقية، ولا البهجة الباقية عن الولي المتعال، شهد الآخرة وهو في الدنيا فلم تخطر الدنيا له على قلب، ووقعت عين بصيرته على وجه ربه العلي فلم تر باصرتة أنوار الجنان، فهو مع الله في الكون الأول، وعند مليك مقتدر في الكون الثاني، والله عنده بالفناء عنهما، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وصلي الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الفقه في القلب نور من لدي الرب وليس في صحف تتلي لذي حجب
 فاستفت قلبك يا ذا القلب عن حكم الكون نور لذي قلب يشاهده
 قلب عن الحق يتلقي معارفه هو الإمام إمام الدين والقرب
 الكون نور لذي قلب يشاهده وراح صفو لمطلوب وذو حب

وهكذا يبين الإمام عليه السلام أن الفقيه هو من فقه قلبه عن الله، وانتفى الحجاب عن عين بصيرته، وجمع بين فقه اللسان وفقه القلب فأبصر الحكمة في كل شيء، والكون نور يشهده وراح يرتشف منها المسائل والدلائل فيصل المنفصل، ويقرب البعيد، ويكشف المحجوب، ويتحدث من صفحات الغيب سر قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(١) هذا هو الفقيه الذي يقوم به الدين ويحفظ به من تحريف الغالين وتأويل المبطلين.

(١) سورة البقرة آية ١٥١.

الإمام أبو العزائم عليه السلام والسماع

السماع معراج الأنبياء والأولياء، كما جاء في الأثر:

(معراج الروح السماع ومعراج القلب الصلاة) فالجهر والسماع آلات محركات لما في قلوب العشاق والعارفين لأههما طعام المحبين ومقوي الطالبين، حتي قال عليه السلام وآله عليه السلام : (من لم يتحرك عند السماع فليس مني)^(١) وإن منكر السماع لا يخلو من أحد أمور ثلاثة: إما جاهل بالسنن، أو مفتر على ما أباح الله تعالى من الأعمال بالأخبار، وإما جامد الطبع لا ذوق له، وقوله تعالى:

(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) ^(٢) المراد بالزيادة الصوت الحسن، وفي ((عوارف المعارف للسهرودي)) أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (كانت عندي جارية تسمعي فدخل رسول الله عليه السلام وآله عليه السلام وهي على حالتها، ثم دخل عمر عليه السلام، ففرت فضحك رسول الله عليه السلام وآله عليه السلام، قال عمر: ما يضحكك يا رسول الله ؟ فحدثه حديث الجارية، فقال: لا أبرح حتي أسمع ما سمع رسول الله عليه السلام وآله عليه السلام، فأمرها فأسمعتة).

السماع على ثلاثة أقسام: محرم، ومباح، ومندوب.

* فمن غلبت عليه شهواته وتكدرت بواطنه وفسدت مقاصده فلا يحرك السماع إلا ما هو الغالب عليه من الصفات المذمومة، فالسماع في حقه حرام.

^(١) (روى الحافظ أبو نعيم عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه وصف أصحاب رسول الله عليه السلام وآله عليه السلام فقال كانوا إذا ذكروا الله تعالى مادوا — تمايلوا كما تميد الأشجار في اليوم الشديد الريح.

^(٢) (سورة فاطر آية ١)

* ومن تحرك في قلبه بالسماع محبة زوجته، أو تذكر به غائباً أو ميتاً فيثير به حزنه فيستريح بما يسمعه فالسماع له مباح.

* ومن غلب عليه حب الله والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الأشواق إلى الله، واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية والكرامات السنية والمواهب الإلهية فالسماع له وفي حقه مندوب بل واجب، فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب في صحائف الأبرار، وسماع الصوفية من هذا القبيل وهو ممدوح ومحمود عند العالم النحرير.

والسماع عند الإمام المجدد أبي العزائم عليه السلام من النوع الثالث ؛ الناتج عن إيمان النظر في الآيات وشهود تجليات جمال الحق في الخلق عند سماع آيات الحق تتلي سر قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ { ١٧ } الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ^(٢) وقوله سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ^(٣).

روي البخاري وأبو داود والترمذي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ وآله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله أو ينافح - أي يرد عنه هجاء الكفار بالشعر ويباهيهم به - ويقول

^(١) سورة الزمر آية ١٧، ١٨

^(٢) سورة ق آية ٣٧

^(٣) سورة المزمل آية ٤

رسول الله ﷺ وآله: إن الله يؤيد حسناً بروح القدس ما نافع أو فاجر عن رسول الله ﷺ وآله.

وعندما تحدث الإمام عليه السلام عن السماع قال^(١):

((إن السماع من أكمل أنواع تزكية النفوس خصوصاً مواجيد أهل الصدق ممن وقع بهم العلم على عين اليقين وهجمت عليهم صولة الحق فأفنتهم عنهم فيترنمون بألحان شجية، وتلك المواجيد خصوصاً لأهل النفوس الطاهرة الطيبة نوع من أنواع الرياضة والتزكية، فإذا صغت الآذان إلى تلك المعاني القدسية بالألحان الشجية زكت النفس وأقبلت وأحبت من تتغني به عن وجد وحال، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾^(٣)، وقال جل جلاله: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ { ١٧ } الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾^(٦)، وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(٧)، وفي الأثر: (الصوت الحسن نفس من نفس الرحمن).

^(١) كتاب من علوم المضمون للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم تحت الطبع

^(٢) سورة النساء آية ٤٦

^(٣) سورة المائدة آية ١٠٨

^(٤) سورة التغابن آية ١٦

^(٥) سورة الزمر آية ١٧، ١٨

^(٦) سورة الأعراف آية ٢٠٤

^(٧) سورة المائدة آية ٨٣

معلوم أن الأسرار الإلهية المتعلقة بكمالات الأسماء والصفات لا طريق لها إلا السماع، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١)، فجعل الله تعالى الأبصار للإنسان ليشهد الكائنات وبها تظهر الآيات للأفئدة، وخلق الله له السمع ليصغي إلي كلام الله تعالى وبيان رسله عليهم الصلاة والسلام فيوصل تلك الأنوار إلي الأفئدة فتفقه أسرار الله وتعتقد على الحق.

وقبل أن أتكلم على السماع عند القوم أبين الخلاف فيه، وقد وضحت جملاً منه في كتاب ((معارج المقربين)) ولما كانت النفوس قبل تركيتها وتطهيرها من لقسها ينبغي أن يكون لسماعها رنين سياط الإنذار والتخويف حتي تطهر من طمع في الدنيا وغرور بها، ثم يترقي السماع إلي سماع البشائر بالملأذ الباقية والنعيم الأبدي حتي تزكو من الإحلال إلي الأرض، ثم يكون السماع بنغمات الرغبة والرهبة ليصفو جوهر النفس صفاء يجعله مستعداً لتلقي العلوم النافعة، ثم يكون السماع بسماع الحكمة الغالية لاستجلاء تلك الحقائق في جوهر النفس فتنجذب بالكلية إلي عالمها الأعلى وتفارق مفارقتها وتري الدنيا كما وصفها الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢) والمتاع هو سقط البيت الذي لا ينتفع به، وكفاها تعاسة أن الله سماها دنيا لأنها مأخوذة من الدون، فإذا صفا جوهر العقل وقبل العلوم النافعة بطريق السماع واتصل بعالمه الأعلى بحسب الحقائق العلمية التي نقشته عليه، انفتق رتق القلب فصغت أذن القلب إلي نغمات الكائنات

^(١) سورة النحل أية ٧٨

^(٢) سورة آل عمران أية ١٨٥

وفقّهت تسبيح كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١) ولللكائنات نعمات تبتهج بها الأرواح متى صغي إليها القلب اطمأن بمقلبه سبحانه، ومتى اتصلت النفس بعالمها الأعلى التي هي منه سكنت إلى نفسها سبحانه، وإذا اطمأن القلب بمقلبه وسكنت النفس لنفسها كان السماع معراجاً للوصول وبراقاً للقبول يحصل به للنفس سياحتها الروحانية في ملكوت الله الأعلى وقد شرحت لك السياحة الروحانية في كتاب ((الفرقة الناجية)). ومتى ساحت النفس في ملكوت الله الأعلى تجافت عن دار الغرور واتصلت بالنور فحصل لها الحضور، كل ذلك بسر السماع.

وقد يخطيء بعض الناس فيذمون السماع. نعم، ولكن يلزم أن يكون ذمه من الجهة التي يذم منها، فإن أهل النفوس النجسة التي لم تنزك ولم تخرج من مقتضيات عناصرها إذا سمعوا الحكمة جذبتهم حظوظهم إلى ما لا يحمد، فمنهم من يعينه السماع على عمل المحرم كالزنا وشرب الخمر والقتل وبذل الأموال في غير الوجهة الشرعية وإثارة العواطف وفساد الأخلاق، وهذا السماع محرم شرعاً ويجب أن يحجر عليه، ومن السماع ما هو أشد حرمة من هذا، وذلك أن يجلس أهل النفوس النجسة في مجالس أهل السماع مع العلماء الربانيين في خلوتهم أو تؤخذ إشارات الرجال وأسرارهم فتنشر بين العامة ممن لم يحصلوا العلوم الشرعية اللازمة لهم من التوحيد والفقه وعلم الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والإيمان بيوم الحساب ومعرفة الأسباب التي وضعها الله لعمار الكون وربط بعضه ببعض، وقد جعلها دلائل وحدانيته براهين على حكمته وقدرته، فإن أمثال هؤلاء إذا جلسوا في تلك

^(١) سورة الإسراء آية ٤٤

المجالس أو سمعوا هذه الحكمة أخرجتهم عن الاعتدال فضلوا وأضلوا.. نسأل الله السلامة.

إن مثل هذا السماع من أكبر الكبائر شرعاً، لأن الشرع ينظر إلي نتائج الأعمال، وهذا السماع ربما أنتج القول بالحلول، أو أنتج ترك الأعمال الشرعية، أو أنتج محو الأحكام وعدم الأسباب، وربما عمت البلية فادعي تلك المعاني أهل الجهالة ممن لم يعرفوا أنفسهم، فضلاً عن معرفة الله تعالى وأيامه وأحكامه، وجعلوا تلك الأسرار العلية مصادد للدنيا بالدين، قال ﷺ وآله:

(ملعون ملعون.. قالوا: من يا رسول الله ؟ قال ﷺ وآله: من طلب الدنيا بعمل الآخرة)^(١) وقال ﷺ وآله: (تعس عبد الدرهم والدنيا تعس وانتكس.. وإذا شيك فلا انتقش)^(٢) وقال تعالى: (ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون)^(٣).

وإني لا أعذر رجلا نشر الحكمة بين العامة فأفسد عقولهم وأعذر العامة، ولا ألوم من بخل بالحكمة غير عليها أن يتناولها غير أهلها، وكيف توضع الجواهر تحت أقدام الخنازير؟.

وعلي ذلك فالعاقل لابد وأن ينظر قبل الحكم إلي نتائج العمل، فإذا أنتج خيراً فخير، وإن أنتج شراً فهو محرم لأنه أنتج شراً.

^١ (الطبراني في الكبير بلفظ من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه، ومحق ذكره، وأثبت اسمه في أهل النار

^٢ (البخاري وابن ماجه

^٣ (سورة البقرة

وكيف يحرم السماع، وإنما تأسست الأديان على السماع، وما من نبي بعثه الله تعالى إلا وأنزل عليه ما يتلوه على قومه، وما من عالم بين قومه إلا وقام يبين للناس ما نزل على رسله عليهم الصلاة والسلام)).

وكعاداته عليه السلام يجعل الحديث عن موضوع واحد في أكثر من كتاب وحسب ما يقتضيه مقام المخاطب، فتراه عليه السلام في كتاب ((معارج المقربين)) يتحدث أيضاً عن السماع من ناحية الحكمة الإلهية وأنواعها وكيفية تلقيها والعمل بها فيقول:

الحكمة الإلهية إما روحانية أو جسمانية:

فالحكمة الجسمانية نوعان: أحكام شرعية علمية عملية، وأحكام صحية تتعلق بدوام صحة الجسم، وحفظ الصحة عليه، وهي الحكمة التي يجب التقليد فيها للأئمة الصادقين وللمحبرين العالمين، ويجب تلقيها علماً وشهودها عملاً، والسماع فيها واجب شرعاً، لأن تعليمها فرض عين في أحكام الشرع في أصول الدين وفروعه التي لا بد منها عند وجوبها على العامل، والتوسع في جميع الأصول والفروع فرض كفاية على الأمة.

والحكمة الروحانية نوعان: الأول: عقائد لا بد منها للمسلم إجمالاً، وأخلاق لا بد منها لحسن المعاملة الضرورية، والثاني: تفصيل العقيدة، وعلم ما يمكن أن يتلقاه المؤمن الكامل الإيمان من أسرار الحكمة الإلهية من الكمالات الذاتية، والجماليات والجلالات، وسر تصريف القدرة وعجائب تجليها وكشف غوامض الحكمة وشهود معانيها، وعلم النفس وأنواعها وأمراضها ودوائها وتصفياتها من الحظوظ والأهواء، وعلم أسرار الكائنات ومراتبها، وذوق أسرار التجلي والتزييه والتشبيه، والتدلي والدنو والتزول والزهد، والتوكل والتفويض، والرغبة والرغبة،

والخوف والخشية، والطمع والرجاء، والفناء والبقاء، والجمع والفرق، والعلم بالله
والمعرفة، والكشف والشهود، وأسرار البرزخ والقيامة، والمعية والعندية، وما يلزم
ذلك من أسرار الحكمة التي لا تتلقي بالعبارة ولا بالإشارة، والتشبيه بالمعاني،
والتخلق بالأخلاق الإلهية.

كل ذلك من الحكمة الروحانية التي لا ينبغي التقليد فيها إلا بعد إشراق أنوارها
على القلب المطمئن، حتي تنبعث تلك الأنوار على جميع الأعضاء العاملة، فيقوم كل
عضو بكمال وظيفته، ولديها يتلقي القلب عن الرب، فينجذب إلي عوالم
الروحانيين ويذوق من كل الموجودات ذوقاً روحانياً بحسب مأخذ كل عضو.

ولما كانت معاني الألوهية والكمالات الذاتية لا ظهور لها في عالم الحس
والخيال، كانت الحكمة الإلهية تتلقي بالسمع، وكلما كانت إشارة صفت الروح
وتقوت، وكان لها السلطان الأكبر على الإنسان فجذبته إليها، وتظهر من كل
مقتضيات رتبته، وتسلي عن لوازم مكانته، واشتاق إلي عوالم الملكوت، حتي يتم
الشبه، ولديها يسكن إلي الله فيحركه الله، وهو الساكن المحرك، ويفني في الله فيبعثه
الله، وهو الميت الحي، ويغيب عن نفسه بالله، فيظهره الله مجملاً لخلقه، ويعبد الله
خالصاً، فيسخر له الله جميع خلقه.

وفي هذا المقام يكون السماع فرض عين على هذا الواجد، لأنه يسمع بسمع
الروح، ويفقه عن الله، وذلك لأن الحكمة الإلهية لما كانت ألفاظاً مقربة للمعاني،
وكان مدلول الألفاظ محسوساً أو متخيلاً، ومعاني الربوبية فوق الحس والخيال،
كانت الألفاظ المسموعة للمتمكن دالة على حقائق المعاني المرادة للحكيم بسماعها
مزيد من الله لمن زكت نفسه وتهدبت. ولذلك كان للوجود نغمات وللأوتار

نغمات دالة على أسرار الحكمة، تسكر بها الأرواح، ألم تر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(١). إن كل شيء دال على معاني الظاهر، مسبِّحاً جنبه العلي عن الإدراك بالتحديد.

وكثيراً ما يتغنى الإمام أبو العزائم عليه السلام بمواجيده النظمية فتراه يجمع فيها بين مراتب السماع ودرجاته وأطواره المختلفة ومناسباته المتعددة التي لا يخلو منها زمان أو مكان، ولا يفرغ منها حال السالكين طريق رب العالمين فتراه يذكر السماع الأول في يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٢) ويذكر به دائماً فيقول:

أهل المحبة من (ألسنت) سكارى لما هم قد أشهد الأنوارا
شهدوا جمال حبيهم سمعوا النداء لبوا له متبتلين مرارا
أنا من (ألسنت) مهيم بجماله أنتم معي إذ أظهر الأنوار
ويقول أيضاً:

يا قلوباً بالحب لاح ضياها فجاها المولي له واصطفاه
أنسها ذكره ورؤيا المعاني فتجلى لها بها ودعاها
أنبيينا بمبدأ الحال حتى تتجلي شمس الهدي فنراها
ذاك سر قد كان قبل (ألسنت) قد رأينا جماها وحلاها
خصصتنا يد العناية قدما لنري وجهها بأفق علاها
أسمعنا خطابها فأجبنا بهيما ولوعة لدعاها
جملتنا بها فملنا إليها بهيما لا نلتفت لسواها

^(١) سورة الإسراء أية ٤٤

^(٢) سورة الأعراف أية ١٧٢

وتراه عليه السلام حيناً آخر يتحدث عن الذكر وما فيه من شهود جمالات المذكور سبحانه، وأول الذكر أن تعلم أنك تخاطبه ويقينك سماعه لك، ثم تترقي حتى تذكره ذكراً كثيراً يذكرك به سر قوله تعالى: (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (١) فتسمع لذيذ خطابه وجميل كلامه.. يقول عليه السلام:

ما لنا حال ذكرنا في هيام وانجذاب ولوعة وغرام
ذا لأننا إذا ذكرنا حضرنا وشربنا في القدس صافي المدام
يتجلي المحبوب علنا فنراى وجهه ظاهراً بغير لثام
ما ذكرنا إلا حضرنا وطبنا وسمعنا منه جميل الكلام
ذاك ذكر لكنه خمر قدس قد أديرت برأفة وسلام
ما ذكرنا إلا سكرنا بخمر من يد المصطفى سراج الظلام
يا عزولي لوذقت من راح قدس حال ذكري لا تسمعن لمام
ذاك ذكر به القلوب اطمأنت وترقت إلي على المقام
ثم يتساءل عليه السلام بأسلوب رقيق عذب فيقول:

وكيف وأهل العشق إن ذكروا لهم حبيبهم حنوا إليه وتاهوا
يحن فؤادي إن ذكرتم حبيبه لأن سماع الذكر عين مناه
أسمع قلبي اسم الحبيب مكرراً لا يشهد أسرارته وحلاه ؟
وهكذا تراه عليه السلام يتغني ولكن عن وجد، ويتحدث ولكن عن شهود، يجذب قلوب السامعين، ويأخذ بأيدي الحيارى ويسلك بهم على طريق الهداية، فتجده عليه السلام يحدد معنى كلمة الأغاني وتأثيرها ومتى يسمعها المريد، فهو عليه السلام يحذر المريد

في بدايته من سماع أغان تجلي الله بها على قلوب أهل الحق رحمة بهم ومحافضة على حالهم وصحتهم الروحانية فيقول:

إن الأغاني راح للمريدين بها الوصول إلي أعلي وعالينا
تهز قلب مراد واله فيرى نوراً فيحجب عنه الحور والعينا
يفني به عنه حال الاتحاد به يغشاه نور فيخفي عنه تكويننا
تغشي المعاني سدرته فتظهره فرداً تجميل تحقيقاً وتمكيننا
تلك الأغاني أرتلها خلوقها لمن صفا بالصفاء حباً وتكويننا
لا يسمعونها يريد في بدايته وهي الطهور وكان السر مكنونا
دارت بحانات تزييه وقد سبقت له به صار بعد الرشف مجنوننا
تحفيه عنه وعن دنيا وآخرة فر المراد إلي مولاه مأمونا
سر إذا لاح أخفي الآي أجمعها لا تظهرنه وأفق السر مضمونا
أهل الصفا عن عيون الخلق قد ستروا أخفوا مشاهدهم رهباً وتحنينا
لا يسمعون سوي الأفراد نغمتهن ما زال سري في الآيات مكنونا
كيف الإباحة بالأسرار في ملأ وهي الحقيقة تصريحاً وتيقينا
روحي قبيل بياني قد أجود بها سمحاً بها وأري الأغيار تكويننا
أخشي على الدر أن يلقي بمزيلة فيزدري.. وأخون الحق والدينا
لي جلوة تخفي عن عالين، ظاهرها نور تزل، فافهم دمت مأمونا
كيف البطون؟ وهل أبدي مشاهدتي إلا لفرد تجرد؟ لا دنيا ولادينا^(١)

^١ (لا دنيا ولا دين : أي فارغ القلب من هم الدنيا والآخرة، ويوم الآخرة يوم الدين لقوله تعالى مالك يوم الدين

قد فر الله في سر وفي علن والوجه مقصده.. والله يهدينا
وعندما كانت تري عين حسه آثار قدرة الله، ويصغي سمع قلبه تسبيح الآيات في
الآثار سر قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ)^(١) يقول:

نغمات تسبيح الكيان مدامي يصغي لها قلبي يزيد هيامي
يا أيها الآثار أنت ستائر لآلي آي دلائل الإعظام
قلبي إلي التسبيح يصغي واجداً وجد المؤله من فصيح كلام
يا أيها الآثار أنت مظاهر للروح لا للعقل والأوهام
والسماع عند الإمام دائماً ما يرتبط بالراح والشراب وخمر الجلالة فيقول:

تغنوا معي بالخال إن دارت الراح فكم عند شرب الراح تصعق أرواح
فداوود بالزممار غني فأوبت بألحانه الأشباح والأرواح
وها أنا مخمور براح مقدس لم تدره الأرواح والأقصاد
تناولته من قبل مجلي حقيقي وناولته الوهاب والفتاح
ويقول عندما استمع مرة إلي نغمة الأوتار:

نغمة الأوتار والراح المدار كشفا لي الستار عن غيب مصون
نغمة الألحان تنبي بالجمال الصرف قلبي طاب لي فيه الجنون
صبوتي بعد المشيب فاشهد الحسن أظهرت نور الحبيب لاح جهراً للعيون
وعندما استمع إلي أوتار البيانو لأول مرة، أنشد بعد السماع فقال:
اضربي نغمات أوتار القلوب فالبيانو قد ألح لنا الغيوب

^(١) سورة الاسراء آية ٤٤

نغمة تشجي تذكرت الهوى فتري سر الحقائق والغيوب
أسمعيني نفخة القدس التي شاهدت في البدء أنوار الحبيب
وإذا سمع قيثارة ذكرته بحبيبه فقال:

نغمة الأوتار قد أزكت هيامي وسقامي لا أطيح جوي الغرام
ويقول مخاطباً (كامل) ضارب العود:

أكامل إن العقل يدرك حكمة في نغمة الأوتار والمزمار
والروح تدرك حكمة روحية مما توقعه من الأسرار
أيا أيها الأوتار جدت الهوى بشجي ألحان من السمار
وإذا سمع قمرئاً^(١) يشدو على الأغصان أخذت به هذه النغمات فتذكر هيامه
بحبيبه ﷺ وآله وحنينه إلى ربه تعالى فقال:

لمن الحنين أيا أولي الأشواق ؟ هذا حنين الروح للخلاق

ثم يقول محدثاً القمري:

حنينك يا قمري جدد لوعتي وأشهد روحي حسن وجه الباقي
وسمع ﷺ من يغني فيقول: يا ليل يا عين، فأنشد يخاطب رمزهما في الإنسان وهما
الجسم والروح، والظاهر والباطن، فقال:

أهل المحبة في شوق إلى العين والعين في غيب التزيه واللون
واللون سر تجليها لطالبها يحو سواها بلا كون ولا أين
والعين واحدة والليل أظهرها يا عين يا ليل هيا وفيا ديني

(١) القمري : منسوب إلى طير قمر " بوزن حمر جمع " أقمر " وهو الأبيض أو جمع "قمري " مثل رومي —
(مختار الصحاح)).

ما الليل إلا ستار يحجب المعنى والليل كفر ولكنه حجة الزين
زين الجمال تجلي العين ظاهرة للعاشقين بلا ظل ولا شين
يا عين يا ليل قلبي واله، روحى قد شاهدت فيك أسراراً من الحسن
يا ليل يا عين ما لي قد أبوح بما لم يستطعه فتي من حيلة الكون ؟

الإمام والقصة

يري الكثير من الباحثين والنقاد أن الشرق العربي هو مهد القصة، فمصر القديمة في نظرهم تعد المنبع الأول للقصة، فبينما كان هذا الفن الأدبي مهملاً في المجتمعات الأوروبية والأجنبية، كانت الشعوب المصرية والسامية في عهود ما قبل التاريخ تتميز بوفرة الإنتاج القصصي.

ومما يؤيد ذلك الرأي قصة " إيزيس وأزوريس " التي تجسد الصراع بين الخير والشر وهي من الأساطير الفرعونية القديمة التي تجاوزت الآفاق وعرفها العالم. فكان لقدامي المصريين قصب السبق في تجسيد تلك المعاني في أعمالهم الأدبية. كذلك عرف البابليون والآشوريون القصة حيث نقل عنهم بعض الأساطير مثل " برج بابل ".

أما العرب قبل الإسلام فقد كان لهم فنونهم القصصية النابعة من بيئتهم، والمصورة لحياقتهم ومغامراتهم وبطولاتهم مثل " سيرة عنترة "، التي تعد من أهم السير العربية وأشهرها.

القصة في العصر الإسلامي:

ثم جاء الإسلام بالقرآن الكريم، الذي قص علينا أحسن القصص. والحقيقة أنه قصص رائع، أتقنت أحداثه وحبكته. ويشير المولي سبحانه وتعالى إلى ذلك في سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(١).

^(١) سورة يوسف آية ٣

ولقد ذكر القرآن الكريم العديد من القصص مثل: قصة سيدنا يوسف، وأهل الكهف، وسيدنا سليمان، وسيدنا موسى، وملكة سبأ، وغيرها من القصص. ويرى الباحثون المتخصصون أن القرآن الكريم قد جمع المذاهب المختلفة في الفن القصصي، والتي يتشدد بها نقاد الغرب، ويزعمون أنها تجارتم التي صدروها إلى الأمم الأخرى، وأخذها عنهم الأدباء في العالم العربي.

فللقصص القرآني قصب السبق في تحديد معالم الكثير من المذاهب الأدبية. ففي القصص القرآني نلمس خصائص وسمات المدارس الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية.

فالقصص القرآني يتسم بقطامية الشخصيات، فأبطاله من الأنبياء والرسل والملوك، وهذه سمة المدرسة الكلاسيكية. والقصص القرآني يتميز بتطور الشخصية ونموها، وهذه خاصية من خصائص المدرسة الرومانسية. والقصص القرآني يجمع بين أحداثه لونين من المستوي في المعنى، ونعني بهما عالم الواقع الملموس، ومستوي عالم ما وراء الواقع، وازدواجية المعنى من سمات المدرسة الرمزية. والقصص القرآني يهدف بالدرجة الأولى إلى الحياة الكريمة للشعوب، وهذه خاصية من خصائص المدرسة الواقعية.

أما في العصر الأموي فقد اشتهرت بعض القصص مثل روايات كتاب الأغاني للأصفهاني.. وكذلك تفجرت ينابيع أخرى في العصر العباسي بعضها مترجم مثل " قصة كليله ودمنة " التي ترجمها " ابن المقفع " عن اللغة البهلوية.

وفي ميدان التأليف، كتب الجاحظ " البخلاء " بأسلوب يجمع بعض خصائص القصة، ومن أهمها خاصية الحكاية.. وكذلك اشتهرت قصص " ألف ليلة وليلة "، التي تمثل سفرًا عظيمًا جمع العديد من فنون القصص.

فن القصة في العصر الحديث:

قال بعض الباحثين: أن فن القصة في العالم العربي في العصر الحديث فن مستحدث، نقلته إلينا الترجمة والاتصال بالآداب الغربية، ويدللون على ذلك بأن معظم من كتبوا القصة العربية في العصر الحديث كانوا متأثرين أو ناقلين مقتبسين للقصة الغربية. ورد عليهم باحثون آخرون ببيان أثر الأدب الغربي وخاصة أدب القصة على الآداب الغربية، وعقد بعض الباحثين دراسة مقارنة لبعض الأعمال القصصية العربية وتأثيرها في الآداب الأوروبية مثل ألف ليلة وليلة والمقامات، وقصة حي بني يقطان وغيرها.

وتنقسم القصة إلى نوعين هما: القصة القصيرة والقصة الروائية.

١- القصة القصيرة

قرر بعض الدارسين على سبيل الجزم أن القصة القصيرة بصورتها الفنية في الأدب الحديث، قد أخذت عن أدب الغرب، ولم تنحدر من التراث أو تتطور عن فن عربي مشابه. والذي دعاهم إلي ذلك الرأي هو أن كتاب القصة القصيرة في عالمنا العربي كانوا من ذوي الثقافة الأدبية الأوروبية وكان أوائلهم بصفة خاصة على صلة قوية بالأدب القصصي الفرنسي أمثال: " محمد تيمور - عيسى عبيد - شحاته عبيد - محمود تيمور... إلخ " حيث استلهم هؤلاء أدب القصص الفرنسيين أمثال: " موبا سان - بلزاك - زولا " وهاهو محمود تيمور يعبر عن

شغفة وفتنته بالقصص الفرنسي "موباسان" فيقول: "ما كدت أقرأ له حتي فتنت به، ومازلت محتفظاً لموبا سان بالمكان الأول في نفسي، فهو عندي زعيم الأقصوصة الأكبر"، حيث فتن به هو وشقيقه محمد تيمور اللذين اعتبرا أن مولد القصة القصيرة بصورتها الفنية كان على يديه حين أذاع قصته "في القطار" سنة ١٩١٧م.

وإن كان لنا رأي آخر سنبينه بعد قليل.

وذكر الباحثون أيضاً: أن هناك محاولات غير كاملة سبقت ذلك في مجال القصة القصيرة على يد كل من "عبد الله النديم - خليل مطران - منصور فهمي - المويلحي - المنفلوطي.. إلخ".

خصائص القصة القصيرة:

تتميز القصة القصيرة عن الرواية بأنها تنحصر في موقف محدد، أو تصور لحظة معينة، ينفع بها الكاتب، ويعبر عنها في حادث موحد. فالموقف هو الموضوع الغالب على القصة القصيرة، بينما رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية. فحسب كاتب القصة القصيرة الناجحة أنه هو الذي يصور الفكرة الواحدة في قصته، لا مجموعة من الأفكار مهما يكن بينها من ارتباط كما هو الشأن في القصة الطويلة، فالقصة القصيرة تفضل أقل عدد ممكن من الشخصيات خلافاً للرواية حيث يكثر الأشخاص. ونستطيع أن نجمل خصائص القصة القصيرة في كلمتين: الوحدة والتركيز، فالوحدة: في الحادث والغرض والموقف. والتركيز: يكون في كل شيء، وهو أهم مميز للقصة القصيرة.

الإمام المجدد أبو العزائم عليه السلام عميد الأدب الإسلامي:

لقد أثبتت الرسائل العلمية من "ماجستير - دكتوراة" التي أخذت في أدب الإمام المجدد أبي العزائم عليه السلام ذلك، وسوف تسهم الدراسات المتتالية في أدبه في تدعيم ذلك الرأي وتأكيدة.

فالإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام له نظرياته الأدبية الجديدة، وله إسهاماته الشاملة في كل مجالات الأدب العربي الإسلامي، والتي سبق بها جميع من عاصروه من الأدباء والمفكرين "من شعراء - قصاص - بلغاء - مسرحيين وغيرهم".

وللإمام المجدد عليه السلام رأي خاص وجديد في مفهوم الأدب والأديب يقول فيه: ((لا أستطيع أن أقول أن ابني أديب أو مؤدب لمجرد أنه حفظ المنظوم والمنثور والبلاغة من كلام العرب، فالقرآن الكريم قد تحدي بلاغتهم فشهدوا بأنه مغدق، وأنه ليس بقول البشر. ولكن الأديب حقاً من تأدب بآداب القرآن وتخلق بأخلاقه، واقتدي برسوله، واهتدي بخلفائه، وزكي نفسه، وطهر قلبه، وصدق رسول الله ﷺ وآله حين قال: (أدبي ربي فأحسن تأديبي) ^(١) هذا هو الأدب وهذا هو الأديب بحق.

ولقد سرت هذه النظرية في كل أدب الإمام المجدد أبي العزائم عليه السلام "نثراً ونظماً" وفي كافة الفنون الأدبية التي قدمها "من مسرح - قصة - مواجيد - شعر صوفي". والإمام المجدد سبق غيره في مجال المسرح والقصة والمواجيد النظامية.

^(١) روى سيدنا علي بن أبي طالب، وحزم به ابن الأثير في مقدمة النهاية، وقال ابن حجر: أنه غريب ولكن معناه صحيح، وذكره ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود، والسيوطي في الجامع الصغير.

ففي مجال المسرح.. أملي الإمام المجدد مسرحية محكمة الصلح الكبرى سنة ١٩١٩ م تلك المسرحية التي تناولتها رسالة دكتوراة قدمت لجامعة الأزهر بعنوان " النشر الصوفي عند كتاب مصر المحدثين من ١٩٠٠-١٩٤٠ " فذكرت أن هذه المسرحية أعظم ما كتب في النشر الصوفي منذ كتبت اللغة العربية إلى الآن.

والإمام المجدد أبو العزائم عليه السلام رائد القصة القصيرة في علمنا العربي الإسلامي

بلا ريب وها هي مجموعة قصصه القصيرة تشهد بذلك.. فلقد سبق الإمام المجدد الآخرين من كتاب القصة القصيرة زمنيا حيث بدأ في نشر هذه القصص بمجلة " السعادة الأبدية " التي كان يصدرها منذ عام " ١٩٠٠ إلى ١٩١٥ م ". ولو أن الباحثين والدارسين بذلو مزيداً من البحث والدراسة، واطلعوا على قصص الإمام المجدد والتي نقدم نماذج منها بين دفتي هذا الكتاب لشهدوا بذلك. فهو عليه السلام قد سبق زمنياً كل من يسمي برواد أو كتاب القصة القصيرة الذين ذكرناهم آنفاً.

ثم تميز الإمام المجدد أبو العزائم عليه السلام بشيء هام، وهو عدم تأثره بالنهج الغربي في القصة القصيرة، كما تأثر غيره. لأنه المجدد.. والمجدد يؤثر ولا يتأثر.. يغير ولا يتغير فهو المنوط به أن يجدد للأمة أمر دينها كما جاء بنص الحديث الشريف، وهو عليه السلام يؤكد ذلك المبدأ صراحة في كتابه ((النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادت)) ص ١٢٦ فيقول: (لقد رأيت أكثر أهل زماني هذا قد تركوا آداب الدين وفضائله وراء ظهورهم، وعلوم العلماء المدونة في كتبهم هجروها، وافتتوا إلى القشور التي وضعها الفرنج مما نسخوه أو مسخوه من كتب سلفنا الصالح، ورأيت إعجاب أهل زماني بآداب بني الأصفر وشعرهم وعلومهم، ولو أنهم اطلعوا على علوم آبائهم وآداب أسلافهم وحكمة أجدادهم، والكنوز الخفية التي كثرها لنا إخواننا الذين سبقونا بالإيمان لميزوا بين الثري والثريا، وبين الحق والباطل.

فالإمام المجدد جامعة إسلامية شاملة وكاملة ووسطية وتحديدية وعالمية.. فدوره أن يستنبط من القرآن والسنة الدواء والعلاج المناسب لروح العصر.

ونقدم للقارئ المسلم، بل نقدم للإنسان أينما كان، مجموعة من القصص القصيرة التي تعالج الكثير من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها بمنهج إسلامي راق، وبفكر وذوق أدبي رائع، جمع فيه كل المدارس الأدبية في هذا المجال، بل وسبق فيه.

وقد اتجه الإمام للأسلوب الرمزي للتعبير في عرض هذه المشكلات والأزمات وحلولها من خلال هذه المجموعة من القصص القصيرة.. والإمام المجدد يعتبر هذه القصص دروس عامة لضرب الأمثلة للحقيقة، تلك الأمثلة التي كانت تنفذ إلى سويداء القلوب، ويحذب عليها الخيال فلا تغيب عن بال. مثل كانت له ^(١) في قالب روائي لا تغيب عن الذهن، ولا يعقبها النسيان، ولا يتطرق إليها الوهن.

ونسوق مثلاً من هذه القصص القصيرة^(١):

السياسي والحكيم والغشيم

السياسة: تدبير المنزل والمدن والمملكة، مأخوذة من ساس يسوس سياسة، أي أصلح إدارة المنزل أو المدينة أو المملكة، لجلب المنافع ودفع المضرات، مع رعاية الرحمة العامة بالمجتمع الإنساني.

فإن خرجت السياسة عن أصلها، كانت ظلماً وجوراً وكيداً، ومثال السياسة الحققة ما فعله الصديق يوسف عليه السلام مع إخوته، من أخذ أخيه منهم لينالوا

(١) راجع كتاب دروس في قصص " للإمام أبي العزائم عليه السلام

الخير العام في المستقبل. وعمل تلك التدابير لنيل الخير مع الإخلاص سياسة، وقد مدحه الله عليها فقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وأما ما يسميه الناس الآن سياسة فهو كسياسة القط مع الفأر، أعاذنا الله وإخواننا منها.

الحكمة: هي وضع الشيء في محله، واستعمال كل شيء فيما وضع له، مع رعاية الشريعة المطهرة.

الغشم، التسليم من غير روية ولا نظر.

الغشيم، بين أبنائه وحفدته وأقاربه، في مزارعه ومصانعه وأسواق تجارته، في هناء وصفاء.

السياسى، نظر إلى نفسه وأبنائه وأقاربه نظرة إعجاب، فكره أن يعملوا عملاً نافعاً لغيرهم، وأحب أن يتسيطر بالقوة القاهرة على الغشيم ومن معه، وكان عند الغشيم رجل حكيم.

السياسى، جمع الجيش وهجم على الغشيم.

الحكيم، رأى الغشيم خرج من غير تدبير ليقابل السياسى فمنعه وقال: دعهم يدخلون البلاد واجمع قومك وأعد العدة حتى إذا فرحوا بالنصرة وملكوا بعض القرى أمكنك أن تحصن قومك وبلادك، وترسم طريقة حكيمة تستأصل بها هذا الجيش الظالم.

الغشيم، سلم له وأقامه إماماً.

(١) سورة يوسف آية ٧٦

الحكيم، أمر بإخلاء القرى أمام العدو.

السياسى، تيقن النصر وأمن جانب الغشيم.

الحكيم، أنزل قومه في مكان محصن، ثم أمر بالسلاح فحمل وأقام أهل الرأي قوادًا، وأمرهم بالصبر حتى يصدر أمره، ورسم المناورة بروية، فأرسل قسمًا خلف جيش السياسى من طريق مجهول، وأبقى قسمًا داخل البلد، وجعل قسمًا جناحًا أيمن، وقسمًا جناحًا أيسر، ثم أرسل الطلائع وأمرهم بالهزيمة أمام الجيش.

السياسى، فرح جدًا وأمر الجيش بالتقدم من غير روية، معتقدًا أنه تمكن من عدوه، فأبعد في داخل البلاد، معتقدًا تحصيل ضروريات الجيش من البلاد، فتفرق جيشه من السرعة والبطء فرحًا بالغنائم.

الحكيم، انتهز تلك الفرصة، وأمر الجناحين والقسم الذي خلف العدو أن يلتقوا في نقطة كذا.

السياسى، لم يشعر إلا وقد أحاطت به الجنود فلم يجد له نجاة إلا بالهزيمة أمامه، معتقدًا عدم القوة الاحتياطية، فهلك أكثر جيشه، ولما أن وصل إلى داخل البلاد، قابله الجيش الاحتياطي فأسر البقية، وبعد ذلك اصطلحوا على شروط مخصوصة.

الغشيم، علم أن هذا الفوز باتباع الحكيم، فأمر قومه أن يحافظوا على أوامر الحكيم ليدوم لهم الملك والمجد.

السياسى، رجع حزينا واعتقد أن الغشيم مادام مقتديًا بهذا الحكيم لا يمكن أن يتمكن منه، فجمع قومه وطلب أن يكيدوا معه للغشيم كيدًا يخرجونه عن اتباع الحكيم، ليتمكنوا منه، ويجعلوا الجميع عبيدا له، فحضر معه إبليس في صورة إنسان، وقال: الرأي عندي أن ترسلوا لهم ما يفسد عقولهم، ويضر صحتهم،

ويضيع أموالهم، وبذلك يخالفون الحكيم فتملكهم. فسألوه: ما هي تلك الأشياء؟ وما الطريق في انتشارها بينهم؟ فقال: أما ما يزيل العقل فالخمر والحشيش والبنج. وأما ما يفسد الصحة فالعاهرات خصوصاً المريضات بالزهرى، وأما ما يضيع المال فانتشار الربا، وهذه الأشياء رابع لا بد منه، وهو التفرقة بينهم.

السياسى، (سألته) من أنت ؟.

إبليس: أنا العدو اللدود للغشيم.

السياسى: لم عاديتة ؟

إبليس: إنه أطاع عدوي الحكيم، فأمره بالمخالفة بعد أن كانوا جميعاً عبيداً لى.

السياسى: كيف تتمكن من انتشار تلك المفاسد بينهم؟.

إبليس: ترسل أولاً تلك المفاسد إلى كبرائهم، فإذا تمكنوا من الكبراء قلدهم الأتباع، والأمير إذا فعل قبيحاً لا ينكر عليه، ولا يقدر أن يمنع من ارتكبه.

السياسى، أرسل تلك الأنواع المضرة في طريق الخفاء، فأرسل نساء عاهرات بآلات الطرب ومعهن الخمر إلى الحكام، فانتشرت تلك المضار بسرعة حتى تناسي الناس وصايا الحكيم.

السياسى، أرسل رجالاً من أهل الخبث يحملون تلك الأشياء في الأسواق لتباع علناً، بعد أن يقدم كل واحد منهم هدية لحاكم المدينة التي يحل فيها، ويتردد عليه صباح مساء ليعلم أهل المدينة أنه محسوب الحاكم.

آثار الحكيم، كان في المدينة تلاميذ للحكيم، فصاحوا صيحة النصيحة، فأصغي إليهم أهل التسليم وقالوا: هذا يخالف وصايا الحكيم فيجب مصادرته ورد الحاملين له.

وفود السياسى، الحاملون للشرور - أسرع كل واحد منهم إلى الحاكم في مدينته، وقالوا له: كيف يصفو لك الملك وفي المدينة حزب يسعى في سلب الملك ويعصب عليك قومك؟! فتدارك الأمر واقتلهم شر قتله.

الغشيم، قبل منهم الكلام، وعظم عليه الأمر، فأرسل للحكام المشتركين معه في حب تلك المضار، أن يسجنوا من تظاهر ضد الرؤساء، فقبضوا على تلاميذ الحكيم واعتقلوهم.

وفود السياسى، تمكنوا من القوم فأزالوا عقولهم، وأضروا أبدانهم، وأضاعوا أموالهم وعقاراتهم، حتي بلغ من جنونهم أنهم اعتقدوا أن السياسي ورجاله أرحم بهم من والديهم.

الغشيم وقومه، تفرقوا حتي صاروا يمدحون السياسي بما قام به لهم من المصالح والإصلاح، ويدم بعضهم بعضا وهم في هاوية الذل لا يشعرون بمكايد السياسة.

السياسى، لم يرض بإفساد العقول، ولا بضعف الأجسام، ولا بتحصيل الأموال، ولكنه سعي لمحو الدين والأخلاق، فجمع العقلاء لهذا الغرض، فجاء إبليس وجلس معه، فرجعوا إليه، فأمرهم بأن يبذلوا المال للغشماء الجهلاء من أعدائهم، ويخرجوهم من الدين، ويجعلوهم آلة في ذم دينهم بين قومهم ومدح غيره، ويظهروا أن الذي يخرج من الدين ينال المال الكثير والجاه، ثم نشروا بين القوم زخارف الأباطيل، وأكاذيب الأضاليل، وأظهروا أنفسهم بأنهم رحماء بالحيوانات وبالمرضى، ليسلبوا عقول البسطاء بغرورهم، فتمكنوا من إضلال رجال من أهل دينهم، فادعوا أنهم من دين الأمة وأنهم ارتدوا عنه، ونشروا المفاسد

والأكاذيب فلم يرق ذلك عند الأمة، ولكنهم لما أصابهم من ضرر المفاسد المنتشرة بينهم، لم يتمكنوا من دفع هذا الشر، لأن السياسي استولي على الأسلحة والأمتعة. القوي القهار خالق السموات والأرض غضب على السياسي وقومه، لأنه لم يرضه أن يقهروا عباده، ويفسدوا بلاده، بل قاموا فكذبوه، وكذبوا رسوله ﷺ وآله، فغار لدينه غيرة منتقم قهار، فأوقع نار الحرب الانتقامية بينهم، ونظر إلي عباده نظرة حنان، وأيقظ قلوبهم إلي وصايا الحكيم.

الغشيم، تذكر مجده وملكه، وبحث بروية كيف نال هذا الملك، وبأي شيء سلب منه؟! فتحقق أنه ماقهر السياسي قومه وتسלט عليه إلا يهمل المحافظة على وصايا الحكيم، ومازال مجده وملكه وسلطانه إلا بترك وصايا الحكيم، فأطلق تلاميذ الحكيم من السجون، وجلس بين أيديهم ذليلاً يبكي ويتوب إلي الله، طلب منهم أن يغيروا كل ما خالف وصايا الحكيم، وأن يعيدوا الأمر إلي الماضي الذي وضعه الحكيم، فعرضوا كل شيء في المملكة على القرآن والسنة، ومحو أنواع الشرور كلها، وقامت الأمة من نومة الغفلة ورقدة الجهالة.

السياسي، جمع عقلاء جميع مملكته ليتدارك الأمر، فجاء إبليس فقالوا: ماذا تري ؟ فقال:

لا رأي لي، أعداؤكم رجعوا إلي القوي القهار، الحكم العدل، الذي يهب الملك لمن يشاء، ويتزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ولطم على وجهه، وتنف لحيته، وفر يدعو بالويل والثبور.

تلاميذ الحكيم انتشروا بين قومهم فقام في كل بلد حكيم أو صورة للحكيم، وكان لسان حال الأمة ينادي:

إننا لنرخص يوم الروع انفسنا وإن نسام بها في الأمن أغلينا
إن تبتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا
وصار كل فرد منهم هو المعني بقول الشاعر:

وبارب يوم ذوب الغش ناره فلم يبق إلا صارم أو صارم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردي وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاح وتغرك باسم
وصار كل فرد منهم حكيما ؛ لأنه اتبع الحكيم الأكبر ﷺ وآله،
فاستخلفهم الله في الأرض، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، فساسوا العالم أجمع
بالعدل والرحمة، ومحا الله الظلم وأهله، والعاقبة للمتقين.

مواضع العبرة في القصة:

يشخص الإمام عليه السلام أزمة الأمة الإسلامية تشخيصاً شاملاً دقيقاً وكاملاً،
فالسياسي رمز لأعداء الإسلام الصهاينة والصليبيين، والحكيم رمز للعالم الرباني
والعارف الروحاني والوارث الحمدي الذي يجدد للأمة أمر دينها، والغشيم رمز
لحكام السوء، ويثبت الإمام أنه لا علاج لهذه الأمة إلا بالتلقي من الحكيم إن
أرادت عودة مجدها ودوام عزها.

٢- القصة الروائية

بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الأولى التي قامت سنة ١٩١٤م واستمرت مشتعلة
ما يزيد على أربع سنوات بين إنجلترا وحلفائها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية
وإيطاليا وغيرها، وبين ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا وتركيا، وانتهت بهزيمة ألمانيا

وحلفائها، واجتمعت الدول من جديد في مؤتمر باريس سنة ١٩١٩م، وانتهى المؤتمر بخمس معاهدات صلح فرضت على الدول الخمس المنهزمة، وهي معاهدة فرساي مع ألمانيا في ٢٨/٦/١٩١٩م، ومعاهدة سان جرمان مع النمسا في ١٠/٩/١٩١٩، ومعاهدة نوي مع بلغاريا في ٢٨/٦/١٩١٩، ومعاهدة تريانون مع المجر في ٤/٦/١٩٢٠، ومعاهدة سيفر مع تركيا في أغسطس ١٩٢٠، وقد استبدلت هذه المعاهدة بمعاهدة لوزان في ٢٤/٧/١٩٢٣.

وعقد العالم على مؤتمر الصلح هذا آمالاً كبيراً، وخيل إليه أنه فاتحة عهد سلام ووثام دائم بين الشعوب، ولكن الإمام أبا العزائم عليه السلام قال إن مؤتمر الصلح هذا ومعاهداته، إنما أريد به تعديل خريطة أوربا والشرق العربي السياسية، وذلك لأن روح التكالب على المصالح والمنافع وحب السيطرة والتوسع، كان هو هدف هذه الدول، وعليه فقد وزعت الممتلكات الألمانية على الدول الكبرى عن طريق نظام الانتداب، الذي استحدثه مؤتمر الصلح ليطلبي به الاستعمار بطلاء جديد، يخفف من اصطدامه بالشعور الوطني لشعوب هذه الممتلكات .

فالصلح لا يقوم إلا على دعائم من تخلي أطرافه عن الصفات المذمومة الشريرة، وتخلي أطرافه بصفات محمودة خيرة، فيأضة بمشاعر الصدق والإخلاص والمحبة .

ومن ثم أملي الإمام عليه السلام رواية ((محكمة الصلح الكبرى)) ليقول لهؤلاء المؤتمرين في مؤتمر الصلح بباريس، إن الدولة هي مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة في إقليم معين، وتسيطر عليهم هيئة حاكمة ذات سيادة . فإذا كانت مجموعة الأفراد هذه تميل بفطرتها إلى الشر واتباع الهوي والشهوات والعدوان والكرائية، والثورة والتمرد والرعونة والحمق والاندفاع، وتسلبت هذه الآفات على الشخصية

الإنسانية، فقادتھا إلى الانحراف، واندفعت بها إلى طريق الغواية والضلال، وبذلك تكون الدولة التي هي مجموعة من هؤلاء الأفراد، دولة تخرق المواثيق والمعاهدات، وتمزق النظم، وتدمر القيم، وتسحق الأنظمة التي تخالفها وتقضي على الدول الصغيرة .

وتبدأ رواية ((محكمة الصلح الكبرى)) بلقاء بين ((الخيال)) المتجرد من كثافة الظلال وهو مرآة المحسوسات، وبين ((الوهم)) بلا محيطات وهو مرآة المعنويات، وأخذ ((الوهم)) يبين ((للخيال)) عناءه مما شغله به الإنسان، من هجر للشرعية وارتكاب ما يخالفها، فإذا بالخيال يبادره نفس الشكوى، ثم يتوجهان سوياً إلى ((العقل)) ويعرضان عليه الحال ليتهديا إلى حسن المآل، فنصحهما ((العقل)) برفع هذه المظلمة إلى ((محكمة الصلح الكبرى)) .. وبدأ الإنسان المتجرد بإملاء صحيفة افتتاح الدعوي .

ونظرت الدعوي فعلاً أمام ((محكمة الصلح الكبرى)) التي شكلت هيئتها من رئيس المحكمة ((العدل)) وعضوية كل من ((القسط والعلم والهدي والتوفيق)) وكاتب الجلسة ((أمين)).

ومثل أمام المحكمة المدعون وهم العقل والفكر والروية والعفة والشجاعة والكرم والعدالة والنور والعزة والرحمة والنطق والخشية والحكمة . كما مثل أمام المحكمة المتهمون وهم : النفس السبعية والنفس البهيمية والتهور والشهوة والجن والبخل والغدر والحس والضيم والقسوة والجسم والتهيه والحماقة .

وتقف كل نفس من هذه النفوس تبدي أوجه دفاعها بالحجج والبراهين، وبعد ثلاث جلسات من الاستماع إلى المرافعة ومواجهة بين الخصوم كل منهم لآخر،

تصافحت النفوس المتصارعة في الإنسان، واصطلحت أمام هيئة المحكمة وجاء عقد الصلح يتضمن البنود الآتية :

أولاً : أن تسارع النفوس إلى القيام بما أمرها الله به سبحانه بقدر الاستطاعة، وأن تترك ما نهاها الله عنه جملة واحدة .

ثانياً : أن تجاهد النفوس ذواتها في الله حتى تطيع المنعم الجواد لتفوز برضاه .

ثالثاً : أن تحب النفوس الآخرة، لأن الله مدحها ورغبنا فيها، وتكره الدنيا لأن الله ذمها وكرهنا فيها .

رابعاً : أن تحب رسول الله ﷺ وآله ﷺ حباً يجعلنا نتشبه به فنحيي سنته ونصونها من التغيير والتبديل .

وقد تأشر على عقد الصلح هذا من رئيس المحكمة وحكمت المحكمة بإلحاق عقد الصلح بمحضر الجلسة وإثبات محتواه فيه بما ينهي المنازعة .

وبذلك يبين من فصول هذه الرواية، أن الشر والرذيلة ليست من فطر الإنسان، وإنما ينشأ كل ذلك من احتلال التوازن بين غرائزه، ومن العوامل الخارجية التي تنحرف بهذه الغرائز عن أهدافها الفاضلة، وذلك ما يدلنا عليه قوله تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)^(١) فالفطرة هي الدين القيم وذلك ما يدلنا عليه أيضاً قول الرسول ﷺ وآله ﷺ عن الله عز وجل في الحديث القدسي : [كل عبادي خلق حنفاء فاجتالهم الشياطين، وأمروهم أن

^١ (سورة الورم أية ٣٠)

يشركوا بي غيري [وقوله أيضاً : (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(١).

وعليه فإنه من الممكن القضاء على انحراف النفوس وعودة الإنسان بعد عناء وطول مجاهدة إلى الصراط المستقيم والخلق الفاضل .

وفي رسالة الدكتوراه التي نوقشت بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع الرقازيق ١٤١١هـ - ١٩٩١م للدكتور أحمد يسري العزباوي بعنوان ((النشر الصوفي عند كتاب مصر المحدثين ١٩٠٠ - ١٩٤٠)) يقول :

((وضع الإمام أبو العزائم عليه السلام لقصته الروائية التي سنعرض فيما بعد فكرتها عنوان :

((محكمة الصلح الكبرى .. حوار روائي بين مطالب الروح، ورغائب الجسد لتزكية النفوس، وإصلاح المجتمع)) ولقد حدد الإمام عليه السلام من خلال العنوان المصطلح الفني الذي يمكن إطلاقه على هذا النمط من النشر، كما حدد الهدف الذي دفعه إلى الكتابة في هذا الموضوع بهذا الشكل الفني .

وأنسب المصطلحات الفنية لهذا العمل القصصي أنه ((قصة روائية)) كما قصد إلى ذلك الإمام نفسه، وكما أطلق عليها ذلك أيضاً أستاذي الدكتور ((حسن جاد)) في تقديمه لهذا العمل، وحوار هذه القصة الروائية طريف بارع شيق، من شأنها أن تشد الجمهور إليها لو أخرجت للتمثيل، ويتحقق ذلك من خلال الموضوع والأشخاص والحوار المدار، كما أنها خالية من الاستطراد، والتعليق على

^(١) البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وأحمد ومالك في الموطأ والسيوطي في الجامع الصغير

الأشخاص، والأحداث، فليس ذلك مجاله رواية تخرج للتمثيل، لأنها تحتاج إلى وقت محدد .

أما عن المفاجآت والصراعات التي ينبغي أن تسود الحكاية التمثيلية فإنني أراها متمثلة في قصة الإمام أبي العزائم عليه السلام فيما سادها من الموضوع الجديد، والأفكار غير المطروقة، كما أنه جعل من المعنويات والمحسوسات أشخاصاً تعقل وتفكر، وتتكلم وتجاوز، وتعني ما تسمع، وذلك مثل الوهم، والخيال، والفكر، والعقل، والتهور، وغير ذلك .

ثم صور الإمام في براعة الصراع بين العقل والنفس الشهوانية، وبين الفكر والتهور، وبين مثل الخير ومثل الشر، وما ساد حوارهم من أفكار وصلت في اختلافها حد التناقض، وتلك الأفكار كانت سبباً في صراع الأشخاص، لتضارب مصالحها، وأهوائها وشهواتها ورغباتها، وما يمثله ذلك من صراع بين الخير والشر. على أن جودة العمل القصصي التمثيلي تأتي من قدرة الإمام عليه السلام على الكشف عن النفس الإنسانية، ونوازعها وتصوير ما يدور فيها من صور الخير والشر وأسباب ذلك .. فهو يجعل من النفس الإنسانية ذاتها موضوعاً لعمله .. يحللها ويتعرف على قواها، ويقف على طبيعة كل قوة، وما تؤديه لصاحبها من خير أو شر، وما يجب على الإنسان الصوفي من معرفة هذه القوى، وخواصها حتى لا يجعل شيئاً يسيطر على أحاسيسه، ومشاعره، وجوارحه، غير حبه لله سبحانه وتعالى وإخلاصه له، والإقبال على ما يقربه منه تعالى .

الأشخاص في محكمة الصلح الكبرى لأبي الغزائم عليه السلام :

- ١- الوهم : مرآة المعنويات .
- ٢- الخيال : مرآة المحسوسات .
- ٣- الملك : هو النفس الناطقة الملكية، ووكيلها العقل، وهو الوزير الأول في المملكة - والخصم النفس السبعية .
- ٤- الفكر : هو وزير داخلية الملك، إذ تعرض عليه الشئون الداخلية للملك، فيميز بين نافعها، وضارها بالحجة الجليلة، ويعرضها على مولاه وخصمه النفس الشهوانية .
- ٥- الروية : وخصمها التهور .
- ٦- الشجاعة : وخصمها الجبن .
- ٧- العفة : وخصمها الشهوة .
- ٨- الكرم : وخصمها البخل .
- ٩- العدالة : وخصمها الغدر والضميم .
- ١٠- النور : وخصمه الحس .
- ١١- هيئة المحكمة ويمثلها :
- أ- العدل : رئيساً، وعن يمينه المهدي والعلم، وعن يساره التوفيق والرحمة .
- ب- كاتب الجلسة : أمين .
- ج- رئيس الشرطة وجنده .

فكرة محكمة الصلح وتقويمها :

يبدو الوهم - وهو مرآة المعنويات - وقد ظهر عليه الألم، حيث يدور حوار بينه وبين الخيال - مرآة المحسوسات - عما يورده الإنسان على كليهما من المفسد، وألوان الضلال، والوساوس الشيطانية . وأشدّها مالا يليق بعظمة الله سبحانه، وتلك مهمة لم يخلقا من أجلها، ومن ثم تتفق وجهة نظرهما على التوجه إلى العقل ليعرضاً عليه الحال باعتبار أنه ذو روية وفضل، وأنه البرزخ الحاكم بين ملكاتهما وبين النفس، وأنواعها .

ولا يلبث العقل هو الآخر أن يشكو من أن الحس ودواعيه قد استبعد الناس إلا قليلاً ممن اجتباه الله بسابق حسنه، ولذلك فقد فارقهم منذ خيرهم .

وهذا ما لا يستطيع الوهم والخيال اللجوء إليه تخلصاً من شرور الإنسان، وإسأته إليهما على نحو ما ورد في شكاية كل من الوهم والخيال.

يرق العقل لخالهما، ويلطف، ويقول لهما : هلم بنا نرفع الأمر إلى الله تعالى، ثم إلى أولي الأمر في الإنسان، وهنا يبرز الإنسان المتجرد من بشريته، المتخلي عن حيوانيته - بعد أن سمع نجواهم، وفهم معنائهم - ليعلن أمام الثلاثة - الوهم والخيال والعقل - أنه محب لأن ينال أبناء جنسه الخير والفلاح، ويؤيد رأي العقل برفع القضية إلى ((العدل)) .

ونص الدعوة المرفوعة هي :

[بسم الله الرحمن الرحيم . والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله .
أما بعد : فمن الإنسان المتجرد عن بشريته، المتخلي عن حيوانيته، المستعيز بالله من
نار إبليسيته، ثم من العقل والوهم والخيال إلى ((العدل)) عمم الله به النفع، إننا
نتظلم إلى الله تعالى، ثم إليك مما نحن فيه من ظلم الظالمين وهم إبليس والحس،
وجميع قوي النفس والسلام عليك وعلي من معك] .

وفي هذا الموقف الدقيق في عرض القضية، وأخذها مسار الطريق الجاد إلى
التنفيذ، لا ينسي الإمام أبو العزائم عليه السلام أن يصور ما جبل عليه كل من الوهم
والخيال من تردد، ونفاق وملق، حيث يرجوان العقل أن يستر الحال عن الخصوم
لأنهما مقهوران وبخشيان الوبال، فيأذن لهما العقل بالانصراف خوفاً عليهما من
الإتلاف ثم يتلطف للإنسان المتجرد من بشريته - هو الآخر - للانصراف .

تفتتح الجلسة الأولى باسم الحكم ((العدل))، وكاتب الجلسة ((أمين))
الذي ينادي على العقل ((المدعي))، ويدور حوار بينه، وبين الرئيس يعبر فيه
العقل عن أنه كان في مسرات حياته الروحانية، وملاذ أفراده العقلية، يسبح في
فسيح العز والفخار حتى جذبته خصومته بمقتضيات كثافتها، ودواعي ميولها إلى
سجن الشهوة الحيوانية، والخضوع لسلطان الحظوظ البهيمية، وهؤلاء الخصوم هم
النفس السبعية، والنفس الشهوانية، وأنصارها، والجسم والحس . ولا يلبث القاضي
أن يأمر بإحضار الخصوم .

ويحدد الإمام أبو العزائم عليه السلام في محكمة الصلح الكبرى طرفي الخصومة في
القضية، فالطرف الأول : يمثل العقل، وتوابعه من الفكر والروية والمنطق والعفة

والشجاعة والكرم والعدالة .. والطرف الثاني : تمثله النفس السبعية، والنفس الشهوانية، وتوابعها من التهور والجبن والافتخار والتهيه والاستهزاء والعذر والضميم. ومن خلال الحوار المضطرب بين مختلف القوي النفسية تظهر ذاتية الإمام أبي العزائم عليه السلام في تعبير ممتع عن رأيه في بعض القضايا الفكرية، والاجتماعية، من وجهة النظر الصوفية، ولكنها ليست ذاتية خالصة تفرض ما تراه هي، وتتجاهل الرأي الآخر، ولكنه من خلال الحوار يعرض كلا الرأيين ليحافظ على سلاسة الحوار، والحرص عليه أن يأتي مواتياً لطبيعة الموقف فلا نحس فيه نبواً أو قسراً . أو محاولة تطويبه إلى غير اتجاهه .

ثم يحدث الصراع بين قوي الخير والشر في النفس الإنسانية ويتعاضم الحوار، وتعلو الأصوات وتتقارع الحجج، وتتصاعد حدة المواجهة إلى أن يصل الموقف إلى ما يشبه العقدة في العمل القصصي .. بعدها يأخذ شكل الانحدار الهاديء البطيء إلى ما يشبه الحل، إلى أن ينتهي الأمر إلى اتحاد القوي المتصارعة، ويعقد مجلس الحكم الذي يتلو فيه الرئيس ((العدل)) حيثيات الحكم التي تتسم بالإقناع والوضوح، وقوة التأثير ثم يصدر الحكم الذي يقابل من كل النفوس والقوي بالاستحسان، والمصافحة، والعناق، والاتحاد، والائتلاف .

وقد نجح الإمام أبو العزائم عليه السلام في إدارة الحوار، وترتيبه، وفي تحديد الهدف وكيفية الوصول إليه، واستطاع من خلال هذا العمل الروائي الجديد على الأدب الصوفي أن يشرح الأفكار والمعاني الصوفية، التي تهدف إلى معرفة النفس، وقد اختار هذا الفن الأدبي لأن النفس تميل إليه، وتحبه، وتتقبله، ومن ثم سيكون ذا أثر حسن فيها .. وقد حقق الإمام عليه السلام هدفه الصوفي والأدبي معاً، فمن يرد معارف

صوفية فعليه بمطالعتها، ومن يرد متعة أدبية فإنه واجد بغيته في مطالعتها أيضاً، ومن يرد إسلاماً، أو أخلاقاً، وتهذيباً وحكمة، فعليه بها ففيها جماع الخير كله للإنسان ومجتمعهم، وبني جنسه .

لماذا اتجه الإمام أبو العزائم عليه السلام إلى النشر القصصي؟ وبم يقوم اتجاهه؟

يهدف الإمام أبو العزائم عليه السلام من وراء كتابة هذه القصة الروائية إلى أن يتوجه بها إلى الإنسان المؤمن، لكي يتبين عن طريقها حقيقة نفسه ليصلحها . فمن المعلوم أن الإنسان يجمع العجائب والغرائب، والمتناقضات كلها، ففيه من ملكات الخير ما يستطيع بها - إذا أحسن استغلالها - أن يكون الإنسان الحق الذي كرمه الله تعالى، فخلق الكون وما فيه من أجله وسخره له، وجعله خليفة عنه - سبحانه - في الأرض، وعلي النقيض من ذلك جعل الله فيه من قوي الخبث، ونزعات الشر ما يمكن أن يكون بها - إذا لم يهذبها - من أخصب المخلوقات .

ولهذا يريد الإمام أبو العزائم عليه السلام أن ينبه الإنسان المؤمن إلى ما كمن فيه من هذه القوى، وتلك .. حتى يعرف حقيقة نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وهنا مكن سعادة الإنسان في دنياه وأخراه، وسعادة أسرته ومجتمعهم، بل سعادة الإنسانية كلها .

ولهذا يصرح الإمام أبو العزائم عليه السلام بأنه ألف كتبه المختلفة لتحقيق ذلك، ثم تراءى له أن يسلك في التعبير عن هذه المعاني والدعوة إليها أسلوباً جديداً، ونمطاً حديثاً، تتعلق به النفس، ويرهف إليه الحس، ويتأثر به الوجدان، فيقول في مقدمة عمله الروائي ((محكمة الصلح الكبرى)) الذي أتناوله بالدراسة الآن : (.. وبعد أن كتبت أكثر من أربعين كتاباً ورسالة في بيان سبل الخير، والحث على السير

عليها، تافت نفسي أن أنواع الدواء، بما يناسب نيل الصفاء، وفي الإشارة ما يغني اللبيب، ويسر الحبيب) .

ونستطيع القول بأن اتجاه الإمام أبي العزائم عليه السلام إلى أن يعبر عما يريده من فكر ومضمون في إطار شكل فني أدبي هو النثر القصصي الروائي الصوفي - كان اتجاهًا مقصودًا وهدفًا ساميًا، سعي إليه لكي يحقق ما يصبو إليه من إبراز مشاعره وأحاسيسه نحو ما يعتمل في صدره من فكر صوفي، يؤدي به واجبه، ويرضي ضميره، إنه اختار الوعاء الغني القادر على تحقيق ما يريد .

وفي ذلك تقدير منه للفن الأدبي عامة، والنثر القصصي خاصة، وكذلك نراه يمازج في روايته بين النثر والمواجيد أحيانًا، فلعل النفس تتأثر بهذه الممازجة أسرع وأعمق، فهؤلاء الإمام أبي العزائم عليه السلام للتأثير النفسي والوصول إلى الإقناع وعمقه كان أسبق من غيره عناية منه، ولذلك نلمح عناصر الجذب والتأثير والإقناع قد استوفت عناصرها .

وفي ذلك يتحقق الهدف الأدبي النبيل الذي يستحق به النتاج الأدبي أن يحلل، ويدرس على عمل مشترك بين الصوفية والأدب، استحققت به الصوفية الحديثة أن تتيه به على عصور الأدب الصوفي .

ويحق لي أن أقول - في حدود علمي - أن الإمام أبا العزائم عليه السلام بهذا العمل يعد أول من أدخل هذا الفن الأدبي في عالم الأدب الصوفي من أول نشأته في لغتنا العربية حتى اليوم . وأن ذلك يعد مظهرًا من مظاهر التجديد في الأدب الصوفي .

إن الإمام أبا العزائم عليه السلام بتأليفه هذه القصة إنما كان مرآة صافية صادقة لمجتمعه عكست قضاياها . ومشاكله، وطموحاته . ولم يكن ذلك مقصوراً على مجتمعه المحلي الذي يعيش فيه، وإنما تعداه إلى المجتمع العربي والإسلامي، والإنساني قاطبة. وهكذا اتصل الإمام أبو العزائم عليه السلام بأمته، ومجتمعه، وهكذا استمد منها العون والقوة، وهكذا استلهمها آمالها، وآلامها، وأسباب سعاتها، وشقائها . وإن أي إصلاح سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، أو فكري : فردي أو قومي، أو إسلامي، أو إنساني لا يمكن أن يبدأ بداية صحيحة، ويتجه اتجاهًا سليمًا، مثمرًا نعيد ما بدأ به الإمام أبو العزائم عليه السلام، ولا يمكن أن يتم أو ينتهي نهاية ناجحة إلا إذا بدأ هذه البداية العزمية^(١).

^(١) راجل أصل الرسالة ص ٢٦٧ وما بعدها.

منهج الإمام أبو العزائم عليه السلام في الدعاء

الدعاء منهج الصالحين ودرب السالكين، ونور اليقين، وسلاح المؤمنين، وسراج منير للمتقين، وقرّة عين القانتين، وراح طهور للعاشقين، يجد فيه أهل الإيمان لذتهم وانسراح صدرهم .

الدعاء هو لسان المناجاة للعارفين، ونور الإيمان وبرهان الصدق على ذل العبودية للصادقين . فهو يعبر عن احتياج العبد وفقره وذله ومسكنته ودوام اتصاله بربه سبحانه القريب الذي يسمع كل دعاء، العليم الذي لا تخفي عليه الأحوال . والله تعالى هو الجواد الواسع الذي بشر الداعين من أمة سيد المرسلين بإجابة دعائهم فقال : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ^(١) وقال ﷺ وآله : (ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل له في الدنيا وإما أن يؤخر له في الآخرة، وإما أن يكفر من ذنوبه ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل، يقول دعوت ربي فما استجاب لي) ^(٢) ويقول ﷺ وآله : ((إن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين) ^(٣) .

ومما تميز به الإمام أبو العزائم عليه السلام وأثر عنه كثرة الأوراد والأدعية والابتهالات والاستغاثات والأحزاب وذلك عملاً منه عليه السلام بقوله تعالى : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ^(٤) وقوله تعالى :

(١) سورة البقرة آية ١٨٦

(٢) رواه الترمذي

(٣) روه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم

(٣) سورة السجدة آية ١٦

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١) وليقينه ﷺ أن الدعاء طريقه إلى رحمة الله ورضوانه ينفع مما نزل ومما لم ينزل يقول ﷺ:

من يجيب المضطر إن ناداه ويلي المحتاج حال دعاه
من أنيس القلوب حال صفها قال كل الوجود ذاك الله

وإذا كان البعض يكتفي في الدعاء بالنطق بألفاظ الدعاء في أوقات محددة، أو يكتفي بالعلم أن الدعاء وسيلة لجلب الخير ودفع الشر عنه من ناحية، وإيقاع العذاب والغضب على الخصوم من جهة أخرى، فهو لا يلجأ إلى الدعاء إلا عند الحاجة أو يعتبر الدعاء دواء يتناوله عند نزول الحاجة من ضيق أو شدة فلا يلجأ إليه إلا حين تعدم الوسائل أو يفتقر إلى الحيلة . فإن الإمام أبي العزائم عليه السلام يتخذ من الدعاء منهجاً سامياً للتعلم بأستار الهيبة والجمال والجلال الإلهي وميزاباً لاستدراغ فيض فضل الله مدراراً . وسبباً للتعجب والتودد إلى الله والتعلق إلى جنابه العلي هيماناً بلذة الخطاب واستشراقاً لأنوار المناجاة الإلهية وفرحاً بلباس العبودية وتاج الذل لرب البرية سبحانه . فترجم عن هذا الحال في دعاء يفيض بإحساس وجداني عميق، وانفعال نفسي، وتعلق قلبي وثقة وإخلاص ويقين، وفرح بإقامة الله له ضارعاً متبتلاً خاشعاً ذليلاً بين يديه مسروراً لسوابق الأقدار وعناية الله الذي ناداه من جانب طور قلبه الأيمن وقربه نجياً يخاطبه ويتلذذ بتضرعه لا يعمل ولا يكل .

نلمس ذلك كله من خلال منهجه في الدعاء الذي يتمثل فيما يلي :

١- كتاب إلهي إلهي إلهي : وقد جمع الإمام عليه السلام في هذا الكتاب من روائع الأدعية والأوراد والأحزاب المعجز من آيات التتريل والمأثور من أحاديث البشير النذير وأهل البيت الطيبين الطاهرين وما ألهمه الله سبحانه وتعالى به من الدعاء .

٢- كتاب (ادعوني أستجب لكم) ((الجزء الأول)) : وفيه فيض عميم وعطاء وافر من الله سبحانه وتعالى على الإمام عليه السلام من الدعاء الذي يتذوقه المؤمن الداعي نوراً وينشرح له صدره سروراً، شمل ما يقرب من ١٩٣ حزباً تناولت مناسبات شتى وأوقات مختلفة وأياماً فاضلة على مدار أيام العام كله وهو عليه السلام عند دعائه دائماً يفتتح بالقرآن الكريم ويأتي الدعاء مبيّناً ما شملته الآيات من معاني عليّة وهبات ربانية وكنوز للعطاء، فيفتح بالدعاء قلوباً تسقي طهوراً وتتناول الأرواح منه شرباً كان مزاجه كافوراً، وتنعم الأسرار بذوق شراب كان مزاجه زنجبلاً.. فقد كان عليه السلام فريداً في دعائه وتضرعه إلى الله صفاً قلبه وتعلقت روحه بالملا الأعلى، وانقذ نور الالتجاء إلى الله ونور العبودية في قلبه ففاض اللسان بالعبرة العذبة التي تجذب النفوس وتهيم الأرواح، ويظهر ذلك جلياً في قوله عليه السلام في أحد أحزابه بعنوان (استغاثة الأخيار) غرة المحرم ١٣٣١هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ ^(١)

اللهم يا فتاح يا عليم، يا معط يا وهاب، سبحانهك اللهم وبحمدك أنت مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وترفع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء

(١) سورة فاطر آية ٢

بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، أسألك يا قريب يا مجيب يا سميع يا ولي يا حميد، برحمتك التي وسعت كل شيء وفضلك العظيم الذي عم كل شيء، يا غافر الذنب وقابل التوب، بموجبات رضوانك وحقيقة محبتك وواسع إحسانك، ولطيف عنايتك وجميل ولايتك، وسريع إغاثتك ومنن عطاياك، وجمال آلائك مما تفضلت به على خير أحبابك، وأكرمت به خواص أوليائك، وجملت به المرادين لحضرتك العلية، وأسألك يا حنان يا منان، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام منازل الأبرار، ومشاهد الأخيار، ومعية الذاكرين، ومؤانسة الفاكرين، ومواجهة المقربين، وإخلاص الموقنين .

إلهي إلهي، ناولي بيمينك المقدسة ظهور القبول وراح الإقبال، وأنلي يا إلهي جمال منازلتك يا معط يا وهاب، وجملي يا إلهي بالمعاني التي أكون بها محبوباً لذاتك المقدسة، مطلوباً بجمالك العلي، فائزاً بحبك سبحانه لي وحي لمولاي العلي المتعالي وحققي يا إلهي بالإخلاص في التوكل على حضرتك العلية، حتى أرتشف من ظهور شرايه، ﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١)، واجذبني إليك بكل جذبة حب وقرب، حتى تسكن نفسي إليك يا ذا الجلال والإكرام مجملاً بجمال يقين ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) وامنحني يا إلهي حلاوة الشوق إلى جناب القدس الأعلى، حتى تنبلج على قلبي أنوار ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٣) واجعل لي يا الله نوراً تنكشف لي به حقيقي حتى أعلم حق العلم أنه لا إله إلا الله وروحي يا إلهي بالروح

(٢) سورة غافر آية ٤٤

(٢) سورة الأنعام آية ٧٩

(٢) سورة الأنعام آية ٩١

والريحان، وواسع الفضل والإحسان، حتى يطمئن قلبي بكمال اليقين فلا يشتغل بهمّ الرزق، ولا بخوف الخلق، ويستريح بدني من العذاب حتى أفر ممن سواك متحققاً بكشف سر ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ {٧} وَإِلَيَّ رُبُّكَ فَارْغَبْ﴾^(١) وأعني يا قدير يا قوي على شكر نعماك حتى تحملي بالخصوصية خصوصية أهل العناية الربانية، سر بشري ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾^(٢).

إلهي وشرح صدري ويسر أمري، وأعزني وأهلي وأولادي وأحبابي من الشيطان الرجيم .

إلهي وضع عني وزري وارفع لي ذكرى، حتى أكون ممن أكرمتهم بالبشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتفضلت عليهم بالفضل العظيم يا الله .

إلهي جدد السنة وأعل الكلمة، وأصلح حالنا، وحسن مالنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم واشفنا شفاءً لا يغادر سقماً، وافتح لنا أبواب فضلك، وخزائن كرمك وكنوز جودك، وأمدني والمسلمين جميعاً بودك واهدنا صراطك المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إنك مجيب الدعاء ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ {٨٧} فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وصلي الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم آمين يارب العالمين .

(١) سورة الشرح أية ٨، ٧

(٢) سورة سبأ أية ١٣

دعاء التوكل

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) ^(١)

أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ كَمَا أَمَرْتَ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، أَنْ تَمُنَّحُنَا يَا إِلَهَنَا شُهُودَ حَقِيقَةِ أَنْفُسِنَا شُهُودًا يَجْعَلُنَا نَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ حَقَّ التَّوَكُّلِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ، أَحْيِنَا حَيَاةَ أَهْلِ الْيَقِينِ الْحَقِّ، الْآنَسِينَ بِرَبِّهِمْ، الرَّاظِينَ عَنْهُ، الْمُؤَيَّدِينَ بِرُوحِ مَنْكَ سُبْحَانَكَ، وَامْنَحْنَا يَا إِلَهَنَا حَقِيقَةَ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِكَ تَسْبِيحًا نَشْهَدُ بِهِ أَنَّكَ سُبْحَانَكَ الْمُنْفَرِدَ بِإِسْبَاغِ الْإِحْسَانِ، الْمَوْجِبِ لِلْحَمْدِ حَيْثُ لَا يَحْمَدُ سِوَاكَ سُبْحَانَكَ، الْمَتَرِّفِ فِي ذَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ وَصِفَاتِكَ جَمَالًا يَلِيقُ بِكَ .

رَبِّ جَمِّلْنِي بِحَسَنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ وَبَصُحَّةِ الْفِرَارِ إِلَيْكَ، وَامْنَحْنَا تَوْبَةً نَصُوحًا تَطْهَرُنَا بِهَا مِنْ هَمِّ شَهَوَاتِنَا، وَلَمْ حَظُوظِنَا، وَخَبْثِ طَبْعِنَا، وَطُغْيَانِ أَمَارَتِنَا بِالسُّوءِ .

رَبِّ هَبْ لِي وَسْعَةً فِي أَرْزَاقِنَا، وَنَسِيقَةً فِي أَعْمَارِنَا، وَعَصْمَةً مِنَ النَّاسِ، سَخَّرَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ هُوَ فِي مَلِكِكَ وَمَلَكُوتِكَ، وَأَذَلَّ لَنَا أَعْدَاءَنَا وَأَعْدَاءَكَ، وَخَدَمَ لَنَا أَوْلِيَاءَكَ .

رَبِّ اجْعَلْنِي بِكُلِّي لِحَضْرَتِكَ الْعَلِيَّةِ يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ { ٨٧ } فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) .

وصلِّي الله على سيدنا محمد وعلي وآله وصحبه وسلم .

(١) سورة الفرقان آية ٥٨ .

دعاء اسم الله الأعظم

يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، لا تكليني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله يا رب العالمين، وأحييني بك حياة طيبة أذوق بها حلاوة التلذذ بشهود جمالاتك، واكشف لي عن أسرار آياتك حتى أعاين تجليات حيلة قيوميتك، واحفظني بروح القدس حتى أتحقق بعين اليقين، وتولي برعايتك ووقايتك في ظاهري وباطني وحالي ومقالى، وأطلق قيدي من شهود الغير، وزج بي في أنوار التجلي، وارفعني يا إلهي من حفيف الوهم إلى أعلي مقام الثبوت، وأدخلني في حيز مجلي معاني أسماء الجلال حتى أتصرف التصرف التام بغير أن أكون بين خوف بشريتي، وإقدام ملكيتي بما يتوالى عليّ من تقلبات خواص الآثار الكونية، ومتعني بالكمال المطلق حتى أكون عبدًا لذاتك، وأقمني عاملاً لك سبحانه مخلصاً لك شاكرًا ذاكرًا فاكراً .

وثبتي كما ثبت أهل اليقين، وحلي بخواص الأسماء الظاهرة، وبآثار محض الفضل، لأكون منيع من جميع الشواغل الكونية، حتى لا أهتم بما سبق لي في أم كتابك لإسباغه عليّ، مع فراغ قلبي لحضرتك سبحانه، وراحة بدني من العناء في طلبه لتواليه على من حيث لا أحسب، وتوجني بتاج العزة العظيم الذي توجت به خواص عبادك، وزهدي بتوالي الأيادي على فيمن سواك، واجعلي شاكرًا لأنعمك، وذاكرًا لك سبحانه، أدعوك رغبة ورهبة مخلصاً لك الدين يا رب العالمين، ومل بي عن جميع مرادي برضائي بشريف مرادك، ونور قلبي بالفقه في دينك، وأمدني بروحانية حبيبك ومصطفاك ﷺ وآله، واجمعي عليه جمع اتحاد أكون به من أهل معيته ﷺ وآله، الذين أثبت سبحانه عليهم، وسر بي يا إلهي على صراطه متبعًا لهديه، وامنحني حبك الذي منحته من وفقهم لاتباعه ﷺ

ﷺ وآله ﷻ بسر قولك سبحانك : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (*) وهب لي كمال اتباعه وجميل محبته، واجعلي محبوباً لك سبحانك به محباً له بك، يا حي يا قيوم يا على يا عظيم يا قريب يا مجيب .
يا الله ... يا الله ... يا الله .

﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾
وصللي الله على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم .

نموذج من أدعية الإمام ليلة النصف من شعبان

((إلهي إلهي إلهي، هذه ليلة الإجابة، ليلة التوبة، ليلة الرجوع إليك، ليلة إنزال القرآن، ليلة بشرنا نبيك ﷺ وآله ﷻ أنك تجيب الدعاء، فنسألك بقلوب منكسرة يا ذا الطول والحول والقوة أن تواجهنا بوجهك الجميل، وتبدل سيئاتنا حسنات، وتعمر بحبك قلوبنا، وتيسر بوسعتك أرزاقنا، وتوفي ديوننا، وتشفينا من السقم والمرض، وتمنحنا الخير والنعمة والمال والولد، يا سميع يا سميع، يا من تتجلى لأحبائك بجمالك، فتجذبهم إلى حضرتك، تجل لنا بجمالك، وقدر لنا الخير الذي أنت أهله .

إلهي إلهي إلهي، إن كنت قدرت علينا السوء فتداركنا بالإحسان، وأبدل هذا القدر بخير عام، واكتبنا في أم الكتاب من أمة نبيك المختار الذين لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة يا مجيب الدعاء .

إلهي إلهي إلهي، لنا حوائج عظيمة، وإنما يتزل العظيم بالعظيم، وأنت الرب العظيم فيسر حوائجنا .

إلهي إلهي إلهي، لنا أولاد ولنا أهل وإخوان، فنسألك الخير العام والرحمة
الواسعة والشفاء من كل ألم، والإخلاص في كل عمل، والولاية الحقّة، والحب
منك، والقرب منك، والوفاء على الإسلام بسرّ قولك سبحانه : (يس) إلى قوله
تعالى : ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

إلهي إلهي إلهي، أنت السميع الواسع القريب، استجب لنا وأكرمنا وقربنا، بسرّ
قولك سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ {٨٢}
فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٢).

٣- الابتهالات : وهي كثيرة جدًا تعمها مواجيدہ ﷺ مستغيثًا ضارعًا إلى الله
منيبًا إليه متوسلاً إليه بأحب الأعمال إليه وبرسول الله ﷺ وآله ﷺ وأهل بيته
الطاهرين والأولياء والعالمين سواء أكان ذلك في المناسبات الدينية، أم في غيرها من
أيام السنة ومن ذلك قوله ﷺ :

إلهي أنت بي بر رحيم معين رازق غوث كريم
وكم نجيّتي من كل هول وكم وافي بك الفضل العميم
وكم أوليتني عزاً ومجدًا وكم عندي لك الخير المقيم
إلهي أنت تعلم بي وحسبي بأنك سيدي أنت العلیم
إلهي علم حالي عن سؤال كفاي إن تغيرت الفهوم
إلهي من تكن مولاه حاشا تزلزله عن الحق الغيوم
إلهي من يكن بك في سرور وعز كيف تغريه الهموم

(١) سورة يس آية ٨١

(٢) سورة يس آية ٨٢، ٨٣

إلهي من ضمنت له غناه يميل إلى التشكك أو يحوم
فحاشا أن أشك وأنت ربى وأخشي واليقين بكم سليم
وقد عودتني فرجاً قريباً فهىء لي بحقك ما أروم
إلهي يا مجيب لمن دعاه أجب يا من بحالتنا عليم
توسلنا إليك بسر طه وبالكتر المطلسم يا حكيم
رفعت لك الأكف وأنت حسبى وغوثي إذ بدا الخطب الأليم
وقوله **عليه السلام** :

إلهي إلهي يا ولي تولنى ولأية محبوب ونور بصيرتى
إلهي إلهي يا حفيظ بحفظكم من الشر فاحفظني وكل أحبتي
إلهي أيا وهاب هب لي عناية بها اك ملحوظاً بعين العناية
إلهي إلهي يا سلام فسلمن نفسي وبدي من هوي وضلالة
إلهي أيا معطي فهب لي كنوزكم لأظهر كثرًا للهدي والسعادة
إلهي أيا فتاح فافتح قلوبنا لتفتح أبواب السما بالإجابة
وقد نبه **عليه السلام** على أن الدعاء روحه الإخلاص وهو سر الإجابة فيه، ولكن
كيف يكون الإنسان مخلصاً في دعائه؟ يقول **عليه السلام** :

((لا يكون المؤمن مخلصاً في دعائه حقيقة الإخلاص، ما دام له تدبير وحول
وقوة في رفع ما يدعو لكشفه، حتى يتحقق بالعجز عن دفعه بحوله وقوته وماله
وأهله والناس أجمعين، مثال ذلك ما يحصل لأهل السفينة، فإنهم يدعون الله تعالى
مع اعتمادهم على الربان وعلي الملاحين، فإذا علاهم موج كالظلل وجرع الربان

والملاحون ودهشوا، عند ذلك يخلص الكل الدعاء لله كما قال سبحانه وتعالى :
﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١).

وقد يحصل الإخلاص الحقيقي في الدعاء للأفراد الذين كوشفوا بحقيقة التوحيد،
وتحققوا أن الضر والنافع هو الله فإنهم لخشيته من الله لا يتحققون بنفع الأشياء
النافعة، ولا بضر الأشياء الضارة، فهم يدعون الله مخلصين أن يدفع عنهم الضر،
ويعمنحهم النفع .

ولا تخلو الأحوال التي تصيب بني آدم في أبدانهم وأموالهم وأهليهم من الحكم
الربانية، فيفزعون إلى الله تعالى، ويسألون العارف أن يدعو الله لهم فيكشف الله
عنهم ما ألم بهم، فإن دعاء العارف يهدي النفوس إلى معرفته سبحانه، فيعلمون أن
لهم إلهاً جباراً عالماً قديراً يسمع دعاءهم ويعلم ما هم فيه، وهو قادر على نجاتهم .
يراهم وإن كانوا لا يرونه، ويسمع دعاءهم ونجواهم، على هذا القياس كلما أصاب
الناس من الجهد والبلاء فيضطربهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل،
ليذهب الغلاء والوباء، وآلام الأطفال ومصائب الأخيار، وما شاكلها من الأمور
السماوية التي لا سبيل لأحد في دفعها عنهم إلا الله تعالى، فيكون ذلك دلالة لهم
على الله عز وجل، وهداية إليه كما قال سبحانه : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

(١) سورة الروم آية ٦٥

وبعد الإخلاص في الدعاء يجب على الداعي أن يكون على يقين أن الله
محبب دعاءه وحسن ظنه وثقته في الله تدفعه إلى المناجاة والاستغاثة والتضرع
والتملق له سبحانه والطمع فيه فيقول **اللهم** :

((إذا دعوتكم فكونوا موقنين بالإجابة، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من موقن، ومن
دعا دعا دعاء بينا من قلبه، لأن من استعمله الله تعالى بالدعاء له فقد فتح له باباً
من العبادة، وفي الخبر : (الدعاء نصف الإيمان) وروينا عن رسول الله ﷺ
وآله : ((ما من داع يدعو موقناً بالإجابة في غير معصية ولا قطيعة رحم إلا
أعطاه الله تعالى إحدي ثلاث : إما أن يجيب دعوته فيما سأل، أو يصرف عنه من
السوء مثله، أو يدخر له في الآخرة ما هو خير له))^(١) وروينا عن نبينا ﷺ
وآله أنه قال للرجل الذي قال : أوصني، فقال : ((لاتتهم الله تعالى في شيء
قضاه عليك))^(٢) وفي خبر آخر : أنه نظر إلى السماء وضحك ﷺ وآله فسئل
على ذلك فقال : ((عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن في كل قضائه له خير، إن
قضي له بالسراء رضي وكان خيراً له، وإن قضي عليه بالضراء رضي وكان خيراً له
((^(٣).

(١) رواه الترمذي

(٢) الطبراني في الصغير بلفظ (من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلها غير الله).

(٣) رواه مسلم بلفظ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء
شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له).

ومن حسن الظن بالله تعالى التملق له سبحانه، وهو من قوة الطمع فيه)) .
أما الاستجابة وسرعة الإغاثة من الله سبحانه وهي ما يتوقف عنده البعض
وقد يدور بخاطره أن السائلين كثير ولكن من تجاب دعوتهم قليل فلماذا؟ وهنا
بين الإمام أبو العزائم رحمته الله ذلك من ثلاثة وجوه فيقول رحمته الله :

الوجه الأول : وهو ما يتذوقه أهل المعرفة وهو أن لفظة (عباد) خاصة
للمخصوصين، فإنها ما وردت في القرآن إلا لأهل الخصوصية العالية . وعلي هذا
فما من عبد من هؤلاء سأل الله تعالى إلا استجاب له، قال تعالى : ﴿لَهُمْ مَا
يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (١) وبهذا لا يرد السؤال .

الوجه الثاني : أن الدعاء هو العبادة والتضرع إلى الله تعالى والتملق شكراً
وخشوعاً بين يديه، فما قام عبد في هذا المقام إلا واجهه الله تعالى بوجهه ويكون
الدعاء من العبد دعوة الله تعالى أن يقبل عليه ويقبل منه .

الوجه الثالث : أن الدعاء مستجاب من الله تعالى يعجل ما شاء أن يعجله في
الدنيا ويؤجل ما شاء منه، وقد ورد في السنة أن المؤمن تعطي له خيرات جزاء
قربات فيقول : رب إني لم أعمل شيئاً من هذا، فيقول الله تعالى : هذا دعاؤك
الذي كنت تدعوني به في الدنيا أجلته لك، فيقول : ليته أجل جميعه.

الجهاد السياسي والفكري للإمام عليه السلام

* الإمام وثورة ١٩١٩.

* موقف الإمام من إلغاء الخلافة الإسلامية .

* تأييد الإمام لثورات وحركات الشعوب الإسلامية .

* الإمام والقضية الفلسطينية .

* الإمام والماسونية .

* الإمام والإشتركية .

* الإمام ونظرية دارون .

الإمام وثورة ١٩١٩^(١)

لعل أهم ما عاصره الإمام من أحداث سياسية في عصره هو الاحتلال البريطاني لمصر والسودان، فكم كان الألم يعتصره بشدة لهذه الأحداث، وكان دوره فعال وإيجابي في محاربة الاستعمار ومقاومة الفساد، وعمل على نهضة الصحافة دينياً وسياسياً واجتماعياً إلى غير ذلك مما كان يقوم به من أعمال لخدمة دينه ومجتمعه لا سبيل إلى حصرها .

لقد استشري الفساد في مصر في عهد الخديوي إسماعيل، وما أن تولى الخديوي توفيق الحكم (١٨٧٩-١٨٩٢م) حتى كان الأمل نحو حكم أفضل استبشر به الجميع، ولكن الأمر لم يختلف عن سابقه، بل إن الخديوي توفيق كان حريصاً على الاستئثار بالحكم والسلطة، بالإضافة إلى أنه لم يستطيع تحمل مسئولية إنقاذ البلاد مما أصابها من ضعف سياسي واقتصادي .

ظل أبناء الشعب يفكرون في طريقة حاسمة ترد إليهم حقوقهم المغتصبة وحرّياتهم المفقودة، فقامت الثورة العربية سنة ١٨٨١م بزعامة أحمد عرابي، وقد التف حوله كثير من أبناء الشعب المخلصين، فالثورة العربية هي أولى الثورات الوطنية التي عاصرها الإمام، صحيح أنه كان صبيّاً في سن الثانية عشرة من عمره، إلا أن مستوي فكره كان يسبق سنه بكثير وكل من حوله والعارفين به عن قرب قد شهدوا له بذلك، وقد كان رأي الإمام أن الثورة العربية فرقت الشعب المصري لصالح الإنجليز مما أدي إلى احتلالهم لمصر ١٨٨٢م بعد معركة التل الكبير .

(١) مفهوم الثورة عند الإمام: كلمة حق عند سلطان جائر

وقد انصهرت أحاسيس الإمام مع أحاسيس الشعب المصري معاناة من الاستعمار البريطاني، لما يلاقيه الشعب المصري من إذلال وهوان .

وفي عام ١٩٠٦ (١٣٢٤هـ) أصدر الحاكم الإنجليزي لمصر وهو اللورد ((كرومر)) أمره الرهيب بشنق عدد من الفلاحين الذين قاوموا بعض الجنود البريطانيين في قرية دنشواي وقد تحدى اللورد كرومر مشاعر الشعب الوطنية، ولم يهنأ له بال حتى نفذ أحكام الإعدام فيهم شنقاً، حتى أصبح مجرد سماع ذكر اسمه يثير شعوراً بالسخط والاشمئزاز، لارتباطه بمفاسد وظلم وجرائم توجّهها بحادثة دنشواي .

وكان لمصطفى كامل دور كبير في فضح أساليب بريطانيا وكرومر في الصحف، وفي نفس الوقت كان الإمام ~~الملك~~ علي اتصال دائم بالزعيم رغم وجود الإمام في السودان، وكذلك محمد بك فريد وعبد العزيز جاويز، لا ليطمئن على الأحوال وسير الأحداث ولكن ليساهم بالرأي والمشورة في اتخاذ القرار، وكان للإمام نصيب وافر في كشف وفضح أفعال الهلباوي الذي وقف موقف المدعي من هؤلاء الفلاحين الشرفاء لإصدار قرار الإعدام شنقاً .

إن حادث دنشواي كان النهاية لحكم الطاغية كرومر، وكان الإمام يدعو الله كثيراً أن ينتقم من هذا الطاغية، ولما ازداد جبروته التجأ الإمام ب كله إلى ربه طالباً غارة الله لتخلص مصر منه، ثم أملى قصيدة وطلب إرسالها إليه، وقد تحققت دعوة الإمام ~~الملك~~ وفضح كرومر عميد الطغيان وأقصي عن مصر وذهب إلى غير رجعة .. وهذه أبيات الرسالة التي توجه بها الإمام إلى المولي عز وجل في عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م):

إلّكم أمري أيا مولاي أرفعه والعبد يسأل بالإخلاص مولاه
أنت الغيور على الفقراء تنصرهم ومن أتي ضارعاً لله أغناه
يا سيدي غارة من سوط نقمتكم علي من يرد ذلهم والناصر الله
طغي علينا بما قد نال من نعم من زينة العرض الفاني ومبناه
وليس للفقرا غوث يغيثهم إذا رموا غير قولي : حسبي الله
يا غارة الله إن الظالمين طغوا بغيا علينا وكيد القوم نخشاه
فأسرعي في دمارهمو بكارثة ترمي عميدهم^(١) فالبغي أعماه

وكان لا بد من خلاص .. فجاءت ثورة ١٩١٩، ولسنا هنا بصدد الحديث
عن هذه الثورة بمبلاساتها وأحداثها السياسية ونتائجها، فقد سرد التاريخ عنها ما
يكفي .

لكننا نناول ثلاث نقاط محددة هي :

- ١- كيف بدأت الفكرة وكيف أخذت دورها في التنفيذ .
- ٢- دور الإمام عليه السلام في النصح والإرشاد والتوجيه شعباً وحكومة
وقادة، سواء دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً .
- ٣- دور الإمام عندما أراد المستعمر أن يقصم ظهر الأمة والإسلام ويجعلها
شيعةً وأحزاباً - وهو أسلوبه الدائم في مثل هذه الظروف - حتى تكونت الأحزاب
السياسية في مصر لتزداد الأمة تفرقاً وتطاحنًا وكراهية ونفوراً فيما بينها .

(١) يشير إلى اللورد كرومر

وسنعرض على القاريء هنا بعضاً من المقالات التي أتيح لنا العثور عليها من الصحف ومن المجلات المشهورة وقت ذاك، وخطاباته إلى حكام وزعماء الأمة وزعماء ورجال الأحزاب، وهي ترجمة حقيقية لما كانت عليه أوضاع الأمة حكاماً ومحكومين، ويتضح منها أيضاً منهاج الإمام في معالجة الأمور، فهي مهمة رجل الدين الحقيقي الذي لا يخشي في الله لومة لائم .

كانت الصفة البارزة للمقالات بالصحف والمجلات في ذلك الوقت تعف الأعين عن قراءتها، وفيها من المهارات ونهش الأعراض ما يجد رواجاً وإقبالاً من السواد الأعظم من الشعب المصرى، وخصوصاً بعد أن تغلغلت تلك الحزبية البغيضة فيه، حتى كان للأسرة الواحدة اتجاهات حزبية متعددة ينابذ لها بعضهم بعضاً .

وكان الإمام يلتقي بالمفكرين والأدباء والزعماء السياسيين ومن بينهم سعد زغلول، حيث دار الحديث بينهما يوماً عن تلك الأوضاع المتردية التي تعيشها مصر في ظل الاحتلال والقصر والحكومة، وسأل الإمام سعداً فقال :

= يا سعد بكم تشتري العبد اليوم؟

-يا مولانا لا يوجد عبيد تباع في أيامنا هذه .

= لو افترضنا يا سعد أن العبيد تشتري في أيامنا هذه .. فبكم تشتري العبد؟

-يا مولانا إن ثمنه لا يقدر بمال .

= وهنا يقول الإمام : يا سعد .. إن العبد كما قلت لا يقدر اليوم بمال، فما بالك إذا كان حرّاً؟ يا سعد .. اتق الله في اثني عشر مليوناً من المصريين الأحرار^(١)، إنهم أمانة في عنقك يسألك الله عنها يوم القيامة .

*ثم قال : يا سعد .. إن أمامك غربة قصيرة .. بعدها تكون زعيماً لهذه الأمة^(٢)، ثم تركه وانصرف، بعد أن حثه ليبدأ المسيرة، وبعد أن بشره بما سيؤول إليه حاله مع الأمة .

وتعددت لقاءات سعد ورجاله مع الإمام بعد ذلك مرات ومرات، ولم يكونوا أيضاً بغرباء عنه، فقد كانت تربطهم به الصلة أيام الشباب، وكم دار الحديث بينهم وبينه، وكان الرجال يجتمعون مع الإمام بعيداً عن الأضواء، ثم نقلوا اجتماعاتهم في النادي الذي عُرف فيما بعد باسم ((النادي السعدي))، كان من بينهم محمد محمود باشا، وعبد العزيز باشا فهمي، وإسماعيل باشا صدقي، وعلي باشا ماهر، ومحمود فهمي النقراشي باشا، والغرابلي باشا وغيرهم من رجالات ١٩١٩، وكان عدلي باشا يكن في فرنسا فأرسل سعد مندوبين عنه لملاقاته والاتفاق معه .

وكان الإمام شديد التضرع إلى الله أن يبارك هذه الخطوة .
وأثناء لقاء هذه المجموعة في النادي، وبعد أن تعاهدوا على خطتهم وأثناء مرورهم من الردهة للخارج، وضع محمد محمود باشا عصاه بحيث لا يمر أحد وقال

(١) تعداد مصر في ذلك الوقت

(٢) الإمام أول من لقب سعد زغلول بلقب زعيم الأمة.

: لن نغادر هذا المكان إلا إذا تعاهدنا بصدق على تنفيذ ما اتفقنا عليه، فتعاهد الجميع ثم انصرفوا .

ولما ذهب سعد زغلول وصحبه إلى دار الحماية عقب مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٨ ليطالبوا بحقوق شعب مصر في الحرية والاستقلال وطالبهم المنسوب السامي بإبراز ما يثبت توكيلهم عن الأمة، عاد على باشا شعراوي وحمد باشا الباسل إلى مصر وطلبوا من الإمام أن يجمع لهم توقيعات أحبابه ومريديه، فاستمهلهم أسبوعاً ليكون عندهم عشرات الألوف من العرائض الموقع عليها من المواطنين بعناوينهم.

وفي مقالة من مقالاته التي أراد بها أن يكشف النقاب تماماً عن الدور

الذي تقوم به بريطانيا، نختار هذه المقالة المنشورة في جريدة الأخبار^(١)

الإنجليز ينازعون الربوبية^(٢) لكل حق حقيقة، وحق لا حقيقة له باطل،

ما حقيقة حق الإنجليز في مصر؟

>> اعجب معي أيها القارئ!! الإنجليز يحرقون الرقيق السود ويستعبدون

الإنسان الأبيض، هل هذا حق له حقيقة؟ الإنجليز يغرون الأمم بالخروج على حكوماتهم ويدخلون بين الهيئتين بصفتهن رجال الإصلاح كما نشروا أيام أثاروا العداوة بين الجيش والخطيوي الأسبق وحشدوا جيوشهم وأساطيلهم لتأييد الخطيوي وإصلاح الأمة، وما يعلم إلا الله ما كانوا يضمرون من سوء لأمة وادي النيل من منابعه إلى مصابه .

(١) جريدة الأخبار أسسها يوسف المخازن بالقاهرة سنة ١٨٩٦م.

(٢) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٢ العدد ١ ص ٣٣ (شوال ١٣٤٦ هـ)

الإنجليز أثاروا ثائرة السودان على إخوانهم في الدين والوطن >> المصريين<<، ثم فصلوا السودان عن مصر وجعلوا السودان للسودان في أيام غردون ومحمد أحمد، فكانت ثائرة الفتنة مستعرة من الإنجليز في زمن واحد في مصر والسودان وهم الذين طالبوا الحكومة المصرية بإرجاع السودان لتفقد مصر خيرة شبابها وصفوة أموالها، فكم قتل المصري أنحاً له سودائياً يناديه : >> أسألك بالدين والوطن <<، وكم قتل سودائياً أخاه المصري وهو يصيح بأعلي صوته : >> بحق الدين والوطن << . ولكن الإنجليز يسعون نار العداوة بما لديهم من قوة وبطش وخديعة .

لم تكن مصر والسودان خالية من عقلاء المفكرين الذين علموا آثار القوم في الهند والنوير وكندا وأستراليا، ولكن كيد الإنجليز أعمى بصائر المغرورين بأمانيتهم، لم تنس مصر والسودان لذة الحرية والاستقلال والمساواة على أرض هي تراث آبائهم الكرام، ونهر هو أبوهم وأمههم من قديم الزمان، ولكن قاتل الله أهل الأطماع وقبح الله أهل النفوس الدنيئة الذين صوروا أمة الإنجليز لأمة وادي النيل بصورة المصلحين، وقد كنت طالباً بالأزهر في هذا الزمن، فكنت لا أري جريدة في مصر إلا وعنوانات مقالاتها >> مصر للمصريين والإنجليز رجال الإصلاح << ولا يزال من هؤلاء الدعاة رجال أحياء يرزقون، ومنهم من يضرب على هذا الوتر غير هباب من غضب الأمة أو رضاها .

وإلي هنا أسأل النائب عن الإنجليز في مصر : ما هو الحق الشرعي الذي لك سلبته الأمة المصرية حتى تنذرنا بتلك الإنذارات التهديدية؟ الجواب : لا حق لك . وإذا كان لا حق لك شرعاً، فما السبب الذي جعلك تنذر وتهدد قوماً سلبت

حقوقهم واغتصبت حريتهم؟ مع أن الخلاق العظيم الملك المقتدر يأمر موسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون قائلاً :

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١)، وإذا كان ولا بد أن تبطش بقوة دولتك وحوّلها، فأعلن حرباً إنجليزية على مصر، وارم بمطاراتك بيوت الحكومة واهدم بها كل بيوت الأمة جمعاء . واجعل مصر استراليا الثانية، وأرح المجتمع المصري من هذا العناء .

المصريون يا عميد الإنجليز في بلادهم آمنون لم تمد أيديهم إلى ما يملكه الإنجليز، المصريون لم يحاربوكم في بلادكم بل ولا في مستعمراتكم، فما الداعي لهذا الإنذار والتهديد؟ أهل طلب مصري منك المعونة، أو التجأ أجنبي إليكم من ظلم المصريين؟ أم أن مصر من صحاري وسط أفريقيا كالنوير وغيره؟.

صارحونا .. هل أمركم المسيح أن تبيدوا المصريين أو تدمروا بلادهم؟ أنا أصارحكم : كل مصري - لا فرق بين المسلم والنصراني واليهودي - يأبى أن يكون مستعبداً في وطنه العزيز من المصريين، فكيف يرضي أن يكون مستعبداً للقوة القاهرة في يد من لا يراعون عهداً ولا ينشرون عدلاً ولا يحفظون ودّاً ولا يساوون بأنفسهم أمة ذات قوة ومجد باذخ؟.

يا عميد الإنجليز : القلوب لا تملك وإن ملكت الأجسام، والنفوس التي في المصريين لا تقهر وإن قهرت الأبدان، فاحذر غائلة تلك الشدة في الباطل، واجمعوا القلوب والنفوس بالعدل والمساواة، فأنتم المحتاجون إلى مصر، والمصريون أغنياء

(١) سورة طه آية ٤٤ .

عنكم، فتداركوا الأمر قبل فواته فقد كاد البركان أن ينفجر ويتحقق المثل >> المشادة تقطع الحبل << .

ويا فلذات أكبادنا ((النشء)): أنتم أمة الغد، والأعداء تعمل لقتلكم في المستقبل. بمذي يضعونها في أيدي صناعاتهم ممن يقولون اغننا اليوم وأفقرنا غداً، وإن يقظتكم قد هزت قلوب جميع المسلمين، والمظاهرة يا أبنائي وإن دلت على أنكم محافظون على ثغور الوطن من أن يدخل عدو على أعناق من يخافون من القوة الغاشمة ويطمعون فيما يمتنونهم به، ولكنني مع استحساني للمظاهرات السلمية أكره أن تتسلحوا بسلاح واحد، وأدعو نفسي وإياكم إلى أن نحصن الوطن بسلاح أمضي من هذا وهو: سلاح المقاطعة التجارية والتعاونية لا الإضراب عن تحصیل ما ينفعنا من العلوم والتجارات والصناعات، وهذا السلاح الماضي يمكن كل مصري من أن يطعن العدو في أئمن عزيز لديه حتى يشترك الوزير على مكتبه والخفير في دركه والجندي في ميدانه، أما المظاهرة يا أبنائي التي يصدم فيها المصري بالمصري، ونحدد للأعداء قوة بحجة تكون أجمل إذا شعرت الحكومة بما تشعر به الأمة ولم تصادر شباب الأمة الناهض إذا أظهر شعوره، كفانا ما أريق من الدماء في سبيل نجاة الوطن بسبب المظاهرات التي لم يقصد بها المصري إظهار شعوره، وبهذا يرجع إليكم الأعداء صاغرين، ولا تظنوا يا أبنائي أن نار الغيرة هي شرف الحرية والمساواة والعدالة التي هي فوائد الاستقلال تطفأ من قلب كل مصري مهما حابه الأعداء، ﴿وَمَا لَنُنْصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

وما أن بدأت المسيرة إلا وأملني الإمام مجموعة مقالات ظهرت في الجرائد، يحدد فيها الواجبات على كل فرد من أفراد الأمة سواء الزعماء أو الهيئات الحاكمة أو أفراد الأمة، وهذه إحداها قال فيها عليه السلام فيما يختص بأفراد الأمة:

الواجب على كل فرد من أفراد الأمة^(١)

>> قال عليه الصلاة والسلام : (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإذا تهاون إخوانك فاشدد لفلان يدخل العدو من قبلك)^(٢). وهذا الحديث الشريف أوجب على كل مسلم كمال اليقظة بالشئون العامة بعد قيامه بالشئون الخاصة، فمن شغله شأنه الخاص عن شأنه العام أنزل نفسه في الحضيض الأسفل حضيض البهائم السائمة وخرج من الإنسانية، فكيف يحكم على نفسه بالإسلام؟

سوي الإسلام بين كل الأفراد، فالحاكم على عرشه لا حق له على أحقر محكوم إلا بالحق، وأذل محكوم لا يخاف إلا ذنبه ولا يرجو إلا ربه، وإنما الحاكم منفذ لأحكام الشريعة، فأعز المسلمين لديه أذلهم ما دام عليه حق، وأذلهم لديه أعزهم ما دام الحق له، والأمة بأفرادها لا بحكامها، وبقدر علم الأفراد بما لهم وما عليهم تكون سعادتهم وتمكينهم في الأرض بالحق، والأمة هي التي تنوع الأحكام، فلو احتل أظلم الظلمة ووطن أمة عالمة بحقوقها قهرته على التجمل بالعدالة والفضيلة، وإن احتل من تحلوا بأكمل الفضائل ووطن أمة جاهلية أو متفرقة أو متصفة بالردائل صيرتهم بذلك ظلمة أشرار .

فالواجب على كل فرد متفاوت بحسب حال الأمة أنه إذا تولي الأمة أهل الولاية العاملون لخيرها، تمتع كل فرد بالخير من الأمن، والوسعة في الرزق، والعافية من البلايا، وخف الواجب على الأفراد، وإذا احتل العدو الوطن عظمت المسؤولية

(١) كتاب (الإمام محمد ماضي أبو العزائم) للأستاذ عبد المنعم محمد شقرف.

(٢) أبو داود وابن ماجة والدارمي ومالك في الموطأ.

على كل واحد من رجال الأمة، بحيث يتعين على كل فرد ما يناسبه من العمل، فإذا تعاون واحد منهم فوالى المحتلين أو سارع لخير شخصي أو كاد لأخيه الوطنى، فتح ثلثة فى حصن الأمة الحصين وثغراً من ثغورها المنبعة يدخل منه العدو على الأمة وذلك بعمل واحد منهم .

وأمة يسعى رجل فيها لخير نفسه معتقداً أن هذا الخير يضر الأمة، هو خائن لوطنه يجب أن يعاقب بحرمانه من الحقوق الوطنية ولو بلغ أرقى مقام فى الهيئة، لأن معظم النار من مستصغر الشرر، وهنا أضرب لك مثلاً يقرب الحقيقة :

تري الغيور لوطنه المسارع لخلاصه من يد الغاصبين إذا لاحت له منفعة لنفسه انقلب على الوطن فكان شراً من الغاصبين عليه، وتري الآخر يجتمع مع غيره فى أماكن الدعارة واللهو التى يديرها الأجانب فيجعلها نادياً للآراء فيعين الأجنبي بمال الوطن ويكاشفه بالأسرار التى يريد لها، وتري غيره يحكم هواه وحظه فينفذ عملاً يضر الوطن بأجمعه، ويزيد الطين بلة بعمل الإنتقام، وتري من يتشبه بالأجانب المشهورين بالغيرة لأوطانهم فيقوم ليعمل كعملهم جاهلاً أن دول أوروبا لديهم من الأسلحة والقوة ما به استقلوا واستعمروا واتحدوا علينا، ونحن الآن فى حاجة إلى تكوين الأمة وإصلاح ذات بينها وبيان السبل الموصلة إلى نجاح المقصد فيضر من حيث يعتقد النفع .

فإلى كل واحد من أفراد الأمة أقدم نصيحتي : أنت أيها الأخ عضو من جسد الأمة عامل لنفسك ولها، فالأمة فى حاجة إلى صحتك وعافيتك لتعينها، وأنت فى حاجة إلى الأمة القوية المنبعة لتنال بها العزة، فالواجب عليك أن تقدم خير الأمة على خيرك الخاص، وألا تقدم على عمل من أعمال العامة إلا بعد أخذ رأي أهل

المشورة والحكمة والتجارب ليكون عملك منتجاً للخير العام والخاص، إذ ليس الشجاع من قهر أقرانه، إنما الشجاع من قهر نفسه لتكون نفساً فاضلة عاملة للخير، وليس الوطني من دفعته غيرته فعمل على ما يضر الأمة ويمكن الأعداء، وإنما الوطني من عمل الخير لأتمته ودفع شر الأعداء بالحكمة .

وخير وسيلة لنيل الخير أن يثق كل فرد من الأمة بنفسه معتقداً أنه جندي من جنود الوطن، فيضع نفسه حيث يكون الخير للأمة، فإن كان من أهل الشوري فمعهم، وإن كان من أهل التنفيذ فمعهم، وإن كان من العمال الذين يجب عليهم ملازمة أعمالهم الضرورية للأمة لزم أعماله من زراعة أو صناعة أو حرفة أو تجارة . والفساد إنما يحصل بقيام كل واحد بعمل ما لا يحسن وترك ما لا بد منه .

وأهم ما يجب علينا الآن عمله : تكوين الأمة حتى تكون جسداً واحداً، ويكون كل فرد منها ككل عضو في الجسد، وبذلك تقهر أعداءها ولو اجتمع عليها كل من بأقطار الأرض، وأمة لم تعلمها الضرورة فلتتبوأ مقعدها من الذل، ومتي سعت الأمة إلى إصلاح ذات البين وعلم كل واحد منها ما يجب عليه فعمله، رقت وعزت .

وقد بينت بياناً للزعماء، وللأمة جمعاء، وللهيئة الحاكمة .. وهذا بيان للأفراد، ومتي صلح الأفراد صلح المجتمع، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً << .

وكان الكثير يسأل الإمام قائلاً : سل ربك أن ينجينا في قضيتنا لننال الاستقلال التام متمتعين في ظل الحرية والإرادة، فكان الإمام يقول لهم : يقول الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً { ٢ } وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)^(١)، وكان

(١) سورة الطلاق آية ٢، ٣

يقول لهم : اتقوا الله يا أبنائي وارجعوا إليه فإن الله تعالى يقول : (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)^(١).

إن القضية بالنسبة للإمام هي قضية التقوى، وعلي قدر ما يكتسبه المجتمع من تقوي على قدر ما يكشف الله به الغمة عن الأمة، وها هي بعض النصائح الدينية التي تبين لنا حقيقة الدور الذي قام به في وعظ الأمة وإرشادها .

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦.

حصنوا المجتمع بالفضائل الدينية^(١)

>> معلوم أن الحرب قائمة بين الحق والباطل من لدن خلق آدم . حارب إبليس آدم في الجنة حتى أهبطه الله منها، وقد وهب سبحانه وتعالى للإنسان عقلاً يعقل، وجعل له حداً محدوداً لا يتعداه، وركب في الإنسان من القوة الباعثة على الشرور الداعية للمفاسد ما لو ترك الإنسان وشأنه لألقته في الدرك الأسفل من النار في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيما يصيبه من الآلام والبلايا بسبب الحسد والطمع والحرص، وأما في الآخرة فبالعذاب الذي يستحقه لمخالفته للدين واتباعه لهواه.

والحكمة في أن الله خلق للإنسان العقل أنه سبحانه أهله للسعادتين، فالعقل يعقل بدائع إبداع صنع الله في هذا الكون الجلى، فإذا جاهد الإنسان النفوس بالعقل حتى صارت وسطاً متبعة للدين فاز بالسعادتين ونال الخيرين، وإذا أهمل العقل وانقاد لحظوظ النفس باء بالعناء في الدنيا والعذاب في الآخرة، وكلنا نعلم أن الأمم قبل الإسلام كانت بين جاهلية عمياء أو أمم فاسقة أو أمم بدلت الفضائل بالردائل وهي المبدلة .

حتى ظهر الإسلام فعم السلام، حفظت الدماء إلا دم أهرقه الشرع والعقل، حفظت الأعراض غيرة للشرع وحفظاً للشرف وخوفاً من فضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، حفظت الأموال من أن تتناول إليها الأيدي الأثيمة فيقطعها الشرع، حفظت العافية من سلبها بالخمور والحشيش والأفيون خوفاً من سلب الحياة

(١) المقالة الافتتاحية لجريدة الجمهور ١٧ نوفمبر ١٩٢٣ الموافق ٨ ربيع الآخر ١٣٤٢هـ

بالحدود الشرعية، سجنّت النفوس الظلومة في الأجسام خوفاً من سطوة الشرع وانتقامه برجال الغيرة المنفذين له .

عاشت الأمم في ظل الإسلام في سلام من سفك الدماء وسلب الأموال وهتك الأعراض ومن امتياز بعض الناس على بعض، لا فرق بين المسلم وأهل ذمة الله ورسوله في هذا الخير العام، حتى أغضب المسلمون ربهم وخالفوا وصايا النبي ﷺ وآله، وترك العلماء والوعاظ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى عم الخطب وصار العالم يقف على أبواب الأمراء والحكام ملتصقاً بزيادة مرتبه أو مضرة نظيره أو الظهور في الدنيا، وصار الواعظ يتخذ الوعظ سبيلاً لجمع حطام الدنيا وللشهرة فيها، مرض العلماء والوعاظ فصاروا أضرموا على الأمة من حمقها، وليس العلم ما به الوجاهة ورفعة الميزة بين الناس، إنما العلم ما به الخشية من الله والغيرة لدينه والمصارعة إلى محاب الله ومراضيه .

عجز العقل عن وضع الأنظمة التي يعيش بها العالم في سلام وأمان في الدنيا ويفوز بالمسرات الباقية يوم القيامة، وتحقق أنه لا يكون إلا بدین سماوي يأتيه به رسول من عند الله تعالى يقبله العقل ويرضاه يخرج الإنسان من الأخلاق الإبلسية والشهوات البهيمية والأطماع الإنسانية حتى يكون المجتمع كالجسد الواحد يعمل كل فرد للمجتمع ويعمل المجتمع لكل فرد، ولا يكون هذا الخير إلا بوازع ديني يقهر القلوب خوفاً من علام الغيوب، ويقهر الأجسام بتنفيذ الحدود في جلد وقتل ليستريح العالم من الظلم والتظالم والبغى، وقد جمع الإسلام من الآيات التي خشعت لها القلوب وزكت بها النفوس، ومن الأحكام ما علت بها الأجسام وضعفت الأوهام .

ولا سبيل إلى السلام والسعادة إلا بالرجوع لأحكام الإسلام، فقد أنتج إهمال إقامة حدود الله ظهور الفساد في البر والبحر، فأصبح المجتمع الإنساني كمجتمع وحوش في غابة تعيش فيها الحيوانات ضعيفة، فكيف تكون حالة تلك الحيوانات مع الوحوش الكاسرة؟! لا شك أنها ستكون شرًّا من مجتمعات الجاهلية، لأن الإنسان في الجاهلية كان محافظاً على بعض الفضائل كالكرم والنجدة والإغاثة وحفظ الجوار، وكان لتلك الفضائل رجال حمس .

وأصبح الناس وقد تركوا دينهم فتقهقروا إلى ذل الجهل وخزي الإباحة، وابتلوا بالحسد ونسيان يوم القيامة، فألفوا ما ينفر منه الحيوانات من فعل المنكر فانتشر الزنا بينهم علناً وهو أرذل الرذائل فاعتادوا عليه، وانتشر الخمر وهو أفسد المفسد فسارعوا إليه، وجعلوا الحانات وبيوت العهارة أندية للسمر ومجالس يفتخر بها من خسر الدين والدنيا، تركوا الدين فوكلهم الله إلى أنفسهم فصاروا عبيداً لمن كانوا لهم تبعاً، سلب منهم المجد فرضوا بالخزي، وسلبت السيادة فرضوا بالذل، ثم سلب المال فوقفوا على أبواب من كانوا يقفون على أبوابهم.

أين هذا المجد أيام تمسكنا بديننا؟ وأين هذا الشرف والعز أيام عملنا بسنة نبينا؟ أين تلك الغيرة على الأعراض أيام كانت الأمم تضرب بنا الأمثال؟ كيف يرضي المسلم أن يري بيوت العهارة وفيها الفتيات المسلمات يدخل عليهن من يعلمهن وفيهن قريته لأمه أو لأبيه أو لدينه؟

لنفرض أن الحكومة جعلت عليها حرساً ورخصت لمن في هذا العمل، فهل الحكومة أوجبت على المسلم أن يدنس دينه وعرضه وشرفه ويرجع بالجزام رغم أنفه؟ الإنسان له بصيرة على نفسه، فالحكومة رخصت للباغية والقرآن حرم الزنا،

ورخصت لأصحاب الحانات والشريرة حرمت الخمر، وجعلت حرساً على بيوت الزنا والحانات، فهل تطيع الحكومة وتخالف دينك؟ يغضب ربه الزاني والسكير والذي يتناول السموم من الخمر والحشيش والكوكايين يغضب النبي ﷺ وآله، ويقتل نفسه بالزهري والسيلان والسموم التي يتناولها وينشر أرذل الرذائل بعمله في أقاربه، لأن الفتيات إذا خدعن الغربي وجيوشه فمن الذي خدعك أيها الشاب المسلم وخصوصاً المتربى؟! وأنت تعلم شرو هذا العمل أيها المخالف لدينك .

أما تتقي الله وتحفظ صحتك وتحصن شرفك بين قومك وتدفع المصائب عن أمتك وتغار لأقاربك، أما الفضائل فهجرتها، وأما الرذائل فعملتها وأيدتها، وقد آن لك أن تنظر بعين البصيرة إلى مستقبلك، فإن دوام الفجور يؤدي بالإنسان إلى الهوان والخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقد قامت الحجة على تلك الحقيقة وظهرت لك الحجة التي بسيرك عليها تفوز بالخيرين وتسعد في الدارين، فارحم نفسك وارجع إلى العمل بالدين ولا تنظر إلى أوربا التي تركت الدين، فإنهم تركوا دينهم وعملوا بحظهم في الدنيا فظفروا بالعاجلة .

وما تركوا دينهم إلا لأن العقول أنكرته، والمسلمون قلدوا أوربا في ترك الدين والعمل بأحكامه من غير بصيرة، فتركوا الحق الجلي الذي سجدت له العقول وبه مكن الله لنا في الأرض، فذلوا واستعبدوا العدو، ودين يتركه أهله فذلوا للأعداء حق عليهم بل يجب عليهم الرجوع إليه .

الصلاة طهارة ورياضة وعبادة، والصيام تزكية للنفوس وطهارة للأخلاق وصحة للأبدان وتشبه بالأطهار من عمار السماوات وعبادة لله، والزكاة رحمة

بالفقراء وتبرئة من البخل وجمع للقلوب على مساعدتك - ولو بالدعاء -
وحصون حفظ مالك ودمك وعرضك من الآفات وعبادة الله، والعقيدة التي هي
توحيد الله وتزيهه عن النظير والند والوالد والولد تكسبك عزاً ومجداً ومسرة في
الدنيا والآخرة وعلواً حتى لا تري فوقك إلا ربك، وتري العالم أجمع عبيداً مخلوقين
لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوي .

ارجع للعمل بدينك أيها المسلم تفز بما فاز به سلفك الصالح من التمكين في
الأرض بالحق، ومن العزة بالحق، ومن الحياة الطيبة في سلام وأمان ونعمة وإحسان
.. والله ولينا جميعاً <<.

الدين النصيحة^(١)

إلى الأمة المصرية الكريمة وزعمائها

>> الحق واحد ولكنه خفي على من غلبه الحظ، فإن العقل والشهوة ضدان،
فقد تتغلب الشهوة على العقل فتجعل الباطل حقاً والحق باطلاً، حتى يكون العامل
يضر نفسه وأمته وهو يعتقد أنه ينفع .

وللأمة حق وللزعماء حق

وحق الأمة على الزعماء

١- أن يستمدوا منها القوة، وأمة تمنح قوتها للزعماء يعملون ما يشاءون من غير
مشورتها وإرادتها أمة لا يعبأ بها ولا تنال مقصدها .

(١) جريدة الوطن العدد ٩٠٥٤، ١٣ شعبان ١٣٤٣ الموافق ١٨ مارس ١٩٢٥، ص ٦٤١ (أسسها ميخائيل
عبد السيد بالقاهرة سنة ١٨٧٧).

٢- أن تراقب أعمالهم فيما يتعلق بقضيتها، فلا تمنح ثقتها في كل عمل إلا بعد أن يتبين لها أن الزعماء يعملون لخيرها بأسلوب منتج للخير المطلوب مع الشجاعة التي تجعلهم يؤثرون الأمة على أنفسهم .

٣- الضرب على أيدي المفسدين الساعين في التفرقة مهما كانت منزلتهم أدباً لهم وإنذاراً لغيرهم من أمثالهم .

* وللزعماء حق على الأمة وهو :

١- تشجيعهم بالقول والعمل إذا أخلصوا للأمة .

٢- تنفيذ آرائهم إذا كانت لصالح الوطن .

٣- دفع كل معتد عليهم مهما كانت منزلته .

٤- ستر عوراتهم التي ليسوا معصومين عن الوقوع فيها لأنهم ليسوا أنبياء .

٥- المسارعة إلى نصيحتهم بأسلوب الحكيم .

٦- مصادرة كل من يشيع عنهم ما ينفرهم .

وهنا يجب البيان كل البيان : كلنا نعلم أننا إنما وثقنا بالزعماء لننال الخير لأنفسنا ولهم، فإذا أثر الزعماء أنفسهم علينا وجب علينا أن نسلب الثقة منهم ونقوم للعمل لأنفسنا بأنفسنا، فإن الأمة إذا اجتمعت قهرت كل عدو ولو اجتمع عليها من أقطارها .

وخير الزعماء من كان أول عمله إصلاح ذات البين، وإعطاء كل ذي حق حقه حتى تكون الأمة كالجسد الواحد يحيط بالقلب، والعقل هو صاحب العرش، والأمة جمعاء هي أعضاء الجسد كل فرد منها ككل عضو من الجسد، ولا تنال الأمة هذا المقام الذي يجعلها مهيبة عند أعدائها إلا بالتمسك بالدين والعمل به

ليكون سلطان الدين قوياً على القلوب يدفعها إلى الخير، وميتي اجتمعت قوة الدين على القلوب وعلي الأجسام ظفرت الأمة بالخير العاجل وبالسعادة في جوار الأطهار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. والله ولي المؤمنين <.

وقد جاء في خطاب أرسله الإمام عليه السلام إلى سعد زغلول يناصره ويشجذ من همته وينفث فيه روح الإيمان طالباً منه أن يلم شمل الأمة ويجمع كلمتها :

>> تعلم أيها المجاهد الكبير أن قدر الرجال بنتائج أعمالهم لا بآمالهم، وبقدر تأثير النفوس لتزكو وتتعاون على الخير لا بقدر ما ينالون من العلو والخط، إنك يا أخي قد أظهرك الله في وقت اقتضت أحداثه أن يكون كل مصري جندياً يمد يده إلى قائد قوي الإيمان يأتي بما يستوحش منه أهل الأهواء، صغرت في عينه المناصب وإن جلت، واحتقر الحمد على من لم ينل، وإنا لنعلم منك الإقبال في وقت الفرع والتمسك بمعالى الأمور والغيرة للحق، ونعلم أن الأمة تحققت ذلك عن يقين، وإنك يا دولة الرئيس تعتقد أن كل مصري حريص أن يعيش حراً مستقلاً وقد ضحي في سبيل ذلك بالنفس والمال والولد، وإنما هي الأخلاق تجمع إن أحسنت وتفرق إذا ساءت، وقد قال تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١).

وإني أشكر الله على ما أغاثنا به في هذا الوقت الحرج من الصفاء بعد الجفاء والتناصر بعد التخادل، وأشكركم يا دولة الرئيس على الحجة التي أقمتوها لأنفسكم بالمسارعة إلى ما به صحة الجسد المصرى، وأرجوكم بعد أن ظهرت لكم نتيجة جمع كلمة الأمة أن تداووا بقية أعضاء هذا الجسد المبارك حتى تعم المسرة

(١) سورة فصلت آية ٣٤

كل بيت بوادي النيل، بل يسري السرور إلى كل أمة إسلامية وشرقية، ويسري إلى
سلفنا الصالح في روضاته كي ننال بهذا العمل المبرور رضوان ربنا جل جلاله
وسعادتنا في هذا الزمن وخيرات أبنائنا من بعدنا في المستقبل، والأمر سهل على
رجل عظيم مثلك وجه وجهه لإنقاذ وطنه وأمته من وحلة الاستعباد وظلمة
الاستبداد .. والله داعياً أن يطيل عمرك عاملاً للخير داعياً إليه <<.

الحالة الحزبية في مصر

انتهت ثورة ١٩١٩م، وأفرجت بريطانيا عن سعد وصحبه، وأصدرت تصريح فبراير ١٩٢٢م تمنح به مصر استقلالها الذاتي مع تحفظات أربعة، وإقامة حكم نيابي ديمقراطي ومنح الملك شعبه دستور ١٩٢٣م . وأسرع السياسيون إلى إنشاء أحزاب سياسية كانت نكبة سياسية على البلاد حيث فتت وحدتها وبددت كلمتها بعد اتحادها في ١٩١٩م ووزعتها طوائف متنافرة مختلفة فيما بينها، متفقة على إرضاء المستعمرين ولو على حساب الشعب ومصيره ومقدراته، وظلت الأحزاب تتطاحن وتتناطح وتنافر لمصلحة الاحتلال، وسعدت بريطانيا بهذا وتركتهم بعضهم بموج في بعض، وتجاوزت الخصومات الحد في التطاول على الأعراض والحرمان .

وهذه مقالة تبين مدي انفعاله ~~الملك~~ مع أحداث الوقت، وفيها ينصح الأمة بالإدلاء بأصواتهم لمن يستحق تمثيلهم :

انتخبوا أهل الغيرة والحكمة^(١)

>> الأمة محتلة بالأعداء يفعلون بها ما يشاءون، والنفوس مجبولة على التأثر بالخوف والرجاء، والأعداء بيدهم كل شيء يطمعون ولا يخافون لأنهم تمكنوا من تفرقة الأمة حتى صار بعضها يحارب بعضاً شأن من يجهل مقتضي الوقت .

(١) المقالة الافتتاحية بجريدة الوطن: العدد ١٦٩٠٠٢ جمادي الآخر ١٣٤٣

الأعداء يعلمون أن الأمة ليس بيد أفرادها أسلحة، وليس لها إلا القوة المعنوية وهي اتحاد الأمة على العمل لنيل استقلالها وإجلاء عدوها، ولو علم الإنجليز أن الأمة تتحد ما منحتها الحرية في الانتخاب وتشكيل مجلس الشورى، ولكن اليد التي منحت عملت عملاً جعلت تلك المنحة شرّاً على الأمة .

وقد آن للأمة، وأخاطب الهيئة المحكومة، أن تعمل لنفسها بنفسها عمل من يأمل الحياة في أمن وعافية ووسعة في الرزق وكفاها تجارب، قلت كثيراً إن الحكومة الآن كالبرزخ بين الأمة وأعدائها، لا يمكنها أن تقف موقف الشدة أمام عدو قوي عززته الأساطيل والجيش، فترعت الرحمة من قلبه، لا يرحم إنساناً ولا يرضي إلا باستعباد غيره، فالحكومة إن تمسكت بمداواة الأعداء فذلك لعلمها بواجب الوقت، ولكن الأمة هي وحدها هي التي يمكنها أن توقف الأعداء عند حدهم بانتخابها أهل الغيرة والحكمة الذين يمثلونها وتكون من ورائهم منفذة لآرائهم لما علمته منهم من إثارها على أنفسهم ومن التفاني في نيلها الخير .

ونحن الآن في غني عن غيور لا حكمة عنده، وعن حكيم لا غيرة له، والطبيب إذا جرب دواء فلم يعد بالعافية عدل عنه إلى غيره، والواجب علينا أن نخلص في العمل ونترك العواطف وراء ظهورنا وننظر بعين ملؤها الحذر، فلا نضع ثقتنا إلا فيمن تقوم له الحجة على أنه الرجل الحكيم الغيور الذي يرد الأعداء بحكمته ويقهرهم بغيرته، فلا يجبن في وقت الشجاعة ولا يشدد في وقت اللين، وفي مثل تلك الظروف يجب أن نقف عند الحق لأننا في ميدان جهاد بالرأى، وكم من موثوق به خارت عزيمته في مثل هذا الميدان، وإنما مجلس الشوري رجال قليلون

بالنسبة للأمة، فإذا انتخبنا بالعواطف وسعي كل فرد لنفعه الخاص كان ما لا تحبه الأمة .

أنا لا أشك أن الحكومة ضيقت دائرة الانتخاب بتقدير المائة والخمسين جنيهاً، وحرمت الأمة من كثير من أهل الرأي والسداد والحكمة والغيرة، إلا أن الأمة يمكنها أن تتحري انتخاب أهل الإخلاص والتقوي الذين إن لم يمنعهم عن الدنيا نسبهم يمنعهم التقى والخشية من الله تعالى والحرص على خير الأمة، يجب على الناخب أن ينتخب من تطهر من حب الانتقام، ومن الطمع في مال غيره، ومن التساهل بدينه ووطنه، ولم يثبت عليه ما يشينه حتى تطمئن الأمة بنواها ويخشاهم العدو ولا يخشونه.. والعاقبة للمتقين .

وكان سعد زغلول شديداً جداً في خصومته الحزبية، فلم يترك الإمام نصحه، وإنما أرسل رسالة خاصة تتناول هذا المعنى يقول له فيها :

>> تذكر عند زيارتي لكم أني طلبت منك أن تعفو عمن ظلمك، وأن تحسن إلى من أساء إليك - وكان ذلك قبل سفرك إلى سيشل ببضعة أيام - فأجبتني قائلاً : أنا لا أملك العقوبة فكيف أملك العفو ؟ فأخبرت أن الله سيقدر لك ملك العقوبة والعفو، فأجبتني : لديها أفعل ما تحب، وكان معك النقرashi فدعوت لكمما وانصرفت .

والآن وقد أقامكم الله مقاماً، يجب عليكم أن تشكروا من تفضل عليكم به، بالعفو والإحسان إلى خلقه، خصوصاً والشأن يهم الجميع والله تعالى يقول : (وتعاونوا على البر والتقوي) ^(١) ويقول : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ

(١) سورة المائدة آية ٢

الْجَاهِلِينَ ﴿١﴾ .. وإني أسأل الله أن يشرح صدركم إلى ما به الظفر بقضيتنا،
وتقبل نصيحة من رجل يحب لك الخير في الدنيا وحسن الأحداث بعدها والنعيم
المقيم يوم القيامة <.

ثم قدم الإمام النصح والإرشاد لكل الزعماء بدءاً من سعد زغلول فقال^(٢):

>> قال ﷺ وآله: (لا تزال أمتي بخير ما وقر صغيرهم كبيرهم، ورحم
كبيرهم صغيرهم)^(٣) هذا الحديث هو الأصل، الذي بالعمل به تكون الأمة
كالجسد الواحد الصحيح القوى، وميتي احتقر الصغير الكبير وظلم الكبير الصغير،
تفرقت الأمة وضعفت وتمكن منها عدوها .

فإلي رجال الحكومة : إنكم أفراد من الأمة، وإن ما تمتعتم به من نفوذ الكلمة
ومن واسع النعمة ومن الجاه والعزة، إنما بالأمة ومنها، فإذا عاديتكم الأمة وهي
مصدر هذا الخير لكم وأرهبتموها بالحديد والنار قتلتم نفوساً أنتم في حاجة إليها،
وأضعتم ثقة من القلوب لا غني لكم عنها، وفتحتم على الأمة أبواب الشرور من
الجن والعمل على نيل السلامة منكم بالمكر والخديعة، فيهملوا الواجب عليهم من
التعليم والتجارة والصناعة والزراعة، ويخرج بعضهم على بعض فيتفرقوا شيعاً
وأحزاباً، وهنا تحدث الطامة الكبرى وهي : إما غضب القهار المنتقم فيسلب الحكم
من أهله، وإما تسليط العدو الغاصب على الحكومة أولاً وبالذات، فيصير الحكام

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩

(٢) المقالة الافتتاحية بجريدة الأخبار في نوفمبر ١٩٢٥م الموافق جمادي الأولي ١٣٤٤هـ

(٣) رواه أحمد وأحمد والحاكم بلفظ " (ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعلمنا حقه)، ورواه الطبراني
في الكبير بلفظ: (البركة في أكابرنا، فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا)، ورواه أبو داود بلفظ: (ليس
منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا)، والترمذي بلفظ: (ويعف شرف كبيرنا).

بعد العزة أذلاء، وبعد القوة ضعفاء، وبعد الغني فقراء، وتصبح الأمة مستعبدة بعد الحرية، مملوكة بالأعداء بعد أن كانت مالكة، وهذا هو نتيجة محاربة الحكومة للأمة، وليست الممالك التي انهارت والأمم التي اندرست إلا بسبب هذه المظالم . وبعد أن خاطب العلماء، وخاطب طلبة العلم، والتجار، والعمال والصناع، خاطب رجال الأمة جميعاً فقال :

يا رجال الأمة جميعاً : إن تقليد أوروبا في النظم التي وصلت إليها بعد قرون طويلة قلدت فيها سلفنا الصالح رضي الله عنهم حتى نالت ما هي فيه الآن، تقليدنا إياهم هذا في الاختلافات الحزبية سبب الانحطاط، لأننا في حاجة إلى تكوين قوميتنا بالاتحاد وإلى حفظ ثروتنا بما ينميها لنا من رقي الصناعة وتقدم التجارة والعناية بالزراعة حتى تكون الأمة غنية بما لديها من أسباب السعادة لا تحتاج معها إلى الأجانب في كل أمر من أمورها، انظروا إلى ما آل إليه حالكم، لقد أصبحتم أحزاباً تتطاحنون مع أن القصد واحد، وإنما الاختلاف لا سبب له إلا الطمع .

أوروبا كثرت فيها الأحزاب، ولكن لكل حزب مقصداً خاصاً به كحزب أصحاب رءوس الأموال وحزب الصناع وحزب العمال، ولقد قلد الأتراك أوروبا ولكن بعد أن فازوا بالحرية والاستقلال وإذلال أعدائهم .

الأحزاب أحزان في أمة تجاهد لدفع العدو الغاصب، والتفرقة في أمة لا قوة لها على دفع عدوها الرابض في عقر دارها هي موت أبدي، فليضح كل فرد من الأمة بكل رخيص وغال لنيل الخير العام، وليحقر كل رجل ما يناله من الجاه والسلطان الذي يكون فيه ذله وذل أمته < .

وسبق أن أشار الإمام عليه السلام إلى ثورة ١٩١٩ بأبيات نظميه ترجع إلى عام ١٩١٢ م وقت أن كان بالخرطوم، ثم تصويره لأعقابها وإشاراته إلى من يأتي ليحمل مسئولية تحرير هذا الشعب، ليجعلنا نتمثل أنه يعيش الآن، بين ظهرانينا ليشهد تحقق مقالاته التي تعد ترجمة صادقة عن غيب مصون كما كان يقول عليه السلام وعندما دعي الإمام عليه السلام سعداً وصحبه إلى الائتلاف عام ١٩٢٧، وركز بالذات على سعد، وتحقق ذلك في عام ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة مع بريطانيا، سأل الشيخ أحمد السبكي المحامي عما إذا كان هذا الائتلاف هو ما دعا إليه الإمام في أبياته فقال : إن هذا ليس ائتلافاً وإنما هو رضوخ لإرادة المحتل الغاصب وإذعان له وامتهان لكرامة الأمة وضياع لتضحياتها ودمائها الغالية واستسلام مهين من قادتها وزعمائها، وإنما الائتلاف سيكون بالقضاء نهائياً على الحزبية البغيضة واندماج الأمة في وحدة تحقق لها أهدافها .

ومات سعد ^(١)، وظل الإمام في نصحه وإرشاده للأمة وزعمائها :

إلى الأمة المصرية ^(٢)

>> قائد الجيش، وربان السفينة، والطبيب الاختصاصي ووصي الأيتام .. عليهم واجبات تتفاوت بقدر ما ينتج من عنايتهم أو إهمالهم، ولكن فوق تلك المسئولية مسئولية الزعيم الذي ملك القلوب فجعلها تقتدي به اقتداء الوثائق المطمئن، فإن الزعيم يجب أن يكون قادراً على توحيد الصفوف عند تحقق الخطر، وأن يكون يقظاً كل اليقظة نحو ما يصدر صفوف الأمة ويفرقها أيدي سبأ،

(١) توفي سعد زغلول سنة ١٩٢٧، وخلفه مصطفى النحاس في رئاسة حزب الوفد

(٢) المقالة الافتتاحية بجريدة السياسة الصادرة بتاريخ ١٩٢٨/٦/٣٠ الموافق ١٢ محرم ١٣٤٧

وتكون المسؤولية أعظم إذا كانت الأمة تواجه عدوها، وتشتد المسؤولية إذا جاس العدو خلال ديارها وغمز قوة ارتباطها فطعن في دينها، فإنه القوة الحساسة التي تدل على حياة الأمة أو موتها، فإذا كان العدو جاس خلال الديار وطعن في الدين - لا أقول طعن في الإسلام فقط بل طعن في كل دين سماوي - فهنا يجب أن يكون الزعيم كيعسوب النحل، يحرص على جمع الكلمة، ولم الشعث، والمسارة إلى إصلاح ذات البين، لا يخرج غضبه عن التضحية بنفسه في سبيل حياة الأمة التي اختارته، ولا يدفعه رضاه إلى الخنوع للعاطفة فيفسد القلوب ويجعل الأمة متفرقة .

نحن لا نشك أن كل زعيم ينيل الأمة الخير على يديه، فيبذل ما في وسعه لذلك . لا أقول هذا القول جزأً لأني أعلم أن الزعماء الذين رفعت الأمة شأنهم بنفسها لم تكن الأمة لاعبة ولا هازلة، ولكن البلاء كل البلاء من خصال ثلاث : أولها : شح الزعيم بما ناله من المجد أن يضيع منه، فيعادي من واجهه بالنصيحة ويحارب من طالبه بالقيام بما عاهد الأمة عليه .

والخصلة الثانية : إعجاب كل زعيم برأيه فيخاصم أهل الآراء المخالفة له ولو كانوا على الحق، ويهرع معه أنصاره فيصيحون ويصخبون من غير بصيرة في الأمر ولا عبرة بالأحداث .

والخصلة الثالثة : اتباع الهوى، والهوى أخو العمى، ومن اتبع هواه في هوة الخزي أرداه، ومن لم يضح بالمال والجاه ليدفع عن الأمة شر تمكين الأعداء كان ماله وجهه عليه وبالأ .

وإلى الأمة الكريمة : إنك تجاهدين، فإذا أنالك الله الخير بجهادك كان أوفر قسط منه للزعماء، وليس الزعماء معصومين، أو ممن ربتهم مصر في عهد علمي خاص بتربية الزعماء، وإنما هم رجال ولدتهم الأحداث العظام، والأمة ضحت في سبيل رفعتها بقناطير من الدماء الغالية والمهج العزيرة ليجمعوا الأمة على المطالبة بحقها والعمل بإشارات أولياء أمورها العاملين للخير العام، فإذا أخطأ رجل يجب أن تستر الأمة خطيئته محافظة منها على وحدتها حتى تتجاوز هذا الخندق الخطر، وإن أحسن رجل فيها يجب ألا تتغالي في مدحه خوفاً عليه من أن يدفعه الزهو إلى الوقوع في خطأ يقع الأمة فيما لا ترضاه بل تنتظر عليه حتى يصفى الحساب .

والعاملون المخلصون للأمة هم الذين تضحل في أعينهم الأموال والرتب ليجعلوا الأمة كالجسد الواحد فيكونوا كالأطباء الرحماء الذين يعالجون أمراض الأخلاق وأدواء النفوس ويحصنون الأمة بحصون الحيطه، والتحفظ من انتشار الأمراض الممزقة لجسد الأمة كما يفعل رجال الصحة إذا علموا بانتشار مرض معد في بلد ما . ورب زعيم يسره قهر فئة من الأمة لمخالفتهم له، فهو كالأحمق الذي يقطع يده بيده الأخرى، خصوصاً أن الأمة المصرية الآن عزلاء، وقد أصبح أمضي سلاح لها أن تكون كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وبذلك ترسو سفينة الأمة على جودي السلامة .

وعلي الأمة أن تعلم أن مصر ليس لها عدو أنكي بها من : مصري يؤثر نفسه على مصلحتها في وقت الفزع الأكبر، وهؤلاء هم الذين يمكنون الأعداء منا، فلنتدارك نحن أفراد الأمة، فنتحفظ من كل ما يسعى لتفريقنا، قال حكيم : عدو عاقل خير من صديق جاهل . ولا يريد الحكيم بالصديق الجاهل كل من لم يتعلم أو من لم ينل شهادة عالية، ولكنه يريد بالحبيب الجاهل : الذي يقصد أن ينفع

فيضر، وذلك واقع في الأفراد . وقد يكون لك حبيب مخلص في محبتك مغال في ودك فيضر من حيث يعتقد أنه ينفع لجهله بالوسائل المنتجة للخير، وكم من عالم حصل أمثال الجبال علماً وهو يسارع في إهلاك نفسه بمخالفة علمه حرصاً على ما يفني زهداً في ما يبقى - قال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوي ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)^(١) < .

النصيحة أغلي ما يباع ويوهب

(إلى الأمة المصرية الكريمة .. إلى الزعماء .. إلى الأحزاب)^(٢)

>> المقصود واحد، والوسيلة لنيله محصورة في نوعين عظيمين بهما فاز المجاهدون من قبل، وكل مجتمع تعادها فشل وذبح ريحه :

أولهما : تنوع أفكار الأمة بأحقية مطلبها حتى يحس كل فرد من أفرادها بما فقده من الخير العام الذي له فيه قسط وافر ولكل إخوته أفراد الأمة مثله من الخير، متحققاً أنه لا يناله حظ من ذلك الخير إلا بالتعاون والتعاقد وبايثار جميع أفراد الأمة على نفسه حباً في الخير العام، معتقداً أن كل خير ناله في سبيل جهاده لم يشاركه فيه غيره يعد خيانة تؤدي إلى تفرقة المجتمع وخروج بعضه على بعض، وكل زعيم أو مجاهد أثر نفسه على نظرائه أو على الأمة فتح ثغراً من ثغور الوطن لأعدائه أو للفتن - قال سبحانه يمدح الأنصار : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . وصحائف التاريخ مفعمة بآثار أفراد الرجال الذين نهضوا بالأمم

(١) سورة المائدة أية ٢

(٢) المقالة الافتتاحية بجريدة السياسة في ١٣/٧/١٩٢٨ الموافق ٩ صفر ١٣٤٧

ورفعوها إلى مستوي السعادة العظمى، ومن الخيانة الكبرى عدم معاونة من يؤثر على نفسه .

أما النوع الثاني : فهو قيام الأمة متحدة لتنفيذ الخطة الرشيدة التي وضعها أهل العقل والدراية والأناة والحلم الذين حلبوا الدهر أشطره وتحملوا بأحد الجمالين أو بهما معاً :

جمال التمسك بالدين .. وإيثار ما عند الله على ما في الدنيا، وهو ركن النهضة المكين وحصنها الأمين، والحقيقة التي تضمحل أمامها الحظوظ والأهواء، وتتضاءل تجاهها كثرة العدة والعدد وقوة الحديد والنار .

ثم جمال شرف المحتد : أي كرامة النسب ومجد الأسرة، حتى إذا لم يمنع الدين عن الدنيا منع شرف الآباء الكرام، لأن أهل بيوت الشرف يخافون على ما لهم من تليد الجحد ويحرصون على طارئه .

أيها الزعماء : ليس للمصادفة دخل فيما بلغتموه من ثقة الأمة، ولكنكم وجدتم يقظة من الأمة ومطالبة منها بحققها المغصوب، فاندجتم في سلكها، وتفوقتم في بيان الحق المسلوب، وأظهرتم حماساً وغيرة وإقداماً صادف هوي في نفوس القائمين بالنهضة واعتقاداً بأن القائلين يعملون، باذلين ما لديهم من المواهب العلمية والعملية والمالية في سبيل فوز الأمة بمطالبها العزيزة، فقامت من ورائكم ومن أمامكم تفديكم بالدماء الغالية والأموال العزيزة وتتلقى عنكم سعي المقذوفات وظلمات السجون حتى احترقت قلوب الأمهات على أبنائهن ونضبت خزائن المثرين من البذل، وبعضكم على ما هو عليه من حث الأمة وإغرائها، حتى بذلت مالا يبذل إلا لمن نالوا أكثر المقصد وبقي بعضه، ثم ظهر أن كل ذلك كلام يرفع

الزعماء على رؤوس الأمة، والأمة متدهورة في أمورها الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية .

كيف لا ؟ .. وقد نسيت الأمة مقصدها الحقيقي وهو خلاصها من ربقة الاستعباد، ورق الاستبداد، والراحة من شرور الخلافات الحزبية، ومن المضار التي تقع على رؤوس الوثائقين بالزعماء من غير أن ينالوا خيراً أو يحفظوا ما لديهم من المال والصحة والراحة والأمن، ويزيد على ذلك ضياع نفائس الأنفاس في الشحناء والبغضاء .

هلموا بنا نواجه الحقائق : قام سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي يدفعهم إلى الإقدام همة الأمة المستعرة بنار الغيرة لنيل الحرية والاستقلال، فآثر سعد وطنه وأمهته على نفسه فقدم أطيانه الواسعة قرباناً للوطن، ثم قام رجل المهمة التي شهدت الأمة حبه لأعماله وشرف نفسه محمد محمود فقدم بيته لمجتمعات الأمة، وبذل ماله ونفسه مهاجراً إلى الدول الأجنبية النائية يدعوهم إلى تأييد الوفد، وقام الشيخ الوقور محمود باشا سليمان الذي أنفق ماله وجاهه ومكانته في القلوب فجمع الأموال الطائلة للوفد وملاً قلوب المصريين ثقة بالأبطال المؤمنين، وكان إذ ذاك على رأس الحكومة المصرية حسين رشدي باشا الذي أثار ثائرة الأمة وأبطالها غائبون عنها فأجمعت على المقاطعة في ظرف واحد، واحتج الأمراء وهيئة الحكومة وقضاؤها ورجال إدارتها وفلاحوها وصناعها في وقت كانت المقذوفات تصد نفوس الثائرين حصداً والأمة كتلة واحدة، حتى نزل الخصوم على حكمها وأعادوا

من اختارتهم من المنفي واعتلي سعد باشا منصة رئاسة الحكومة ^(١) رغم ما قدم له من نصائح عقلاء الأمة لينتفع به الوطن خارجها .

و كنت ممن زاره في بيته منفردًا وطلبت إليه أن يصل من قطعه، وأن يحسن إلى من أساء إليه، ويعطي من حرمه، محافظة على ثغور الأمة من ثلثة تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه، فإن معظم النار من مستصغر الشرر، حتى كشفت له الأحداث ستارها عما يجب أن يقوم به لحفظ وحدة الأمة، فأعلن بعد عودته من المفاوضات أن سعادة الأمة متوقفة على العمل بجد في تحسين حالتها الداخلية والاقتصادية والاجتماعية، والأخلاقية وهو رأي حكيم خبر الأمور، وتحقيق أن اشتغال الأمة بالشئون السياسية والمنازعات الحزبية من غير أن تكون الأمة ذات قوة ومنعة واستعداد .. سقوط في الهاوية .

ثم إنه - غفر الله له - نظر نظرة الرئيس الحكيم الراغب في سعادة أمتة وظفرها، فتحقق أنه لا نجاة إلا بالائتلاف وباستغلال مواهب رجال الأحزاب الأخرى للأمة، حتى تعود صفًا واحدًا كما كانت في أول النهضة، فدعا إلى الائتلاف، وتنازل عن رئاسة الحكومة وولاهها غيره بعد أن عاهده على الاتحاد معه على خير الشعب، ومات رحمه الله بعد أن بذر بذور الائتلاف في قلوب رجال حزبه، وبين لهم منفعة في الظرف العصيب التي كانت تحتازه البلاد .

وها نحن الآن وسعد قد مات، والمؤسسون للوفد مات بعضهم، والأمة بذلت دماء غالية وأمورًا طائلة لتنال باقية من آمالها فلم تظفر بها، والعدو رابض قد جاس خلال الديار، بل إنه تمكن أكثر مما كان، لأننا نري الزعماء كانوا كلما أقدموا

(١) تولى سعد زغلول رئاسة الحكومة عام ١٩٢٣ وعزل، ثم عاد مرة ثانية عام ١٩٢٦

على تنفيذ ما به مصلحة الأمة بغيرة وحماس وقف في وجوهم من وراء ستار
فتقهقروا وأنكروا، لا أقول هذا إلا وأنا ذلك الرجل المصري الحريص على شرف
عامة الأمة فضلاً عن خاصتها .

وقد كنت مغتبطاً بمصطفى النحاس باشا وإقدامه وتنفيذه لمبادئ المغفور له
سعد زغلول باشا في شأن الائتلاف الذي به نيل مقاصد الأمة حين أقدم الرجل
وأعلن أنه يحرص كل الحرص على أن لا يجعل لأي يد أجنبية تدخلاً في الشؤون
التشريعية، ولكن سرعان ما وثب المغتصب عليه فتواري ذلك الشجاع أمامه،
وكانت الشجاعة أن يمضي في شأنه ليحتفظ بثقة الأمة فيه وفي رجال الوفد الذين
ضحوا في سبيل الوطن بكل غال وعزيز .

وإني لا يهمني، يظن أعداء أنفسهم ميلي لجهة مخصوصة، فإن الحق فوق الخلق
وإن كرهه أهل الأغراض والعلل، فلم تكن الأمة إذا نهضت نهضتها تطلب أن تفقد
فلذات أكبادها وغالي ذخائرها وترجع بخفي حنين، وإلا فأين السودان ؟ بل وأين
النيل مستقبلاً ؟ وأين تلك الثروة الطائلة التي كانت تجنيها مصر من محصولاتها ؟
وأين ما هو أهم من ذلك كله وهو : صفاء الأمة وتعاضدها واتحادها ؟ أو غرت
الصدور، وفسدت الأخلاق، وأصبحت الصحف معول تفرقة ومسارح غفلة،
ضاع الحياء، وفقدت الرحمة، وتنازع القوم حتى لا تكاد تري من المتنافسين رجلاً
تدعوه فضيلة نفسه وشرف محتده إلى أن يترفع بنفسه عن مستوى الهمج الرعاع .
أقام الحزب الوطني وحده الحجة على أنه هو الحزب الفاضل، الذي يكثر
ويقدم عند الفرع، ويختفي عند السخرية والتناذب، وقد أثبت الحزب الدستوري
اليوم أنه أقرب إلى الفضيلة والبعد عن المثالب .

وأختتم كلمتي هذه بإيجاز ما أريد : أريد من الأمة أن تواجه الحقائق وأن تزن الحاضر بها، وأن تقف موقف الاعتبار بالأحداث السالفة، وأن تهتم كل الاهتمام بتأييد كل عامل، والإنكار الشديد على كل داع للخروج عليه، فإننا لا نمكن الخصوم منا بأيدينا .. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً << .

ويرسل الإمام رسالة إلى قادة الأحزاب صدقي باشا، ومصطفى النحاس باشا، ومحمد محمود باشا، في وقت بلغ التطاحن الحزبي مداه تنافساً على كراسي الوزارة ورئاسة الحكومة ولو يارضاء المحتل الإنجليزي محذراً لهم من مغبة التفرقة، ويدعوهم لجمع كلمة الشعب وأن ينهضوا بالأمة، ويحذرهـم بأنهم إن لم يفعلوا ذلك سينالون نقمة الجبار وستزول عنهم الكراسي وسيلقون المهانة والذل، قال محذراً وناصحاً :

يا بني الإسلام طالـت رقـدة في افتراق في اختلاف في كرب
كان أهل الغرب أتباعاً لنا يحملون العلم عنا في رهـب
فأنهضوا بالدين خلوا فرقة فالصناعة كثرها فيه الطلب
طالت الرقـدة قوموا قومة باتباع الدين فالشرع كتب
طهروا الأبواب من شحنائها فاختلاف القوم داع للعطب
ثم يختتم تلك القصيدة العظيمة بتحذيره ونصحه لصدقي وللنحاس ومحمد محمود قائلاً :

أنت يا صدقي ويا نحاس ويا نجل محمود أفيقوا من رغب
واجهوا الأمة احيوها بما يرفع الأمة فالوقت اقترب

وكان عند الإمام مطبعة في قصره تطبع مجلاته وكتبه أسماها بمطبعة ((المدينة المنورة)) وفي أثناء ثورة ١٩١٩ وضعها تحت تصرف سعد زغلول ورفاقه وتطبع لهم المنشورات السرية، وهي ما أسماها الثوار بمطابع ((اليد السوداء)) التي كان يتعقبها الإنجليز في كل مكان، وقد انكشف مصدر هذه المنشورات على يد بعض الخونة، واعتقل الإمام وابنه الأكبر السيد أحمد ماضي أبو العزائم عليه السلام على إثر منشور طبعه ضد الاحتلال الإنجليزي، وتلك التي يكتبها الثوار السياسيون وتندد بالاستعمار وتبعث في نفوس الشعب الحمية والقدرة على المواجهة، وكذلك طباعة الكتب التي يظهر فيها عداؤه للاستعمار، فقد أصدر الإمام كتابين أحدهما دويًا هائلًا في الأوساط السياسية والإسلامية وقتها، فكتابه

((الجهاد))^١ يشير إلى النتائج الباهرة التي حققها المسلمون الأوائل والتي لو تمسك بها المسلمون في العصر الحاضر أعاد الله إليهم مجدهم، وكتابه ((محكمة الصلح الكبرى)) وهو يشير إلى أن الساسة المجتمعون حول مائدة الصلح بباريس وحوش وذئاب يجتمعون على الإيقاع بالفريسة حتى إذا وقعت تفرقوا طمعًا في اقتسامها فيما بينهم كل يبيني لنفسه أكبر نصيب منها ولذا فلا يرجي منهم خير، ولا ينتظر منهم صلاح أو وفاء بوعده أو عهد، لأنهم لا إيمان لهم ولا عهد لهم ولا ميثاق، ولن ينصلح الحال إلا إذا أصلح كل فرد نفسه وتصلح مع حقائقه .

وكانت تحدث مضايقات كثيرة من الحكم البريطاني للإمام وخصوصاً أيام الاحتفالات، وفي ذكرى لمولد رسول الله ﷺ وآله جاءت أفواج المريدين

١ (ألقاه الإمام على هيئة محاضرات بالمسجد بالخرطوم أيام تواجده بالسودان، ثم نشر على هيئة مقالات في جريدة السعاة الأبدية بمصر وقام الخليفة الثاني للإمام سماحة السيد عز الدين ماضي أبو العزائم عليه السلام بطبعة ككتاب واحد عام ١٩٧٠م.

متشوقة من البلاد، ولما اجتمعوا حول دار الإمام وملأوا الشوارع أبلغت المخابرات أن الإمام يجهز لعمل ثورة ضد الإنجليز، فجاءت القوات وفرقت معظم الإخوان، ثم أتى القائد إلى سماحة الإمام وكان جالساً، فترل من على الفرس وجلس بحوار الإمام وقال له : يا ماضي أنت تحاربنا وتجمع الناس علينا، فرد الإمام بحدوء : ما تقول لو أنك جالس تحتفل بمولد السيد المسيح ويأتي أناس ليعكروا صفو الاحتفال ؟ ألا تقول إن هؤلاء الناس ظالمون وأنهم جهلاء وأنهم معتدون ؟ نحن اليوم نحتفل بمولد رسول الله ﷺ وآله ﷺ وليس بأيدينا سلاح، ألا تعلمون أنكم تكذبون فيما تقولون في إذاعاتكم وجرائدكم أنكم وجدتم شعباً ظالماً وأنكم تقرررون مصيرهم لترجعوهم للحياة السليمة ؟ لقد حضرت الآن ونحن في فرح برسول الله ﷺ وآله ﷺ لتعكر الصفو، وهنا اعتذر القائد العام علناً أمام الناس .

وكانت داره عليه السلام بالقاهرة في أعقاب عام ١٩١٨ أشبه بخلية نشطة يتجمع فيها شباب مؤمن بربه وبوطنه، ينتشر في النهار داعياً إلى الثورة حاملاً منشورات تلهب حماس الشعب فتذكره بأجاده وبطولاته، فإذا جن الليل عادوا إلى السراي متخفين، فيجمعون في سراديبها ومخازنها، متوارين عن أعين جواسيس الاحتلال فإذا قضيت صلاة الفجر استأنفوا جهادهم، ودام هذا الجهاد ضد الاستعمار، حتى استشعر الإنجليز به وأدركوا خطره فقبضوا عليه ولم يمنعه ذلك من القيام بدوره في هذا الشأن أو التقليل منه، وإنما زاده إيماناً بهذا الدور وواجباً يفرضه عليه دينه ووطنه .

إن الاستعمار يضيق بوطنية زعماء رجال الدين لأنه يعلم مدي تأثيرهم في نفوس المسلمين، وخصوصاً إذا كان الداعي على صدق في دعوته، وقد كانوا يعرفون من هو الإمام أبو العزائم عليه السلام عندما كانوا يسترجعون حياته بالسودان إلى

أن اضطروا إلى إعادته لمصر، ولقد حاول الاحتلال أن يسكت صوت الإمام بكل وسيلة ممكنة وخصوصاً أنهم يعرفونه ويعرفون مدي تأثيره الوطني الحماسي، فتدرج معه من الإغراء إلى الإرهاب ثم إلى العنف والقمع، وكان أن ألقى القبض عليه مرتين في عام واحد الأولي في ١١ من ربيع الأول عام ١٣٣٨ هـ والثانية في ١٧ رمضان من نفس العام ويوافق عام ١٩١٩ الميلادي .

وتحدث سماحة الإمام السيد أحمد ماضي أبو الغزائم عليه السلام - النجل الأكبر للإمام وخليفته الأول - عن الاعتقال الثاني للإمام فيقول :

>> كانت المنشورات مع بعض المجاهدين ممن تتلمذوا على يد السيد الوالد، وكانوا يلجأون إلى السراي ابتعاداً عن أعين مخابرات الإنجليز وجواسيسهم، وكانوا كثيرين، وكانت مطبعة << المدينة المنورة >> لا تكف عن طبع المنشورات السرية التي تحرض على الثورة، وكنت مديراً للمطبعة ورئيساً لتحرير مجلتي السعادة الأبدية والمدينة المنورة، وكان والدنا الإمام عليه السلام لا يكف عن إنزال اللعنات على المستعمرين سواء في الدرس العام أو في تجواله بالبلاد، في كتبه ومقالاته في المجالات والصحف .

وقبيل منتصف ليلة السابع عشر من شهر رمضان المبارك عام ١٣٣٨ هـ سمعت وقع أقدام خيول وسيارات وجلبة صاحبة، فأسرعت إلى المطبعة أخفي المنشورات وأعدم المسودات، وأبلغت سيدي الوالد الذي كان يجلس في غرفة نومه بالطابق الأول، وما هي إلا لحظات حتى أحاط بالبيت الجنود من كل جانب شاهري أسلحتهم في منظر رهيب أشبه بإعلان الحرب، وسأل قائدهم عن الإمام فقلت له : إنه بغرفة نومه فأسرع إليها شاهراً مسدسه وطلب تفتيش الدار جميعها

بحثاً عن مكاتبات سرية بين الإمام وبعض الزعماء المسلمين وفي مقدمتهم كمال أتاتورك - وكان يحارب الخلفاء وقتذاك -، وكنت أعرف أن والذي يضع المكاتبات السرية في صندوق كبير بغرفة نومه، فأمسكت أنفاسي لأني أيقنت أنهم سيعثرون عليه لا محالة إذ كيف السبيل إلى إخفائه؟! . ولشد ما دهشت عندما رأيت والذي عليه السلام يجلس فوق الصندوق ويقول للقائد: فتش كما تريد فليس عند الشيخ شيء يخفيه، وازدادت دهشتي عندما خرجوا جميعاً من الغرفة دون أن ينتبهوا إلى أن الإمام يجلس على صندوق وبجواره الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه . وذهب الوالد معهم ورافقناه إلى ثكنات قصر النيل << .

و لم يكذباً اعتقاله يشيع بين أنصاره وأتباعه حتى أبرقوا إلى المندوب السامي مهددين متوعدين إن لم يطلقوا سراحه، وقد ذهب << رسل باشا >> ليتفقد الإمام في معتقله فوجده يصلي ووراءه الموكلون بحراسته من الجند الذين كان يربو عددهم على ٨٠ جندياً، ولما أتم الإمام صلاته دعا فقال: اللهم أهلك الإنجليز، اللهم أخرج هذه الفئة الطاغية من بلدنا، اللهم أبطل كيدهم، والجند من ورائه يقولون: آمين . فانزعج << رسل باشا >> وأمر بإطلاق سراحه فوراً لأنه في سجنه أخطر عليهم من حريته .

وكان اعتقال الإمام في بلوكات الخفر بشارع الخليج المصري ^(١) في ميت أبو إصبع والتي تحولت حالياً إلى مدرسة السعادة، وفي يوم الخميس ١٦ رمضان

(١) شارع بورسعيد حالياً

١٣٣٩ هـ ^(١) الموافق لليلة بدر الكبرى، قال الإمام وهو معتقل بعد صلاة عصر
هذا اليوم إملأ على ولده السيد أحمد ماضي أبو العزائم عليه السلام :

جمالک یا جمیل به تجلی لیشهدہ عییدک حیث ولی
وآنسني بوجهک وامح همی فإني لا أطيق لذاك حملا
أغثني بالإجابة أعل قدری أعزَّ العبدَ بالعلياء فضلا
دعاک رجال بدر واستغاثوا أغث وارحم فأنت الربُّ جلا
أغثني واستجب لي أنت حسبي فأيدني بروح منك طولا
أنا المضطر أدعو مستغيثاً تفضل وانظرن يا نعم مولي
إلهي غمنا بعميم فضل وإن كنتُ المسيء ولست أهلا
أغث عبداً ينادي باضطرار مجيئاً قادراً بالبعد أولي
أغثني نجني من كل هول أذل خصومنا يارب فعلا
تدارك ضارعا يرجو مجييا قويئاً قادراً طولا وحولا
فأظهر آية كبرى انتصاراً لعبدك والمحق الأعداء كلا
لقد ظلموا عبيدك فانتصر لي وقرب ضارعا زلفا ووصلا
بمن نادوا ببدر باضطرار أغثهمو منحت الكل سؤلا
سألتك عائداً بك فاستجب لي وأسعدني بفضل منك يولي
وسيلتي الحبيب وآل بدر فنجَّ قصد من يدعوك فضلا
وجدد لي مسراتي وأنسى فأنت بعبدك المضطر أولي
وأمة سيد الكونين ري أغثنا بالجمال لنا تجلي

بجاه المصطفى الهادي استجب لي عليه الله في القرآن صلي
وقال في هذا اليوم أيضاً :

أغثنا فقد عودتنا الفضل والخيرا أغث ضارعاً يدعوك يارب مضطرا
تداركت أنصار النبي محمدٍ بيدٍ وعند الخطب قد تنفع الذكرى
أغثني فقد ناديت ربا قادراً يجيب دُعا المضطر يرفعه قادراً
أيا رب مضطر غريب وعائد توسلتُ بالأمناء من شهدوا بدرًا
أغثني أيا قيومٍ يا حي وادفعن شرور الأعادي أهلكن جمعهم قهراً
إغاثة حنَّان سريع وقادر حفيظُ سلامٍ قد أعان بها برا
وفي يوم بدر استغيثك سيدي إلهي استجب لي وامنح الضارع النصرا
لك الحمد .. قلبي مطمئن وموقن فقد نلت منك الاستجابة والبشري
فأظهر لعبدك آية الفضل والرضا كآية بدر في نهارها ذكري
لك الحمد يا معطي لك المجد والثنا علي نعم لا نستطيعُ لها شكرا
وصلَّ على الغوثِ الشفيع محمدٍ وآل وأصحابٍ ومن شهدوا بدرًا
فجاءه النصر من عند الله بعد إملاء هذه القصيدة مباشرة وتم الإفراج عن الإمام
وخليفته السيد أحمد عليهما السلام.

موقف الإمام من إلغاء الخلافة الإسلامية

إن الإمام كان ينظر إلى الخلافة الإسلامية بصفة عامة كرمز ديني له قداسته، وهو أمر لا غني عنه، إذ المفروض في الخلافة الإسلامية أنها مسألة دينية نصت عليها الشريعة المحمدية، وقد عاش المسلمون على مر القرون منذ كانت الخلافة الراشدة حتى الخلافة العثمانية في ظل خلافة — أيا كانت هذه الخلافة يدينون لها بالولاء والطاعة، وكان الملوك الأقوياء في مصر أو غيرها يرون أنه لا بد من قيام نظام الخلافة بجانبهم ليستمدوا منه قوة النفوذ على الشعب المسلم، فسعوا بقوتهم ونفوذهم إلى أن يأخذوا موافقة الخليفة ضعيف السلطة على تنصيبهم ملوكاً حتى تكون لهم الصبغة الشرعية في حكم المسلمين، على أن هؤلاء لم تكن لهم أية سلطة زمنية وكانوا يعيشون في حماية هؤلاء الملوك الأقوياء، ولا شك في أن سعي هؤلاء الملوك الأقوياء إلى استرضاء الخلفاء وإعلان حكمهم للشعب باسم الخليفة كان راجعاً لما لهؤلاء الخلفاء — على ضعفهم — من سلطة روحية على المسلمين، وكانت السلطة الروحية لهؤلاء الخلفاء تمتد إلى قلب كل مسلم في أي جهة كانت ولهذا كان للخلافة العثمانية نفوذ روحي على المسلمين سواء كانوا يعيشون في ظل دولة الخلافة أم يعيشون في دولة أخرى، ولعل أبرز مثل لهذا في عصرنا الحديث ما رأيناه من تعلق المسلمين في مصر والهند وغيرها من البلدان الإسلامية بالخليفة العثماني ودفاعهم عن هذه الخلافة بكل ما في وسعهم .

ومن هنا كان الإمام ينظر إلى الخلافة العثمانية على أنها مركز لتجميع المسلمين، وأنها في ذلك الحين هي التي يمكنها صد التيار الغربي الزاحف عليهم وإنقاذ مجد الإسلام وتراثه من عبث الغرب به، هذا إلى أن المسلمين كانوا يتطلعون

إليه كحامية بعد أن فقدوا ملكهم في أوطانهم، وإلي أنهم كانوا يعتبرون تألب الغرب على الأتراك حركة صليبية حديثة، ومن أجل ذلك رأينا المسلمين في كل قطر يهبون لمساعدتها في حربها مع الدول البلقانية، وفي حربها مع روسيا، وفي حربها مع إيطاليا في طرابلس، ويعثون إليها بالمساعدات تلو المساعدات، وكان للإمام عليه السلام أياد كبيرة في تنظيم هذه المعونات وجمعها وتجميع المتطوعين لقتال أعداء الخلافة مما يذكر له بالفخار والشرف .

ولقد فرغ الإمام فرغاً عظيماً لدخول إنجلترا الحرب ضد تركيا، فأعلن أنه يقف في صف الأتراك، وقد انتشرت هذه الدعوة في العالم الإسلامي مما جعل الإنجليز يصانعون المسلمين ويلتمسون لأنفسهم المعاذير في دخولهم الحرب ضد دولة الخلافة، ووعدهم أنه سوف لا تمس دولة الخلافة بسوء.

وعندما هزمت تركيا وبدأت إنجلترا تنكث عهودها ثار الإمام، وثار لثورته مسلمو الهند وغيرها من البلاد الإسلامية خصوصاً العراق والشام والمغرب وجاوه، وعمت هذه البلاد ثورات جارفة سقط فيها بالهند خاصة مئات الضحايا .

لقد أضعف التعصب عاطفة العرب نحو تركيا حتى جعلهم أحياناً يسعون للتخلص منها، عكس مصر خاصة، والهند التي لم يمسهما هذا الظلم بل مسها ظلم الاستعمار الإنجليزي وطغيانه وعدوانه الآثم الشنيع، ولو أن المسلمين العرب نسوا أو تناسوا مؤقتاً ما كان لدولة الخلافة من مظالم ووقفوا بجانبها ضد الغرب لأمكنهم الاحتفاظ بوحدهم الإسلامية الجامعة، ولما استطاع المستعمر أن يثبت قدمه في بلادهم، ولا أمكن لليهود انتزاع فلسطين من أهلها وطردهم منها، ولكان من الممكن للمسلمين بعد ذلك أن يصفوا حسابهم مع دولة الخلافة ويأخذوا

حقوقهم منها، كان ذلك هو رأي الإمام، ومع هذا فقد كان عليه السلام شديد الأسف مع كثير من المرارة لما أصاب المسلمين بسبب تفككهم وتخليهم عن دولة الخلافة . واستمر الحال على ذلك حتى دهم المسلمين أمر الخلافة، فقد كان لإلغائها في ٢ مارس ١٩٢٤ م - وعلي غرة - دوي شديد في مصر والعالم الإسلامي، وخصوصاً وأن المسلمين لم يعرفوا السبب الذي دعي إليه ولا الموجب له، وقد كانت الخلافة وإن كانت في آخر أمرها مظهرًا من مظاهر التقليد، إلا أن عقلاء الأمة كانوا يحسبونها رمزًا يجمع حواليه شتات هذا الجسد الإسلامي بعد أن قطع الاستعمار أوصاله وسلب منه أكبر مزية : الاتحاد والرابطة بالخلافة العظمي والإفاقة الكبرى .

ولم يغمض للإمام جفن طوال الأيام الأولى من تلك الفتنة العمياء : خليفة المسلمين (١) يطرد من بلاد إسلامية وعلي يد فئة مسلمة، والناس مختلفون في تكفير هؤلاء أو نسبتهم إلى الإلحاد والزندقة، وقد ألهمه سبحانه وتعالى في هذا الموقف أن أبصر بها الداعي إلى هذا الأمر، والواجب على المسلمين تجاه هذا الخطر، فقام أول الأمر محذرًا المسلمين عن الخوض في تكفير إخوانهم من بني عثمان، ثم استعلم مستفسرًا .

الاتصالات التمهيدية :

لقد كان رد الفعل للسماع عن إلغاء منصب خليفة المسلمين بتركيا سريعًا جدًا على الإمام .. بل وفوريًا . وقد شهدت الساعات الأولى إنجازين على درجة كبيرة من الأهمية :

(١) السلطان عبد المجيد خان آخر خلفاء بني عثمان، طرد من تركيا دولة الخلافة

(١) تكوين جمعية (إحياء الأخلاق المحمدية) ومقرها المركز الرئيسي قصر الحنفي (سكن الإمام) وفروعها في بلاد مصر، وإعلام الجميع عن استنكارها لقرار الإلغاء على المستوى الشعبي .

(٢) القيام باتصالات هاتفية وكتابة خطابات شخصية وإرسال برقيات لجميع رؤساء بلدان العالم الإسلامي لتكوين جماعات عمل لمؤتمر الخلافة الإسلامي وإخطار المقر الرئيسي بالقاهرة بذلك، وكان أول المستجيبين في ذلك إخوة الهند وعلي رأسهم الأميران شوكت علي ومحمد علي، والدكتور أجمل خان والدكتور محمد إقبال والشيخ كفاية الله وغيرهم وإعلانهم الفوري عن تأسيس جماعة (الخلافة الإسلامية) بالهند مع إعلان اتحادها قلباً وقالباً مع الإمام، وكذلك بعض الزعماء الإسلاميين الآخرين .

وقد اتفق مع جماعة الهند منذ الساعات الأولى لسماع نبأ الإلغاء على إعلان الرأي التالي :

لقد اتفق الرأي على إبقاء الخلافة الإسلامية في تركيا وتقويتها، وإن لم يمكن الإبقاء على أسرة آل عثمان فإنه يمكن انتخاب خليفة يقيم في إحدى الدول الإسلامية التي لا تخضع للاحتلال أو النفوذ الأجنبي، مع إبعاد التفكير في تنصيب فؤاد الأول (١) ملك مصر خليفة على المسلمين، وإنه إلى أن يتم انتخاب خليفة للمسلمين، فإن خلافة عبد المجيد خان تظل قائمة لأن بيعته لازالت ملزمة للمسلمين .

(١) تولى فؤاد الأول ملك مصر خلفاً لفؤاد سلطان سنة ١٩٢٢ — ١٩٣٦

وهذا الرأي هو ما أرسل به الإمام إلى سائر الجماعات في البلاد الإسلامية، وقد وردت إليه الردود التي لا يتسع المقام هنا لذكرها منها :

رسالة من الأمير فيصل بن عبد العزيز بمكة، ورسالة من مشايخ إمارة الخليج العربي وهم : محمد بن عبد اللطيف، وسليمان سهمان، وعبد الله بن سالم، ورسالة من الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ومن جمعية الشبان الفلسطينيين بحيفا، ومن جزيرة سنغافورة من السيد محمد عقيل بن يحيى، ومن ديوان المحكمة الشرعية بولاية البوسنة بيوغوسلافيا موقع عليه من كل من محمد موباغنيك، ومحمد جمال الدين ومحمد القاضي، وكتاب من الشيخ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية، وكتاب من السيد أحمد الشريف السنوسي المقيم بالأساتنة ورسالة مطولة من الأمير شكيب أرسلان تتضمن رأيه في انتخاب الخليفة والقطر الذي يقيم فيه واستبعاد أتاتورك، ورسالة من السيد محمد البطاح قاضي عدن، وكتاب من لجنة العمل على إحياء الخلافة بمدينة الكاب بجنوب أفريقيا، ورسالة من رئيس جمعية حزب المرشدين الدينيين في سومطرة، وكتاب من بولونيا من رئيس الجمعية الإسلامية، ورسالة من الاتحاد الصيني للجمعيات الإسلامية بشنغهاي، ورسائل عديدة من الشيخ كفاية الله والدكتور محمد إقبال ومحمد علي جناح وشوكت علي وأجمل خان والشيخ قرشي بالهند، وكتاب من أندونيسيا بتوقيع سوكارنو وآخرين، وكتاب من حميد الدين إمام اليمن ... إلخ .

وما أن انتهى الإمام من اتصالاته إلا وظهر أول رد فعل تنفيذي بعد أسبوعين من نبأ الإعلان، وبالتحديد يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ م .. وهو خطاب موجه من الإمام إلى مصطفى كمال أتاتورك هذا جزء منه :

>> فإذا كان الخليفة هو رأس الجمهورية، سار على مقتضى قوانينها وزاد عليه مجلساً محلياً للخلافة بجانب المجلس الوطني الكبير منتخِباً من جميع الأمم الإسلامية يقوم بالأعمال الدينية والاجتماعية الخاصة بالأمم من تعيين القضاة وأئمة المساجد وعمارة معاهد العلوم الدينية وبعث الوعاظ والمرشدين لبث الدعوة الإسلامية، وتكون إدارة الأمم الإسلامية المستقلة بأمر الخليفة في شئونها الدينية والاجتماعية بقدر ما تسع الشريعة، ويكون المجلس الوطني الكبير عاملاً للجمهورية التركية، وقد يأتي الوقت الذي تكون فيه الجمهورية التركية جمهورية إسلامية كما كان عهد الخلفاء الراشدين، فإن الخليفة في عهد السلف كان رئيساً للجمهورية الإسلامية بمعناها الحقيقي .

وإني بصفتي عاملاً على تشكيل المؤتمر الإسلامي ببلد حر مستقل كنت أحب أن يكون المؤتمر في بلد من بلادكم لولا ما أشرتم إليه من الظروف ^(١) التي انتهجها طمع المستعمر الأروبي، والإسلام وسع لنا في رعاية واجب الوقت، وقد استحسنت ما استحسنت رجال جماعة الخلافة بالهند من اجتماع المؤتمر الإسلامي الكبير في مكة المكرمة بعد قهر حسين بن علي منعاً للفتن الأروبية التي أشرتم إليها إذا عقد بالبلاد التركية <<

١٥ مارس ١٩٢٤ م محمد ماضي أبو العزائم

(١) كانت حجة مصطفى كمال أتاتورك — من يهود الدوئمة الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية — أن تركيا حديثة — يعني الإسلام — وأن وجودها في قلب أوروبا يجعل من العسير تنفيذ ما أشار إليه الإمام

الاجتماع الأول بمرتل الإمام :

وقد تم أول اجتماع لجمعية (إحياء الأخلاق الحميدة) بمرتله عليه السلام في ٢٣ مارس ١٩٢٤ م، وكان قد دعا رجال الصحف ووكالات الأنباء العالمية والمحلية لحضور هذا الاجتماع، وتم فيه جمع الأمة المصرية في صعيد واحد في يوم واحد بدعوة إلى عظمائها ونوابها وأهل الرأي فيها ليستشيرهم في هذا الأمر، وقد كانت هممة الجالس على العرش ^(١) متحفزة إلى بلوغ هذا القصد والبلاد ما زالت في ذلك الوقت مستعمرة إنجليزية لا أقل ولا أكثر لم تنعم بالاستقلال وإن كانت تداوم من أجله الجهاد والقتال، فرغب عن حضور هذا الاجتماع أهل النفوذ خيفة غضب الملك، وجاءه أهل الإخلاص الذين باعوا أنفسهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى فشاورهم في الأمر جميعاً، وخرج من هذا الاجتماع بفائدة هي تكوين قيادة لهذه الهيئة أسمها (اللجنة التنفيذية لجماعة الخلافة الإسلامية بوادي النيل) كان أحد أقطابها المرحوم على بك فهمي كامل شقيق فقيد مصر العظيم وزعيمها الفتي الكريم المرحوم مصطفى باشا كامل، فأصدرت في ذلك عدة قرارات حكيمة كان أكثرها من بنات أفكار الإمام النيرة السليمة، وفيه قرر الأعضاء العمل على الدعوة لإقامة مؤتمر إسلامي عالمي يشارك فيه جميع زعماء وملوك الهيئات والدول الإسلامية .

بدأ هذا الاجتماع بكلمة ألقاها الإمام قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً نستزيد به عناية الله بنا، حتى نعيد مجد سلفنا ونقيه لأبنائنا ولأبنائهم، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١)، والصلاة والسلام على من قام يدعو إلى الحق منفرداً في ظلمات الجهالة فأيده الله بنصره، وكذلك كل داع إلى الحق ينصره الله، أما بعد:

فيا أيها الشبان الناهضون المتفوقون على الشيوخ في اقتحام العظام : أخصكم

بالذكر لأنكم الأيدي العاملة في وقت الشدائد، أخصكم بالذكر لأننا جماعة الشيوخ مللنا الدهر وملنا، ولأننا نعمل لكم لا لنا، إن كان لنا الآن فالمستقبل لكم، وأي عاقل يرضي أن يهمل أمراً يصبح الأخ بإهماله حرباً على أخيه ؟.

أيها الشباب العامل : كنت كسلاناً فنشطني الله بكم، جبناً فشجعني الله

بإقدامكم، كنت أخاف أن أقول كلمة فأطلق سبحانه لساني بقوة إيمانكم، ذكرتموني عهد سلفنا الصالح حين كان المسلم لا يري فوقه إلا ربه ولا يخاف إلا ذنبه، وي !! كأني أعدت إلى أيام مجدنا حيث الحياة في ظلال الحرية، فأشكر الله على ما تفضل به علينا من غيرة لوطننا تغير كل شيء أتت عليه، وحمية لديننا تمحو البدع المضلة والأهواء المذلة .

أنتم أيها النشء أقمتم الحجة بما قمتم به للأمة على أنكم شيوخ في شبابكم،

وأنكم ستحددون ما كان لسلفكم، فأدبوا هذا الجهاد حتى تبلغ المراد .. أدام الله لنا عنايته .

أيها الشيوخ الذين أكسبتهم التجارب عقولاً تدرك غيب الحوادث وتكشف الستار عن أسباب الفتن، أنتم الأنجم المضيئة للعمال، والأئمة عند السعي لئلا الآمال، قد آن لنا أن نندارك الأمر في أوله، فقد كفانا ما توالي علينا من البلايا التي مكنت للأعداء فينا وجعلتنا مستعبدين لهم .

أيها السادة : الوقت يوجب علينا النظر في أحداثه بعين البصيرة والمصارعة إلى معالجة المرضي منا بالحكمة لنكون جسداً واحداً قوياً ندفع بقوة الاتحاد شراً أوجدته التفرقة وسوء ظن بعضنا ببعض، قال **﴿وَاللهُ أَكْبَرُ﴾** >> مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمي << ^(١)، وفي رواية : >> المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله << ^(٢).

لابد لكل عامل غرض يدعو إليه وباعث يدفعه للعمل، وبقدر المقصد يكون بذل الجهد، والغرض من اجتماعنا هذا هو :

(أولاً) : إقامة الأمة المصرية الحجة على أنها تعني بالأحداث التي تدعو إليها مقتضيات الوقت .

(ثانياً) : النظر في حادث الخلافة الإسلامية الذي أقام العالم وأقعده .

(ثالثاً) : أن تؤلف لجنة تحضيرية يوكل إليها العمل للدعوة إلى مؤتمر إسلامي عام يبحث هذا الموضوع بحثاً دينياً اجتماعياً ويصدر فيه القرارات المطابقة لروح الشرع والمطمئنة للعالم الإسلامي بأسره .

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) رواه مسلم

وبعد أن شرح فضيلته الحكم الشرعي والحكم الوجودي والخلافة والإمامة ووافق الجميع على كلماته القيمة بالارتياح والاستحسان، ألقى الكثيرون من العلماء خطباً تناسب المقام إلى فجر اليوم التالي، ثم اختتم الاجتماع كما بدأ بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم .

انتخاب اللجنة التحضيرية للمؤتمر :

وبعد الانتهاء من تلاوة آيات الذكر الحكيم، انتخب هذا الجمع لجنة تحضيرية برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الإمام السيد محمد ماضي أبي العزائم، فاجتمعت في الحال في هيئة جلسة وقررت قراراً هذا نصه :

قرار اللجنة التحضيرية

أولاً : السعي في تكوين مؤتمر إسلامي عام تمثل فيه الشعوب الإسلامية كافة، يعقد في المكان والزمان اللذان يقرران بعد .

ثانياً : السعي في تشكيل لجان فرعية في البلاد المصرية على أن يؤلف من مندوبي هذه اللجان جمعية عامة رئيسية تنظر في جمع المؤتمر وإجراء كل ما يلزم لانعقاده .

ثالثاً : ترشح اللجنة مع الثقة العظمي ((حضرة صاحب السمو الأمير الجليل ((عمر باشا طوسون لرياسة اللجنة العامة .

رابعاً : انتخبت اللجنة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ السيد محمد ماضي أبا العزائم عليه السلام رئيساً، وحضرة صاحب السعادة على بك فهمي كامل نائب رئيس، وحضرة الشيخ مفتاح زيدان سكرتيراً، أما الأعضاء الذين انتخبوا فهم حضرات الآتية أسماؤهم بعد : (يرجع لقرار اللجنة التحضيرية) .

خامساً : تبليغ قرارات اللجنة إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون، وإلى الصحف .

*ومنذ الساعات الأولى من تكوين هذه اللجنة التحضيرية، قام الأعضاء بإخطار الهيئات الرسمية في البلاد الإسلامية بتكوين [جماعة الخلافة الإسلامية] لتعمل على عودة الخلافة الإسلامية، وقد خاطب الإمام القادة والزعماء ومن بينهم زعماء الهند محمد علي جناح، وأبو المكارم آزاد، والأخوان الأميران شوكت علي ومحمد علي، كما اتصل بالشاعر محمد إقبال، وتوثقت بينه وبينهم روابط الخدمة لإعلاء كلمة الدين وتوحيد صفوف المسلمين، كما اتصل عليه السلام بكمال أتاتورك نفسه، وأرسل الإمام نداء إلى العالم الإسلامي مثلاً في دوله يبين فيه مقاصد المستعمرين في الخلافة، وموقف الدول الغربية من مسألة الخلافة وغرضهم من تعددها، وسعيهم إلى تفرقة كلمة المسلمين، لم يترك الإمام بلداً أو قطراً فيه مسلمون إلا واتصل بها مبيناً أهمية مقام الخلافة الإسلامية بالنسبة للإسلام والمسلمين، ودعا إلى عقد المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة هذا الغرض، وظل التجهيز لانعقاده حتى تم ذلك في مكة المكرمة بتاريخ ٩ يونيو ١٩٢٦ م برئاسة عبد العزيز آل سعود عاهل الحجاز .

*وكان الخلاف الذي قام عام ١٩٢٤ م في المؤتمرين : مؤتمر الخلافة لجماعة الأزهر، التي تكونت بأمر من الملك فؤاد بعد فترة صمت طويلة دامت ستة أشهر، ومؤتمر جماعة الخلافة بوادي النيل برئاسة السيد أبي العزائم عليه السلام، يحوم فقط حول إيجاد بلد مستقل لا سيطرة لأجنبي عليه ليكون مركزاً للخلافة ومقرراً للخليفة محفوفاً من الأهواء السياسية ومن سيطرة الأجنبي وعدوانه، حتى تنفذ الأوامر الدينية والزمانية بغير تدخل الدولة المحتلة، وقد كان لجماعة الأزهر فكرة مخصوصة في الخلافة والخليفة، ولم تترك للعالم الإسلامي اختيار من يختاره والبلد الصالحة لمقر

الخلافة، باعتبار أن لكل مسلم بيعة في عنقه يجب أن يؤديها حسب اختياره، وقد أقنعت جماعة الخلافة الإسلامية بوادي النيل الرأي العام الإسلامي بأن مصر وقتها لم تكن صالحة أن تكون مقرًا للخلافة، وحذ هذا الرأي سمو الأمير عمر باشا طوسون .

الملك فؤاد والخلافة الإسلامية :

فوجئت الحكومة بما نشرته الصحف في اليوم التالي عن الاجتماع الذي تم في دار الإمام، وعما تمخض عنه من لجان تحضيرية وتنفيذية، وسرعة تكوين لجان فرعية بالأقاليم بين عشية وضحاها، فبدأت تولي الموضوع عناية خاصة، وشرعت بعد ستة أشهر من تكوين جماعة الخلافة الإسلامية بوادي النيل، في تكوين مؤتمر من علماء الأزهر برئاسة الشيخ الأحمدي الطواهري ^(١) شيخ الجامع الأزهر، ولم ينعقد هذا المؤتمر بادئ ذي بدء لأنه كان يعمل على تزكية الملك فؤاد خليفة على المسلمين، وكان يعتقد أن الأمر لا يستلزم عقد مؤتمرات أو ما يماثلها وأن تنصيب فؤاد خليفة لن يجد أدنى صعوبة، وما دامت إنجلترا راغبة في ذلك فإنها ستحمل غيرها من الدول على الاعتراف بالأمر الواقع، ولذا فإن أول اجتماع عقد للتشاور في هذا الموضوع عام ١٣٤٢ هـ وعلي مائدة الإفطار !! . وقد أُملي الإمام قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها :

(١) (١٨٧٨—١٩٤٤) وهو الذي

اقترح انفضاض مؤتمر الخلافة الإسلامية على غير قرار لأن الشيخ الطواهري كان يعمل على تزكية الملك فؤاد خليفة على المسلمين، وقوت صلاته بملك مصر فعينه شيخا للجامع الأزهر ١٩٢٩، واستقال ١٩٣٥ حوّل الأزهر عن رسالته إلى جامعة على نظام حديث.

أظلم الكون بالضلال احْفَظْنِي أفسد الطامعون كل مكان
زار أهل الضلال من لم يزاروا عظموا الكفر في ليالي القرآن
أيقظ المسلمين من نومة الجهل ————— ل اجمعهم بالنور والتبيان
وانصر السنة العلية وارفع دينك الحق بانمحا الطغيان
قد أضل الإفرنج قومًا لئامًا فاستطابوا الضلال من شيطان

صار النضال قويا بين الملك فؤاد والإمام عليه السلام، فالملك كان يطمع أن يكون خليفة للمسلمين، وجند جنوده لتحقيق هذه الرغبة فأنشأ جماعة أخرى للخلافة الإسلامية، وبذلك أصبحت هناك هيئتان للخلافة الإسلامية إحداها رسمية يرعاها الملك فؤاد والأخرى شعبية برئاسة الإمام أبي العزائم ، عندئذ جاهر الإمام بأن مصر دولة محتلة وحكامها قد تربوا في أحضان الأجانب ودانوا بفكرهم فهم على آثارهم يهرعون وفي مرضاتهم يتنافسون، وكان طبيعياً أن لا يكون لهذا البلد في ظل الاستعمار وفي ظل هذه الشرذمة من الحكام أية قيمة وأي وجود .

وحاول الملك فؤاد استمالة الإمام فأرسل إليه رئيس الديوان الملكي ((حسن باشا نشأت)) ليقول له : إن الملك فؤاد يجب أن يراك، ولو حضرت إليه سيعطيك أكبر وظيفة دينية في الدولة وأموالاً طائلة، فربت الإمام بيده على وجه حسن باشا نشأت لما بينهما من مودة وقال له : ((أنت يا حسن تريد أن تغرر أباك الشيخ بالدنيا، وهل ملك مصر يتمني أن يراني ؟)) قال حسن باشا : نعم . فقال الإمام : ((يا حسن .. قل لفؤاد : إن أبا العزائم لا يجب أن يراك، ولو أحببت أن يأتي فؤاد إلى هنا لجاءني حبواً، إذا وقف رجل على باب السلطان حرم عطاء الخنان، ورجل الحق تخضع له التيجان، وخادم الحق له الخلق خدم أينما كان، والخير الإلهي

لمن صدق وثبت، ثم قال له الإمام كلمته الخالدة عن فؤاد وأمثاله من أمراء السوء :
إن قومًا فقدوا الإسلام في أنفسهم وبيوتهم وشئونهم الخاصة والعامة لأعجز أن
يفيضوه على غيرهم ودعوة سواهم إليه، وفاقد الشيء لا يعطيه)) .

*وأبلغه سعد زغلول يوما أن الملك فؤاد يتهدد الإمام ويتوعده إن لم يساير
الملك في سياسته، فأمسك الإمام بأذن سعد زغلول قائلا له : ((قل له : أبو العزائم
يقول لك : دولة تدول وملك يزول، وجانب الله يقي ولا يزول))

*وعندئذ بدأت الحكومة والسراي في محاربة الإمام بشتي الطرق العلنية
والسرية، فقبض على أعضاء اللجان الفرعية في الأقاليم، وصودرت محاضر
الجلسات، وأعدمت أعداد من مجلة (المدينة المنورة) وفتشت سراي آل العزائم
مرارًا وتكرارًا، واتخذت العداوة بين الملك والإمام مظهرًا علنيًا، ومنع الإمام من
السفر لتأدية الحج في ذات العام، وقدمه لمحكمة الجنايات بسبب كتاب للإمام بتهمة
سب الذات الملكية ولكن برأته المحكمة، وقدمه للمحاكمة متهما إياه بالكفر زورا
وافتراء وبرأته المحكمة أيضا .

* ولما مات ملك إنجلترا قال الإمام أبو العزائم عليه السلام على الملأ: ملك أخذ عز
قومه وولي، ولما مات الملك فؤاد قال الإمام : ملك أخذ ذل قومه وولي .

الدرع الواقى بين جماعة الخلافة الإسلامية وبين الملك فؤاد والاستعمار

:

كان الملك فؤاد لا يستطيع أن يقف في وجه الأمير عمر طوسون^(١)، فقد كان يعمل لة ألف حساب، كما كانت إنجليزا نفسها تتحاشي الاصطدام به، فسخره الله للإمام أبي الغزائم ليكون درعا واقيا لجماعة الخلافة من بطش هاتين القوتين .

وقد أثارت الصحف ضجة مفتعلة ضد جماعة الخلافة التي يرأسها الإمام، وهاجمه بعض الكتاب، ولفتوا نظر الحكومة إلى أن موضوع الخلافة يعتبر من النظام العام للدولة فلا يجوز أن يتولي الاتصال فيه والعمل له شخص معين أو جماعة بعينها، وحرصوا السلطات على الوقوف ضد جماعة الخلافة .

وقد نشرت جمعية ((تضامن العلماء بمصر)) مقالا بجريدة الأهرام^(٢) بعددها الصادر في ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ م يتضمن هذا المعنى الذي أشار إليه أحد كبار الكتاب من قبل تحت عنوان : ((الدين والخلافة والسياسة)) فما كان من الأمير عمر طوسون إلا أن بارد بالرد على مقال الجمعية وذلك بجريدة الأهرام ليوم ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ م وجاء فيه :

((إن مسألة الخلافة لا تخص بلدا إسلاميا دون بلد آخر، ولا هيئة رسمية أو غير رسمية، وخصوصا وأن جماعة الخلافة بوادي النيل أهابت منذ نشأتها بالحكومة أن تتولي هذا الموضوع الخطير على الصعيد الرسمي، ولكنها تقاعست لحاجة في نفسها لتعمل لها بطرق أخرى، ولم تولي الموضوع أي اهتمام إلا عندما وجدت أن الدعوة

(١) ١٨٧٢-١٩٤٤ (١٢٨٩- ١٣٦٣) آزر الحركة الوطنية المصرية بقلمه وماله، غير متقيد بتقاليد

الأسرة، ساعد أهل طرابلس، الغرب حين أغارت عليهم إيطاليا ١٩١٠

(٢) أسسها سليم وبشارة تقلا بالاسكندرية ثم القاهرة سنة ١٨٧٦م.

على الصعيد الأهلي ستؤثر في اتجاهاتها الخاصة، ومن ثم فإن كل مسلم يعتبر واقفاً على ثغر من ثغور الإسلام ومسئول عنه)) .

وإزاء هذا الحرج الذي وضع الأمير فيه جميع الهيئات الرسمية المسؤولة، بعثت جمعية تضامن العلماء مندوبها إلى الأمير للاعتذار .

وقد أرسلت هذه الجمعية هذا الرد الغامض إلى جريدة النظام بعددها رقم ١٣٢٥ الصادر بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٢٤ م تحت عنوان : مسألة الخلافة ورأي سمو الأمير طوسون :

>> قرأت بأهرام يوم الإثنين ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ م خطاباً موجهًا إلى جمعية تضامن العلماء على لسان صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون متضمناً رأي سموه حول مقالنا الذي نشرناه بأهرام الأربعاء ١٦ أبريل ١٩٢٤ م بعنوان : (الدين والسياسة والخلافة) . وإذا كان سموه يري أن الخلافة كما قال لا تخص بلداً إسلامياً دون بلد، ولا هيئة رسمية أو غير رسمية، فإني مع سموه أرى هذا الرأي، وهو لا يتنافى مع العرف والمألوف من أن الرسمىات في الأمم والحكومات قد أعتبرها من النظام العام حواجز وفوارق بين الفوضي وحرمة القانون لهذه الحرمة وذلك النظام، ولو تراث سموه ووقف مستطلعاً رأي الحكومة في عقد مؤتمر الخلافة . أما مشيخة الأزهر أصدرت قرارها في شأن الخلافة منفردة عن العالم الإسلامي فلها في ذلك شفيع من أنواع ثلاث :

أولاً : ما وجهه الناس على سكوتها من العتب والنقد .

ثانياً : ما ورد على المشيخة من العالم الإسلامي طلباً للاستفتاء .

ثالثاً : ما جرت عليه السنة في جميع المناسبات << .

وفي حوار صحفي أجراه محرر جريدة الوطنية مع الإمام السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام رئيس لجنة الخلافة المركزية الكبرى في مصر، وذلك بعدد رقم ٢٤٦ الصادر في يوم الاثنين ١٠ جمادي الآخرة ١٣٤٣ هـ الموافق ٥ يناير ١٩٢٥ م، كان الحوار الذي يخص موضوع الخلافة الإسلامية من هذه المقالة ما يلي :

سؤال : هل لمولاي الأستاذ غرض خاص في عمله للخلافة ؟

جواب : لا بد لكل عامل غرض يبعثه على العمل وإلا كان عبثاً، والغرض من تلك النهضة يقظة المجتمع الإسلامي لتشكيل لجان تمهد السبيل لتكوين مؤتمر إسلامي عام يكون له الكلمة في اختيار الخليفة والقيام بما يلزم الخلافة، لأن الخلافة منصب نبوى، لا دين ولا دنيا إلا به، وكل مسلم متعين عليه المسارعة إلى هذا العمل، وحضرتكم تعلمون أن الأمة تنال بالخليفة الممثل لمقام النبوة مجدها الذي كان لسلفنا الصالح من التمكن في الأرض بالحق، ومن نيل الحرية والاستقلال، والسلامة من التفرقة وإهراق الدم، ومن تسليط العدو علينا .

سؤال : هل للأستاذ نظر خاص في تعيين شخص معين ؟

جواب : إن العامل لله وللخير الأمة يجب أن تضحل في نظره أغراضه الشخصية، وأن تتضاءل أمامه العواطف مهما اقتضته الشئون، وينبغي أن يكون الحق أحب إليه من كل ما سواه، والحق الذي لا مرأ فيه أن تكون الكلمة العليا للمجتمع الإسلامي الذي يمثله المؤتمر، ومثلي بعد هذا السن وبعد تلك المصائب التي أصابت المجتمع الإسلامي ينبغي أن يكون فرحه بالحق ورغبته في الخير العام، على أي لا أبري نفسي من أن أتمني أن يقيم الله للأمة خليفة مجملًا بجمال النبوة

علماء وخلقاً في أمة حرة مستقلة ذات طول وحول يهاجم الأعداء ويرجوها الأوداء

سؤال : ما رأي الأستاذ في نتيجة النهضة للخلافة ؟

جواب : (هنا سكت حتى ظننت أنه لا يتكلم، ثم التفت إلى مبتسماً وقال : المسلمون لا غني لهم عن خليفة يلم شعثهم، ويقيم لهم حدود دينهم، وينفذ أحكام ربهم، ويدفع عنهم ظلم المستعمرين وسلطة المستعبدين، وإن ما ألم بالشرق وحل به أعراض مرض فقد الخليفة بمعناه، وإن ما أجده في نفسي في هذا الشأن يجده كل مسلم بل ويجده أهل الذمة في الشرق، والذي أعتقد أنه إلغاء دولة الترك الخلافة خير عظيم للمسلمين، فقد أيقظتهم تلك الحادثة خصوصاً وقد اشتد ظلم المستعمرين، وقد أبي خيرة الصحابة أن يشتغلوا بتجهيز النبي ﷺ وآله ﷺ حتى يعينوا الخليفة . ويظهر لي أن الله تعالى يريد أن يعيد للمسلمين مجدهم بالخلافة لأنه انتقم من حسين بن علي ^(١) بدعواه الخلافة وليس أهلاً لها، وأعان سبحانه الترك على إلغائها، وسيكون للخلافة شأن عظيم إن شاء الله تعالى .

سؤال : ما حكم المسلمين الذين يبايعون الخليفة على الطاعة ويعجزون -

لسبب وجود بلادهم تحت حكم دولة أجنبية - عن طاعته والإذعان لأمره ونهيه، ويعجز هو عن إرغامهم على الطاعة أو على تحريرهم من السلطة الأجنبية المتغلبة عليهم ليكونوا تحت طاعته ؟ وما فائدة مبايعتهم له والحالة كما ترون حقيقتها ؟.

(١) والي الحجاز

جواب : إن الله تعالى يقول : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(١)، وقد تفضل سبحانه فجعل في كل زمان رجالاً يستنبطون الحكم من الشريعة على كل حدث لم يسبق له نظير فتقضي فيه أئمة السلف الصالح، قال تعالى :
(ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)
(٢)، وأولي الأمر هم العلماء ورثة النبي ﷺ وآله، وقد وسع الله لنا عند الضرورة .

وإني قد بينت في تقريری الذي سيرفع للمؤتمر البيان الذي يلزم للأمم الإسلامية المحتلة بالأجانب من جهة ما يتعلق بشؤونهم الدينية، وإني على يقين أن الدول المتسلطة لا تقوي على رد الفعل إذا هي صادمتنا في ديننا، وحرية الأديان مقدسة، فإقامة شعائر الدين وتولية الأئمة والقضاة الشرعيين والتعليم الديني في المعاهد منوط بالخليفة أين كان .

وحضرتكم تعلمون أن دول أوروبا لم تتدخل في الشؤون الدينية بصفة رسمية، وإن كنا لا نجهل تدخلها بانتشار البعثات الدينية في الشرق تحت ستار حرية الأديان، والأمم المتسلط عليها الأجنبي لا تحتاج إلى قوة تقهرها على طاعة الخليفة لأن روح الدين والعقيدة يجعلان الأمة مطيعة للخليفة فيما ينفذه عليها من أحكام الدين بواسطة الأئمة والقضاة والعلماء، والخليفة إنما ينفذ أحكام الدين فقط، والأمم المتغلبة يسرها جدًّا نحو الفتن والمهرج والمرج حتى تنال بغيتها من نشر تجارتها وصناعاتها، وإذا كان الخليفة المنتخب يعجز الآن عن تحرير الأمم الإسلامية

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة النساء آية ٨٣

من سلطة الأجانب والإنسان ديني بالطبع، فقريباً يصبح أهل أوروبا وأمريكا مسلمين لأن الإسلام دين العلم والعمل .

سؤال : إذا تعذر وجود الملك المسلم الذي يستطيع أن يسيط ظل سلطانه على

كافة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها حتى يبايعه المسلمون وتجب عليهم طاعته، ألا تري أن يسعى مسلمو كل مملكة محكومة بدولة أجنبية للاستقلال بأوقافهم وقضائهم الشرعي ومساجدهم وكل أمورهم الدينية وأن يجعلوها جميعاً تحت سلطة الخليفة الذي يتولى تنصيب القضاة الشرعيين والمفتين وأئمة المساجد ونظار الأوقاف وإدارة المعاهد الدينية الإسلامية، فيكون له على كافة المسلمين السلطة الروحية إذا تعذر عليه نيل السلطتين الدينية والدنيوية عليهم بسبب وجودهم تحت حكم دولة أجنبية؟.

جواب : الجواب على هذا السؤال يؤخذ ضمناً من الإجابة السابقة، ولما كان المؤتمر هم رجال منتخبون من جميع الدول الإسلامية فسيكون بحثه في جميع الشئون المتعلقة بالأمم الإسلامية من جهة الخلافة التي تمثل النبوة وبها قوام الدين والدين، وسيكون للحكم الوجودي قسط عظيم من قراراته .

واعتقادي أن المجتمع الإسلامي يحترم وينفذ قرار المؤتمر بكل الوسائل المشروعة، وكل الدول المتغلبة على الدول الإسلامية تكره أن تقف أمام أربعمئة مليون مسلم^(١) ومثلهم من الشرقيين يتحدثون بإخوانهم المسلمين، لأن الإسلام أنزل غير المسلم من أهل الذمة منزلة المسلمين احتراماً ومعاملة وحقوقاً، فلا تري شرقياً في أي أمة من الأمم الإسلامية إلا ويرى المسلم أخاه في المعاملة والمساواة والحرية، ويرى

(١) عدد المسلمين وقتذاك

الأجنبي عن الشرق يحتقر الشرق وأهله ويسلب منه مرافق الحياة . والشرق كله
تجمعه قومية واحدة والإسلام يؤيد تلك الجامعة، ولولا ذلك لما وجد بين المسلمين
أقلية من النصاري واليهود متمتعين بكل الحقوق : يقف اليهودي مع الخليفة
الأعظم - سيدنا علي بن أبي طالب - أمام القاضي، وقد وقف هارون الرشيد
أمام القاضي أبي يوسف يخاصمه يهودي فحكم بالعدل، ووقف رجال من الأنصار
يخاصمون يهودياً أمام رسول الله ﷺ وآله فبرأ القرآن اليهودي وحكم على
المسلم الأنصاري ومعه عصبة من الأنصار، وأمر أمير المؤمنين عمر رجلاً قبطياً فقيراً
أن يلطم ابن أمير مصر وفاتها - عمرو بن العاص - على وجهه يوم الحج الأكبر،
والحجة قائمة والحق أبلج والباطل لجلج .

أما تعيين مكان المؤتمر فإنه سيكون بقرار من جميع اللجان التي شكلت في مصر
والهند ونجد وتونس وغيرها من البلدان الإسلامية، وهذا المكان الذي لم يعين بعد
يجب أن يكون في أرض حرة مستقلة تضمن حكومتها حفظ كرامة المؤتمر وإطلاق
الحرية له في تقرير ما لا بد منه، ولا بد أن يكون في المؤتمر ممثلون لكل أمة من الأمم
الإسلامية، لا فرق بين الأمم المستضعفة والمستقلة، وقد ورد إلينا من أكثر اللجان
قرارات استحسان عقد المؤتمر في مكة إجابة لدعوة عبد العزيز آل سعود سلطان
نجد وملحقاتها، وكلفوني بأن أنوب عنهم في عمل ما يلزم من إعداد الوفد الممثل
لهم ووضع ما لا بد من وضعه ليعرض على المؤتمر، فشكراً لله على حسن ثقتهم بي،
وسألت الله تعالى أن يعيننا جميعاً بعنايته الصمدانية على العمل بمحابه ومراضيه إنه
محيي الدعاء .

وأخبرني صديق لي من أمراء الأسرة المالكة المحبوبين لجلالة الملك المقربين منه
أن جلالة ملك مصر لا يرغب في الخلافة ولا يسعى لها، وعدم رغبة جلالته في

الخلافة في نظري كعدم رغبة دولة الغازي رئيس الجمهورية التركية، وامتناعهما عن قبول الخلافة لا يمنع المؤتمر أن ينتخب من يراه أولى بالخلافة وينفذ قراره بالوسائل المشروعة .

ونشرت للإمام جريدة الوطن في عددها رقم ٩٠٥٥ والصادر بتاريخ ٢٤ شعبان ١٣٤٣ هـ الموافق ٩ مارس ١٩٢٥ م مقالة للإمام بعنوان :

الخلافة والحرمات الشريفان - ما يخص موضوع الخلافة ما يلي :

>> مضي على المسلمين زمن احتجبت فيه عنهم أنوار الخلافة العظمي حتى كانت لا تذكر إلا على المنابر يوم الجمعة فيسمعها المصلون سماع معتاد لا يحس بقوة تأثيرها، وبلغ التساهل بهذا المنصب النبوي أن صار الخليفة يسمى سلطان آل عثمان تهاوناً بحقوقها وجهلاً بتفسيرها، أنتج هذا التهاون ضعفاً في قوة الرابطة أدي إلى أن صار المسلمون يعينون الأجانب على الخليفة وأنصاره نسياناً لحقوق هذا المقام النبوي أو تناسياً، فلما أيد الله رجال الترك ونصرهم بنصره على أعدائهم، أدركوا أن هذا الاسم هو على غير مسمى ويتعين أن يعاد إلى ما كان عليه أو يلغى، وإعادة إلى ما كان عليه لا يكون بأمة واحدة بل بالمجتمع الإسلامي فألغوا الخلافة حكماً منهم على أنفسهم، وخلعوا الخليفة من بينهم، وكأنهم يقولون للمجتمع الإسلامي هذه بضاعتكم ردت إليكم فاعلموا إنا معكم عاملون.

قدر سبحانه هذا الأمر ليظهر شأناً من شئونه هو إعادة الخلافة إلى ما كانت عليه، دليل ذلك يقظة المسلمين في جميع أقطار الأرض وقيام أهل التقوي والعقل منهم للعمل في شأن الخلافة والحرمين الشريفين، أما الخلافة فإن المسلمين جميعاً

يرونها المثل الأعلى للنبوة وأنه لا دين ودنيا إلا خصوصاً في هذا العصر الذي تفرقت فيه الأمة أيدي سباً بفتن أوروبا وتدخلها في الشؤون الدينية، عرقلة لمساعي العاملين للخلافة ومساعدة للمبشرين، وذلك مقرر لدينا جميعاً، واعتقادنا أن ما نشره المقطم^(١) عن منع الإنجليز مؤتمر الخلافة بينغال ومبار عن مواصلة العمل من هذا القبيل، مع أن تعيين الخليفة بمعناه خير عام للشرق والغرب كما قررنا في مقالاتنا السابقة، والمسلمون جميعاً يرون أن تعيين الخليفة واجب ديني بالإجماع لإقامة الشعائر والحدود ودفع المتلصصة والمتغلبة والظلم عن الشرق بأجمعه <<.

وكان الإمام قد أرسل خطاباً إلى الملك عبد العزيز آل سعود ((١٩٢٥ م - ١٣٤٣ هـ)) يشير إلى موضوع الخلافة الإسلامية وإلى أعمال الملك فؤاد لترشيح نفسه خليفة عن المسلمين وهذا جزء منه^(٢) :

>> ولولا وجود المنافقين بيننا لما أصبح في الشرق مستعمر، هذا وإني منذ ألغيت الترك الخلافة وخلعوا الخليفة وأنا والحمد لله أعمل لتقوية روابط الإخاء بين الدول الإسلامية مع ما ألاقه من حرب المنافقين، وكنت أحب أن يكون المؤتمر الإسلامي في أنقرة، حتى أظهركم الله وأكرم بكم مكة وأعزها وطهرها من أهل الإلحاد والظلم في الحرم ..

... وقد كان بعض العمال والموظفين في مصر يعملون في الخلافة لشخص معين حتى أفسدوا على الأمم عقائدها، فاتحدت بهم جمعية الخلافة في الهند، فأسرعت وبيئت لإخواني في الله : شوكت علي والدكتور أجمل خان والأستاذ

١ (جريدة المقطم أسسها يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس بالقاهرة سنة ١٨٨٩)

٢ (جريدة العلم المصري: العدد الصادر في ٩ فبراير ١٩٥٢، وأيضاً مجلة المدينة المنورة المجلد الخامس

الأنصاري وكفاية الله وغيرهم حقيقة الأمر، فرفضوا اتحادهم بعلماء الأزهر الذين توجهوا إلى الحجاز، فكتبت لأخي الشيخ عبد الله بن سالم كبير علماء نجد، فشرح الله صدره وكتب لي بما طمأن قلبي، وإني الآن مع أهل الإيمان والتقوي من المصريين والهنود وأنصار الحق بنجد وجاوا والبوسنة والمهرسك وجنوب أفريقيا وسومطرة وغيرهم، بل وجميع الأمم الإسلامية الذين حفظ الله قلوبهم من ظلمة البدع وحفظ أبدانهم من موالاة الأعداء، يرون العمل معنا ليكون المؤتمر الإسلامي العام بمكة المكرمة << .

وقد تلقي الإمام الرد التالي من الملك عبد العزيز ((١٩٢٥ م - ١٣٤٣ هـ)) هذا نصه :

من عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى جناب الأجل المكرم فضيلة السيد محمد ماضي أبو العزائم سلمه الله .
السلام عليكم ورحمة الله على الدوام ..

ثم ورد إلينا كتابكم المؤرخ في ١٥ يناير الماضي، وأسرتنا أخباركم، وما ذكرتم صار عندنا معلوماً خصوصاً ما ذكرتم من نصائحكم الثمينة الخالصة جعلناها على الخاطر كذلك دفاعاً عن الحق وأهله، هذا أقل ما نؤمله من أمثال فضيلتكم لا زلتم موفقين لكل خير، وإني أحفظ لكم هذا العمل الطيب مع الشكر الخالص، وستحفظ لكم عندنا أجمل ذكرى، وبحول الله إن الأمور ستكون وفق ما يرضاه كل مخلص لله ورسوله، ونسأل الله تعالى أن ينصر دينه وكتابه ويعلي كلمته ويجعلنا من أنصاره، والأمل ألا تنقطع عنا كتبكم المفيدة والحاوية لهذه المعاني الطيبة .. هذا ما لزم بيانه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ^(١) .

انعقاد المؤتمر العام بمكة المكرمة :

ومنذ الإعلان عن إلغاء الخلافة الإسلامية، وبعد ذلك بعامين من العمل المضني، أعلن الإمام عن موعد انعقاد مؤتمر الخلافة الإسلامية بمكة المكرمة في موسم حج عام ١٣٤٤هـ وبالتحديد يوم ٩ يونيو ١٩٢٦ م بمكة المكرمة برئاسة الملك عبد العزيز آل سعود.

وكانت جماعة الخلافة الإسلامية بوادي النيل قد أعلنت قبل السفر إلى مكة المكرمة - وكما ذكر ذلك مراراً من قبل - عدم صلاحية مصر لانعقاد المؤتمر العام للخلافة بها للأسباب التي بينها سماحة السيد محمد ماضي أبو العزائم رحمته الله رئيس جماعة الخلافة الإسلامية بوادي النيل في قرارات اللجنة التنفيذية ومقالاته المنشورة في الصحف وأقره عليها العالم الإسلامي بأسره.

وكان عبد العزيز آل سعود ممن فكر أن يكون خليفة للمسلمين فهو ملك مكة والمدينة والحجاز فهو في نظر نفسه أولي بها، ويؤيده في ذلك بعض قادة العرب وكذلك بريطانيا، والملك فؤاد يريد أيضاً لنفسه فهو ملك أقوى دولة عربية إسلامية وفيها الأزهر الشريف وفيها العلماء وتؤيده في ذلك بريطانيا أيضاً، فهي تؤيد هذا وذاك كل على حدة، تريد من ذلك الوقعة بين الدول الإسلامية، وكان هناك مرشحين من المغرب وسوريا والعراق وغيرهم كل منهم يريد أن يكون الخليفة .

(١) مجلة المدينة المنورة المجلد الخامس

وبمجرد صدور هذا الإعلان أعلن الملك فؤاد عن مقاطعته للمؤتمر منذ بدء انعقاده، ظناً منه أن هذا يعرقل سيره ويعرضه للفشل، ولكن الصحافة المصرية بعثت بمند وببيها لحضور المؤتمر، وخاصة جريدتي الأهرام والأخبار التي مثلها الأستاذ الكبير أمين الرافعي . حضر الإمام هذا المؤتمر بصفة رسمية، فقد أقامه الإخوان في البلاد وآلاف مؤلفة من الناس، وكان معه توقيعات من العمد والمشايخ والأعيان والموظفين تفيد بتوكيل الإمام أبي العزائم عليه السلام أن يكون ممثلاً للشعب المصري في مؤتمر الخلافة الإسلامية، وكانت هذه الخلافة مقامة في مصر ولكن على المؤتمر العام وشعبية وليست رسمية .

خرج الإمام محرماً بالحج من داره، ومن ورائه خمسمائة من خاصة أتباعه ومن يتقلدون مناصب عليا في مؤتمر الخلافة، فقد كانت مهمة دينية وسياسية . وفي يوم ٥ يونيو ١٩٢٦ م تم الاجتماع لأعضاء الوفود بمقر إقامة الإمام بمكة المكرمة للتعارف، وقد قام الإمام بذلك بنفسه، وفي يوم ٦ يونيو كان الاجتماع أيضاً بدار الإمام بعد صلاة العصر حيث افتتحت الجلسة بآيات من الذكر الحكيم . بعدها فسر الإمام للحاضرين ما قرأه القارئ، وكان المترجمون يترجمون إلى الإنجليزية هذا التفسير لعلماء الهند وجاوا، وترك المجال لما ذكره محرر جريدة الأهرام^(١).

ثم انتقل الشيخ إلى التكلم في مسألة المؤتمر، وأدلى بآدابه الواجب اتباعها في أداء هذه المهمة الإسلامية باتحاد وتضامن، وأثنى كثيراً على ملك الحجاز، ثم تناقش

(١) جريدة الأهرام : العدد الصادر في ١٩٢٦/٦/٦

الأعضاء اقتراحاته، وكان رد الشيخ بأنه يجب التكاتف لرفع كلمة الإسلام والمسلمين وحفظ شريعة رسول الله ﷺ وآله، وهذا هو الغرض الأسمى .

وفي يوم ٩ يونيو وهو يوم افتتاح أولى جلسات المؤتمر، وبعد أن قرأ ملك الحجاز خطابه، قال محرر الأهرام في مقاله :

>> وتم في الحال انتخاب الرئيس ونائين للرئيس، فأسفر ذلك عن انتخاب شريف باشا عدنان ونائبه سليمان العدوي الهندي، وصفاء الدين أفندي من مسلمي روسيا، وقد قرأ الشيخ حافظ وهبة أهم الأعمال المعروضة وأخذ الرأي عليها باسم الملك عبد العزيز آل سعود وغايته :

١- تعارف المسلمين بعضهم مع بعض وتوحيد كلمتهم تحقيقاً لقوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة)^(١) .

٢- النظر والسعي في ترقية شئون المسلمين اجتماعياً وأدبياً واقتصادياً .

٣- النظر والسعي في توطيد الأمن في الأراضي المقدسة والعمل على تعميم الوسائل الصحية وتسهيل المواصلات وتسهيل أمور الحج وإزالة كل عقبة في سبيل أداء الفريضة وضمان سلامة الحجاز وحفظ حقوقه .

٤- يكون انعقاد المؤتمر في مكة كل عام في موسم الحج، فإذا تعذر ذلك فيكون في بلد مستقل، وإذا تعذر ذلك فيكون كما قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم)^(٢) .

(١) سورة الحجرات أية ١٠

(٢) سورة التغابن أية ٦٤

ولم يشير الملك عبد العزيز لا من قريب ولا من بعيد عن الهدف الذي انعقد من أجله هذا المؤتمر، كذلك الشيخ حافظ وهبة وزيره تلا النقاط الأربعة السابقة التي ليس فيها أي إشارة إلى موضوع البحث، ألا وهو إلغاء الخلافة الإسلامية وضرورة إعادتها !!

وبعد الاستراحة أحيط المجلس علماً بأن مصر ليست ممثلة تمثيلاً رسمياً، ولكن المؤتمر اعتبر الشيخ محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام رئيس جماعة الخلافة بوادي النيل حاضراً عنها.

وقد قدم الإمام للمؤتمر أربعة عشر اقتراحاً ^(١) لصالح الإسلام والمسلمين، وانتهت جلسات المؤتمر بالفشل رغم الجهود التي بذلها الإمام لإحياء الخلافة وإعادة منصبها، لأن السياسة الاستعمارية كانت من وراء القصد .

والملاحظ أن المؤتمر الذي ظل المسلمون يعملون له لمدة عامين بهمة ونشاط لا تعرفان الكلل، ورغم ما تعرض له زعمائهم وقادتهم من كيد المتحبرين وعسف المحتلين، والذي كان الغرض الأساسي من انعقاده النظر في موضوع الخلافة وتعيين الخليفة .. قد انصرف منذ اللحظة الأولى التي ألقى فيها الملك عبد العزيز خطابه عن الهدف الأسمى إلى مسائل فرعية بجثة تاركة مسألة الخلافة !! وقد بدأ الانقسام في صفوفه منذ الجلسة الأولى عندما تغيب رئيسه عن الحضور، ثم فترت جلساته شيئاً فشيئاً، وما هي إلا بفعل القوي المعادية لائتلاف الشعوب الإسلامية .

(١) راجع قانون الخلافة الإسلامية بوادي النيل

ولم يبت في شأن الخلافة ومقرها ولا الخليفة والصفات الدينية والزمانية التي يجب أن تتوفر فيه، ولم يصدر أي قرار يتعلق بهذا الشأن حتى الآن .

وقد ذكر شهود العيان لهذا المؤتمر أنه قد قام كل إنسان يشيد بما يراه في إمامه أو زعيمه الذي يرشحه لهذا المنصب، إلى أن جاء دور الإمام فقام عليه السلام ليشرح موقف الخلافة وصفات الخليفة وأبدأ خطبته بمقدمة، وكان عليه السلام إذا تكلم يجعل بين المقدمة والخطبة لحظة سكون اقتداء برسول الله ﷺ وآله عليهم السلام الذي كان يجعل بين الآية والآية سكتة، وفي هذه اللحظة قام السيد محمد رشيد رضا - صاحب تفسير المنار - وكان من المؤيدين للملك عبد العزيز وقال : بسم الله .. وتحدث عن الملك بدون أن يقدمه أحد، يقول الشيخ أحمد سعد العقاد وكان من الملازمين للإمام : ما رفعت صوتي قط في حضرة إمامي ولكن هذه هي المرة الأولى التي رفعت فيها صوتي في حضرته ولكن في الله ورسوله فقلت : يا سيد محمد رشيد رضا : إن الإمام لم يكمل كلمته وأنت الآن عارضته وأظن أن أي إنسان له كلمته والرجل لم يقل إلا المقدمة وتعتبر هذه مغالطة، فأوماً الإمام للشيخ العقاد بالسكوت فأكمل السيد محمد رشيد رضا كلامه، ثم بعد ذلك قام الإمام، وبظرتة الثاقبة أكمل بكلمات معدودة فقال : ((لا أريد خليفة للمسلمين يضع الجندي البريطاني حذائه فوق رقبته)) إشارة إلى أن أي بلد مستعمر أو يوالي المستعمرين لا يصح أن تكون الخلافة منها وفيها .

وجاء يوم عرفة واجتمعت الوفود في مسجد نمرة واتفقوا على أن يلقي خطبة الجمعة الإمام أبو العزائم عليه السلام، والتمسوا ذلك من الملك عبد العزيز فأجاب ملتمسهم، فقال لهم الإمام : ((هذا مقام لا ينبغي إلا لرسول الله ﷺ وآله عليهم السلام أو لخليفته)) فارتفعت أصواتهم جميعاً بقولهم : ((قد أقمنك ورضيناك خليفة عن

رسول الله ﷺ وآله)) فخطب الإمام خطبة تفوق وصف الواصف، وصلوا خلفه الظهر والعصر جمع تقديم كما هي السنة^(١).

ولقد كانت هناك بعض المضايقات والاستفزازات من الملك عبد العزيز آل سعود بسبب أفكاره الوهابية، دعا الملك عبد العزيز الوفود والحاضرين إلى مأدبة الغذاء، وكان الطباخ قد وضع الأرز على هيئة قباب كبيرة، وكان الإمام يجلس قريباً من الملك عبد العزيز ففهم هذه الإشارة، فأراد الإمام أن يلمح للملك، فضرب يده في القبة وقال هذه القباب هي التي يجب أن تهدم وليست قباب سيدنا مالك والسيدة خديجة وأولاد الرسول ﷺ وآله، فغضب الملك عبد العزيز وقال : أعجب لكم أيها المصريون، تقدسون الطين وتكفرون برب العالمين، فكبر من مع الملك تكبيرة ظناً بأن ملكهم قد انتصر بكلمته هذه، فقال الإمام في هدوء : ألم تكن الصفا والمروة من شعائر الله وهي من الطين ؟ فألجم الرجل .

وحدث أن أرسل الملك عبد العزيز آل سعود إلى الإمام الشافعي أحد كبار علمائه الموثوق بهم عنده - وكان اسمه مدثر - وقال له : اذهب إلى هذا الرجل وجدد له إيمانه لأنه صوفي، وكان الإمام الشافعي مضجعاً على أريكة فقرب الشيخ العقاد الشيخ مدثر من الإمام، فرحب به وطلب له كرسيًا وقال له : مرحباً بكبير العلماء مرحباً بمفتي البلاد مرحباً بالشيخ مدثر، إني أشعر بألم في قلبي فأرجو أن تضع يدك على قلبي وتقول لا إله إلا الله، لعل الله يخفف ألمي، فجلس الرجل ووضع يده فوق قلب الإمام وأراد النطق بالشهادة فلم يقل إلا : لا لا لا لا لا .. والتجمل لسانه ولم ينطق بالكلمة، ثم بكى وقال : سامحني أيها الشيخ، جئتك مغترباً، وأرجو يا إمام أن تدعو

(١) كتاب "هداية السالك إلى علم المناسك" للإمام أبي العزائم عليه السلام

الله لي أن يثبت إيماني وأن يشبثني على هذه الكلمة، فدعا له الإمام وجدد له إيمانه، وجري ونسي حذائه وصار يتخبط في مشيته وجعل يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

العمل على انعقاد مؤتمر آخر للخلافة الإسلامية بالقدس :

وبعد عودة الإمام من المؤتمر إلى مصر جدد الاتصال بزعماء وملوك البلاد الإسلامية وخصوصاً رجال الهند، كما جدد الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي آخر بمدينة القدس وحددوا لذلك يوم ٣١ ديسمبر ١٩٣١ م، وحاولت السلطات البريطانية إفساد هذا المؤتمر ومنعت الحكومة المصرية إعطاء تأشيرة خروج للإمام، كما رفضت سلطات الانتداب في فلسطين السماح له بالدخول، وأراد أن يحصل على ترخيص بمقابلة زعماء الهند في ميناء السويس بسبب وجودهم على الباخرة المتجهة إلى لندن لحضورهم مؤتمراً مع الحكومة البريطانية ثم توجههم بعد ذلك إلى حيفا، فمنعت الحكومة الباخرة من الوقوف في ميناء بور توفيق وجعلت تموين الباخرة بالفحم من ميناء بورسعيد، وإزاء ذلك لجأ إلى حيلة نجح من خلالها في مقابلة الوفود المشاركة وكان على رأسها أمين الحسيني مفتي فلسطين والأمير شوكت علي، والأمير محمد علي، والدكتور محمد إقبال، فقد أوفد ولده السيد محمد الحسن بسيارة الإمام الخاصة في اتجاه السويس تضليلاً للسلطات التي ظنت أن الإمام هو الذي بالسيارة، ثم استقل الإمام سيارة أجرة ذهبت به ليلاً إلى بورسعيد حيث قضى الليل في ضيافة نقيب الأشراف الشيخ محمد الصياد متعهد تموين السفينة بالفحومات الذي عمل له ترتيباً خاصاً تمكن الإمام به من دخول الميناء والصعود على السفينة والاجتماع بزعماء الهند والتشاور معهم في شؤون المسلمين وعقد مؤتمر القدس، ولم تعرف السلطات ذلك إلا بعد رجوع الإمام للقاهرة .

وانعقد المؤتمر الإسلامي بالقدس، ولم تمثل فيه كل الوفود التي سبق أن مثلت في مؤتمر يونيو ١٩٢٦ م، فكان على رأسه الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين والأميران شوكت على ومحمد على والدكتور محمد إقبال، وحددت أهدافه منذ اليوم الأول للانعقاد فكانت :

أولاً : التعاون الإسلامي في مختلف ميادين التعاون .

ثانياً : نشر الثقافة الإسلامية لتنوير المسلمين بما يجب عليهم نحو الأخذ بالعلوم الحديثة والحفاظ على تراثهم .

ثالثاً : الدفاع عن الأماكن المقدسة بما فيها القدس الشريف .

رابعاً : إنشاء جامعة إسلامية في القدس .

ولم يكن نصيب مؤتمر القدس في ديسمبر ١٩٣١ م من النجاح أو الفشل بأقل من نصيب المؤتمر الإسلامي الأول بمكة المكرمة في يونيو ١٩٢٦ م، فكلا المؤتمرين أثرت فيه عوامل ذاتية نابعة من واقع العالم الإسلامي وحاضره من جهة، ومن الأعباء وكيد الاستعمار والصهيونية العالمية من جهة أخرى، فأصبحا بذلك حدثين تاريخيين من حيث أنهما أول المؤتمرات الإسلامية في العصر الحديث .

ولنا أن نبلور نتائج هذين المؤتمرين فيما يلي :

١- إن موضوع الخلافة كان من الأهمية بمكان، ويتضح من ذلك اهتمام الرأي العام الإسلامي به فترة تزيد على نصف القرن .

٢- إن جهوداً فردية من رجال مؤمنين برهم مع قلة عددهم وعُددهم استطاعت أن توقف أطماع ملك مصر وأن تشل حركة المؤتمر المأجور ومن ورائه

الاستعمار والحكومة، فلقد استطاع الإمام أن يكتل الزعماء المسلمين في آسيا وأفريقيا ضد أطماع فؤاد، وأن يكشف حقيقة نواياه، وأن يشككهم في مخططاته .

٣- إن تفرق أمراء وقادة المسلمين كان السبب الأساسي في تأثير المستعمرين عليهم وفي حملهم على عدم التعرض لمسألة الخلافة، لأنهم يرون فيها القوة المعنوية لاتحاد الأمم الإسلامية ضد مصالحهم التي تتلخص في إبقاء الشعوب الإسلامية في حالة جهل وتخلف لضمان تبعيتهم ولكونهم قوة بشرية واقتصادية هامة لهم .

٤- إنه لو كتب لهذه المؤتمرات النجاح لتغير وجه التاريخ ولكان للمسلمين اليوم قوة وتأثير في الموازين الدولية وهم ثلث سكان العالم حتى منتصف هذا القرن. ٥- على أن هذين المؤتمرين كان لهما دوي هائل وأهمية تاريخية إذا قيسا بأحوال العالم الإسلامي في الربع الأول من القرن العشرين حيث كانت البلاد الإسلامية جميعها تحت الاحتلال الأوروبي .

وسوف يذكر التاريخ للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام خطواته البناءة نحو جمع الأمة الإسلامية والعمل على اتحادها ووحدها في صعيد واحد .

تأييد الإمام لثورات وحركات الشعوب الإسلامية

لم يقف دور الإمام أبي العزائم عليه السلام ضد الاستعمار عند وطنه ومسقط رأسه، بل إنه قد حول إيمانه ورسوخ عقيدته في أن الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، وأن الإسلام وطن والمسلمون جميعاً أهله، وأن الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها، إلى عمل حقيقي أثر في إثراء العزيمة والتيار الجارف في مناهضة قوي الاستعمار عند شعوب وزعماء الدول الإسلامية، ونستعرض هنا تلك الثورات التي أثر فيها رأي الإمام المجدد وما استطاع أن يقدمه من فكر وعمل ^(١) :

ثورة الهند :

في عام ١٩٠٨ م قامت ثورة عارمة في الهند واتحدت نحو هدف واحد هو التخلص من سيطرة بريطانيا وحكم الهند نفسه بنفسه، وكان حزب المؤتمر الذي تأسس عام ١٨٨٧ م والذي ضم عناصر المثقفين والقادة السياسيين يضم كثيراً من رجالات الإسلام الهنود أمثال محمد علي جناح ^(٢) ومحمد إقبال ^(٣) وشوكت علي والشيخ قرشي وغيرهم، ولما كان المسلمون أقلية بالنسبة للملايين من الهندوسيين، فقد رؤي تكوين حزب لهم فكان ((حزب الرابطة الإسلامية)) عام ١٩٠٦ م

١ (كتاب الأمام "محمد ماضي أبو العزائم " الأستاذ عبد المنعم شقرف "بتصرف "

٢ (١٢٩٣-١٣٦٧) و (١٨٧٦-١٩٤٨) سياسي وأديب باكستاني ومؤسس دولة باكستان وأول رئيس

لباكستان ١٣٦٦-١٩٤٧ ورئيس الحلف الإسلامي ١٣٢٤-١٩٠٦)

٣ (١٢٩٣-١٣٥٧)، (١٨٧٦-١٩٣٨ م) أشهر الشعراء والفلاسفة بالهند، دعا إلى إنشاء باكستان

والاستقلال عن الهند

والذي يعتبر مولد الباكستان التي قامت باسم تسعين مليوناً من المسلمين على أساس العقيدة والحضارة الإسلامية والمثل الأخلاقية العليا ولم تقم على أساس من العنصر، وقد نص دستور الباكستان على أنها جمهورية إسلامية تعيش بحسب تعاليم الدين الإسلامي وعلي هديه، وتعمل في الميدان الخارجى علي ضوء صلتها بالدول الإسلامية، ولقد كان دور الإمام أبي العزائم عليه السلام في إنشاء دولة الباكستان من أوضح الأدوار فيها، فقد شهدت داره منذ بداية الحرب العالمية الأولى اجتماع زعماء الحركة الباكستانية إلى آخر أيام حياته، وكان من بينهم من تولى الحكم بعد الاستقلال في الهند عام ١٣٦٦ هـ ((١٩٤٧ م)) وعلي رأسهم ظفر الله خان وزير خارجية باكستان، وعبد الستار سيت سفير باكستان في مصر، وقد ظلا على وفائهما بعد وفاته كما كانا له حال حياته، يزورون ضريحه ويجمعون بأبنائه ويتدارسون تراثه .

الثورة التركية :

في عام ١٩٠٨ م حدثت هوجة الاتحاديين في تركيا وتكونت ((جمعية الاتحاد والترقي)) إلى جانب ((جمعية تركيا الفتاة)) ووجدتا جهودهما ضد السلطان عبد الحميد ^(١) فأعاد الدستور بعد أن ظل معطلاً ربع قرن، ولكنه كحركة مضادة كون جمعية باسم ((الجمعية المحمدية)) وأجبر علماء الدين في مختلف الولايات على عضويتها وتزعم الجمعية الشيخ أبو الهدي الصيادي ^(٢) داهية السلطنة .

(١) ١٨٤٢-١٩١٨ سلطان عثماني عزل ١٩٠٩م ١٣٢٧

(٢) ١٨٥٩-١٩٠٩ أشهر علماء الدين الإسلامي في عصره قرب السلطان عبد الحميد

وظن أبو الهدي أنه يستطيع أن يضم إليه الإمام أبا العزائم عليه السلام فأرسل إليه أحد أتباعه متخفياً في زي الدراويش، ولما اطمأن بخلوته بالإمام سلمه رسالة أبي الهدي طالباً منه الرد كتابة، ولكن الإمام استطاع أن يرده بكلمات شفووية لأنه لم يكن يرتاح لسياسة أبي الهدي القائمة على التفرقة وإثارة العناصر والتجسس، وكلها أمور على نقيض سياسة الإمام أبي العزائم عليه السلام التي تقوم أساساً على قول الحق تبارك وتعالى : (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا...) (١).

وقد قام الإمام بإرسال الرسالة تلو الأخرى إلى كل من زعماء الاتحاديين وزعماء حزب تركيا الفتاة وإلى السلطان ورجال الحاشية بالأستانة محذراً من التفرقة ومن تشتت الكلمة في الوقت الذي تتربص فيه أوروبا بدولة الخلافة وبالعالم الإسلامي والعربي وتنتظر الساعة التي تنقض فيها على الشرق انقضاؤ الوحوش، ويستثير حماسة السلطان عبد الحميد مذكراً إياه بموقفه الصلب في وجه الصهيونية العالمية ممثلة في زعيمها هرتزل (٢) عندما أراد أن ينتزع من السلطان أمراً بإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين، وينبهه في الوقت نفسه إلى أن الصهيونية لن تسكت على هذه الإهانة وأنها لا بد مدبرة أمراً والله عز وجل يقول : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) (٣)، غير أن السلطان عبد الحميد لم يلبث إلا قليلاً حتى أقصي عن الخلافة عام ١٩٠٩ م وكانت تلك بداية لنهاية الخلافة الإسلامية وما أعقبها من أحداث .

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣

(٢) ١٨٦٠-١٩٠٤ مجري يهودي أسس الصهيونية

(٣) سورة النساء آية ١٠٣

الثورة التونسية :

وفي عام ١٩٠٨ م ثار الزعيم التونسي على باش حمية وزميله عبد العزيز الثعالبي^(١)، وكانوا ممن حضروا على الشيخ محمد عبده في مصر مجاورين بالأزهر مع الإمام أبي العزائم عليه السلام، وكانت ثورتهم تتلخص في تكوين حزب لتنوير الشعب وتعريفه بحقوقه وواجباته، فتألف حزب تونس الفتاة، وكان لهذا الحزب دوره مع الإمام حيث توحدت جهوده في تكوين جماعة الخلافة الإسلامية في تونس عام ١٩٢٤ م، وكان الثعالبي يؤمن باتجاهات الإمام أبي العزائم عليه السلام، تلك الاتجاهات التي تعارض الاحتلال الأوربي وتري فيه عدواناً صليبيّاً ومظهراً من مظاهر الاضطهادات الدينية التي شهدتها أوروبا في القرون الوسطى، وقد أزعجت حركة الحزب المستعمرين الفرنسيين وسببت لهم الكثير من الخسائر والمتاعب، فلجأت إلى حل الحزب قبيل الحرب العالمية الأولى وشتتت شمل القائمين عليه بين معتقل ومنفي فلجأوا إلى مصر، واستضاف الإمام أبو العزائم عليه السلام الثعالبي وباش حمية ما بعد الحرب حيث كونوا الحزب الدستوري عام ١٩٢٠ م وآزره محمد الناصر إلى أن حله الفرنسيون عام ١٩٣٣ م.

(١) (١٢٩١-١٣٦٣هـ - ١٨٢٤-١٩٤٤م). رئيس الحزب الدستوري (١٣٣٨هـ - ١٩٢٠) حله الفرنسيون (١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)، اعتقل عد مرات، غادر تونس إلى البلاد العربية ١٩٢٣م وعاد سنة ١٩٣٧م ثم اعتزل السياسة.

الثورة المغربية:

وفي مراكش حاولت فرنسا إخماد ثورة محمد بن الريسون^(١) ضد السلطان عبد العزيز بن مولاي الحسن^(٢) عام ١٩٠٨ م، فثار الشعب، وتولي مكانه مولاي عبد الحفيظ^(٣) ففقد ولاية شعبه . وهاجم الثوار العاصمة فاس في مارس ١٩١١ م فاستنجد بالفرنسيين الذين احتلوا فاس بينما احتلت أسبانيا العرائس، وقبل السلطان الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢، وقامت الثورة فأجبرت فرنسا السلطان على التنازل عن عرشه لابنه يوسف الذي استسلم للفرنسيين، وفي نفس العام في ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ اتفقت فرنسا وأسبانيا على تقسيم البلاد إلى مناطق ثلاث :

١- منطقة النفوذ الفرنسي وعاصمتها الرباط .

٢- منطقة النفوذ الأسباني ((الريف)) وعاصمتها تطوان .

٣- منطقة طنجا وتبقي دولية .

ولم يستسلم الشعب رغم الكوارث التي حلت به، وكان الإمام يوالي ثورة عبد الكريم الخطابي^(٤) ويوليها كل اهتمامه لمعرفة بما عليه قلب ذلك الزعيم الإسلامي من إخلاص وصدق وشجاعة وفضائل إسلامية قل أن توجد في عصره، وقد جعل

(١) ١٨٥٤-١٩٢٥ م ١٢٧٠-١٣٤٣هـ انتصر على الأسبان بقرب تطوان وعقد مؤتمر الصلح في ١٩١٥ م ١٣٣٣هـ أسره عبد الكريم الخطابي لما امتنع عن مناصرته ووالى الأسبان، مات في تلمسان - الأعلام ٢٥٠/١.

(٢) (١٨٨١-١٩٤٤م) سلطان المغرب خلفا لأبيه ١٨٩٤م، قوى في عهده النفوذ الفرنسي، خلع ١٩٠٨م، توفي في طنجة

(٣) ١٨٦٣-١٩٣٧م، سلطان المغرب ١٩٠٨، اعتزل ١٩١٢م.

(٤) ١٨٨٢-١٩٦٣م "١٢٩٩-١٣٨٢"هـ زعيم قبائل الرينة بالمغرب، ثار على الأسبان وهزم قرب مليلة ١٩٢١م، توفي بالقاهرة- الأعلام ٢١٦/٦.

الإمام من بيته مثابة للاجئين من الريف، كما جعل من مجلاته والصحافة الموالية له ميداناً ينشر فيه انتصارات الثورة ويدعو لتأييدها وتشجيعها، وقد لاقت دعوته رواجاً وتأييداً منقطعي النظر فسارت الثورة من نصر إلى نصر، انتصر عبد الكريم في الريف عام ١٩٢٠ م ((١٣٣٩هـ)) انتصاراً أذهل العالم كله، وألف حكومة إسلامية وطنية، وعاودت أسبانيا مهاجمته عام ١٩٢٣ م ((١٣٤١هـ)) فكانت هزيمتها حديث العالم كله إلى أن تدخلت فرنسا إلى جوارها فصمد الأمير حتى عام ١٩٢٦ م، وتولي القيادة بعده أخوه الأمير محمد فقاتل الأبطال ولفت إليه أنظار العالم بما أبداه من شجاعة وحسن بلاء ودمائة خلق تحلي في معاملته للأسرى من الأعداء، ثم اضطر بفعل الخيانة إلى الاستسلام، ونفته فرنسا إلى جزيرة ((ري يونيون)) مع أسرته .

وأثناء الحرب الفرنسية الأسبانية المغربية، أرسل الإمام عشرين احتجاجاً إلى كبريات الدول تنافح فيها عن المجاهد الكبير عبد الكريم، هذا لإنجلترا وفرنسا، وذاك لألمانيا وإيطاليا، يحذرهم سوء المغبة وينذرهم عاقبة هذه الغضبة، وما كان ينال في تلك الأيام إلا كنائم على خرط القتاد^(١) يناجي ربه ويسأل لأوليائه النصر على أعدائه .. والله في ذلك شئون .

الثورة الليبية :

وفي عام ١٩١١ م كانت الثورة في طرابلس تقض مضاجع العالم الغربي، فقد أمكن لمائة وخمسين من جنود طرابلس بقيادة الشريف السنوسي^(٢) من إبادة ثلاثة

(١) شجر له شوك.

(٢) ١٨٦٧-١٩٣٣ ((١٢٨٤-١٣٥٢هـ)) قاتل الإيطاليين.

آلاف جندي إيطالي قبل أن تحصدهم مدافع الإيطاليين، وانهاى التأييد بالمال والسلاح والمتطوعين على ليبيا، وأكدت صحافة الإمام الناشئة أن دور المسلم مهما تضاعف فهو مؤيد بالحق، وتوالت الهزائم على إيطاليا والكوارث على الثوار، وبرزت حركة شعبية بمصر مؤداها أن مصر للمصريين وأنه لا داعي لإرسال الأموال والأنفس إلى ليبيا لأن تركيا تخلت عنها وإيطاليا توازرها الدول الأوربية القوية، ومن ثم فلا بد لإيطاليا من احتلال ليبيا ومن واجب العرب والمسلمين أن يوفرُوا أموالهم وأرواحهم، وكان يتزعم هذه الحركة ((.....)) وحزب أبناء الأسر في مصر وبعض المثقفين، وقد تصدى لهم الإمام بمقالات كثيرة واستمرت حملته إلى ما بعد الحرب حيث استؤنف القتال بين الثوار وإيطاليا، ولجأ السيد أحمد الشريف السنوسي إلى تركيا ثم إلى مصر وكان ملازمًا ومن معه من الثوار لدار الإمام، حيث كانت تنشر مجلاته أنباء الثورة وترد على مزاعم المستعمرين وترسل الاحتجاجات إلى ملك إيطاليا والبابا وكبار الساسة الأجانب وقناصل الدول^(١).

يقظة شباب أندونيسيا :

وفي عام ١٩١١ م تنبه الشباب الوطني في أندونيسيا إلى حقوقه ورغب في رفع مستوي الشعب ثقافيًا واجتماعيًا ودينيًا، فتأسست جمعية ((نودي أوتومو)) أي التزعة إلى الفضيلة، ثم خطوا خطوة اقتصادية هامة في محاربة المستعمر فتأسست شركة ((دامانج إسلام)) أي الشركة التجارية الإسلامية التي تحولت فيها بعد إلى حزب إسلامي يستهدف غايات إسلامية في إطار تعاليم الإسلام، وفي عام ١٩١٢ تأسست الجمعية المحمدية بمدينة ((جوجاكرتا)) واتصل الزعماء وعلي رأسهم

(١) مجلات السعادة الأبدية والمدينة المنورة منذ عام ١٩٢٢م.

محمد حتى وشهرير عام ١٩١٢ م في موسم الحج بالإمام، وكان لهذا اللقاء أثره، فما كادوا يعودون إلى بلادهم حتى كونوا جمعية دينية إسلامية باسم ((جمعية فضة العلماء)) وقد قامت هذه الجمعية على الأسس التي وضعها الإمام أبو العزائم عليه السلام ليقظة الشعوب الإسلامية ووسائل استعادة مجدها^(١)، ورأت الجمعية أن توسع نشاطها فأنشأت فروعاً في جميع أنحاء البلاد وكادت تنجح في أعقاب الحرب العالمية الأولى في القيام بحركة للاستقلال، غير أن الدول الاستعمارية هبت لنجدة هولندا، وقد اشتركت الجمعية وزعمائها مع الإمام أبي العزائم عليه السلام في العمل على إحياء الخلافة الإسلامية، وكان لوفودها في المؤتمر الإسلامي بمكة شأن عظيم معه، كما كان زعماء أندونيسيا .. أحمد سوكارنو^(٢) وزملاؤه من أعضاء الحزب الوطني على صلة شخصية دائمة معه .

الجزائر :

سافر الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري إلى مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٨ م ليعلن وجوب الإصلاح في الجزائر والمساواة بالفرنسيين وإلغاء القوانين الاستثنائية، فنفته الحكومة الفرنسية، وفي باريس كون ((مصالح الحاج)) جمعية ((نجم شمال أفريقيا)) عام ١٩٢٤ م، وتكونت في الجزائر جمعية باسم ((نادي الترقى))، وكان السيد أحمد توفيق المدني زميل الإمام أبي العزائم عليه السلام في الأزهر الشريف، من أبرز العلماء فيها وعلي اتصال وثيق به في مصر، فتكونت جمعية المسلمين الجزائريين التي قاومت البدع والضلالات وألغيت المبعشرين

(١) كتاب "الإسلام نسب" للإمام أبي العزائم طبعة عام ١٩١٤.

(٢) ١٩٧٠-١٩٠١ .. سياسي أندونيسي أعلن استقلال بلاده عن هولندا ١٩٤٥، وكان رئيس الجمهورية عن الفترة "١٩٤٥-١٩٦٧.

والمستعمرين، وعملت على إحياء الثقافة الدينية الصحيحة، وكان أثر هذه القوة الدينية واضحاً في الأراضي الجزائرية، ثم تقدمت الجمعية ببرنامج حافل مؤداه أن الجزائر بلادنا والعربية لغتنا والإسلام ديننا، وطالبت بإعادة الأراضي المغتصبة وبانسحاب الجيوش المحتلة، ولم تخمد هذه الصيحة حتى انتقل الإمام أبي العزائم عليه السلام عام ١٩٣٧ م، وكان يغذيها دائماً بعلومه ومؤلفاته، واتحدت ((جماعة الخلافة الإسلامية)) بمصر بجمعية ((علماء الجزائر)) فتوحدت جهودهما كهيئة واحدة حال انعقاد المؤتمر الإسلامي للخلافة في يونيو ١٩٢٦ بمكة المكرمة .

الثورة السورية :

و لم يكن الشام ليسكت على الاحتلال، فمنذ عام ١٩١٨ م وبعد انضمام العرب إلى الإنجليز بقيادة الشريف حسين الذي دخل القدس بجيشه المهلهل في ذبول خيل الجنرال اللني قائد جيوش الحلفاء، ثار الشعب في الشام، فرفض ((يوسف العظمة)) الإنذار الذي وجهه إليه الجنرال الفرنسي غوردوا عام ١٩٢٠ م، وقاد يوسف العظمة وزير الحربية المعركة فاستشهد، وانتهت المعركة بتثبيت أقدام الاحتلال وتمزيق سوريا إلى أقاليم، وكانت بعض ثورات تنبعث لتنتهي، إلى أن كانت ثورة ١٩٢٥ م بقيادة سلطان باشا الأطرش، فدوخ فيها جيوش فرنسا ونالت دمشق فيها تحريماً لا مثيل له هز دويه العالم الإسلامي كله، وخمدت الثورة إلى أن اندلعت من جديد عندما أعلن ثوار فلسطين ثورتهم الكبرى على الصهيونية عام ١٩٣٦ م، وكان الإمام أبو العزائم عليه السلام يبعث لثوار الشام ويقابلهم في داره وفي مواسم الحج، وينبهمهم إلى مواطن الضعف بينهم، وإلي من يتحسسون عليهم ويتظاهرون بتأييدهم، فكان كأنما هو معهم في أرض المعركة.

نص خطاب احتجاج أرسله الإمام لمسيو بريان^(١) في ٣١ مايو ١٩٢٥ م وإلى سفارات الغرب عامة^(٢) حول نفي سمو الأمير محمد بن عبد الكريم .

الشرق حي ينتهز - يا غرب أقصر

>> حكمت أوروبا على دولها بالانحطاط عن أدني مراتب الإنسانية، وإن كان من يجهل الحقيقة الإنسانية وما ترقى إليه من الكمالات يتغني ببراعتهم في اختراع آلات الإبادة وأدوات التدمير، وأن أمثال هؤلاء لا نقيم لهم وزنًا، حكم الغربيون على أنفسهم بأنهم شر على الإنسان من الوحوش الكاسرة بألف دليل ودليل، لأنهم في القرون الوسطي كانوا يعبدون أشياء مخلوقة، فلما انتشر نور العلم على أوروبا بالإسلام من الأندلس خصوصًا على فرنسا بواسطة الإمام ابن رشد الحفيد، أبت نفوسهم أن تقبل الحق وعقولهم أن تتضح لها الحجة، فتركوا دينهم لبيان ابن رشد وحرّموا القابل فجحدوا وألحدوا وقابلوا نعمة الله كفرًا، فنشروا الإلحاد في الشرق على ألسنة من علموهم من الشرقيين في مدارس أوروبا، وكل من قبل منهم هذا الإلحاد حكم على نفسه بالانحطاط، وتلك حجة على أن نفوسهم وعقولهم غير قابلة للحق، سلبت الرحمة من قلوبهم، فهم أضّر على بني الإنسان من السيل الجارف بل ومن النار المسعرة في يوم الزوابع، حصلوا الصناعات فاخترعوا ما يفسد الأخلاق ويهتك الأعراض من مسكرات ومخدرات ومن مجهزات البنج

(١) بريان أريستد "١٨٦٢-١٩٣٢" سياسي فرنسي وخطيب مشهور، تولى رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية عدة مرات، ودعا إلى سياسة التقارب مع ألمانيا، وحصل على جائزة نوبل للسلام ١٩٢٦.

(٢) مجلة المدينة المنورة السنة ١٩ العدد ٤٨ "٢٢ شعبان ١٣٦٦ الموافق ١٩٤٧/٧/١١

القاتلة، وأزياء تجعل الإنسان كالنمر جميل الملبس قبيح الخلق والعمل، ثم اخترعوا من الحديد والنار ما أبادوا به المجتمعات ودمروا به المدن العامرة، انتشروا في الشرق لتفرقة أهله وخروج بعضهم على بعض، فهم شر من يأجوج ومأجوج، وكأن قناة السويس هي سد يأجوج ومأجوج خرقتها المصريون بكيد فرنسا، فكانت خرقاً في الشرق فتح على أهله باب الاستعباد والاستبداد وتمكن القوم من الشرق كما يتمكن الوحش الكاسر من غنم راع نام عنها، قال العربي :

ومن رعي غنمًا في أرض مأسدة ونام عنها .. تولى رعيها الأسد

أيقظ الغرب رحمة المسلمين فشكر للمسلمين صنعهم كما شكر الذئب لمن رباه، عدو دول الاستعباد رجال الشرق الناهضون بالأمم، ولكن جهلت أوروبا أن الشرق كله رجال .. وإنما تعز الأمم بأعمالها متحدة وتذل بتفرقتها .

نفث فرنسا الأمير عبد القادر الجزائري بعد أن قتلت عشرات الألوف من قادة القوم، ولكن أمة الجزائر لم تطفأ نار حميتها وإن توارت عن أعين المغرورين، ثم أعادت صفحة من تاريخها الأسود في الحروب الصليبية فاتحدت مع أسبانيا لتطفيء نور الغيرة ونور الفضيلة فنفت خير رجل في هذا العصر لا صبر لكل مسلم على تحمل نفيه إلى جنوب أفريقيا، وهنا نتنبأ بما يأتي :

ستندم فرنسا على نفي هذا الأمير المحبوب أكثر من ندم الإنجليز على نفي زعيم الأمة المصرية في سيشل، فإن أعمال زعيم الريف التي هزم بها دولتي فرنسا وأسبانيا وأعز بها قومه نقشت على القلوب كالنقش في الحجر، وإن سمو الأمير المحبوب محمد بن عبد الكريم أبقي وراءه في الريف نظراء، وفي المجتمع الشرقي السنة وقلوبًا

وأقلاماً، وأبقي له صحيفة بيضاء ناصعة يحفظها له التاريخ، كما أبقي لفرنسا وأسبانيا صفحة سوداء تنفر العالم الشرقي منهما وإن ذلك لقريب .

تنفي فرنسا زعيم الريف وتقف صفّاً واحداً مع أسبانيا أمام فئة قليلة فترمي القوم بالنار من فوق رؤوسهم ومن كل جهة، ولكن الحق وعد بنصر المظلومين وإن قلوا، ثم تقوم فرنسا فتبيد رجالاً أبوا الضيم، وتدمر مدناً حفظ لها التاريخ شرفاً ومجداً في سوريا وتدعي أنها أم الرحمة !!.

يا أمم الشرق : متي رضيتم بالحياة في هذا الذل ؟ أنتم في زمن رمسيس الذي كان أول جيشه في مصر وآخره في وسط أوروبا، أم في زمن كسري ؟ وقد أذل الروم وطهر الشرق منهم، أم في زمن عصر الإسلام أيام أمير المؤمنين عمر ومن بعده من الخلفاء ؟ أم في زمان الترك أيام الفاتح والقانوني ؟ أم في عصرنا هذا حيث مصطفى باشا كمال^(١) والأمير محمد بن عبد الكريم وسلطان الأطرش ؟.

كفي يا شرق !! فإن القوم تمكنوا من الشرق لا بحديدهم ونارهم وإنما تمكنوا من الشرق بتفرقة الشرقيين وبخروج بعضهم على بعض، وقد آن أن نعيد لنا مجد سلفنا، وإنما نسعد يا قوم بما سعد به سلفنا الصالح بالرجوع إلى أصول ديننا والعمل بفروعه، والله ولي المؤمنين <.

ولما انحرفت تركيا عن جادة الصواب ومالت إلى تقليد أوروبا في مبادئها وهجرت الدين وعادت التقاليد الإسلامية واللغة العربية، كتب الشيخ هذا النداء ونشرته مجلاته والصحف المصرية .

(١) مصطفى كمال أتاتورك الذي ألغى الخلافة الإسلامية.

الدين النصيحة

إلى الأمة التركية الكريمة ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١)

إن المجتمع الشرقي عامة والمسلمين خاصة يعتقدون أنكم البقية الباقية للشرق، يقتدون بأعمالكم وينتظرون الوقت الذي يعيد الله فيه المجد لهم على أيديكم ويجدد بكم ما كان للشرق من مجد وقوة في الدين .

وقد جمع الله لنا في ديننا ما به نيل الخيرين والفوز بالحسنين، قامت على ذلك الحجة ووضحت المحجة، وليس الأمر بمجهول على من نظر نظرة في التاريخ فعلم ما كانت عليه أوروبا قبل الإسلام، وما آلت إليه في عصور رفعة الإسلام وعزته، وما بلغت من الرقي بسبب الأخذ بمبادئ الإسلام الاجتماعية التي من أهمها إعداد العدة ونشر الصناعات والفنون وتعميم التعليم وتقدم الزراعة والتجارة والتحفظ من الأعداء باليقظة .

أخذت أوروبا هذا القسط من الدين الإسلامي، وأهملنا نحن ما أوجبه علينا ربنا من تلك الفضائل، فكانت لهم الدولة علينا، ولكنهم تركوا العقيدة الحقبة التي تجعل المسلم ليس فوقه إلا الله تعالى، تركوا العبادات التي تزكو بها النفوس فتكون نفوساً فاضلة محملة بالرحمة والفضيلة والعدالة وحب الخير لكل ذي كبد رطبة .

يا رجال الترك : الحلال بين والحرام بين، فنحن إذا أيقظنا ظلم أوروبا وطغيانها فتسلطت علينا بما أخذته من ديننا من إعداد العدة ودوام الجهاد وقمنا لرد الظلم عن أنفسنا، فإننا نجدد بعملنا هذا ما أمرنا به ديننا، ولكن الواجب علينا أن لا

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

نتخذ أوربا قدوة لنا فنحبذ عاداتها من الرذائل التي يجرمها الدين و تستقبـحها العقول الكاملة .

نعم : يجب علينا أن ننهض بالأمة بما لا بد لها منه من إعداد العدة وانتشار الصناعات التي بها لا نمكن العدو منا، والمنافسة في التجارات وتعميم التعليم مما هو فضيلة ومكرمة، ونترك المفاسد والرذائل محافظة على أعراضنا وحرصاً على أموالنا وأنفاسنا الغالية ووقاية للأمة المستقبلية .

يا رجال الترك : كيف ترضي تلك النفوس العالية والرؤوس الكبيرة والقلوب القوية والعقول السليمة أن تلقي بالشبيبة في هاوية الخزي بإباحة ما يجرمه الدين وينكره العقل والذوق السليم ؟ إن الرقص في المجتمعات عادة همجية جاهلية اعتادها زنوج أواسط أفريقيا وسكان الغابات في الحبشة، وقد أخذها عنهم الإفرنج، وهؤلاء قوم أسفل من الديكة وأدني من الحمام، لأن الديك يغار على الدجاج من الديكة الأخرى، وإن الذكر من الحمام ليقـتل الآخر إذا وجده قريباً من أنثاه، بل وإن كل أنواع الحيوانات تبلغ بها الغيرة إلى القتال، فكيف تفتح بيوت العهارة في عاصمة الأمة التي هي كعبة المسلمين الآن وينشر عنها أنها مكتب لتعليم الرقص ويؤيدها مدير البوليس ؟ لم يجرم الإسلام على المرأة أن تزاوـل ما لا بد لها منه عند الضرورة من تضميد جروح المجاهدين وعمل اللازم لهم، وفي مساعدة الزوج في مزرعته ومصنعه، ومزاولة البيع والشراء عند الضرورة، ومن صحبة الزوج في السفر والحضر، ومشاركته في أعماله، ومن مشاورة الرجل لزوجته في كل مهامه، ومن قيام المرأة وصية على أولادها وغيرهم، ولكنه يجرم على المرأة أن تغشي أماكن اللهو والخلاعة، أو تجلس في مجتمعات يمثـل فيها ما لا يليق بالشرف وصون العرض، والأولي بالمرأة أن تـلازم عـقـر دارها عند الاستغناء عنها لتزاوـل ما

به نيل الخير لها وللأمة من تربية الأبناء وتعليمهم وعمل ما لا بد منه للحياة الأسرية والمتزلية .

يا رجال الترك : أنا لا أنكر أننا في حاجة شديدة إلى تقليد أوروبا لاستعادة ما فقدناه وما سلبوه منا من علوم وصناعات وفنون، ولكننا في غني عما هم فيه من الإباحة التي تجعلهم أحط من البهائم السائمة .

والإسلام وسع لنا في أن نقوم بواجب الوقت عند المقتضى، لأن العقيدة الإسلامية والعبادة والأخلاق بها نيل السعادة والسيادة في الدنيا وبها الفوز بخيرات الحياة الباقية في الآخرة، وما عدا ذلك مما لا يغير عقيدة ولا عبادة ولا أخلاقاً فأمر مباح .

يا رجال الترك : إن أخبار الإباحة عندكم يجعلها الأعداء سلماً لنيل مطامعهم من الشرق وأهله، ولا يرضيكم أن تتمكنوا الأعداء من إخوانكم المسلمين، والله جل جلاله غيور لدينه وعباده، فتداركوا الأمر بالضرب على أيدي الإباحيين فإنهم قليل، وأعمالهم وصمة عار عامة عليكم وعلي إخوانكم المسلمين .

والله أسأل أن يجمع لكم الكلمة، ويؤيدكم ويعيد بكم مجد سلفنا الصالح إنه مجيب الدعاء << .

الإمام والقضية الفلسطينية

كان الإمام على يقين بما يحاك للعالم الإسلامي من مؤامرات وسوء نية لا تلبث أن تظهر في أي وقت من الأوقات، وكان يعلم أن أعداء الإسلام والمسلمين لن ينسوا حروبهم مع المسلمين والدرس الشديد الذي تحملوه من جراء ذلك .

وإضافة إلى ذلك فإن الإمام كان يري أن الصليبيين إذا كانوا قد أخفقوا منذ العصور الأولى للإسلام في الاستيلاء على فلسطين محتجين ببيت المقدس كعلة، إلا أنهم قد أفادوا من الدروس ما يجعلهم يتفادون الهزيمة . إن واقع العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة، وتحالف الصهيونية العالمية بأموالها الوفيرة إلى جانب القوي الصهيونية الحديثة، تهيء لها الفوز والنجاح في إخماد ما بقي من أنفاس المسلمين . ولذلك فقد وجه الإمام كل ما أوتي من قوة في الدعوة إلى الاتحاد في مواجهة الفرقة والعزلة التي تردت فيها الأمة الإسلامية، وقد نبه الإمام منذ أواخر القرن الماضي وحتى انتقاله إلى جوار ربه، إلى أن خطر الاستعمار يكمن في تحالفه مع الصهيونية العالمية، ولكن لم تكن هناك وحدة عربية وإسلامية تقف في وجه هذا التحالف .

ومنذ فجر هذا القرن، وقبل أن تأخذ مشكلة فلسطين الشكل الذي اتخذته بعد وعد بلفور، بل قبل ذلك بكثير ومنذ بدايات استعمار الشعوب الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر والإمام عليه السلام يحذر من هذه المشكلة .

يقول مستغيثاً برسول الله ﷺ وآله عليهم السلام :

يا رسول الله ودا عممن كل الوجود

جاس أهل الكفر دارا بل طغي أهـل الجحود
أنت يا مولاي أولى بالجميع من الجـود
قد طغي الكفار حتى عززوا كل اليهود
أدرك الأمة أسـرع حققـن كل الوعود

ولا شك أن الإمام كان يعلم بما يجري في أرض فلسطين، وإلا لما أشار إلى أن موسى شاريت اليهودي، يعمل ضابطاً بالجيش العثماني في فلسطين ليمهد لدخول الجيوش الإنجليزية ومعها الكثير من مهاجري اليهود، كما يشير إلى فيلق البغالة بحملة الجنرال النبي في فلسطين وإلى أن قائده هو دافيد بن جوريون الصهيوني الخطير، وهذان إنما كانا يعملان على إثارة الفتن والقتل وتدمير المؤامرات حتى يسهل دخول الجيوش منتصرة انتصاراً رخيصاً .

وكان عليه السلام يبعث بالبرقيات والرسائل إلى كبير روما وإلى قناصل الدول وإلى الصحافة المصرية، وبعث برسائل إلى الملوك والرؤساء العرب والمسلمين يحثهم فيها على الجهاد ويذكرهم بأعمال الاستعمار الاستيطاني في أمريكا وأستراليا وجنوب أفريقيا، ويكشف لهم عن نوايا الصهيونية في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين من الفرات إلى النيل، وكان يقول لهم : إن ما تتعرض له فلسطين اليوم ما هو إلا بداية لما يتعرض له الوطن الإسلامي والعربي كله .

ويقول عليه السلام :

في فلسطين فتنة من رآها قال صغري لكنها نار واصب

ويقول عليه السلام :

وي فلسطين هي البركان بل فتنة عميا تدك الأخضران

ولما قامت ثورتان في فلسطين عامي ١٩٢٠، ١٩٢١ م، خاطب الإمام زعماء العرب وزعماء الدول الإسلامية أن يقفوا بجوار الشعب الفلسطيني ويساندوا قاداته

وعندما أعلن وعد بلفور عام ١٩١٧ م واستولي الإنجليز على فلسطين ليعطوها لليهود لقمة سائغة، يقول الإمام موجهاً الخطاب إلى الشريف حسين بن علي :

>> لعل الشريف حسين بن علي لم يسمع بوعد بلفور بعد، ولعل له العذر، فقد لا يكون قد علم به !! لأن وزير خارجية بريطانيا صرح به على بعد آلاف الأميال !! ولكن ألم يسمع الشريف بأذنيه^(١) ما قاله النبي عام ١٩١٨ م مخاطباً صلاح الدين ؟ لا أظن ذلك، فقد كان يقف بجانبه إن لم يكن خلفه، أفبعد هذا ما زلت يا حسين تثق بوعود وعهود هؤلاء ؟ وهل وفوا بعهودهم ووعودهم لأمثالهم من أمم وشعوب ودول أوربا المسيحية التي تدين بدينهم وتتشاكل معهم في اللغة والآداب ؟ (فبأي حديث بعده يؤمنون)^(٢) ؟!!<<.

(١) بعد أن قام جيش الحسن بن علي العربي المسلم بقتل جنود الحامية التركية وسحل قوادهم في ذيول الخيول وتسليم القائد البريطاني النبي مفاتيح بيت المقدس، وقف النبي متكبراً متجبراً أمام قبر صلاح الدين - وخلفه صغيراً ذليلاً الحسين بن علي ويسمع بأذنيه النبي - يقول لصلاح الدين: اليوم واليوم فقط يا صلاح الدين انتهت الحروب الصليبية، ولم يفهم الخائن المعني لأنه كان فرحاً مسروراً وفكره مشغولاً بالهدية التي في انتظاره من النبي جزاء فعلته، ولكنهم غدروا به ونفوه في جزيرة قبرص حيث مات هناك.

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٥.

وفي أعقاب عام ١٩١٨ م نشرت الحركة الصهيونية صوراً لمشروع هيكل جديد يقام مقام الصخرة المباركة ومطالين بشراء المنطقة المحيطة بحائط المبكى، وعندئذ بادر المسلمون بإنشاء جمعية ((حراس المسجد الأقصى)) .

ولم تهدأ ثورة الإمام، فرغم الحصار الذي ضرب عليه في القاهرة إلا أنه ألهم الشعوب العربية والإسلامية، فكان يبعث بالرسائل إلى الملوك والرؤساء العرب والمسلمين يحثهم فيها على الجهاد ومنع اليهود من تنفيذ مخططهم لأنه سيكون بداية لسلسلة من المخططات الأخرى .

وعندما علم أن بعض أبناء الشعب الفلسطيني، أغرقهم الأسعار الخيالية التي يقدمها اليهود ثمنًا للأراضي الفلسطينية، أصدر فتواه الشهيرة ونشرها على صفحات الجرائد القومية والوطنية بالإضافة إلى مجلاته التي كان يصدرها، كما بعث بها إلى قادة الفكر والزعماء السياسيين، ومؤداه :

إن من باع شيئاً يملكه من أرض فلسطين فقد خرج بذلك عن دين الإسلام ودخل في دين الكفار، مع ما يترتب على ذلك من آثار أسرية واجتماعية وقانونية.

وكان لهذه الفتوي دوي شديد في الأوساط الشعبية والرسمية .

وقد نشرت جريدة الوطنية بعددها رقم ٢٦١ الصادر في يوم الاثنين ٢ ذي القعدة ١٣٤٣هـ الموافق ٢٥ مايو ١٩٢٥ م مقالاً تحت عنوان :

فتوي شرعية بتكفير بائع الأرض والمتوسط ببيعها لليهود

علي إثر زيارة وزير المستعمرات البريطاني لفلسطين بعد زيارة لورد بلفور، رأينا الصحف التي تصدر في فلسطين مجمعة على وصف هول الخطر الذي يتهدد

الفلسطينيين، من بيع أرضهم لليهود، وحملت ولا تزال تحمل على البائعين والوسطاء حملات شديدة، وإن لم تذكر الأسماء لسوء الحظ حتى أن جريدة مرآة الشرق دعت في عددها الأخير إلى مقاطعة التجارة اليهودية والتجار في فلسطين .

وبما أن كتابات الصحف والكتاب وقصائد الشعراء وخطب الخطباء وأقوال الجمعيات والأحزاب والزعماء يعتقدونها الجمهور بأنها سياسية وهي تتسلح بسلاح الوطنية، وبما أن الوطنية والسياسية حديثا عهد في الشرق لهما ما للدين من الحرمة والتأثير على القلوب والنفوس، رأينا الاستعانة بسيف الدين الحنيف فخابرنا بعض أبحار المسلمين في فلسطين كما خابرنا بعضهم في مصر وسألناهم إذا كان الدين الإسلامي يحكم بكفر المسلمين البائعين لأرضهم أو المتوسطين في بيع أرض غيرهم لليهود ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فليفضلوا بإصدار فتوي شرعية في هذا الموضوع .

والحق يقال إننا لم نجد بين العلماء الذين سألناهم الفتوي من يملك الجرأة والغيرة على الإسلام والمسلمين غير إمام المسلمين وحجته في هذا الزمان الحبر الفهامة والبحر العلامة مولانا حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد ماضي أبو العزائم رحمته الله من كبار علماء الإسلام، ورئيس مؤتمر الخلافة الإسلامية الكبرى العامة في مصر، الذي يخضع لسلطانه الروحي سبعون مليوناً من المسلمين في سائر بقاع الأرض على اختلاف اللغات والأجناس والبلاد، والذي وهب ماله ونفسه وأولاده في سبيل الله وسبيل الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها شتائها وجنوبها، وجاهد ولا يزال يجاهد في هذا السبيل القويم، ومقالاته في أمهات صحف مصر والبلاد الإسلامية خير دليل على صدق ما نقوله عن إفاء ذاته الشريفة في مصلحة الإسلام والمسلمين .

ولذلك لما قدمنا له الاستفتاء تفضل بوضع الفتوي الشرعية، فجئنا بها إلى القراء الكرام وسنطبعها على حدة ونوزعها على من يطلبها مجاناً من مسلمي الأرض قاطبة، وإلي القراء نص الاستفتاء والفتوي :

الاستفتاء الشرعي

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الشيخ محمد ماضي أبو العزائم .. نفع الله الإسلام والمسلمين بعلمه وفضله : ما حكم الله ورسوله في اليهود الصهيونيين الذين احتلوا أرض فلسطين بالقوة القاهرة وخدعوا أهلها فابتاعوا عقارهم منهم ليجلوهم عنها ويجعلوها وطناً قومياً لهم ؟ وما حكم من والاهم ووادهم ببيع عقاره لهم ؟ وحكم من أعانهم على شراء هذا العقار بواسطة أو ترغيب أو ترهيب ؟ وحكم من يتودد إليهم بمعاملة أو مجالسة أو مؤانسة ؟ وما الواجب على أهل فلسطين حيال هذا ؟ أفيدونا الجواب ولكم من الله الأجر والثواب .

أيوب صبري

الفتوي الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يفرط في الكتاب من شيء سبحانه وتعالى أكمل لنا ديننا الذي ارتضاه لنا، والصلاة والسلام على من أرسله الله تعالى بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .. وآله وورثته وبعد .

فهذا جواب سؤالك أيها الأخ الغيور لدينه وإخوانه، أيديني الله وإياك بروح منه، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .. أسأله أن يلهمنا الصواب في القول والعمل وأن يهدينا الصراط المستقيم :

إن حكم الله ورسوله على اليهود الذين وفدوا ويفدون على فلسطين لأجل إنشاء وطن قومي يهودي فيها، هو ما بينه العلماء من الحكم على قوم احتلوا محلة قوم مسلمين عنوة، والمتعين على المسلمين وأهل ذمتهم من نصاري العرب أن يعاملوهم معاملة المعتصبين، وقد بين العلماء تلك المعاملة بالتفصيل، وفلسطين وطن لنصاري العرب قبل الفتح الإسلامي، وكانت محتلة بالروم، فأجلاهم المسلمون عنها، وعاهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نصاري فلسطين عهداً يحتم على النصاري أن لا يسكن معهم يهودى، وهذا نص العهد .

روي الإمام ابن جرير الطبري بسنده فقال : حاصر أبو عبيدة بيت المقدس، فطلب من أهله أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعهد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك فقدم، وهذا ما عاهدهم عليه بنصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطي عبد الله : << عمر >> أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلي أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما تعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل الذي على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء

سار مع الروم، ومن شاء رجع مع أهله فإنهم لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .. وعلي ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر .

وبصريح هذا العهد يكون كل نصراي من عرب فلسطين بتودده لليهود أو موالاته لهم أو بيعه أرضاً لهم خائناً للعهد خارجاً عن الذمة يجب على المسلمين عند التمكين أن يجلوه عن فلسطين لخيانته، ويكون كل مسلم والي الصهيونيين أو تودد إليهم مرتدّاً عن الإسلام ؛ وبذلك تحرم عليه زوجته لكفره ووجب علينا أن لا ندفنه في قبور المسلمين ولا نصلي عليه، وكل من يتوسط في بيع العقار من المسلمين أو نصاري العرب لليهود يكون حكمه كحكم البائع .

الأدلة من القرآن

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ { ١٤ } أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ { ١٥ } اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ { ١٦ } لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ^(١) . بين الله لنا في هذه الآية الكريمة الحكم على المسلمين الذين تولوا اليهود وناصرحوهم في عصر رسول الله ﷺ وآله ﷺ وكانوا مسلمين ظاهراً فأخرجهم الله من الإسلام بقوله : (مَا هُمْ مِنْكُمْ) وبين لنا سبحانه

(١) سورة المجادلة آية ١٤-١٧ .

وتعالى أنهم ليسوا من جنس اليهود بقوله : (وَلَا مِنْهُمْ) فلم يشدد القرآن الكريم على قوم كما شدد على من يوالي اليهود في كل أرض .

فكيف يكون التشديد على من يواليهم ويبيع لهم عقاره في أرض بيت المقدس حيث قبله الإسلام الأولي التي حرم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النصراني أن يسكن معهم فيها يهودي بنص العهد المتقدم، فبائع العقار لهم أو المتوسط في بيعه أو الذي يجد في قلبه ميلاً إلى رجل أو امرأة منهم بعد أن احتلوا فلسطين عنوة رضي بما يغضب الله تعالى، وخرج من الدين كما يخرج السهم من الرمية، خصوصاً بعد علمه حكم الله في هذا الحادث .

ومن حكم عليه طمعه أو شهوته فأباح لنفسه ما حرمه الله عليه بآء بما تعهد الله به الموالين لمن حاد الله ورسوله .

ومسلم يزوج ابنته للموالي من المسلمين لمن حاد الله ورسوله وهم اليهود بنص الآية الشريفة أو يصلي عليه إذا مات أو يدفنه في مقابر المسلمين فهو مفارق لما عليه الإجماع، قال تعالى : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ووجب علينا أن نعامله بما قررنا، والأمر دقيق جداً بدليل قوله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(١) وقوله سبحانه : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(١) الآية، فنفي الله الإيمان عن كل متودد لمن حاد الله ورسوله مطلقاً وخصوصاً اليهود، فإن الآية الشريفة نزلت فيهم .

(١) سورة آل عمران آية ٢٨ .

الأدلة من الفقه

معلوم أن العدو المناويء للمسلمين المعلن الحرب عليهم إذا قارب الدروب وجب أن تطلب غرته، فكيف بمن احتل محلتهم طامعاً في أموالهم؟ فإذا لم يقدرُوا فالواجب مقاطعة العدو، فإن الموالي له والمتودد إليه بنوع من أنواع البيع له أو الشراء منه أو مساعدته بيوء بما أوعده الله به من الخلود في النار الذي لا يكون إلا لمن مات كافراً أو من قتل مؤمناً متعمداً .

وفي الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال ﷺ وآله : (لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر : يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله) أخرجه الشيخان والترمذي .

فحكم الله فيمن أتوا قوماً وسعوا في إجلائهم من أرضهم ولا قوة لهم على دفعهم أن يحفظوا أنفسهم من الفتن التي تسلب الإيمان بموالاتهم أو التودد إليهم، فقد ورد في حديث الفتنة أن الرجل يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ولا فتنة أعظم من تلك الفتنة، وقد بين العلماء أحكام من احتل العدو بلدهم بالتفصيل، وهذا مأخوذ مما بينه إمام الأئمة مالك بن أنس في مدونته الكبرى، والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمد ماضي أبو العزائم

صدي الفتويين^(١) الشرعيتين في فلسطين^(٢)

[تلقينا من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله أفندي القلقيلي من كبار علماء المسلمين في فلسطين وصاحب جريدة << الصراط المستقيم >> كتاباً كريماً ضمنه شكر فضيلته وإخوانه العلماء الأجلاء والزعماء وأهل فلسطين قاطبة لحضرة مولانا صاحب الفضيلة العلامة الجليل السيد محمد ماضي أبي العزائم رحمته الله لتفضله بالخدمة الدينية والوطنية التي أسداها للإسلام والعرب في فلسطين بفتواه التي نشرناها، فحجنا بنص الكتاب حرفياً، قال فضيلة الأستاذ القلقيلي :

إلى صاحب الفضيلة أبي العزائم رحمته الله ..

>> لقد كان السلف الصالح من العلماء يصدعون بالحق ويبينون للناس شرع الله لا يخشون في الله لومة لائم، فإذا سألهم سائل عن علم أجابوه، وإذا استهداهم مستهد هدوه، أولئك نجوم الأنام ومصاييح الظلام وحاملوا لواء العلم والقائمون بالحق، أولئك هم عماد الإسلام والعروة الوثقى التي ليس لها انفصام .

ثم خلف من بعدهم خلف وهنوا واستكانوا وجبنوا وهانوا اغتراراً بالدنيا واستماتة في سبيلها وانقياداً لشهواتها، فلم يستطيعوا أن يوضحوا للناس حكم الله في النوازل ووجه الصواب في المشاكل، فاختل نظام الدين واضطرب حبل اليقين، وغدت العامة كالمواشي السائمة هملاً بلا راع وضاللاً بغير داع .

(١) الفتوي الأولى كان للإمام أبي العزائم رضي الله عنه، والثانية كانت للسيد محمد سعيد أفندي الحسيني مفتي لواء غزة.

(٢) جريدة الوطنية، العدد ٢٦٣، ج ٣.

لولا أن الله تكفل بألا يخلي الأرض من قائم بحجته ومبين لشريعته وهاد
خليقته ومقيم لدينه وموضح لسنته، فمنَّ عليهم في كل أمة وكل زمن وكل شعب
برجل أو رجلين يكونان مناراً كمنار الطريق، وأن من هؤلاء الأفاضل الشيخ العالم
الورع أبو العزائم عليه السلام، استفتاه صاحب الوطنية فيمن يبيعون أرضهم من أهل
فلسطين من اليهود أو يكونون وسطاء في ذلك، فبادر الشيخ إلى إفتائه وبيان الحكم
الشرعي في ذلك مفصلاً مبيناً، مدعوماً بالحجة والبرهان من الآيات الكريمة
والأحاديث النبوية والآثار التاريخية بفصاحة وبيان وجرأة، حتى ظهر الحق وتبين
الحكم جلياً لا مرية فيه، فجزاه الله عن أهل فلسطين وعن المسلمين والإسلام
بأفضل ما جازي عالماً جليلاً يصدع بالحق لا يخاف فيه لومة لائم ولا عتو ظالم .
وإني لأرفع إليه شكري وشكر إخواني العلماء خاصة وأهل فلسطين عامة،
وأسأل الله ألا يحرم الإسلام من أمثاله، وألا يخلي الأرض من القائمين بحجة < .

عبد الله القلقيلي

ويسرنا أن نقول أن صحف فلسطين وسوريا والعراق نقلت الفتويين في أوجه
مكان من صفحاتهما، كما أن أئمة المساجد والخطباء والعلماء والمدرسين تكفلوا
بتعميمهما، فإن الأولين كانوا يخطبون المصلين بعد أداء فريضة الجمعة بهما شارحين
معانيهما، والآخرين ضمنوهما دروسهم الدينية التي يلقونها على الجماهير في
المساجد كما جعلوهما محوراً لأحاديثهم في الأندية العامة والبيوت يحرضون
العامة والخاصة على اتباعهما ويحذرونهم من مخالفتهما، والأحزاب السياسية
والجمعيات على اختلاف أغراضها وأديانها ومذاهبها عملت ولا تزال تعمل على
ترسيخهما في الأذهان وتعميمهما في كل مكان .

وقد تعلق الجميع بحب السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام صاحب الفتوي الأولى الكبرى وتمنوا ولا يزالون يرجون أن يشرفهم عن شكرهم العميق، وحبهم لمولانا صاحب السماحة الحسيب النسيب بحر الشريعة الفياض السيد الشريف الحاج محمد سعيد أفندي الحسيني مفتي لواء غزة وصاحب الفتوي الثانية وقد عظم مكبرين شجاعته وإقدامه وتضحيته لما يعرفونه عن حرج موقف علمائهم ولا سيما الموظفين منهم أمام حكومة اليهود بفلسطين إذا ساروا في هذا السبيل .

ومع أن الكتب التي وردتنا لغاية هذه الساعة التي نكتب فيها هذه السطور كلها طافحة شكرًا للإمامين الجليلين الذين أفتيا، فإنها تصف كذلك عمق تأثير الفتويين في النفوس، حتى أن الذين في قلوبهم مرض عاهدوا الله على كتابه وأقسموا أيما الطلاق بخشوع أن لا يبيعوا أرضهم ولا يتوسطوا في بيع أرض غيرهم لليهود، ناهيك بالمتمردين، فكيف بمن كانوا قبل الفتويين محجمين عن البيع والسمسرة لليهود .

وقد شرحنا هذا إلى مولانا السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام عند تشرفنا بزيارته مع حضرة العالم الفاضل الشيخ عبد الله أفندي القلقيلي فتأثر فرحًا وخر ساجدًا لله، فسجد معه جميع الذين كانوا حاضرين مجلسه الوقور، وارتفعت الدعوات بكل ورع من القلوب الأتقياء الصالحين إلى الله القدير أن ينفع المسلمين بالفتويين وأن يديم مولانا السيد محمد ماضي أبا العزائم عليه السلام إمامًا هاديًا وقمرًا مضيئًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا وهاجًا منيرًا، وننتهز هذه الفرصة لنقول : إن مولانا السيد محمد ماضي أبا العزائم عليه السلام أقام مأدبة كبرى لفضيحة الشيخ عبد الله أفندي القلقيلي تكريمًا لشخصه الكريم ولقومه الكرام [..

وكان الإمام على اتصال مستمر بزعماء وقادة الشعب الفلسطيني، فقد بارك المجاهد الوطني الكبير ((عز الدين القسام)) الذي قاد أعظم ثورة في تاريخ فلسطين والتي دوخت بريطانيا، فحشدت لها ثمانين ألف جندي بالإضافة إلى جيش الصهاينة وجيش عرب شرق الأردن بقيادة لورانس، ومع ذلك استطاعت هذه الثورة أن تصمد وأن تنتصر، وظلت ١٧٣ يوماً تحاصر القدس، وينادي الإمام الزعماء والملوك والرؤساء العرب الذين كانوا يثقون في وعود الحليفة بريطانيا وأنها سائرة في حل القضية بالعدل - مبيناً لهم وجهة نظره :

((إن مصلحة بريطانيا تقتضيها أن يكون لها جسم غريب في الوطن الإسلامي، ومصلحة اليهود أن يكون لهم وطن قومي في فلسطين .. فالتقت المصلحتان، فلا يجوز منكم أبداً أن تحاولوا إخماد الثورة بما توجهوه لأبنائكم من نصائح هي ليست بنصائح وإنما هي إضرار بهم وإضرار بمصلحة المسلمين جميعاً، والأولي أن تمدهم بالمال والسلاح والرجال حتى يخلصوا هذا الوطن ويطهروا بيت المقدس من أرجاس الاستعمار والصهيونية على السواء)) .

ويا ليتهم سمعوا النداء أو أخذوا بالنصيحة، فإن النتائج - مهما عظمت فيها الخسائر - ستكون أشرف وأحق مما حدث مؤخراً في اتفاقية غزة - أريحا .. وما حدث بعد ذلك مما يراه المسلمون رأي العين .

الإمام والماسونية

ولقد جاهر الإمام برأيه في الماسونية وهو طالب بكلية دار العلوم في مقالة بجريدة المؤيد^(١)، ثم دوي صوته كثيراً بعد تخرجه والتحاقه بسلك التدريس، ومن المسجد العام ببلدة سواكن بالسودان ترفع صيحاته ويقرع الآذان صوته الحق منبهاً إلى خطر الماسونية وإلى مكامن الصهيونية من خلفها وما تريده للعالم من دمار وفساد وإلحاد، وكانت رسائله إلى أبنائه وأتباعه وأصدقائه وزملائه في مصر تشير دائماً وأبداً إلى خطورة تلك الدعوة .

و كان مريدوه في السودان يكتبون عنه ما يقول ويدونون دروسه في علوم الحكمة وأسرار القرآن الكريم، وفي درس من دروسه مفسراً بعض الآيات التي وردت في بني إسرائيل أيام داود وسليمان عليهما السلام .. فإن الإمام أرجع نشأة الماسونية إلى تمردهم على حكم نبيهم فيقول^(٢):

إن سليمان عليه السلام لم يكن ملكاً محلياً على أورشليم، بل امتد ملكه حتى شمل معظم المعمور من الأرض، وكانت اليهود طائفة امتازت فقط بأنها أمة لها كتاب ولكنهم كانوا مصدر قلق وإثارة في المملكة قديماً كما هم في كل عصر حتى يومنا هذا، وقد اتخذوا من صور وصيدا في فينيقيا مركزاً لهم وتعلموا فيه صناعة الأسلحة والذخائر وبناء السفن، ثم نشروا الفساد وسيطروا على عقول العامة وأكلوا أموالهم بالباطل وعثوا في الأرض فساداً وأرادوا الاستقلال عن المملكة وقتلوا حامية البلاد

(١) أسسها الشيخ على يوسف بالقاهرة سنة ١٨٨٩م، وكان لها تأثير سياسي كبير.

(٢) كتاب "أسرار القرآن" ج ١ ص ٢١٧ للإمام أبي العزائم.

ورجال الجباية عندما طالبوهم بما عليهم من ضرائب، فجرد عليهم سليمان حملة بقيادته وحاصرهم أياماً حتى استسلموا جميعاً، فأسرهم وأحضرهم إلى القدس ووزعهم عبيداً يحرثون ويزرعون أرض الدولة، ووزع الفائض منهم على الأمراء والإقطاعيين والأثرياء كخدم وفعلة وبنائين، والأدلة على ذلك من آيات الكتاب المين في قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ {٣٥} فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ {٣٦} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ^(١)، ومن المعروف أن للإنس شياطين كما للجن، كذلك قوله تعالى في داود : ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ﴾^(٢) ، وقوله سبحانه : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾^(٣)، والحديد إذا ظهر في الأرض ثارت فيها الثورة الصناعية فكانت كذلك الثورة التي شهدتها أوروبا في القرنين الماضيين، وهذا يدل على أن عصر داوود وسليمان كان عصر تقدم حضارة ومدنية وعلوم .

ظل اليهود رقيقاً في القصور وعبيداً في الأراضي إلى ما بعد موت سليمان عليه السلام، وقبل موته عملوا سرّاً على أن تكون لهم اجتماعات سرية يعقدونها فيما بينهم في أمكنة متفق عليها ما لبثت أن تمخضت عنها أول جمعية سرية تبنت على جميع العصور جميع الحركات الهدامة التي ظهرت في العالم إلى العصر الحاضر، وقد أطلقوا على هذه الجمعية اسم << جماعة البنائين الأحرار >> أي << الماسون >>، ولما كان مؤسسوها بنائين، فقد اتخذوا من آلة البناء رمزاً لها وهي

(١) سورة ص آية ٣٥-٣٧.

(٢) سورة سبأ آية ١٠-١١.

(٣) سورة سبأ آية ١٣.

>> المسطارين << وبينما هم يدبرون للقيام بثورة مضادة ضد سليمان إذا بهم يكتشفون موته واقفاً على عصاه في الوقت الذي كان يختاره لعبادته، وما كاد نبأ موته يعلن حتى قاموا يعيشون في الأرض الفساد، فشتتهم ابنه من بعده ومن جاء من أحفاد قرونًا طويلة حتى أطلقوا على هذه القرون << عصور التشتت >> .

هذه هي الماسونية القديمة ونشأتها خلال العصور كما يصورها الإمام، أما الماسونية الحديثة فقد تطورت عنها لكنها تحمل نفس التعاليم وتعمل نفس الأعمال منذ القديم وإن زادت عنها من جهنميات العصر الحديث، وإن من يبحث في التاريخ ليجد لها يداً في جميع القلاقل والثورات والفرق والملل والنحل والمذاهب المنحرفة والآراء الهدامة، فما وجد اليهود في أرض إلا وكانت مرتعاً للفساد والشهوات والبغي والعدوان، يوقعون بين الشعوب البغضاء والشحناء والفرقة ليستفيدوا خيراتهم ويمتصوا دماءهم ويتركوهم كمهاً مهملاً لا حياة فيه ولا غناء عنده .

ولقد ثارت تائفة الماسونية عندما أشار الإمام ذات مرة إلى مرجع لم يكن يعرفه آنذاك إلا نفر أقل من القليل، لقد صدرت في عام ١٩٠٦ م بالولايات المتحدة الأمريكية دائرة المعارف الماسونية وجاء فيها بالحرف الواحد :

((أن يكون كل محفل ماسوني رمزاً لهيكل، وأن يكون كل أستاذ على كرسيه ممثلاً لملك اليهود، وأن يكون كل الماسوني تجسيدا للعامل اليهودي)) .

فاستدعاه حاكم سواكن سير ((جرانفيل)) وطالبه بالمرجع فأشار الإمام بيده إلى صدره قائلاً : هذا هو المرجع، فتعجب الحاضرون، وزاد عجبهم عندما قال لهم

: إنه ليس لديه نسخة من دائرة المعارف الماسونية، وأن منزله تحت أمرهم ليتأكدوا من ذلك، وقال : إن المؤمن يري بنور الله عز وجل .

وبعد أن كان الإمام يسأل أمام الحاكم صار الإمام هو الذي يسأل الحاكم فيقول له : أهذا المطبوع موجوداً أم لا ؟ ويرد الحاكم بالإيجاب . فيعقب الإمام بقوله : إذن ففيم الاستجواب ؟ إنني أتكلم معكم بما تقولون عن أنفسكم .

ويخرج الإمام منتصراً بل ومرهوباً من جانب الإنجليز، ولم يكف عن تنديده بهم، فكانت مجلاته ونشراته تصدر في مصر والعالم الإسلامي كله وهي تندد بالماسونية وتكشف وسائلها ومخططاتها من واقع تصرفات أعضائها ومن أقوال زعمائها وأقطابها في جميع أنحاء العالم .

فالماسونية في نظر الإمام هي : أب للصهيونية وليس العكس كما يقول البعض
— فالصهيونية هي الطفل الوليد والوحيد للماسونية — أما الصهيونية فهي الشاب
الذي سيظهر في فلسطين مقيماً للدولة اليهودية على أشلاء أهلها من العرب.

وبالرغم من تنبيه وإنذار الإمام للزعماء المسلمين والعرب من أخطار الماسونية والصهيونية، وما احتوته الصحف اليومية ومجلاته الأسبوعية فضلاً عن دروسه وخطبه في جميع المناسبات، فإن أحداً لم يعر الموضوع اهتمامه وكأن في آذانهم وقرأ، حتى بعد أن أقام الاستعمار فرعاً للمنظمة الصهيونية العالمية إبان الحرب العالمية الأولى والثانية لتراقب عن قرب تنظيم الهجرة إلى فلسطين، ولتبعث المساعدات المالية والحربية والبشرية إلى اليهود في فلسطين .

ولا يسع القاريء المسلم وهو يطلع على ما كتب الإمام في مجموعة مجلاته خلال أربعين عاماً عن هذا الموضوع بالذات إلا أن يشعر بأنه كان يعيش الأحداث

قبل وقوعها بعشرات السنين، وأنه كان يعلم عن الحركات والمذاهب والاتجاهات السياسية والمذهبية أكثر بكثير مما يعلمه كبار الساسة والمفكرين الذين يقودون ويحكمون والذين يتخيلون أنهم يؤثرون في روح الشعب وكيانه، وليت شعري كيف حال من كانوا يسفّهون رأيه بالأمس عندما رأوا الحق ناصعاً لا لبس فيه، فعرفت حقيقة الماسونية واكتشفت جذور الصهيونية، وهي لا شك مقضي عليها طال الزمن أو قصر .

الإمام والاشتراكية

كان عليه السلام يوالي الاتصال بالمصريين والمسلمين المقيمين ببلاد أوربا، يذكّرهم بقضيتهم، ويحثهم على أن يكونوا قدوة تجذب أهل الغرب إلى الإسلام . كما كان أسلافهم، ومن رسالة له ردًّا على ما بعث به إليه الأستاذ محمد سليمان من سويسرا، حيث كونوا اتحاداً يضم المصريين المغتربين في أنحاء أوربا يقول له :

>> السلام عليك وعلي جميع أولادي عندكم، ممن جذبهم حب الخير للمجتمع الإسلامي الكبير ليكونوا عمالاً مخلصين لله ولرسوله، وللجامعة الإسلامية، فأقبلوا بكليتهم إلى تحصيل الوسائل الفعالة للقيام بالأمة وسد الفراغ الذي مكن غيرنا منها . أكتب إليكم يا أولادي وأنا بين درسي ومحرابي، أتمثلكم فأبتهل إلى الله تعالى أن يجعلكم أنجماً مشرقة تضيء للمجتمع، وأن يحفظكم من المعصية وأسبابها .. تعلمون يا أولادنا أن الجيل الماضي من سلفكم الصالح، ينادونكم أن انهضوا يا أولادنا لتجديد مجدكم، وهبوا لنيل مقصودكم وأن الحاضر من إخوتكم المسلمين ينظرون إليكم بعيون ملؤها الأمل، ويلحظونكم بقلوب ملؤها الحنان والرجاء، وينظرون منكم باكورة تلك النهضة المباركة، حتى تعودوا بذخائر العرفان وكنوز الصناعة والفنون، وأن الجيل المستقبل يسألكم أن تبقوا لهم آثارا يعتدون بها ودعائم يشيدون عليها ..

أولادي، تعلمون أن القلوب معكم، والعقول تفكر فيكم، وأن نفساً من بعدكم عنا عزيز علينا، لولا الآمال التي نعلقها بالله تعالى، وتلك الحقيقة تجعل أنفاسكم أنفس من النفائس . فليقبل كل واحد منكم على ما تميل إليه نفسه من

العلوم والفنون والصناعات . ليكون نابغة فيها، وحسنوا نواياكم في القصد .
واعلموا يا أولادي أن تقوي الله أساس كل رقي . وكل خير في الدنيا والآخرة،
وإني أعلم أن فتن البلاد الأوروبية بالنسبة للأمور المباحة فيها مما حرمه الله، ربما يجعل
الطالب ينسي ما عليه لله سبحانه ولرسوله ﷺ وآله، ولوالديه ولأمته، فليذكر
كل طالب منكم أن الله تعالى معه، وأنه غيور سبحانه . وليحافظ كل المحافظة،
أولاً بالذات على القيام بفرائض الله تعالى وبسنن رسول الله ﷺ وآله، وعلي
الغرض الذي هاجر من أجله، وثانياً على أن يكون مثلاً حسناً يمثل للقوم الذين هو
بينهم، جمال الإسلام عقيدة وعبادة وأخلاقاً ومعاملة، كما كان يفعل أصحاب
رسول الله ﷺ وآله من السلف الصالح، فإن القوم يرسمون صوركم على
قلوبهم ويحكمون على الإسلام بما يتصورونه عليكم .

أولادي، أنتم غرباء، ولكن الأخلاق الإسلامية جعلت المسلم قريباً حيث كان،
مألوفاً حيث حل << .

كان الكاتب الكبير حفني ناصف من أقطاب الوطنيين، فأرضع أولاده لبانها منذ
طفولتهم حتى إذا شبوا اشتركوا في ثورة عام ١٩١٩ اشتراك تضحية وفداء، وكان
حفني ناصف يحرص على سماع تفسير أسرار القرآن من الإمام أبي العزائم رحمته الله،
وقد توثقت بينهما صلة روحية وزار الإمام حفني ناصف في داره وتنبأ لابنته الطفلة
((ملك)) بمستقبل باهر، فكانت شابة من كبريات أدباء مصر طار صيتها إلى
الآفاق ..

وفي أعقاب ثورة ١٩١٩ شخص أبناء حفني ناصف، عصام الدين ومجد
الدين، إلى أوروبا للدراسة . وهناك أسسا جمعية الطلبة المصريين في أوروبا، وكان

عصام الدين سكرتيراً لها في برلين، في حين كان مجد الدين سكرتيراً للجمعية في باريس، وقامت الجمعية بنشاط اجتماعي وسياسي في خدمة القضية العربية المصرية . ولكنها اتجهت إلى اليسار الأوربي مبهورة بالمبادئ الاشتراكية المتطرفة، واعتبرت هذا اليسار هو السند الوحيد لحركة التحرير الوطني في مصر، وذلك بعد التأكد من خداع مبادئ ويلسون . ولما كان سعد زغلول مفاوضاً مصرياً معتدلاً، فإنه من الطبيعي أن تتصادم مبادئ الطلبة اليسارية مع مبادئ الوفد، وقد تزعم عصام الدين وأخوه، حملة ضد سعد ومبدأ المفاوضة، وعقدوا المؤتمرات الطلابية واتهموا الوفد في باريس باتباع سياسة التهاون والتردد، وقابل الوفد هذا الإجراء بمنع مساعداته المادية، فاتجهوا لمصر وانهالت عليهم المساعدات وكونوا فرغاً لهم بالقاهرة، مما أزعج سعد زغلول .

واتصل عصام الدين بالإمام أبي العزائم عليه السلام، في رسالة مطولة أشار فيها إلى موضوع بالغ الأهمية هو : ((العلاقة بين الاشتراكية والإسلام)) يختتمها بقوله : ((وعلي ذلك فليس هناك أي تنافر بين الاشتراكية والإسلام، وإذن فقد كذب الذين يستندون إلى الآية الكريمة ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾^(١) لتشيط همم الطبقة العاملة بحقوقها وتبرير حالة الذين يرثون المال، فيأخذون في إنفاقه على العاهرات وبائعي الخمور متخذين من تركيز الثروة في أيديهم قوة ووسيلة لإتلاف أخلاق الوسط الذي يعيشون فيه ..)) .

(١) سورة الزخرف آية ٣٢.

ويرد الإمام أبو العزائم عليه السلام على الثائر الشاب، الذي اختلط عليه أمر الإسلام كدين وعقيدة، بالاشتراكية كمذهب وفلسفة، فيقول في رسالته التي تقع في اثني عشرة صفحة :

>> ليست الاشتراكية هي الإسلام، وليس الإسلام هو الاشتراكية . .
الاشتراكية فلسفة ومذهب إنساني، من وضع الإنسان الذي لا يبرأ من الخطأ والغرض والطمع، مهما حاول أن يكون قريباً من الصواب، فتلك طبيعته .

أما الإسلام فهو دين سماوي ونظام إلهي، ووضع رباني، فهو أبقي على الدهر وأقرب للعدل، لأنه يأمر بالمساواة وينهي عن البغي والعدوان، لأنه يقوم على التوحيد، ووحدانية الألوهية تمحو الشرك، وأن الشرك والطغيان متلازمان . وليس في رسالة الإسلام أدنى عيب، إنما العيب في المسلمين أنفسهم . وما زال الإسلام على حق بتعاليمه محفوظة في كتاب الله وسنة نبيه، وهو حاكم على المسلمين غير محكوم عليه بأعمالهم . الإسلام يا ولدي قوة الإيمان التي هي بمثابة الوقود، وعمل يحرك الآلات نحو غايتها السامية المرسومة لها .

.. وحقيقة الأوضاع التي تراها الآن في المجتمع الإسلامي الكبير أن الاستعمار في شكله الحديث عمل في أولى مراحلها، على تعميق هوة القديم الموجود أمامه من الشعبية والعصبية في المجتمعات الإسلامية المتفرقة، حيث وجد مجتمعاً إسلامياً ضعيفاً، وعرف الاستعمار أن سر ضعفه يكمن في حزبته وشعوبيته . فلم يكتف بالقديم منها، وإنما أثار نزعات جديدة بين الأمم الإسلامية، لتتسع الهوة الفاصلة بينهم، وتزيد شقة التباعد، فتكون نتيجتها التحاسد والأحقاد، فيحكم بينهم المستعمر بغير ما أنزل الله، ومن أجل هذا المخطط الشيطاني، حمل حملة شديدة على

القيم الإسلامية، وهجم على الدين الإسلامي هجوماً عنيفاً حتى يضعف الوازع الديني لدي الناشئة، ويشكك الأمة في دينها . ثم كانت مرحلته الثانية بالإبقاء على المسلمين وقوداً بشرياً واستغلالاً اقتصادياً، واستعماراً فكرياً، يربطهم بدائرة التبعية الفكرية الغربية، وهذه هي مرحلة توطين الاتجاه الفكري العلماني الغربي، الذي يقضي بفصل الدين عن الدولة، وهو ما طبقته أوروبا الرأسمالية . وبدلاً من أن يعود المسلمون إلى دينهم الذي يضمن لهم العزة والمجد والرفعة ويدرسون سر تأخرهم وجمودهم، راح فريق منهم ومن خيرة شبابهم، يأخون بالمذهب الماركسي، وهو المذهب الذي ينكر الأديان صراحة، ولا يقل عن الاتجاه العلماني عنفاً في محاربته للقيم الإسلامية ..

فمتي يا ولدي يفيق المسلمون، فينظروا إلى ما داسوه بأقدامهم من جواهر التعاليم، متطلعين إلى صخور ورمال لا تؤدي إلى شيء ولم تخلق لهم، لأن الحق تعالي ما اختار المسلمين عبثاً، وإنما اختارهم لرسالة الإنسانية جمعاء فوضع لهم النظام الذي ينفعهم وينفعها . إنني لم أفقد الأمل فيكم بعد، فانهضوا يا بني لرفعة الأمة على دعائم ثابتة وقوية من الأخلاق الفاضلة الإسلامية . والله معكم ..<<....

الإمام ونظرية داروين

روج اليهود لنظرية ((تشارلز داروين)) اليهودي والتي أدت إلى انهيار العقيدة الدينية في الغرب، ونشر الإلحاد .. وأرادوا نشرها في العالم الإسلامي .

والإنسان في معتقد داروين متحول عن خلية هبطت من بعض الكواكب إلى الأرض ثم تمت فيها فكانت حيواناً رديئاً في أبسط شكل، ثم تغيرت الأرض بفعل بعض المؤثرات الطبيعية، فاضطر هذا الحيوان المخلوق لتغيير شكل معيشته، فتبع ذلك تغير في صفاته، ثم استحال مع طول الزمن وكثرة المؤثرات المختلفة إلى أحوال فارق فيها جنسه الأول، ثم ارتقي إلى قرد على مبدأ ((النشوء والارتقاء)) الذي فتنوا به، ثم مرت عليه ملايين السنين فارتقي إلى حيوان آخر هو بين القرد والإنسان بواسطة بينهما، ثم انقرض هذا الحيوان بواسطة دليل عدم العثور عليه في آثار الأحياء . ولعل انقراضه كان على مبدأ ((الانتخاب الطبيعي))، والبقاء للأصلح كما يقولون، ومن ذلك الحيوان الواسطة المفقود ارتقي الإنسان إلى ما هو عليه الآن !!.

وبنوا معتقدهم هذا في خلق الإنسان، بأنه متحول من القرد على أساس مجموعة نظريات هي الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، والنشوء والارتقاء، والمطابقة، وعامل الوراثة .

**الأدلة على بطلان الزعم القائل بأن الإنسان أصله قرد والتي رد بها الإمام
المجدد على هذه النظرية الباطلة هي^(١):**

١- علم التشريح حجة على بطلان هذا المذهب وسخافة القائلين به :

إنك أيها المدعي لتري الفرع أنقص من الأصل بالحس، هذا البغل فرع الحمار والحصان وهو أنقص منه لأنه فقد المبيض (تجويف في الرحم يكون به التوالد) وتري الحيوانات المتولدة من نوعين تفقد كثيراً من حقائقها بالحس، ولكنك أيها الإنسان تري الفرع الذي هو أنت أكمل في الحقائق من الأصل الذي هو القرد، فإننا إذا شرحنا منتصف رأس الإنسان ورأس القرد، نجد في رأس القرد أربع غدد : غدة للسمع لو مست بمفرق لسلب السمع، وغدة للبصر، وغدة للشم، وغدة للذوق . ونري في رأس الإنسان خمس غدد : أربع منها للسمع، والبصر، والشم، والذوق، والخامسة غدة هي خزانة نطق اللسان وهذه مفقودة في القرد، فمن الذي أودع تلك الغدة في رأس الفرع وهي لم تكن موجودة في الأصل !!؟ حتى أن تلك الغدة لو فسدت لخرس اللسان .

والإنسان كما يدعي هذا المضل فرع القرد، وفرع الشيء قد لا يبلغ كماله النوعي إلا بعناية فكيف يزيد عليه !!؟ .

٢- تنوع الحقيقة وصفاً وهيئة أكبر هدم لنظرية داروين :

فالإنسان حيوان إلا أنه :

أ-طويل القامة .

ب- عريض الأظافر .

(١) كتاب "إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين" للإمام أبي العزائم.

ج- ضاحك بالطبع .

والقرد حيوان يفارق الإنسان في الهيئة وبعض الصفات وهذا هو التنوع .

٣- إن المجتمع الإنساني غير عالم الحيوان :

إذا في المجتمع الإنساني نظام وترق، فالإنسان جملة الله بمعاني العلم والحكمة، والعدالة والرحمة، وصاغ الله نفسه من أصفي الجواهر النورانية، وجعله وسطاً، وأيده بروح وقوة منه سبحانه ليدفع ظلم الظالمين، ويكبح جماح النفس الشهوانية والغضبية، ويحفظ الثغور، ويقيم الحدود، ويقطع شأفة ما يضر بالقوة النفسانية كالخمور والمخدرات وما يضر بالأموال كلعب الميسر، وما يضر بالأجسام ويمحو الخلافات الناتجة بسبب الغلو في الدين وأهل الآراء الباطلة .

وليس في عالم الحيوان شيء من ذلك ...

فكيف يكون الفرع أعلي من أصله وهو القرد !!؟

٤- جعل الله الإنسان جوهرة عقد المخلوقات :

خلق الله الإنسان بيديه في أحسن تقويم مبناه ومعناه : أما مبناه فمن كل معادن الأرض، فجمع أركان الوجود الماء والتراب والهواء والنار ذلك هيكله، وأما معناه فقد جمع الله فيه حقائق الوجود سماء وأرضاً، فالإنسان شيطان وأضل، ووحش وأضر، وملك وأفضل .

فسبحان من أظهر عجائب قدرته، وغرائب حكمته، في مبدع بدأ خلقه من سلالة من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

وللعقول أن تحار في الإنسان، فبينما تراه وروحه في ملكوت الله الأعلي
ساجدة، مشرفة على قدس العزة والجبروت، إذا بك تراه في أسفل سافلين، أضل من
الأنعام، بل فوق عالين ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

هذا هو الإنسان الذي خلقه الله ليعمر به ملكه وملكوته، وجعل الأرض له
مقرًا للإقامة، ومستقرًا له بعد الموت، ثم ينشئه النشأة الثانية فيمنحه الملك الكبير .
وقد سخر الله للإنسان كل ما في الملك والمملوكوت، وصرفه تصريف الربوبية في
الملك، لذلك جعل الله الإنسان خليفة عنه في هذا العالم، ووعدده عند الاستقامة
أعظم الكرامة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾^(٢) .

وخلق الله لبني آدم كل ما لا بد لهم منه في حالي الضروري والكمالي، ولا
مانع من أن الله وضع في كل حقيقة كون منها الإنسان علمًا ضروريًا بكل الأشياء
اللازمة لتلك الحقيقة، فما من كائن في الوجود إلا والإنسان محتاج إليه، لا فرق
بين ما في السماوات من أفلاك وغيرها، وما في الأرجاء من المملوكوت، وما في
الأرض من نبات وحيوان وحماة، وما فوق ذلك من جمال المملوكوت، وما في
الجنات من نعيم مقيم، لذلك كانت معرفة الإنسان وعلمه، بينما الحيوان لا يعلم
شيئًا من ذلك كله .

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩.

(٢) سورة الإنسان آية ٢٠.

٥- خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم :

كانت حواء فرعاً، وكان أصلاً لها، وهذا هو السر الذي لأجله خلقت من ضلعه ليحصل منه السكون إليها، والحب منها له، فإن كل فرع يحب أصله، وكل أصل يحب فرعاً، كما يحب الولد والده، والوالد ولده في أصل الفطرة .
فأين هذا من دعوي أن الإنسان أصله قرد ؟.

٦- الإنسان ديني بفطرته :

قال رسول الله ﷺ وآله : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(١) فكأن الإنسان يولد مؤمناً كامل الإيمان لاستثناسه (بألست)^(٢) ومعلوم أن نور الحكمة حظر شهوده على الإنسان إلا بوحى، وقد تفضل الحق سبحانه فأرسل رسله المؤيدين بالمعجزات، فكأن المعجزات في قوة قوله تعالى : ﴿ صدق عبدي هذا وهو رسولي إليكم فاتبعوه ﴾ .

أىكون في الفرع ما ليس في الأصل !!؟

وأين دين القروء أو تدين الحيوان !!؟

والإنسان هو المحجوب بالأدران النفسانية، المبعود بالخطوط الحيوانية، لا يذوق لذة الإيمان، ولا حلاوة الإحسان، بل ويدعوه الغرور إلى الانشغال بالنعم عن المنعم، فإذا أذاقه الله ألم الاحتياج يئس وباع دينه بدنياه، حتى يزكي نفسه بنور التسليم والانقياد ودراسة العلم النافع .

فأين هذه المعاني في الأصل المزعوم !!؟

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والموطأ وأحمد.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

٧- في الإنسان قوي مفارقة :

منها العقل العلمي وهو الذي يستنبط ما يجب فعله من الأفعال الإنسانية،
ويقيس الأشباه والنظائر التي لم يرد بها نص .

ومن تلك القوي أيضاً العقل العلمي وهو الذي يتم به جوهر النفس، وتصير
نفساً طاهرة زكية بالفعل، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب .

تلك القوي التي تدرك المعقولات روح مجردة ليست بجسم، وتلك الروح تبقي بعد
موت البدن لأنها ليست قابلة للفساد، وهي المعنية بقول الله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {٢٧}
ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً {٢٨} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي {٢٩} وَادْخُلِي جَنَّاتِي
﴾^(٢) .

وليس ذلك في القرد أو غيره من الحيوان .

٨- طرق العلم هي الخبر الصادق :

الحس الصحيح، والعقل الكامل، معني قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴾^(٣) . فجعل سبحانه الأسماع للخبر الصادق، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على
مكونها سبحانه، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع
المنعم، ومن تمام الفضل الإلهي إرسال الرسل معلمين للخير دالين عليه .

(١) سورة الحجر أية ٢٩

(٢) سورة الفجر أية ٢٧-٣٠

(٣) سورة النحل أية ٧٨

فأين ذلك في الأصل المزعوم، والجد الموهوم، القرد وأشباهه !!؟

٩- في النوع الإنساني تظهر الصور :

وفي النوع الإنساني تظهر الصور الكاملة والصور الأكمل أمثال الأنبياء والمرسلين، وهم أعلي من الملائكة قدرًا، حتى لقد سجدت الملائكة لآدم عليه السلام، وتميزت رتب البشر من الأنبياء والرسل منهم من كلم الله، ومنهم من أيده بروح القدس، ومنهم من لا يعرفه إلا الله قدرًا ومكانة .

فهل هذا في عالم القردة !!؟

وفي النوع الإنساني وجد عيسي عليه السلام بلا أب، ووجد آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، ووجد الناس جميعًا من أب وأم .

فزعم الضالون أن كل مولود لابد له من والد، وعلي هذا فيما أن يكون ابن زنا وذلك مستحيل عادة وعقلًا ؛ لما أتى به من المعجزات الباهرة .

فهل وجد في عالم القردة الأجداد أمثال هؤلاء الأجداد !!؟

١٠- أنتجت الضرورة العمل والتعاون :

لابد من قانون يحكم العلاقات، وإلا خرب العمران من التقلب في الرذائل والعدوان، والإنسان يحكم على الأبدان، أما تزكية النفوس فذلك لله ومن هنا جاءت الشرائع .

فهل في عالم القردة شريعة !!؟

كما جاءت الشرائع مواكبة لتطور بني آدم عبر العصور مثلاً جاء سيدنا نوح لهدم عبادة الأوثان المتفشية في زمنه، ثم سيدنا لوط لينذرهم عاقبة الفاحشة المنتشرة فيهم، ثم سيدنا صالح ليعلمهم العدل والمساواة وجعل له الناقة آية، ثم سيدنا إبراهيم

ليطهرهم من رجس الشرك ويوجههم إلى الله تعالى، ثم سيدنا موسى عليه السلام، فلما غالوا في الماديّات أرسل سيدنا عيسى عليه السلام ليمحي تلك البدع بما جاءهم به من الحكمة والبيان، كما أرسل سيدنا شعيباً ليعلمهم خلق الوفاء في الكيل والميزان، حتى بعث الله خاتم رسله ﷺ وآله بالقرآن تبياناً لكل شيء من ضروريات وكماليات الإنسان، بل وفضائله النفسانية وكمالاته الروحانية لنيل سعادة الأبد .

فهل مرت مراحل أجيال القردة بمثل هذا التطور أيضاً ؟

كما تطور القرد حتى صار إنساناً !!؟

١١- كل الوجود مراتب يعلو بعضها بعضاً :

لكل الوجود مراتب يعلو بعضها بعضاً، فالنبات وسط بين أنواع المعادن والحيوان، فهي تزيد عن المعادن بالنمو وتنقص عن الحيوان بالحس والحركة، ولأن النبات تصادمه الأجسام الصلبة ويقطع الإنسان منه فلو وهبه الله الحس لكان عذاباً له، فتأمل مراتب الوجود يخدم بعضها بعضاً، ويعلو بعضها بعضاً، والإنسان وحده بحكمة القادر الحكيم هو سيد هذه الكائنات .

فكيف للقرد أن يصل إلى هذا الرقي !!؟

ولم لم يصل غيره من الحيوان لمرتبة أعلي أو أدني !!؟

١٢- ارتقاء النفس في الهيكل :

إن تطور الهيكل من قرد لإنسان، فكيف ارتقت النفس التي في هذا الهيكل بحيث أصبح الإنسان لو تعلقت همته بجهة مما أعد لها في أحسن تقويم أو أسفل سافلين نالها !!؟ فهو إما ملك هائم في جلال ربه، وإما غضوباً كسبع، أو كسولاً

كبقر، أو جزءاً ككلب، أو حقوداً كجمل، أو جامعاً لكل تلك الصفات فيكون شيطاناً مريداً وهو في صورة إنسان .

ومعلوم أن النفس هي اللطيفة النورانية، بل هي أمانه الله المشرقة أنوارها في هيكل الإنسان، يعرفها من عرف نشأته الأولى، وتحقق أن أسفل سافلين مفارق لأعلي عليين، وكيف جمع الله بينهما بقهر واقتدار، وجعل أسفل سافلين يرتقي حتى يخدم بالملائكة المقربين في جوار رب العالمين . وتلك المعاني في الإنسان فقط فلا يدرها الحيوان .

فهل يدرك القرد ذلك !؟

١٣- من أين جاءت القوي المتنوعة في الإنسان وليس لها في القرد وجود !!؟

انظر مثلاً : ﴿ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) .

ثم انظر القوي الغذائية للطفل في بطن أمه، ثم يوهب قوي الحس بأنواعها، ويجعل له قوة الميل فيشتاق قلبه إلى ما يحبه أو يكرهه، ثم يجعل له سبحانه القوة المتخيلة وهي تركيب وتفصل، ثم قوة الميل لما تخيل أو الميل عنه، ثم القوة الناطقة وهي الحقيقة الخاصة للإنسان المميزة له عن بقية أنواع الحيوانات، وهي التي يمكن أن يعقل بها المعقولات، ويميز بين الجميل والقبيح، وبها يحوز الصناعات، ثم يمدده الله بقوة في قلبه يميل بها إلى ما يعقله، ويشتاق إلى أن يتجمل بالحكمة وأسرارها . ومن المعلوم كذلك أن القوي : قوة الشهوة، وقوة الحمية، وقوة الفكر .

فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة، فيحترز بها من الشره، وإماتة الشهوة، ويتحري المصلحة في المأكل والمشروب .

وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة، فيحترز من الجبن والتهور والحسد، ويتحري الاقتصاد في الخوف والغضب .

وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة، حتى يحترز من البله والخبث، ويتحري إصلاح هذه القوي تحصل في الإنسان قوة العدالة قال ﷺ وآله : (أعدي عدوك نفسك التي بين جنبيك)^(١) .

هل ارتقي القرد حتى نال هذه المنازل الرفيعة !!؟

تطلب مؤلفات الإمام الجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم عليه السلام

من مكتبة دار الكتاب الصوفي

تليفون 002 022 3901030

١٤ ش مجلس الشعب

في جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن " .

(١) رواه البهقي في الزهد وله شاهد من حديث أنس

٢ تفسير سورة القدر.

في جانب العقيدة :

- ١- كتاب عقيدة النجاة .
- ٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها.

في جانب العلوم الفقهية:

- ١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ وآله ﷺ.
- ٢- صيام أهل المدينة المنورة.
- ٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

في جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

- ١- سيرة النبي ﷺ وآله ﷺ.
- ٢- وسائل إظهار الحق .

في جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

- ١- النشأة الثانية.
- ٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.
- ٣- الشفاء من مرض التفرقة.
- ٤- الجفر.
- ٥- تحذير الدين من بيع أراضي فلسطين.
- ٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادت.
- ٧- الرد على نظرية دارون.

في جانب الأخوة الإسلامية :

- ١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ وآله.
- ٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

في جانب المناسبات الدينية :

- ١- السراج الوهاج في الإسراء والمعراج
- ٢- بشائر الأخيار في مولد المختار
- ٣- مشارق البيان في فضائل شعبان
- ٤- لبيك اللهم لبيك.

في جانب المسرحيات الدينية :

- ١- محكمة الصلح الكبرى.
- ٢- العالم والتاجر والفلاح.
- ٣- المقتصد والمسرف والفاسد.
- ٤- السياسى والحكيم والغشيم.
- ٥- الصالح واللص والسكرى.

في جانب الصلوات والأدعية :

- ١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.
- ٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية في الصلاة على خير البرية.
- ٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

في جانب التصوف :

- ١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.
- ٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.
- ٣- معارج المقربين.
- ٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.
- ٥- من جوامع الكلم.
- ٦- الطريق إلى الله تعالى.
- ٧- الفرقة الناجية.
- ٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.
- ٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.
- ١٠- مصطلحات الصوفية
- ١١- آداب أل العزائم
- ١٢- دروس تزكية النفوس
- ١٣- موارد أهل الصفا
- ١٤- قبس من المضمون
- ١٥- الصوفية والتصوف

في جانب المواجهيد:

- ١- مواجهيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.
- ٢- المواجهيد العزمية في مواجهة الروضة الحسينية.
- ٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

مراجع الكتاب

أولاً : الكتب :

١- كتب الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام :

- أسرار القرآن .

- أصول الوصول لمعية الرسول .

- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام .

- الإسلام وطن والمسلمون جميعاً أهله .

- الطريق إلى الله .

- تفصيل النشأة الثانية .

- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك .

- دستور السالكين طريق رب العالمين .

- شراب الأرواح من فضل الفتاح .

- صيام أهل المدينة المنورة .

- عقيدة النجاة .

- قبس من المضمون (تحت الطبع) .

- مذكرة المرشدين والمسترشدين .

- معارج المقربين .

- من جوامع الكلم .
- نيل الخيرات بملازمة الصلوات .
- وسائل إظهار الحق .
- ٢- كتب أخرى :
- بحوث ورسائل علمية عن الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام،
- لشيخ الطريقة العزمية السيد محمد علاء الدين ماضي أبي العزائم عليه السلام .
- المواهب الإلهية، لفضيلة الشيخ أحمد سعد العقاد .
- الإمام محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام، حياته، جهاده، آثاره، للأستاذ عبد المنعم محمد شقرف المحامي .
- السر الأعظم، للدكتور مصطفى محمود .

ثانياً : المذكرات :

- مذكرات مخطوطة تحت عنوان ((خاتم الوراثة الحمديين الإمام السيد محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام)) لسماحة السيد عز الدين ماضي أبي العزائم عليه السلام .
- مذكرات مخطوطة تحت عنوان (حياة الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام) لفضيلة العارف بالله الشيخ طاهر محمد مخاريطه .
- مذكرات تحت عنوان (أشرف الغنائم في شرح صلوات الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام) لفضيلة الشيخ أحمد سعد العقاد .
- مذكرات تحت عنوان (حياة الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام في السودان) تحت رعاية وإشراف فضيلة الشيخ سيف الدين محمد أحمد .

- مذكرات تحت عنوان (صفحات مشرقة من حياة الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام) للأستاذ عبد السلام شتا .
- مذكرات تحت عنوان (حياة أبي العزائم عليه السلام) للسيد محمود ابن شقيق الإمام السيد أحمد أبو العزم .
- مذكرات تحت عنوان (دور الإمام أبي العزائم عليه السلام الجهادي) لفضيلة الشيخ زاهر الزغبى .

ثالثاً : الرسائل العلمية :

- رسالة الدكتوراه (منهج التربية عند الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم عليه السلام) إعداد الدكتور محمد يوسف حموده، كلية أصول الدين، القاهرة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
- رسالة الدكتوراه (النثر الصوفي عند كتاب مصر المحدثين ١٩٠٠ - ١٩٤٠ م) إعداد الدكتور أحمد يسري عبد الونيس العزباوى، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، الزقازيق (١٤١١هـ - ١٩٩١ م) .
- رسالة الماجستير (آثار الإمام أبي العزائم عليه السلام الشعرية - دراسة فنية إعداد الباحث سري محمد حسن هاشم الشريف، كلية الآداب، سوهاج (١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م) .
- رسالة الماجستير (الإمام محمد ماضي أبو العزائم عليه السلام ودوره في التصوف الإسلامي) إعداد الباحث محمد السيد المليجي، كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
فاتحة الكتاب	١
تمهيد	٦
النسب الشريف للإمام	٩
الباب الأول : الإمام عليه السلام .. تاريخ ومعالم	١١
تنقلات الإمام خلال فترة عمله بالتدريس	١٧
سبب انتقال الإمام من السودان نهائيًا إلى مصر	٤٢
دور الإمام عليه السلام في السودان	٥١
إقامة الإمام الدائمة بمصر	٥٦
يوم من حياة الإمام	٨١٩
تلقيه عليه السلام عن مشايخ السادة الصوفية	٦٨
كنيته عليه السلام	٧٤
الباب الثاني : الدعوة الإسلامية للإمام عليه السلام	
الإذن ببدء الدعوة	٧٧
بداية إملاء الإمام لمواجيده	٨٠
تأسيس جماعة آل العزائم وانتشارها	٨٢
الأسس التي ربي عليها الإمام السالكين	٩٠
الدستور النظمي للطريق	١١٦
تأسيس الطريقة العزمية	١١٩
دستور فقراء آل العزائم	١٢٢

الباب الثالث : أخلاق الإمام وسيرته وتراثه عليه السلام

- ١٢٥ مقدمة في الأخلاق
- ١٢٩ ما من به الله من نعم على الإمام
- ١٤٢ جملة من أخلاق الإمام
- ١٧٥ سيرة الإمام في مصيفه ببرج البرلس
- ١٨٢ الإمام وزياراته لأولياء الله الصالحين
- ٢٠٣ الكرامة والاستقامة
- ٢١٣ التراث العلمي للإمام (النثري - النظمي)
- ٢٨٠ انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى
- ٢٩٦ الباب الرابع : التجديد الديني في القرن الرابع عشر الهجري
- ٣٠٧ الإمام وتفسير القرآن
- ٣٢٢ الإمام وتفسير الحديث
- ٣٤٧ الإمام وعلم التوحيد
- ٣٥٨ الإمام والنفس البشرية
- ٣٨٥ الإمام وحملات التبشير
- ٤١٢ الإمام والإصلاح الاجتماعي
- ٤١٩ الإمام والتصوف
- ٤٥٩ الإمام وعلم الفقه
- ٤٦٤ الإمام والسماع
- ٤٧٤ الإمام والقصة
- ٤٩١ منهج الإمام في الدعاء

الباب الخامس : الجهاد السياسي والفكري للإمام عليه السلام

- الإمام وثورة ١٩١٩ ٥٠٢
- موقف الإمام من إلغاء الخلافة الإسلامية ٥٢٩
- تأييد الإمام لثورات وحركات الشعوب الإسلامية ٥٥١
- الإمام والقضية الفلسطينية ٥٦١
- الإمام والماسونية ٥٧١
- الإمام والاشتراكية ٥٧٤
- الإمام ونظرية دارون ٥٧٧

٥٨٤

٨٢١

المراجع

الفهرس

تم بحمد الله وتوفيقه